

هُوسِعَتَا
الْعِلْمَتَا الْبِلَاغِيَا

الجزء الخامس

الرحلة المدريسة
والمدرسة السياره
في نهج الهدى

مركز العلوم والثقافة الإسلامية
قسم إحياء التراث الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



موسوعة
العلامة الشيخ محمّد جواد البلاغي

الرحلة المدرسيّة
والمدرسة السيّارة
في نهج الهدى

تحقيق: محمّد الحسّون

الجزء الخامس

المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلاميّة
مركز إحياء التراث الإسلامي



المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلامية

الجزء الخامس
موسوعة العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي
مجموعة من المحققين
إشراف: علي أوسط الناطقي

إعداد: مركز إحياء التراث الإسلامي
الطباعة: مطبعة الباقري
الطبعة الثانية: ١٤٣١ق / ٢٠١٠م
الكمية: ١٠٠٠ نسخة

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

العنوان: قم، ساحة الشهداء، المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلامية

الهاتف: ٢٥١-٧٨٣٢٨٣٣

الفاكس: ٧٨٣٢٨٣٤

ص.ب: ٣٧١٨٥/٣٨٥٨

وب سايت: www.isca.ac.ir

البريد الإلكتروني: nashr@isca.ac.ir

موسوعة العلامة البلاغي / [تحقيق] مجموعة من المحققين: [إعداد] المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلامية، مركز إحياء التراث الإسلامي. - قم: دفتر تليغات إسلامي، پژوهشگاه علوم و فرهنگ اسلامي، ١٣٨٦.
ج ٩

ISBN: 978-964-2636-30-3

ISBN: 978-964-2636-31-0

ISBN: 978-964-2636-32-7

ISBN: 978-964-2636-33-4

ISBN: 978-964-2636-34-1

ISBN: 978-964-2636-35-8

ISBN: 978-964-2636-36-5

ISBN: 978-964-2636-37-2

ISBN: 978-964-2636-38-9

ISBN: 978-964-2636-39-6

فهرستونویسی بر اساس اطلاعات فیما.
کتابنامه.

مندرجات: ج صفر. المدخل، حياة العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي. ج ١-٢. آله الرحمن في تفسير القرآن. ج ٣-٤. الهدى إلى دين المصطفى. ج ٥. الرحلة المدرسية. ج ٦. الرسائل الكلامية. ج ٧. الرسائل الفقهية. ج ٨. رسائل متفرقة. الفهارس العامة. ١. اسلام - مجموعةها. ٢. بلاغي، محمد جواد، ١٢٨٣ - ١٣٥٢ق. ٣. كلام شيعه اماميه - مجموعةها. الف. المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلامية، مركز إحياء التراث الإسلامي. ب. عنوان.

دليل

موسوعة العلامة البلاغي

المدخل

حياة العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي

الجزء الأول والثاني

١. آلاء الرحمن في تفسير القرآن / ج ١ و ٢

الجزء الثالث والرابع

٢. الهدى إلى دين المصطفى / ج ١ و ٢

الجزء الخامس

٣. الرحلة المدرسية والمدرسة السيارة

الجزء السادس = الرسائل الكلامية

٤. أنوار الهدى

٥. البلاغ المبين

٦. مسألة في البداء

٧. التوحيد والتثليث

٨. أعاجيب الأكاذيب

٩. دعوة الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى

١٠. الرد على الوهابية

١١. نسمات الهدى ونفحات المهدي

١٢. نصائح الهدى

الجزء السابع = الرسائل الفقهية

١٣ - ١٧ . العقود المفصلة:

١ . عقد في قاعدة على اليد؛

٢ . عقد في تنجيس المتنجس؛

٣ . عقد في بعض مسائل العلم الإجمالي؛

٤ . عقد في مسألة الصلاة في اللباس المشكوك فيه؛

٥ . عقد في إلزام غير الإمامي بأحكام نحلته .

١٨ . تعليقة على بيع المكاسب

١٩ . رسالة حرمة حلق اللحية

الجزء الثامن

رسائل متفرقة:

٢٠ . رسالة في شأن التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام

٢١ . مراسلاته

٢٢ . شعره

الفهارس العامة

مقدمة التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، سيدنا ونبينا محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة المؤبدة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

وبعد، بين أيدينا أثر آخر من آثار آية الله الإمام المجاهد العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي رحمته الله.

ونحن هنا نشير إلى ماهية هذا الكتاب وأهميته وكل ما يتعلق به عبر نقاط:

الأولى: اسم الكتاب

الرحلة المدرسية والمدرسة السيارة. سمّاه بهذا الاسم المؤلف في ابتداء الكتاب بعد الخطبة وقال: «وبعد، فهذه سوانح موسومة بالرحلة المدرسية والمدرسة السيارة رسمت فوائدها تذكراً للمذكر».

وهو المثبت في الصفحة الأولى وعلى غلاف الطبعتين الأولى والثانية له في أجزاءه الثلاثة.

وقد ذكره بهذا الاسم العلامة السيد محسن الأمين، والشيخ جعفر محبوبية^١.

١. أعيان الشيعة ٤: ٢٥٦؛ ماضي النجف وحاضرها ٢: ٦٣.

علماً بأنّ المصنّف لم يذكر الاسم الكامل لهذا الكتاب في آثاره، بل ذكره بعنوان الرحلة المدرسية في مواضع من آلاء الرحمن^١، كما ذكره بعنوان المدرسة السيّارة في مواضع آخر منه^٢. وذكر القسم الأوّل من الاسم أيضاً في جوابه على أحد الأسئلة الواردة عليه من مدينة تبريز، الموقّعة باسم الحاجّ عبّاس قلي الواعظ الجرندي، التي طُبعت في مجلّة العرفان^٣. وفي رسالته التي أرسلها إلى السيّد نجم الحسن في الهند. وكذلك فعل المحدّث الشيخ عبّاس القميّ (م ١٣٥٩ هـ)^٤، والعلامة الشيخ محمّد علي الأوردبادي في كتابه التراجم؛ إذ ذكرا القسم الأوّل من اسم الكتاب.

إلا أنّ أكثر أصحاب التراجم والسير الذين نسبوا هذا الكتاب للبلاغي ذكروا في اسمه «أو» بدل «الواو» فقالوا: الرحلة المدرسية أو المدرسة السيّارة، كالعلامة آقا بزرگ الطهراني^٥، والأستاذ توفيق الفكيكي المحامي^٦، والأستاذ عليّ الخاقاني^٧، وآية الله السيّد شهاب الدين المرعشي النجفي^٨.

الثانية: تأريخ و مكان تأليفه

ذكر المصنّف ﷺ تأريخ انتهائه من تأليف الجزء الأوّل اليوم السادس من شهر ربيع الأوّل سنة ١٣٤٢، وتمّ طبعه في غرّة شعبان المعظّم من نفس السنة كما أنّه تمّ طبع الجزء الثاني منه ١٥ شوّال ١٣٤٢ والجزء الثالث ٩ ذي القعدة الحرام ١٣٤٤.

١. راجع الموسوعة ج ١، آلاء الرحمن ١: ٣٤ و ٣٦-٣٩ و ٩٦؛ ٢: ٩٠٥، ٩١١.

٢. راجع الموسوعة ج ١، آلاء الرحمن ١: ٢٧٣، ٤٣٥، ٤٤٦؛ ٢: ٥٤٦، ٥٥٣.

٣. مجلّة العرفان، المجلّد ٣٥، الجزء ٨، الصفحة ١٢٤٧.

٤. الكنى والألقاب ٢: ٩٤.

٥. الذريعة ١٠: ١٧٠، الرقم ١٣٣.

٦. في مقدّمته لكتاب الهدى إلى دين المصطفى، ص ١٠، الطبعة الثانية.

٧. شعراء الغريّ ٢: ٤٤٠.

٨. وسيلة المعاد في مناقب شيخنا الأستاذ. راجع الموسوعة، المدخل، ص ٤١٢.

وعلى هذا يكون تأليفه لهذا الكتاب في مدينة النجف الأشرف ما بين سنة ١٣٤٢ - ١٣٤٤ هـ.

وكان من قصده كتابة الجزء الرابع منها أيضاً ولكنه لم يسنح له ذلك؛ إذ يقول في آخر الجزء الثالث: «ونسأل الله أن يوفّقنا للإلهال بيان ذلك على الحكمة في الجزء الرابع»^١.

الثالثة: ماهيته

قال الأستاذ الدكتور توفيق الفكيكي:

فأمّا الرحلة المدرسية، فقد دلت على خياله الواسع الوتّاب، وتفكيره العميق، وذوقه العالي، وأسلوبه الروائي الحديث المبتكر، وقد دارت بحوثه ومحاواراته على لسان جماعة من ذوي النزاهة والرجاحة؛ لتمحيص الحقائق وتنزيه العقائد من خلال الرسائل السماوية وتطوّرها التاريخي، وبخاصة منذ عهد التوراة والزبور والإنجيل والقرآن العظيم، وهو خاتمة الرسائل لهداية البشر، إلى فكرة التوحيد الخالص، بعد أن اجتازت البشرية عبادة الأحجار والأشجار والحيوانات والكواكب والآباء والأمّهات، إلى غير ذلك من صنوف العبادات التي ما أنزل الله بها من سلطان، وإنّما كانت من أثر الطفولة العقلية.

وقد حرّر الإمام البلاغي عليه السلام هذه الفصول الفلسفية العقائدية الدقيقة بقلم العالم التحرير المتمكّن، دون تحيّر وتعصّب وتحامل على أهل الأديان والمذاهب المخالفة، وبلغته سهلة واضحة يفهمها حتى سقيم الفهم. وختمها بخلاصة مهمّة في إثبات أنّ دين الإسلام هو دين الفطرة وشرعية الإنسانية مهما تقدّمت الحياة وارتقت البشرية أو تطوّرت العلم وتجددت المذاهب الفلسفية واختلفت الأجناس، ولا قوّة للمبادئ المادية الإلحادية المظلمة على إطفاء نور الإسلام الساطع الباهر، وفي تعاليم الحنيفية سرّ سعادة الإنسانية المعذّبة^٢.

١. راجع ص ٥٤٨.

٢. راجع الموسوعة، المدخل: ٣٦٩ - ٣٧٠.

وقال عنه العلامة الأوردبادي:

باحث فيها الأديان على أصولها المسلمة عند متحليها، والطقوس المتسالم عليها في العصر الحاضر.

والواقف على فصولها ومباحثها يعرف تزلّعه من العلوم، طبيعته ورياضية وفلسفية ودينية - لا سيما في مجلديه الآخرين - وسعة اطلاعه، وإحاطته، وقوة عارضته. على أنني كنت واقفاً على شطري مهم من تأليفها وطبعها، فكان يكتب الصحيفتين أو الثلاث أو الأربع ويقدمها إلى الطبع من دون سابقة إلى التأليف. وحسبك به دلالة على قوة الحافظة وجودة الطبع، والتبوع في الفن^١.

وقال الأستاذ علي الخاقاني:

ولولم يكن للمترجم له إلا كتاب الرحلة المدرسية لكفاه فخراً، فقد تناول الإسلام فيه على المسيحية وضيق الخناق عليها. ومن المستحيل أن إنساناً أوتي من التعقل والتمييز شيئاً لا يستقرّ بعد قراءته على الحق ولا يعتنق الإسلام بعد هضمه له^٢.
الجزء الأول: خصّصه لمناقشة عبارات كتب المهديين حيث يورد أولاً النصوص الكاملة لهما، ثم يبدأ بنقدها وبيان نقاط ضعفها وركاكتها وكذبها في كثير من الأحيان، ومخالفتها للوقائع التاريخية والجغرافية، مما يفضي إلى القطع بأنها موضوعة، منحولة، لا يمكن الوثوق بها أو حملها على الصحة أو على أنها صادرة من الباري عز وجل.
وذكر في أثناء ذلك النسخ العشر للمهديين وبلغات مختلفة، وذكر أيضاً مواصفات كلّ نسخة وتاريخ ومكان طبوعها.

الجزء الثاني: خصّصه لبيان حقيقة الدين الإسلامي، وتاريخ نشوئه ومراحل تطوره، والحروب الدفاعية التي خاضها رسول الله ﷺ ضدّ المشركين، ودور القرآن الكريم في حياة المسلمين باعتباره المعجزة الخالدة، وكونه في منأى عن التحريف رغم الزمن الطويل الذي مرّ على نزوله، وفي المقابل هناك المهديان اللذان طالتهما يد

١. راجع الموسوعة، المدخل: ٣٥٢-٣٥٣.

٢. شعراء الغري ٢: ٤٣٨.

التحريف وهو ما تمّ إثباته، وغيرها من المواضيع المهمة.

الجزء الثالث: ذكر فيه الأصول الإسلامية الثلاثة: التوحيد، والنبوة، والمعاد. وبعض الأبحاث الكلامية والفلسفية كالجبر والتفويض والحسن والقبح العقليين، وماهية النفس، والجواهر الفردة، والوجوب والإمكان والامتناع، وحدوث المادة وقدمها. وبعض ما يتعلّق بحكمة أعضاء الإنسان والعلة من خلقتها، وعجائب خلقه الحيوان، وما يوجد في السماء والأرض والهواء والبحار من المخلوقات العجيبة.

الرابعة: طبعاته

طبع هذا الكتاب عدّة طبعات:

الطبعة الأولى: في النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، الجزء الأول: غرّة شعبان المعظم ١٣٤٢، والجزء الثاني: ١٥ شوال ١٣٤٢، والجزء الثالث في ٩ ذي القعدة الحرام ١٣٤٤.

وقد كتب في الصفحة الأولى من الأجزاء الثلاثة:

رجاء مؤكّد:

أؤكّد الرجاء ممن له انتقاد أو اعتراض، أو إفادة أو بحث في مطالب هذا الكتاب أن يتلطف بالمكاتبة بما عنده، ويعاون على العلم وطلب الحقيقة. والله خير معين وهو الموفق.

المكاتبة بتوسط المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف.

الطبعة الثانية: في النجف الأشرف أيضاً المطبعة الحيدرية في شهور الربيعين وشعبان من سنة ١٣٤٧. وقد صحّح من جانب المؤلف وزاد فيه بعض زيادات.

قال ﷺ في رسالته التي أرسلها إلى السيّد نجم الحسن أحد علماء الشيعة في الهند: قد أرسلنا... الجزء الأول والثاني من الطبعة الثانية من المدرسة السيّارة وهما مصحّحان، وفي طبعتهما زيادات مهمة.

الطبعة الثالثة: في مطبعة النعمان في مدينة النجف الأشرف، نشر مؤسسة الأعلمي

للمطبوعات الحديثة في مدينة كربلاء المقدّسة سنة ١٣٨٣ هـ، وقد قدّم له مقدّمة وجيزة سماحة حجّة الإسلام السيّد أحمد الحسيني حفظه الله ورعا. وطبعت أيضاً في دار الزهراء عليها السلام للطباعة والنشر في بيروت سنة ١٤١٤ هـ.

الخامسة: ترجمته

ترجم شطر من هذا الكتاب - تجاوز عن الثلث - إلى اللغة الفارسيّة باسم مدرسه سيّاره، ترجمه الشيخ محمد علي العلامة الوحيد الكرمانشاهي وأشار إلى اسمه برمز «ع. و». وطبعت في مدينة النجف الأشرف في مطبعة الغري، سنة ١٣٤٦ - ١٣٤٧ هـ، وفي طهران سنة ١٣٤٦ هـ = ١٥٦ + ١٧٦ + ١٨٠ ص. ثمّ طبعت في طهران سنة ١٣٨٣ هـ، نشر مؤسّسة نصر، وقد قدّم لها مقدّمة موجزة سماحة آية الله العظمى السيّد شهاب الدين المرعشي النجفي عليه السلام، وسمّى مقدّمته هذه بدوسيلة المعاد في مناقب شيخنا الأستاذ^١.

وقد تنسب هذه الترجمة إلى البلاغي نفسه. كما يقال أيضاً عليه السلام بنفسه ترجم كتاب أعاجيب الأكاذيب إلى الفارسيّة باسم «شگفت آور دروغ».

ولكن لم يثبت لنا ذلك؛ لما رأيناه على غلاف القسم الأوّل والصفحة الأولى من الطبعة الأولى في مدينة النجف الأشرف، المطبعة الحيدريّة ٢٣ شهر رمضان سنة ١٣٤٦، وقد كتب المترجم بالفارسيّة:

با این که این قسمت ترجمه تحت اللفظ گردیده و بقلم اختیاری بنده نیست، حضرت مصنف هم بقلم مبارک تیبیض نمود و به نظریات خود تصرفاتی فرموده اند. مترجم «ع. و»

وأيضاً كتب:

اعداد تورات از ترجمه «بروس» چاپ لندن نقل می شود. و حسب الامر... سایر جملات ترجمه تحت اللفظ گردیده. بقلم اختیاری بنده نیست.

مترجم «ع. و»

١. راجع: معجم المطبوعات النجفية، ص ١١٨؛ فهرست مشار، الفارسي ٤: ٤٦٦٠؛ معجم التراث الكلامي ٥: ٧٥. وهذه الترجمة يتضمّن ترجمة الجزء الأوّل من الرحلة المدرسيّة ويسير من الجزء الثاني.

فمن ذلك كَلَّه يعلم أَنَّ المترجم هو «ع. و» ولكنَّ العلامَة البلاغي لاحظ هذه الترجمة وتصرّف فيها بعض التصرفات. والله هو العالم بحقائق الأمور.

وقام بترجمته إلى الفارسيّة أيضاً السيّد محمّدتقي الواحدي مدير مجلّة دعوت إسلامي في كرمانشاه وطبعت تباعاً في عدّة أعداد من المجلّة سنتي ١٣٤٦ و١٣٤٧ هـ. وطبعت مرّة أخرى مستقلة.

وتُرجم إلى الأوردو، وطُبع في مجلّة واعظ لكنهي^١.

وكان العلامَة البلاغي ﷺ يتمنّى أن يُترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنكليزيّة؛ لكي يطلع عليه المسيحيّون في أوربا.

السادسة: منهجيّة التحقيق

كان الاعتماد في تحقيقه على طبعته الثانية المطبوعة في المطبعة الحيدريّة في النجف الأشرف، في شهور الربيعين وشعبان سنة ١٣٤٧، والتي صحّحها المؤلّف وزاد فيها بعض الزيادات، وكان المنهج في التحقيق مايلي:

١. تخريج الآيات القرآنيّة الكريمة وضبطها بالحركات، علماً بأنّ المصنّف قد أشار إلى أرقام بعضها في متن الكتاب. وأصلحنا بعض الأخطأ الواردة في المطبوعة دون الإشارة إلى ذلك في الهامش.

٢. تخريج عبارات كتب العهدين - القديم والجديد - وضبطها ومقابلتها مع الطبعة المتوفّرة لدينا، والمطبوعة في بيروت سنة ١٨٧٠م، وعدم الإشارة للاختلافات الواردة فيها التي منشؤها اختلاف المترجمين للنصوص.

علماً بأنّ المصنّف ﷺ تارةً يذكر اسم السّفَر والأصْحاح والعدد، فنتركه كما هو دون أيّ تغيير، إلا إذا كان فيه خطأ فنُصلحه دون الإشارة إلى ذلك. وتارةً أخرى يذكر اسم السّفَر فقط، فنُكمل استخراجَه بذكر الأصْحاح والعدد في الهامش.

٣. تعليقات المصنّف في الهامش ميّزناها عن غيرها بإضافة عبارة «منه» في آخرها.

٤. الاستخراجات التي وضعها المصنّف في المتن أقيمت كما هي، وقمنا بتخريجها من الطبعات الجديدة، وأثبتناها في الهامش.

كما أنّ المصنّف قد أحال وأرجع إلى بعض مؤلفاته الأخرى، فخرّجناها وأرجعناها إلى مواضعها في مجلّدات الموسوعة هذه.

وفي الختام نتقدّم بالشكر إلى الأستاذ الشيخ محمّد الحسون الذي قام بمهمّة تحقيقه وتنقيحه، وإلى كلّ من ساهم معنا في إخراجه إلى عالم النور.

والحمد لله ربّ العالمين أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

علي أوسط الناطقي

قم المقدّسة - إيران، محرّم الحرام سنة ١٤٢٨

الجزء الأوّل

[بحوث في التوراة والإنجيل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله بارئ الخلق، الهادي إلى الحق، الموفق للصواب. نحمده ونشكره ونوحدّه ونستعين به، ونسأله النجاة من زلل الأهواء وتيه الضلال وعمى التقليد.

وبعد، فهذه سوانح موسومة بالرحلة المدرسية والمدرسة السيارة رسمت فوائدها تذكرةً للمذكّر، خيلت فيها أنّي عمانوئيل^١ بن أليعازر^٢، وقد علينا قس، فأعددتُ قدومه غنيمةً لتنوير فكري في المعارف، ورفع الشبهات التي تختلج في ذهني السيار في سياحة الحقائق. فقلت له:

يا سيدي، هل يمكن أن تمنحني من فوائد روحانيتك، وتروّضني في ميدان الحق، وتسمح لي بالعفو في أسئلتِي واللفظ والإرشاد في أجوبتك؟

القس: يا بُني، هذه وظيفة إرساليّتي، ولأجلها سهرتُ الليالي، وبها نلتُ الرواتب والمراتب الدنيويّة، ومنها أرجو الجلوس على مائدة المسيح في اليوم الأخير.

عمانوئيل: شكراً لك يا سيدي، وأرجو من لطفك سعة الصدر وحسن التحمّل لما يصادف في أسئلتِي ممّا يثقل على سمعك.

القس: سلّ يا عمانوئيل، وقل كلّ ما هو ضروري في بيان الشبهة وموضوع السؤال، ولا تتعدّ إلى جرة الأهواء والمبادئ الفاسدة.

١. عمانوئيل: لفظة عبرانيّة تفسرُها: معنا الله. (منه ﷺ).

٢. أليعازر: لفظة عبرانيّة تفسرُها: الله عون. (منه ﷺ).

عمانوئيل: بارك عليّ يا سيّدي بروحانيتك لئلاّ تحملني الأهواء على جرأة الضلال ومعاداة الحقّ.

القسّ: روح القدس يحلّ عليك يا بُنيّ، ويأخذ بيدك إلى الصواب ويلهمك الحقّ. أليعازر: يا بُنيّ، مالك لا تجري على رسوم الآداب وحقوق الخطاب؟! أسفاً على تعبي في تعليمك.

عمانوئيل: لقد أدهشتني يا والدي في هذا التوبيخ، وإنّي لأحسّ من نفسي تقصيراً، وإنّك قد جرّبتني في أحوالي، وعرفت أنّي حسب استطاعتي ومبلغ توفّيقتي ومعرفتي لا أظلم أحداً حقّه ولا أحمّد عن جادة الآداب، فكيف أقصّر في احترام سيّدي القسّ، فأنقذني يا والدي من ورطة القصور.

أليعازر: يا ولدي، مثل هذا الرجل الكبير لا يليق بمقام روحانيته إلاّ أن تخاطبه بقولك: أيها الأب، كما هو الرسم الجاري عند المسيحيّين، أفلا تنظر في الجرائد والمجلاّت والكتب قولهم: الأب فلان، الأب فلان، الآباء اليسوعيّون. ولك العذر؛ فإنّ جلوسك مع المسلمين قد ضيّع عليك رسوم الديانة المسيحيّة وآدابها.

عمانوئيل: يا والدي الرؤوف الحريص على نجاتي وتقواي، إنّك لا زلت تأمرني بالتمسك بالكتاب المقدّس وآداب الإنجيل، فهل ترضى لديانتي وتقواي أن أخالف الإنجيل والمسيح، وأرتكب أمراً نهى عنه المسيح كنهيه عن الشرك بالله؟

أليعازر: ما هذا يا ولدي! فهل عندك شيء جديد خفي على أجيال المسيحيّين؟! مع أنّك تستند له بالإنجيل، إنّ هذا شيء عجيب غريب.

[التسمية بالأب عند النصارى]

عمانوئيل: أيها الوالد الرؤوف، قد جاء في العدد التاسع من الأصحاح الثالث والعشرين من إنجيل متى، في خطاب المسيح للجموع وتلاميذه قوله: «لا تدعوا لكم على الأرض أباً فإنّ أباكم واحد وهو الذي في السماوات».

أليعازر: ما تقول أنت أيها الأب فيما أتى به عمانوئيل من الغرائب في الدين المسيحي؟

القسّ: يا أليعازر، قد فتحَ نجلك الموقّ عمانوئيل كنز هذه الحقيقة التي اضطهدها قومنا بالإخفاء رغماً على هتاف الكتاب المقدّس بها، وإني لا زلت أتجرّع من هذا الخطاب غُصص الأذى، ويعنني من النهي عنه خوفاً من إخواني الروحانيين؛ لأجل حرصهم على فخفة هذا اللقب الذي أبان الإنجيل ضلاله الساري من عوائد الأمم الوثنيّة، وقد ألبأتني معرفة نجلك الموقّ وحرّيته من أسر التقليد الأعمى إلى أن أبوح لك بسرّي، فلا تخاطبني يا أليعازر بعد هذا بقولك: أيّها الأب.

أليعازر: يا سيدي، إذا كنت ترى في ولدي معرفةً وحرّيّة ضمير، فتلطّف عليّ وعليه بتعليمه وإرشاده فيما يسأل، ولكّ بذلك عظيم الأجر، وقد وهبته لخدمة روحانيتك. عمانوئيل: لازال القسّ يبتدئي بالتعليم ويجاملني بالجواب، فجرى يوماً في مجلس حافل ذكرُ تاريخ العالم والخليقة، فأخذ فيه كلّ واحد طرفاً حسبما سمعه من الأهواء الجديدة، فصعب عليّ ذلك في ديانتي وقلت:

اسمحوالي أيّها السادة بالاستفسار عن هذه الأمور حسب أصولنا المعقولة المحكمة عند الإلهيين، وأما الذي تخوضون فيه فإنه يحتاج إلى تمهيد أصول معقولة على أساس رصين، لا يرجع إلى تقليد وطفرة وراء الأهواء المعرّقة عن الوصول إلى الحقائق المنزهة. الحاضرون: حقّاً تقول، فاستفسر كيف شئت.

عمانوئيل: يا سيّدنا القسّ، أفدنا شيئاً من تاريخ الكتاب المقدّس في الخليقة.

القسّ: هل عندك نسخة من التوراة أو نسخ متعدّدة؟

عمانوئيل: نعم، عندي نُسخ عبرانيّة وعربيّة وغير ذلك.

القسّ: أحضرها واقراً من أوّل التوراة في سفر التكوين.

[نسبة الاستراحة إلى الله تعالى في التوراة]

عمانوئيل: فقرأتُ حتّى بلغتُ الفصل الثاني من سفر التكوين فوجدتُ في العدد الثاني والثالث منه أنّ الله جلّ شأنه:

استراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقَدّسه لأنّه استراح فيه من جميع عمله الذي عمله.

فقلت: يا سيدي القس، هل يتعب الله في خلقه لكي يستريح إذا فرغ، فما بال التوراة لا تراعي جلال الله وتتجنّب التعبير السخيف في نسبة الاستراحة إلى الله؟
القس: هذا تسامح في التعبير ليس فيه كبير ضرر، وإنك ستلاقي من التوراة شيئاً كثيراً ممّا هو أوحش من هذه العبارة، فإن كنتَ تضجر من مثل هذا فما حالك إذا قرأت الكثير ممّا هو أوحش وأوحش، يا عمانوئيل روض ذهنك على التحمل وعدم النفرة.

جمعيّة [كتاب] الهداية والتوراة

عمانوئيل: سمعاً لأمرِك يا سيدي، ولكن عندي سؤال آخر يرتبط بقول التوراة: «وبارك الله اليوم السابع وقَدّسه»، وهو أن جمعيّة كتاب الهداية المطبوع بمعرفة المرسلين الأمريكيّان قد كتبت في الجزء الرابع في صحيفة ١٧٤ في سطر ٤: إن الله لم يقل في التوراة: «وبارك الله اليوم السابع وقَدّسه»، فكيف يكون هذا الإنكار من جماعة من المرسلين المبشرين الداعين إلى الهدى واجتناب الكذب؟! وكيف يكتبون هذا ويطبعونه وينشرونه في العالم؟! هل يظنون أنّ الناس لا ينظرون في العدد الثالث من الفصل الثاني من سفر التكوين؟ أما إنهم جنوا على روحانيّة المسيحيّين جنابيّة عظيمةً.

القس: لا يعزّك اسم الجمعيّة الرسوليّة، فإنّا من هاهنا أتينا، اقرأ.

عدن، ودجلة، والفرات

عمانوئيل: فقرأتُ في العدد الثامن إلى الخامس عشر وحاصل ما قرأته هو: أنّ الله خلق آدم وغرس جنةً بعدن شرقاً ووضع آدم فيها، وأُنبِت في وسطها شجرة الحياة وشجرة معرفة الحسن والقيبح، وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة وينقسم إلى أربعة أنهر: فيشون، وجيحون، وجداقل «أي دجلة»، والفرات. فقلت: يا سيدي القس، هل تسمح لي بأن أسألك عن هذا المكتوب؟

القس: سَلِّ ما تشاء.

عمانوئيل: عدن المذكورة هنا، وفي كتاب إشعيا في العدد الثالث من الأصحاح الحادي والخمسين، وفي كتاب حزقيال في العدد التاسع من الأصحاح الحادي والثلاثين، وفي كتاب يوثيل في العدد الثالث من الأصحاح الثاني، هل هي عدن المعروفة في أرض اليمن على بוגاز باب المنذب؟
القس: الظاهر أنها هي.

عمانوئيل: يا سيدي، دجلة التي تخرج من جبال أرمينية وتصب في خليج فارس قريب البصرة، والفرات الذي يخرج من بلاد أرضروم ويصب في خليج فارس أيضاً، كيف يصح أن يقال: إنهما يخرجان من عدن؟ وكيف يتجه ذلك في المحسوس من جغرافية البلاد والأنهار المذكورة؟!

القس: حقاً نقول، ولكن لا بد من إعمال النظر والفكر لحل هذا المشكل، وكيف نقدر أن نقول: إن هذا المذكور في التوراة غلط، ولا نقدر أن نقول: إنه صحيح، اقرأ يا عزيزي.

نهي آدم عن الشجرة والكذب، والحياة والصدق

عمانوئيل: فقرأت من حيث انتهيت حتى وصلت إلى العدد الثامن من الفصل الثالث من سفر التكوين وإذا فيه ما حاصله:

إن الله جعل آدم في جنة عدن وقال له: من جميع شجر الجنة تأكل، وأما شجرة معرفة الحسن والقيبح فلا تأكل منها؛ لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت. ثم خلق الله من آدم امرأته حواء، وكانا عربيانين وهما لا يخجلان؛ لأنه ليس لهما شعور معرفة الحسن والقيبح، وكانت الحية أحيل حيوانات البرية فقالت لحواء: أحققاً قال الله: لا تأكل من كل شجر الجنة؟ فقالت حواء: من شجر الجنة تأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكل منه ولا تمسأه؛ لئلا تموتا فقالت الحية للمرأة: لا تموتان، بل إن الله عالم أنه يوم تأكلان منه تفتح أعينكما وتكونان كالله عارفي الحسن والقيبح. فلما أكلا

منه انفتحت أعينهما - أي حصل لهما شعور المعرفة - وعرفا أنّهما عريانان، فصنعا لأنفسهما مآزر.

ولما انتهيتُ إلى هنا أطبقتُ التوراة متضجّراً ووضعتها على الأرض مبهوتاً، قد أخذتني الحيرة التي كانت تعتريني كلّما قرأتُ هذه الكلمات المهولة.

القس: مالك يا عزيزي لا تقرّأ؟ ما لي أراك مبهوتاً؟!

عمانوئيل: هل تسمح لي أن أسأل بحرّيّة مطلقّة؟ فإنّي أعدّ حضورى بحضرتك غنيمةً لاستفاداتي، ولمداواة علل الشكوك التي شغلت فكري وأتعبته منذ زمان طويل.

إنّي بحسب ديانتى أعتبر هذه التوراة كتاب الله الذي جاء به رسوله موسى ﷺ، وحينما يقع نظري فيها على كثير من مضامينها المقلقة تقوم قيامتي في الحيرة.

أليعازر: يا قليل الإيمان، هل يكون في كتاب الله شكٌ وحيرة؟! أسفاً عليّ، إنّي تركتك تُجالس بعض المسلمين وتنظر في كتبهم، فإنّ هذا هو الذي كدّر عليك موارد الإيمان التي صفّاه لك السلف.

عمانوئيل: أيّها السيّد الوالد، إنّي كنتُ في طفولتي أتناقل من الذهاب إلى المكتب، فكنتُ أنتُ تُويّخني على التناقل وتقول لي: ويليك أتريد أن تبقى غيباً.

فلو أنّك يا والدي تركتني على حالي لكى أعيش على بسيط الإيمان وتقليد السلف، لأعرف ما في الكتب ولا أدرس من العلم شيئاً، أو تركتني أذهب إلى مكاتب الطبيعيات فلا ألتفت إلى الدين ومعارفه، وأمّا إذا انفتحت عيني فاسمح لي يا والدي الرؤوف بأن أتبصّر في الحقائق.

القس: يا عزيزي أليعازر، إنّ الشكوك لا يحسن أن تقابلها بالتوبيخ، بل الواجب مداواتها بالبيان الشافي وإزاحة علّتها بالبحث عن الحقيقة، فدع عمانوئيل يبحث عن الحقائق؛ ليكون إيمانه على أساس ثابت تقرّ به عينك.

عمانوئيل: أيّها الوالد، إنّ توبيخك لي يبيّن أنّك قد أحسست قبلي أنّ فيما قرأناه معركة شكوك، فشاركني يا والدي في استيضاح الحقائق؛ فإنّ الحقيقة بنت البحث.

أليعازر: تكلم يا ولدي بما تريد، وإيّاك واللجاج في العناد.

هل عند الله جَلَّ شأنه كذب و غشّ؟

عمانوئيل: هل عند الله جَلَّ شأنه كذب و غشّ و خداع؟

القسّ: حاشا وكلا.

عمانوئيل: كيف يقول الله لآدم: «وأما شجرة معرفة الحسن والقبیح فلا تأكل منها؛ لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت»^١ وقد أكل آدم من الشجرة فلم يموت؟! وكيف لا يكون هذا الكلام من التوراة كذباً على الله و افتراءً؟!

فهل يرضى سيدي القسّ وسيدي الوالد أن تكون الحيّة أصدق من الله؛ فإنّ التوراة تقول:

إِنَّ الْحَيَّةَ قَالَتْ لِحَوَاءَ: لا تموتان موتاً بل يعلم الله أنه بيوم أكلكما من الشجرة تفتح أعينكما وتكونان كالله عارفيّ الحسن والقبیح؟
والتوراة أيضاً تبين صدق الحيّة وحسن نصيحته وتقول: لما أكل آدم وحواء من الشجرة «انفتحت أعينهما وعلمتا أنّهما عريانان»^٢.

يا سادتي، فماذا نقول لمن يقول لنا: إنّ توراتكم تنسب إلى الله منقصة الكذب والخديعة، وتنسب إلى الحيّة فضيلة النصيحة والصدق؟

يا سادتي، وإنّ رؤيا يوحنا تذكر في العدد التاسع من الأصحاح الثاني عشر: أنّ «الحيّة القديمة هو المدعوّ إبليس والشيطان الذي يُضِلُّ العالم» فوافضحتاه يا سادتي.

القسّ: الموت الذي خوّف الله به آدم ليس هو الموت الجسماني، بل هو الموت الروحي، فإنّ آدم لمّا تعدّى الوصيّة استوجب سخط خالقه، وهذا هو الموت الروحي.
عمانوئيل: يا سيدي، قد رأيتُ هذا الكلام في كتاب جمعيّة الهداية المطبوع بمعرفة المرسلين الأمريكيان في الجزء الثاني صحيفة ١٣١ ولكن نفس التوراة تبين غلط هذا الاعتذار البارد، فإنّها تقول: إنّ آدم قبل أكله من الشجرة كان لا يعرف الحسن والقبیح

حَتَّى أَنَّهُ لَا يَمَيِّزُ أَنَّهُ عَرِيَانٌ وَلَا يَخْجَلُ^١. فليس له حينئذٍ حياةٌ روحية، بل إنَّ ذلك همجيةٌ وموتٌ روحي. وإنَّ مَنْ يكون على مثل هذا الحال لا يدرك قبح المخالفة ولا يصحُّ السخَطُ عليه، وكيف يصحُّ السخَطُ على مَنْ لا يعرف الحسن لكي يعرف حسن الطاعة ويرغب فيها، ولا يعرف القبيح والشرَّ لكي يعرف قبح المخالفة للوصية؟! يا سيدي، بل مقتضى التوراة أنَّ أكل آدم من الشجرة أوجب له الحياة الروحية، حيث صار كالله عارف الحسن والقبيح والخير والشرِّ، وصار قابلاً بمعرفته لأن يشرق في قلبه نور العرفان والإيمان والرغبة في الطاعة. فالعفو يا سيدي من هذا الجواب الساقط، وإني واثق بأنك تعرف غلظه، ولكن لك في ذكره غرض لم أعرفه عاجلاً، وباليئني عرفته.

القَسُّ: حقاً تقول، ولكن يمكن أن يكون معنى قوله: «موتاً تموت» إنَّه يصير ممَّن يعرض عليه الموت ولا يبقى خالداً، وإنَّ أكله من الشجرة يغرس في جسمه بذور الموت ويجعله مستعداً لأسباب الفناء، ومثل هذا التعبير جائز في الكلام.

عمانوثيل: يا سيدي، وهذا الجواب أيضاً لجمعية كتاب الهداية، وأنَّ نفس التوراة أيضاً تبين غلظه، فإنها توضح أنَّ آدم لم يُخلَق للبقاء، بل قد وقعت المحاذرة والتدابير الاحتياطية لئلا يأكل من شجرة الحياة فيعيش إلى الأبد، ولأجل ذلك طُرد من الجنة، وأقيمت الحراسة على شجرة الحياة؛ خوفاً من أن يأكل آدم منها فتدوم حياته، كما ستسمعه، فالتوراة تقول: إنَّ آدم من يوم خُلِقَ قد غرس التقدير في جسمه بذور الفناء. والموت التقديري لازم له ومقدَّر على استعداد طبيعته قبل أكله من الشجرة.

القرآن ميزان الحقِّ

القَسُّ: إنَّ قرآن المسلمين يذكر بعض قصص التوراة، فهل هو يذكر في قصة آدم مثل ما ذكرته التوراة؟

عمانوثيل: يا سيدي، إنَّ القرآن قد كرَّر ذكر هذه القصة على حسب الدواعي

لذكرها، فلم يذكر أنّ الشجرة هي شجرة معرفة الحسن والقيبح، ولم يذكر أنّ آدم قبل أكله منها كان لا يعقل الحسن والقيبح، ولم يذكر أنّ الله خوّفه بالموت.

بل تذكر سورة طه المكيّة في الآية ١١٥ وما بعدها: أنّ الله حدّره من إبليس، وخوّفه بالخروج من نعيم الجنّة والوقوع في شقاء العيش، فإنّ الجنّة له دار نعيم وراحة لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى، بخلاف ما إذا خرج منها^١. «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى»^٢.

وفي سورة الأعراف المكيّة وسوس لهما إبليس «وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ»^٣. «فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ»^٤ وخداع وكذب.

ولم يذكر القرآن أنّ آدم وامرأته كانا قبل ذلك عريانين وهما يعلمان ولا يخجلان؛ لأنّهما ليس لهما شعور يعرفان به الحسن والقيبح، بل ذكر في سورة الأعراف الآية ٢٧ أنّهما قبل ذلك كان عليهما لباس، فنزع عنهما لباسهما وبدت لهما سواتهما^٥. فالقرآن في هذه القصة على ضدّ التوراة ينسب الكذب والخداع إلى الشيطان، وأخرج من القصة كلّ خرافة.

القس: قد رأيت هذا كلّه في القرآن وعرفته.

أليعازر: يا سيدي، إذاً ماذا تقول في هذا الاختلاف بين التوراة والقرآن؟

القس: ما عليك ممّا أقول، دعه كامناً في قلبي، ولعلّما أعرف في بعض الأوقات

١. ونصّها: «وَلَقَدْ عَهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ قَتْسَىٰ وَلمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * قُلْنَا يَتَّادِمُ إِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ» طه (٢٠): ١١٥-١١٩.

٢. طه (٢٠): ١٢٠.

٣. الأعراف (٧): ٢٠.

٤. الأعراف (٧): ٢٢.

٥. ونصّها: «يَسْبِي آدَمَ لَا يَفْتَنُكُمُ الشَّيْطٰنُ كَمَا أٰخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسُهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰنَهُمَا إِنَّهُ يَرَٰنِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ، مِن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطٰنِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» الأعراف (٧): ٢٧.

صفاء أفكارنا فأتكلم.. اقرأ يا عمانوئيل من حيث انتهيت.

الله ليس بجسم ولا يخفى عليه شيء

عمانوئيل: قرأت في الفصل الثالث من التكوين من العدد الثامن إلى الثاني عشر، فوجدت ما حاصله: أن آدم وحواء سمعا صوت الإله متمشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ عن الله في شجر الجنة. فنادى الله آدم أين أنت؟ فقال آدم: سمعتُ صوتك فاختبأت لأتّي عريان. فقال الله: «مَنْ أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة؟».

وحين قرأت هذا أخذتني الحيرة أيضاً وسكتُ مطرّقاً.

أليعازر: أراك قد عاودتك الوسواس الشيطانية يا عمانوئيل، أسفاً على إيمانك. القس: دع هذا الكلام يا أليعازر واترك ولدك يحقق بحرّيته، وماذا يفيد توبيخك وأسفك إذا بقي يتجرّع غصص الشكوك؟ فدعه ييوح بما عنده، فلعلّما يرتاح من علل الشكوك، تكلم يا عمانوئيل.

عمانوئيل: يا سيدي، ألا تسمع كلام التوراة يقول: إن الله جسم يتمشى، وله صوت، ويختبئ عنه آدم، ويقول لآدم: «أين أنت؟ مَنْ أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة؟»^١.

القس: يا بُنيّ هذا كلام نبويّ يُتسامح فيه، ولعلّما أُبين لك أمره في وقت آخر.

عمانوئيل: يا سيدي، هل وظيفة الكلام النبويّ أن يجري على المضامين الخرافية السخيفة وعلى غير المعقول؟! فهل من اللائق بالعلم والأدب وجلال الله وشرف النبوة أن نسامح الكلام النبوي فيما لا نسامح فيه كلام الآدميين؟!

القس: اقرأ من حيث انتهيت يا عمانوئيل، فلعلّما ترتاح بعد هذا من نفس قراءة كتاب الله، وترتفع شكوكك، ويشرق في قلبك نور الإيمان.

الله هو القادر الواحد القهار

عمانوئيل: فقرأتُ في الفصل الثالث من العدد الثاني والعشرين إلى الرابع والعشرين، وفيه: إِنَّ آدَمَ لَمَّا أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ قَالَ اللهُ - جَلَّ شَأْنُهُ -: هُوَ ذَا آدَمَ صَارَ كَوَاحِدٍ مَتَى عَارَفَ الْحَسَنَ وَالْقَبِيحَ وَالآنَ يَمُدُّ يَدَهُ فَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضاً فَيَأْكُلُ وَيُعِيشُ إِلَى الْأَبَدِ. فَأَخْرَجَهُ اللهُ مِنَ الْجَنَّةِ. وَأَقَامَ شَرْقِيَّهَا لَهَيْبِ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ الشَّجَرَةِ.

فلما انتهيتُ إلى هنا وضعتُ التوراة على الكرسي وقيمتُ متضجراً قائلاً: واويلاه، حتّى متى أغيظ سيدي الوالد بالكلام، بل أسكت وليغلّ قلبي بنيرانه، ياليتني لم أكن قرأتُ القس: دع عنك يا عمانوئيل الضجر وتكلّم بما عندك، فأنا ضامن لكّ رضى سيّدك الوالد، فإنّه لا يريد منك الإيمان بالتقليد الأعمى، ولكنّه لأجل اشتغاله بالتجارة، وقلة ممارسته للعلوم، وقلة قراءته الكتاب المقدّس، لم يلتفت إلى مواقع سؤالاتك العلميّة، ويحقّ له بما هو فيه أن يستكثر هذه الاعتراضات الكبيرة على فصلين صغيرين من التوراة، هات ما عندك.

عمانوئيل: اسمح لي بالعدز يا سيدي القسّ ويا سيدي الوالد، فإنّي منذ صرتُ أتلو التوراة بتفهّم وتعقلّ صرتُ أتجرّع عُصص الإشكالات المهولة، ولا أجد من يشفيّ عليّ. ولما سعدتُ بقاء سيدي القسّ رجوتُ أن يكشف عنيّ غمامة الشكوك، فإذا أضغى إليّ بسمعه برههً من الزمان فقد صفا لي الوقت لاستيضاح الحقائق على ناموس الحرّيّة والصواب. ولكن سيدي الوالد يريد أن يكدرّ عليّ هذا الصفاء وأنا لا أريد أن أغيظه، فما هي حيلتي؟

أليعازر: هل تظنّ يا ولدي أنّه يهون عليّ أن تتجرّع الغُصص وتعاني الكروب، ولكّني أخشى أن تكون شكوكك هذه من ضلال الأوهام، بيد أنّي واثق بمراقبة حضرة القسّ لك لكي يردعك عن شطحات الكلام وزيف البحث، فتكلّم.

عمانوئيل: ما هو المعنى المعقول اللائق بجلال الله في التوراة عن قول الله: «هو ذا

آدم صار كواحد منّا في معرفة الحسن والقبيح»؟ من هم الجماعة الذين يعينهم الله بقوله: «منّا»؟ فهل ترى التوراة تعلم بتعدد الآلهة؟ أفلا يقلقني هذا الكلام، مع قول الأصل العبراني هاهنا: «وياًمر يهوه الوهيم» أي إلهه؟!

فإنّ الباء والميم في اللغة العبرانية علامة الجمع، وإنّ مضمون الكلام الذي قرأته من التوراة هو: أنّ الله - جلّت عظمتة - قد خاف من عاقبة آدم إذ صار كواحد من الآلهة، فصار الله يحاذر منه على الجمهوريّة واستقلالها بالسياسة، حتّى أعمل الاحتياطات اللازمة لتلأ يغلبه آدم على شجرة الحياة، فيزيد الخطر والتهديد على المملكة.

يا سيدي، كيف لا أزعج، وهذا حال التوراة التي نعتبرها كلام الله لرسوله موسى؟! القسّ مهلاً يا عمانوئيل، لا تتكلّم بحرارة، فإنّ الله سينور ضميرك بنور الهدى، ولعلّما تتحلّ هذه العقدة من قلبك بسماع كلمتين من الحقيقة حينما يسمح الوقت ببيانها. عمانوئيل: يا والدي، أسألك، بحنوك الأبوي، لو كنت أنت لا تدري بوجود هذه الأمور في التوراة، وجئتك أنا وقلت لك: إنّ بعض الكتب تنسب إلى جلال الله هذه الأمور التي ذكرناها في قصّة آدم، أفلسّت تقول: إنّ هذا كفر من ضلالات الوثنيّة؟ أليعازر: نعم، ولكني مقتنع بأنّ التوراة كلام الله، فاللازم عليّ أن أغضّ النظر عن هذه الأمور. يا عمانوئيل، انظر في قرآن المسلمين، هل تجد فيه ذكراً لهذه الأمور التي اعترضت بها؟

عمانوئيل: قد تصفّحته مراراً فوجدته منزهاً عنها وعن أمثالها، وها هو حاضر في الوجود لكلّ من يقرؤه.

أليعازر: إنّ هذا يكثر منه عجبي.

سرنديب وآدم

عمانوئيل: رأيت في كتب الجغرافيا والتاريخ أنّ في جزيرة سرنديب «سيلان» جبلاً يسمّى بالإنكليزية «أدمس بيك» وأيضاً بين الجزيرة وقارة آسيا صخور عظيمة منتظمة في البحر يتعسّر عبور السفائن ممّا بينها تسمّى بالإنكليزية «أدمس بريدج» فما شأن آدم في ذلك؟

القس: إنَّ المسلمين يذكرون عن تقاليدهم أنَّ آدم أهبط من الجنَّة في جزيرة سرنديب، وعبر منها إلى قارّة آسيا، واسم الجبل والجسر تذكّار تاريخي متسلسل شاهد لما يقوله المسلمون.

عمانوييل: يا سيّدي، إذا لم يطابق ما يقوله المسلمون مع ما تذكره التوراة، فهل يسوغ لي أن أقول: إنَّ أقوال المسلمين خرافيّة؟
القس: لا، لا يسوغ، ولا تقل.

أليعازر: قُم يا ولدي إلى غرفتك وأرح فكريك.

عمانوييل والكتب

عمانوييل: قمتُ متفكراً فيما قاله القس أخيراً وجلستُ بحيثُ أسمع مكالمته والذي مع غبطة القس، فقال:

يا سيّدنا القس، إنَّ حال عمانوييل يقلقني وأمره يربيني، فإنّه زيادة على مجالسته للمسلمين وجدته يوماً وعنده كتاب إظهار الحقّ، وهو يطالعه بالإمعان والرغبة، فسألته عنه فقال: هو كتاب لعالم كبير من المسلمين، فسأني ذلك.

وذاكرتُ بعض الإخوة فقال: اشتر له كتاب هاشم العربي ترجمة مقالات جرجيس سايل مع التذييلات، وكتاب الهداية للجمعيّة المصريّة المسيحيّة المطبوع بمعرفة المرسلين الأمريكيان، وكتاب الرحلة الحجازيّة للشيخ غريب بن الشيخ عجيب، فاشتريتها له وأمرته بمطالعتها. وصرّتُ أترصدّ حاله بمطالعتها فلم أجد منه ابتهاجاً بها، بل وجدته عند مطالعتها يولول ويدمدم في نفسه.

القس: لم يكن من الصالح شراءك له هذه الكتب؛ فإنَّ فيها من التعصّب ومخالفة

١. لرحمة الله بن خليل الرحمن الهندي الدهلوي (م ١٣٠٦هـ) فقيه حنفي كان يعيش في مكّة المكرّمة. وهو عبارة عن مناظرة في مسألتَي النسخ والتحرّيف جرت بين المؤلّف وبين قسيس. طبع في إسلامبول سنتي ١٢٨٤ و ١٣٠٥هـ وفي مصر سنتي ١٣٠٩ و ١٣١٧هـ.

انظر هديّة العارفين لإسماعيل باشا البغدادي ٣٦٦: ٥؛ معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة ١: ٩٢٩؛ فهرست

الواقع وعدم المعرفة بما في الكتب المقدّسة شيئاً كثيراً، يزعم صاحب المعرفة والشعور الحرّ ويجعل الديانة المسيحيّة على خطر.

أليعازر: ثمّ بعد أيام وجدتُ عنده كُتُباً يطالعها بارتياح وابتهاج، ولَمّا سألتُه عنها قال لي: ما كنتُ أحسب أنّه يكون في المسلمين عالم هكذا عارف بالكتب المقدّسة جميل المباحثة طيّب المكالمة، وها أنا ذا واثق بأنّه لا يوجد في أحبار اليهود وروحانيّة المسيحيّين مثل هذا الرجل في علمه بالكتب المقدّسة.

فقلت له: دعنا من هذا التمجيد الفارغ، ما هي الكتب؟ ولمن هي؟ وفي أيّ موضوع تبحث؟

فقال: هي كتاب الهدى^١ جزءان، ورسالة التوحيد والتثليث^٢، الجميع لكاتب الهدى النجفي في الردّ على هاشم العربي وجمعيّة الهداية وعبدالمسيح الكندي. والآن يا سيّدي ما أدري ماذا أصنع مع ولدي الوحيد عمانوئيل، وها هو كما تراه، وكأني عن قريب قد خسرتُ ديانته المسيحيّة بانقلابه إلى الديانة الإسلاميّة الوحشيّة الوثنيّة. عمانوئيل: فسمعتُ القسّ يقول: لا لا يا أليعازر، إنّ الديانة الإسلاميّة لا يمكن لأحد أن يقول: إنّها وحشيّة وثنيّة.

فأطرق والدي، ثمّ قال: والآن ماذا أصنع يا سيّدي مع ولدي عمانوئيل؟ القسّ: يا أليعازر، إنّ أفكار ولدك راقية، وتنبّهاته جيّدة، يتكلّم على أساسات متقنة بحجّة معقولة، لم يقيد نفسه بقيد التعصّب وتقليد الأوائل، ولم يتسرّع بهملجة العصريّين إلى حبّ الجديد والافتناع بالتخمينات الوهميّة ومخالفات العقل.

فليس من الصالح أن تضرب على أفكار ولدك، فتضطرّه الشكوك في الديانة الخاصّة إلى الطفرة إلى مبادئ الإلحاد، كما عمّ هذا الداء في أوروبا وأمريكا؛ إذ صارتا

١. الهدى إلى دين المصطفى أحد مؤلّفات العلامة البلاغي الذي ردّ فيه على النصارى وشبهاتهم، وهو ردّ على كتاب الهداية لأحد النصارى.

٢. التوحيد والتثليث وهو أيضاً أحد مؤلّفات العلامة البلاغي التي كتبها للردّ على اعتراضات النصارى وردّ شبهاتهم.

كعاصمة الإلحاد، بعد أن كانتا زاهيتين زاهرتين بالديانة الإلهية، فإنّ التدين بالإلهية على الحقيقة والحجة القويمة هو المهمّ الأولي والتدين الأساسي، وأمّا التدين بالنبؤات الخصوصية فهو أمر ثانوي، تتجلّى حقيقته بالاستضاءه بأنوار الأساسيات الحقيقية في الإلهية.

والآن أرى الدواء الناجح لولدك أمرين:

أحدهما: أن يتلمذ على روحاني واسع العلم، حسن الاطلاع، جيّد الإنصاف، شريف المكالمة، ليّن العريكة، حرّ الضمير، عارف بفلسفة التعليم، بريء من التعصّب، لم يستعبده الهوى، ولا تأخذه في الحقّ لومة لائم، ولا طمع في رتبة أو راتب. وثانيهما: أن توضع على ولدك يد بركة وقداسة، لكي يحلّ عليه روح القدس، فيفهم الحقّ بالتوفيق والتسديد.

أليعازر: ها أنا ذا أقول قولاً لا تحسبه يا سيدي تمجيذاً وتعليقاً لحضرتك، بل أقوله عن اعتقاد صميمي، وهو: أنّ الدواء الناجح الذي تذكره لولدي لا أراه موجوداً إلاّ عند روحانيتك وقداستك، فأرجو الترحّم عليّ وعلى ولدي بالإقامة لأجلنا، بل لأجل الديانة المسيحية؛ إذ تقوم بنجاح كبير بالتبشير في هذا القطر العظيم، فإنّي أرجو أن يكون لك نجاح كبير في اجتلاب المسلمين إلى المسيحية.

القسّ: يا أليعازر، ما سمعتُ لمرسل مسيحي نجاحاً يذكر في تبشيريه بين المسلمين، ومن المُدهش أنّي لم أجد بين الهندوس مبشراً مسلماً، ومع ذلك أرى الهندوس يتقاطرون على الديانة الإسلامية على رغم كثرة المبشرين فيهم من المسيحيين، وملاطفاتهم بالعنايات الصحيّة، ونشر الكتب المقدّسة بلغاتهم، وموافقتنا لهم في أمر الثالوث والأقانيم وتجسّد الإله، مع تأييد ذلك بسلطة السياسة. وهكذا يلغني عن سودان أفريقيا بمصادر وثيقة، أفليس هذا من العجيب؟!

أليعازر: ما هو السبب والسرّ في ذلك؟

القسّ: إن كُنّا لا نعرفه، فدعنا لا نعرفه حالاً.

عمانوئيل: لم أزل مُصغيّاً إلى كلمات والدي وغبطة القسّ، وكانت كلّ كلمة من كلمات

القسّ تغرس في ضميري غرساً صالحاً. آمل أن أجتني ثمره الطيّب في وقت قريب.
القسّ: اقرأ يا عمانوئيل من حيث انتهيت.

قصة ولدي آدم، والتوراة وخللها، وتراجها وتحريفها

عمانوئيل: فقرأتُ حتّى وصلت إلى العدد الثامن من الفصل الرابع من سفر التكوين، وفي أوّله بالترجمة الحرفيّة: «وقال قاين إلى هابيل أخيه وكان يكونهما في الحقل وقام قاين إلى هابيل أخيه وقتله».

فقلت: يا سيّدي، هذا كلام مبتور المعنى، مختلّ النظام، ظاهر النقيصة والسقط. فماذا قال قاين لأخيه؟ وماذا كان يكونهما في الحقل؟

القسّ: انظر في الأصل العبراني المطبوع والمكتوب المقدّس عند اليهود وطابقهما مع ما ذكرت، فربما كان التغيير من الترجمة.

عمانوئيل: نظرتُ في الأصل العبراني، فكان ما ذكرناه من الترجمة ترجمةً حرفيّةً بتمام المطابقة.

القسّ: انظر يا عمانوئيل في الحواشي.

عمانوئيل: ليس في الحواشي إشارة إلى هذا العدد الثامن إلّا قولها: «بلا پاسوقا». يا سيّدي، وماذا تنفع الحواشي؟ فهل ندم الله على إنزال التوراة على موسى ناقصةً فأنزّلها بعد ذلك تامّةً على كاتب الحواشي؟!

القسّ: اقرأ الأصل العبراني.

عمانوئيل: فقرأتُ: «ويامر قاين ال هابيل اخيو. ويهي بهيوتم بشدة. ويقم قاين ال هابيل اخيو ويهرجو».

القسّ: ماذا عندك من التراجم؟

عمانوئيل: عشر نسخ:

١. عربيّة طبع وليم واطس في لندن سنة ١٨٥٧ على النسخة المطبوعة في رومية

سنة ١٦٧١.

٢. أخرى توافقتها في الترجمة، سقطت ورقتها الأولى أظنها طبع بيروت.

٣. عربيّة فرغ من اصطناع صفائحها في بيروت في تموز سنة ١٨٧٠.

٤. الطبعة الثامنة في المطبعة الأمريكية في بيروت سنة ١٨٩٧.

٥. الطبعة الثانية عشرة سنة ١٩٠٥.

٦. طبع دي سارا هوجسون سنة ١٨١١.

٧. فارسيّة طبع رچارد واطس في لندن سنة ١٨٣٩.

٨. طبع وليم واطس في لندن سنة ١٨٥٦.

٩. طبع تومس كنستيل في ادن برغ سنة ١٨٤٥.

١٠. ترجمة بروس طبع لندن سنة ١٩٠١.

القسّ: انظر في هذه التراجم ماذا تقول؟ وماذا تذكر؟

عمانويل: في النسخة الأولى والثانية: «وقال قاين لهابيل أخيه لنخرج إلى الحقل

ولمّا صارا في الحقل قام قاين على هابيل أخيه وقتله».

ونقل إظهار الحقّ عن التراجم العربيّة المطبوعة سنة ١٨٣١ و ١٨٤٨ م أنّها تقول:

«وقال قاين لهابيل أخيه تعال نخرج إلى الحقل...» إلى آخره.

فزادت هذه التراجم من عندها قولها: «لنخرج إلى الحقل. تعال نخرج إلى الحقل».

وحرّفت فيما بقي لتجعل الكلام له شيء من الفائدة، وقد أنزلت توراة جديدةً

بزيادة وتحريف.

وفي النسخة الثالثة والرابعة والخامسة: «وكلمّ قاين هابيل وحَدّث إذ كانا في الحقل

أنّ قاين قام على هابيل أخيه فقتله».

وعلى نهجها جرت النسخة الثامنة والتاسعة والعاشر، وهذه التراجم الثلاثة حرّفت

وبدلت: فإنّ الأصل العبراني «ويامر» وترجمته «وقال». وأمّا قولهم «وكلمّ» فأصله في

اللغة العبرانيّة «ويدبر» وزادوا قولهم «أنّ» تعديلاً للكلام وهي زيادة تحريفية.

والترجمة السادسة رأث أنّها إن قالت في الترجمة: «وكلمّ» كان تحريفاً فاضحاً،

وإن قالت: «وقال» كان الكلام ناقصاً مبتوراً بالمرّة، فقالت: «وقاويل قاين هابيل أخاه»

فوقعت بأشدّ التحريف، وبقي الكلام مبتوراً؛ فإنّه يقال لهذه النسخة: على ماذا قاول قاين هايبيل؟ هل قاوله على تحريف التوراة؟! والنسخة السابعة قالت: «وقاين برادر خود را گفت كه بيا». فزادت قولها «كه بيا» وحرّفت في الباقي.

يا سيّدي، وإنّ هذا التلاعب والتحريف في التراجم ممّا يشهد بأنهم رأوا خلل الأصل العبراني، فأرادوا أن يؤلّفوا توراةً جديدةً. لكن يا سيّدي، إنّ التراجم التي زادت على العبراني قولها: «لنخرج إلى الحقل. تعال نخرج إلى الحقل» قد أتّبعبت بهذه الزيادة للنسخة السامريّة والنسخة اليونانيّة، أفلا يكون هذا عذراً لها؟ القس: هل ندم الله على إنزال التوراة ناقصة على موسى فأنزّلها بعد ذلك تامّةً على كاتب السامريّة واليونانيّة؟

عمانوثيل: ماهو السبب في خلل الأصل العبراني ونقصانه حتّى صار ملعبةً للمترجمين؟ القس: ما أدري عاجلاً ماذا أقول لك، ولكن اقرأ وليسمع أليعازر.

جمعيّة كتاب الهداية، والصدق والأمانة

عمانوثيل: يا سيّدي، هذا المقام قد ذكرني شيئاً أضحكني كثيراً، فإنّي رأيتُ في كتاب جمعيّة الهداية المطبوع بمعرفة المرسلين الأمريكيّان في الجزء الثاني صحيفة ٤٢ من الطبعة الثانية: أنّ هذه الجمعيّة الرسوليّة التبشيريّة المقدّسة، الناهضة للتهجّم على المسلمين وقرآَنهم قد قالت ما هذا نصّه: «ثمّ إنّ مراعاة القرآن للسجع مقدّمة عنده على الحقائق، فقال: قايل؛ لأنّه على وزن هايبيل» ثمّ أخذوا بالانتقاد على ذلك.

وربما اغتررتُ بادئ بدء بسمعة مجدهم، لكنّ الحقيقة كشفت عن أنّه لا يوجد في القرآن لفظ «قايل» ولا لفظ «هايبيل» أصلاً. فضحكّت يا سيّدي من إيقاع التسرع والتعصّب لهم في هذه الورطة الكبيرة، ولكنّي خجلتُ كثيراً يا سيّدي من رجوع هذا الوبال على مجد روحانيّتنا وإرساليّة المسيحيّين.

القَس: إِنَّ التَّعَصَّبَ يورطُ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا، وَلتَكُنْ غَيْرَ تَكٍ لِمَجْدِ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ لَا لِلْفَخْفَخَةِ الْقَوْمِيَّةِ، اقْرَأْ يَا بُنَيَّ.

حديث بابل، والبلبلية

عمانويل: فقرأتُ حتَّى بلغتُ الفصلَ الحادي عشر من سفر التكوين، فوجدتُ في العدد الرابع منه إلى الثامن ما حاصله: إِنَّ بني آدم اجتمعوا بعد الطوفان لكي يبنوا لهم مدينةً حصينةً عاليةً لئلا يتبددوا فنزل الله لينظر المدينة. وقال الله: هذا شعب واحد ولسان واحد وهذا ابتداءؤهم بالعمل والآن لا يمتنع عليهم كلُّ ما ينوون أن يعملوه. تعالوا ننزل ونبلبل لسانهم حتَّى لا يسمع بعضهم لسان بعض.

فأطبقتُ التوراة متبسمًا ناظرًا إلى وَجْهَيِّ والدي والقَس انتظر ابتداءهما بالكلام. أليعازر: يا ولدي، أرى من سيما عينيك أن صدرك مملوء كلاماً، تكلم يا ولدي، بكلِّ حرِّيَّة من جانبي من هذا اليوم وما بعده.

عمانويل: يا سيدي، كيف يحتاج الله في علمه إلى النزول لكي ينظر المدينة؟! وكيف يحتاج في قدرته إلى النزول لكي يبلبل؟! وما حاجته في قدرته إلى الاستعانة؟! ومن أين ينزل؟! وإلى أين ينزل؟! ولمن قال: تعالوا ننزل؟! وبمن يستعين على حياة مملكته من التهديد؟! أفلا تعجبون من هذه المضامين السخيفة؟!

القَس: مثل هذا في الكتاب المقدس كثير، فلا تضطرب منه. عمانويل: عَجَباً يا سيدي، هل كثرة المشكلات ترفع الحيرة من المشكل؟! وكأنتك لا تريد أن تعاجلني ببيان الحقيقة، وإلى متى أصبر؟ وكأني بسيدي عنده بيان كبير ثقيل على التعصّب، صعب على الأهواء، ينتظر به الفرصة وسماحة الوقت. القَس: لعلَّ الأمر كما تظنُّ فلا تزعجني بالاستعجال.

نار نمرود في بابل، وإبراهيم النبيّ

عمانويل: يقول المسلمون: إِنَّ في أرض بابل أضرم الوثنيون ناراً عظيمة لإحراق إبراهيم الخليل وألقوه فيها، فأنجاه الله منها وجعلها عليه برداً وسلاماً، كما يذكره قرآنهم

في سورة الأنبياء في الآية الثامنة والسّتين إلى السبعين^١، وفي سورة الصافات في الآيات السابعة والتسعين والثامنة والتسعين^٢.

وها هي التوراة لا تذكر من ذلك شيئاً، مع أنّ ذكر ذلك من الأمور المهمّة في تأريخ إبراهيم وبيان آيات الله والمجد النبويّ وعناية الله بأوليائه، فلأجل خلوّ التوراة من حكاية النار هل يمكن أن نقول: إنّها حكاية خرافية؟

القس: لا، لا يمكن، ويكفي عاجلاً أنّ العهد الجديد المقدّس يوضّح لنا أنّ التوراة قد أهملت كثيراً من الأمور المهمّة في التأريخ النبويّ وخصوص تأريخ إبراهيم. فمن ذلك أنّ التوراة لم تذكر أنّ موسى ارتعد عندما كلّمه الله أوّل الأمر في عُقَيْقة النار، والعدد الثاني والثلاثون من الفصل السابع من كتاب أعمال الرسل يذكر أنّ موسى ارتعد.

ولم تذكر التوراة أنّ موسى قال في التكليم الثاني في جبل سيناء: «أنا مرتعب ومرتعد» والعدد الحادي والعشرون من الفصل الثاني عشر من رسالة العبرانيين يذكر ذلك، مع أنّ ارتعاد موسى وارتعابه في تلك الأحوال ممّا يلزم أن تذكره التوراة في تأريخ النبوّة ومجد الله.

ولم تذكر التوراة أنّ موسى جعل في تابوت العهد كوزاً من ذهب، فيه المنّ وعصا هارون التي أفرخت لوزاً، مع أنّ هذا من أهمّ الأمور في تأريخ النبوّة وآثارها، والعدد الرابع من الفصل التاسع من رسالة العبرانيين يذكر ذلك.

وفي العدد الثامن عشر إلى الثاني والعشرين من الفصل الخامس من سفر التكوين، ذكرت التوراة «حنوك» بالعبرانيّة «واختوح» في الترجمة، ولم تذكر نبوّته ولا شيئاً من أقواله النبوّية، مع أنّها أهمّ أحواله بالذكر، وذكر ذلك في العدد الرابع عشر من رسالة يهودا. هذا، وإنّ التوراة لم تذكر أهمّ أحوال إبراهيم، وهو تأريخ حياته ونبوّته وإيمانه في

١. ونصّها: «قَالُوا حَزَقُوهُ وَأَنْصُرُوا إِلَهُتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعِيلِينَ * فَلَمَّا سِنَارُ كُوبِي بَرَدًا وَسَلَسْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ».

٢. ونصّها: «قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ».

وطنه فيما بين النهرين - والمظنون أنه في الجنوب الشرقي للسماء - وإنما ابتدأت التوراة بذكر خطاب الله لإبراهيم في حاران وأمره بالخروج منها، مع أن العدد الثاني إلى الخامس من الفصل السابع من كتاب أعمال الرسل ذكر نبوة إبراهيم فيما بين النهرين وخطاب الله له هناك وأمره بالخروج من هناك.

يا عمانوئيل، وأدهى من هذا كله أن التوراة أطالت كلامها مع بني إسرائيل في الوعظ والترهيب والترغيب والبشرى والتخويف، ولم تذكر يوم المعاد وحشر العباد للجزاء، ولا الجنة المعدة للأتقياء، ولا جهنم المعدة للأشرار، ولم تظر ذكراً لشيء من ذلك لا في هذه المقامات ولا في مقام المعارف والتعليم الديني، بل غاية ما رغبت فيه للطاعة هو كثرة الحنطة والخمر وبركة المعجنة، وغاية ما خوفت منه هو قلة الحنطة والخمر وأن الرجل يتزوج امرأةً ويظوها غيره.

يا عمانوئيل، إن توراتنا العزيزة مشغولة عن بعض الحقائق بما قرأته وتحيّرت فيه، وبما ستقرؤه وتتحير فيه، لا أنت وحدك بل كثير من الناس. فلتوراتنا العذر الكبير، وبيا للأسف، ودع الشيخ «غريب» المتمسلم يقول في رحلته الحجازية صحيفة ٤٨: «إن التوراة لم تترك صغيرةً ولا كبيرةً من أعمال وأحوال إبراهيم إلا وحكته مفضلاً» دعه وخطأه.

عمانوئيل: يا سيدي، وما هو عذر التوراة عن غفلتها عن ذكر نار إبراهيم المهمة في تأريخ النبوة وكرامتها؟

القس: الذي أقوله عاجلاً على سبيل الإجمال: هو عذرها عن غفلتها عن الأمور التي استدركها عليها العهد الجديد، مع أنها أمور مهمة في النبوات. ولا أحب أن أجاهر وأكاشفك عاجلاً بهذه الأعذار حتى تكون أنت تجاهر وتكاشفني، وإنك قد تدرجت في معرفة العذر باعتراضاتك المتقدمة.

عمانوئيل: يا سيدي، تركتني برموزك هذه معلقاً بين السماء والأرض، فترحم علي بالصراحة المريحة.

القس: سوف تستقرّ قدمك على اليقين الثابت فلا تعجل.

عمانوئيل: يا سيدي، وهل من المعقول ما يذكره القرآن في شأن إبراهيم والنار؟
القس: عجباً، وإنك مثل كثير من أصحابنا تعترض ولا تدري بما في كتب ديانتك،
ألم تقرأ في كتاب دانيال في الفصل الثالث أن بخت نصر ألقى «شدرخ» و«ميشخ»
و«عبد نغو» في النار التي قتلت بحرّها جماعة ممن ألقى هؤلاء الثلاثة فيها، وأنجى الله
هؤلاء الثلاثة في وسط النار المتوقّدة، وخرجوا منها بعد مدّة ولم تكن للنار قوّة على
أجسادهم، وشعرة من رؤوسهم لم تحترق وسراويلهم لم تتغيّر.

يا عمانوئيل، وإن كتب اليهود لتذكر نار إبراهيم ونجاته منها، ولهذه الحادثة آثار
تاريخيّة قديمة تمثّل واقعة النار مع إبراهيم، فإنّ في نواحي بابل مدينة بورسيبا التي
تسمّى الآن برس، وهي قديمة جداً، ويستدلّ من الآثار والتقليد البابلي القديم أنّ فيها
كانت بلبلّة الألسن، بل إنّ كلمة «بورسيبا» معناها في اللغة الآشوريّة: برج اللغات، بل
يعرف من كتابه بخت نصر - التي وُجِدَت سنة ١٨٤٥ في أخربة برج بورسيبا - أنّ بانيه
أول الملوك، وأنّ بينه وبين بخت نصر اثنين وأربعين زمناً.

يا عمانوئيل، وإلى الآن في بورسيبا آثار قديمة جداً تُعرّف إبراهيم الخليل، وقبّة في
الموضع الذي يذكر أنّ نمرود طرح فيه إبراهيم في النار، والقبّة على تلّ كبير أسود
رمادي يعرف أنّه رماد بالٍ يمرّ الدهور الطويلة، فهذه الآثار كافية في تحقيق نار نمرود
وإبراهيم تحقيقاً علمياً وتاريخياً.

عمانوئيل: لماذا لا يكون هذا التلّ الرمادي من آثار بركان هاج في زمان ثمّ انظفأ؟
القس: البركان لا بدّ من أن يكون مخرجه جبل أو تلة أرضيّة، ولا يوجد لذلك أثر
إلاّ التلّ الذي هو رماد عارض على الأرض.

وثانياً: لو كان هذا البركان قبل الطوفان، لانمحي أثره بالطوفان وعرمان بورسيبا،
ولو كان بعد الطوفان، لُدكّر في التاريخ.

وأيضاً ليس بين الطوفان وعرمان بورسيبا إلاّ زمان قليل، فكيف تُعمر بورسيبا
وهياكلها حول البركان؟! ولو أنّه كان منطفتاً، لما أبقى العرمان آثاره. نعم أبقى البابليّون
الرماد من آثار النار أمام هياكل الأصنام؛ تذكّراً لخدمتهم للأصنام وعنايتهم بحياطة

العبادة الأصناميّة، يا عمانوئيل اقرأ من حيث انتهيت.

اضطراب نسخ التوراة والأنجيل في النَّسَب

عمانوئيل: فقرأت حتّى بلغتُ العدد الثاني عشر من الفصل الحادي عشر من التكوين فقلتُ: يا سيّدي، إنَّ إنجيل لوقا قد ذكر قينان واسطة في التوالد بين ارفكشاد وشالِح، وقال في الفصل الثالث: «شالِح بن قينان بن ارفكشاد» وكذا التوراة السبعينيّة، حتّى أنّها نصّت على مقدار عمر قينان قبل ولادة شالِح وبعدها.

وهذه التوراة العبرانيّة وتراجمها ذكرت سلسلة التوالد من سام بن نوح إلى إبراهيم، فذكرت أنّ سام ولد ارفكشاد، وعاش ارفكشاد خمساً وثلاثين سنة وولد شالِح.

يا سيّدي، فهل غلط النقصان من العبرانيّة وتراجمها، أم غلط الزيادة من إنجيل لوقا والتوراة السبعينيّة واليونانيّة؟ يا سيّدي والكلّ يرجع وباله علينا.

القسّ: قد ذكرتُ الاعتذار عن هذا الاختلاف جمعيّة كتاب الهداية في الجزء الثالث صحيفة ٢١٢.

عمانوئيل: يا سيّدي، وقد باحثهم في ذلك صاحب كتاب الهدى في الجزء الثاني صحيفة ٤٩٩، فهل رأيت كتاب الهدى في هذا المقام؟ أما إنّ اعتراضاته ميزان الحقيقة، أصحيح هذا القول منّي يا سيّدي؟

القسّ: نظر إليّ متبسماً وقال: رأيتُ اعتراضاته بامعان، ولكن لا يسمح لي الوقت بأن أقول ما تقوله أنت، ولا عليك من تمجيد الكاتب وانظر إلى مجد المكتوب في العلم والشرف.

اجتماع مع واحد من علماء النجف

عمانوئيل: اجتمعنا مع شيخ من علماء النجف.

الشيخ: أيّها القسّ، هل ينظر الروحانيون من النصارى في كتب العهد القديم التي ينسبها اليهود والنصارى إلى وحي الله، وفي كتب العهد الجديد التي ينسبها النصارى إلى

الوحي؟ وهل ينظرون في العهد القديم باللغة العبرانيّة لغته الأصليّة؟

القسّ: لا بدّ لهم من هذا، هل يمكن لعلمائكم - أيها المسلمون - أن لا ينظروا في القرآن؟! وهل يمكن لعلمائكم من العجم والترك والهند أن لا ينظروا في القرآن بلغته العربيّة؟!

الشيخ: عجباً فإني وجدتُ كثيراً من روحانيّكم كأنهم لم يقرؤوا العهد القديم، لا عربيّه ولا عبرانيّه.

القسّ: من هؤلاء من روحانيّينا؟ فإنّ هذا شيء لا ينبغي أن يكون من الروحانيّين. الشيخ: الذين أطلعنا عليهم من هؤلاء: هاشم العربي، وجمعيّة كتاب الهداية، والمرسلون الأمريكيّان بمصر.

القسّ: كيف يكون ذلك، وهؤلاء علماء كتبة، تجرّدوا للدعوة والتبشير والكتابة في مقابلة المسلمين، وقد احتفل المسيحيّون بكتاباتهم الراقية في هذا الموضوع وحيّوهم بالاستحسان العامّ؟!

الشيخ: أترى أنّ هؤلاء العلماء الكثيرين لم يقرؤوا في توراتهم في العدد الثالث عشر من الفصل السادس والأربعين من سفر التكوين: أنّ أحد أولاد يساكر بن يعقوب اسمه شِمْرُون؟! ولم يقرؤوا في العدد الثالث والعشرين من الفصل السادس والعشرين من سفر العدد: أنّ من أولاد شِمْرُون بن يساكر كان مع موسى عشيرة الشّمْرُونيّين، وهم عدد كثير يبلغون الألوّف؟!

القسّ: لا بدّ لهم من أن يقرؤوا هذا في التوراة ويعرفوه منها.

السامريّ في العربيّة شِمْرُوني في العبرانيّة وغيرها

الشيخ: إذأ فلماذا لا يفهمون أنّ السامريّ المذكور في القرآن الكريم هو واحد من عشيرة الشّمْرُونيّين الذين كانوا مع موسى؛ فإنّ سامريّ في اللغة العربيّة تعريب شِمْرُوني؟ القسّ: إنهم لا يعرفون أنّ سامريّ تعريب شِمْرُوني، وإنّما يعرفون أنّ سامريّ هو المنسوب إلى أرض السامرة المسماة باسم البلدة التي بناها عمري ملك إسرائيل بعد

أيام سليمان بأكثر من خمسين سنةً وسماها سامرة، فيكون بناؤها وحدوث النسبة إليها بعد واقعة العجل بنحو خمسمائة وسبعين سنةً؛ فلأجل ذلك لا يمكن أن يكون سامريّ في أيام موسى؛ ولذا قالت جمعيّة كتاب الهداية في الجزء الأول صحيفة ٣٧: إن ذكر السامريّ يدلّ على جهل تامّ بالتأريخ وبعلم توقيع البلدان، ولا نعلم من أين أتى هذا السامريّ؟ هل نزل من السماء أو طلع من الأرض؟ ولم يكن للسامرة في زمان موسى اسم ولا رسم.

وقالت في الجزء الثاني صحيفة ٥٥:

لم يكن في عصر موسى شيء يقال له: سامرة أو سامريّ، فهو من التخيّلات البعيدة المستحيلة، كما يدلّ عليه تأريخ بني إسرائيل، بل تواريخ العالم قاطبةً.

وقال هاشم العربي في تذييلاته المستقلّة صحيفة ٥٥:

لا يمكن أن يكون في بني إسرائيل على عهد موسى سامريّ، وإنّ هذا النعت لم ينعت به إلا بعد جلاء بابل.

نعم يا شيخ، إذا ثبت أنّ لفظ سامريّ هو تعريب شِمْرُونِي، فلا بدّ من أن نقول: إنّ السامريّ المذكور في القرآن هو من عشيرة الشِمْرُونِيِّين الذين كانوا مع موسى، فيسقط اعتراض أصحابنا.

الشيخ: عجباً أيها الفسّ وأنت تقول هذا أيضاً؟! أفلا تدري أنّ المدينة التي تُسمّى باللغة العربيّة سامرة قد ذُكرت في أسفار الملوك الأول والثاني، وإشعياء وإرميا وعموس وميخا وعزرا ونحميا أكثر من ستين مرّةً، فلم تسمّها في الأصل العبراني إلا شِمْرُون. وكذا في التراجم اليونانيّة والإنكليزيّة والفرنسيّة، بل في كلّ ترجمة ما عدا أغلب العربيّة والفارسيّة، وكذا في تراجم إنجيل لوقا ويوحنا وأعمال الرسل. وذكر لفظ السامريّ والسامريّة والسامريّين في أناجيل متى ولوقا ويوحنا في نحو تسعة مواضع، وكلّ ترجمة - ممّا عدا العربيّة والفارسيّة - تذكرها بلفظ شِمْرُونِي ونحوه. انظر التراجم العبرانيّة واليونانيّة والإنكليزيّة والفرنسيّة وغيرها.

فلا ينبغي لمن يدعي العلم أن يجهل أنّ سامريّ تعريب شِمْرُونِي، وأنّه ليس في

الدنيا بلدة أو محلّ أو نسبة يقال لها في العبرانية: سامرة أو سامري، فالسامريّ الذي في القرآن الكريم هو الشِمْرُونِي المنسوب إلى شِمْرُون بن يساكر، لا إلى شِمْرُون التي بناها عمري، ولا ينبغي للجاهل أن يفتح فمه ويجري قلمه بالجرأة القبيحة على القرآن الكريم، فإنّ الجاهل لا يستهزئ إلاّ بنفسه.

القَس: إنّي أعرف ما تقوله من قبل ذلك، وهذا الذي تذكره أنتَ قد وجدته أنا في العهدين في اللغة العبرانية وسائر اللغات المختلفة، ما عدى بعض النسخ العربية والفارسية، بل إنّ النسخ الفارسية بترجمة وليم كلن لم تذكر سامرة، بل إنّما ذكرت شِمْرُون، وكذا في بعض التراجم العربية القديمة.

فمن الواضح وضوح الشمس أنّ سامريّ تعريب شِمْرُونِي، وأنّ السامريّ الذي يذكره القرآن هو الشِمْرُونِي من عشيرة الشِمْرُونِيِّين الذين تذكرهم التوراة في جند موسى. يا شيخ، بعض صفات الإنسان تفعل به وتفعل، فلا تنزعج من جرأة الجمعية والعربي على مجدي قرآنكم.

عمانوئيل: يا شيخ، هل تسمح لي بأن أتكلّم شيئاً في هذا المقام بحرّيّة تامّة.
الشيخ: تكلم يا عمانوئيل بحرّيّة من عبوديّة التعصّب والتقليد الأعمى.

التوراة وهارون والعجل

عمانوئيل: إنّ القرآن يقول: إنّ الذي صنع العجل الذهبي الوثني ودعا بني إسرائيل لعبادته، هو السامريّ الشِمْرُونِي، وهو من سبط يساكر بن يعقوب.

والتوراة تقول في الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج ما ملخصه: أنّ بني إسرائيل قالوا لهارون: اجعل لنا آلهةً يسيرون أمامنا! فقال لهم: انزعوا أقرط الذهب التي في آذان نسائكم وأطفالكم وأتوني بها، فأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك وصيّره عجلًا مسبوكةً فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل؟! فلما نظر هارون بني مذبحاً أمام العجل لإجراء رسوم عبادته الوثنيّة وتقديم قربان العبادّة له، ونادى هارون غداً: حجّ للرب. فأصعدوا في الغد على المذبح الذي بناه هارون محرقات وقدموا ذبائح سلامة، فأجروا

رسوم العبادة والحجّ للعجل كما أمرهم هارون.

يا شيخ، وهارون هو أخو موسى من سبط لاوي، لا من سبط يساكر، فكيف يصحّ ما في القرآن مع مخالفته للتوراة؟

الشيخ: لا أقابلك الآن بما في توراتك الموجودة من الخلل الداخلي والخارجي، ولكن أقول لك: إنّ هارون أخا موسى إذا كان هو المؤسس في بني إسرائيل لضلال الشرك بالله والعبادة الوثنيّة للعجل الذي صنعه كما تزعمون، فكيف يختاره الله نبياً ويكلّمه بالشرائع بعد واقعة العجل، كما تقول. توراتكم تارةً مع موسى، كما في الفصل الحادي عشر والرابع عشر من سفر اللاويين، والثاني والرابع والتاسع عشر من سفر العدد؟! وتارةً منفرداً، كما تكرّر في الفصل الثامن عشر من سفر العدد؟! وكيف يختاره الله لكرامة الكهنوت والإمامة في الدين والشريعة، ويخصّه بالكرامات الكبيرة قبل واقعة العجل وبعدها؟! بل إنّ توراتكم تقول: إنّ هارون يصنع العجل ويدعو لعبادته والشرك بالله، كان الله يكلّم موسى في اختيار هارون للكهنوت والإمامة، وفي تقديسه وتمجيده في تفصيل ثيابه للكهنوت المقدّس بكلام طويل ذكرته توراتكم في الفصل الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من سفر الخروج .

يا عمانوئيل، إنّ بين المكان الذي كلّم الله فيه موسى في تقديس هارون، وبين المكان الذي صنع فيه هارون العجل ودعا إلى عبادته، لم يكن إلّا مسافة ميل أو ميلين. فإذا قلت: إنّ الله - جلّ شأنه - لا يعلم بما صنع هارون. قلنا: إذاً فلماذا دام - بعد أن علم - على تقديس هارون وتكليمه بالشريعة مع موسى ومنفرداً؟ وإذا قلت: إنّ الله كان يعلم.

قلنا: فكيف يختاره ويقدّسه حينما كان هارون يؤسس العبادة الشركيّة الوثنيّة ويدعو إليها؟! وكيف دام الله على تقديسه واختياره وتكليمه؟! وإذا قلت: إنّ الله كان يعلم.

قلنا: فكيف يختاره ويقدّسه حينما كان هارون يؤسس العبادة الشركيّة الوثنيّة ويدعو إليها؟! وكيف دام الله على تقديسه واختياره وتكليمه؟! وإذا قلت: إنّ الله كان يعلم.

سليمان والعهد القديم

عمانوئيل: كان الله حينئذٍ يعلم بعمل هارون، وهو الذي أعلم موسى بأنّ شعبه فسدوا وعملوا لهم عِجلاً وسجدوا له ودعوه إلهاً، كما نصّ على ذلك نفس الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج.

ولكن يا شيخ هذا لا يضرّ؛ فإنّ كتب وَحِينَا المقدّسة تذكر أنّ الله اختار سليمان بن داود نبياً، وأوحى إليه أسفار الحكمة والجامعة ونشيد الإنشاد، وكرّمه بأن جعل بناء بيت المقدس على يديه دون أبيه داود الذي كان يريد ذلك. وأظهر الله مجده بأن قال لداود - كما في العدد السادس من الفصل الثامن والعشرين من سفر الأيام الأوّل -: «سليمان ابنك هو يبني بيتي ودياري؛ لأنّي اخترته لي ابناً وأنا أكون له أباً».

ونحوه من الفصل الثاني والعشرين من السفر المذكور، وفي السابع من سفر صموئيل الثاني.

هذا، مع أنّ كتب وَحِينَا المقدّسة تقول - كما في الفصل الحادي عشر من سفر الملوك الأوّل -:

إنّ سليمان خالف الشريعة وتزوَّج بالنساء المشركات. فأملن قلبه وراء آلهة أخرى فذهب سليمان وراء عشتاروت آلهة الصّيدونيين ومَلَكُوم رِجْسِ العَمُورِيِّين. وبنى مرتفعةً لِكَمْوشِ رِجْسِ بني المِوَابِيِّين وَلِمَوْلَكِ رِجْسِ عَمُون. وعمل لسائر نساءه المشركات مثل ذلك^١.

وكرّرت كتبنا نسبة هذا العمل الإشراكي لسليمان في العدد الثالث عشر من الفصل الثالث والعشرين من سفر الملوك الثاني.

يا شيخ، فمقتضى كتب وَحِينَا المقدّسة أنّ الله يختار للنبوة والقداسة، مَنْ يعلم أنّه يُشرك ويدعو إلى عبادة الأوثان ويبني لها مشاعر العبادة، فحال هارون مع الله كحال سليمان.

الشيخ: يا عمانوئيل، لا تنزعج من المثال الذي أضربه لك، فإن الأمور تبيّننا أمثالها: إذا أراد واحد من الناس أن يجعل في بيته وكيلاً مؤدّباً ورفيقاً على أزواجه وبناته وأخواته؛ لكي يؤدّبهنّ على الحياء والعفة، ويمنع عنهنّ إفساد المفسدين والتهتك بالفحشاء، فهل يُوكل عليهنّ امرأة يعلم أنّها تكون زانية تغوي نساءه على الزنى ودوامه؟ وهل يبقى على اختيارها وتمجيدها حتّى إذا رأى تأثيرها في إغواء نساءه على الزنى، وحتّى إذا رآها ناصبةً على بيته راية القيادة للزنى لكي ترغّب نساءه على تكرار الزنى ودوامه؟

عمانوئيل: يا شيخ، لقد أزعجتني من هذا المثال، وقد اضطربت روحي من مجرّد سماعه.

الشيخ: هذا مثال ما في كتبكم التي تنسبونها إلى الوحي، هل أنت والناس أكمل من الله القدّوس العزيز الحكيم؟! إذن فكيف ترضى أن يقال في جلال الله: إنّه يختار لإنقاذ عباده من الشرك والفساد رجلاً يعلم أنّه يُشرك، ويدعو إلى العبادة الوثنيّة ويعمل أوثانها ويبني مشاعر عبادتها؟!

عمانوئيل: حقّاً تقول في كلّ ما ذكرت، وأنا واثق بأنّ الكلام الذي يذكر هذه المتناقضات في شأن هارون وسليمان لا يمكن أن يكون من وحي الله والكتاب المقدّس النبوي، ولا من كتابة مؤمن عارف بجلال الله.

أليعازر: يا شيخ، إنّ قرآنكم يذكر نبوة هارون ويقول: إنّه عبد العجل حينما كان أخوه موسى على الجبل.

عمانوئيل: يا سيدي الوالد، أين يقول القرآن ذلك؟ أما إنّ القرآن يبرئ هارون من ذلك، فإنّه يقول في الآية التسعين والحادية والتسعين من سورة طه المكيّة: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتَقَدِّمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾. يعني العجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاسْتَبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ *.

وفي الآية المائة والخمسين من سورة الأعراف المكيّة عن قول هارون لموسى: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ الذين نهيتهم عن

عبادة العجل ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فأين يا والدي يقول القرآن: إن هارون عبد العجل؟!

كتاب ثمرة الأمانى للنصارى

أليعازر: أنا ما رأيتُ القرآن، ولكني اعتمدتُ في تقلي على كتاب ثمرة الأمانى في اهداء كامل العيتاني المطبوع بالمطبعة الإنكليزية الأمريكية ببولاقي مصر سنة ١٩١١ وقد ذكرت ذلك [في] صحيفة ٧٩.

عمانوئيل: يا والدي، إني رأيتُ هذا الكتاب، والأقرب عندي أنه رواية من بعض المبشرين، وقد افترى هذا الكتاب فيما ينقله على القرآن، كما افترى [في] صحيفة ٧٨ بقوله: «إنا نقرأ في القرآن أن داود أخذ نعمة أخيه، وأن إبراهيم كان عابد وثن».

يا والدي، وها هو القرآن يذكر مسألة النعمة بين الخصمين اللذين اختصما إلى داود، فانظر إلى الآية الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من سورة ص المكية^١.
ويذكر أن إبراهيم ما كان من المشركين، كما في سورة البقرة الآية ١٣٠،
وآل عمران ٣٦٧، و٤٩٥، والأنعام ١٦١، والنحل ٦٢٠، و٧٢٣.

أليعازر: كيف تقول: إن كتاب ثمرة الأمانى هو رواية لبعض المبشرين، مع أنهم نصّوا في الكتاب على أنه قصّة حقيقية، وكتبوا على ظهر الكتاب: الحقّ أغرب من رواية.

١. ونصّها: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَّقَ مِنْهُمْ قَالَوا أَلا تَخَفُ حُضَانِ بَعَثْنَا عَلَى بِغْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً وَاخِي لَهُ نَعْمَةٌ وَاحِدَةٌ قَالَ أَكْفَلْتَنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾.

٢. ونصّها: ﴿وَمَنْ يَزْعُبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰلِحِينَ﴾.

٣. ونصّها: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٤. ونصّها: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٥. ونصّها: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٦. ونصّها: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٧. ونصّها: ﴿لَمْ أَوْحِنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

عمانوئيل: يا والدي، هذا الحقّ الغريب لماذا يكذب على القرآن ثلاث مرّات كما ذكرناه؟! سامحنا مضادّته للقرآن، ولكن لماذا يكذب على التوراة وينسب إليها النهي عن تكرار اسم الله في عباداته بذكره؟! انظر صحيفة ٨٣ و ٨٤.

يا والدي، إذا قالت التوراة في العدد السابع من الفصل العشرين من سفر الخروج، وفي العدد الحادي عشر من الفصل الخامس من سفر التثنية في الأصل العبراني: «لا تشأ أت شم يهوه الاهيك لشوأكى لاينقه يهوهات أشير يشأ أت شمو لشوأ» فهل يا والدي تنهى بذلك عن عبادة الله بذكر اسمه العظيم؟! ألا وإنّ التراجم قد اضطربت في ترجمة هذا الكلام أشدّ الاضطراب:

ففي جملة منها «لا تحلف باسم الربّ إلهك كاذباً؛ لأنّه لا يزيكّي الربّ من حلف باسمه كاذباً».

وفي بعضها ما نقله كتاب ثمرة الأمانى: «لا تنطق باسم الربّ إلهك باطلاً، لأنّ الربّ لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً».

يا والدي هب أنّ هذه هي الترجمة الصحيحة، فهل يقول ذو شعور بأنّه نهى عن تكرار اسم الله في عبادة الذكر والتسبيح؟! مع أنّ الترجمة الحقيقيّة هكذا: «لا تعتمد اسم الله إلهك لسوء؛ لأنّ الله لا يبرئ الذي يعتمد اسمه لسوء».

يا والدي، هل ترى الكاتب لهذا الكتاب والطابع له لم ينظرا في مزامير داود؛ لكي يعرفوا فضل تسبيح الله وإدمان ذكره؟! ألم يقرأ فيها أقلاً:

اهتفوا أيّها الصّديقون بالربّ لساني يلهج بعد لك اليوم كلّه بحمدك. يا سيّد
افتح شفتي فيخبر فمي بتسبيحك. رنّموا بمجد اسمه. باسمك يبتهجون
اليوم كلّه. اعوا باسمه. افتخروا باسمه القدّوس. ارحمني كحقّ محبّي
اسمك. إنّما الصّديقون يحمدون اسمك. أبارك اسمك إلى الدهر وإلى الأبد.
أسبّح الربّ في حياتي وأرّسم لإلهي ما دمّت موجوداً. سبّحوه حسب
كثرة عظّمته...

يا والدي، أمّا إتّي إلى الآن ما سمعتُ أحداً ولا رأيتُ كاتباً يعترض على كثرة

ذكر اسم الله في عبادته وذكره - جلّ اسمه - إلاّ شبلي شُمَيْل في أواخر الجزء الثاني من كتابه^١.

يا والدي، وإنّ كتاب ثمرة الأمانى يعيب على المسلمين إيمانهم لذكر الله وتسيبحة، وعلى الخصوص قولهم: لا إله إلاّ الله، فصار يستهزئ بهم في ذلك. دعه يستهزئ ويكره ذكر اسم الله وتسيبحة وتوحيده، ولكن لماذا يكذب على التوراة؟

يا والدي، أمّا إنّ الطابعين لهذا الكتاب وأمثاله قد جنوا علينا جنائياً كبيرةً بطبع هذه الكتب ونشرها، وما عرفت صدقاً في هذا الكتاب إلاّ قوله في صحيفة ٨٧ بأنّ سرّ التثليث فوق عقولنا، وإنّا لا نستطيع فهمه.

ولكنّ الكاتب كأنّه لم يجد بركةً في الصواب، فعَدَّ ممّا هو من وراء الإدراك: يوم الدين، ووجود ذات الله، وأزليّته، وأنه علّة كلّ علّة، وعلمه بكلّ شيء، وخلقه السماوات والأرض. فيا للأسف على الشعور الديني.

يا والدي، لما سمعتُ بهذا الكتاب اشتقتُ إليه كثيراً وقلّتُ في نفسي: كتاب يُكتب في اهتداء مسلم إلى النصرانيّة وينشره المبشّرون، لا بدّ من أن يكون فيه من الدلائل - التي اهتدى بها كامل - شيء يرغم المسلمين على التنصّر.

ولمّا نظرتُ فيه وجدته مشتتلاً على الأكاذيب التي سمعتها، وأنّ كاملاً دخل المكاتب، وسافر في السفن في سواحل اليمن وعمان، ووصل إلى بصره وباع نسخاً من العهدين، ولم يتعدّ هذه الخطّة، فأسفتُ على شوقي إليه واغتراري باسمه وصرفي وقتاً

١. شبلي بن إبراهيم شُمَيْل، باحث وطبيب لبناني، كان ينحو منحى الفلاسفة في عيشه وأرائه. ولد سنة ١٢٦٩ هـ في قرية كفر شيبا بلبنان، وتعلّم في الجامعة الطيبيّة الأمريكيّة ببيروت، وسافر إلى فرنسا لإكمال دراسته، ثمّ إلى مصر وسكن في الإسكندرية وطنطا والقاهرة مزاولاً للطبّ. كتب أبحاثاً عديدة في مجلّة المقطف، وقد صدرت في كتاب سنة ١٨٨٥م بعنوان الحقيقة فأثارت جدلاً في صحافة ذلك الزمان، وهو أول من عرف العالم العربي بنظريّة داروين في النشوء والارتقاء. أصدر مجلّة الشفاء في سنة ١٨٨٦م إلى ١٨٩١م، وله عدّة مؤلّفات منها: فلسفة النشوء والارتقاء ومجموعة مقالات والمعاطس وشكوى وآمال وآراء الدكتور شُمَيْل وشرح بُخنر على مذهب داروين توفي سنة ١٩١٧م.

في مطالعته، وكلّ هذا أهون من خجلي من المسلمين من أجله.
 الشيخ: يا عمانوئيل، كيف وجدتَ مقدّمة المؤلّف للكتاب المذكور وتعريضه بالقرآن
 ورسوله صحيفة ٣؟ يا عمانوئيل هل في القرآن ودين الإسلام أمور صبيانيّة،
 وخرافات وضلالات منسدلة على أصل التوحيد وملتقّة عليه منذ اثني عشر قرناً،
 كما يقول كاتبكم هذا؟!!

هلمّوا وأحضروا العهد القديم والجديد، ونُحضر القرآن، ونجعل التوحيد الحقيقي
 حكماً، وننظر الخرافات الصبيانيّة والضلالات الوثنيّة أين تكون.
 عمانوئيل: يا شيخ، إنّ خجلي من هذا السؤال كثير، وإنّ بعض الأخلاق تفعل
 بالإنسان وتفعل. العفو يا شيخ أرجو الإعراض عن هذا المسلك الذي قطع به السيّد
 الوالد كلامنا، ولنعد إلى كلامنا الأوّل، وسامحني في سؤالِي.
 الشيخ: سل واستوضح، لكي ترفع عن طريق عرفانك كلّ حجر عثرة.

خرافة الغرائق

عمانوئيل: إنّ نبيكم لما قرأ في مكّة بمحضر المشركين سورة النجم وتلا قوله:
 ﴿أَفَرَأَيْتُمْ أَكَلْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۗ﴾ قال على الأثر: تلك الغرائق العُلى
 منها الشفاعة تُرتجى، فكيف يا شيخ يبعث الله رسولاً لدعوة الإيمان بالله وتوحيده،
 وهو يعلم أنّه يُمجد الأوثان بمحضر المشركين، ويقدّسها بالصفات السامية؟!!

الشيخ: هل رأيتَ حكاية الغرائق في القرآن؟

هل وجدتها في الأحاديث المتواترة؟

هل وجدتَ روايتها متّصلة السند بالرجال الثقات إلى مَنْ شاهد الواقعة؟

هل وجدتها في جوامع المسلمين الصحاح أو الحسان؟

هل وجدتَ المسلمين يعترفون بها؟

هل وجدت روايتها مرضيين بالإتقان والديانة عند عموم المسلمين؟
عمانوثيل: لم أجد شيئاً من ذلك، بل وجدتُ جميع الشيعة من المسلمين يعدّونها
خرافة كفريّة.

ومن أهل السنّة يقول النسفي: «إنّ القول بها غير مرضي»^١.

ويقول البيضاوي: «إنّ القول بها مردود عند المحقّقين»^٢.

ويقول الخازن في تفسيره:

إنّ العلماء وهنّوا أصل القصّة، وذلك أنّه لم يروها أحد من أهل الصحّة، ولا
أسندها ثقة بسند صحيح أو سليم متصل، وإنّما رواها المفسّرون والمؤرّخون - أي
بعضهم - المولعون بكلّ غريب، الملقّون من الصحف كلّ صحيح وسقيم، والذي
يدلّ على ضعف هذه القصّة اضطراب روايتها وانقطاع سندها^٣.

وأنكرها القاضي عياض، وقال نحو قول الخازن^٤.

وفي السيرة الحلبية: «إنّ هذه القصّة طعن فيها جمع وقالوا: إنّها باطلة وضعها الزنادقة»^٥.

وقال الرازي في تفسيره: «هذه القصّة باطلة موضوعة، لا يجوز القول بها»^٦.

وقال البيهقي: «رواة هذه القصّة كلّهم مطعون فيهم»^٧.

وقال النووي نقلًا عنه:

وأما ما يرويّه الأخباريون والمفسّرون أنّ سبب سجود المشركين مع رسول الله ﷺ

هو ما جرى على لسانه من الثناء على آلهتهم، فباطل لا يصحّ منه شيء، لا من

جهة النقل ولا من جهة العقل^٨.

١. تفسير النسفي ٣: ١٠٦، ذيل الآية ٥٢ من سورة الحجّ (٢٢).

٢. تفسير البيضاوي ٢: ٤٥٤، ذيل الآية ٥٢ من سورة الحجّ (٢٢).

٣. تفسير الخازن ٣: ٣١٣، ذيل الآية ٥٢ من سورة الحجّ (٢٢).

٤. انظر نسيم الرياض في شرح الشفا ٤: ١٠؛ فتح الغدير ٣: ٤٦٢.

٥. السيرة الحلبية ٣: ١١٤.

٦. التفسير الكبير ٢٣: ٥١، ذيل الآية ٥٢ من سورة الحجّ (٢٢).

٧. حكاة عنه الفخر الرازي في التفسير الكبير ٢٣: ٥١، ذيل الآية ٥٢ من سورة الحجّ (٢٢)؛ فتح الغدير ٣: ٤٦٢.

٨. شرح صحيح مسلم للنووي ٥: ٧٥.

وفي سيرة السيّد أحمد دحلان:

إِنَّ قِصَّةَ الْغُرَانِيقِ أَثْبَتَهَا بَعْضُ الْمَحَدِّثِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ، وَنَفَاها آخَرُونَ وَقَالُوا: إِنَّهَا كَذِبٌ لِأَصْلِ لَهَا، وَالَّذِينَ أَثْبَتُوا اخْتَلَفُوا فِيهَا. وَالْمُحَقِّقُونَ عَلَى أَثْبَتِهَا لَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ بَلْ مِنْ كَلَامِ الشَّيْطَانِ أَقْبَاهَا إِلَى أَسْمَاعِ الْمُشْرِكِينَ وَلَمْ يَسْمَعْهَا الْمُسْلِمُونَ، وَقِيلَ: إِنَّ بَعْضَ الْمُشْرِكِينَ نَطَقَ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ فِي خِلَالِ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ^١.

يا شيخ، وإنّ من المفسرين من يُريد أن يبيّن سعة اطلاعه ومعرفته بأسباب نزول القرآن، فيتشبهت لذلك حتّى بالواهيات، فذكروا قصّة الغرائق سبباً لنزول قول القرآن في مكّة في الآية الثانية والخمسين من سورة الحجّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية، وادّعوا أنّ سورة الحجّ مكّيّة نزلت في مساء واقعة الغرائق في السنة الخامسة من البعثة بالنبوة.

مع أنّ سورة الحجّ مدنيّة بأجمعها، كما هو رواية ابن عبّاس وابن الزبير وقتادة والضحاك وغيرهم^٢.

دع عنك الرواية، ولكن سورة الحجّ لا يمكن أن تكون مكّيّة؛ فإنّ فيها ذكر الصّد عن المسجد الحرام^٣، ولم يكن ذلك إلّا بعد الهجرة.

وفيهما الأمر بالإذن بالناس في الحجّ وأنهم يأتون رجالاً ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^٤ ولم يكن ذلك إلّا بعد الهجرة بسنين.

وفيهما الإذن بالقتال^٥، ولم يكن ذلك إلّا بعد الهجرة.

وفيهما الأمر بالجهاد^٦، ولم يكن ذلك إلّا بعد الهجرة.

١. السيرة النبويّة ١: ٢٤٨.

٢. انظر تفسير البيضاوي ٤: ٣٧؛ التبيان ٧: ٢٨٧.

٣. في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَشْجِدِ الْأَحْرَامِ﴾، سورة الحجّ، الآية ٢٥.

٤. في قول الله تعالى: ﴿وَأُذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا...﴾، سورة الحجّ، الآية ٢٧.

٥. في قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نُصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، سورة الحجّ، الآية ٣٩.

٦. في قول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾، سورة الحجّ، الآية ٧٨.

يا شيخ، وقد رأيتُ ما ذكر من اضطراب هذه الحكاية وتناقض نقولها في الجزء الأول من كتاب الهدى صحيفة ١٦٠ إلى ١٦٤، وذكرت ما ذكرته هنا إضافة لذلك.

الشيخ: يا عمانوئيل، إذا كيف تقول: إنَّ نبيكم قال: تلك الغرائق العُلى؟!
عمانوئيل: سامحني يا سيدي، فأني في أوَّل الأمر وجدتُ ذلك في كتاب جمعيَّة الهداية المطبوع بمعرفة المرسلين الأمريكيان، في الجزء الأول صحيفة ٦٢، وقد أبدوها بصورة الحقيقة الواضحة حيث قالوا: قال ابن عباس وجميع المفسرين سواء كانوا متقدمين أو متأخرين، وساقوا الحكاية.

ووجدت الحكاية أيضاً في الرحلة الحجازية للشيخ غريب بن الشيخ عجيب وقال فيها: «قال المفسرون».

فحسبُ من ذلك - اعتماداً على أمانتهم - أنَّ المفسرين المسلمين قد أجمعوا على صحَّة هذه الحكاية، ولكن بعض الأمور تبهتني على أنه لا ينبغي الاعتماد على كلِّ ناقل، فتتبع الحكاية فوجدتها خرافة باطلة، كما شرحته لك.

وزيادة على ذلك وجدتُ كتب السير تُصرِّح بأنها تروي الضعيف والسقيم والمنقطع والمعضل، كما قاله الحلبي في أوَّل سيرته^١.

وقال في عيون الأثر - سيرة الحافظ -: «والذي ذهب إليه كثير من أهل العلم الترخُّص - أي التساهل - في الرقائق»^٢ أي أخبار المغازي والحكايات.
وقال الزين العراقي:

وليُعلم الطالب أنَّ السيراً تجمع ما صحَّ وما قد أنكر^٣
الشيخ: يا عمانوئيل، ما هو الذي تبهك على عدم الاعتماد على نقل أصحابك؟

١. السيرة الحلبيَّة ١: ٢.

٢. عيون الأثر ١: ١٤.

٣. الألفيَّة في علم الحديث: ٤٥.

الجمعيّة، هاشم العربي، الغريب بن العجيب

عمانوثيل: الذي تبهني هو ما ذكرناه - صحيفة ٢٠ - من أنّ جمعيّة كتاب الهداية قالت: لم يقل الله في التوراة: «وبارك الله اليوم السابع وقدّسه» مع أنّ هذا الكلام بعينه موجود في التوراة^١.

وما ذكرناه - صحيفة ٣٤ - من دعوى الجمعيّة المذكورة أنّ القرآن ذكر لفظ «قاييل»، لأنّه على وزن «هاييل»، مع أنّ هذين الاسمين لا وجود لهما في القرآن أصلاً. ورأيت هاشم العربي في الصحيفة الحادية عشرة من الطبعة الأولى لتذييله لتعريب مقالة سايل، والغريب ابن العجيب في رحلته صحيفة ٩٧ يقولان: «وأيضاً ورد في [سفر] التكوين أنّ إسماعيل لما مات أبوه إبراهيم أتى دفنّه». وقد زادنا من عندهما على التوراة لفظة «أتى» زيادة واضحة لأجل غرض فاسد، مع أنّه لا توجد لفظة «أتى» ولا ما في معناها، لا في الأصل العبراني ولا في التراجم بأقسامها. وإنّما الموجود في العدد الثامن والتاسع من الفصل الخامس والعشرين من سفر التكوين:

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ مَاتَ بِشَيْخَتِهِ صَالِحَةً شَيْخًا وَشَبْعَانَ وَأَنْصَمَ إِلَى قَوْمِهِ. دَفَنَهُ إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ أَبْنَاءَهُ فِي مَعَارَةِ الْمَكْفِيلَةِ.

الشيخ: إنّ تراجمكم تقول: «شَيْخًا وَشَبْعَانَ أَيَّامًا»^٢ فلماذا أسقطت أنت لفظة «أَيَّامًا»؟ عمانوثيل: يا شيخ، هل تريد أن أكون مثل المترجمين أزيد على التوراة ما ليس فيها؟ أما إنّه لا توجد في الأصل العبراني لفظة «أَيَّامًا» ولا معناها، ونصّ الأصل العبراني هكذا: «ويمت ابرهام بشييه طوب زقن وشبع ويساف ال عميو». ومعنى الكلام «شَيْخًا وَشَبْعَانَ» أي غنيًا.

الشيخ: هل يوجد أيضاً في التراجم زيادة اتّفتت عليها مثل هذه الزيادة على الأصل العبراني؟

١. سفر التكوين ٢: ٣.

٢. كما في الترجمة العربية المتوقّرة لدينا المطبوعة في بيروت سنة ١٨٧٠م.

عمانوئيل: نعم، يوجد في خصوص أسفار التوراة الخمسة أكثر من ستين كلمة، قد أشارت إليها النسخة الثالثة المذكورة في صحيفة ٣٢ - ٣٣، فطبعت هذه الزيادات في أثناء التوراة بحرف صغير. ولكن هذه الزيادات منها ما هو تصحيح لنقصان عبارة التوراة، ومنها ما هو زيادة من عند المترجمين.

القَس: عُد إلى قراءتك يا عمانوئيل من حيث انتهيت.

خطاب الله لإبراهيم ﷺ، واختلاف العهدين

عمانوئيل: فقرأتُ حتّى انتهيتُ إلى العدد الحادي والثلاثين وما بعده من الفصل الحادي عشر من سفر التكوين فقلت: يا سيدي، إن التوراة إلى الآن لم تذكر أحوال إبراهيم وإيمانه وتوحيده ونبوته، وكلام الله معه حينما كان في بلاده فيما بين النهرين - الفرات ودجلة - ولم تذكر من أحواله إلا: أَنْ تَارَحَ أَخَذَ إِبراهيمُ ابْنَهُ وَلُوطاً ابْنَ ابْنِهِ وَسَارَةَ امْرَأَةَ إِبراهيمَ، فخرجوا من أَوْرِ الكَلْدَانِيَّيْنِ لِيُذْهِبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ فَأَتُوا إِلَى حَارَانَ وَأَقَامُوا هُنَاكَ. وَمَاتَ تَارَحُ فِي حَارَانَ^١.

ثمّ قالت في الفصل الثاني عشر ما ملخصه: وقال الله لإبراهيم: أُخْرِجْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. فَذَهَبَ إِبراهيمُ وَذَهَبَ مَعَهُ لُوطُ وَكَانَ إِبراهيمُ ابْنُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ. فَأَخَذَ إِبراهيمُ سَارَةَ وَلُوطاً وَكُلَّ مَقْتَنِيَاتِهِمَا وَالنَّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ^٢.

يا سيدي، والعهد الجديد يقول في أوائل الفصل السابع من أعمال الرسل: ظهر إلهُ المجدِّ لإبراهيم وهو فيما بين النهرين قبلما سكن في حاران. وقال له: اخرج من أرضك ومن عشيرتك إلى الأرض التي أريك، فخرج حينئذٍ من أرض الكلدانيين وسكن في حاران^٣.

١. سفر التكوين ١١: ٣١ و ٣٢.

٢. العدد ١ - ٥.

٣. العدد ٢ - ٤.

يا سيّدي، هل كان الله خاطب إبراهيم فيما بين النهرين، وأهملته التوراة وحوّلتها إلى الخطاب في حاران، أم كان هذا الخطاب في حاران وحوّله العهد الجديد إلى ما بين النهرين؟ لكن يا سيّدي، نفس الخطاب بيّن أنّه كان بين النهرين أرض إبراهيم ومحلّ عشيرته وبيت أبيه، فإنّ حاران ليست أرض إبراهيم ولا فيها له عشيرة ولا بيت أبيه، بل كان هو وأبوه ولوط وسارة في حاران نزلت غرباء، يا سيّدي، فلماذا يكون مثل هذه في التوراة؟

القس: يا عمانوئيل قد وقع ما لا تحبّ، فاقراً.

شكّ إبراهيم ﷺ في التوراة، والكلام المشوّش

عمانوئيل: فقرأتُ حتّى انتهيتُ إلى الفصل الخامس عشر، وقرأتُ فيه من العدد الثامن إلى الثاني عشر وفيها: إنّ الله قال لإبراهيم:

أنا الربّ الذي أخرجك من أور الكلدانيّين ليُعطيك هذه الأرض لترثها. فقال: أيّها السيّد الربّ بماذا أعلم أنّي أرثها؟ فقال له: خذ لي عجلة ثلاثيّة وعنزة ثلاثيّة وكبشاً ثلاثيّاً ويمامةً وحمامةً. فأخذ هذه كلّها وشقّها من الوسط وجعل شقّ كلّ واحد منها مقابل الآخر، وأمّا الطير فلم يشقّه. فنزلت الجوارح على الجثث وكان إبراهيم يزرعها^١.

فقلتُ: يا سيّدي، إنّ إعطاء الأرض من أناس لآخرين من الأمور العاديّة في الدنيا، والله يقول له: أعطيك هذه الأرض لترثها. فكيف يشكّ إبراهيم بوعد الله ويقول له: «بماذا أعلم أنّي أرثها؟؟! أفلا يفيدُه وعد الله علماً؟! ألم يكن مؤمناً؟! هل جاءت الحيّة الصادقة الناصحة لإبراهيم كما جاءت لحواء وقالت له: «لا ترثها»^٢. بل إنّ هذا القول كالقول لآدم بأنّه يوم يأكل من الشجرة موتاً يموت^٣.

١. سفر التكوين ١٥: ٨-١٢.

٢. إشارة لهما في أوائل الأصحاح الثالث من سفر التكوين.

٣. إشارة لهما في سفر التكوين ٢: ١٧.

يا سيّدي، دعنا من هذا، ولكن ما هو محصل هذه العلامة التي أعطاها الله - بقول التوراة - لإبراهيم؛ لكي يحصل له العلم بصدق الوعد؟ أفلا ترى أنّ كلام العلامة هو دمدمة وكلام مبتور لا محصل له ولا فائدة ولا ربط؟ ولم يقل الله لإبراهيم: شقّ هذه الحيوانات ما عدى الطير، فلماذا فعل إبراهيم ذلك؟ أهكذا يكون كلام الله والتوراة الحقيقية؟! حاشا لله ولكتبه ولأنبيائه.

إيمان إبراهيم والحجّة الواضحة في القرآن

القس: يخطر في بالي أنّه جاء في القرآن في حديث إبراهيم مثل هذا الكلام، فاقراً ذلك من أواخر سورة البقرة.

عمانوييل: فقرأت الآية ٢٦٠: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَيْنَ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا».

القس: كيف ترى هذا الكلام يا عمانوييل؟

عمانوييل: أراه كلاماً منتظم البيان، تامّ الفائدة، عظيم الحجّة، جارياً في مهمّ المعارف، يحقق إيمان إبراهيم ويبيّن مجده بطلب الاطمئنان بتأييده المعلوم بالحسّ، فإنّ إحياء الموتى أمرٌ كبير، يحتاج الاطمئنان في الإيمان به إلى التأييدات الحسيّة. لكن يا سيّدي، كيف يذكر القرآن هذا والتوراة تذكر غيره على ما سمعته، مع أنّ اليهود والنصارى يقولون: إنّ القرآن يأخذ قصصه من التوراة، فما هو سبب الاختلاف؟

القس: السبب هو أنّ أحد الكتّابين يكتب وحي الله الحقيقي، فاجعل عقلك ميزانك واقراً.

الملاك والله والتوراة

عمانوييل: فقرأت حتّى بلغت العدد السابع إلى الرابع عشر من الفصل السادس عشر من التكوين في قصّة هاجر وبشرى الملاك لها بإسماعيل وخطابه معها، فقالت التوراة:

ووجدها ملائكة الرب. فقال لها ملائكة الرب. وقال لها ملائكة الرب - مكرراً وفي الأثناء - . وقال لها ملائكة الرب تَكثِيراً أَكْثَرَ نَسَلِكِ.

فقلتُ: يا سيدي، هذا القول لا يكون من الملاك، فَإِنَّ المُكْتَرَّ لِلنَّسْلِ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ لَا الْمَلَائِكَةَ، فكيف تسببه التوراة إلى الملاك؟ دع هذا، ولكنَّ التوراة تقول بتكرارها: إِنَّ الَّذِي تَكَلَّمَ مَعَ هَاجِرٍ هُوَ مَلَائِكَةُ اللَّهِ، فكيف تقول بعد ذلك: «فدعت اسمَ الله الذي تكلم معها»؟! فما بال توراتنا لا تميِّز بين الله والملاك؟!!

القَس: سترى في التوراة من مثل هذا كثيراً.

عمانويل: هل كثرة المشكلات تحلَّ المشكل؟ وهل كثرة الخطأ تجعله صواباً؟

القَس: لا .. وقرأ من حيث انتهيت.

إبراهيم والله والملائكة في التوراة

عمانويل: فقرأتُ إلى أن قرأتُ الفصل الثامن عشر والتاسع عشر، والقَس يسمع ويتسم، فتأملتُ في المضامين، فتناقضت عليَّ زيادة على آتي لم أقدر أن أدرجها في المعقول. فقلت: يا سيدي أنقذني بإفادتك، فَإِنَّكَ تَسْمَعُ أَنَّ التوراة تقول كلاماً ملخَّصه:

وظهَرَ لِإِبْرَاهِيمَ يَهُوه - اللَّهُ - فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمَ عَيْنَيْهِ وَإِذَا ثَلَاثَةٌ أَنَا سِينِ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمَ: يَا سَيِّدِي إِنْ كُنْتُ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنِكَ فَلَا تَجَاوِزْ عَبْدَكَ لِئَوْحَدَ قَلِيلٍ مَاءٍ فَاغْسِلُوا أَرْجُلَكُمْ. فَأَخَذَ كَسْرَةَ خَبِيزٍ فَنَسْنَدُونَ قُلُوبَكُمْ. وَعَمِلَ لَهُمْ طَعَاماً فَأَكَلُوا. وَبَشَرُوا سَارَةَ بِالْوَلَدِ. فَضَحَكَتْ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ عَجُوزاً. فَقَالَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ: لِمَاذَا ضَحَكْتَ سَارَةَ هَلْ يَعْسرُ عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ فِي الْمِعَادِ أَرْجِعْ إِلَيْكَ وَيَكُونُ لِسَارَةَ ابْنٌ. ثُمَّ قَامَ الْآنَا سِينِ نَحْوَ سَدُومَ وَكَانَ إِبْرَاهِيمَ مَاشِياً مَعَهُمْ. فَقَالَ اللَّهُ: هَلْ أَخْفَيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ شَيْئاً؟ وَقَالَ اللَّهُ: إِنَّ صَرْخَةَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ كَثُرَتْ. أَنْزَلْتُ وَأَرَى هَلْ فَعَلُوا حَسَبَ صَرَخَتِهَا الْآتِي إِلَيَّ؟ وَإِلَّا فَاعْلَم. فَذَهَبَ الْآنَا سِينِ نَحْوَ سَدُومَ وَإِبْرَاهِيمَ بَعْدَ وَقْفِ أَمَامَ اللَّهِ.

وذكرت خطاب إبراهيم مع الله في ذلك الموقف، وخطاب الله معه، إلى أن قالت: «وذهب الله عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم».

ثم قالت في الفصل التاسع عشر:

وجاء الملاكان الاثنان إلى سدّوم... فاستقبلهما لوط. وقال: ميلا إلى بيتي واغسلا أرجلكما... فصنع لهما خبزاً فطيراً فأكلوا... وقال الأناسين للوط، وأخبروه بإهلاك البلدة... ولما طلع الفجر كان الملائكة يُعجلون لوطاً... وتوانى فأمسك الأناسين بيده وأخرجوهم... وكان لماً أخرجوهم، قال: اهرب لحياتك... وقال لوط لهم: لا يا سيّدي ها أنا عبدك وجدت نعمة في عينك... فقال له: قد رفعتُ وجهك لا أقلب... لا أقدر أن أفعل شيئاً حتّى تجيء إلى هناك^١.

يا سيّدي القسّ، كيف يكون ظهور الله بروية إبراهيم لثلاث أناسين؟! وكيف يخاطبهم إبراهيم بخطاب الواحد ويقول لهم: «يا سيّدي، في عينك، لا تجاوز عبدك»؟! ثمّ يعود إبراهيم يخاطبهم خطاب الجماعة: «اغسلوا أرجلكم، تسندون قلوبكم» وتقول التوراة: «أكلوا».

يا سيّدي، من هم الذين أكلوا؟ هم بشر، أم ملائكة، أم هم الله -جلّ شأنه-؟ بدليل قول التوراة:

فقال الله: لماذا ضحكت، في الميعاد أرجع إليك، وقال الله: هل أخفي، وقال الله: إنّ صرخة سدّوم.

يا سيّدي، ما حاجة الله إلى النزول لكي يرى ولكي يعلم؟ تراه لا يرى ولا يعلم إذا لم ينزل؟ فهو يسمع الصرخة ولكنّه لا يرى ولا يعلم إلا أن ينزل؟ وأين هو لكي ينزل؟ وأين ذهب الله بعدما كلّم إبراهيم؟

يا سيّدي، الأناسين الثلاثة كيف صاروا ملاكين اثنين؟ وكيف أكل الملاكان من ضيافة لوط؟! وكيف صاروا واحداً؟! وكيف يخاطبهم لوط بعد ذلك بقوله: «يا سيّدي، عبدك، عينك»؟!

ومن هو الذي يخاطبه لوط؟ ومن هو الذي يقول للوط: «رفعت وجهك، لا أقلب، لا أقدر أن أفعل شيئاً»؟ هل هو الله؟ وكيف لا يقدر؟!

القس: إن أصحابنا يقولون: إن الأناسين الثلاثة هم أقانيم الله، فالله ظهر لإبراهيم بأقانيمه الثلاثة، والله واحد ذو أقانيم ثلاثة، فإبراهيم يخاطب الله بخطاب الواحد: لأن الله واحد، ويخاطبه بخطاب الجماعة باعتبار أقانيمه الثلاثة.

عمانوئيل: لا أقول لهم عاجلاً: كيف يكون الله واحداً ثلاثة؟! فإنهم يقولون: اسكت يا عديم الإيمان، هذا أمر وراء العقل والمعقول. وإني أؤخر الكلام في هذا، ولكن أقول عاجلاً: هل لأن إبراهيم يعلم بأن الله ظهر له بأقانيمه الثلاثة، قال للأقانيم - الذين هم الله -: اغسلوا أرجلكم، تسدون قلوبكم، وأكرمهم بعمل الطعام؟ وهل لأنهم أقانيم الله أكلوا من طعام إبراهيم؟ هل الله يأكل؟

ثم إن الأقانيم الثلاثة كيف صاروا عند لوط ملاكين اثنين؟! أين صار الأقنوم الثالث؟ أليس الثلاثة غير الاثنين، والأقانيم غير الملائكة؟ هل من المعقول أن يكون الله أو أقانيمه أو الملائكة يأكلون؟

كرامة القرآن

يا سيدي، إن التوراة - التي نؤمن بأنها كلام الله - أوردت القصة بهذه المتناقضات والأمور الخارجة عن حد المعقول، والقرآن - الذي لا يؤمن به غير المسلمين - أورد هذه القصة على النحو المعقول السالم من التناقض ومن كل ما يخالف العقل، كما تراه من الآية التاسعة والستين إلى الثالثة والثمانين من سورة هود المكّية، وفي الآية الرابعة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين من سورة الذاريات المكّية، فقد أوضح فيها أن الذين جاؤوا إلى إبراهيم هم رُسل الله من الملائكة وأنهم لم يأكلوا.

القس: قال - وهو مبتسم -: إن أصحابنا يقولون: إن محمداً أخذ قصص القرآن من التوراة بتعليم اليهود وغيرهم؛ لأنه كان لا يقرأ ولا يكتب.

عمانوئيل: محمداً إنما هو من عرب متوحّشين وثنيين، لا يميّزون في الإلهيات بين

المعقول وغير المعقول، بل إنَّ عبادتهم للأوثان جارية على غير المعقول.
 فلو كان محمد يأخذ قصص القرآن من التوراة وتعليم اليهود، لجاء بهذه القصة
 وغيرها على ما في التوراة من التناقض وغير المعقول، وزاد عليها بالاضطراب
 ومخالفة المعقول حسبما تقتضيه وحشية قومه ووثنيته وقصورهم في المعارف.
 ألا وإني تتبعتُ قصص القرآن التي يقول اليهود وأصحابنا: إنَّ محمدًا أخذها من
 التوراة والإنجيل وباقي كتب العهدين، فوجدتُ قصص القرآن كأنها تصحيح لأغلاط
 قصص العهدين، وتهذيب لها من مخالفة المعقول، وتصفية لها من الخرافات، أفليس
 هذا من العجيب المدهش؟!

هذه كتب العهدين، يؤمن أصحابنا بأنَّها كلام الله المقدّس، وهي مملوءة بما يزعم
 العقل والاستقامة، وهذا القرآن لا يؤمن أصحابنا بأنه كلام الله، وهو الوحيد في موافقة
 العقل والاستقامة العظمى.

وليت اليهود والنصارى لم يقولوا: إنَّ قصص القرآن أخذها محمد ﷺ من العهدين؛
 فإنَّ هذا القول يحرك ويبعث على المقابلة بين قصص القرآن وقصص العهدين، فيظهر
 مجد القرآن ظهور الشمس، ونبقى نحن نتجرّع غصص الخجل، فهل تسمح لي بأن
 أقابل بحضرتك بين قصص القرآن وقصص العهدين؟

القس: قد قابلت في درسك في قصة آدم والشجرة وإبليس، وفي قصة إبراهيم
 والطيور، وفي هذه القصة، ولعلّما تجري المقابلة إذا استمرّ درسك، ولكن يا عمانوئيل،
 إنك تتكلّم بأمر كبير يسخطها عليك قومك.

عمانوئيل: قومي أهل الحقّ وحرّية الضمير، فما بالك يا سيدي لا تشفي نفسي
 بالبيان، تقرب الماء إلى فمي ثمّ تمسكه عني؟!

القس: أريد أن تقرب إلى الحقّ بسيرك، لكي يسهل عليّ إرشادك، فاكتب كلّ ما
 مضى من درسك في دفتر قلبك؛ لكي تكون أنت الذي تصفّي حساب الحقيقة، وأنا لك
 كالمعاون والله خير معين.

عمانوئيل: كتبتُ ما مضى في قلبي، وأكتب بعون الله ما يأتي، وأكتب كلماتك

الذهبية في رأس الصحيفة بكتابة ثابتة كالنقش في الحجر، ومع ذلك فإني أكتبه بقلم التحرير لكي يكون أنموذجاً للرأي وعبرة.

لكن بقي شيء وهو أن الفصل التاسع عشر يذكر في أواخره أنه لما قلب الله سدوم وعمورة وأنجى لوطاً كان معه ابتناه، فسكن معهما في مغارة الجبل، فتشاورت ابتناه واتفقتا على أن تسقيا أباهما خمراً؛ لكي تضطجعا معه ويواقعهما فسقتاه خمراً واضطجعت معه الكبيرة فواقعها وهو لا يعلم، وسقتاه في الليلة الثانية واضطجعت معه الصغيرة فواقعها وهو لا يعلم، فحبلت البنتان من أبيهما وولدتا^١.

يا سيدي، هل يمكن أن يكون مثل هذا من لوط البار؟ وهل يذكر القرآن مثل هذه القصة للوط؟

القس: توراتنا تقول: قد كان ذلك، ولا أدري ماذا يقول وجدانك، والقرآن لا يذكر أمثال هذا، فاقراً.

الختان في التوراة والعهد الجديد

عمانويل: فقرأتُ إلى العدد التاسع، فقرأته إلى العدد الخامس عشر من الفصل السابع عشر وقلت: ليس من الصحيح أن تتجاوز هذا المقام بدون أن تفيدني تحقيق الحال فيه: فإنّ هذا المقام يحقّق أنّ الختان هو عهد الله مع إبراهيم ونسله ومتعلّقيه، وأنّ الذّكر الذي لا يختن يقطع من شعبه؛ لأنّه نكث عهد الله.

يا سيدي، فهل هذا خاصّ بإبراهيم ونسله وأتباعه، أم هو شريعة عامّة وعهد الله مع جميع المؤمنين؟

القس: هو عهد الإيمان وشريعة المؤمنين، ولأجل انحصار المؤمنين في ذلك الوقت بإبراهيم وأتباعه صدر الحكم لهم. وقد قرّرتّه شريعة موسى تقريراً مؤكداً، وجعلته شرطاً في عمل الفصح والأكل منه للنزول في بني إسرائيل ومولود الأرض والعبد

المبتاع شريعة واحدة، فانظر في الفصل الثاني عشر من سفر الخروج والثاني عشر من سفر اللاويين.

ودامت عليه الأنبياء والمؤمنون إلى ما بعد ميلاد المسيح بنحو خمسين سنة، وبولس الرسول نفسه يشهد في رسالة رومية في العدد الحادي عشر من الفصل الرابع بأن إبراهيم أخذه علامة - أي مهراً وتسجيلاً - لبرّ الإيمان الذي كان في القرّة^١.
 عمانوئيل: إذاً فما هو الذي أوجب رفع هذه الشريعة التي هي عهد الله وعلامة الإيمان؟
 القس: كتب العهد الجديد تقول: أبطها الرّسل وبولس فيما بعد المسيح بنحو سبع عشرة سنة، أفلم تنظر إلى الفصل الخامس عشر من أعمال الرسل والكلمات المذكورة في الرسائل المنسوبة إلى بولس.

عمانوئيل: نظرتُ في الخامس عشر من الأعمال فوجدته لم يكتفِ بإبطال الختان فقط، بل أبطل عامّة الشريعة الموسويّة التي أوصى المسيح في الإنجيل بحفظها وكان مواظباً عليها. يا سيّدي، ولم يستندوا في إبطالها إلى أمر إلهي، بل استندوا إلى مجرد الاستحسان والتوهين لموسى وشريعته والتسهيل على الأمم.
 وأمّا الكلام الوارد في الرسائل المنسوبة إلى بولس في رفع الختان والشريعة، فلم أجد فيه إلّا دمدمةً متناقضةً وعبياً لشريعة موسى ولا يجد الإنسان في ذلك أقلّ مقنع.

عبد المسيح في كتابه، والختان

القس: قال بعض أصحابنا: إنّ الله لما كان يريد أن يدخل من أولاد إبراهيم بني إسرائيل إلى مصر، وهو يعلم أنّ الهوى يحملهم على ارتكاب الفواحش، فجعل لهم الختان؛ لكي تكون المرأة المصريّة إذا نظرت إلى هذه العلامة والتشويه في جسده امتنعت عن زناه بها، إذاً فلا حاجة إلى شريعة الختان بعد خروجهم من مصر.

عمانوئيل: هذا كلام عبدالمسيح الكندي في الرسالة المكتوبة في زمان المأمون - على ما يقال: - يريد بها الاعتذار عن إبطال الختان، ولو لم يعتذر لكان

١. القرّة: الثّلثة. القاموس المحيط ٤: ٢٤، «غزل».

خيراً؛ لاحترامه لجلال الله وقدس أنبيائه.

أفلا يقال لعبد المسيح: إذا كان لا حاجة إلى شريعة الختان بعد الخروج من مصر، فلماذا أكد الله شريعته في برية سيناء بعد خروجهم من مصر بأكثر من سنة، فكلم الله موسى بأن الذكر في اليوم الثامن من ولادته يُختن في لحم عُزْلَتَيْهِ، كما في الفصل الثاني عشر من سفر اللاويين؟^١

ولماذا أمر الله يوشع أن يختن بني إسرائيل الذين لم يختنوا في البرية، فختنهم في الجلجال بين الأعداء وعرضهم لخطر الهجوم عليهم، وقال الله: «اليوم قد دَخَرَجْتُ عنكم عار مصر» وهي عُزْلَةُ الشوك، كما في الفصل الخامس من كتاب يوشع^٢، وكان ذلك بعد خروجهم من مصر بأكثر من أربعين سنة.

ولماذا دام الأنبياء والمسيح ورسل المسيح على شريعة الختان إلى ما بعد المسيح بنحو سبع عشرة سنة، فدامت شريعة الختان بعد الخروج من مصر بنحو ألف وأربعمائة وأربعين سنة؟

ولماذا لا يعتذر التلاميذ ويولس في رفع شريعة الختان بمثل ما اعتذر به عبد المسيح؟ يا سيدي، هذا أمر دُبِّرَ لبيل.

القَس: اقرأ من حيث انتهيت يا عمانوئيل.

مَنْ هو ابن إبراهيم الوحيد

عمانوئيل: فقرأتُ حتَّى انتهيتُ إلى الفصل الثاني والعشرين، وقرأتُ قصَّة امتحان الله لإبراهيم بذبح ولده، فقلتُ: يا سيدي، إنَّ التوراة ذكرتُ خطابَ الله لإبراهيم ثلاث مرَّات بقوله: «ابنك وحيدك» وصرَّحتُ بأنَّه إسحاق.

يا سيدي، وهذا من المتناقض، فإنَّ إسحاق لم يكن الولد الوحيد، بل كان أخوه إسماعيل موجوداً معه، وهو أكبر من إسحاق بنحو خمس عشرة سنة، ولا يصدق لفظ

١. العدد ٣.

٢. العدد ٩.

«الوحيد» إلا في إسماعيل حينما لم يكن إسحاق مولوداً.

القس: إن المسلمين يقولون: إن الله امتحن إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، وهو الوحيد. عمانوئيل: أفلا نقول: إن المسلمين حوّلوا هذه القصة لإسماعيل؛ لكي يحوّلوا فخرها بالتسليم لأمر الله وبالفداء لإسماعيل جدّ نبيّهم وجدّ كثير منهم؟

القس: إن التناقض الذي ذكرته في التوراة ووصف الولد بالوحيد يؤيد مزاعم المسلمين. عمانوئيل: إن التوراة تصرّح بأن الابن الوحيد هو إسحاق.

القس: إن سؤالك الأوّل يرجع إلى أنّ التوراة أخطأت بواحد من أمرين: إمّا أن تكون أخطأت بوصف الابن بالوحيد، وإمّا أن تكون أخطأت بتسميته إسحاق.

عمانوئيل: كيف يقع مثل هذا في التوراة؟!

القس: قد وقع؛ فإنّ التوراة لمّا تعرّضت في الفصل السابع والثلاثين من [سفر]

التكوين لذكر الذين اشتروا يوسف من إخوته وباعوه في مصر، قالت في العدد ٢٥:

وإذا قافلة إسماعيليين مُقبلة... لينزلوا إلى مصر. فقال يهوذا: تعالوا نبيعه

للإسماعيليين... واجتاز رجال مديانّيون تجّار... وباعوا يوسف للإسماعيليين...

فأتوا به إلى مصر... وأمّا المديانّيون - وصحّته التراجم «المديانّيون» - فباعوه في

مصر لفوطيفار خصي فرعون^١.

ثمّ قالت التوراة في الفصل التاسع والثلاثين:

وأما يوسف فأُنزل إلى مصر واشتراه فيها فوطيفار... من يد الإسماعيليين الذين

أُنزلوه إلى هناك^٢.

يا عمانوئيل، فالتوراة سمّتهم تارةً إسماعيليين، أي من أولاد إسماعيل بن إبراهيم

من هاجر.

وتارةً مديانّيين، أي من أولاد مديان بن إبراهيم من قطورة.

وتارةً مديانّيين، أي من أولاد مدان بن إبراهيم من قطورة أيضاً، ثمّ سمّتهم

١. سفر التكوين ٣٧: ٢٥-٣٦.

٢. سفر التكوين ٣٩: ١.

إسماعيليين. يا عمانوئيل، هذا حال توراتنا، اقرأ من حيث انتهيت.

التوراة وبركة يعقوب وما جرى فيها

عمانوئيل: فقرأتُ حتى بلغتُ الفصل السابع والعشرين إلى العدد الأربعين ثم سكتُ، فتبسّم القس وقال: كيف أنت؟ لماذا سكتَ؟

فقلتُ: لماذا تبسّم سيدي؟ أليس قد شاركني في التعجّب؟

فقال القس: لا عليك يا عمانوئيل، قل ما عندك.

عمانوئيل: يا سيدي، إن إسحاق النبي أراد أن يبارك عيسو ابنه البكر، ولا علينا أن ذلك بأمر الله ورضاه وأوليس كذلك، ولكن ما هو الداعي لأن يقول يعقوب لعيسو: «اذهب

وصد صيداً. واصنع لي منه أطعمة كما أحبّ حتى تُباركك نفسي قبل أن أموت»؟^١
وما هي الحاجة لأن يؤخّر البركة إلى الشبع من الصيد؟ هل البركة لا تكون على الجوع؟ أو أنّها لا تكون إلا برشوة؟
هذا هيّن، ولكنّ التوراة تقول:

إنّ يعقوب أخذ جدّيين^٢ من المعز. وصنع منهما أطعمة. ولبس ثياب عيسو وزوّر ملاسة يديه وعنقه بأن جعل عليها جلد جدي لكي يكون مُشعراً كعيسو. وقال لأبيه إسحاق: أنا عيسو بركك فعلت كما كلمتني كل من صيدي. فقال إسحاق: هل أنت ابني عيسو؟ فقال يعقوب: أنا هو. فأكل إسحاق من الصيد وشرب خمراً. ثم بارك يعقوب ببركة الثروة والسيادة القومية والروحانيّة. فجاء عيسو إلى أبيه يطلب البركة التي وعده بها.

فلما عرف إسحاق المكر من يعقوب ارتعد ارتعاداً عظيماً وقال: مَنْ هو الذي باركته نعم، ويكون مباركاً... فصرخ عيسو وقال لأبيه: باركني أنا أيضاً. فقال: جاء أخوك بمكرٍ وأخذ بركتك... فقال عيسو: أما بقيت لي بركة؟ فقال إسحاق:

١. سفر التكوين ٢٧: ٣ و ٤.

٢. مثنى الجدي، وهو الذكر من ولد المعز. الصحاح ٦: ٢٢٩٩، «ج دي».

إني قد جعلته سيّداً لك ودفعْتُ إليه جميع إخوته عبيداً وعضدته بحنطة وخمر
فماذا أصنع إليك يا بني^١.

يا سيدي القسّ، التوراة تقول: «إنَّ يعقوب خادع أباه وزوّر عليه وكذب عليه
بلسانه أربع مرّات» فقل لي: هذه البركة هل هي مربوطة بمجرّد كلام إسحاق
وشبعه من الصيد والخمر وإن كانت على خلاف مقصوده، وإن كان مخدوعاً مغروراً،
وليس لله في هذه البركة إرادة ولا حكمة ولا نظر إلى لياقة، بل ينظر الله في بركته
إلى لسان إسحاق وشبع بطنه من الصيد والخمر وإن جعلها إسحاق لخداع كذوب على
ما تقول التوراة؟

القسّ: لعلّ تحويل البركة إلى يعقوب كان بإرادة الله.

عمانوييل: التوراة تقول: إنَّ الله أوحى لموسى في التوراة قصص لوط وابنتيه^٢،
وذيّنة بنت يعقوب^٣، وثامار كنة يهوذا^٤، ومصارعة يعقوب مع الله^٥، وأطال الكلام مع
موسى في تفصيل ثياب هارون وتلوينها وأجراسها حينما كان هارون - بزعم التوراة -
يدعو إلى عبادة العجل^٦.

ودع عنك غير ذلك ممّا في المهدين من الفضول الفارغة، وفضائع الأنبياء وعائلات
الأنبياء. أفلم يكن من الممكن أن يأتي الوحي إلى إسحاق من أوّل الأمر بأن يجعل
البركة ليعقوب، ولا يترك يعقوب يكون مزوراً كذاباً، ولا تكون الأمور الإلهية والنبويّة
عرضة للاستهزاء؟! حاشا التوراة الحقيقيّة من أمثال هذا.

القسّ: وما عسى أن أقول لك عاجلاً، اقرأ.

عمانوييل: فقرأتُ حتّى بلغتُ الفصل الثاني والثلاثين، وقرأتُ فيه العدد الرابع

١. سفر التكوين ٢٧: ١-٣٨.

٢. سفر التكوين ١٩: ١-٨.

٣. سفر التكوين ٣٤: ١-٣٦.

٤. سفر التكوين ٣٨: ٦-٣٠.

٥. سفر التكوين ٣٢: ٢٤.

٦. سفر الخروج ٢٨ و٢٩.

والعشرين إلى أن بلغت الحادي والثلاثين، هذا والقس تارةً يتبسّم، وتارةً ينتفض منزعاً، فقلت: ها هي التوراة تقول:

إنَّ يعقوب صارعه إنسان إلى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر على يعقوب ضرب على فخذَه فانخلع وقال الإنسان ليعقوب: أطلقني، قال: لا أطلقك إن لم تباركني... فقال ليعقوب: لا يدعى اسمك يعقوب: بل إسرائيل - أي يجاهد الله - لأنك جاهدت مع الله ومع الناس وقدرت. وسأله يعقوب عن اسمه فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان فَنِيئِل - أي وجه الله - قائلاً: لأنِّي رأيتُ الإلهَ وجوهاً لوجوه ونجيت نفسي^١.

يا سيدي، فالتوراة تصرّح بأنَّ الإنسان الذي صارع يعقوب ولم يقدر على يعقوب، هو الله الذي لم يُطلقه يعقوب حتّى أخذ البركة منه بالقوّة والشجاعة، كما أخذها من أبيه إسحاق بالمكر والكذب، ولذا أعطاه الله وسام الشرف والغلبة بلقب إسرائيل.

يا سيدي، هل هذا من المعقول؟ ألا ترى هذه الكلمات تجعلنا معاشر الإلهيين الموحّدين سخرية ومضحكة استهزاء للمادّيين والوثنيين؟ أفهكذا تكون الأمور الإلهية والنبوية؟ وهكذا يذكر كتاب الله؟

القس: أما رأيتني عند قراءة هذه الكلمات تارةً أتبسّم وتارةً أنزعج؟ اصبر الآن. عمانوئيل: يا سيدي، وأيضاً إنَّ الأصل العبراني يكتب «وجوهاً لوجوه» بالجمع، والمترجمون يكتبونه «وجهاً لوجه» فهل ذلك لأجل أن كاتب العبراني غلط بالحقاق علامة الجمع - وهي الميم - إذ يكتب «فنيم ال فنيم»؟

القس: حقّق في الكلمة التي قبل هذا في الأصل العبراني.

عمانوئيل: فنظرتُ في الأصل العبراني وإذا الموجود فيه: «كي رأيتي الوهيم فنيم ال فنيم» أي لأنّه رأيت الآلهة وجوهاً لوجوه، فقلت: يا سيدي، كأنك تقول: ليس الغلط كتبياً بل هو غلط وثني إشراكي. فتبسّم القس وقال: أنت قلت ذلك، اقرأ ولا تعجل.

عمانوئيل: فقرأتُ، وقرأتُ في الفصل الخامس والثلاثين قول التوراة: «فظهر الله ليعقوب»^١ إلى قولها: «وصعد الله عنه في المكان الذي تكلم معه»^٢، وسَمِيَ يعقوب ذلك المكان بيت إيل - أي بيت الله - فقلتُ: يا سيدي، ما بال التوراة تنسب إلى الله الصعود والنزول؟ وهل الله جسم يصعد وينزل؟

القَس: وهل الله جسم يتمشى في الجنة ويسمع آدم صوت تمشيه؟^٣ وهل الله جسم يصارع يعقوب ولا يقدر أن يتخلص من يعقوب؟^٤ فلا تعجل بالسؤال وقرأ.

عمانوئيل: فقرأتُ في الفصل الثامن والثلاثين قصة زنى يَهُوذَا بن يعقوب بكنته ثَامار زوجة بكره - عير - حيث تعرّضت لزنائه بها فولدت منه ولدين فَارَص ورازح.^٥ فقلتُ: يا سيدي، ما حاجة الوحي وكتاب الله إلى ذكر هذه الشناعة وتوهين بيت النبوة وشعب الله، والطعن بولادة الأنبياء الصالحين كداود وسليمان والمسيح المولودين من ذرية فَارَص؟

وأيضاً يا سيدي، إن نفس التوراة في العدد الثاني من الفصل الثالث والعشرين من سفر التثنية تقول: «لا يدخل ابن الزنى في جماعة الربّ حتّى الجيل العاشر». فكيف دخل داود في جماعة الربّ مع أنّه الجيل العاشر؟! وكيف صار نبياً مقرباً أوحى الله إليه الزبور؟!

القَس: لا تعترض على كتاب الوحي بمثل هذا الاعتراض؛ فإنّ كتب وحيناً تذكر أنّ أمثون بن داود عشق أخته ثَامار بنت داود حتّى زنى بها، وكان المرشد إلى طريقة الزنى يُونآداب ابن أخي داود^٦، وقد سمع داود بذلك فلم يعامل أمثون بحدود الشريعة^٧.

١. سفر التكوين ٣٥: ٩.

٢. سفر التكوين ٣٥: ١٣.

٣. إشارة لما ورد في سفر التكوين ٣: ٨.

٤. إشارة لما ورد في سفر التكوين ٣٢: ٢٤.

٥. العدد ٣٠.

٦. سفر صموئيل الثاني ١٣: ١ - ٥.

٧. سفر صموئيل الثاني ١٣: ٢٢.

بل إنّ النسخة السبعينية في ترجمة هذا المقام - وهو الفصل الثالث عشر من كتاب صموئيل الثاني - تقول:

ولم يحزن داود روح أمثون ابنه؛ لأنه أحبّه. لأنه بكره. ولما سمع داود أن أمثالوم - شقيق ثامار - قتل أمثون بكى بكاء عظيماً وناح عليه كل الأيام^١.

وتقول كتب وحيناً: إنّ أمثالوم بن داود زنى بسراري أبيه ونسائه على السطح بمنظر بني إسرائيل، ولما مات بكى عليه داود كثيراً بصراخ قائلاً: «من يجعل موتي أنا عوضاً عنك يا أمثالوم ابني يا ابني» فانظر في سفر صموئيل الثاني في الفصل الثالث عشر والسادس عشر^٢ والثامن عشر^٣.

يا عمانوئيل، وأمّا ما ذكرته كتب وحيناً في قدس داود، وما نسبته إليه من القصة الزنايية مع امرأة أورياً^٤، والكيد مع أورياً^٥، وحكاية الحمل من الزنى^٦. فذلك ممّا تشعّر منه الجلود، ولا يصدر من أكثر الفساق المهتكين الخائنين - [انظر] إلى الفصل الحادي عشر من صموئيل الثاني - فإنّي أحشم قدس الأنبياء مثل هذه الشناعة. عمانوئيل: يا سيدي، كأنك تكذب ما نسبته كتب وحيناً لداود، فهل عندك ما يكذب هذه النسبة لقدس داود؟

القس: أفلا يكفي في تكذيبها أنّها خلاف المعقول؟! كيف تنسى ما قاله الشيخ - وما ذكره من التمثيل صحيفة ٤٣ -: إنّ من يفعل هذه الشيعة كيف يكون نبياً، يختاره الله لإرشاد عباده وزجرهم عن مثل هذه الأفعال وما دونها؟! هل يريد الله أن يجعل نبوته عرضةً للاستهزاء، فيخالف مجده وحكمته على خطأ مستقيم؟! عمانوئيل: يا سيدي، هل عندك غير هذا؟

١. العدد ٣٧.

٢. العدد ٢٢.

٣. العدد ٢٣.

٤. العدد ٤.

٥. العدد ١٤-١٧.

٦. العدد ٥.

القَس: إِنَّ الزبور وحيُّ الله يقول في المزمور التاسع عشر بعد المائة عن لسان داود في خطاب الله:

عن شريعتك لم أَمِلْ^١. أمّا أنا فلم أترك وصاياك^٢. من كلّ طريق شرٍّ منعتُ رجلي لكي أحفظ كلامك. عن أحكامك لم أَمِلْ لأنك أنت علمتني^٣. أمّا وصاياك فلم أضلّ عنها^٤.

وإنّ إنجيل لوقا يقول عن وحي الله لأُمّ المسيح في تمجيد مستقبله: «إنّه يجلس على كرسيّ داود أبيه».

ولابدّ من أن يُراد كرسيّ داود في التقوى والمقام القدسي، وهل يخفى عليك أنّ من تُنسب إليه هذه الأفعال الشنيعة لا ينبغي أن يكون له كرسي مع كراسي الأتقياء، بل إنّ كرسيّه مع كراسي الأشرار؟ فهل يمثل هذا الكرسيّ يمجد الله المسيح؟ حاشا.

عمانوئيل: ماذا يقول المسلمون وقرّانهم في هذا المقام؟

فتبسّم القَس وقال: ما أنت وهذا؟!!

فقلت: ماذا يضرّ؟ أو ليس فيه معرفة تاريخيّة؟

القَس: يقول القرآن في شأن داود في سورة ص: «إِنَّهُ أَوَّابٌ»^٥، «وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ»^٦ نعم، ذكرت هذه السورة مخاصمة الخصمين في حكاية النعاج فقط. ولكن بعض المسلمين يذكرون ما في كتبنا من القصة الزناثيّة أخذاً لها من السنة اليهود، لكنّ الشيعة والسنة يروون عن عليّ - وزير نبيهم - قوله: «مَنْ حَدَّثَكُمْ بِحَدِيثِ دَاوُدَ عَلَىٰ مَا يَرُوهُ الْقِصَاصُ جَلَدْتُهُ مِائَةً وَسِتِّينَ، وَهِيَ حَدِّ الْفَرِيَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ»^٧. وهذا

١. العدد ٥١.

٢. العدد ٨٧.

٣. العدد ١٠١ و١٠٢.

٤. العدد ١١٠.

٥. ص (٣٨): ١٧.

٦. ص (٣٨): ٢٥.

٧. الكشّاف ٤: ٨١، ذيل الآية ٢١ من سورة ص (٣٨): تفسير الجلالين: ١٨، في المقدمة.

عليّ إمام المسلمين يُسمّى هذه الحكاية فرية ومن خرافات القصّاص.
وجاء مثل هذا أيضاً عن جعفر بن محمّد، وهو الإمام السادس من أهل البيت. وإنّ المسلمين يجعلون أمثال هذه القصّة في شأن النبيّ من المخالف للمعقول، ويعيبون بها وبأمثالها على كتب وحيننا. انظر إلى الجزء الأوّل من كتاب الهدى ص ١٣٠ - ١٣٦.
عمانويّل: ثمّ استمررتُ في القراءة مفضياً عن أمور كثيرة؛ حرصاً على اغتنام الأمور المهمّة في العاجل، فأتممتُ سفر التكوين وشرعتُ في سفر الخروج، وهو الثاني من التوراة.

إرسال الله لموسى، والتوراة

فانتهيتُ إلى الفصل الثالث، فقرأتُ فيه ما حاصله:

إنّ موسى كان يرعى الغنم فجاء بها إلى حُوريب. وظهر ملاكُ الله له بلهية نار من وسط عُليقةٍ وإذا العليقة تتوقّد ولا تحترق. فمال موسى لينظر فلما رآه الله مال، ناداه الإله من وسط العليقة، وقال له: أنا إله أبيك إله إبراهيم إله إسحاق إله يعقوب فغطّى موسى وجهه؛ لأنّه خاف أن ينظر إلى الإله.^٢

يا سيّدي، ملاك الله الذي ظهر هل هو الله والإله أم غيره؟

القسّ: ملاك الله غير الله، وكأنك تقول: إنّ التوراة تخلط وتخط بين الله والملاك. يا عمانويّل، أليس من الممكن أن نقول: إنّ الذي ظهر لموسى هو ملاك الله، والذي كلمه هو الله؟

عمانويّل: إذن فما معنى قول التوراة: «خاف أن ينظر إلى الإله»؟ فهل الإله جسم منظور؟

القسّ: لا، الإله ليس بجسم ولا مرئي.

١. قصص الأنبياء: ٢٠٣، ح ٢٦٣.

٢. سفر الخروج ٣: ١-٦.

حاشا جلال الله من التعليم بالكذب

عمانوثيل: ثم قرأت أنّ الله قال لموسى:

اذهب واجمع شيوخ بني إسرائيل وقل لهم: الله إله آبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ظهر لي قائلاً: إني افتقدتكم وما صنع بكم. فقلت أضعدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين إلى أرض تفيض عسلاً ولبناً^١.

فقلت: يا سيدي القس، إذن فقرار الله في وعده مع شيوخ بني إسرائيل بواسطة تبليغ موسى، هو أن يُصعدهم من مذلة المصريين إلى فلسطين وشرقي الأردن. ولكن يا سيدي، ها هي التوراة تقول على الأثر:

فإذا سمعوا لقولك، تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له: الله إله العبرانيين التقانا فالآن نمضي طريق ثلاثة أيام في البرية ونذبح للربّ إلهاً^٢.

يا سيدي، فإذا كان قرار الوعد مع موسى والشيوخ هو أن يصعد بني إسرائيل إلى بلاد فلسطين وشرقي الأردن، فكيف يصحّ يا سيدي أن يأمر الله موسى وشيوخ [بني] إسرائيل بأن يقولوا لفرعون: «إنّ الله إله العبرانيين التقانا والآن نمضي طريق ثلاثة أيام في البرية ونذبح لله إلهاً؟!» من ذا الذي التقى شيوخ [بني] إسرائيل؟ ومتى التقاهم الله؟ وإنّما كَلَّمَ الله موسى وحده في حُوريب وأمره بتبليغ بني إسرائيل. كيف يا سيّد يعلم الله بالكذب؟ وكيف يفتتح رسالته بهذا العمل الفاسد؟ والتوراة أيضاً تقول في العدد الثالث من الفصل الخامس: إنّ موسى وهارون عملاً بهذا الكذب^٣.

يا سيدي، وإنّ أقرب الموارد من فلسطين إلى رعمسيس - منزل بني إسرائيل في مصر - يزيد على مائتي ميل، وإنّ شرقي الأردن يبعد أكثر من مائتين وسبعين ميلاً، وإنّ برية سيناء تبعد أيضاً بنحو مائتي ميل، فأين يكون طريق الثلاثة أيام؛

١. سفر الخروج ٣: ١٦ و ١٧.

٢. سفر الخروج ٣: ١٨.

٣. أي في سفر الخروج ٥: ٣.

لتقل العيال والأطفال المشاة والغنم والبقر؟
القس: لا أعالجك بالجواب في هذا، فاقراً.

لا خُلف في وعد الله جلّ شأنه

عمانويل: فأتملتُ بقراءة الفصل الثالث وقرأتُ الفصل الرابع، فإذا في التوراة ما ملخصه:

إنّ الله وعد موسى أن يمدّ يده ويضرب مصر بكلّ عجائبه وبعد ذلك يطلقهم فرعون، وإنّه يسخر المصريين فيعبرونهم أمتعة الذهب والفضّة والثياب فيسلبهم الإسرائيليين، وإنّه يكون مع موسى وهارون ويعلمهما ماذا يقولان، وإنّ موسى ينظر جميع العجائب التي جعلها الله في يده ويضعها الله قدّام فرعون^١.

وتقول التوراة بعد ذلك: إنّ موسى عند ذهابه إلى مصر بأمر الله ومواعيده إنّ الله التقاه وطلب أن يقتله، فأخذت صفورة^٢ - زوجة موسى - صوانة^٣ وقطعت غزلة ابنها ومست رجل موسى بالدم، فانفكّ الله عنه^٤.

يا سيدي، فأين مضت تلك المواعيد حتّى أراد الله قتل موسى؟ وكيف فكّه بمخادعة صفورة؟!

وتقول التوراة في الفصل الرابع أيضاً ما حاصله: إنّ الله أرى موسى آيات العصا واليد البيضاء^٥ وأرسله إلى فرعون، فاعتذر موسى من الرسالة بثقل لسانه، فوعظه الله ووعده بأن يكون معه فمه ويعلمه ما يتكلّم به^٥.

ومع هذا كلّه يقول موسى لله: «أيّها السيّد أرسل بيد من تُرسل»^٦. أفليس معنى هذا

١. العدد ٢١ و ٢٢.

٢. مفرد، جمعه الصّوان؛ وهو ضرب من الحجارة. الصحاح ٦: ٢١٥٣، «ص ون».

٣. العدد ٢٤.

٤. سفر الخروج ٤: ٢-٨.

٥. العدد ١٠-١٢.

٦. العدد ١٣.

الكلام من موسى أنّي لا أتق بهذه المواعيد ولا أقبل الرسالة، فانظر لك رسولاً غيري؟
يا سيّدي، فهل يكون رسول الله يكلم الله بهذه الخشونة وسوء الأدب؟
والدهاية الكبرى أنّ التوراة تقول هنا: إنّ الله قال لموسى: «إنّ هارون يكون لك فما
وأنت تكون له إلهاً»^١.

وتقول أيضاً في أول الفصل السابع: «إنّ الله يقول لموسى: أنت تكون إلهاً لفرعون
هارون يكون نبيك»^٢. فأين يكون ما سيأتي في التوراة من تعليم الله لموسى وبني
إسرائيل أن لا يذكروا اسم آلهة أخرى غير الله ولا يسمع من فمهم؟ فهل أقضي عمري
في غصص هذه الدواهي الموجودة في التوراة؟

كتب العهد القديم، وجلال الله تعالى عباً يصفون

القس: يا عزيزي، إنّ مجدّ الله وجلاله يلزم أن يُعطى حقّه من الوجوه المعقولة من دون
ركون أعمى ولا تسرّع بطفرات الجهل المركّب، وهذه التوراة ينبغي أن يوزن ما جاء
فيها بميزان كتب العهد القديم، فإنّ هذه الكتب يفسّر بعضها بعضاً.
فإنّ كتاب إزميا النبيّ يعدّه اليهود والنصارى في أجيالهم كتاب وحي إلهي، وقد جاء
فيه في الفصل الرابع في العدد العاشر ما نصّه:

فقلت: آه يا سيّدي الله حقّاً خداعاً خادعت أنت الشعب هذا وأورُشليم قائلاً:
سلام يكون لكم وقد بلغ السيّف النفس.

وإنّ سفر الملوك الأوّل وسفر الأيّام الثاني يعتبرهما اليهود والنصارى من كتب
الوحي الإلهي، وقد جاء في الفصل الثاني والعشرين من الأوّل^٣، والثاني عشر من الثاني
ما حاصله:

إنّ النبيّ ميخا بن يَمَلّة قال لأخاب المَلِك: اسمع كلام الله. رأيتُ الله جالساً على

١. العدد ١٦.

٢. العدد ١ و٢.

٣. العدد ١٩ - ٢٢.

كرسيه وكلّ جُند السماء وقوفاً على يمينه وشماله. فقال الله مَنْ يُغوي أخاب؟ فقال: هذا هكذا وقال: هذا هكذا وخرج الروح ووقف أمام الله وقال: أنا أُغويه فقال الله: بماذا؟ قال: اخرج وأكون روح كذبٍ بغم كلّ أنبيائه فقال الله: إنك تُغويه وتقدر اخرج وافعل هكذا.

يا عمانوئيل، هذه كتب الوحي، وإن أردت أن تزنها بالمعقول فذلك حقك وحقّ الحقائق، ولكن لا تعجل.

وأيضاً، إن التوراة تقول في الفصل الثالث عشر من [سفر] العدد: إن موسى ﷺ كان حليماً جداً أكثر من جميع الناس، ولكنّه - بمقتضى نقل التوراة أيضاً - قد يغلط في كلامه مع الله ويبلغ سوء الأدب؛ لوجه ليس من اللازم أن نزنه بالمعقول. فإنّ التوراة تذكر في العدد الثاني والعشرين من خامس [سفر] الخروج أنّ موسى ﷺ قال لله: «سيدي لماذا أسأت للشعب؟ لماذا أرسلتني؟».

وتذكر في العدد الثاني والثلاثين من الفصل الثاني والثلاثين من [سفر] الخروج: لمّا عبد بنو إسرائيل العجل أنّ موسى ﷺ قال لله: والآن إن غفرت خطيئتهم وإلّا فامحني من كتابك الذي كتبت.

وفي الفصل الحادي عشر من سفر العدد: أنّ موسى قال لله: «لماذا أسأت إلى عبدك؟»^١.

ولمّا وعده الله بأن يشعب بني إسرائيل من اللحم شهراً قال لله: ستمائة ألف هو الشعب وأنت قلت أنا أعطيتهم لحماً ليأكلوا شهراً. أئذبح غنم وبقر ليكفيهم، أم يجمع لهم سمك البحر ليكفيهم؟^٢.

حتّى أنّ المزمور السادس بعد المائة يقول: إنّ موسى «فرط بشفتيه»^٣. عمانوئيل: يا سيدي، إنّي سألتك سؤال المتحيّر، فأجبتني بأموّر زادت حيرتي

١. العدد ١١: ١١.

٢. العدد ١١: ٢١ و ٢٢.

٣. سفر المزامير ١٠٧: ٢٣.

وألقت على ناري حطْباً، فليتك أوضحت لي مرادك من كلامك هذا.

القس: أين ذكائك؟! فاقراً الآن عسى الله أن يفتح عليك.

عمانوئيل: فقرأتُ في سفر الخروج إلى الفصل الثاني عشر، وإذا فيه:

إِنَّ الله أمر بني إسرائيل أن يذبحوا الفِضْح. ويلطّخوا العتبة العليا والقائمتين من

أبوابهم بالدم؛ لأنَّ الله يجتاز ليضرب المصريين فحين يرى الدم يعبر عن الباب^١.

فقلت: يا سيدي، هل تقول: إنَّ الله لا يعرف دور بني إسرائيل، بل يحتاج إلى علامة

الدم لكيلا يشتهه، وكيف يجتاز الله وكيف يعبر؟

القس: اكتب هذا الكلام مع أمثاله في دفترك.

اختلاف التراجم وتحريف بعضها

عمانوئيل: فقرأتُ حتّى بلغتُ العدد الثامن والعشرين من الفصل الثاني والعشرين،

فقلت: يا سيدي، إنَّ الأصل العبراني يقول هنا: «الهيّم لا تقلل ونسيء بعمك لا تآر»

وترجمته: «الإله لا تسبّ ورئيساً بشعبك لا تلعن».

ولكنّ التراجم تلاعبت هنا ما شاءت، فاليونانية ذكرت بدل «لا تلعن»: «لا تقل

سوء» واختلف ما عندنا من النسخ والتراجم التي عددها صحيفة ٣٢ - ٣٣:

ففي ٣ و ٤ و ٥: «لا تسبّ الله ولا تلعن رئيس قومك»، ونحوها النسخة ١٠.

وفي النسخة ١ و ٢: «لا تسبّ القضاة ورأس شعبك لا تلعنه»، ونحوها النسخة ٧

و ٨ و ٩.

يا سيدي، كيف يترجم الروحانيون لفظة «الهيّم» بالقضاة؟ ومن أين جاءت هذه

الترجمة؟ نعم، من يريد أن يُأله البشر يتعمّد هذا التحريف في ترجمته.

يا سيدي، إنَّ التوراة العبرانية تقول في العدد التاسع والعشرين من هذا الفصل:

«ملئتك ودمعك لا تأخّر» ولكنّ التراجم كتبت هنا توراة جديدة بأشكال مختلفة

تعرف بالمراجعة، لماذا يكون هذا؟

القس: هل أنت إلى الآن لم تعرف إجمالاً لماذا يكون هذا؟ فلماذا تسأل؟ اقرأ.

الله ليس جسماً مرئياً

عمانويل: فقرأتُ حتى بلغتُ العدد ٩ و ١٠ و ١١ من الفصل الرابع والعشرين وفيها:

وصعد موسى وهارون وناداب وأيهو وسبعون من شيوخ [بني] إسرائيل فأرأوا إله

[بني] إسرائيل وتحثَّ رجله شبهُ صَنْعَةٍ من العقيق الأزرق الشَّفَاف وكذات السماء

في النقاوة. لكنّه لم يمدَّ يده إلى أشرف بني إسرائيل فأرأوا الله وأكلوا وشربوا.

فقلتُ: يا سيدي القس، هل الله جسم مرئي؟ وهل له رجلان كما وصفت التوراة؟

القس: حاشا لله أن يكون جسماً ومرئياً، ولكن يا عمانويل ربما يخطر ببالي أن

هذه الحكاية موجودة في قرآن المسلمين.

القرآن ميزان الحقيقة

عمانويل: جاء في الآية الثالثة والخمسين بعد المائة من سورة النساء: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ

الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ

جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ فإن إنزال الكتاب من السماء كبير في العادة وإن كان

ممكناً عقلاً، ولكن طلبهم لرؤية الله جهرةً أكبر من ذلك؛ لأن رؤية الله ممتنعة عقلاً؛

لأنه - جل شأنه - ليس بجسم ولا مرئي.

وجاء في الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة في توبيخ بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ

قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي

تطلبون الرؤية، أو تنظرون إلى الصاعقة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^١

فالقرآن يُسَفِّه القول برؤية الله.

القس: نعم يا عمانويل، فاقرأ.

من الغلط في التوراة العبرانيّة

عمانوثيل: فقرأتُ مُغضياً عن أمور كثيرة، والغمّ والضجر والملل قد كدّرت أوقاتي، حتّى وصلتُ إلى الفصل الحادي عشر من سفر اللاويّين، وإذا في العدد الحادي والعشرين:

إلا هذا تأكلونه من ذئب الطير الماشي على أربع الذي له كُراعان فوق رجله يئب بهما على الأرض.

فقلت: يا سيّدي، إنّ التوراة العبرانيّة تقول: «الذي لا كراعان على رجله» وهذه عبارة العبرانيّة: «اشير لا كرعيم معمل لرجليو» فكيف ترجموه بقولهم: «له كراعان»؟ ولو كان كذلك في العبرانيّة لقلت: اشيرلو كرعيم.

القسّ: هذا الغلط متكرّر في التوراة، ففي العدد الثلاثين من الفصل الخامس والعشرين من سفر اللاويّين، في حكم البلد المسوّر ما لفظه في التراجم العربيّة: «وجب البيت الذي له سور» ونحو ذلك في باقي التراجم. ولكنّ التوراة العبرانيّة كتبت «لا» غلطاً عوض «لو» التي هي بمعنى «له» فإنّها تقول: «وقام هبيت اشير بعير لاحمه».

وأيضاً في العدد الثامن من الحادي والعشرين من الخروج جاء في التراجم: «الذي له خطبها» وفي العبرانيّة: «اشير لا يعدة» أي الذي لم يخطبها. وفي جميع هذه الموارد قد صحّحت حواشي العبرانيّة هذا الغلط وكتبت «لو» مكان «لا» وعلى هذا التصحيح جرت القراءة والتراجم.

انظر إلى حواشي التوراة العبرانيّة فكم ترى فيها تصحيحاً لغلط الأصل بتبديل حرف أو زيادة حرف أو نقصان حرف بمقدار يزيد على المائة مورد، وعلى هذه التصحيحات جرت القراءة والتراجم.

عمانوثيل: كيف يكون هذا الغلط في كتاب الله بكتابة رسوله موسى؟ ومن أين جاء هذا الغلط الكثير الكبير؟ ومتى جاء؟ أوضح يا سيّدي، حتّى متى أصبر؟! تقول: اكتب

في الدفتر، اكتب في الدفتر، كم ذا أكتب في الدفتر، ضاع الحساب؟
القس: لا تعجل.

سَتُبْدِي لَكَ الْآيَاتِ مَا كُنْتَ جَاهِلًا
إِنْ صَبِرْتَ وَتَحَقَّقْتَ فَأَنَا ضَامِنٌ لَكَ بِأَنَّ الْحَقِيقَةَ سَتَكْشِفُ لَكَ عَنْ وَجْهِهَا الْوَاضِحِ،
مَنْ جَدَّ وَجَدَ، وَالْقُرْآنُ يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَلُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^١.
عمانوئيل: عجباً يا سيدي، أراك تتمثل بالقرآن!؟

القرآن المجيد ونيته

القس: لماذا لا أتمثل بكتاب قد تكفل ببيان الحكم، وفلسفة الحقائق، وحقائق الإرشاد.
عمانوئيل: يا سيدي، أراك تُمجّد القرآن كثيراً، فهل تقول بأنه وحي الله؟
القس: لا أُمجّده من نفسي وإنما هو مجيد، قد أخذ بأطراف المجد. ولا عليّ أن
أقول لك: إنه وحي الله، هو كتاب حكيم عليم، كتاب فائق بالحكمة، لا يدخل في باب
إلا حقائقه بأحسن جلوة وإن كان صاحبه محمّد نبيّ المسلمين من عرب وثنيين
وحشيين ليس لهم أدنى حظّ في الفلسفة والمعارف وآداب المدنيّة والاجتماع.
عمانوئيل: إذا فأين درس محمّد العلوم جميعاً؟ وإلى أيّة كليّة هاجر حتّى برع في
علومه وفلسفته؟

القس: إنّ التاريخ يحقّق أنّ محمّداً كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يبارح وطنه
وقومه المتوحّشين إلاّ بسفريات مع قومه إلى الشام للتجارة بأيّام قليلة، كما نشاهده
في هبوط البدو من نجد إلى العراق للتجارة في أيّام يسيرة، فلم تكن لمحمّد دراسة
في العلوم.

عمانوئيل: يا سيدي، قد ملأت قلبي من هذا البيان بأمر عظيم، ولكن بالأسف إنك

١. شطر بيت لطرفة بن العبد، من شعراء الجاهليّة. وتمام البيت: وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَا لَمْ تَزِدْ

انظر: معجم الشعراء: ١١؛ الأغاني ٢: ١٧٤؛ شرح المعلقات السبع: ١٧.

٢. العنكبوت (٢٩): ٦٩.

لا تسمح لي بالبيان الصريح، ولا تريخني بالمجاهرة في الكشف عن الحقيقة.

القَس: ما عليك من هذا، اقرأ بكتاب التوراة واستوف دراستك فيها.

عمانوئيل: يا سيدي، اقرأ في التوراة، ولا أخطو خطوةً في الدرس إلاّ وعثرتُ فيها على كفر أو خرافة، وأرى القرآن - كما تقول - لا يدخل في باب إلاّ جلا حقائقه بأحسن جلوة، فهل من المعقول أن تقول: إنّ التوراة كتاب الله، وإنّ القرآن كتاب بشرٍ نشأ بين أناسٍ وحشيين وثنيين لم يدرس من العلوم شيئاً، فجاء بكتابه بأعلى مراقي المجد في كلِّ فنٍّ، يخوض فيه الفيلسوف الإلهي والمصلح الديني والمصلح السياسي والمصلح الاجتماعي والحكيم البارِع؟!

القَس: متبسّماً: يا عمانوئيل، ألم تقرأ في العهد الجديد المقدّس في الفصل الأوّل في

العدد ٢١ و ٢٥ من الرسالة الأولى لأهل كورنثوس:

استحسنَ الله أن يُخلّصَ المؤمنين بجهالة الكِرَازَةِ أو بحماقة الكِرَازَةِ لأنّ جهالة الله أو حماقة الله أحكمُ من الناس.

عمانوئيل: يا سيدي، إذا اعترض عليّ المسلم بمثل سؤالي لحضرتك، فهل ترضى

أن أجيبه بمثل جوابك هذا؟

القَس: هل ترضى أنت يا عمانوئيل؟

عمانوئيل: لا، يا سيدي.

القَس: أجل، فاجعل يا بُنيّ ميزانك عقلك، وقرأ الآن عسى أن يفتح الله عليك.

جلال الله وقُدس أنبيائه، وأقوال العهدين

عمانوئيل: فقرأتُ حتّى بلغتُ العدد الثاني عشر من الفصل العشرين من سفر العدد، وإذا

فيه: «فقال الله لموسى وهارون: من أجل أنّكما لم تؤمنا بي». فقلت: يا سيدي القَس،

هل تسمع ما تقول توراتنا، تقول: إنّ موسى وهارون لم يؤمنا بالله؟ هل هكذا يا سيدي

حال الأنبياء؟

القَس: وتقول التوراة أيضاً في العدد الرابع عشر من الفصل السابع والعشرين من

سفر العدد: إِنَّ الله قال لموسى وهارون في هذا المقام: «وعصيتما قولِي».

وفي العدد الحادي والخمسين من الفصل الثاني والثلاثين: إِنَّ الله قال لهما: «وختنماني». ويقول الزبور في العدد الثالث والثلاثين من المزمور السادس بعد المائة: «حَتَّى أَنْ موسى فَرَطَ بشفتيه».

يا بَنِي، وَإِنْ أَحَد قَسَيْسِنَا - وهو وليم أَسَمَت - قد ذكر في كتابه طريق الأولياء ما نسبته التوراة إلى الأنبياء من مثل هذه النقائص ونسب إليهم زلل الإيمان وقال: يا أَسْفَاءُ، إِنَّهُ لا يوجد كمال في واحد من بني آدم غير الواحد العديم النظر، ويا أَسْفَاءُ، إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُقَرَّبِينَ عند الله يحتاجون إلى الوعظ. قال ذلك عند ذكر إسحاق حيث نسبت له التوراة الكذب.

عمانوثيل: يا سَيِّدِي القَسْ، إِنَّ وليم أَسَمَت قد فاته شيء كبير، فَإِنَّ التوراة - كما في قراءتنا فيها - قد نسبت الكذب إلى الله - جَلَّ شأنه - في قصّة نهيه لآدم عن الأكل من الشجرة، وذكرت صدق الحيّة ونصيحتها وأنها أظهرت الصدق من الكذب.

ونسبت إلى الله - جَلَّ شأنه - أنه افتتح إرساله لموسى بأن أمره أن يكذب هو وشيوخ بني إسرائيل على فرعون.

يا سَيِّدِي، وَإِنَّ فِي العدد العاشر من الفصل الرابع من كتاب إزميا يقول:

وَقَلْتُ: آه يا سَيِّدِي الله حَقًّا خِدَاعًا خَادَعْتَ الشعب وَأورُشَلِيمَ قائلاً: سلام يكون لكم وقد بلغ السيفُ النفسَ.

يا سَيِّدِي، وقد تكرر في وَحِينَا - كما ذكرناه [في] صحيفة ٧٥ أَنْ الله - جَلَّ شأنه - استعان بعد المشورة بروح الكذب واستعمله في الكذب والإغواء، فكاتبنا المقدسة توكّد نسبة الكذب والإغواء والتعليم بالكذب إلى جلال الله. فأين وليم أَسَمَت عن مثل هذا؟ وأين موعظته؟ وأين شعوره؟ يا سَيِّدِي، وَمَنْ هو الكامل الوحيد العديم النظر المذكور في كلام وليم أَسَمَت؟

القَسْ: أليس هو المسيح عيسى؟

عمانوئيل: إِنَّ إنجيل يوحنا يقول في الفصل السابع: إِنَّ المسيح لَمَّا قال له إخوته: اصعد إلى هذا العيد قال لهم: «أنا لستُ أصعد بعدُ إلى هذا العيد»، ثمَّ صعد إلى ذلك العيد بالخفاء.

يا سيدي، أليس هذا من الكذب؟ ولو أن أناجيلنا اقتصرت على هذا الهان، ولكنها نسبت إلى قدس المسيح أموراً عظيمة قد أحصاها علينا الجزء الأول من كتاب الهدى صحيفة ٢٣٠ - ٢٨٢ فأين وليم أسمت عن وعظ المسيح؟

أليعازر: إنِّي بكلِّ فكرتي متوجّه إلى ما تقرؤونه في توراتنا من الأوّل إلى الآن، وبكلِّ فكرتي متوجّه إلى ما تتذكرون به، وقد ذكرتمُ أموراً عظيمة لا أقدر أن أنكر وجودها في توراتنا، ولا يرضى وجداني بأن يكون مثلها في كتاب الله يا سيدي القس، فهل لنا مخرج من هذه الأمور العظيمة؟

القس: يا أليعازر، إنَّ ولدك المحروس الموقِّع عمانوئيل يبحث عن المخرج بنور الهدى، وسيوقِّعه الله للصواب.

أيا أليعازر، ولا أريد أن تعتمد في الهدى على قولنا أو قول غيرنا، بل أريد أن تصغي إلى مذكراتنا وتراجع وجدانك وتتبع هدى عقلك، وإن عرض لك شكٌّ في مذكراتنا فاستوضح الحال بالسؤال.

جرأة، وسوء أدب

عمانوئيل: يا سيدي، نشرت الصحافة أنه قد وُجد كتاب مطبوع في يد تلميذ من تلامذة «الفرير»^٢ في صيدا، ترجمة كتاب اسمه في الفرنسية مختصر تاريخ فرنسا، مؤلفوه جماعة من الأساتذة، يُطلب من المكتبة الكاثوليكية في ليون وباريس، وفيه كلام وحشي، ها هي ترجمته الحرفية:

العرب أصلهم من البلاد العربية، اعتنقوا دين محمد الكاذب، الذي فرض على

١. العدد ٨.

٢. وهي جمعية مسيحية تبشيرية لها فروع كثيرة في أنحاء العالم.

أتباعه واجباً مقدساً، وهو نشر دينه بقوة السلاح. الذين أتبعوا تعاليم نبيهم الكاذب استولوا على قسم من آسيا وشمال أفريقيا واستولوا على أسبانيا، واخترقوا جبال البيرنيّة واجتاحوا غوليا.

يا سيدي، هؤلاء الكاتبون لماذا لم يتأذّبوا بأدب أناجيلهم أقلّاً؟ لماذا ضيّعوا شرف الإنسانيّة؟ لماذا يجاهرون بسبّ نبيّ المسلمين؟ ويسمّونه الكاذب أين قول الإنجيل: «وباركوا لأعينكم»؟ أين الأخلاق الأدبيّة؟!

يا سيدي، إنّ نبيّ المسلمين بلغ أربعين سنة من عمره وجميع من يعرفه يسمّيه الصادق الأمين، ولم يُكذّب به الناس إلّا في دعوة التوحيد والإصلاح، بل إنّه قضى عمره ولم يُكذّب به أحد من الوثنيّين الوحشيّين إلّا في ذلك، فكيف يتجرّؤونه على هذا الرجل العظيم والمصلح الكبير بهذا الشتم الذي يسخطه الدين والإنسانيّة؟!

القسّ: ما أدري ما أقول في هؤلاء، ولكن عندي كلمة تلقّيتها من معلومات التاريخ، وهي:

إنّ نبيّ المسلمين لم ينشر دينه بالسيف، بل نشره بلطف الدعوة، ولكنّه لأجل شدّة اضطهاد الوثنيّين الوحشيّين للموحّدين المصلحين - ذلك الاضطهاد الوحشي القاسي - صار هو وأصحابه يدافعون عن توحيدهم وإصلاحهم حسبما توجهه حماية الحقوق: فلم تكن حروبه إلّا دفاعاً على شروط الحكمة والمدنيّة وكرم العواطف، ولم يكن في حروبه تهاجم ابتدائي عدواني، ولم يكن في سلطته قسوة وحشيّة. يجنح للسلم ويرغب فيه، ويرعى عهده.

أليعازر: يا ولدي، لا تنزعج من قول هؤلاء فإنّك قرأت قريباً أنّ كتب العهدين تنسب الكذب والتعليم بالكذب إلى الله جلّ جلاله، وتنسب الكذب إلى الأنبياء والمسيح فهؤلاء الكاتبون قد اقتدوا بكتب وخيهم، ولنبيّ المسلمين أسوة بالله وأنبيائه ومسيحه، سواء كان الكذب مجدداً أو نقصاً.

القسّ: لا تنزعج يا عمانوئيل، ليس في هذا أهميّة، اقرأ من حيث انتهيت.

ذبح النساء والأطفال في التوراة

عمانوئيل: فقرأتُ حتّى بلغتُ الفصل الحادي والثلاثين من سفر العدد، فوجدتُ أنّه لمّا تغلّب بنو إسرائيل على الجيّداتيين، وسبوا نساءهم وأطفالهم^١، أمرهم موسى أن يقتلوا كلّ ذكراً وكلّ امرأة شبيبة. وأمّا الأطفال من النساء اللواتي لم يقربهنّ ذكر فإنهنّ يبقين حياتاً لهم^٢. وقد كُنّ اثنتين وثلاثين ألفاً^٣.

فقلتُ: أيّها السيّد القسّ وأيّها السيّد الوالد، هل سمعتما ما قرأته؟

قالا: نعم.

قلتُ: إذا كان الأطفال من النساء اثنتين وثلاثين ألفاً، فكم قتلوا من النساء والأطفال الذكور؟ يا سيّدي القسّ، قتل الأطفال والنساء هل هو شريعة من الله؟

القسّ: يا عمانوئيل، إنّ توراتنا تذكر في الفصل الثاني من سفر التثنية: أنّ موسى عند ذكر استيلائه على الأموريين قال: «وحرّمنا من كلّ مدينة الرجال والنساء والأطفال لم نبقِ شارداً»^٤.

وعند ذكر استيلائهم على مملكة عوج: أنّهم حرّموا «كلّ مدينة الرجال والنساء والأطفال»^٥.

ويُفهم من العدد الرابع والعشرين من الفصل الحادي والعشرين أنّ عملهم هذا بأمر الله. وأيضاً فإنّ توراتنا تُصرّح في الفصل العشرين من سفر التثنية: أنّ الله أمر بني إسرائيل أن يُحرّموا مدن الجحّيين والأموريين والكنعانيين والفريزيين واليبوسيين ولا يبقوا منها نسمة أصلاً من البشر أو من البهائم^٦.

١. العدد ٨ - ١٠.

٢. العدد ١٧ و١٨.

٣. العدد ٣٥.

٤. العدد ٣٤.

٥. الأصحاح الثالث، العدد ٦.

٦. العدد ١٦ و١٧.

وعلى ذلك جرى يوشع بن نون في حروبه كما تراه في سفر يوشع، وأنَّ المقتولين من الأطفال والنساء يزيدون على مئات الألوف^١.

عمانوييل: يا سيدي، إنَّ هذه الشريعة تُضحكني بحماقتها بقتل البهائم، وتُبكيني بقساوتها بقتل الأطفال والنساء يا سيدي الوالد، هل يقبل وجدانك أنَّ قتل الألوف الكثيرة من الأطفال يكون من شريعة الله؟

أليعازر: حاشا لله أن تكون شريعته بهذه القساوة والفضاضة والوحشية، ولكن ماذا أقول وسيدي القس حاضر يسمع؟! ولكن ليسمح السيّد القس ببيان السبب الذي لأجله وقع هذا في توراتنا المقدّسة.

القس: يا العيازر، كأنك نسيتَ الذي قرأناه وتحيرنا من وجوده في توراتنا، فلماذا تسأل عن سبب هذا وحده؟

أليعازر: قد تبهتني يا سيدي، إذا فإني أسأل عن سبب الجميع.
القس: صبراً يا أليعازر، فستكون أنت الذي يبيّن السبب، والساعات مرهونة بأوقاتها، اقرأ يا حبيبي يا عمانوييل.

رحلات بني إسرائيل، والتوراة

عمانوييل: فقرأتُ حتّى بلغتُ الفصل الثالث والثلاثين من سفر العدد، في ذكر منازل بني إسرائيل على الترتيب من مصر إلى عبر الأردن حيث مات موسى ﷺ، فقلتُ: يا سيدي القس اسمع، إنَّ التوراة تذكر أنه كان لبني إسرائيل من طور سيناء إلى موبسير خمسة عشر منزلاً، ومنازلهم بعد مُسِرُّوت آبار بني يَعْقَان، ثمَّ هور الجّد جاد، ثمَّ يطبات، ثمَّ عَبْرُونة، ثمَّ عِصْيُون جَابِر، ثمَّ بَرِيّة صِين، ثمَّ قَادَش، ثمَّ جبل هُور الذي مات فيه هارون، ومن بعد جبل هور صَلْمُونَة، ثمَّ فُونُون، ثمَّ أُوْبوت، ثمَّ خربات عَبَارِيم، ثمَّ بعد المنزل الرابع منها نزلوا على أَرْدُن أَرِيحاً^٢.

١. الأصحاح السادس، العدد ٢٢.

٢. العدد ٣٣: ٣٠-٤٨.

وتقول التوراة: إِنَّ اللَّهَ أَفْرَزَ سِبْطَ لَأُوِي لخدمَةِ خِيْمَةِ الْجَمْعِ فِي مَنْزِلِهِمْ عِنْدَ طُورِ سِينَاءَ، كَمَا فِي الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ وَالثَّامِنِ وَالسَّادِسِ عَشَرَ مِنْ سَفَرِ الْعَدَدِ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ كِتَابَةَ لَوْحِي الْعَهْدِ وَإِعْطَاءَهُمَا لِمُوسَى فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ كَانَتْ فِي طُورِ سِينَاءَ قَبْلَ ارْتِحَالِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ.

القَس: ما هو غرضك بهذا الكلام يا عمانوئيل؟

عمانوئيل: سيعرف سيدي القس غرضي من هذا التمهيد، ثم قرأت حتى بلغت الفصل العاشر من سفر التثنية وفيه: إِنَّ مُوسَى كَانَ يَتَكَلَّمُ فِي كِتَابَةِ اللَّوْحَيْنِ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ وَصُعُودِهِ الْجَبَلَ وَصِيَامِهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا كَالْمَرَّةِ الْأُولَى، فَقَالَ فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ وَالْقِصَّةِ بِلا ربط ولا سياق:

وَبَنُو إِسْرَائِيلَ ارْتَحَلُوا مِنْ آبَارِ بَنِي يَفْقَانَ إِلَى مُوسِيرِ هُنَاكَ مَاتَ هَارُونَ وَهُنَاكَ دُفِنَ فَكَهَنُ الْعَازَارِ ابْنُهُ عِوَضًا عَنْهُ مِنْ هُنَاكَ ارْتَحَلُوا إِلَى الْجِدْجُودِ وَمِنْ الْجِدْجُودِ إِلَى يُطْبَاتِ أَرْضِ أَنْهَارِ مَاءٍ^١.

يا سيدي، دع عنك التناقض في المنازل، ولكن كيف تذكر التوراة أن هارون مات في جبل هور؟! وكيف تذكر أنه مات في موسير قبل جبل هور بشمان منازل؟! وما هو ربط هذه الكلمات بقصة اللوحين وإفراز سبط لاوي للخدمة عند جبل سيناء؟

يا سيدي، قد قدر على بني إسرائيل - لأجل تمردهم - أن يتيهوا في البرية، فهل قدر أيضاً على توراتنا أن تتيه في ربط الكلام وأسلوبه وترتيب المنازل والمحل الذي مات فيه هارون؟!!

القَس: حقاً تقول يا عمانوئيل، إن في هذا المقام تشويشاً ومناقضة كبيرة لما تقدمه، ولكن ماذا نضع؟!!

عمانوئيل: ومن الظرائف يا سيدي أن الترجمة المطبوعة سنة ١٨١١ كتبت في هذا المقام توراتنا جديدة فقال - وزاد في توراته حسبما شاء -: وَلَمَّا شَفَعْنِي فِي هَارُونَ أَقَامَ

إلى أن رحل بنو إسرائيل من بايروت بني ياعقان وموسير... إلى آخر الكلام. فزاد على الأصل العبراني وسائر التراجم قوله: «ولمّا شَفَعْنِي فِي هَارُونَ أَقَامَ إِلَى أَنْ» ومع هذه الزيادة الأهوائية لم يصلح خللاً، ولم يحصل ربط الكلام، لماذا يصنع أصحابنا هكذا؟
القس: قد وقع ما تكرهه، فاقرأ.

النبّي الموعود به في التوراة

عمانوييل: فقرأتُ حتّى بلغتُ الفصل الثامن عشر من سفر التثنية فوجدت فيه:
نبياً من وسطك من إخوتك مثلي يقيم لك الله إلهك له تسمعون. ككل ما سألت من الله إلهك بخُوريب بيوم الاجتماع قائلاً: لا أعود أسمع صوت الله إلهي. والنار العظيمة هذه لا أراها بعد ولا أموت. قال الله لي: أحسنوا الذين تكلموا. نبياً أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك وأعطي كلامي بفمه ويكلمهم كل الذي أوصيه. ويكون الإنسان الذي لا يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. أما النبي الذي يطغى ويتكلم باسمي الكلام الذي لم أوصه أن يتكلمه والذي يتكلم باسم آلهة أخرى يموت النبي هو. وإن قلت بقلبك: كيف أعرف الكلام الذي لم يتكلم به الله الذي يتكلم به النبي باسم الله ولا يكون ولا يجيء هو ذلك الكلام الذي لم يتكلم به الله بل بطغيان تكلم به النبي لا تخف منه!

فقلت: يا سيدي القس، إن في هذا الكلام علماً كبيراً، فهل يمكن لنا أن نعرف هذا النبي الذي أشارت إليه التوراة؟

القس: يا بُني، إن العهد الجديد يُخبر أنه المسيح، وقد احتج بطرس بكلام التوراة على نبوة المسيح وأنه هو النبي المشار إليه، كما في الفصل الثالث من أعمال الرسل في العدد الثاني والعشرين والثالث والعشرين. وكذا استفانوس، كما في العدد السابع والثلاثين من الفصل السابع من أعمال الرسل، فهل أنت يا عمانوييل لا تُصدّق بذلك؟

المسيح والأنجيل

عمانوثيل: إنَّ أناجيلنا المقدّسة لاتدعني أصدّق بذلك، يا سيّدي إنَّ إنجيل متى يذكر عن قول المسيح: إنّه يبقى في بطن الأرض بعد صلبه ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ^١.

مع أنّ الأنجيل الأربعة تذكر أنّه لم يبق في القبر إلّا آخر نهار الجمعة وليلة السبت ويوم السبت وبعض ليلة الأحد، فإنّ النساء جئن إلى القبر ليلة الأحد قبل الفجر فلم يجدنه في القبر، وأخبرهنّ الملك بأنّه قام من الأموات.

يا سيّدي، إذا فهذه أناجيلنا تقول: إنَّ المسيح تكلم باسم الله بكلام، ولم يكن ذلك الكلام ولم يجيئ، بل ظهر كذبه، وهذا علامة الله في التوراة للنبيّ الكاذب الذي يلزم أن يُقتل. إذاً فأناجيلنا تقول: إنَّ المسيح هو غير النبيّ الذي وعد الله به.

يا سيّدي، وأيضاً إنَّ أناجيلنا تقول: إنَّ المسيح تكلم باسم آلهة أخرى، فإنَّ إنجيل يوحنا يقول في الفصل العاشر: إنَّ اليهود قالوا للمسيح:

إنّك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً. أجابهم أليس مكتوباً في ناموسكم أنا قلت: إنكم آلهة. إن قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله ولا يمكن أن ينقض المكتوب^٢.

يا سيّدي وإنَّ الإنجيل بهذا الكلام نسب إلى المسيح القول بتعدّد الآلهة، ودلّنا باستشهاده بالمكتوب بالناموس أنّ هذا المستشهد لم يعقل كلام الناموس ولم يفهمه، بل افترى عليه.

فإنّ الناظر إلى المزمور الثاني والثمانين يعرف أنّ قوله: «أنا قلت: إنكم آلهة» إنّما هو وارد مورد الإنكار والتوبيخ على المتكبرين على الله برئاستهم بين الناس بصورة الرئاسة الروحانيّة.

يا سيّدي، وأيضاً إنَّ الأنجيل تنسب إلى المسيح القول بتعدّد الأرباب، ففي

١. إنجيل متى ١٢: ٤٠.

٢. العدد ٢٣-٣٥.

الفصل الثاني والعشرين من إنجيل متى، والثاني عشر من إنجيل مرقس، والعشرين من إنجيل لوقا: إِنَّ المسيح أنكر على اليهود قولهم: «إِنَّ المسيح بن داود»، واحتج عليهم بأن داود يدعو المسيح بالروح رباً حيث قال في المزامير: «قال الرب لربي: اجلس عن يميني»^١.

فإذا كان داود يدعو بالروح رباً فكيف يكون ابنه؟!

يا سيدي، وإنَّ الكاتب لهذه الكلمات لم يكتفِ بالكفر بالقول بتعدّد الأرباب، بل حرّف وافترى على المزامير، فإنَّ في أوّل المزمور العاشر بعد المائة في الأصل العبراني: «نأم يهوه لادناى شب ليميني»، وترجمته: «أوحى الله لسيدي: اجلس ليميني»^٢. فلم يقل: لربي، بل قال: لسيدي، والسيّد يجوز أن يكون من البشر. وأين معنى «السيّد» وأين معنى «الربّ» وإذا كان هذا التحريف هيناً فما هو التحريف القبيح؟ يا سيدي القس، فأناجيلنا تبين لنا أنّ المسيح ليس هو النبيّ الصالح الموعود به في التوراة، بل مقتضاها - وحاشا المسيح - أنّه هو ضدّ ذلك النبيّ الصالح.

يا سيدي، وهل يكون صالحاً من يقول بتعدّد الآلهة والأرباب، ويحرّف الكتب المقدّسة، ويحمل ما فيها على غير معناه، فيتقول عليها لكي يموّه احتجاجه الإسرائيكي الواهي؟!

يا سيدي، والتوراة تقول: إنّ بني إسرائيل ارتعبوا من سماع كلام الله، وما صادفوه في ذلك من أهوال العظمة والآيات والنار العظيمة، وطلبوا من الله أن يكون كلامه بغير هذا النحو، فأجابهم إلى ذلك وقال: «أجعل كلامي في فم ذلك النبيّ».

يا سيدي، وبمقتضى العهد القديم والعهد الجديد أنّ المسيح ومن قبله من الأنبياء لم يجعل الله كلامه في فهمهم كما كان يتكلّم من الشجرة والجبل، بل كان المسيح والذين قبله من الأنبياء يتكلّمون بكلامهم المستند إلى الإلهام.

يا سيدي، وكلام الله في التوراة يقول: إنّ ذلك النبيّ من إخوة بني إسرائيل لا

من بني إسرائيل. والمسيح باعتبار ولادته من أمّه يكون من بني إسرائيل وأولادهم لا من إخوتهم.

القَس: يا عمانوئيل، وماذا تصنع بقول التوراة لبني إسرائيل: «من وسطك»؟ فإنّه يقتضي أن يكون ذلك النبيّ من شعب بني إسرائيل ومن وسطهم.

عمانوئيل: يا سيّدي، الموجود في الأصل: «مقربك» ولفظ الوسط يعبر عنه في الأصل العبراني بلفظ «توك» ويكفينا صراحة التوراة المتكرّرة بكون ذلك النبيّ من إخوة بني إسرائيل.

القَس: يا عمانوئيل، إنّ تراجمنا المقدّسة قد ترجمت قول التوراة «مقربك» بقولها: من وسطك ومن شعبك.

راكب الجمل، وتحريف المترجمين

عمانوئيل: يا سيّدي، إنّ تراجمنا المقدّسة ومترجمينا المقدّسين قد وجدنا الأغراض تدفعهم إلى التحريف الواضح الفاضح، فمن ذلك يا سيّدي ما ذكرناه من قولهم: «قال الربّ لرّبّي».

ومن ذلك تحريفهم للعدد السابع من الفصل الحادي والعشرين من كتاب إشعيا في الوحي من جهة برّيّة البحر، فعمدوا إلى قوله: «زوج فرسان راكب حمار وراكب جمل» فحرّفوه إلى قولهم: «أزواج فرسان راكب حمير وركاب جمال» مع أنّ الأصل العبراني يقول هكذا: «ورآه ركب صمد ركب حمور وركب جمل» فإنّ لفظ «ركاب» بالعبرانيّة «ركيبم» ومع الإضافة «ركبى»^١، ولفظ «جمال» «جلميم»^٢، ولفظ «الحمير» «حموريم»^٣، ولفظ «حمار» «حمور»^٤، ولفظ «الجمل» «جمل»^٥.

١. انظر أقلّ سفر القضاة في الأصل العبراني ٥: ١٠ و ١٠: ٤ و ١٢: ١٤. (منه ٪).

٢. انظر أقلّ سفر التكوين ١٢: ١٦ و ٢٤: ٣٠ و ٣١ و ٣٥. (منه ٪).

٣. انظر أقلّ سفر التكوين ٢٤: ٢٥. سفر العدد ٢٨: ٣١ و ٢٨: ٣٠ و ٣٤ و ٣٩. (منه ٪).

٤. انظر أقلّ سفر الخروج ٢٢: ٨ و ٩. (منه ٪).

٥. انظر أقلّ سفر اللاويين ١١: ٤؛ وسفر تثنية الاشتراع ١٤: ٧. (منه ٪).

القَس: يا عمانوئيل، هذا التحريف شيء عجيب، وفي أيّ ترجمة وجدته؟
 عمانوئيل: يا سيّدي، في جملة من التراجم المطبوعة في بيروت وغيرها، منها
 النسخة ٣ و ٤ و ٥ من المذكورات صحيفة ٣٣، نعم سلمت النسخة ٨ و ٩ من هذا التحريف.
 القَس: هل تظنّ السبب في إقدام هؤلاء المحرّفين على هذا التحريف الفاضح؟
 عمانوئيل: يا سيّدي، إنّ هذا الكلام في كتاب إشعيا يشير إلى نبوة فائقة ورياسة
 دينيّة، فكان المسلمون يقولون: إنّ راكب الحمار هو عيسى المسيح، وراكب الجمل هو
 محمّد نبيّ المسلمين. فأبى بعض قومنا أن يكون للمسلمين مثل هذا التشبّه، فحرّفوه
 إلى قولهم ركاب جمال، هذا الذي أظنّه يا سيّدي.
 القَس: يا بُنيّ يا عمانوئيل، هذا التحريف لا يضرّ المسلمين بل ينفعهم. يا عمانوئيل،
 دع هذا، ولكن ما هذا عندك في معرفة النبيّ الذي أشارت إليه التوراة وقالت: «إنّه يقيمه
 الله مثل موسى، وما عندك من الحجّة؟».

عمانوئيل: التفتّ أنا إلى والدي ثمّ قلتُ: يا سيّدي القَس ما أنا وهذا وإن كانت الحقيقة
 بنت البحث؟! ولكنّ المسلمين يجادلوننا بتوراتنا ويقولون: إنّها تُشير إلى نبينا محمّد.
 يا سيّدي، ولما قلتُ لهم: إنّها تُشير إلى المسيح، اعترضوا عليّ بما ذكرته لحضرتك،
 ولم أجد لهم جواباً، بل أيّدوا مزاعمهم بأنّ نبيّهم من إخوة بني إسرائيل؛ لأنّه من ولد
 إسماعيل بن إبراهيم، كما يحفظه تاريخ العرب بين الملايين في أجيال متعدّدة، ويؤيّد
 إذعان القحطانيّين بذلك، ولو كان فيه أدنى شكّ لما اعترف القحطانيّون بهذا الفخر للعدنانيّين.
 وأيضاً فإنّ محمّداً هو الذي تكلم الله بفمه بالقرآن، فإنّه كلّ خطاب الله، وكلامه نحو
 كلام الله لموسى وإسرائيل في جبل سيناء، وليس هو من نحو تكليم محمّد لقومه، كما
 نراه في تكليم الأنبياء لقومهم في كتب العهدين.

من أنباء الغيب في القرآن

وأيضاً فإنّه تكلم باسم الله في القرآن بأمر غيبية كبيرة، فوعدت وجاءت على ما قال:
 منها: عن قول الله تعالى في الآية الخامسة والتسعين من سورة الحجر المكّيّة في

أول الدعوة: ﴿إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، فكفاه الله شرهم بأشرف الكفاية.
ومنها: عن قول الله في الآية التاسعة من سورة الصف المكيّة: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، وكذا في الآية الثالثة والثلاثين من سورة براءة قبل فتح مكّة،
فأظهره الله على الدين كلّه أشرف إظهار.

ومنها: عن قوله تعالى في سورة تبت في شأن أبي لهب وامرأته: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ
لَهَبٍ ۖ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۖ فَمَاتَا عَلَى الشَّرْكِ الْمَوْجِبِ لِدُخُولِ النَّارِ، وَلَمْ يُوقَفَا
لِتَوْحِيدِ الْإِسْلَامِ الْمُنَجِّي مِنَ النَّارِ.

والحاصل: أنّه لم يخبر في القرآن بشيء ولم يقع ذلك الشيء.
القس: يا عمانوئيل، هل تنحصر حجّة المسلمين بإشارة التوراة إلى النبيّ الذي
يقيم الله؟

عمانوئيل: لا يا سيّدي، إنّ لهم الحجج الكبيرة الجليّة، ولكنهم يجادلون اليهود
والنصارى بما ذكرته التوراة.

أليعازر: إيهاً يا عمانوئيل، أراك تتكلّم كمسلم متعصّب ماذا تقول يا سيّدي القس،
أما تسمع عمانوئيل يقدهح بنبوّة المسيح وقُدسه؟

عمانوئيل: يا سيّدي الوالد، ما أنا والمسلمين، وإنّما أسعى لتثبيت ديني على الحقّ،
يا والدي وإنّ التعصّب يكون بالكلام الكاذب الواهي، فهل ترى ذلك في كلامي؟
تجنّس عليّ يا والدي بمراجعة كتب العهدين ونُسخها.

يا سيّدي الوالد الرؤوف، هل أنا تجرّأتُ بالقدح بنبوّة المسيح وقُدسه، أم هذه
الأتاجيل المقدّسة هي التي اجترأت عليه وعلى نبوّته وقُدسه؟ وما خفي عليك منها يا
والدي أعظم وأعظم.

أليعازر: يا بني، إنّك تلقّنت القدح بنبوّة المسيح وقُدسه من المسلمين والقرآن، فماذا
أصنع بعد؟

القرآن، والمسيح، والتثليث

عمانوثيل: العفو يا سيدي الوالد، ما أنا والمسلمين والقرآن، ولكن الحق يقال. والإنصاف جمال الإنسان وشرفه. إن القرآن هو الذي يُمجد المسيح ورسالته من الله بأحسن التمجيد، ولم يلوث قدسه بشيء مما لوّثته به الأناجيل، وكأنه صحح أغلاط الأناجيل في شأن المسيح. نعم، ينتقد القرآن على النصارى عقيدة التثليث البرهمي البوذي الروماني، ويبرئ المسيح من التلوّث بهذا التثليث.

أليعازر: إن كان ما تقول حقاً، فالقرآن إذاً شريف المكالمة، إذ يحترم قدس السيد المسيح.

وأما عقيدة التثليث، فإنّ وجداني لا يقبلها منذ حدثتي، ولكن ساداتنا القسوس يعلموننا بأن نؤمن بها إيماناً أعمى، ولا يرضون لنا أن نراجع وجداننا فيها ونزنها بالمعقول، فأمنّا بها إيماناً بسيطاً.

العفو يا سيدي القس، فإنّي لا أتعلّل أن يكون الله واحداً ذا ثلاث أقانيم: الأب في السماء، والابن الإله المتجسد في الأرض يجوع ويعطش ويحزن ويكتئب ويقتل، والروح القدس يصعد وينزل وينقسم على التلاميذ. وإنّ هذه الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة.

العفو يا سيدي القس، أنا تاجر أعرف أبواب الحساب، فكيف أذعن بأنّ الواحد الحقيقي ثلاثة، والثلاثة المختلفة في الصفات والآثار تكون واحداً حقيقياً.

يا سيدي، على أيّ من عوامّ الناس لا أتعلّل معنىً صحيحاً لتجسد الإله، فهل من الممكن يا سيدي أن تفهمني هذه الأمور لكي أؤمن بها إيماناً عن بصيرة وتعقل؟

القس: يا عزيزي أليعازر، لو كان ما طلبته من الممكن لفهمك به قسوسنا القديسون، ولم يأمرؤك بأن تؤمن بهذه الأمور إيماناً بسيطاً.

أليعازر: يا سيدي، هل تأذن لي أن أبقى على هذا الإيمان البسيط؟

القس: يا عزيزي يا أليعازر، لماذا تستأذن منّي وأنا مخلوق مثلك؟ ولكن استأذن من إله الحق؛ بدلالة عقلك ووجدانك وحبّك لنجاة نفسك من الهلكة، صبراً يا أليعازر.

أليعازر: يا سيّدي، كم أصبر؟ أنا تاجر إذا استحقّ سندي على المديون لا أصبر عليه، فكيف أصبر في ديني الذي به نجاتي؟

القسّ: يا عزيزي يا أليعازر إذا قال لك المديون: يا أبا عمانوئيل، إنّ الوقت ليل مظلم وأنت في كسل النوم والطريق مغشوش ودراهمك معي، ولكن اصبر إلى ضوء الصباح وصحوك من الكسل لكي تتقد دراهمك وتعرف الصحيح من المغشوش وتتقن حسابها، وما أنا معك إلى الصباح لا أفارقك حتّى أعطيك تماماً، فهل تشكر هذا المديون أم تذمّه؟

أليعازر: يا سيّدي، أشكره على نصيحته ومعرفته أحسن الشكر.

القسّ: إذأ يا أليعازر أمهلني واستمع إلى مكالمة ولدك عمانوئيل معي.

عمانوئيل: إنّ كلام القسّ مع والدي قد أنعشني، وأفادني روح حياة واطمئنان بسلامته عن التعصّب، ولكنّه أضرم بقلبي نار الشوق إلى طيّ المراحل بالبحث، فلعلّي أصل إلى الحقيقة بوقت قريب.

القسّ: اقرأ يا بنيّ يا عمانوئيل من حيث انتهيت، واستمع أنت يا عزيزي أليعازر.

التوراة ومنّ يقول: لم أجد لزوجتي بكاراة

عمانوئيل: فقرأت حتّى بلغت الفصل الثاني والعشرين^١ وإذا فيه: إذا تزوّج الرجل فتاتاً وقال: لم أجد لها عذرة، يأخذ الفتاة أبوها وأمّها ويُخرجان علامة عذرتها إلى شيوخ المدينة وييسطان الشملة أمامهم، فيؤدّب شيوخ المدينة ذلك الرجل، ويغرمونه مائة من الفضة لأبي الفتاة وتكون له زوجة لا يقدر أن يطلقها كلّ أيامه. وإن كان الأمر صحيحاً لم توجد عذرة للفتاة، يرمونها بالحجارة حتّى تموت؛ لأنّها عملت قباحة بزناها.

القسّ: هل تجد يا عمانوئيل في هذه الشريعة شيئاً تبحث فيه؟

أليعازر: يا سيّدي القسّ، أنا - وأنا من العوامّ - أعرف أنّ هذه الشرائع الجائرة لا تكون من الله.

يا سيّدي، ما هي علامة العذرة التي يخرجها أبو الفتاة؟ أليست هي قليل دم على الشملة؟ فهل يعسر يا سيّدي على أمّ الفتاة وأبيها أن يأتيا بشملة عليها شيء من دم عصفور ونحوه، ليرفعا عنهما العار ويكسبا مائة من الفضة، ويلقيا بنتهما طوق بلاء في عنق الرجل إلى آخر أيامه؟ فهل يجعل الله ميزان أحكامه مثل هذه العلامة الفاسدة؟

يا سيّدي، وهب أنه لم توجد للفتاة عذرة، فلماذا تُرجم بالحجارة إلى أن تموت؟ ولماذا تعتبر زانية؟ أليست العذرة غشاءً رقيقاً في الفرج تخرقه الطفرة الشديدة، والحركة العنيفة، ودم الحيض المُحرق لها، وكثيراً من العوارض؟! فكيف يحكم على البريئة المسكينة بأنها زانية وتُرجم حتّى تموت بمجرد أنها لم توجد لها عذرة؟!

يا سيّدي، كيف يُرتّب الله هذه الشرائع القاسية على ميزان غير معقول؟!

القسّ: يا أليعازر، أراك تعترض على التوراة التي ينبغي أن تمجّدها وتحترمها.

أليعازر: يا سيّدي القسّ، إنّما يلزمني أن أمجّد الله وشريعة الحقّ، ومن ذلك يلزمني أن أعترض على ما ينافي مجد الله وعدله وحكمته.

يا سيّدي، أنا عبد الله، لا عبد الأوراق المكتوبة التي تعارض مجد الله.

القسّ: يا بُنيّ يا عمانوئيل، اقرأ من حيث انتهيت.

التوراة والطلاق

[عمانوئيل:] فقرأتُ حتّى بلغتُ الفصل الرابع والعشرين فقلتُ: يا سيّدي القسّ، ها هي التوراة تقول:

إنّ الرجل إذا تزوّج امرأة ولم تجد نعمة في عينيه؛ لأنّه وجد بها عيبَ شيء أو كلام كتب لها كتاب طلاقٍ وأخرجها من بيته^١.

يا سيّدي، فما بالنّا معاشر النصارى نحرم الطلاق ونُقَبِّحه؟

القسّ: يا بُنيّ يا عمانوئيل، إنّ أناجيلنا تذكر أنّ سيدنا المسيح نهى عنه وقبّحه

واحتج على تقييحه، وإن أردت أن تتكلم في هذا فدع الكلام إلى أن تصل إلى قراءة الأناجيل، فاقراً يا بني في التوراة.

زوجة الأخ، والتوراة

[عمانوئيل]: فقرأت حتى بلغت الفصل الخامس والعشرين، فقرأت ما حصله: إنه إذا سكن إخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ولد فإن امرأته يتزوجها أخوه. والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت ويحسب له ولداً. وإن لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه تشتكي عليه المرأة عند شيوخ بني إسرائيل، فإن أصر على الامتناع تتقدم أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتفل في وجهه. ويدعى اسمه في إسرائيل بيت مخلوع النعل^١.

ألبعازر: الحمد لله الذي لم يجعلني يهودياً ذا إخوة كثيرة، وإلا كنت أخطر أن يكون وجهي غريق التفلات من النساء الصلفات العديمات الحياء.

عمانوئيل: يا سيدي القس، ما هذه العادة الوحشية الفظة الشنيعة، الهاتكة لناموس الأدب والحياء والشرف، الواسمة بالعار، مع أنها لا فائدة فيها إلا زور وكذب لا مساس له بالحقيقة؟!!

وكيف يكون البكر من هذه المرأة يقوم باسم الميت، وإن هذا الإبقاء لاسم الميت يقوم بتزوير آخر، فلا ضرورة إلى جعل الرجل بين خطرين: إما الشناعة وانهدام شرفه بالجرأة القبيحة من امرأة متهتكة، وإما التقييد بامرأة لا يريد لها وربما كان يتمنى خلاص بيتهم منها ولو بموت أخيه.

يا سيدي، حاشا لله، وحاشا لموسى، وحاشا التوراة من هذه الشريعة التافهة السخيفة المشبهة للعوائد الهمجية.

القس: يا عمانوئيل، لا تطل لسانك هكذا على توراتنا المقدسة.

أليعازر: العفو يا سيّدي، فإنّ هذه التوراة هي التي تُطيل اللسان وتقهر الإنسان على مثل هذا الكلام، وليتك لم تحضرني عند القراءة.
القسّ: سيفتح الله عليك يا أليعازر.

عمانوثيل: يا سيّدي، هل لهذه الشريعة أثر فيما قبل التوراة؟
القسّ: أمّا التفلة في الوجه وخلع النعل، فلا أعرف لهما أثراً. ولكن تزوّج الرجل بامرأة أخيه ليقيم لأخيه نسلًا، تذكر التوراة أنّ له أثراً يرضاه الله ويسخط مخالفته، قد كان من زمان يعقوب ويهوذا ابنه. ففي الفصل الثامن والثلاثين من [سفر] التكوين: إنَّ عير بن يهوذا مات، فقال يهوذا لابنه الآخر أونان: ادخل على امرأة أخيك وادخل بها وأقم نسلًا لأخيك، فعلم أونان أنّ النسل لا يكون له فصار عند مجامعتها يُنزل على الأرض ققبيح بعين الله ما فعله^١.

عمانوثيل: هل هذا في زمان يعقوب شريعة إلهية؟
القسّ: ما كلّ ما هو موجود في التوراة تسألني عن صحّته، ألم تقرأ في سفر التكوين ما يؤدي إلى أنّ الله كذب على آدم، وأنّ الحيّة صدقت وبيّنت هذا الكذب كما مرّ في صحيفة ٢١؟

عمانوثيل: يا سيّدي، هل كانت شريعة إلهية قبل شريعة التوراة؟
القسّ: متبسّمًا: صرّح بعض أصحابنا، ومنهم جمعيّة كتاب الهداية المطبوعة بمعرفة المرسلين الأمريكيان، فقالوا في الجزء الرابع صحيفة ١٦٧ و ١٦٨ و ١٦٩ ما حاصله: إنّ القدماء من آدم وإبراهيم كانوا يجرون على العوائد ولم تنزل عليه شريعة، ثمّ نسخها موسى، بل اصطلحوا على عادات للجريان عليها في هذه الدنيا.

عمانوثيل: يا سيّدي، هل رأيت كتاب الهدى ص ٢٨٣؟
القسّ: نعم، ويا للخجل ويا للأسف من جهل أصحابنا بكتبهم أو من شدّة تعصّبهم، فإنّه يكفي في توبيخهم ما ذكره العدد الخامس من الفصل السادس والعشرين من

[سفر] التكوين عن قول الله لإسحاق: «من أجل أنّ إبراهيم سمع لقولي وحفظ ما يحفظ لي أوامري وفرائضي وشرائعي».

وفي الأصل العبراني: «ويשמّر مشمّرتي مصورتني حقوتي وتورتي».

عمانوئيل: يا سيّدي، ما هو الذي أقحم أصحابنا في هذه الورطة الكبيرة؟

القسّ: لمّا كان بعض شرائع القرآن ينسخ شرائع التوراة والشرائع المنسوبة إلى الرسل وبولس، فحاول أصحابنا أن يدّعوا أنّ نسخ الشرائع الإلهية من المستحيل؛ لكي يسقطوا شرائع القرآن بكونها من المستحيل في الديانة، وبإلّيتهم لم يقتحموا هذه الواهيات. عمانوئيل: يا سيّدي، هل رأيت كتاب إظهار الحقّ وكتاب الهدى صحيفة ٢٨٣

إلى ٣٧٨؟

القسّ: رأيته، فكثرت أسفي على ورطات أصحابنا.

عمانوئيل: إذا كان نسخ الشريعة مستحيلاً في الدين، فماذا يوجد عند النصارى من شريعة التوراة التي ثبتها المسيح والإنجيل وأوصانا بحفظها؟ ولماذا أبطلها كتاب أعمال الرسل والرسائل المنسوبة إلى بولس بلسان الاستهزاء؟

القسّ: أسألهم عن ذلك ولا تسألني.

أليعازر: هذا أمر كبير وبحث مفيد، فلماذا لا تتعرّض له؟ فإنّ فائدته في الدين عظيمة مهمّة.

عمانوئيل: سنتسمع شيئاً من ذلك، ولعلّك تسمعه تفصيلاً حينما تتعرّض لحال أعمال الرسل والرسائل المنسوبة إلى بولس.

العمل بالتوراة

عمانوئيل: فقرأتُ إلى الفصل الثالث والثلاثين فقلت: يا سيّدي، إنّ موسى يشدّد بالعمل بجميع كلمات هذه التوراة^١، وحفظ الوصايا والفرائض المكتوبة في سفر

١. انظر أقلّ سفر تثنية الاشتراع ٣١: ١٢ و٤٦: ٣٢. (منه ٪).

الشريعة، وأنّ الذي لا يعمل بها تأتي عليه جميع اللعنات^١، وأنّ من لا يقيم كلمات الناموس ليعمل بها ملعون^٢.

يا سيّدي، وإنّا نؤمن بأنّ التوراة كتاب الله، فمالنا لا نعمل بفرائضها وأحكامها أصلاً، مع أنّ الإنجيل يصرّح عن قول المسيح بأنّه ما جاء لينقضّ الناموس بل ليكمل، وأنّ من نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات^٣. كما يعرف من صراحة الأناجيل أنّ المسيح كان عاملاً بالشريعة الموسويّة إلى حادثة الصليب، يا سيّدي فكيف خلاصنا من هذه اللعنات؟

فداء المسيح من لعنة الناموس

القسّ - وهو متبسّم -: يا بُنيّ يا عمانوئيل ويا عزيزي أليعازر، اسمعا ولا تنزعجا: إنّ في عهدنا الجديد الإلهامي المقدّس بُشرى كبيرة بخلاصنا من هذه اللعنات، فإنّ في العدد الثالث عشر من الفصل الثالث من الرسالة المنسوبة للرسول بولس إلى أهل غلاطية ما نصّه:

المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنةً لأجلنا؛ لأنّه مكتوب: ملعون كلّ من علّق على خشبة.

أليعازر: هل هذا الكلام في عهدنا الجديد المقدّس من الرسول بولس؟ إذن فأمضي إلى الملاعب وأحضر الغناء ورقص الراقصات، وهذا أقلّ إثماً من سماع هذه الكلمات القبيحة في شأن المسيح.

القسّ: لا، يا أليعازر، الملاعب ورقص النساء في محافل الرجال من عادات الوثنيين. أليعازر: يا سيّدي، وهل هذا الكلام القبيح في شأن المسيح من عبادات المؤمنين القدّسين؟ يا سيّدي، لا أفدر أن أسمع عن كُتبتنا المقدّسة ما تذكرونه في مكالمكم

١. سفر تثنية الاشتراع ٢٨: ١٥. (منه ﷺ).

٢. سفر تثنية الاشتراع ٢٧: ٢٦. ونحوه ٢٨: ١١. (منه ﷺ).

٣. إنجيل متى ١٨: ٥ - ٢٠. (منه ﷺ).

وقراءتكم، فأني قد أزعجتني الآلام من ذلك.

القَس: يا أليعازر، إنَّ مَنْ كان به داء الفتق لا بُدَّ أن يصبر على آلام العمليّات.

أليعازر: إنَّ آلام العمليّات تُدفع بالبنج المغطّي على الحسّ والشعور.

القَس: العمليّات الروحيّة لا يمكن أن تكون مع فقد الشعور، كيف وأنّ الشعور أكبر وأحسن آلتها وهو الذي يعين الطبيب بالنجاح، فاصبر واستمع يا أليعازر واستسئئ بنور شعورك واطلب نجاتك.

عمانوثيل: يا سيّدي الوالد، إنَّ هذا الكلام لم يقتصر على الجرأة على قُدس المسيح، بل اجترأ على جلال الله وعدله وقُدسه جرأة عظيمة، واجترأ بالكذب والتحريف والتمويه.

أليعازر: يا ولدي، عزّفتي جرأته بالكذب والتحريف والتمويه؟

عمانوثيل: يا سيّدي الوالد، إنَّ هذا الكاتب يريد بالمكتوب ما جاء في العدد الثاني والعشرين والثالث والعشرين من الفصل الحادي والعشرين من [سفر] التثنية وهذا نصّه:

وإذا يكون على إنسان خطيئة شريعته وقضاؤها القتل فقتلَ وعَلَّقْتَهُ على خشبة، لا تَبِثْ جِثَّتَهُ على الخشبة بل دفناً تدفونونه بيومه؛ لأنَّ المعلق لعنات الله إلهنا، فلا تُنَجِّسْ أرضك.

يا سيّدي الوالد، فكلام التوراة إنّما هو في الخاطئ المستحقّ للصلب بخطيئته، وهذا الخاطئ المصلوب هو لعنات الله، وهو الذي ينجس الأرض ببقائه مصلوباً. ولم تقل التوراة ولم يكتب فيها: ملعون كلّ من علّق على الخشبة. يا سيّدي، فانظر كيف ترى الكذب والتحريف والتمويه.

مسلم كان حاضراً بالقرب منّا فقال: أيّها الأصحاب هل تسمحون لي بسؤال واحد؟ أليعازر: سل ما عندك.

المسلم: إنّ كتاب إلهامكم من العهد الجديد جعل الرسول المقدّس المسيح ﷺ لعنةً وملعوناً، وأستغفر الله وإثم هذا الكلام عليكم، ولكن سؤالي فوق هذا وهو: إنّ الروحانيّين منكم يكتبون في كتبكم وعليه عموم ديانتكم ويقولون: إنّ المسيح إله

متجسّد، وإنّ المسيح هو الله لبس ثوب الناسوت.

وعلى هذا فبالنتيجة من هو الذي يكون لعنةً وملعوناً؟ غفرانك اللهم، فأني أردتُ بكلامي هذا تنبيه عبادك من غفلة الضلال.

عمانوئيل: أحسنتَ يا صاحبنا في سؤالك، وأنا في ميدان البحث وطلب الحقّ، لا في حفيرة التقليد وعمى التعصّب.

المسلم: إن كنتم في ميدان البحث الصادق بالنيّة الخالصة فإنّ الله يوفّقكم، أستودعكم الله وسامحوني، فلعلّي أزعجتكم بهذا السؤال.

أليعازر: يا عمانوئيل، هل يوجد في عهدنا الجديد ما نستكره مثل هذا الكلام ومثل ما مرّ من التوراة؟

عمانوئيل: أسأل حضرة القسّ.

القسّ: أتمنى أن لا يكون فيه، ولكن: مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ^١، إنا سنقرأ في عهدنا الجديد ونرى ما فيه.

أليعازر: كيف يكون المسيح افتدانا من لعنة الناموس؟

عمانوئيل: لا يحسن أن أتكلّم في هذا الموضوع بمحضر القسّ حتّى نسمع كلامه وفوائده، فإنّ هذا المقام أمر كبير.

القسّ: يا أليعازر، إنّ أصحابنا يقولون: إنّ الإنسان لا ينفكّ عن الخطيئة، وعقاب الخطيئة هو الموت في جهنّم النار إلى الأبد؛ لأنّ المولى - سبحانه وتعالى - قدّوس طاهر، وعدله يستلزم عقاب الخطيئة بهذه الكيفيّة.

فالمسيح احتمل في جسده ما كنّا نستوجبه من العقاب، ووفّى ما كان علينا من الدين، فإنّ الكلمة الأزليّة ابن الله بموته ووفّى للعدل الإلهي حقّه.

إنّ الله - سبحانه وتعالى - حكم في كتابه العزيز بأنّ كلّ نفس تُخطئ موتاً تموت في جهنّم النار إلى الأبد؛ لأنّ عدله يستلزم هذا القصاص لقداسته التي لا تحدّ، ولبغضه

١. شطر بيتّ للشاعر الكبير أبي الطيّب المتنبي (م ٣٥٤هـ)، وعجزه: تجرّي الرّياحُ بما لا تشتهي السفن.

للخطيئة بغضاً شديداً، فلا يمكن أن يغض الطرف عن قصاص الخاطئ.

وإنَّ الله أظهر رحمته ومحبته بتجسّد الكلمة الأزليّة، فلبس هذا الجسد، وكان يلزم أن يكون الفادي قدوساً منزهاً عن النقص حتّى يفي للعدل الإلهي حقّه، فالمسيح احتمل ما علينا ووفّى للعدل الإلهي حقّه.

عمانوييل: يا سيّدي، من هو الكلمة الأزليّة الذي لبس هذا الجسد؟ ومن هو ابن الله؟

كيف يكون المسيح هو الله؟

القس: يا عمانوييل، إنّ أصحابنا يقولون: إنّ المسيح هو الكلمة الأزليّة، وإنّ الكلمة الأزليّة هو الله، وإنجيل يوحنا يقول في أوّله: «وكانت الكلمة الله». وأما ابن الله فهو أقنوم الله، وهو الله واحد.

عمانوييل: يا سيّدي، إنّ هذا الكلام يقضي بأنّ المسيح هو الكلمة الأزليّة، والكلمة الأزليّة هو الله، وابن الله هو أقنوم الله الذي هو الله، فالمسيح هو الكلمة الأزليّة المتجسّدة وهو الله الذي لبس هذا الجسد، أليس هكذا يا سيّدي؟
القس: نعم هكذا.

عمانوييل: يا سيّدي، إذن فيكون حاصل الكلام: أنّ الله احتمل في جسده ما كُنّا نستوجه من العقاب في جهنّم النار إلى الأبد، وهكذا يا سيّدي؟ هل يمكن للعاقل أن يتصوّر هذا أو يتفوّه به؟

القس: هذا الكلام ينبغي أن تُعطيه حقّه من التفهّم ولا تتسرّع إليه بالانتقاد، بل من الواجب أن تنظر في جميع أطرافه ولا توجّه نظرك إلى مفردات كلماته.
عمانوييل: يا سيّدي، لو اقتصرنا على النظر إلى مفردات هذا الكلام، لهان أمره في الجملة، ولكنّ البليّة على العقل والمعقول تأتي من النظر إلى مجموعه.

يا سيّدي، إنّ كتاب الهداية المؤلّف بنظر جمعيّة من علمائنا القديسين بمعرفة المرسلين الأمريكيّان، يذكر في السطر الرابع من الصحيفة الثامنة والثلاثين من الجزء الثاني ما نصّه: «إنّ الكلمة الأزليّة هو الله».

ويذكر في الصحيفة الخامسة والثمانين بعد المائتين من الجزء الرابع ما نصّه: «إنّ المسيح هو الله».

ويذكر في الصحيفة الحادية والسبعين بعد المائة من الجزء الثالث ما نصّه:
المسيحيون يعتقدون بأنّ الذات العليّة والكلمة الأزليّة والروح القدس هم الله الواحد الأحد.

فهل هذا كلّه يا سيّدي هو اعتقاد المسيحيين؟

القسّ: نعم يا عمانوئيل، وقد قلتُ ذلك لك وذكرتُ لك أنّ أوّل إنجيل يوحنا يقول:
«وكان الكلمة الله» فلماذا تسأل ثانياً؟ ولماذا تطلب التكرار؟

أليعازر: يا سيّدي القسّ، إنك بقداستك قد سمحتَ لخادمك ولدي عمانوئيل أن يبحث عن الحقائق بكلّ إتقان، وأنت الذي درّبتَه على التحقيق وحرّيّة الضمير، وهذه أمورٌ يلزم التنبّث فيها، وإني - وأنا عامّي - أعرف أنّ هذه الأمور لا ينبغي للإنسان أن ينظر فيها نظراً سطحياً، وإني قد وجدتُ في قداستك من حسن الخلق وسعة الصدر ما لم أجدّه في غيرك. فلماذا يا سيّدي تضجر من استفسار عمانوئيل؟ وإني أجد أنّ في هذا المقام أموراً عظيمة، وأظنّ أنّ سيدنا القسّ يُريد الحياد في هذه المسألة. ولكن يا سيّدي أنت فتحتَ الباب لولدي عمانوئيل وأمرته بالدخول في البحث، فكيف تغلق الباب في وجهه عند النتيجة؟

القسّ: يا أليعازر، إنّ من الأمور ما أضجر من مرورها في خيالي، فكيف لا أضجر من تكرار الكلام فيها، ومع ذلك فإنّي أرجو من نجلك الموقّع عمانوئيل أن يسامحني من هذا الضجر.

عمانوئيل: يا سيّدي، إنّ الطبيب لا ينبغي أن يشمئزّ من النظر إلى الجراحة في القرحة ولا رائحتها، بل الواجب عليه أن يفحص عن مادّتها ومخزنها ويخرجها وينقي القرحة منها ولو بيده وثوبه، وإن كان ممّن يشمئزّ منها فليس بطبيب ولا يُعطى الشهادة. أليعازر: يا سيّدي، قد كان يخطر في بالي سرّ الفداء على ما يقوله المسيحيون ويشرحه الروحانيون، فتعتريني في ذلك شُهبات كنتُ أظنّها نشأت من مخالطة المسلمين.

ولكن يا سيّدي، إذا ذهبْتُ إلى الروحانيّين لكي يجلووا عني غبار الشبهة، لم أجد منهم في الجواب إلا قولهم: «اسكت يا عديم الإيمان» أو «زلّ إيمانك يا مسكين» أو «هذا كلام تجديد» أو «لا تنجو ولا تفوز ببركة الفداء إلا بالإيمان البسيط» أو «يا بُني، إنّ هذا فوق عقولنا ولكنّه موافق للعقل».

والآن يا سيّدي، نرجو من قداستك وروحانيتك أن تجاهرنا في البيان عن هذه العقيدة المهمّة؛ ليثبت إيماننا بها ونكون على بصيرة من أمرنا، فإني كولدي عمانوئيل لا أختار الإيمان بالبساطة.

القس: مرحباً بكما وقد أبهجنى عتابكما لي؛ لأنّه ناشئ عن طلب الحقيقة وعدم الانقياد إلى عصبيّة الألفة، فاجر يا بُني يا عمانوئيل في سؤالك، وأصغ واسمع أنت يا عزيزي يا أليعازر.

عمانوئيل: يا سيّدي، لماذا يكون غفران الله للخطيئة برحمته خلاف العدل؟ وهل تكون الرحمة بالغفران ظلماً؟ ولم يكون الغفران ظلماً؟ فكيف يقولون: إنّ عدل الله يستلزم عقاب الخطيئة بالموت في جهنّم النار إلى الأبد؟! فهل يمتنع على الله الغفران؟

غفران الله ورحمته، [والكتاب المقدّس]

القس: لا يا عمانوئيل، إنّ كتبنا المقدّسة تُمجّد الله بالرحمة والرأفة والغفران وتقول: إنّ الله إله رحيم ورؤوف غافر الإثم والمعصية والخطيئة^١، وغفور وكثير الرحمة لكلّ الداعين إليه^٢، والذي يغفر جميع ذنوبك^٣، ومَن هو إله مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنب؟^٤

وفي كتاب إشعياء في الفصل الثالث والأربعين في العدد الخامس والعشرين. «أنا أنا

١. سفر الخروج ٤٣: ٦ و ٧؛ سفر العدد ١٤: ١٨. (منه ﷺ).

٢. مزامير داود ٨٦: ٥. (منه ﷺ).

٣. مزامير داود ١٠٣: ٣. (منه ﷺ).

٤. كتاب ميخا ٧: ١٨. (منه ﷺ).

هو الماحي ذنوبك لنفسي وخطاياك لا أذكرها». ومثل هذا في كتبنا المقدسة كثير جداً. عمانوئيل: يا سيدي، إننا نعلم أن الله قدوس طاهر، يمقت الخطيئة مقتاً شديداً. لكن يا سيدي، إن اللازم لقدسه ومقته للخطيئة أن لا يرضى بالخطيئة ولا يلجأ إليها، وليس اللازم لقدسه أن لا يغفر للتائب المنيب إلى طاعة ربه.

وأين يذهب العبد؟ هل له ملجأ غير مولاه الرحيم؟ فكيف لا يمكن أن يغض الطرف عن عقاب الخاطئ إذا تاب وأتاب؟! هل الله - جل شأنه - محتاج إلى التشفي وتبريد القلب بعقاب التائب؟

يا سيدي، إننا نستحسن العفو من البشر المحتاج إلى التشفي وتبريد القلب، فكيف لا يمكن العفو عن التائب من الله الغني القدوس؟!

القس: حقاً تقول يا عمانوئيل، وبه تنطق كتبنا المقدسة، ففي الفصل الثامن عشر من كتاب حزقيال عن قول الله:

فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياها التي فعلها وحفظ كل فرائضي وفعل حقاً وعدلاً فحياة يحيا لا يموت. كل معاصيه التي فعلها لا تُذكر عليه. هل مَسْرَةٌ أُسْرٌ بموت الشرير يقول السيد الله: ألا يرجوعه من طريقه يحيا^١.

وفي الفصل الثالث والثلاثين عن قول الله لحزقيال:

وأنت يا ابن آدم كلّم بيت إسرائيل وقُل أنتم تتكلّمون هكذا قائلين: إن معاصينا وخطايانا علينا وبها نحن فأنون فكيف نحيا. قل لهم حيّ أنا يقول السيد الله: إنّي لا أُسْرُ بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا، ارجعوا عن طرقكم الرديئة فلماذا تموتون؟^٢

وفي الثالث من رسالته بطرس الثانية: «لا يُريد الله أن يهلك أناس بل أن يُقبِلَ الجميع إلى التوبة»^٣ ومثل هذا في كتبنا كثير جداً.

١. العدد ٢١-٢٣.

٢. العدد ١٠ و١١.

٣. العدد ٩.

القرآن والتوبة والغفران

عمانوييل: العفو يا سيدي، أسألك مسألة تاريخية، لا تظنّ بي بسببها شيئاً، هل يوجد في القرآن ذكر للتوبة والغفران؟

القس: يا عمانوييل، إنّ القرآن كنز للأمور الإلهية، وذكر المغفرة والتوبة فيه كثير، ويكفي منه قوله في الآية الثانية والثمانين من سورة طه المكيّة: ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾.

أليعازر: يا سيدي، أراك تمجّد القرآن تمجيداً كبيراً، وهذا شيء مُدهش.

القس: يا أليعازر، إنك طلبت مني تدريس ولدك عمانوييل في الحقائق، وهل تطلب مني أن أظلم الحقيقة إذا جرى ذكرها وأتدنس برذيلة التعصّب؟ فإن كنت تدهش من قول الحقّ فإنّي مفارقكم يا أليعازر. أما إنّي أَرْضَى بما عندك من التمييز، فخذ القرآن واقراه من أوّله إلى آخره، فهل تجد فيه شيئاً يخالف المعقول؟ وهل تجد فيه شيئاً مثل الذي اعترضت به أنت وولدك عمانوييل على التوراة؟

أليعازر: العفو يا سيدي، أخطأتُ أنا فسامحني يا سيدي، داء جهلي هو الذي صدر منه ما سمعه سيدي، فكيف يضرر منه سيدي وهو الطبيب لداء الجهل والعارف بفلتات هذا الداء الرديء. فالعفو يا سيدي، وأسأل الله أن لا يحرمني البركة بملازمة خدمتك، فلا تصدع يا سيدي قلوبنا بقولك: «إنّي مفارقكم».

عمانوييل: يا سيدي، لا تلم سيدي الوالد، فإنّ المسموع قد يشوّش ذهن الإنسان، وإنّ أصحابنا النصارى - هداهم الله - يجعلون القرآن كلام رجل أُمّي وحشي خالٍ من المعارف والفضيلة، قد شحن بالعوائد الوثنيّة وخشونة العرب وغلظة الوحشيين والأغلاط التاريخيّة والعرفانيّة والاجتماعيّة.

يا سيدي، فإذا كان قد سمع هذا الذمّ للقرآن، مع أنّه يعتقد أنّ التوراة كلام الله القدّوس، وقد شاركنا فيما تقدّم من الاعتراضات الباهضة عليها، فلا تلمه يا سيدي إذا ساء ظنّه بالقرآن واستوحش من تمجيده، فالواجب على لطف سيدي

القَسَّ إزالة المعاصر عن طريق سيّدي الوالد.

يا سيّدي الوالد، ألم تنظر إلى سيّدنا القَسَّ منذ قرأنا عليه التوراة، وصرنا نعترض على ما تقرّوه بمخالفته للمعقول، كيف يحدد عن المعالجة بالجواب ويروض أفكارنا بالأمني؟ كلّ ذلك حذراً من هيجان العصبية، وهاهو يتجرّع الغصص من أمرنا، وها أنت يا سيّدي الوالد قد اندهشت من كلمة واحدة من فوائد سيّدنا القَسَّ، فكيف ترجو منه بيان ما عنده من الحقائق؟!

القَسَّ: يا بُنَيَّ يا عمانوئيل، عُدْ إلى سؤالك عن سرّ الفداء، وليسمع عزيزي أليعازر.

[فداء المسيح من لعنة الناموس والعدل الإلهي]

عمانوئيل: يا سيّدي، إنّ قومنا قالوا: إنّ الله قدّوس، لا يمكن أن يفضّ النظر عن عقاب الخاطيء بالموت في جهنّم النار إلى الأبد، فلنفضّ النظر عن اعتراضاتنا السابقة على هذا الكلام، ولكن نقول لهم: الله القدّوس مُبغض الخطيئة، كيف غضّ النظر عن عقاب الخاطيء وتحوّل إلى الفداء واقنع به عدله وقدسه كما تقولون؟

وكيف تنازل عدله عن عقاب خُطاة العالم في أجيالهم إلى موت شخص واحد يوماً وليلتين؟ وأيّ حاجة إلى هذا التنازل الفاحش؟

قد سمعنا أنّ التاجر إذا انكسر وأراد أن يختلس من أموال التجارة، يأتي إلى بعض المديونين له خفياً ويتنازل معهم في الوفاء، أو يتنازل ببيع بعض الأموال خفياً بأقلّ من قيمتها، ولكنّه مهما كان عديم الشرف والذمّة والعدل والصدق، فإنّه لا يتنازل بمثل هذا التنازل الفاحش الذي لا يمكننا أن نجده.

يا سيّدي، وهب أنّ المسيح الفادي مات ونزل إلى الجحيم - كما هو مكتوب ومطبوع في كتاب صلاة البروتستنت - ولكن ما يكون في جنب قصاص خُطاة العالم وعقابهم بالموت في جهنّم النار إلى الأبد؟ ولماذا انخدع العدل الإلهي بهذه الخديعة العظيمة؟

يا سيّدي، ألم يكن واحد من الملائكة أو جند من السماء ممّن يعرف الحساب

والمقايسة لكي ينبّه العدل الإلهي ويقول له: إنّ هذا تنازل غير محدود ولا هو مرضيّ للعقل، فلا تنخدع به!؛

أين كانت الحيّة الصادقة الناصحة العالمة بزعم التوراة الرائجة؟ وهي حيّة حوّاء كما تقدّم صحيفة ٢١.

يا سيّدي، كُنْ أنتَ وكيلاً محامياً عن جانب العدل الإلهي، وأكون أنا وكيلاً محامياً من جانب الرحمة الإلهية، فيماذا تُجيبني يا سيّدي في محكمة العقل والوجدان إذا قلتُ لحضرتك: إنّ الرحمة الإلهية تقول: أيّها العدل الإلهي الذي يستلزم عقاب الخاطئ بالموت في جهنّم النار إلى الأبد ولا يمكن أن يفضّ الطرف عن ذلك؟ اسمع، هبْ أنّي لا أداخل بوظيفتك، ولا أعترض عليك بمخالفتك لقانونك.

ولا أقول لك: كيف انفصمت عروة استلزامك لعقاب الخاطئ بجهنّم إلى الأبد؟

ولا أقول لك: من ذا؟ وماذا فصمها وحلّ عقدتها؟

ولا أقول: لماذا تنازلت هذا التنازل الذي يضع فيه الحساب؟

ولا أقول لك: يا عدل الإله القدّوس كيف حملت عقاب الخاطئ على البار؟

إنّ القدس الإلهي هو الذي يسألك عن ذلك، ولكنتي أطلبك بوظائف الرحمة الإلهية وأقول لك: إنّ المسيح الذي قدّمته للفداء وحمل القصاص قد حزن وبكى وكتب واندھش وضعف واستعفى من هذا القصاص، وطلب من الله أن تعبر عنه كأسه وساعته، وكان يصلي لأجل ذلك بأشدّ لجاجة وقال: إلهي لماذا تركتني؟

وشاهدي على هذا صراحة الأناجيل المقدّسة، كما في الفصل السادس والعشرين من متّى في عدد ٣٨ و ٣٩، والفصل الرابع عشر من مرقس في عدد ٣٥ و ٣٦، والفصل الثاني والعشرين من لوقا في عدد ٤١ و ٤٢ و ٤٣.

أيّها العدل الإلهي إن كنتَ أنتَ خالفْتَ وظيفتك أو تنازلتَ فيها، فبإني - الرحمة الإلهية - لا أتنازل عن وظيفتي المقدّسة، ولا أتنازل عنها، ولا أحمل المسؤولية في ذلك. فإن كنتَ - وأنا الرحمة - لا أغيب المسيح البارّ عند حزنه وبكائه واستقالته من قصاص الفداء، فما هي آثار وظيفتي؟

أليعازر: يا سيّدنا القسّ، إنّي أكون وكيلاً ومحامياً متطوّعاً عن العدل الإلهي وأقول للروحانيّين: لماذا تلتصقون بقدس العدل الإلهي آثار الجور البشري الوحشي؟
سامحنا قداسكم إذ غفّلتم عن الأمور الواضحة عند العقل والوجدان، ومن جملة هذه الأمور سوّالات ولدي عمانوئيل عمّا تقدّمت.

ومن جملتها: مخالفة ما تقولونه لمعنى العدل وحقّيقته.

ومن جملتها: مضادّة ما تقولون لقدس الله وجلاله وغناه.

فإنّ الذي تذكرونه يكون من جائر محبّ للخطيئة، ينادي بحرّيّة الخاطئين في خطاياهم الفاحشة، ويؤمّنهم في سبيل الخطايا بحمل قصاصهم على البار، ويضمّم صوته إلى أصوات الشهوات وينادي: يا محبّي الخطيئة هنيئاً لكم الفداء، فافعلوا ما شاء الهوى والظلم.

ولكنّ أيّها الروحانيّون، لا نسامحكم في غفلة قداسكم عمّا هو موجود متكرّر في كتبنا المقدّسة، أليس في الفصل الثامن عشر من كتاب حزقيال من العدد الرابع إلى آخر الفصل، صراحة متكرّرة بأنّ النفس التي تُخطئ هي تموت، وأنّ برّ البارّ عليه يكون وشراً الشرّير عليه يكون، وأنّ الله يجازي كلّ واحد حسب أعماله، وليس عنده محاباة؟ كما في المزمور الثاني والسّتين، والفصل السابع عشر والثاني والثلاثين من كتاب إرميا، والفصل السابع والثالث والثلاثين من كتاب حزقيال، والفصل السادس عشر من متى، والثاني من روميّة، والأوّل من كورنثوس الأوّل، والخامس من كورنثوس الثانية، والسادس من أفسس، والثالث من كولوسي، والأوّل من رسالة بطرس الأوّل.

القسّ: مرحباً بمعرفتك يا أليعازر، ومرحباً بأطلاعك على ما في الكتب المقدّسة، ولكن لا تتكلّم بحدّة، وسر في طلب الحقيقة على رسلك، والله الموقّق.

عمانوئيل: يا سيّدي، بقيت لي كلمة، فليسمح لي سيّدي بأن أقولها وإن كانت تكراراً، وإن كان سيّدي القسّ يتألّم من مرور أمثاله على خياله، ولكنّ المسير إلى الحقّ يوجب تحمّل المشقّات في رفع المعاصر من طريقه.

يا سيّدي، قد قال حضرتك: إنّ الروحانيّين المسيحيّين يقولون: إنّ المسيح عيسى

هو الكلمة الأزليّة، والكلمة الأزليّة هو الله، والمسيح ابن الله، وأقنوم الله الذي هو الله، والمسيح هو الكلمة الأزليّة المتجسّدة، وهو الله الذي لبس هذا الجسد.

يا سيّدي، فحاصل أمر الفداء أنّ الله القدّوس العادل مِبغض الخطيئة، حكمَ بقصاص الخاطئين بالموت في جهنّم النار إلى الأبد. ولكن لأجل بغضه للخطيئة والخطي، ولأجل قداسته التي لا تحدّ، غضبَ فاحتمل في جسده قصاص الخاطئين ساعة أو ثلاثة أيّام. يا سيّدي، لو فعل هذا أحد البشر ألم نعدّه من الحمقاء؟

يا سيّدي، لو أنّ إنساناً تمرّد عليه عبده وفعّلوا الظلم والفحشاء، وهو قادر على عقابهم، ولكنّه خرج بين الناس ينادي: إنّي عادل مقدّس، وعدلي يستلزم عقاب الخطي بأشدّ العقاب، ولا يمكن أن أغضّ الطرف عنه، كيف وأنا القدّوس العادل.

ثمّ رفع يده وضرب ولده أو ضرب نفسه وقال: ها، إنّ عدلي قد استوفى حقّه ووفّيت ما على الخاطئين من الدين، يا كتّابي اكتبوا أنّ السيّد افتدانا من لعنة قانون الشرف والصّلاح، إذ صار لعنة لأجلنا، يا خاطئين اعملوا ما شئتم.

يا سيّدي، هل تقول لهذا الرجل: مرحباً بك وبعذك وقداستك وبغضك للخطيئة، ومرحباً وألف مرحباً بعقلك؟ هل يقول له أحد ذلك؟

القس: يا بُني لا تتكلّم بحدّة، فإنّ الروحانيّين يقولون: لا شيء من الدينونة على الذين في المسيح، فإنّه ينسب إلينا برّ المسيح بالإيمان به، فالمسيح حفظ الشريعة، فبالإيمان به ينسب إلينا حفظها، فيكون الله عادلاً في تبريرنا؛ لأنّ عدله استوفى حقّه. عمانوئيل: يا سيّدي، قد رأيتُ هذا الكلام لجمعيّة كتاب الهداية - المطبوع بمعرفة المرسلين الأمريكيّان - في الجلد الرابع صحيفة ٢٨٠، ولكن يا سيّدي إنّ المسيح قد أمرنا بحفظ الشريعة:

ففي الفصل الخامس من إنجيل متى عن قول المسيح:

لا تظنّوا أنّي جئتُ لأنقضّ الناموس أو الأنبياء ما جئتُ لأنقضّ بل لأن أكملّ!

فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هَذِهِ الْوَصَايَا الصُّغْرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هَكَذَا يُدْعَى أَصْغَرَ فِي
مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ.^١

وفي أوّل الفصل الثالث والعشرين:

حِينَئِذٍ خَاطَبَ الْجُمُوعَ وَتَلَامِيذَهُ. قَائِلاً عَلَى كُرْسِيِّ مُوسَى جِلْسِ الْكَتَبَةِ
وَالْفَرِيسِيِّينَ. فَكَلَّمَ مَا قَالُوا لَكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ فَاحْفَظُوهُ وَافْعَلُوهُ.^٢

يا سيّدي، فإذا ضيّعنا الشريعة على رغم تعليم المسيح لنا بحفظها، فكيف يُنسب
إلينا حفظ المسيح لها؟! وكيف - ونحنُ العصاة لله وللمسيح في تضييع الشريعة - يُنسب
إلينا برّ المسيح؟!

يا سيّدي، هب أن الله يغفر لنا عصياننا بتضييع الشريعة ويسامحنا في ذلك،
ولكن كيف نكون أبراراً؟! وكيف ينطبق ذلك على عدل الله؟! وكيف ينطبق
على المعقول؟!

وأيضاً، فإنّ العهد القديم يقول في الفصل الرابع والثلاثين من سفر الخروج^٣ والرابع
عشر من سفر العدد^٤ والفصل الأوّل من كتاب ناحوم^٥: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الْإِثْمَ وَالْخَطِيئَةَ
وَلَكِنْ لَا يَبْرِيءُ إِبْرَاءً».

أليعازر: التفتتُ أنا إلى حالة سيّدنا القسّ عند كلام ولدي عمانوئيل، فرأيتَه مطرقاً
متحيراً قد استولى عليه الحزن والتأمّل، وهو يخطّ الأرض بإصبعه ويقول: ماذا أقول؟!
فرحمتُ حالته وأحبيتُ أن أُلطفه ببعض الظرائف المؤنسة، وأريح فكره من هذه
الأُمور العظيمة، فقلتُ: هل يأذن لي سيّدي القسّ بأن نعرض عن هذا الكلام ونتكلّم بما
نرُوح به نفوسنا؟

القسّ: تكلم يا أليعازر.

١. العدد ١٩.

٢. العدد ١-٣.

٣. العدد ٧.

٤. العدد ١٨.

٥. العدد ٣.

حفلة وظيفيّة

أليعازر: يا سيّدي، حضرت حفلةً للمسلمين في ليالي شهر رمضان - الشهر الذي يصومون فيه - فجاء رجلٌ مُحترم وجلس وصار يعلمُ القوم بالحلال والحرام وشرائع التجارة، ثمّ أخذ يبيّن الأخلاق الفاضلة ويبينُ أمر الشريعة بالتزيّن بها، ويبينُ الأخلاق الرذيلة، ويبينُ زجر الشريعة عن التدنّس بها، ثمّ أخذ يؤكّد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثمّ أخذ يتحدّث في فضل الصوم وفوائده وشروط قبوله من مكارم الأخلاق. ثمّ صار الكلام مجلسياً وجعلوا يتذكرون أحوال العصاة الذين لا يصومون وكيف ينخدعون لغواية الشيطان، فقال رجل: يُحكى أنّ رجلاً مسافراً دخل في شهر رمضان بلدةً من أطراف بلاد المسلمين، قد موه الغواة على أهلها فعطلوا فيها - بالتدليس - رسوم الشريعة الإسلاميّة، فرأى أهلها كلّهم غير صائمين، بل يأكلون علناً من غير مبالاة، فقال لهم: هل أنتم مسلمون؟

قالوا: نعم.

قال: هل هذا شهر رمضان؟

قالوا: نعم.

قال: فما لكم جميعاً لا تصومون؟

فقالوا: إنّنا مُسلمون مُطيعون لأوامر الله في الشريعة، ولكن شيخنا ومرشدنا هو يصوم بدلاً عنّا جميعاً، وفي ما علينا من التكليف والدين.

قال الرجل: فأحببتُ أن أنظر إلى هذا الأمر الغريب المُضحك، فقلتُ: دلّوني على هذا المُرشد الكبير: فدلّوني على محلّه، فقصدته ودخلت عليه وقت الضُحى، فوجدتُ حضرة المُرشد جالساً يتعدّى، والناس يهدون له أنواع الطعام النفيس، وهو يأكل أكلاً كثيراً، فسلمتُ عليه وقلتُ له: هل أنت مُرشد هذه البلدة؟

قال: نعم.

فقلتُ: هل أنت صائم بدلاً عنهم جميعاً؟

قال: نعم.

فقلتُ له: إذا فكيف تأكل في نهار شهر رمضان؟

فقال: عجباً عجباً منك، ألا تشعر بأنّ الذي يكون فادياً يصوم بدلاً عن عشرة آلاف

نفس كيف يكفيه في النهار ألف فكيف تستكثر عليّ أكلة أو أكلتين في النهار؟

يا سيدي، وبعد أن ضحكتُ مع القوم فكّرتُ في نفسي وقلتُ: ماذا أقول لهؤلاء

المسلمين إذا قالوا: يا ألبعازر هذا الفداء مثل فداكم يا سيدي، ولم أجد في نفسي جواباً

أردّهم به.

عمانونيل: يا والدي، وماذا تقول أنتَ لهم؟ هب أنّهم أغمضوا عن سخافة القول

بالفداء وما عرفته من وجوه السخافة فيما يقوله الروحانيون في أمر الفداء، ولكن ماذا

تقول لهم إذا قالوا لك:

إنّ كتبكم التي تقدّسونها تُبين أنّه لم يكن لهذا الفداء عين ولا أثر، لا في زمان

المسيح ولا إلى ما يزيد على عشرين سنة من حادثة الصليب، بل كان كلّ المؤمنين

بالمسيح عاملين بالناموس ملتزمين بشريعة التوراة، ثمّ بعد ذلك جاءت بدعة الفداء

وترك شريعة التوراة في تاريخ مجهول تنسبه كتبكم إلى تلاميذ المسيح وبولس بزمان

متأخّر عن زمان المسيح بنحو عشرين سنة فما فوق؟

العهد الجديد يعيب العهد القديم

بل إنّ أكثر الذي جاء في كُتب العهد الجديد في إبطال الشريعة لم يُذكر فيه أنّه لأجل

الفداء من لعنة الناموس، بل كان كلّه بنحو العيب للشريعة والاستهزاء.

ففي الفصل الخامس عشر من أعمال الرُّسل: أنّ بطرس جاعاً كثيراً فوقعَ عليه

غيبية كشفت له عن جميع الحيوانات التي حرّمها التوراة ونجّستها. ولم تكن الإباحة

بعنوان النسخ لحكم التوراة، بل بعنوان أنّ تلك الحيوانات طاهرة عند الله، وأنّ تدنيسها

بشري فاسد يعارض تطهير الله لها.

وفي الفصل الخامس عشر من أعمال الرُّسل صراحة واضحة بأنّ إبطال الختان

وشريعة موسى كان لمحض استجلاب الأمم، إلى الخضوع إلى الرئاسة، حيث إنّ العمل بالختان والشريعة ثقيل على الأمم، فقرّروا أن يرسل إلى الأمم أنّه ليس عليهم إلّا أن يمتنعوا عمّا يذبح للأصنام والزنى والمخنوق والدم. وعلّلوا ذلك بأنّ موسى منذ أجيال قديمة له في كلّ مدينة من يكرز به، إذ يقرأ في المجامع في كلّ سبت.

يا والدي، وحاصل هذا الكلام أنّ موسى البطل يكفيه نفوذ سياسته ورئاسته في هذه المدّة.

وجاءت الرسائل المنسوبة إلى بولس فجاهرت بما تريد.

ففي الفصل الرابع عشر من رومية: «إني عالمٌ ومتيقّنٌ أن ليس شيء نجساً لذاته إلّا من يحسب شيئاً نجساً فله هو نجس»^١.

وفي الفصل الأوّل من تيطس:

لا يصغون إلى خرافات يهوديّة ووصايا أناس مرتدّين عن الحقّ. كلّ شيء طاهر للطاهرين^٢.

وفي الفصل الثاني من كولوسي:

تُفرض عليكم فرائض. لا تمسّ لا تذقّ لا تجسّ التي هي جميعها للفناء حسب وصايا وتعليم الناس^٣.

وفيه أيضاً: «لا يحكم عليكم أحدٌ في أكلٍ ولا شربٍ أو من جهة عيدٍ أو هلالٍ أو سبتٍ»^٤.

وفي الفصل الرابع من غلاطيّة في صرف أنظار الغلاطيين عن الناموس:

كيف ترجعون أيضاً إلى الأركان الضعيفة الفقيرة؟ أتحتفظون أياماً وشهوراً وأوقاتاً وسنين. أخاف عليكم أن أكون تعبثُ فيكم عبثاً^٥.

١. العدد ١٤.

٢. العدد ١٤ و ١٥.

٣. العدد ٢٠-٢٢.

٤. العدد ١٦.

٥. العدد ٩-١١.

وفي الفصل السابع من رسالة العبرانيين: «فإنَّهُ يَصِيرُ إِبْطَالُ الوصِيَّةِ السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها. إذ الناموس لم يكْمَل شيئاً»^١.
وفي الثامن: «لو كان الأوَّل بلا عَيْبٍ، لَمَا طُلِبَ موضعُ لثانٍ»^٢.

تمجيد العهد القديم للشريعة

يا والدي، وماذا نقول إذا قال المسلمون: إنَّ من أساس الديانة النصرانية هو الاعتقاد بأنَّ التوراة الراجعة لكلام الله ووحيه لموسى، والمزامير وحي الله لداود، وباقي كتب العهد القديم كتب وحي الله لأنبياء كرام؟

وقد جاء في الفصل الثامن عشر من سفر اللاويين عن كلام الله قوله: «تحتفظون فرائضي وأحكامي التي إذا فعلها الإنسان يحيا بها»^٣.

وفي المزمور التاسع عشر: «ناموس الربِّ كاملٌ»^٤.

وفي المزمور التاسع عشر بعد المائة: «قريبٌ أنت يا ربَّ وكلُّ وصاياك حقٌّ وفي كلِّ شيءٍ مستقيمة»^٥.

وفي العشرين من حزقيال عن قول الله تعالى: «وأعطيتهم فرائضي وعرفتهم أحكامي التي إذا عملها الإنسانُ يحيا بها»^٦. وقد تكرر هذا المعنى في هذا الفصل المذكور، فانظر فيه من العدد الحادي عشر إلى الثاني والعشرين.

وفي الفصل الثاني من كتاب مَلاخي عن قول الله تعالى: إنَّ وصيَّته وعهده مع موسى للسلام والحياة والتقوى وشريعة الحقِّ كانت في فيه^٧.

١. العدد ١٨ و ١٩.

٢. العدد ٧.

٣. العدد ٥.

٤. العدد ٧.

٥. العدد ١٥١.

٦. العدد ١١.

٧. العدد ١-٦.

وفي الفصل الخامس من إنجيل متى عن قول المسيح:

لَا تَنْظُرُوا أَنِّي جِئْتُ لِأَنْقِضَ النَّامُوسَ مَا جِئْتُ لِأَنْقِضَ بَلْ لِأُكْمَلَ... فَمَنْ
نَقَضَ إِحْدَى هَذِهِ الْوَصَايَا الصَّغِيرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هَكَذَا يُدْعَى أَصْفَرَ فِي
مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ.^١

وفي الثالث والعشرين من إنجيل متى: أَنَّ الْمَسِيحَ أَمَرَ الْجَمِيعَ بِأَنْ يَحْفَظُوا وَيَعْمَلُوا
بِمَا يَقُولُهُ الْكُتُبَةُ وَالْفَرِيْسِيُّونَ لِأَنَّهُمْ جَلَسُوا عَلَى كُرْسِيِّ مُوسَى.^٢

يا والدي، فماذا نضع في هذا التناقض والمثابرة بين فريق العهد القديم والإنجيل
وبين فريق رسائلنا المنسوبة إلى الرُّسُل؟ وماذا نضع في ملاشاة العهد الجديد للشرية
الموسوية بمجرد التوهين والاستهزاء وقوله: «المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار
لعنةً لأجلنا»؟ فهل نُؤيِّد هذا بقولنا: إِنَّ الْمَسِيحَ هُوَ الْكَلِمَةُ الْأَزَلِيَّةُ، وَهِيَ اللَّهُ، وَالْمَسِيحُ
هُوَ اللَّهُ وَأَقْنُومُ اللَّهُ وَالْإِلَهَ الْمُتَجَسِّدُ، وَهُوَ اللَّهُ وَاحِدٌ؟

يا والدي، وجاء بعد ذلك في رسالة عبدالمسيح وترجمة المقالات التمهيدية
لجرجيس سايل قولهما: إِنَّ اللَّهَ تَسَاهَلَ مَعَ الْيَهُودِ فَأَعْطَاهُمْ أَحْكَاماً غَيْرَ صَالِحَةٍ
وَفَرَاغٍ لَا يَحْيُونَ بِهَا.

يا والدي، أفلا ترى هذا الكلام رداً على التوراة وكتاب حزقيال والمزامير وكتاب
ملاخي، وتكذيباً لها في تمجيدها لفرائض التوراة وأحكامها، وأنها للسلام والحياة،
وأنَّ العامل بها يحيا؟

يا والدي، وجاء لو طر - مصلح البروتستنت - وقال: إِنَّ مَعْلَمِي الْخَطِيئَةَ يَضَاقُونَنَا
بِمُوسَى، فَلَا تُرِيدُ أَنْ نَسْمَعَ مُوسَى وَلَا نَرَاهُ؛ لِأَنَّهُ أُعْطِيَ لِلْيَهُودِ وَلَمْ يُعْطَ لَنَا نَحْنُ الْأُمَّمُ
وَالْمَسِيحِيُّونَ، فَعِنْدَنَا إِنْجِيلُنَا، فَهَمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُهَدِّدُونَا بِمُوسَى وَهِيَهَات. وقد نقل هذا
الكلام في الجزء الثالث من كتاب الهداية في صحيفة ١٠٩.

توبيخ على سوء البحث

القس: يا عمانوئيل، لا زلتَ في هذه المدّة تبحث بشرف التحقيق والاستقامة، فما بالك الآن زَعْتَ زيغ الخاطِئين؟!!

يا عمانوئيل، إنَّ مَنْ يُريد أن يتكلّم في الديانة الخاصّة ويبحث فيها بحثاً شريفاً، فإنَّ الواجب عليه أن يقتصر في بحثه على ما هو مُسلّم ومتفق عليه عند جميع أهل تلك الديانة.

ألا إنّه يقبح من له شرف وأمانة أن يعترض على الديانة بقول واحدٍ أو حكاية ينفرد بها واحد من سائر من ينتسب إلى تلك الديانة، فلماذا تعترض بقول عبد المسيح، سايل، لوطر؟

يا عمانوئيل، اعترض على كلِّ واحدٍ من هؤلاء بكلامه عند بحثك معه فيما يخصّه، ولا تحمل أقوالهم وحكاياتهم على عاتق الديانة.

هل تُريد أن تكون مثل غريب بن عجيب كاتب الرحلة الحجازية؟ فإنّه لما أراد أن يعترض على دين الإسلام لم يجد سبيلاً إلا أن يعترض على بعض روايات الرجال التي لا عناية للجامعة الإسلامية بها فيقول: قال الأزرقى، ابن جريح، مجاهد، نافع، ابن إسحاق، ابن الورد، ثمَّ يخطب خطب التائه في اعتراضاته.

حتى أن بعض كتابنا إذا رأى قولاً مرفوضاً أو رواية شاذة لبعض من تقمّ على تفسير القرآن، ووجد في ذلك القول أو تلك الرواية شبهة اعتراض على الإسلام، فإنّه يقول في ترويح زبرجِه^١: قال الإمام السيوطي في الإنثقان - وهو أكبر المفسرين -: قال فلان وهو من أئمة الحديث، روى فلان وهو من رجال البخاري.

يا بُنيَّ يا عمانوئيل، فإذا أردتَ أن تكون شريفَ البحثِ شريفَ الكلام فلا تُجادل في الأديان إلا بما هو مُسلّم في جامعتها، وإياك أن تعترض على جامعة النصرانية بقول لوطر، عبدالمسيح، سايل. هذا من الوهن والشطط.

١. الزبرج: الرينة من وشي أو جوهري أو نحو ذلك. الصحاح ١: ٣٦٨، «ز ب رج».

عمانوئيل: العفو يا سيدي، فأني لم أعترض على الديانة النصرانية بقول لو طر وسایل وعبدالمسيح، ولكنني ذكرتُ لحضرتك توهين عهدنا الجديد لشريعة موسى، كما ذكرته لحضرتك من كتاب أعمال الرُّسل والرسائل المنسوبة إلى بولس، وأنَّ بعض الروحانيين جاهرُوا بذلك، فوقعنا في التناقض في الديانة.

والآن أسألك يا سيدي: هل أقول: إنَّ شريعة موسى هي شريعة الله وفرائضه الصالحة، وهي حقٌّ وكاملة ومستقيمة للسلام والحياة، وإذا عمل بها الإنسان يحيا، ومن لم يعمل بالصغرى منها يكون الأصغر في ملكوت السماوات؟

القس: نعم يا عمانوئيل، هذا هو الصواب، كما ذكرت صراحته من التوراة والإنجيل والمزامير وكتاب حزقيال وكتاب ناحوم.

عمانوئيل: يا سيدي، إذاً لماذا أصنع؟ وماذا أقول فيما جاء في كتاب أعمال الرُّسل ورسائل بولس من إبطال أحكام التوراة وعبثها وتضعيفها، وأنها خرافات يهودية وللغناء؟ القس: يا عمانوئيل، لا تُصغِ إلى هذا الكلام.

عمانوئيل: يا سيدي، كيف لا أصغي لكتاب أعمال الرُّسل ورسائل بولس، مع أنَّ الديانة النصرانية وجامعتها تُسلم وتعترف بأنَّ هذه الكتب كُتِبَ وحي إلهي لا ينبغي الريب فيها، وقد ترك جميع النصارى العمل بشريعة التوراة على رغم أمر المسيح بالإنجيل، وأخذوا بتعليم بولس في إبطالها، ولسان الحال والمقال من كلِّ منهم يقول: «المسيح اقتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنةً لأجلنا»؟!

القس: يا عمانوئيل، قد كُنْتُ تقرأ في التوراة، فلماذا طفرتَ إلى العهد الجديد؟

عمانوئيل: يا سيدي، إنَّك تقول لي: إنَّ الكتاب يقول عن الوحي الإلهي:

المسيح اقتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنةً لأجلنا؛ لأنَّه مكتوب: ملعون ملعون من علَّق على خشبة.

يا سيدي، ومع ذلك تلومني على الاستفسار عن هذا الكلام وما يتعلَّق به.

القس: يا عمانوئيل، أنتَ والدك المحترم قد كشفتما عن هذا الكلام ستار الخداع،

أفلا يكفيكما ذلك؟

عمانوئيل: يا سيّدي، ولماذا لا تقول أنتَ ما عندك وتُريح نفوسنا بفوائدهك؟
القَس: يا عمانوئيل، لا يطيب أكل النمرة حتّى تنضج بأوانها، فعُدْ يا عمانوئيل إلى
درسك في التوراة.

خلوّ التوراة من ذكر يوم القيامة

عمانوئيل: يا سيّدي، إنّ التوراة قد سبرناها بالاستقصاء، وهي كتاب كبير الحجم كثير
الكلام، وقد تكلمت في أمور كثيرة كلام طويل، وقد تعرّضت لأُمور لا حاجة إليها في
إصلاح البشر، بل إنّها تعرّضت لأُمور لا يليق بالكتاب الإلهي أن يذكرها فذكرتها
بالشرح الطويل المُزعج.

ومن ذلك حكايتها الطويلة في أنّ لوطاً زنى بابنتيه^١، وأنّ يعقوب خادع إسحاق في
أخذ البركة وكذّب عليه مراراً^٢، وأنّ زأوبين زنى بامرأة أبيه يعقوب^٣، وأنّ الفلسطيني
فعل كذا مع دينة بنت يعقوب^٤، وأنّ يهوذا بن يعقوب زنى بكنته تامار^٥، وغير ذلك من
الأُمور الفارغة.

يا سيّدي، فمالها لم تذكر يوم القيامة وثوابه وعقابه ولا بكلمة واحدة؟! فلم تُرغب
المُطيعين بثوابه، ولم تُهدّد المتمرّدين بعقابه. مع أنّها سلكت مع بني إسرائيل مسلك
الترغيب والتخويف، ولكنّها رغبتهم للطاعة بكثرة الحنطة والخمر والزيت وبركة السلّة
والمعجنة، وخوفتهم بالمرض وقلة الحنطة والخمر وأنّ الرجل يتزوّج امرأة ويزني
الآخر بها.

يا سيّدي، فلماذا أعرضت عن ذكر القيامة وثوابها وعقابها؟
يا سيّدي، إنّ أمر القيامة حقيقة دينيّة عرفانيّة، والاتّفات إليها يتكفّل بصلاح البشر

١. سفر التكوين ١٩: ١-٨.

٢. سفر التكوين ٢٧: ١-٣٨.

٣. سفر التكوين ٣٥: ٢٢ و ٤٩: ٤.

٤. سفر التكوين ٣٤: ١-٣١.

٥. سفر التكوين ٣٥: ٦-٣٠.

وتهذيب أخلاقهم وانتظام اجتماعهم، فكيف يليق بالكتاب الإلهي المنزل للإصلاح وكشف الحقائق أن يهمل هذا الأمر الكبير المهمّ ويجعله نسياً منسياً؟

يا سيدي، هل يصحّ أن يكون مثل هذا في الكتاب الإلهي؟

القسّ: يا عمانوئيل، هل تظنّ أنّ الله وموسى نبيّه يهملان ذكر يوم القيامة في مثل التوراة التي هي كلام الله ووحيه؟ وكيف يتمخّض الوحي الإلهي وكلام الله للسفاسف التي ذكرتها، ولمخالفات المعقول التي مرّت في مكالماتنا في شؤون آدم وإبراهيم ويعقوب وهارون وغير ذلك؟

عمانوئيل: يا سيدي، وإنّ قد استك قد ذكرت في صحيفة ٣٦ أنّ العهد الجديد يُبيّن أنّ التوراة قد غفلت عن ذكر أمورٍ كثيرةٍ من الأمور النبويّة المهمّة.

القسّ: يا عمانوئيل، وقد انتقدت في تلك المكالمة على غفلة التوراة الموجودة عن ذكر القيامة، فلماذا تنسى وتغفل أنت أيضاً؟

أليعازر: عجباً يا سيدي، أولست تؤمن بأنّ التوراة كلام الله؟!

القسّ: أنا أوّمن بأنّ التوراة كلام الله، ولكن لا يلزم أن أوّمن أنّ هذا المكتوب الذي بأيدي الناس هو التوراة التي كتبها موسى من كلام الله.

أليعازر: إنّ اليهود والنصارى في جميع أجيالهم يقولون: إنّ هذه التوراة هي بعينها توراة موسى وكلام الله، قد حفظها تاريخ الإيمان بها بعناية التواتر اليقيني. فكيف تكذب هؤلاء وفيهم ملايين عديدة من العلماء والروحانيين الأبرار، كيف تُكذّبهم؟

هل يمكن أن لا تكون التوراة محرّفة؟

القسّ: يا أليعازر، أشتهي أن الأطفك بأمثال معروفة:

يقال: إنّ الغزال إذا رأى شيئاً يخيفه ولم يشمّ رائحته من بعيد، لم يُصدّق بصره ولا يهرب منه عندما يراه، بل ينتظر أن يشمّ رائحته، ولأجل ذلك يظفر به الصيادون. ومن هذا يضرب المثل بأنّ فلاناً مثل الغزال يكذب عينه ويُصدّق أنفه.

ومعناه: أنّه يُكذب علمه ووجدانه ويُصدّق جهله.

وأيضاً يُحكى أنّ رجلاً لقي رجلاً من أصحابه، فأظهر له الحزن والأسف وقال له: قد أخبرني جماعة صادقون بأنك مُتٌ ويا للأسف، وأسأل الله أن يحفظ أيتامك ويبارك فيهم، ويرحمك الله ويؤنس وحشتك في قبرك.

فقال له: ها إنك تراني والحمد لله حياً أخطبك وأمشي على وجه الأرض. فقال منتحباً: لا لا، ويا للأسف والحزن إن الذين أخبروني بأنك مُتٌ هم أصدق منك، فواحزنه على موتك يا أخي.

عمانويل: يا سيدي الوالد، إنني أجد سيدي القس من أوّل درسنا في التوراة إلى الآن لا يحب أن يجاهرنا ببيان الحقيقة، بل يُريد أن نسير إليها بأنفسنا، ونراها بعين الوجدان، وتتناولها بيدِ الدرس الصحيح والعلم اليقين.

يا والدي، فلا تطلب من سيدنا القس أن يعاجلنا بالبيان فتجعله عصبيتنا كالخصم المدعي، فتقابلة أهواؤنا وتقليدنا الأعمى بالجحود والتنفّر من قداسته، ويكون نصيبنا الحرمان من بركات الحقّ ونجاة الإيمان الصحيح.

يا سيدي الوالد، هل تأذن لي أن أكون أنا المتكلّم في هذا الموضوع بمقدار ما حصلته من درسي مع حضرة سيدي القس بمحضرك وسماعك وتصديق وجدانك؟ يا سيدي، والآن إن أذنت لي فأني أكالمك، ويكون وجدانك وسيدنا القس رقيبين عليّ. أليعازر: تكلم يا ولدي بما عندك.

الشواهد الداخليّة من التوراة على تحريفها

عمانويل: يا سيدي الوالد، ها هي نُسخ التوراة الراجعة بين أيدينا بالأصل العبراني الخطّي المجرّد عن الحواشي، والمقدّس عند اليهود بمراقبة أحبارهم.

وبالأصل العبراني الخطّي المزين بالحواشي، والمتداول عند اليهود وأحبارهم أيضاً. والأصل العبراني المزين بالحواشي، المطبوع بمراقبة أحبارهم بمطابع متعدّدة. والتراجم الكثيرة باللغات المتعدّدة، المطبوعة بمطابع الشرق والغرب بكثرة لا تخفى. وها هي بأجمعها قد اتّفقت على الأمور التي جرت فيها مكالمتنا من أوّل التوراة

إلى حيث بلغنا، وهي أمور لا يرضاها العقل، بل يجب أن نبرئ كتاب الله عنها.
 وها أنا ذا أعيد عليك الإشارة إليها في هذا المطبوع بحسب الصحائف، فراجعها
 مكرراً واستأنف التعجب، وانظر إلى كلماتك الذهبية هناك.
 وانظر صحيفة ٢١ كيف اجترأت التوراة الموجودة على جلال الله في شأن آدم والشجرة.
 و ٢٦ في خرافة التمشي والاختباء.
 و ٢٧ في خرافة المحاذرة من آدم.
 و ٣٥ في خرافة برج بابل.
 و ٦٧ في خرافة مصارعة يعقوب.
 و ٧٢ - ٧٤ في خرافة التعليم بالكذب وخلف الوعد، ومخادعة صَفْوَرَة، وأن موسى
 يكون إلهاً.

و ٧٧ في خرافة التجسيم.
 و ٨٤ في خرافة الشريعة القاسية بذبح النساء والأطفال.
 و ٩٤ في خرافة شريعة العذرة «البكارة».
 و ٩٧ في شريعة التفلّة، وكيف اجترأت على جلال الله بتوهين أنبيائه وما نسبته
 إليهم، كما ذكرناه صحيفة ٥٥ - ٥٦ في شك إبراهيم والعلامة.
 و ٦٥ في بركة يعقوب وما جرى فيها.
 و ٧٢ في كلام موسى ﷺ مع الله.
 و ٨٠ - ٨١ في القدح بإيمان موسى وهارون.
 و ٤٢ في نسبة عمل العجل والدعوة للشرك بالله إلى هارون.
 وانظر ما ذكرناه صحيفة ٢٠ في خلل التوراة الموجودة في ذكر عدن ودجلة والفرات.
 و ٣٢ في خللها في قصّة ولدي آدم، واضطراب تراجمها في تمويه ذلك الخلل.
 و ٣٩ في خللها في النسب.
 و ٥٥ - ٥٦ في العلامة لإبراهيم.
 و ٦٣ في اضطرابها في ابن إبراهيم الوحيد وإسحاق، وفي الذين باعوا يوسف في مصر.

و ٨٥ في اضطرابها في منازل بني إسرائيل.
و ٥٧ - ٥٩ في خطبها واضطرابها في شأن الله - جلّ وعلا - والملائكة، والذين
جاؤوا إلى إبراهيم وإلى لوط، وماذا قالت فيهم وفي عددهم، وخطاب إبراهيم ولوط لهم
وكلامهم وأكلهم.

و ٧١ في خطبها في الذي كلم موسى وخاف موسى أن ينظر إليه.
و ما ذكرناه في صحيفة ٧٦ من الغلط الكبير الذي اتفقت الحواشي والتراجم على
بيان خطبه بتصحيحه.

ودع ما أشرنا إلى بعضه من إهمالها لأهمّ الأمور بالذِكر، وإكثارها الكلام بالفضول
الفارغة والقصص الزنائية الهاطقة لشرف الأنبياء وعائلاتهم كما في صحيفة ٩٤ - ٩٨
وأغضنا عن جملة منها ذكرها سفر التكوين في تأريخ يعقوب.

يا سيدي، هذا الكتاب المُشتمل على مثل هذه الأمور، هل يمكن أن يقال فيه: إنّه
هو الكتاب الذي أوحاه الله إلى موسى وكتبه موسى بيده؟
يا والدي، إنّ العقل والشعور، وجلال الله وقُدسه، وكرامة الرسول وقدس الرسالة
وشرف النبوة كلّها تنادي: حاشا لله ولجلاله أن يكون ذلك، وحاشا للحقائق الإلهية من
هذه الأمور الفاضحة.

يا سيدي، ها هي الحواشي على التوراة العبرانية قد ذكرت غلطها بنقصان
الحرف في أحد عشر موضعاً، وأشارت إلى ذلك برسم الحرف الناقص ولفظ «حسر».
وذكرت غلطها بزيادة الحرف في أربعة مواضع، وأشارت إلى ذلك برسم الحرف
الزائد ولفظ «يتير». وذكرت غلطها من حيث التذكير والتأنيث، والإفراد والجمع،
وإبدال بعض الحروف غلطاً، وسقوط بعض الحروف، وتقديم بعضها على بعض
غلطاً، ونصّت على ذلك في نحو ثمانين موضعاً، وذكرت الصحيح ولفظ «ق»
أو «قرى».

ولأجل وضوح هذه الأغلاط جرت التراجم على طبق الحواشي إلّا نادراً.
يا والدي، أفلا تكون هذه الأغلاط واعتراف اليهود والنصارى بها في أجيالهم شهادة

قاطعة بأنّ هذه التوراة المغلطة ليست مطابقة للتوراة التي كتبها موسى؟ فأين تكون دعوى التواتر الفاسدة يا سيّدي؟

هل يساعد التأريخ على إمكان تحريف التوراة؟

أليعازر: يا ولدي يا عمانوئيل، إنك تتكلّم بفهم وتحقيق، ولكن هل لك أن تكشف لي من جهة التأريخ عن فساد دعوى اليهود والنصارى لتواتر هذه التوراة التي بأيدينا، وكونها منقولة بالتواتر حرفياً عن التوراة التي كتبها موسى؟

عمانوئيل: يا والدي، إنّ التوراة والكتب المنسوبة إلى الإلهام لم تظهر لعموم الناس إلاّ بعد الإصلاح البروتستنتي وكثرة المطابع، وأما قبل الإصلاح البروتستنتي فقد كانت رؤيتها مختصّة بالروحانيّين من اليهود والنصارى، وأما قبل المسيح فقد كانت محجوبةً بسيطرة الكتّبة والرّبّانيّين.

يا والدي، والمعلوم من التأريخ العمومي أنّ نبوخذراصر «بخت نصر» قد سبى جميع الكتّبة والرّبّانيّين وعموم بني إسرائيل ما عدا الصعاليك، وأحرق بيت الله وخزّبه، ونهب أوّرشليم وأحرق بيوت أعيانها، فلاشئ بذلك صورة الأُمّة الإسرائيليّة ومقدّساتها. ومكثوا على ذلك نحو سبعين سنة حتّى أطلقهم كورش ملك فارس، وبعد إطلاقهم من السبي تجرّد عزّرا الكاتب وحده لإظهار التوراة لبني إسرائيل.

يا والدي، فالتأريخ يقول: إنّ توراتنا العزيزة هي بنت عزّرا ومولودة أمانته. يا والدي فأين التواتر مع هذا الحال؟

وأيضاً يا والدي، إنّ اليهود والنصارى متفقون في أجيالهم على أنّ كُتّب العهد القديم متواترة كتواتر التوراة.

يا والدي، وفلسفة التأريخ تقتضي أن تكون كُتّب العهد القديم أقرب إلى صحّة النقل من التوراة، لكون زمانها أقرب من زمان التوراة، مع أنّها لا تضطهد الأهواء الإشراكية والعوائد الوثنيّة كما تضطهدها التوراة الحقيقيّة، فلا تكون هذه الكُتّب هدفاً لسهام الأهواء كما صارت التوراة الحقيقيّة.

وأيضاً إنَّ تواريخ العهد القديم مرصودة بالتواريخ العموميّة، فلا يمكن أن تقبل عند العموم وهي كاذبة.

أليعازر: إذا يا بُنيّ يقرّ لعيني أن تذكر لي من كُتبتا المقدّسة تاريخاً متسلسلاً لديانة بني إسرائيل.

عمانوثيل: يا سيّدي الوالد، هذا التاريخ المتسلسل قد أخرجه كتاب الهدى في الجزء الأوّل في المقدّمة الخامسة صحيفة ٣٧ - ٥٣، وأشار إلى موارد ذكره من العهد القديم، فأنا أذكره لك مختصراً، وراجع أنت كتاب الهدى.

أليعازر: يا بُنيّ دعنا من النظر إلى كتاب الهدى.

القسّ: يا أليعازر، إنَّ كاتب الهدى قد أخرج هذا التاريخ المتسلسل من كُتب العهد القديم بكلّ أمانة وكلّ ثقة، وقد أشار في كلّ تاريخ إلى مصدره من كُتب العهدين، فراجع أنت وطابقه مع المصادر التي أشار إليها، فإن وجدت منه خيانة فاذكرها لكي نعلن بها للعموم؛ فإنّه أخرجنا في كتابه بيان ما صدر من كُتابنا الروحانيّين من الخلل في النقل عن الكتب المقدّسة، ومن جعلتهم: جمعيّة كتاب الهداية، والمُرسلين الأمريكيان، وجرجيس سايل، وعبد المسيح وهاشم العربي، والغريب بن العجيب، كما ذكرنا صحيفة ٢٠ و ٣٤ و ٥٣.

يا أليعازر، أنت تتكلّم في طلب الحقّ وتحثني على تعجيل ما عندي من بيان الحقيقة، وأنت لم تُظهِر قلبك من دنس العصبية، ها أنت قد نفرت من عمانوثيل حين ذكر لك كتاب باحث من المسلمين، شريف الكتابة شريف البحث شريف المكالمة، قد تخرّج في أدب بحثه وشرف مكالّمته وأمانته على أكابر المصلحين: نبيّه، وقرآنه، وشريعته. يا أليعازر، فكيف بك إذا سمعت منّا في بيان الحقيقة أموراً كبيرة.

أليعازر: العفو يا سيّدي، لا تنزعج من جهلي، فإنّي أقول: إنَّ كاتب الهدى رجل مسلم، من أين تكون له الخبرة بالعهدين؟

القسّ: لو تصفّحت كتاب الهدى ورسالة التوحيد والتثليث، لرأيت هذا الكاتب كأنّه قضى عمراً طويلاً في دراسة العهدين بكلّ إمعان وتحقيق.

أليعازر: شكراً لك يا سيّدي على تأديبك لي وإرشادك إلى الصواب، فالعفو يا سيّدي، وأمر عمانوئيل أن يذكر لي التاريخ.
القس: يا عمانوئيل، أذكر التاريخ لوالدك، فإنّه حرّ الضمير، ولكنّ فيه شيئاً من العجلة ووباء الألفة والتقليد.

تأريخ بني إسرائيل من كُتُب العهد القديم وغيرها
عمانوئيل: يا والدي، إنّ بني إسرائيل خرجوا من مصر إلى برّيّة سيناء، وآيات الله ودلائل رسالة موسى تتابع عليهم ليلاً ونهاراً، وقد تكرّر عليهم الأمر بالتوحيد والنهي عن عبادة الأوثان والشرك. ومع ذلك صنعوا العجل الذهبي وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من مصر. وسجدوا للعجل وذبحوا.
ولمّا أقاموا مع موسى في شِطِّيم وزنوا ببناات مُوآب، دعونهم إلى ذبائح آلهتهم، فسجدوا لآلهتهم وتعلّقوا ببُغْل فُغور.
ولم تمضِ مدّة كثيرة من موت يُوشع، حتّى تركوا الله وساروا وراء آلهة أخرى، وعبدوا البُغْلَ وَعَشْتَارُوت، ولم يزالوا يعاودون عمل الشرّ.
وبعد موت جذعون رجعوا إلى شركهم وراء البعلّيم وجعلوا لهم بعلّ برّيث إلهاً.
وبعد موت يائير عبدوا البعلّيم والعشْتَارُوت وآلهة آرام وإله صيدون وآلهة مُوآب وآلهة عمّون وآلهة الفلسطينيين، وتركوا الله ولم يعبدوه. وقالت الزامير عنهم: إنهم اختلطوا بالمُشركين وعبدوا أصنامهم، وذبحوا بنهم وبناتهم للأوثان.
ولمّا مات سليمان تبع رُحُبَعَامُ ابنه سبطا يهوذا وبنّيامين، وانعزل عنه باقي الأسباط، فملكوا عليهم يُزبعام، فعملَ عجلَ ذهبٍ؛ لكي تعبدهما رعيّته، وهم عشرة أسباط من بني إسرائيل، وقال: هذه آلهتك يا إسرائيل.

واستمرّ هؤلاء الأسباط على عبادة عجول الذهب، حتّى إذا ملكَ أخآب، شاعت في أيامه عبادة البُغْل. واستمرّوا على خطيئتهم إلى أن ملكَ عليهم هُوشع بن أئيلة، وفي أيامه سباهم ملك آشور وأسكنَ في ديارهم غيرهم. وقد كانوا سلكوا حسب فرائض

المشركين، وعبدوا الأصنام، ورفضوا فرائض الله، وصاروا باطلاً وعبدوا البغل.
وأما سببطا يهوذا وبنيامين، فإنه لما تثبتت مملكة رحبعام بن سليمان، ترك توراة الله هو وكل إسرائيل معه. وعمل يهوذا الشر أكثر من جميع ما عمل آباؤهم، وبنوا لأنفسهم آثار الشرك على كل تل مرتفع وتحت كل شجرة خضراء، حتى صار منهم مأيونون يندرون أنفسهم للأوثان؛ لكي يلاط بهم.

وفي السنة الخامسة لملك رحبعام نهب شوشق - ملك مصر - خزائن بيت الله وخزائن بيت الملك، وأخذ كل شيء.

ثم ملك أيبا بن رحبعام، وسار في جميع خطايا أبيه.

ولما ملك آسا بن أيبا أزال آثار الشرك، ولكن المرتفعات للأصنام لم تنزل. ولإسرائيل أيام كثيرة بلا إله حق، وبلا كاهن معلم، وبلا توراة.

ثم ملك يهوشافاط بن آسا، وعمل المستقيم، ولكن مرتفعات الأصنام لم تنزل.

ثم ملك بعده يهورام ابنه، وبعد ابنه أخزيا، وعملا الشرك على نهج بيت أخاب.

وبعد أخزيا ملكت أمه المشركة عثليا بنت عمري، وهدم بنوها بيت الله، وجعلوا كل أقداس بيت الله للبعليم، إلى أن قتلوا عثليا، ونهض يواش الملك ويهوذا الكاهن، مجدّد بناء بيت الله، وأقاموه على رسمه ومقداره.

ولما مات يهوذا الكاهن، جاء رؤساء يهوذا وسجدوا للملك يواش، فسمع لهم، وتركوا بيت الله إلههم وعبدوا السواري والأصنام، ورجموا زكريا بن يهوذا داغ؛ لأجل دعوته إلى الإيمان ونهيه عن الشرك، ورجموه بأمر الملك وقتلوه في دار بيت الله وتركوا الله إلههم.

ثم ملك أمضيا بن يواش، وأتى بالهة ساعير وسجد لها، وفي أيامه جاء يواش المشرك - ملك إسرائيل - ونهب كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيت الله.

ثم ملك بعد أمضيا ابنه عززيا وبعده ابنه يوثام، وكانا مستقيمين، ولكن كان شعب اليهود يفسدون.

ثم ملك آحاز، وسار في طريق المشركين، وعمل تماثيل مسبوكة للبعليم، وترك

يُهوذا الربّ إلههم، وقطع آحازُ آنية بيت الله، وأغلق أبواب بيت الله، وأغلقوا أيضاً أبواب الرواق، وأطفئوا السرج ولم يوقدوا بخوراً ولم يصعدوا محرقة.

ولمّا ملكَ حَزَقِيَّا، فَتَحَ أبواب بيت الله، ودخل الكهنةُ إلى داخله وأخرجوا كلَّ النجاسة التي وجدوها في الهيكل، واستمرّوا في تطهير بيت الله ثمانية أيّام.

ولمّا ملكَ مَنْسَى بن حَزَقِيَّا عَمِلَ بِرَجَسَاتِ المشركين، وبنى مرتفعات الأوثان، وبنى مذابحها في داري بيت الله. ولما ذاق وبال أمره من ملكِ آشور رجِعَ إلى الله، فلمّا أنقذه الله أزال الأصنام والأوثان من بيت الله، وأمر يُهوذا أن يعبد الله إلههم.

ولمّا ملكَ ابنه أُمونَ عَمَلَ كُلَّ ما عمله أبوه في أوّل الأمر من إشاعة الشرك، ولم يرجع إلى الله كما رجِعَ أبوه في آخر الأمر.

يا سيّدي الوالد، ومع هذا التقلّب في الشرك في بلاد هي عاصمة التوحيد والشرية الموسويّة والتوراة، وفي شعب لا يوجد للتوحيد والتوراة والشرية فيه أثر، قُل: فهل يُمكن في هذا الشعب المتقلّب في الشرك والعداوة لمقدّسات الله أن يبقى للتوراة الحقيقيّة تواتر أو أثر صحيح؟ خصوصاً مع الصراحة بأنّهم تركوا التوراة، وكانت لهم أيّام كثيرة بلا إله حقّ ولا توراة.

وكيف يبقى للتوراة أثر إذا تركوا الله إلههم وجعلوا بيت الله بيتاً لأصنام الشرك، بل أغلقوه وأطفئوا سرجه ونجّسوه، بحيث احتاج تطهيره وإخراج النجاسة منه إلى ثمانية أيّام، مع الاستمرار على العمل بالاستعجال الملوكي وهمّة جمعيّة الكهنة.

يا والدي، إنّ عداوة الشرك والمشركين للتوراة الحقيقيّة أشدّ من عداوتهم لبيت الله؛ لأنّ التوراة تضادّ ضلالهم وتوبّخهم بلسانها، وبيت الله ليس له كلام يعارض أهواءهم، وها هم قد هدموه مراراً، فهل يبقون أثراً للتوراة؟

يا والدي، هذا الشعب المُشرك الذي يشيع فيه من العوائد الوثنيّة أن يندروا أنفسهم للأصنام، لكي يُلاط بهم ويسمّونهم «قدسيم»، حتّى بنوا لفحشائهم بيوتاً حول بيت الله، هل يترك هذا الشعب للتوراة أثراً؟

يا والدي، واسمع تأكيد ما أقوله وتحقيقه فيما أذكره من أمر يُوشيا.

دعوى حَلِقِيَّا أَنَّهُ عَثَرَ عَلَى التَّوْرَةِ

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَ أُمُونِ ابْنِهِ يُوْشِيَّا، وَكَانَ مُؤْمِنًا وَفِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِنْ مُلْكِهِ ابْتَدَأَ يَطْهَرُ يَهُوذَا وَأورشَلِيمَ مِنْ مَعَابِدِ الشَّرِكِ السَّوَارِيِّ وَالْمَرْتَفَعَاتِ وَالْمَسْبُوكَاتِ، وَقَطَعَ تَمَاثِيلَ الشَّمْسِ، وَهَدَمَ بِيوتَ الْمَأْبُونِينَ الَّتِي عِنْدَ بَيْتِ اللَّهِ.

وَبَعْدَمَا طَهَّرَ الْأَرْضَ وَبَيْتَ اللَّهِ، تَوَجَّهَ لِتَرْمِيمِ الْبَيْتِ وَتَسْقِيفِ الْبِيوتِ الَّتِي أَخْرَبَهَا يَهُوذَا مِنْهُ. وَعِنْدَ إِخْرَاجِهِمُ الْفِضَّةَ الْمَدْخَلَةَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ قَالَ حَلِقِيَّا الْكَاهِنَ لِشَافَانَ الْكَاتِبِ: قَدْ وَجَدْتُ سَفْرَ التَّوْرَةِ فِي بَيْتِ اللَّهِ.

فَقَالَ شَافَانُ لِلْمَلِكِ: قَدْ أَعْطَانِي حَلِقِيَّا سَفْرًا. وَقَرَأَ فِيهِ شَافَانُ أَمَامَ الْمَلِكِ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ كَلَامَ التَّوْرَةِ، مَزَّقَ ثِيَابَهُ، وَأَمَرَ جَمَاعَةً مِنْ خَوَاصِّهِ قَائِلًا: اذْهَبُوا اسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ أَجْلِي وَأَجَلَ مَنْ بَقِيَ مِنْ يَهُوذَا وَإِسْرَائِيلَ عَلَى كَلَامِ السَّفْرِ الَّذِي وَجَدَ، فَإِنَّ آبَاءَنَا لَمْ يَحْفَظُوا اللَّهَ لِيَعْلَمُوا حَسَبَ كُلِّ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي هَذَا السَّفْرِ.

وَجَمَعَ الْمَلِكُ كُلَّ رِجَالِ يَهُوذَا، وَكُلَّ الشَّعْبِ مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ وَالْكَهَنَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ، وَوَقَفَ عَلَى مَنْبَرِهِ وَقَطَعَ عَهْدًا مَعَ اللَّهِ عَلَى عِبَادَتِهِ وَحِفْظِ وَصَايَاهُ وَفَرَائِضِهِ حَسَبَ كَلَامِ الْعَهْدِ الْمَكْتُوبِ فِي هَذَا السَّفْرِ.

يَا وَالِدِي، وَهَذَا الْكَلَامُ يَنَادِي بِالصَّرَاحَةِ أَنَّ يُوْشِيَّا لَمَّا رَأَى السَّفْرَ الَّذِي ادَّعَى حَلِقِيَّا أَنَّهُ وَجَدَهُ فِي بَيْتِ اللَّهِ وَسَمِعَ مَا فِيهِ، رَأَى شَيْئًا لَمْ يَرَ مِثْلَهُ وَسَمِعَ مَا لَمْ يَكُنْ مَسْمُوعًا. وَعَدَّ يُوْشِيَّا وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ يَهُوذَا هَذَا السَّفْرَ مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي غَفَلَتْ عَنْهَا حَوَادِثُ الْأَيَّامِ وَأَخْفَتِهَا عَنْ دَوَاهِيهَا زَوَايَا الْخُمُولِ، حَتَّى مَزَّقَ الْمَلِكُ ثِيَابَهُ وَاضْطَرَبَ مِنْ أَجْلِ جَهْلِهِمْ لِكِتَابِ اللَّهِ وَمَا فِيهِ، وَبِذَلِكَ الْعَنَاءِ التَّامَّةِ فِي الْإِحْتِفَالِ وَقِرَاءَتِهِ عَلَى جَمِيعِ يَهُوذَا وَالشَّعْبِ، لِكَيْ يَطَّلَعُوا عَلَى مَا أَضَاعَهُ مِنْهُمُ الضَّلَالُ، وَيَعُودُوا إِلَى الْعَمَلِ بِالشَّرِيعَةِ الَّتِي لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهَا وَلَا يَجِدُونَ كِتَابَهَا.

أَلْيَعَاذِرُ: عَجَبًا، كَيْفَ قَبِلُوا مِنْ حَلِقِيَّا دَعْوَاهُ أَنَّ هَذَا سَفْرَ التَّوْرَةِ وَأَنَّهُ وَجَدَهُ فِي بَيْتِ اللَّهِ؟ وَلِمَاذَا لَمْ يَقُولُوا لَهُ: يَا حَلِقِيَّا لِمَاذَا لَمْ تَجِدْ هَذِهِ التَّوْرَةَ عِنْدَ تَطْهِيرِ بَيْتِ اللَّهِ؟ وَلِمَاذَا

لم توجد عند إدخال الفضة إلى بيت الله؟ وكيف اعتمدوا على أمانة جَلْقِيَا؟

عمانوئيل: إن بني إسرائيل كانوا مُلتفتين - كما شهدت لهم التجارب - إلى أن انتظام جامعتهم القوميّة وجامعتهم السياسيّة واستقلالهم السياسي وشرف جامعتهم وراثساتهم إنّما تكون بانضمامهم إلى الديانة الموسويّة وكتاب التوراة. لكن كثيراً ما تأخذهم سكرة الأهواء وضلال الشرك، فيسحقون الديانة الموسويّة وكتاب التوراة.

وأما إذا أفاقوا من هذه السكرة، لم يكن لهم بُدّ من أن يجعلوا صورة الديانة الموسويّة واسم التوراة وساماً رسمياً لقوميّتهم وشرفهم وسياستهم. وكانوا في أيّام يُوْشِيَا في حال إفاقة من سكراتهم الطويلة، ولكن سلفهم لم يبقوا لهم ذلك الوسام الرسمي الكريم. ولما سمعوا باسم ذلك الوسام، أغفلهم الشوق إليه عن كلّ اعتراض، وصدق لهم سريعاً على أمانة جَلْقِيَا، فاكْتَسَب ذلك السفر صفة الرسميّة الثانية.

ألا ترى يا والدي أنّ اليهود والنصارى يعترفون بأنّ الأصل العبراني المقدّس في مقدّسات اليهود فيه غلط كثير - أشرنا إلى بعضه فيما تقدّم وفي خصوص صحيفة ٧٦، وستأتي قريباً إشارتنا إلى الباقي - فصَحّوه بأجمعهم في الحواشي، وأبقوا ذلك الغلط مقدّساً لا سلطة عليه في المتن لحقيقة التصحيح؛ كلّ ذلك لأنّ النسخة المغلوطة اكتسبت يوماً من الأيام صفة الرسميّة، فلا يحكم عليها حاكم الصواب بعد ذلك.

يا والدي، وربما يغالطهم في تصديق جَلْقِيَا - مضافاً إلى ما تقدّم - ما يجدون في بعض سفره من الموافقة لبعض ما بقي عند كهنتهم وشيوخهم من رسوم الشريعة والكلمات المحفوظة بنقل الآباء عن الأسلاف عن التوراة الفريدة، فإنّي أرى كثيراً من الكتّابين الروحانيّين يستشهدون لصحّة كتب العهد الجديد بوجود فقرة فيها تشبه بعض الفقرات الموجودة في كتابات الأسلاف القدماء.

القس: يا عمانوئيل، أفلا تظنّ أنّ احتفال يُوْشِيَا بتوراة جَلْقِيَا لأجل أنّها التوراة التي كتبها موسى بيده ووضعها في التابوت أو أمامه، وأمر أن تجعل مع التابوت في قدس الأقداس من خيمة الاجتماع أو بيت المقدس؟ فليس ذلك الاحتفال لأجل أنّها نسخة وحيدة لا يوجد غيرها من نسخ التوراة.

عمانوثيل: لا يا سيدي، لا يمكن أن يظنّ ما تقوله، ولا يرضى به التاريخ.
القس: لماذا يا عمانوثيل؟

عمانوثيل: يا سيدي، لأنّ الكلام الذي ذكرناه من حِلْقِيَا وَيُوشِيَا ينادي بأنّ ذلك الاحتفال بتوراة حِلْقِيَا إنّما كان لأجل أنّها النسخة الوحيدة في بني إسرائيل وزمانها، والمُسَمَّاة باسم توراتهم الفريدة العزيرة. ولا بدّ من أنّ سيدي القسّ اطّلع على أصل ما نقلناه في حال يُوشِيَا وتوراة حِلْقِيَا في الفصل الثاني والعشرين والثالث والعشرين من سفر الملوك الثاني، وفي الفصل الرابع والثلاثين من سفر أخبار الأيام الثاني ولا بدّ أن يكون سيدي القسّ نظر إلى ذلك في أصله العبراني وتراجمه.

وأيضاً يا سيدي، إنّ التوراة التي كتبها موسى لا يمكن أن تبقى موجودة في قدس الأقداس إلى زمان يُوشِيَا؛ ويشهد بذلك التاريخ المقدّس من ارتدادات بني إسرائيل، وأنّهم مكثوا أياماً كثيرة بلا إله حقّ ولا توراة، مع تكرار الخراب والنهب لبيت الله وقدس الأقداس، وتنجيسهما وجعلهما بيوتاً للأصنام^١. وكيف يسمحون لها بالبقاء وهي أشدّ الأعداء لهم في مضادّة شركهم ولعنهم وتوبيخهم، بل هي لواء مصادمتهم؟ يا سيدي، لا يمكن في العادة أن يبقى لها أثر.

وأيضاً يا سيدي، إنّ الفلسطينيين بعد موسى بنحو ثلاثمائة وعشر سنين نهبوا التابوت، ولم يُرد إلى مكانه في خيمة الاجتماع إلّا في زمان داود بعد مائة سنة. ولما بنى سليمان الهيكل ونقل إليه التابوت، لم يكن فيه إلّا لوحا العهد.

ولم يجر في كلّ هذه الأحوال ذكرٌ للتوراة التي بخطّ موسى حتّى في نقل سليمان لأدوات الخيمة إلى الهيكل مع الأواني، فهل كانت الأواني أهمّ بالذكر من التوراة التي بخطّ موسى؟ لا يا سيدي، إنّ ارتدادات بني إسرائيل إلى الشرك في زمن القضاة لا تترك أثراً للتوراة التي بخطّ موسى، فكيف بارتداداتهم بعد ذلك؟

عمانوثيل: يا سيدي الوالد، ثمّ ملك بعد يُوشِيَا - إلى سبي بابل - يَهُوَ آحَازُ وَيَهُوَ يَاقِيمُ وَيَهُوَ يَاقِينُ، وعملوا الشرّ.

١. تقدّم تفصيل ذلك في ص ١٢٦ وما بعدها.

وأما يَهُودًا في أَيّام هَوْلَاء الملوك، فقد تَكَرَّر في الفصل السابع والثامن والتاسع والحادي عشر والثاني عشر والسادس عشر من كتاب إزْمِيَا النَّبِيِّ تَوْبِيخُهُمْ عَلَى سلوكهم وراءِ التَّبْلِيغِ وسيرهم وراءِ آلهةٍ أُخْرَى، حَتَّى صارت آلهتهم بَعْدَ مُدْنِهِمْ وَبَعْدِ شِوَارِعِ أُورُشَلِيمَ.

بعض شواهد التحريف

يا والدي، وهذا النبيّ إزْمِيَا في كتابه الذي يعتبره اليهود والنصارى كتاب وحي إلهي، ها هو يشهد بالصراحة على اليهود بتحريفهم للتوراة. فإنّه يقول في العدد السادس والثلاثين من الفصل الثالث والعشرين:

وَوَحِيَ اللَّهُ لَا تَذْكُرُوا بَعْدَ لَأَنَّ وَحْيَ اللَّهِ لِلرَّجُلِ كَلَامُهُ وَقَدْ حَرَفْتُمْ كَلَامَ الْإِلَهِ الْحَيِّ رَبِّ الْجُنُودِ إِلَهِنَا.

وأيضاً في العدد الثامن من الفصل الثامن من إزْمِيَا: «كَيْفَ تَقُولُونَ حُكَمَاءَ نَحْنُ وَتُورَاةُ اللَّهِ مَعَنَا لَكِنْ هُوَذَا لِلْكَذِبِ عَمِلَهَا قَلَمٌ كِذْبِ الْكُتَّابَةِ».

يا سيّدي الوالد، وأما حادثة سَبْيِ بَابِلَ، فقد ذكرتُ لحضرتك في صحيفة ١٢٤ أنّ نبوخذراصر «بخت نصر» أحرقَ بيت المقدس وخرّبَه، ولاشئَ المقدّسات والأُمَّة بالسببي والقتل، ولَمَّا أُطْلِقَهُمْ كورَش بعد سبعين سنة توجّهوا إلى عبادة الله والشريعة.

يقول كتاب نَحْمِيَا في الفصل الثامن:

اجتمعَ كُلُّ الشَّعْبِ ... وقالوا لِعَزْرَا الكَاتِبِ أَنْ يَأْتِيَ بِسِفْرِ تُورَاةِ مُوسَى الَّتِي أَمَرَ بِهَا الرَّبُّ. فَأَتَى عَزْرَا بِالتُّورَاةِ أَمَامَ الْجَمَاعَةِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَكُلِّ فَاهِمٍ مَا يُسْمَعُ ... وَيَقْرَأُ فِيهِ ... وَيَكْنَى جَمِيعَ الشَّعْبِ حِينَ سَمِعُوا كَلَامَ التُّورَاةِ^١.

يا والدي، ولو كانوا يعرفون التوراة أو عندهم منها نُسخ، لما استولى عليهم البكاء.

وفي اليوم الثاني اجتمع رؤساء آباء الشعب والكهنة واللاويون إلى عَزْرَا لیتلوا عليهم كلام التوراة فوجدوا مكتوباً فيه: إسرائيل يسكنون في مَطَّال في العيد في الشهر السابع^١ فأخذوا في عَمَلِ المَطَّالِ^٢.

يا والدي، إنَّ الكهنة هم حملة التوراة، ولهم سيطرة الشريعة بمقتضى الوظيفة الشرعية، فلماذا احتاج الكهنة إلى السماع من عَزْرَا؟ ولماذا لم يعرفوا قبل ذلك شريعة المَطَّالِ^٣؟

وقرأ^٤ أيضاً: «ووجد مكتوباً أنَّ عَمُونِيَّاً وَمُوآبِيَّاً لا يدخل في جماعة الرب... فَفَرَّزُوا كُلَّ اللَفِيفِ»^٥.

ولماذا لم يعرفوا ولم يجدوا هذا الكلام قبل ذلك اليوم لو كان عندهم نُسخ أو نسخة واحدة من التوراة؟ يا والدي، ويا لَيْتَ توراَة عَزْرَا سلمت بعد ذلك.

أليعازر: وماذا جرى بعد سبي بابل على اليهود وتوراتهم؟

عمانوييل: يا سيدي، إنَّ كِتَابِي المَقَابِيينَ تعتبرهما فرقة الكاثوليك من الكُتُبِ القانونيّة المقدّسة، وهما وإن كانا عند البروتستنت ليسا من الكُتُبِ القانونيّة المقدّسة، لكنهما لا يقصران عن أن يكونا كِتَابِي تاريخ مُعتبر.

وقد ذكر في الفصل الأوّل من السفر الأوّل: أنَّ انطوخوس الامبراطور لَمَّا فتح أُورُشَلِيمَ أحرَقَ جميع نُسخ الكُتُبِ المقدّسة التي حصلت له من أيّ مكان وأمر بأنَّ مَنْ يُوجد عنده نسخة منها أو يؤدّي رسم الشريعة يقتل وكان التحقيق «التفتيش» على هذا يجري في كلِّ شهر فيقتل من وجدت عنده نسخة أو أدّى رسوم الشريعة وتعدم تلك النسخة ودام هذا الحال ثلاث سنين.

١. سفر نحemia ٨: ١٣-١٤.

٢. العدد ١٦.

٣. سفر نحemia ١٣: ١ و٣ (منه ❀).

٤. أي عَزْرَا الكاتب.

٥. سفر نحemia ١٣: ٣.

يا والدي، والتواريخ أيضاً تشهد بذلك، ومنها تأريخ يوسيفوس اليهودي.
وهذا جان ملزكاتلك في صحيفة ١١٥ من كتابه المطبوع سنة ١٨٤٣ يقول:
اتّفق أهل العلم على أنّ نسخة التوراة ونُسَخ العهد العتيق ضاعت من أيدي
عسكر نبوخذراصر - بخت نصر - ولما ظهرت نقولها الصحيحة بواسطة عَزْرَا
ضاعت تلك النقول أيضاً في حادثة انطوخوس.

ثمّ قال: فلم تكن شهادة لصحة هذه الكتب ما لم يشهد المسيح والحواريون.
أليعازر: يا عمانوئيل، لماذا تقابل الأُمّة اليهوديّة والأُمّة المسيحيّة بقول جان ملز؟
أما إنك قد صرتَ مثل أصحابنا المبشّرين إذ يقابلون المسلمين بقول فلان المفسّر، يا
عمانوئيل هذا من الغلط.

عمانوئيل: إنّي ذكرتُ عن جان ملز قوله التاريخي؛ لكي تتأيد به تواريخ المقاييس
ويوسيفوس وباقي المؤرّخين، ولم أستند إلى كلامه وحده.

أليعازر: إنّ حادثة انطوخوس كانت قبل التأريخ المسيحي بنحو مائة وتسع وستين
سنة، والترجمة السبعينيّة صدرت قبل حادثة انطوخوس بنحو مائة وعشر سنين
وانتشرت في أقطار العالم. فهب أنّ حادثة انطوخوس أهدمت النسخة العبرانيّة، ففي
بقاء النسخة السبعينيّة كفاية.

عمانوئيل: إنّ ولادة النسخة السبعينيّة كانت في مصر، ومن أين لك أنّها انتشرت في
أقطار العالم قبل حادثة انطوخوس؟

وهبها انتشرت في مصر وفلسطين، ولكن جيش انطوخوس المُعادي لكتب العهد
القديم قد دخل مصر فاتحاً قبل البلاد اليهوديّة، فلا بدّ من أن تكون عداوته قد أهدمت
العهد القديم في مصر كما أهدمته في البلاد اليهوديّة. وأنّ التواريخ تقول: إنّه تطلب
إعدام نسخ العهد القديم من كلّ مكان.

يا والدي، وكيف كان فإنّ النسخة السبعينيّة تشهد بنقصان النسخة العبرانيّة نقصاً
مُخلاً في أربعة عشر مورداً، وزيادتها في موردين، وبغلطها في ثمانية موارد، وقد
أحصى ذلك الجزء الثاني من كتاب الهدى صحيفة ٤٨١ - ٤٨٣.

والحاصل أن كلاً من النسخة العبرانية والنسخة السبعينية هو كما قال الشاعر:

وكلُّ يَدْعِي وَضْلاً يَلِيْلِي وَلَيْلِي لَا تَقْرُ لَهُمْ بِذَاكَ

أليعازر: فهل تقول: إن كلَّ التوراة الموجودة هي مخالفة لتوراة موسى بجميع كلامها، وجميع عرفانها، وجميع تاريخها، وجميع شرائعها؟
عمانوييل: لا يا والدي، بل لا بُدَّ بحسب العادة أن يبقى أثر وشيء من منقولات السلف للخلف عن محفوظات التوراة الحقيقية، ولكنه يضع بين الدخيل والمحرف ويشبّه الأمر. نعم، لا يشبّه الأمر في مقامين:

أحدهما: ما نعلم أنه لا يمكن أن يكون من التوراة الحقيقية ولا من كلام الله ولا حبه، وهو ما ذكرناه في أثناء مكالمتنا واعتراضنا عليه بمخالفته للمعقول.
وثانيهما: ما صدقته نبوة حقيقية ونصت على تصديقه بذاته، لا بالاسم الذي يلتصق كلَّ يوم بمسمّى جديد.

لكن النتيجة - يا والدي - أننا فاقدون لتوراتنا الحقيقية، فإنَّ هذه الموجودة لا يمكن الاعتماد على فقرة منها.

ومن المضحك والمُخجل أن جماعة من الكُتّبة - مثل المتسمّى هاشم العربي والغريب بن العجيب - يعترضون على بعض ما يذكره القرآن من التواريخ، وبعض ما يذكره العرب في تاريخ مكّة المسماة في التوراة مسا، وتاريخ جدّهم إسماعيل بن إبراهيم. وغاية اعتراضهم هو أن ما يذكره القرآن والعرب غير موجود في التوراة، أفلا يشعر هؤلاء المعترضون بما في توراتهم من أسباب الخلل؟!!

القس: يا عمانوييل، ما عليك من فلان المبشّر وفلان الكاتب، أفلا تذكر ما تقدّم في صحيفة ٢٠ من إنكار جماعة لِذِكْرِ التوراة لليوم السابع وتقديسه؟

وفي صحيفة ٣٤ من أن جماعة ادّعوا على القرآن أنه يقول قابيل وهابيل.

وفي صحيفة ٤٢ من أن بعض الناس ادّعوا على القرآن أنه يقول: إنَّ هارون عبَدَ العجل حينما كان موسى على الجبل، وإنَّ داود أخذ نعجة أخيه، وإنَّ إبراهيم كان عبداً وثن. وفي صحيفة ٥٣ من أن بعض الناس لبعض الأغراض زادوا على التوراة لفظ «أتى».

عمانوييل: يا والدي، أما، إن الكاتيين لكتاب عبد المسيح، وجمعيّة كتاب الهداية، وكتاب هاشم العربي، وكتاب ثمرة الأمانى، وكتاب رحلة الغريب بن العجيب، وغيرهم من المبشرين هؤلاء كلّهم قد جنوا على كُتب العهدين وديانة قومهم جناية كبيرة؛ فإنهم تعرّضوا لدين الإسلام ورسوله وقرآنه.

وباليتهم لم يتعرّضوا، أو تعرّضوا بشرف علم وأدب، بل ألجؤوا المسلمين إلى أن يتجرّد منهم جماعة للتدقيق في دراسة كُتب العهدين بلسانها الأصلي ونسخها الخطيّة وتراجمها وأصناف مطبوعتها، فصار الكاتبون من المسلمين يُخجلوننا باعتراضاتهم على كُتبنا وكُتبنا والمُترجمين، وبمقابلتهم بين العهدين وبين القرآن في المواضيع المشتركة بالذكر في العهدين والقرآن، ويوردون أضعاف الانتقادات التي ذكرناها في هذه الدراسة، وذلك ممّا جناه كُتبنا الغافلون.

عوداً إلى دراسة الكتب

القس: يا عمانوييل، أما تُحبّ أن تعود إلى دراسة كُتب العهدين؟
 أليعازر: إنّنا بدراسة عمانوييل قد خسرنا التوراة الموجودة، فيأتي - وأنا عامّي شديد التمسك بالديانة، أدفع كلّ اعتراض بقولي: هذه وسوسة في الكتب المقدّسة - قد صرّت في هذه الدراسة الحرّة مقتنعاً بأنّ التوراة الموجودة ليست توراة موسى الحقيقيّة.

عمانوييل: يا والدي، وهل ندمت أنت على رضاك في أوّل الأمر بهذه الدراسة؟ وهل تكره أن يظهر لك الحقّ وتكون على بصيرة من أمرك؟ وهل تكلمّ القسّ بما ينقل على هواك؟

أليعازر: يا ولدي، من ذا الذي يكره ظهور الحقّ؟ وهل يكره ذلك إلاّ من خسر حظّه؟! وحاشا لحكمة سيّدنا القسّ أن يتكلّم بشيء ينقل على الهوى ويهيج العصبية، حتّى أتّي في أوّل الأمر كنتّ عاتباً على قداسته في حياده عن جوابك ومماطلته لنا بالآمال، ولكنّي الآن عرفت أنّ ذلك كان منه على حقيقة الحكمة، فإنّه لو تسرع لفعلت

العصبية أفاعيلها الرديئة، ولكنّه بحكمته ترك عقولنا تُخاصم أهواءنا، فعدّ إلى دراستك يا ولدي أدام الله توفيقك ببركة سيّدنا.

سفر يشوع - يوشع - ومناحة بني إسرائيل على موسى

القس: اقرأ يا عمانوئيل في سفر يشوع بن نون.

عمانوئيل: قد بقي شيء من التوراة أحبّ أن أسأل عنه، وهو أنّ الفصل الرابع والثلاثين من سفر التثنية من التوراة يذكر موت موسى ومناحة بني إسرائيل عليه ثلاثين يوماً^١. فمن هو الكاتب لهذه الكلمات؟ وكيف جعل هذا الفصل من التوراة التي أنزلت على موسى؟

يا سيدي، وإنّ هذا الكاتب يقول: «ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم»^٢. وهذا يشير إلى أنّ هذه الكتابة كتبت بعد موت موسى بزمان طويل. ويقول في الأصل العبراني: «ويقبراتو» أي ودفنه ولم يذكر من الذي كان مع موسى عند موته فدّفنّه.

القس: قد قيل: إنّ الكاتب لهذا الفصل هو يشوع بن نون، وقيل غير ذلك. ولا حاجة على شيء من هذه الأقاويل، ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر. لماذا لم يكتبه يشوع في أول الكتاب المنسوب إليه؟ لماذا يدسّ هذا في التوراة؟ ماذا ينفع التخمين البارد؟ اقرأ يا عمانوئيل.

عمانوئيل: إنّي قرأت سفر يشوع مراراً، وكلّما قرأت فيه تكدرّ خاطري ممّا فيه [من] الحروب القاسية التي دامت على ذبح الأطفال والنساء وإبادة كلّ نسمة في البلاد المفتوحة.

القس: إنّ هذا العمل هو شريعة التوراة في هؤلاء الأمم.

عمانوئيل: قد جرى ذكر هذا فيما قبل وكتبناه في صحيفة ٨٤ - ٨٥، وقد ذكرنا

١. العدد ٥ - ٨.

٢. العدد ٦.

لحضرتك - أنا والدي - أنّ وجدانا لا يقبل أن تكون مثل هذه القساوة الوحشية والفظاظة الهمجية من شريعة الله ووحيه، وكأنك صدقتنا فيما قلنا، فلا حاجة لي في سفر يسوع.

القس: اقرأ في سفر القضاة.

عمانويل: يا سيدي، إن العمدة في أساسيات الديانة هي توراة سيّدنا موسى وإنجيل سيّدنا المسيح، فإذا لم نقف في أمر هذين الكتابين على قدم ثابت، فلا أهميّة في باقي كتب العهدين.

القس: يا عمانويل، إذا كان هذا رأيك فابدأ بأيّ الأناجيل شئت وإن كان ترتيب الكتابة يقتضي أن تبدأ بإنجيل متى.

مَنْ كَتَبَ الْأَنْجِيلَ وَمَتَى كُتِبَتْ؟

عمانويل: يا سيدي، هل كانت هذه الأناجيل الأربعة في زمان المسيح؟

القس: لا، يا عمانويل، وإنما صُنِّفَتْ بالإلهام بعد زمان المسيح بمدة سنين عديدة.

عمانويل: مَنْ صَنَّفَ هَذِهِ الْأَنْجِيلَ؟

القس: يُذَكَّرُ أَنَّهُمْ أَرْبَعَةٌ رِجَالٌ: اِثْنَانِ مِنْ تَلَامِيذِ الْمَسِيحِ الْاِثْنَيْنِ عَشَرَ وَهُمَا مَتَّى وَيُوْحَنَّا، وَاِثْنَانِ مِنْ أَتْبَاعِ التَّلَامِيذِ وَهُمَا مَرْقُسُ وَلُوقَا.

عمانويل: بأيّ تاريخ صُنِّفَتْ هَذِهِ الْأَنْجِيلَ؟

القس: يُذَكَّرُ أَنَّهُ صُنِّفَ إِنْجِيلُ مَتَّى بَعْدَ تَأْرِيخِ الْمِيلَادِ سَنَةَ ٣٢ أَوْ ٣٨ أَوْ ٤١ أَوْ ٤٣

أَوْ ٤٨ أَوْ ٦١ أَوْ ٦٢ أَوْ ٦٣ أَوْ ٦٤.

وَصُنِّفَ إِنْجِيلُ مَرْقُسَ مَا بَيْنَ سَنَةِ ٥٦ وَ ٦٥، وَالْأَغْلَبُ أَنَّهُ سَنَةَ ٦٠ أَوْ ٦٣.

وَصُنِّفَ إِنْجِيلُ لُوقَا سَنَةَ ٥٣ أَوْ ٦٣ أَوْ ٦٤.

وَصُنِّفَ إِنْجِيلُ يُوْحَنَّا سَنَةَ ٦٨ أَوْ ٦٩ أَوْ ٧٠ أَوْ ٨٩ أَوْ ٩٨.

يا عمانويل، وقد كان صلب المسيح - على ما يقال - في سنة التاسعة والعشرين

من التاريخ المسيحي.

مَنْ هُوَ وَمَا هُوَ مَتَّى؟ وَمَنْ هُوَ وَمَا هُوَ يُوحَنَّا؟

عمانويل: هل يُمكن معرفة مَتَّى وَيُوحَنَّا؟

القَس: ذَكَرَ نَفْسَ مَتَّى فِي إِنْجِيلِهِ ٩: ٩ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَحْدِمًا فِي جِبَايَةِ الْيُونَانِيِّينَ

وَيُسَمَّى عَشَارًا قَالَ لَهُ الْمَسِيحُ: أَتَبِعْنِي، فَتَبِعَهُ.

وَفِي إِنْجِيلِ مَرْقُس ٢: ١٤ سَمَّاهُ «لَاوِي بْنَ حَلْفِي كَانَ جَالِسًا عِنْدَ مَكَانِ الْجِبَايَةِ

فَقَالَ لَهُ الْمَسِيحُ: أَتَبِعْنِي، فَتَبِعَهُ».

وَنَحْوَهُ فِي إِنْجِيلِ لُوقَا ٥: ٢٧ وَ ٢٨.

وَأَمَّا يُوحَنَّا فَهُوَ ابْنُ زَبْدِي، رَأَاهُ الْمَسِيحُ وَأَخَاهُ فِي السَّفِينَةِ مَعَ أَبِيهِمَا يَصْلِحَانِ

شِبَاكَهُمَا، فَدَعَاهُمَا، فَتَرَكَ السَّفِينَةَ وَأَبَاهُمَا وَتَبِعَاهُ^١.

وَذَكَرَ لُوقَا ٥: ١٠ أَنَّهُمَا كَانَا شَرِيكِي سِمْعَانَ بَطْرُسَ فِي صَيْدِ السَّمَكِ مِنْ

بَحِيرَةِ طَبْرِتَةَ.

وَيُسَمَّى يُوْحَنَّا الْحَبِيبِ، أَي حَبِيبِ الْمَسِيحِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ فِي إِنْجِيلِهِ فِي

الْفَصْلِ التَّاسِعِ عَشَرَ^٢ وَالْعِشْرِينَ^٣ وَالْحَادِي وَالْعِشْرِينَ^٤: «التَّلْمِيزُ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يَحِبُّهُ».

وَقَالَ عَنْهُ فِي الْفَصْلِ الثَّلَاثِ عَشَرَ:

وَكَانَ مُتَّكِنًا فِي حَضْنِ يَسُوعَ وَاحِدًا مِنْ تَلَامِيذِهِ كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ. فَأَمَّا إِلَيْهِ

سِمْعَانَ بَطْرُسَ أَنْ يَسْأَلَ مَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ، فَاتَّكَأَ ذَلِكَ عَلَى صَدْرِ

يَسُوعَ وَقَالَ: يَا سَيِّدَ مَنْ هُوَ؟^٥

وَكَرَّرَ ذَلِكَ فِي الْفَصْلِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ^٦.

١. إِنْجِيلِ مَتَّى ٤: ٢١؛ إِنْجِيلِ مَرْقُس ١: ١٩ (مِنْهُ ﷺ).

٢. إِنْجِيلِ يُوْحَنَّا ١٩: ٢٦.

٣. الْعَدَدُ ٣.

٤. الْعَدَدُ ٧.

٥. الْعَدَدُ ٢٣-٢٥.

٦. الْعَدَدُ ٢٠-٢١.

عمانوئيل: يا سيدي القس، كم كان عمر يوحنا حينما كان مُتَكِنًا في حضن المسيح ويتكى على صدره ويتغنج عليه؟ هل كان يوحنا حينئذٍ ابن أربع سنين أو ثلاثة حتى لا يكون هذا العمل قبيحاً؟

القس: قد ذكرت لك عن الأناجيل الثلاثة أن يوحنا كان قبل الاتكاء في حضن المسيح بثلاث سنين يعمل في السفينة ويصيد السمك ويصلح الشباك، ولا يمكن أن يكون عمره بحسب العادة حين الاتكاء أقل من أربع عشرة سنة.

عمانوئيل: يا سيدي، إنني لأخجل كثيراً من وجود هذا الكلام في إنجيلنا المقدس؛ فإنّ المسيح الذي جاء ليعلّم الناس بأخلاق الأدب والعفاف، كيف يترك الشاب يجلس في حضنه ويتكى على صدره؟ يا سيدي، حاشا المسيح وحاشا الإنجيل الحقيقي من ذلك.

يا سيدي، وهل يمكن أن نعرف شيئاً من أحوال متى ويوحنا؟

أحوال التلاميذ الاثني عشر

القس: كانا من التلاميذ الاثني عشر، ولكن الأناجيل تذكر أن التلاميذ تشاجروا لأجل الرئاسة الدنيوية فيمن يكون منهم الأكبر بعد المسيح، لما أخبرهم بما يجري عليه وأنه ماضٍ عنهم.

فوبّخهم المسيح على تشاجرهم ومَنّاهم بما يرغّبهم في الائتلاف^١، ووبّخهم المسيح على قلة إيمانهم^٢، وأنهم لا إيمان لهم^٣، وليس لهم من الإيمان مثل حبة خردل^٤، ووصفهم الإنجيل بغلظ القلوب^٥، وأخبر المسيح بأنهم جميعاً يشكّون فيه ليلة هجوم اليهود عليه^٦.

١. إنجيل لوقا ٢٢: ٢٣ - ٣١ «وهذا الهامش والذي بعده إلى آخر هذه الفقرة منه».

٢. إنجيل متى ١٦: ٨.

٣. إنجيل مرقس ٤: ٤٠.

٤. إنجيل متى ١٧: ٢٠.

٥. إنجيل مرقس ٦: ٥٢.

٦. إنجيل متى ٢٦: ٣١.

ويتفرقون عنه كل واحد إلى خاصته ويتركونه وحده^١، وطلب منهم أن يسهروا معه تلك الليلة، فلم يفعلوا ولم يواسوه، مع ما هو فيه من الدهشة والاكتئاب، حتى وبخهم على ذلك مراراً، ولما هجم عليه اليهود تركوه كلهم وهربوا^٢.

يا عمانوئيل، ثم إنهم لم يصدقوا اللواتي أخبرنهم بقيام المسيح من الأموات وعدوا كلامهن كالهذيان^٣، حتى وبخهم المسيح على عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم؛ لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام^٤.

يا عمانوئيل، وهذا الحال منهم مدهش، فإن المسيح كثيراً ما بين لهم أنه يتألم من اليهود، وفي اليوم الثالث يقوم من القبر ومن الأموات^٥.

ومثل ذلك في الأناجيل الأربعة كثير، حتى أن اليهود كانوا يعلمون بكلامه هذا ويذكرونه ويخشون عاقبته^٦، فكيف نسيه التلاميذ أو تناسوه فيا للأسف؟!

أليعازر: ما كنت أظن أن خاصة المسيح وتلاميذه الاثني عشر يكونون بهذا الانحطاط. عمانوئيل: يا سيدي الوالد، إن يهوذا الإسخريوطي كان واحداً من التلاميذ الاثني عشر، وكان أمين المسيح على صندوق أموال الفقراء، كما في الفصل الثاني عشر والثالث عشر من إنجيل يوحنا، وقد كان يسرق من أموال الفقراء^٧، وهو الذي سلم المسيح إلى أعدائه وباع دمه الشريف بقليل من الفضة، كما صرحت به أواخر الأناجيل الأربعة وأول أعمال الرسل.

يا والدي، والأمر العجيب أن القديس بطرس صار ينتهر المسيح حتى قال له المسيح: «أذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي؛ لأنك لا تهتم بما لله بل بما

١. إنجيل يوحنا ١٦: ٣٢.

٢. إنجيل متى ٢٦: ٣٦-٥٧.

٣. إنجيل لوقا ٢٤: ١١.

٤. إنجيل مرقس ١٦: ١٤.

٥. انظر أقل إلى إنجيل متى ١٦: ٢١ و ١٧: ٢٣ و ٢٠: ١٩ و ٢٦: ٣٢.

٦. إنجيل متى ٢٧: ٦٣.

٧. إنجيل يوحنا ١٦: ١٦.

للناس»^١، وقد أنكرَ المسيح ليلة هجوم اليهود ثلاث مرّات وابتدأ يلعن ويحلف أنّه لا يعرفه^٢. مع أنّ المسيح أنذره بذلك، فوعد المسيح بأن لا ينكره ولو اضطرَّ إلى الموت معه^٣. أليعازر: يا ليتني لم أسمع بهذا عن تلاميذ المسيح وخاصّته، إذأ فكيف نظمئنّ بهم على الديانة المسيحيّة؟! أما إنّ هذه الأحوال واطمئناننا بهم على الديانة يجعلنا عاراً عند الأمم. القسّ: مهلاً يا أليعازر، فإنّ الأنجيل تقول: إنّ المسيح بعد قيامه من الأموات أرسلهم وقال لهم: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به» كما في آخر إنجيل متّى.

«اذهبوا إلى العالم أجمع وعظوا بالإنجيل للخليقة كلّها»، كما في آخر إنجيل مرقس. وقال لهم: «كما أرسلني الأب أرسلكم أنا»^٤، «ولمّا صار يوم الخمسين أملؤوا مع التلاميذ من الروح القدس»^٥.

أليعازر: الأنجيل التي تذكر هذا التمجد للتلاميذ، أليست هي الأنجيل التي نسبت إلى قدس المسيح - وحاشاه - أنّه يقول بتعدّد الأرباب والآلهة بالحجّة الواهية مع التحريف الكبير، كما مرّ في صحيفة ٨٨ - ٨٩.

من هو مَرْقُس ومن هو لُوقا وما هما؟

عمانوثيل: يا سيّدنا القسّ، وهل يمكن أن نعرف شيئاً من أحوال مَرْقُس ولُوقا؟

القسّ: يمكن أن نعرف بعض أحوالهما من الكُتب المقدّسة:

أما مَرْقُس - الذي اسمه يوحنا^٦ - فقد كان ابن اخت بَرْنابا^٧، وكان خادماً مع بَرْنابا

١. إنجيل متّى ١٦: ٢٢ و ٢٣.

٢. إنجيل متّى ٢٦: ٦٩ - ٧٥.

٣. إنجيل متّى ٢٦: ٣٥.

٤. إنجيل يوحنا ٢٠: ٢١.

٥. أعمال الرسل ٢: ٣ و ٤.

٦. أعمال الرسل ١٢: ١٢ و ١٥: ٣٧ «وهذا الهامش والعشرة التي بعده منه ☩».

٧. رسالة بولس إلى أهل كولووسي ٤: ١١.

وَبُولُسُ فِي سَفَرِهِمَا^١، وَرَجَعَ عَنْهُمَا مِنْ بَمْفَلِيَّةَ إِلَى أُورُشَلِيمَ^٢، وَلَمَّا أَرَادَا السَّفَرَ مِنْ أَنْطَاكِيَّةَ أَرَادَ بَرْنَابَا أَنْ يَأْخُذَهُمَا مَعَهُمَا، وَامْتَنَعَ بُولُسُ مِنْ أَنْ يَأْخُذَهُ؛ لِأَنَّهُ رَجَعَ عَنْهُمَا مِنْ بَمْفَلِيَّةَ وَلَمْ يَذْهَبَ لِلْعَمَلِ فَتَشَاجَرَ لِذَلِكَ بَرْنَابَا وَبُولُسُ وَتَفَارَقَا، فَأَخَذَ بَرْنَابَا مَرْقُسَ مَعَهُ وَسَافَرَ إِلَى قَبْرَسَ^٣.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ كَتَبَ بُولُسُ لِتِيمُوثَاوُسَ أَنْ يَأْتِيَهُ وَيَحْضُرَ مَعَهُ مَرْقُسَ؛ لِأَنَّهُ نَافِعٌ لِلخِدْمَةِ^٤. وَأَمَّا لُوقَا، فَقَدْ كَانَ مَعَ بُولُسَ^٥، وَكَانَ هُوَ وَمَرْقُسُ مَعَ بُولُسَ فِي رُومِيَّةَ^٦، وَبِمَا أَنَّ لُوقَا هُوَ كَاتِبُ أَعْمَالِ الرِّسْلِ يَعْرِفُ أَنَّهُ كَانَ يَرِافِقُ بُولُسَ فِي سَفَرِهِ إِلَى مَقْدُونِيَّةَ وَرُومِيَّةَ. لَكِنْ يَا عِمَانُوئِيلَ، لَمْ يَجِيءْ نَصٌّ مِنَ الْكُتُبِ الْمَقْدَسَةِ عَلَى أَنَّ لُوقَا وَمَرْقُسُ كَانَا مِنَ الْمَائَةِ الَّذِينَ حَلَّ عَلَيْهِمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ^٧، وَلَا ذَكَرَ أَسْمَاءُهُمَا فِي عِدَادِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا فِي كَنِيسَةِ أَنْطَاكِيَّةَ^٨.

عِمَانُوئِيلَ: يَا سَيِّدِي الْقَسَّ، هَلْ تَذَكُرُ كُتُبَنَا الْمَقْدَسَةَ أَنَّ مَرْقُسَ وَلُوقَا كَانَا نَبِيَّيْنِ؟ وَهَلْ تَذَكُرُ لِهَمَا شَيْئاً مِنَ الْعَجَزَاتِ؟

القَسَّ: لَا، يَا عِمَانُوئِيلَ، لَمْ أَجِدْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فِي كُتُبِنَا الْمَقْدَسَةَ مَعَ كِمَالِ الْفَحْصِ. عِمَانُوئِيلَ: إِنَّ جَمْعِيَّةَ كِتَابِ الْهَدَايَةِ - الْمَطْبُوعِ بِمَعْرِفَةِ الْمُرْسَلِينَ الْأَمْرِيكَانَ - تَقُولُ فِي الْجِزَاءِ الثَّلَاثِ فِي صَحِيفَةِ ٩٥: قَدْ كَانَ لُوقَا الْبَشِيرَ مِنَ السَّبْعِينَ تَلْمِيذاً الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ الْمَسِيحُ لِيَكْرزُوا - يَعْظُوا - فِي الْيَهُودِيَّةِ^٩.

القَسَّ: يَا عِمَانُوئِيلَ، اقْرَأ الْفَصْلَ الْعَاشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ لُوقَا، فَإِنَّكَ لَا تَرَى فِيهِ أَسْمَاءَ

١. أعمال الرُّسل ١٢: ٢٥ و ١٣: ٥.

٢. أعمال الرُّسل ١٣: ١٣.

٣. أعمال الرُّسل ١٥: ٣٧ - ٤٠.

٤. رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس ٤: ١١.

٥. رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس ٤: ١١.

٦. رسالة بولس إلى أهل كولوסי ٤: ١٠ و ١٤: رسالة بولس إلى فيليمون: ٢٦.

٧. أعمال الرُّسل ١: ١٥ و ٢: ٤.

٨. أعمال الرُّسل ١٣: ١.

٩. إنجيل لوقا ١٠: ١ - ٢٠.

التلاميذ السبعين ولا اسم لُوقًا، فَمِنْ أَيْنَ قَالَتْ جَمْعِيَّةُ الْهَيْدَايَةِ: إِنَّ لُوقًا مِنَ السَّبْعِينَ؟
عمانوييل: يا سَيِّدِي، اسْتَدَلَّتْ هَذِهِ الْجَمْعِيَّةُ عَلَى هَذِهِ الدَّعْوَى فَقَالَتْ: وَالذَّلِيلُ عَلَى
ذَلِكَ اخْتِصَاصَ لُوقًا بِذِكْرِ السَّبْعِينَ تَلْمِيذًا.

القَسُّ: وَأَنْتَ أَيْضًا يَا عَمَانُوئِيلُ تَذَكُرُ هَذَا الْكَلَامَ بِفَمِكَ؟! هَلْ كُلُّ مَنْ يَنْفَرِدُ وَيَخْتَصُّ
بِذِكْرِ قِصَّةٍ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا فِيهَا وَمَنْ رَجَالُهَا؟ لا، يَا عَمَانُوئِيلُ، بَلْ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ
الْقِصَّةِ الْمَهْمَّةِ مِنْ أَعْمَالِ الْمَسِيحِ إِذَا لَمْ تَذَكُرْهَا ثَلَاثَةَ مِثْلِ الْأَنْجِيلِ الْمَهْمَّةِ بِتَأْرِيخِ
الْمَسِيحِ وَدَعْوَتِهِ، فَالْأَوْلَى أَنْ نَهْتَمَّ مَنْ يَنْفَرِدُ بِهَا.
يَا عَمَانُوئِيلُ، إِنَّ أَصْحَابَ الْمُضْحَكَاتِ يَذَكُرُونَ أَنَّ مَغْفَلًا قَالَ لِأَهْلِهِ: إِنَّ فِي
دَارِنَا سَارِقًا.

قالت له: من أين علمت؟ وما هو دليلك؟

قال: إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: إِنَّ السَّارِقَ إِذَا مَشَى فِي الدَّارِ لَا يَسْمَعُ صَوْتَهُ، وَهِيَ أَنَا الْآنَ لَا
أَسْمَعُ صَوْتًا.
يَا عَمَانُوئِيلُ، أَتَرْضَى أَنْ تَكُونَ حَجَّتَنَا عَلَى نَبْوَةِ لُوقًا هُوَ أَنَّ الْأَنْجِيلَ لَمْ تَذَكُرْ قِصَّةَ
السَّبْعِينَ تَلْمِيذًا.

عمانوييل: يا سَيِّدِي، وَهَلْ تَسْمَحُ لِي بِأَنْ أَذْكَرَ لَكَ بَقِيَّةَ احْتِجَاجِ جَمْعِيَّةِ كِتَابِ
الْهَيْدَايَةِ عَلَى نَبْوَةِ لُوقًا مُلَخَّصًا؟
القَسُّ: قُلْ مَا عِنْدَكَ وَإِنْ كُنْتُ لَا أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ.

عمانوييل: يَقُولُونَ: إِنَّ لُوقًا رَافِقَ بُوَلُسَ إِلَى مَقْدُونِيَّةٍ وَإِلَى رُومِيَّةٍ، وَإِنَّ الرُّسُلَ كَانُوا
يَمْنَحُونَ الرُّوحَ الْقُدُسَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ سِبِيلا رَفِيقَ بُوَلُسَ نَبِيًّا، وَكَانَ الْأَنْبِيَاءُ كَثِيرِينَ،
وَكَانَ لِفِيلِبُّسَ أَرْبَعُ بَنَاتٍ عِزَارَى يَتَنَبَّأْنَ.

فينتج من كل ذلك أن لُوقًا كَتَبَ إنجيله بإلهام الروح القدس.

القَسُّ: هَلْ تَرْضَى لِشَرَفِكَ أَنْ تَحْتَجَّ لِهَذِهِ النَتِيجَةِ بِهَذِهِ الْمَقْدَمَاتِ؟

عمانوييل: يَا سَيِّدِي، هَلْ ادَّعَى لُوقًا النَبْوَةَ؟ وَهَلْ ظَهَرَتْ مِنْهُ آيَةٌ؟

القَسُّ: لا، يَا عَمَانُوئِيلُ، لَيْسَ لِذَلِكَ أَثَرٌ، بَلْ إِنَّهُ افْتَتَحَ إِنْجِيلَهُ بِصُورَةٍ أَنَّهُ مُؤَرِّخٌ

ينقل التاريخ عن غيره من الناس فقال:

إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّة في الأمور المُتَيَقِّنة عندنا. كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخذّاماً للكلمة. رأيْتُ أنا أيضاً إذ قد تتبَّعتُ كلَّ شيء بتدقيق أن أكتبَ على التوالي إليك أيّها العزيز تَؤوْفِلسُ^١.

عمانوئيل: يا سيّدي، إن أصحابنا يقولون: إن مَرْقُسَ مُخْتَصَّ بِبُطْرُسَ الرسول وكان معه في رُومِيَّة، وُلُوقًا مختصّ ببُولُسَ ولا بُدَّ من أن يكون بُطْرُسَ اطَّلَعَ على إنجيل مَرْقُسَ وصدّق عليه، ولا بدَّ من أن يكون بُولُسَ اطَّلَعَ على إنجيل لُوقًا وصدّق عليه، فيكون هذان الإنجيلان معصومين بسبب تصديق الرسولين بُطْرُسَ وبُولُسَ عليهما.

القس: واخجلناه، إذ رجع أمرنا إلى الدعاوي التخمينيّة الوهميّة في مثل قولنا: لا بدَّ من أن يكون بُطْرُسَ وبُولُسَ اطَّلعا على إنجيلي مَرْقُسَ وُلُوقًا وصدّقا عليهما.

يا عمانوئيل، من أين يحصل العلم بأن مَرْقُسَ وُلُوقًا كتبا إنجيليهما في حياة بُطْرُسَ وبُولُسَ؟ ومن أين نعلم أن بُطْرُسَ وبُولُسَ اطَّلعا على إنجيل مَرْقُسَ وُلُوقًا؟ ومن أين نعلم أن بُطْرُسَ وبُولُسَ صدّقا على هذين الإنجيلين؟

وأيضاً يا عمانوئيل، ستعرف الكلام في بُولُسَ، وأن تصديقه لا يفيد شيئاً.

يا عمانوئيل، وهناك أمر كبير ممّا يحول بيننا وبين تصحيح هذه الأناجيل، وهو أن نوصل هذه الأناجيل وكتاب أعمال الرُّسل بالسند الصحيح إلى متى ومَرْقُسَ وُلُوقًا ويوحنا، وغاية ما عند أصحابنا المسيحيين أنهم يتشبّهون لصحة سندها بأن جماعة من الأساقفة القدماء أوردوا في كتبهم كلمات من الأناجيل.

فمن الجيل الأوّل الذين أدركوا زمان التلاميذ اكليمندس، وهرماس، وغناتايوس، وابوليكاربوس.

ومن الجيل الثاني: بابياس، ويوستين، وابرينيوس، واثنينغوروس.

ومن الجيل الثالث: اورجينوس، وديونيسيوس، وعريغوروس.

ومن الجيل الرابع: اوسابيوس، وهيلاريس.

وقد بذل أصحابنا جهدهم في جمع أسماء هؤلاء للاستشهاد بهم كما في الجزء الأول من كتاب الهداية صحيفة ١٥٥ - ١٥٧ والجزء الثالث صحيفة ١٢٣ و ١٢٤.

وغاية ما تحصل من الاستشهاد هؤلاء هو أنّه قد وردَ في كتبهم كلمات تشبه بعض كلمات الأناجيل، من دون نصّ ولا إشارة إلى أنّها مأخوذة من هذه الأناجيل الموجودة، انظر إلى الجزء الثالث من كتاب الهداية صحيفة ١٨١ - ٢٠٢.

عمانوئيل: يا سيّدي، وهل يثبت الكتاب الكبير بأجمعه ويكون قطعي السند ومتواتراً، بواسطة أنّه توجد كلمات قليلة تشبه بعض كلماته في كتب ثلاثة رجال أو أربعة؟ يا سيّدي، ومن هؤلاء الرجال؟ ومن أين علمنا أنّ الكتب المنسوبة لهم هي لهم حقيقة؟

القسّ: يا عمانوئيل، سأل هذا السؤال من أصحابنا، والعجب إنك تسأله مني.

أليعازر: يا سيّدي، إني أتأسّف كثيراً؛ لأنّه لا يوجد لأناجيلنا الموجودة سند متّصل، لا ظني ولا قطعي.

عمانوئيل: يا سيّدي الوالد، ممّا يسرّنا ويهجننا ويقوّي إيماننا برسالة سيّدنا المسيح وقداسة تلاميذه، هو أنّ هذه الكتب لا يصلح لها سند، بحيث لا يتيسّر لكلّ أحدٍ أن يوصل لها سنداً ظنّياً إلى تلاميذ المسيح وإلى تعاليم المسيح. وإني ليسرّني اضطراب أصحابنا في ذلك وتشبّههم بالواهيات، بحيث يظهر فشلهم في دعواهم لكلّ باحث بحريّة ضمير.

صحّة الأناجيل خطر على قدس المسيح

يا سيّدي الوالد، ولو كانت لنسبة هذه الأناجيل صورة صحّة، لكنّا على خطرٍ في ادّعائنا رسالة المسيح وقده.

أليعازر: كيف ذلك يا عمانوئيل، فإنك تتكلّم بشيء كبير جديد؟

عمانوئيل: هل تسمح بالحريّة في جوابك؟ وإن كنت لا تسمح لي فإني أسكت، ولكن أرجو من مراحمك أن لا تسألني بعد ذلك ولا تكلمني في هذا الموضوع، فتشعل في قلبي ناراً لا تسمح لي أن أطفئها بالبيان.

أليعازر: تكلم يا حبيبي يا عمانوئيل بكلّ حرّية، فأني أعرفك حرّ الضمير، بريئاً من وبال التقليد ورتائل العصبية، وقد أكّد لي ذلك شهادة سيّدي القسّ باستقامتك في سيرك في طريق الحقّ.

عمانوئيل: أسألك يا سيّدي الوالد، ماذا تقول وماذا نقول إذا قال لنا اليهود من أهل الديانة التوحيدية: إنّ مسيحكم يسوع - وحاشاه - لا يمكن أن يكون نبياً ولا مقدّساً في ديانة توحيدية، بل ولا مؤحّداً؛ وذلك لأنّه صحّ عنه في أناجيل متى ومَرْقُس ولوقا أنّه يقول ويعلم بتعدّد الأرباب، وقد حرّف جهاراً لفظ المزامير، لكي يُلْفَق له حجّة على تعدّد الأرباب.

وأيضاً قد صحّ عنه في إنجيل يوحنا أنّه يقول ويعلم بتعدّد الآلهة، وقد غيرّ جهاراً معنى كلام المزامير؛ لكي يُلْفَق حجّته على دعواه تعدّد الآلهة، وقد مرّ هذا كلّه في صحيفة ٨٨ - ٨٩.

يا والدي، وماذا نقول لو قال لنا أهل جميع الديانات: إنّ مسيحكم يسوع - وحاشاه - لا يمكن أن يكون مقدّساً مطلقاً؛ لأنّه مُحَرّف للكلام جهاراً، متناقض التعليم في الإلهية، فقد علّم في الأناجيل بتعدّد الآلهة والأرباب، وحرّف المزامير كما سمعت، وعلّم أيضاً بوحدة الربّ والإله. ففي العدد التاسع والعشرين من الفصل الثاني عشر من إنجيل مَرْقُس قال أول كلّ الوصايا: «اسمع يا إسرائيل الربّ إلهنا ربّ واحد».

وقال في العدد الثالث من الفصل السابع عشر من إنجيل يوحنا:

وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.

يا سيّدي، هل يُمكن لمن يؤمن بمجد المسيح وقدهس إلا أن يدافع عن قدسه ببراءته من تلك الأمور الكاذبة، ويعترف بأنّ هذه الأناجيل لا صحّة لسندها؟

يا سيّدي الوالد، ولم تكتفِ أناجيلنا في تلوّث قدس المسيح بما ذكرناه، بل إنّها نسبت إليه أموراً لا يرضى ذو الشرف من سائر الناس أن تنسب إليهم، فهل تسمح لي يا سيّدي الوالد بأن أذكرها؟

أليعازر: يا ولدي، إنّي أحبُّ الوقوف على الحقائق بالبحث الحرّ، ولكنّي يصعب عليّ أن أحقق الخلل في أناجيلنا المقدّسة.

القسّ: يا أليعازر، إنّ حوادث الأيّام وتلاعب الأهواء أخرجت أمر الأناجيل عن اختيارك والجريان على ما تُحبّ، فإنّ ولدك الموقّف عمانوئيل قد بيّن لك أنّك إن حرصت على شرف الأناجيل وصحّة سندها وصدّقت نسبة تعاليمها إلى المسيح، فقد خسرت شرف سيّدنا المسيح وقده؛ لأنّها يتّضح منها كونها تعاليم إنسان مُحَرَّف للكلام في اللفظ والمعنى، متناقض التعليم، يعلم تارةً بتوحيد الربّ والإله، ويعلم تارةً أخرى بالشرك وتعدّد الأرباب والآلهة بحجّة واهية مزوّرة.

وإذا خسرت شرف المسيح وقده، فما هي حاجتك في صحّة نسبة الأناجيل إلى مثل هذا الإنسان.

يا أليعازر، إنّ هواء التعصّب وبائي، والسلامة إنّما هي بأن تعترف بخلل نسبة الأناجيل إلى سيّدنا المسيح، وتحفظ شرفه وقده وإيمانك به.

أليعازر: يا عمانوئيل، إنّ موعظة سيّدنا القسّ قد فتحت عيني، فقل ما عندك. عمانوئيل: إنّ الأناجيل قد نسبت لسيّدنا المسيح أموراً لا يليق أن تُنسب لقُدسه وكرامة نبوّته، لا أقول ذلك فقط، بل لا أرضى أن تُنسب لي ولأمثالي. وإنّك أيضاً بعد البيان لا ترضى أن تنسب إليك، وإنّي أذكر لك من ذلك أموراً:

[الأمر] الأوّل: [الأناجيل والطلاق]

جاء في الفصل التاسع عشر من إنجيل متى:

وجاء إليه الفريسيّون ليُجَرِّبوه قائلين: هل يحلُّ للرجل أن يطلق امرأته لكلّ سبب؟ فأجاب وقال لهم: أما قرأتم أنّ الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى. وقال لأجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً. إذاً ليسا بعد اثنين بل جسداً واحداً فالذي جمعه الله لا يُفَرِّقه إنسان. قالوا له: فلماذا أوصى موسى أن يُعطى كتاب طلاقٍ فتُطلق؟ قال لهم: إنّ موسى من أجل

قَسَاوَةٌ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَطْلُقُوا نِسَاءَكُمْ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْبَدْءِ هَكَذَا وَأَقُولُ لَكُمْ: مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلَّا لِسَبَبِ الزَّنى وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى تَزْنِي^١.

وجاء نحوه في الفصل العاشر من إنجيل مَرْقُس^٢.

يا والدي، ما معنى قول هذا الكاتب: إِنَّ الرجل وامرأته يصيران جسداً واحداً وإِنَّهما ليسا بعدُ اثنين؟ هل نغالط حواسنا؟ وهل يصير نصفَ جسدٍ مَنْ تموت امرأته أو يطلِّقها لسبب الزنى؟

وأيضاً ما معنى قوله: ما جمعه الله لا يُفَرِّقه إنسان؟ إذا فكيف يفترقه الإنسان بسبب زنى المرأة؟

وأيضاً إِنَّ اليهود لم يقولوا: إِنَّ المجتمعين بعلقة الزواج الذي شرَّعه الله نحنُ نفرِّقهما على خلاف الشريعة ونضطهد الشريعة بتفريقهما، بل يقولون: إِنَّ الله الذي شرَّع الزواج لمصالح النوع والاجتماع وجمع بين الزوجين بعلقة شرعيَّة، راعى أيضاً حكمة العدل، واستراحة المتلى بقرين السوء، ومصالحة التناسل عند عقم أحد الزوجين مثلاً، وغير ذلك من الحكم، فشرَّع الطلاق كما تقول أيُّها المسؤول: إِنَّ الله شرَّعه عند زنى الزوجة، وإِنَّك تعترف بأنَّ الطلاق شرَّعه الله بتبليغ موسى رسوله.

فما هذا الذي يبلغنا عنك في معارضة شريعته وحكمته العادلة الموجبة لاستراحة البشر، وانتفاعهم بمادَّة التناسل، وقطع الخصومات المقلقة، والسلامة من سرابة الأمراض المهلكة، والابتلاءات الشاقَّة؟

وماذا تقول أنت؟ وما هي الحاجة إلى التشبُّثات الواهية التي لا معنى لها؟ فقل: إني رسول الله كموسى وقد نسخ الله شريعة الطلاق، فانظروا في أمر رسالتي وحبَّتْها وصدقي في دعواها.

ولا تقل: «إِنَّ موسى من أجلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَطْلُقُوا نِسَاءَكُمْ». فإِنَّنا نقول لك: أين ذهبت القساوة؟ أما إِنَّها تزداد يوماً فيوماً، هؤلاء تلاميذ المسيح

الاثني عشر الذين يقول الإنجيل فيهم عن قول المسيح: إنهم ملح الأرض ونور العالم^١،
وها هي الأناجيل تصفهم - عن قول المسيح - بقساوة القلوب وغلظها، وقلة الإيمان
وعدمه حتى بمقدار حبة خردل، وأنهم لا إيمان لهم^٢.

ما تقول أيها الكاتب إذا كان الباعث على الطلاق رقة القلب ورحمته الصميّة:
رجلٌ عرف نفسه أنه عقيم، أو انعاب منه جهاز التناسل، أو سقطت قوة التناسل منه
بالكلية، أو عرض له العنن الدائم وعنده امرأة شابة ولود، تحنّ إلى النسل، وإلى قضاء
الوطر من الشهوة الطبيعيّة، فرحمها ذلك الرجل، وأراد برحمته ومروءته وعدله أن
يطلقها برغبةٍ منهما؛ لكي تقرّ عينها بالنسل وحفظ النوع، وتنال نصيبها في حياتها من
اللذة الطبيعيّة.

رجلٌ به مرض رديء سارٍ، وعنده امرأة شابة، فأراد برحمته أن يحفظ صحتها
بالطلاق؛ لأنّه لا يمكن انفصال المرأة عن الرجل - على ما يقتضيه الحجر الصحي -
بدون وقوع المرأة في تعاسة العيش وانقطاع النسل واللذة.

رجلٌ حُكِمَ عليه بالحبس الأبدي، وعنده امرأة شابة، تبقى بعده في تعاسة العيش
والفقر وعدم الكافل، وانقطاع النسل، والحرمان من لذة الحياة، فأراد برحمته ورقة قلبه
أن يطلقها؛ لكي ينقذها من هذه الابتلاءات الباهضة ولذلك أمثال كثيرة.

فماذا تقول أيها الكاتب في هذه الموارد؟ هل تستثنيتها من المنع عن الطلاق؟ أراك
لم تستثن إلا زنى المرأة، فجعلت الوسيلة إلى الطلاق هتك الشرف والستر.

أو يبقى الرجل مبتلىً بامرأة كثيرة الزنى، حيث لا يقدر أن يُثبت زناها؟ وربّما
توصّل الرجل إلى خلاصه من امرأته العفيفة بأن يرميها بالزنى؛ لكي يقبل منه طلاقها،
كما يذكر التاريخ ذلك عن أحد مشاهير العالم لما رأى امرأته لا تلد.

يا والدي، هذا من أحوال الأناجيل مع سيّدنا المسيح.

يا والدي، ربما كان النزاع والشقاق بين الرجل وامرأته بمنزلة مرض الشقاق لوز في

١. إنجيل متى ٥: ١٣ و ١٤ (منه ❀).

٢. ذكر حال التلاميذ في صحيفة ١٤٠ - ١٤٢؛ وفي الجزء الأول من كتاب الهدى صحيفة: ٤٨ - ٥٣ (منه ❀).

المجتمع الإنساني والراحة العائليّة في هذه الحياة، فكيف لا تسوّغ الشريعة فصل هذا المرض وقطع سريانه الوبيء؟!

يا والدي، وما معنى قوله: «ولم يكن من البدء هكذا»؟^١ فهل كلّ ما لم يكن في البدء يلزم أن لا تجيء به شريعة؟ قد كانت أخلاق آدم وحواء ملتزمة فلم يرد طلاقهما، وما يدريك أنّه كان ممنوعاً عن طلاقها شرعاً لو أراه.

[الأمر] الثاني: الاحتجاج لأحوال القيامة

ذكر إنجيل لوقا في الفصل العشرين: أن اليهود الصدّوقيّين المُنكّرين للقيامة سألوا المسيح: إنَّ المرأة إذا ماتت وتزوَّجها أخوه، ثمَّ مات الثاني وتزوَّجها الأخ الثالث وهكذا إلى الأخ السابع، ثمَّ ماتت المرأة فلايُّ واحدٍ من السبعة تكون المرأة زوجةً في يوم القيامة؟ فأجاب المسيح بأنَّ أبناء هذا الدهر يُزوَّجون ويُزوَّجون الذين حسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات لا يُزوَّجون ولا يُزوَّجون؛ إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضاً؛ لأنَّهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة.^٢

يا والدي، ما هو وجه الحجّة على عدم الزواج في القيامة بأنَّ القائمين من الموت لا يستطيعون أن يموتوا أيضاً؟ فهل يمتنع الزواج عقلاً أو عادةً على من لا يموت من نوع الإنسان؟ وما معنى نسبة الموت إلى استطاعتهم؟ وما معنى كونهم مثل الملائكة؟ هل يُريد أنَّهم حينئذٍ أرواح مجردة؟ يا والدي وهذا إنكار للقيامة من الأموات والمعاد الجسماني الذي عليه العهد الجديد.

وما معنى كون أبناء القيامة أبناء الله؟ هل يُريد أن غير الأبرار لا يقومون من الأموات؟ إذا فأين صراحة الأناجيل والعهد الجديد بأنَّ الأشرار أيضاً يقومون للدينونة؟

١. إنجيل متى ١٩: ٩.

٢. العدد ٢٨-٣٧.

وهل يُريد أنّ الأبرار والأشرار يكونون أبناء الله؟ إذا فأين ما تذكره الأناجيل والعهد الجديد من دينونة الأشرار والجزاء حسب الأعمال وجهنّم النار التي لا تطفأ؟ يا والدي، فهل يتكلّم الرسول بمثل هذه الحجج الواهية؟

أليعازر: إنّ إنجيل متى في الفصل الثاني والعشرين^١ وإنجيل مَرْقُس في الفصل الثاني عشر^٢ لم يذكر في جواب المسيح للصدّوقيين إلّا قوله: «لأنّهم في القيامة لا يُرَوِّجُونَ ولا يَتَزَوَّجُونَ بل يكونون كملائكة السماء».

عمانوئيل: يا سيّدي الوالد، ماذا تُريد أن تقول بهذا الكلام؟ هل تُريد أن تقول: إنّ الزيادة التي في إنجيل لوقا ليست من كلام المسيح، بل هي زيادة غلطيّة في الإنجيل وافتراء على تعليم المسيح؟

يا والدي، إذاً فلا ينبغي الاعتماد على إنجيل لوقا في شيء، وهذا هو الذي نحن بصدده، لكن يا والدي، يبقى السؤال أيضاً على إنجيل متى ومَرْقُس بأنّه ما معنى كون القائمين في القيامة كملائكة السماء؟

الأمر الثالث: الاحتجاج للقيامة

ذكر إنجيل متى^٣ وإنجيل مَرْقُس^٤ وإنجيل لوقا^٥ في الفصول المذكورة أنّ المسيح احتجّ للقيامة على الصدّوقيين الذين ينكرونها فقال:

وأما من جهة أنّ الموتى يقومون أفمّا قرأتم في كتاب موسى في أمر العليقة كيف كلّمه الله قائلاً: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. ليس هو إله أموات بل إله أحياء.

وزاد في لوقا قوله: «لأنّ الجميع عنده أحياء».

١. العدد ٣٠.

٢. العدد ٢٥.

٣. الأصحاح ٢٢، العدد ٣١-٣٢.

٤. الأصحاح ١٢، العدد ٢٦-٢٧.

٥. الأصحاح ٢٠، العدد ٣٧-٣٨.

يا والدي، ألا ترى أنه يتوجّه على هذا الاحتجاج ردّان كبيران يخجلان عوامّ الناس:
أما الردّ الأوّل فنقول فيه: لماذا لا يكون الله إله الأموات؟ أو ليس الله إله كلّ شيء،
سواء كان حيّاً أو فاقد الحياة؟

أليس في المزمور المائة والسابع والأربعين: **إِنَّ اللَّهَ إِلَهٌ صِهْيُونُ** «مدينة داود»؟^١
أليس في المزمور الخمسين: **إِنَّ اللَّهَ إِلَهٌ آلِهَةٌ**؟^٢

وفي الفصل الثاني من سفر دانيال^٣ والحادي عشر من رؤيا يوحنا^٤: **إِنَّ اللَّهَ إِلَهُ السَّمَاءِ**.
وفي الفصل الحادي عشر من إنجيل متى^٥ والعاشر من إنجيل لوقا^٦: **إِنَّ اللَّهَ رَبُّ**
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ «مع أنّ الأصنام والمريخ والزهرة والمشتري والشمس والسما
والأرض جماد لا أرواح فيها».

وأما الردّ الثاني فنقول فيه: متى كان إبراهيم وإسحاق ويعقوب قائمين من الموتى
عندما قال الله لموسى: **أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب**؟ أليس من الضروري
المعلوم أنّهم في ذلك الوقت كانوا في قبورهم أمواتاً؟ وإتّما يقومون من الأموات
في يوم القيامة يوم الجزاء والدينونة، فهل تكون الحجّة على القيامة من الأموات بمثل
هذه الواهيات؟

القسّ: يا عمانوئيل، إذا أغمضنا النظر عن الردّ الأوّل، فإنّه يمكن أن يُريد من حياة
إبراهيم وإسحاق ويعقوب بقاء نفوسهم بعد الموت، لا قيامهم من الأموات.

عمانوئيل: يا سيّدي، إنّ الاحتجاج إنّما هو للقيامة من الأموات، لا لبقاء النفس بعد
الموت، فلماذا يذهل هذا المحتجّ عن وجه كلامه؟

يا سيّدي، ولماذا نغمض النظر عن الردّ الأوّل؟ يا سيّدي هل يكون احتجاج المسيح

١. العدد ١٢.

٢. العدد ١.

٣. العدد ٢٨ و ٣٧.

٤. العدد ١٤.

٥. العدد ٢٥.

٦. العدد ٢١.

للقِيامة من الأموات محتاجاً إلى قوله: «سامحوني» في الردِّ الأوَّل «وسامحوني» في
الذهول الثاني؟

يا سيدي أخرجك كثيراً إذا نظرتُ إلى نقل أناجيلنا لهذا الاحتجاج الواهي عن
المسيح في أمر القيامة.

من احتجاج القرآن على القيامة

يا سيدي، انظر إلى احتجاج القرآن على القيامة بمثل قوله في سورة مريم المكيّة:
«وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ
وَلَمْ يَكُ شَيْئًا»^١.

وقوله في سورة يس: «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ
رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ»^٢.

هذا الاحتجاج الذي يمشي مع الفيلسوف في فلسفته، ومع العاصي في وجدانه.
وها هو القرآن يخبر عن حال النفس إخباراً يسطع بالاحتجاج الكافي على بقاء
النفس بعد الموت، فإنه يقول في سورة الزمر المكيّة: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا
وَأَلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا»^٣، فنبهنا بذكر النوم العادي لكلِّ البشر في كلِّ الأيّام إلى أن
النفس يمكن بقاؤها مع احتجاجها عن تصرّفها المعتاد بالبدن كما في حالة النوم، وبذلك
يلفت أنظارنا إلى حالة الإغماء.

الأمر الرابع: احتجاج في الإنجيل عن المسيح

ذكر في الفصل الثامن من إنجيل يوحنا: أن الفرّيسيّين قالوا للمسيح:
أنتَ تشهدُ لِنَفْسِكَ وشهادتكَ ليستَ حقّاً فقال لهم: ... في ناموسكم مكتوبٌ: أن
شهادةَ رَجُلَيْنِ حقٌّ أنا هو الشَّاهدُ لِنَفْسِي ويشهدُ لي الأبُّ الذي أرسلني^٤.

١. الآيات ٦٦-٦٧.

٢. الآيات ٧٨-٧٩.

٣. الآية ٤٢.

٤. العدد ١٣-١٩.

يا والدي، هل يوجد في الناموس أنّ المدّعي يكون شاهداً لنفسه؟ هل يوجد هذا في قضاء ملّة من الملل؟ هل يقول هذا واحد من عوامّ الناس وأوباشهم؟
يا والدي، وينضمّ إلى هذه الاحتجاجات الواهيات ما ذكرته الأناجيل من أنّ المسيح - وحاشاه - احتجّ على ربوبيّته وإلهيّته وتعدّد الأرباب والآلهة بتلك الاحتجاجات التحريفية الكذبيّة، كما تقدّم في صحيفة ٨٨، وما تقدّم في صحيفة ١٤٠ من أنّ المسيح كان يُجلس يوحنا الحبيب في حضنه ويتركه يتدلّل عليه ويتكئ على صدره، ويوحنا إذ ذاك في غضارة الشباب ونعومة الجسد أهكذا تكون عقّة الرُّسل وتأديبهم لتلاميذهم وتعليمهم للناس العقّة؟

الأناجيل وقدس المسيح

وهذا إنجيل لوقا يذكر في الفصل السابع: أنّ امرأة خاطئة جاءت إلى المسيح ووقفت عند قدميه باكيةً وابتدأت تُقبّل قدميه وتبّلها بالدموع وتمسّحها بشعر رأسها وتدهنهما بالطيب، حتّى أنّ صاحب البيت أنكر هذا العمل من امرأة خاطئة مع شابّ عمره نحو الثلاثين سنة، ولكن المسيح - وحاشاه - صار يُويّخه ويشكر محبّتها الكثيرة^١.

يا والدي، هل هذا العمل من تعليم التوبة والقداسة والعقّة؟ أو كما يقال: إنّ الغرام لأهله فضّاح.

وهذا إنجيل يوحنا في الفصل السابع ينسب الكذب إلى المسيح - وحاشاه - حيث يذكر: أنّ إخوة المسيح قالوا له: اصعد إلى هذا العيد، فقال: لا أضعد إلى هذا العيد ثمّ صعد متخفياً^٢.

يا والدي، إنك كثيراً ما تنهاني عن شرب الخمر، وتشرح لي مضرتها الكبيرة في الشرف والعقّة والهدى والقداسة والوقار، وتذكر لي مذمة العهد القديم لشربها

١. العدد ٣٧-٤٨.

٢. العدد ٢-١٠.

وتوبيخ شاريبيها، وتمجيد العهد الجديد لِيُوَحِّثَ المَعْمَدَان - يحيى بن زكريّا - بأنّه لا يشرب مسكراً.

إذاً فما بال أناجيلنا تذكر أنّ المسيح - وحاشاه - كان شَرِيبَ خمرٍ، وأنّه قال فيها في آخر عمره قولَ العاشق المودّع لها، المتأسّف على فراقها؟ انظر يا والدي إلى الفصل الحادي عشر^١ والسادس والعشرين^٢ من إنجيل متى، والسابع^٣ والثاني والعشرين^٤ من إنجيل لوقا، والرابع عشر^٥ من إنجيل مَرْقُس.

يا والدي، هل يسرّك أن تكون أناجيلنا صادقة متّصلة السند إلى الوحي والإلهام، وهي تَلَوِّثُ قدس المسيح بهذه العظائم؟

وأزيدك يا والدي، إنّ العدد الحادي والثلاثين من الفصل الخامس من إنجيل يوحنا ينسب إلى المسيح قوله: «إِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي لَيْسَتْ حَقًّا».

وفي العدد الرابع عشر من الفصل الثامن من نفس إنجيل يوحنا أيضاً ينسب إلى المسيح قوله: «إِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَقٌّ».

يا والدي، أليس هذا من التناقض الذي لا يرضاه عوامّ الناس لأنفسهم؟

القسّ: يا عمانوئيل، هل رأيت كلام جمعيّة الهداية في هذا المقام صحيفة ٢٤١ و

٢٤٢ من الجزء الأوّل؟

عمانوئيل: يا سيّدي، وهل رأيت كتاب الهدى صحيفة ٢٧٤ - ٢٧٥ من الجزء

الأوّل؟ وهل كلام جمعيّة الهداية إلّا من أسباب خجلنا أيضاً؛ إذ لم يكن فيه شيء من

الربط ومعرفة وجه الكلام، بل كان محشوراً بالتناقض؟

وأزيدك يا والدي، إنّ العدد الثلاثين من الفصل الثاني عشر من إنجيل متى، والعدد

الثالث والعشرين من الفصل الحادي عشر من إنجيل لوقا ينسبان إلى المسيح قوله: «من

١. العدد ١٩.

٢. العدد ٢٧.

٣. العدد ٣٤.

٤. العدد ٢٠.

٥. العدد ٢٣.

ليس معي فهو عليّ، ومن لا يجمع معي فهو يفرّق».

يا والدي، والعدد الأربعين من الفصل التاسع من إنجيل مَرْقُس، والعدد الخمسين من إنجيل لُوقَا ينسبان أيضاً إلى المسيح قوله فيمن لم يتبعه ولم يؤمن به: «من ليس علينا فهو معنا»، ألا تنتظر يا والدي إلى التناقض بين هذين الكلامين؟

وأيضاً إنَّ الفصل التاسع من إنجيل مَتَّى^١، والعاشر من إنجيل مَرْقُس^٢، والثامن عشر من إنجيل لُوقَا^٣ جاء فيها أنّ بعض الناس قالوا للمسيح: «أيها المعلم الصالح» فأنكر عليه ذلك وقال: «لماذا تدعونني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلاّ واحد هو الله».

وهذا مناقض لما يذكره الفصل الثاني عشر من إنجيل مَتَّى^٤، والسادس من إنجيل لُوقَا^٥ عن قول المسيح: «الإنسان الصالح».

ومناقض أيضاً لما يذكره الفصل العاشر^٦ من إنجيل يُوحنَّا مكرّراً عن قول المسيح: «أما أنا فأنتي الراعي الصالح».

يا والدي، هل ترضى بأن يكون كلام المسيح متناقضاً؟ لكن يا للأسف أرى أناجيلنا ترضى بذلك.

وأيضاً ذكر إنجيل لُوقَا في الفصل الثامن عشر من أوّله إلى العدد الثامن: أنّ المسيح علّم تلاميذه بالصلاة كلّ حين ولا يملّ. وضرب لهم مثلاً بقاضٍ ظالم مع امرأة لا ينصفها من خصمها فأزعجته بالإلحاح فأنصفها لأجل إلحاحها. فألله ينصف سريعاً مختاربه الصارخين إليه نهائراً وليلاً.

وضرب أيضاً في الفصل الحادي عشر مثلاً بمن يلجّ في الطلب ويعطى لأجل لجاجته^٧.

١. العدد ٢٣.

٢. العدد ١٧.

٣. العدد ١٨.

٤. العدد ٣٥.

٥. العدد ٤٥.

٦. العدد ١١.

٧. العدد ٨-٩.

وذكر في الفصل الحادي والعشرين: أن المسيح أمر تلاميذه بالتضرع إلى الله كل حين^١. وقد نصّ في الفصل السادس والعشرين من إنجيل متى على أن المسيح في ليلة هجوم اليهود عليه قد عاود الصلاة لأن تعبر عنه كأس المنية في ثلاث مواقف^٢. ونصّ الفصل الرابع عشر من إنجيل مرقس على أنه عاودها أيضاً^٣. ونصّ في الثاني والعشرين من إنجيل لوقا على أن المسيح كان حينئذ يصلي لأجل أن تعبر عنه كأس المنية بأشدّ لاجاة^٤. أن مقتضاه أنه كرّر هذا الطلب في كل موقف مراراً كثيرة.

يا سيدي، وهذا الذي ذكرته الأناجيل الثلاثة من تعليم المسيح وعمله مناقض لما ذكر في العدد السابع والثامن من الفصل السادس من إنجيل متى في بعض التراجم العربية عن تعليم المسيح وقوله:

وحينما تُصلّون لا تكثرُوا الكلام باطلاً كالأمم؛ فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم. فلا تشبهوا بهم؛ لأنّ أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه. وفي الترجمة التي طبعها وليم واطس في لندن سنة ١٨٥٧ على النسخة المطبوعة في رومية سنة ١٦٧١ هكذا: «وإذا صلّيتم فلا تكثرُوا الكلام مثل الوثنيين...» إلى آخره. وفي ترجمة هنري مارتن في طبقات متعدّدة: «هرگاه نماز میکنی مانند مردم قبائل کلمات زائده مگوئید...» إلى آخره.

يا والدي، وهذا الكلام الأخير الذي ذكره إنجيل متى يُستنتج منه أمور أربعة: أوّلها: أنّ تعليمه يناقض التعليم المتقدّم عن إنجيل لوقا بالإلحاح بالصلاة وضرب الأمثال لذلك.

ثانيها: أنه يناقض ما ذكرته الأناجيل من عمل المسيح ليلة هجوم اليهود عليه.

١. العدد ٣٦.

٢. العدد ٣٩-٤٢.

٣. العدد ٤٠.

٤. العدد ٤٢-٤٤.

ثالثها: فساد حجته وتعليله، فإنه احتجّ وعلّل منعه من تكرار الصلاة الكلاميّة بأنّ الله يعلم ما يحتاجون قبل أن يسألوه.

يا والدي، وإنك لتعلم أنّ هذا التعليل يقتضي أن لا يتكلّم أحد في الصلاة لحاجته؛ لأنّ الله يعلم بضمير صاحب الحاجة وطلبتة قبل أن يتكلّم بل يقتضي أن لا يصلّي أحد لحاجة حتّى في ضميره؛ لأنّ الله يعلم ما يحتاجه قبل أن يسأله.

وإنّ هذا التعليل لو كان صحيحاً معقولاً في الأمور الدنيّة، لوقف أمام المسيح نفسه في ليلة هجوم اليهود وقال له: لماذا هذا الجهاد واللجاجة في الصلاة لأجل النجاة من كأس المنية، فإنّ الله يعلم ما تحتاج إليه قبل أن تسأله.

أليعازر: إنّي وكلّ مُتدينٍ نعرف بالبداهة أنّ الصلاة والدعاء ليست لأجل تفهيم الله بالحاجة، ولا لأجل تنبيهه، ولا لأجل إسماعه، فإنه العالم بما في النفوس ولكنّ الدين والعقل شرّعا الصلاة في الحاجات لأجل أن تستحكم رابطة العبد مع مولاه في العبادة، ومعرفة أنّه مالك أمره ووليّ نفعه ودفع الضرّ عنه، فتدوم له السعادة والشرف بمناجاة المولى العظيم، ولأجل انقطاعه إلى الله وعبادته بالدعاء يقضي الله حاجته.

عمانوثيل: إذا يا والدي فأنت تبيّن أنّ هذا التعليم الأخير وتعليله ليس بصحيح، ولا يمكن أن يكون نبويّاً ووحياً إلهيّاً.

ورابعاً: إنّ إنجيل متى يذكر: أنّ المسيح لما علّم بهذا التعليم ونهى عن تكرار الكلام في الصلاة علّم بالصلاة الربانيّة.

وإنّ إنجيل لوقا يذكر في الفصل الحادي عشر: أنّ المسيح لما علّم تلاميذه الصلاة الربانيّة، صار يضرب لهم المثل لاستجابة الصلاة بأنّه إذا جاء إنسان إلى صديقه في نصف الليل وطلب منه حاجة، فإنّ الصديق مهما تناقل واعتذر، فإنه يقوم ويقضي الحاجة من أجل لجاجة الطالب، ثمّ قال: «اسألوا تُعطوا، أقرعوا يُفتح لكم».

فإنجيل متى يقول: إِنَّ الْمَسِيحَ حِينَمَا عَلَّمَ بِالصَّلَاةِ الرَّبَّانِيَّةِ عَلَّمَ بِالنَّهْيِ عَنِ اللَّجَاجَةِ وَتَكَرَّرَ الْكَلَامَ بِالصَّلَاةِ^١.

وإنجيل لوقا يقول: إِنَّ الْمَسِيحَ حِينَمَا عَلَّمَ بِالصَّلَاةِ الرَّبَّانِيَّةِ عَلَّمَ بِاللَّجَاجَةِ، وَضَرَبَ مَثَلًا مَضمونهُ وَمفهومهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ بِاللَّجَاجَةِ فِي الصَّلَاةِ وَطَلَبَ الْحَاجَةَ^٢.

سوء الأمثال في الإنجيل

أليعازر: يا ولدي، إِنَّ الْقَاعِدَةَ الْأَدْبِيَّةَ فِي ضَرْبِ الْمَثَلِ عِنْدَ الْعَوَامِّ وَالْخَوَاصِّ، أَنْ يُرَاعِيَ مَنَاسِبَةَ الْمَثَلِ لِمُورِدِ التَّمْثِيلِ وَالتَّشْبِيهِ، وَيَعْيَبُونَ الْمَثَلِ الَّذِي لَا يَنَاسِبُ، وَيَعْدُونَهُ مِنْ سُوءِ الْفَهْمِ وَبَسَاطَةِ الْمَغْفَلِينَ الْقَاصِرِينَ. أَلَا تَسْمَعُ الْمَثَلِ الَّذِي يَضْرِبُهُ النَّاسُ لِسُوءِ الْفَهْمِ وَقَلَّةِ الْإِدْرَاكِ وَهُوَ: أَنْ بَعْضَ الْمَغْفَلِينَ أَرَادَ أَنْ يُشَهِّيَ ضَيْفَهُ لِأَكْلِ الرُّطْبِ بِمَدْحِ الرُّطْبِ وَبَيَانِ نَضْجِهِ بِشِدَّةِ سُوَادِهِ فَقَالَ لَهُ: كُلْ هَذِهِ الرُّطْبَةَ فَإِنَّهَا مِثْلُ الْخَنْفَسَاءِ، أَلَا تَرَى دَبْسَهَا يَكَادُ يَسِيلُ مِثْلَ الْمَخَاطِ.

يا ولدي، فَمَا بِالْإِنْجِيلِ لُوقَا يُرِيدُ أَنْ يُعَرِّفَنَا رَحْمَةَ اللَّهِ وَرَأْفَتَهُ فِي اسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ، فَيَضْرِبُ لَهُ الْمَثَلِ مَرَّةً بِقَاضٍ ظَالِمٍ يَقْضِي حَاجَةَ الْمَرْأَةِ مِنْ أَجْلِ ضُجْرِهِ مِنْ لِحَاجَتِهَا، وَمَرَّةً بِرَجُلٍ مُتَشَاوِلٍ مُتَضَجِّرٍ مِنْ حَاجَةِ صَاحِبِهِ وَلَكِنَّهُ يَتَكَلَّفُ قَضَاءَهَا مِنْ أَجْلِ ضُجْرِهِ مِنَ اللَّجَاجَةِ.

عمانوئيل: يَا وَالِدِي، إِنَّ أَنَا جِيلِنَا لَمْ تَقْتَصِرْ فِي سُوءِ التَّمْثِيلِ عَلَى هَذَا، بَلْ إِنَّ إِنْجِيلَ مَتَّى فِي الْفَصْلِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ^٣، وَإِنْجِيلَ مَرْقُسَ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي عَشْرَةَ، وَإِنْجِيلَ لُوقَا فِي الْفَصْلِ الْعِشْرِينَ^٥ ذَكَرْتُ مِنْ تَعْلِيمِ الْمَسِيحِ إِشَارَتَهُ إِلَى حَالِ النَّاسِ الْمُتَمَرِّدِينَ، وَمَعَامَلَتِهِمْ مَعَ الْمَسِيحِ وَمِنْ قَبْلِهِ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ لِأَجْلِ تَكْمِيلِ الْعِبَادَةِ

١. ٢. تقدماً أنفاً.

٣. العدد ٣٣ - ٤٠.

٤. العدد ١ - ٨.

٥. العدد ٩ - ١٥.

ودلاتهم على أسباب سعادتهم، فضربَ المسيح لذلك مثلاً حاصله:

إِنَّ إِنْسَانًا غَرَسَ كَرْمًا وَبَنَى حَائِطَهُ وَبُرِجَهُ وَمَغْصَرَتَهُ وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَغَاب عَنْهُمْ فَأَرْسَلَ بَعْضَ عِبِيدِهِ لِيَأْخُذُوا مِنْ ثَمَرِ الْكَرْمِ. فَضَرَبُوهُمْ وَقَتَلُوا ثُمَّ أَرْسَلَ آخَرِينَ ففَعَلُوا بِهِمْ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَالَ صَاحِبُ الْكَرْمِ مَاذَا أَفْعَلُ أَرْسَلْتُ ابْنِي الْحَبِيبَ لَعَلَّهُمْ يَهَيِّئُونَ ففَعَلُوا ذَلِكَ الْإِبْنِ.

يا سيدي الوالد، إِنَّ الله لم يُرسل رُسُلَهُ لِيَأْخُذُوا مِنْ ثَمَارِ النَّعْمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيَّ عِبَادِهِ، بَلْ أَرْسَلَ رُسُلَهُ لِيَكَلِّمُوهُمْ وَيَسْعِدَ الْعِبَادَ أَنْفُسَهُمْ بِثَمَارِ تِلْكَ النَّعْمِ. وَلَا يَنْسَابُ جَلالُ اللهِ أَنْ يَضْرِبَ لَهُ الْمِثْلَ بِقَوْلِ صَاحِبِ الْكَرْمِ قَوْلَ الْمُتَحَيِّرِ: «مَاذَا فَعَلَ» وَلَا يَقُولُ صَاحِبُ الْكَرْمِ الْمُتَوَهَّمِ «أَرْسَلَ ابْنِي الْحَبِيبَ لَعَلَّهُمْ يَهَيِّئُونَ» فَيُخَيِّبُ رَجَاؤُهُ وَيُنْكَشِفُ وَهْمَهُ وَيَسْقُطُ تَدْبِيرَهُ وَتَسْتَمِرُّ حَيْرَتُهُ لَا، يَا وَالِدِي، إِنَّ مِثْلَ الْخُنْفَسَاءِ وَالْمَخَاطِ أَقْلٌ قَبْحًا مِنْ هَذِهِ الْأَمْثَالِ.

أليعازر: يا عمانوئيل، إِنَّ أَنَا جِئْنَا قَدْ تَضَمَّنْتَ الدَّعْوَةَ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَإِلَى التَّوْبَةِ وَخَوْفِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ، وَعَلَّمْتَ كَثِيرًا بِحَسَنِ الْأَخْلَاقِ وَحَسَنِ السَّلُوكِ مَعَ النَّاسِ، وَالْهُدُوءِ وَالْوَدَاعَةِ فَلِمَاذَا لَا تَكُونُ هَذِهِ التَّعَالِيمُ الصَّالِحَةَ شَاهِدَةً أَنَّ الْأَنْجِيلَ كَلِمًا مِنْ وَحْيِ اللهِ وَتَعَالِيمِ الْمَسِيحِ؟

عمانوئيل: يَا وَالِدِي، إِنَّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَكْتُبَ كِتَابًا يَنْسِبُهُ إِلَى تَعَالِيمِ الْمَسِيحِ وَكِتَابَةَ تَلَامِيذِهِ الصَّالِحِينَ عَنِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ، لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكْتُبَ فِيهِ شَيْئًا صَالِحًا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونُ مُوَافِقًا لِلْمَعْرُوفِ وَالْمَسْمُوعِ مِنْ تَعْلِيمِ الْمَسِيحِ وَالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ وَالدِّيَانَةِ الَّتِي يَرِيدُ الْكَاتِبُ أَنْ يَكْتُبَ فِيهَا.

وَلَا يُمْكِنُ لِمِثْلِ هَذَا الْكَاتِبِ فِي خَطئِهِ وَعَمْدِهِ أَنْ يَتَمَحَّصَ كِتَابَهُ لِغَيْرِ التَّعَالِيمِ الصَّالِحَةِ، وَلَكِنْ بَعْضُ التَّأثيراتِ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَظْهَرَ ذَاتَهَا وَمَقْدَارُهَا لِلشُّعُورِ عَلَى قَدْرِ جُودَتِهِ وَسَلَامَتِهِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ الْمُورِوثَةِ.

وَهَا هِيَ الْأَنْجِيلُ لَا يَزِيدُ الْوَاحِدَ مِنْهَا عَلَى مَقْدَارِ مَجَلَّةٍ شَهْرِيَّةٍ أَوْ أُسْبُوعِيَّةٍ، وَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا لَوَّثَ بِهِ قُدْسَ الْمَسِيحِ مِنَ التَّعْلِيمِ بِتَعَدُّدِ الْأَرْبَابِ وَتَعَدُّدِ

الآلهة، والاحتجاج لذلك بالحجّة الواهية وما لوّثت به قُدسه من الاحتجاجات الساقطة، وسوء التمثيل، ومنافيات العفة والقداسة، وتناقض الكلام والتعليم، وإنّ الاستقصاء في الدرس ليُكشَف عن أكثر من ذلك.

هذا، مع غُضّ النظر عن اختلاف كُتَبِ الأناجيل في ذكر الحوادث التّاريخيّة والأقوال المنقولة، اختلافاً لم يقدر أصحابنا على أن يستروه بـ«ليت» و«لعل».

يا والدي، دَعُ عنك نسبة هذه الأناجيل إلى الإلهام وتعاليم المسيح وما ذكرته من القدرح بإيمان التلاميذ الأحد عشر، فإنّها مجتمعة ومُنفردة تركتنا بحسب خللها الداخلي لا نقدر أن ننسبها لكُتَبِ عارفين لُقُدس المسيح، عارفين للاحتجاج، عارفين لمواقع التمثيل، عارفين لآداب العفة وحقوق الوالدين.

القَس: يا عمانوئيل، إنَّكَ تتسرّع في البيان وتهتك الحجاب دفعةً واحدةً، وربما لا يكون هذا صالحاً في حكمة الإرشاد وكشف الحقيقة. فإنّ الحالات الموروثة لا ينبغي أن تعالجها بالشدّة وتتابع البيان، وإنّ الضمير المقهور بالموروثات لا يتحمّل هذه الأمور إذا أُلقيت عليه دفعةً واحدة. بل الواجب أن تُلاطف النفوس بخفيف البيان التدريجي، وحسن الإشارة إلى الحقيقة، إلى أن تضع أقدامها في طريق الحقائق فستير في طلبها سير المشتاقين، مراعيةً، صفاء الوقت.

عمانوئيل: يا سيّدي، إنّي أتكلّم لنفسي ولوالدي ولنجاتنا وتصفية معارفنا، وأنا واثق بمقدار من تصفية ضمائرنا من أكدار الموروثات. وإنَّكَ أنتَ الذي صَفَيْتَنَا بحكمتكَ الفائقة ولُطف إشارتك، حتّى ملأتَ قلوبنا من الشوق إلى الحقيقة، وأوضحتَ لنا طريقها ودرّبتنا في جادّتها.

وحينئذٍ أفلا نجدُ في السير إلى المقصود المحبوب؟ وهل يتوانى العطشان عن السير إلى المورد البارد العذب؟

وما عليّ من الناس إذا كُنْتُ أسعى لنجاتي، ومن أين لي مثل صبرك؟ وإنَّكَ إن تصبر فلأجل أنّكَ على بصيرة من أمرك، قد بلغتَ المقصود ووردتَ المنهل، تنتظر فرصة الوقت في إظهار الحقّ وإرشاد الجاهلين. وإنّا قد أوثقتنا الوقت من التمتع بالحرّيّة العامّة

التامة، فلماذا لا تتكلم؟ فمتعنا أيضاً أنتَ بحرّيةِ قداستك يا سيّدي.

القسّ: يا عمانوئيل، ليس من الجيّد أن تقول: «ما عليّ من الناس إذا كنتُ أسعى لنجاتي» بل إنّ الدين يوجب عليك أن تُحبّ لغيرك ما تُحبّ لنفسك من النجاة. بل إنّ الدين والعقل يوجبان عليكَ نصر الحقّ، والجهاد في سبيل سلطانه على البشر، وتقدّم نفوذه في الأرض، وسيادته على الأفكار.

عمانوئيل: العفو يا سيّدي، فإنّي قلتُ: «ما عليّ من الناس» حينما أسعى أنا والذي لأجل تبصّرنا في معرفة الحقّ، وخلاصنا من هلكات الأوهام بتثبيت معارفنا على أساس الحقيقة. وأمّا نظرنا إلى إرشاد الناس، فإنّما يحسن منا بعد أن نحكم أساسياتنا في الدين.

القسّ: عُدْ إلى كلامك يا عمانوئيل، وفكك الله وسدّدك.

تعليم الإنجيل وضرورة المدنيّة والاجتماع

عمانوئيل: وأمّا قولك يا والدي: إنّ الأناجيل علّمت كثيراً بحسن الأخلاق وحسن السلوك مع الناس والهدوء والوداعة.

فلا يخفى أنّ تعليم المسيح بذلك الذي نقله التلاميذ لا يمكن أن تكون حقيقته الفاتحة كما هو مكتوب، فإنّ التعليم الصحيح من هذا ما يجري على حدود الحقيقة، ولا يضيّعها بالإفراط كما تضيّع بالتفريط، وهذا إنجيل متى يذكر في الفصل الخامس عن المسيح أنّه قال:

سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ: لَا تَقَاوِمُوا الشَّرَّ بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الْآخَرَ أَيضاً. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرِكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيضاً^١.

وذكر نحوه إنجيل لوقا في الفصل السادس^٢.

١. العدد ٣٨ - ٤٠.

٢. العدد ٢٩ و ٣٠.

يا والدي، وأنتَ ترى ما في هذا التعليم من المبالغة والإفراط المضّر بنظام الاجتماع، وهل يخفى على العارف أنّ الاجتماع لا ينتظم مع تمام الخضوع للشّرِّ والأشْرار؟ بل لا يستغني حسن الاجتماع عن شيء من مدافعة الشّرِّ والأشْرار وإرهابهم بقانون القصاص والتأديب، مع الوصيّة بفضيلة العفو وملاطفة العواطف بحيث يعطى كلّ مقام حقه من صالح الدفاع والسياسة وفضيلة العفو وجميل الصبر.

فلا يصحّ في القانون الأساسي في النبوّة العامّة أن يعلم بمحض الصرامة والشدّة في أعمال القصاص، بدون إشارة إلى فضيلة العفو، كما جرى في التوراة الرائجة، حيث علّمت بالقصاص كما في الفصل الحادي والعشرين من سفر الخروج^١، والرابع والعشرين من سفر اللاويين^٢، والتاسع عشر من سفر التثنية^٣، ولم تُشر إلى العفو ولا إلى فضيلته. كما لا يصحّ أن يعلم بمثل ما ذكرناه في الإنجيل الرائج من رفض شريعة التوراة في القصاص، مع التعليم بهذا الخضوع الواهي والمسكنة السخيفة بهذه المبالغة.

القس: يا عمانوئيل، هل رأيتَ في كُتب الوحي قانوناً معقولاً في هذا المقام؟

العفو ونظام الاجتماع، والقرآن

عمانوئيل: يا سيّدي، هذا القرآن الذي ينسبه المسلمون إلى الوحي ويرفضه أصحابنا، ها هو قد حاز الفضيلة في هذا المقام، فقد شرّع القصاص وأبان حكيمته الفائقة في المدنية والاجتماع، وندب إلى فضيلة العفو والصبر بالنحو الصالح، فقال في الآية السادسة والعشرين بعد المائة من سورة النحل المكيّة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَا سِنَ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

وقال في الآية التاسعة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

١. العدد ١٢-٢٦.

٢. العدد ١٧-٢٢.

٣. العدد ٤-١٣.

فإنَّ قوله: ﴿حَيَوَةٌ﴾ يستلقت العقول الغافلة إلى حكمة القصاص وشريعته، وإنه وإن كان إيلاماً للمعتدي لكنه إيلام بحق، وسبب لزجر الأشرار عن الجرأة على سفك الدماء البريئة والإفساد في حياة البشر، فهو بهذه الحكمة حياة للبشر وروح لراحتهم في اجتماعهم. فمنَّ الهين أن يموت شخص المعتدي الظالم أو يتألم بشريعة القصاص، كما يقطع العضو الفاسد حفظاً لحياة الإنسان من عدوى وباء دائه.

وقد جعل القرآن إيضاحه لهذه الحكمة الفائقة في شريعة القصاص بياناً؛ لأنَّ حسن العفو الخصوصي لا يصحَّ إبطال هذه الشريعة الراجعة إلى نظم المجتمع الإنساني وحفظ حياته. وقال القرآن في سورة البقرة أيضاً قبل الآية السابقة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ أَلْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَنِ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَى بِغَدْوٍ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فبين أنَّ القصاص شرع مكتوب؛ لكي يقوم بحكمته، ولأجل الرحمة والتخفيف بالنحو الذي لا يبطل حكمة تشريعه سوَّغ لصاحب الحق تعليماً بكرم الأخلاق أن يعفو عن الجاني مطلقاً أو بالتنازل إلى الدية.

وقد أكَّد القرآن ندبه للإحسان بالعفو وكظم الغيظ، ولكن كَلَّه بالنحو المعقول والطريقة المستقيمة، فمن ذلك ذكر في أخلاق المتقين وإحسانهم قوله: ﴿وَأَلْكَنْظِيمِينَ أَلْغَيْظِ وَالْأَغَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^١.

أليعازر: يا عمانوئيل، إنِّي أحبُّ أن تدرِّس الأناجيل من أولها على الترتيب بمحضر سيدنا القس، وإنك وإن درست الآن كثيراً منها، وذكرت من داخليتها ما فيه الكفاية، ولكن درسها على الترتيب أتمَّ في الفائدة.

عمانوئيل: وأنت ماذا تأمر يا سيدي القس، أفلا يكفيننا ما ذكرناه من أمرها؟

القس: أطع أمر أبيك يا عمانوئيل، فإنه يُريد أن يزداد بصيرةً.

نسب المسيح

عمانوئيل: فقرأتُ في أوّل إنجيل متى قوله: «كتاب ميلاد المسيح بن داود بن إبراهيم»^١، ثم أخذ يذكّر الآباء وتعدادهم من إبراهيم إلى يوسف النجار^٢.

فقلت: يا سيدي القس، أيتة مداخلة لنسب يوسف النجار في ميلاد المسيح من العذراء مريم؟ وكيف يكون المسيح بهذا النسب ابن داود وابن إبراهيم؟ هل يجحد متى عذراوية مريم وولادة المسيح من غير فحل؟ وهل يقول: إن المسيح متولد من يوسف النجار، وبه يتصل نسبه إلى داود؟

القس: لا، يا عمانوئيل، فإنّ متى يذكر في هذا المقام أنّ مريم حملت بالمسيح من الروح القدس قبل أن تجتمع مع خطيبتها يوسف.

عمانوئيل: يا سيدي، إذاً فما ذكر هذا النسب إلا لغو من الكلام، وهل يكون في الوحي الإلهي لغو؟ ولماذا لم يذكر نسب المسيح الحقيقي من ناحية أمّه إلى داود وإبراهيم؟ يا سيدي، تركنا هذا، ولكنّ متى لم يتعرّض في هذا النسب لذكر الأُمّهات، فلماذا تعرّض لولادة فارص من تامار، ووبوعز من زاحاب، وعوبيد من زاعوث، وسليمان من التي لأوريا^٣؟

القس: يقول بعض كتبتنا: إنّ متى نصّ على هذه النساء الأربع، لأنهنّ غريبات، لسنّ من بني إسرائيل وإبراهيم.

عمانوئيل: يا سيدي، إن سليمان ولد زحبقام من نعمة العموتية^٤، وهي غريبة أيضاً، فلماذا لم يذكرها إلهام الرسول متى عند ذكر زحبقام؟
القس: فما عندك يا عمانوئيل في ذلك؟

١. العدد ١.

٢. الأصحاح الأوّل، العدد، ٢-١٦.

٣. الأصحاح الأوّل، العدد ٣-٦.

٤. الأصحاح الأوّل، العدد ٧.

عمانوئيل: عجباً، هل يكون سيدي القس لا يدري بما أشار إليه متى ممّا ذكره العهد القديم، ومعاذ الله أن أشير إليه، دعنا من هذا يا سيدي.
وأيضاً يقول متى: «وَيُوشِيَا وَلَدِيكُنْيَا وَإِخْوَتَهُ عِنْدَ سَبْيِ بَابِلَ وَبَعْدَ سَبْيِ بَابِلَ يَكُنْيَا وَلَدَ سَأَلْتَيْثِيل»^١.

مع أنّ صريح الفصل الثالث من سفر الأيام الأول أنّ يَكُنْيَا هو ابن يَهُوَيَاقِيمَ بن يُوْشِيَا^٢، كما هو صريح الفصل السادس والثلاثين من أخبار الأيام الثاني وسمّاه «يَهُوَيَاكِين»^٣، وصريح الفصل الرابع والعشرين من الملوك الثاني^٤ والفصل الثاني والعشرين^٥ والسابع والعشرين^٦ من إزميا وسمّاه «كُنْيَاهُو»، والرابع والعشرين وسمّاه «يَكُنْيَا»^٧. وكانت ولادة يَهُوَيَاكِين يَكُنْيَا قبل سبي بابل بنحو ثمان عشرة سنة لا عند سبي بابل.

هذا، وإذا طابقنا النسب الذي ذكره إنجيل متى مع النسب الذي ذكره إنجيل لوقا في الفصل الثالث، وجدنا بينهما اختلافاً كبيراً، فإنّ إنجيل لوقا يقول: إنّ يوسف النجار هو ابن هالي^٨، وأوصل آباءه إلى نائان بن داود وعدّهم أربعين أباً^٩.

القس: إنّ بعض كتبتنا يقولون: إنّ هالي هو أبو مريم أمّ المسيح، ولكن لوقا ذكره أباً ليوسف بن يعقوب باعتبار أنّ مريم كانت مخطوبة ليوسف.

عمانوئيل: يا سيدي، هذا الكاتب كيف رأى هذا الطيف الذي لم يره الأسلاف من العلماء الذين لم يزالوا متحيرين في اختلاف إنجيلي لوقا ومتى في نسب يوسف النجار؟ ومن أين عرف هذا الكاتب أنّ أباً مريم اسمه هالي؟ وأنّ النسب المذكور في لوقا هو

١. الأصحاح الأول، العدد ١١ و ١٢.

٢. العدد ١٥ و ١٦.

٣. العدد ٨.

٤. العدد ٦.

٥. العدد ٢٤.

٦. العدد ٢٠.

٧. العدد ١.

٨. العدد ٢٣.

٩. العدد ٣١-٣٨.

نسب هالي؟ وأيّ تأريخ معروف يذكر ذلك؟ وكيف يخلط الوحي بمثل هذا في الأنساب فينسب يوسف إلى غير أبيه وغير نسبه؟

يا سيّدي، والذي يُستنتج من الفصل الأوّل من إنجيل لوقا هو أن تكون مريم من نسل هارون من سبط لاوي، لا من نسل داود من سبط يهوذا، فإنّه يصرّح في العدد الخامس بأنّ أليصابات زوجة زكريّا هي من نسل هارون.

ويصرّح في العدد السادس والثلاثين بأنّ أليصابات نسيبة مريم، فإنّ مشاركتها في النسب تقتضي أن تكون مريم من بنات هارون أيضاً.

ويعضد ذلك أنّ اكتسايين - الذي هو من بني القرن الرابع للمسيح - قال: إنّه صرّح في بعض الكتب التي كانت توجد في عهده أنّ مريم من قوم لاوي.

القسّ: إنّ الفصل الأوّل من إنجيل لوقا يصرّح في العدد الثلاثين إلى الثالث والثلاثين: بأنّ ملاك الله قال لمريم في شأن المسيح: إنّ الله يعطيه كرسيّ داود أبيه. وهذا يقتضي أن تكون مريم من بنات داود، فإن انتساب يوسف النجّار إلى داود لا ربط له بالمسيح.

عمانوئيل: قد تقدّم في صحيفة ٨٩ أنّ أناجيل متى ومَرْقُس ولوقا قد اتّفقت على أنّ المسيح أنكر على الناس والكتّبة قولهم بأنّ المسيح الموعود به يكون من نسل داود، واستشهد بقول الزمير وقال: إذا كان داود يدعوه بالروح ربّاً فكيف يكون ابنه؟ القسّ: يا عمانوئيل، ما أدري ماذا أقول، فإنّ اختلاف أناجيلنا لا يدعنا نتكلّم، اقرأ يا عمانوئيل.

إنجيل متى والعهد القديم

عمانوئيل: فقرأتُ في أواخر الفصل الأوّل: إنّ ملاك الله قال ليوسف النجّار في الحلم في شأن ولادة المسيح^١:

وهذا كُلُّهُ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: هُوَ ذَا الْعَذْرَاءُ تَحِبُّ وَتَلِدُ ابْنًا
وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عَمَّا نُوثِلَ الَّذِي تَفْسِيرُهُ اللهُ مَعْنَا^١.

فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي، أَيْنَ أَجِدُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ؟

الْقَسْ: تَجِدُهُ فِي الْعَدَدِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الْفَصْلِ السَّابِعِ مِنْ كِتَابِ إِشْعِيَاءَ، فَاقْرَأْهُ
وَتَأْمَلْ فِي سَوْقِهِ وَمُورَدِهِ، فَهَلْ تَرَاهُ يُرِيدُ وِلَادَةَ الْمَسِيحِ؟ وَالْعَمْدَةُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى
الْأَصْلِ الْعِبْرَانِي.

عَمَّا نُوثِلَ: أَحْضَرْتُ الْأَصْلَ الْعِبْرَانِي وَنَظَرْتُ فِي الْفَصْلِ السَّابِعِ مِنْ كِتَابِ إِشْعِيَاءَ
وَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي، إِنِّي مُتَّبِعٌ لِلْعَهْدِ الْقَدِيمِ فِي الْأَصْلِ الْعِبْرَانِي، وَكُلُّ مَقَامٍ يَتَعَلَّقُ غَرَضُهُ
بِخُصُوصِ الْعَذْرَاءِ يَقُولُ: «بِتَوْلَةٍ»^٢، وَهَاهُوَ يَقُولُ فِي الْمَقَامِ مِنْ إِشْعِيَاءَ «الْعَلْمَةُ»، وَمَعْنَاهَا
الْفَتَاةُ وَالشَّابَّةُ، وَلَمْ يَقُلْ: «بِتَوْلَةٍ»، فَلِمَاذَا يُجْعَلُهَا إِنْجِيلَ مَتَّى الْعَذْرَاءِ؟

وَأَيْضاً يَا سَيِّدِي، مَا سَمِعْنَا أَحَدًا سَمَّى الْمَسِيحَ عَمَّا نُوثِلَ، بَلِ سَمِّيَ يَسُوعَ، فَأَيْنَ
صَدَقَ الْمَلَكَ وَإِنْجِيلَ مَتَّى؟

وَأَيْضاً إِنَّ كَلَامَ إِشْعِيَاءَ كَانَ يُخَاطَبُ بِهِ سَبْطُ يَهُوذَا وَمَلِكِهِمْ آحَازَ، مِنْ أَجْلِ اتِّفَاقِ
مَلِكِ أَرَامَ وَمَلِكِ إِسْرَائِيلَ عَلَى مُحَارَبَتِهِمْ، فَأَعْطَاهُمْ عَلَامَةً بِأَنَّ هَذَا الْمَوْلُودَ قَبْلَ أَنْ
يَعْرِفَ أَنْ يَرْفُضَ الشَّرَّ وَيَخْتَارَ الْخَيْرَ، تَخْلِي الْأَرْضَ الَّتِي يَخَافُونَ مِنْ مَلِكِهَا، بِسَبَبِ
تَسَلُّطِ مَلِكِ أَشُّورَ عَلَى أَرَامَ وَإِسْرَائِيلَ، وَيَسْطُ مَلِكُ أَشُّورَ جَنَاحِيهِ مَلءَ بِلَادِ عَمَّا نُوثِلَ،
كَمَا ذَكَرَ أَيْضاً فِي الْفَصْلِ الثَّامِنِ مِنْ إِشْعِيَاءَ.

وَبِمَقْتَضَى الْفَصْلِ السَّادِسِ عَشَرَ^٣ وَالسَّابِعِ عَشَرَ^٤ مِنْ سَفَرِ الْمُلُوكِ الثَّانِي أَنْ مَلُوكَ
أَشُّورَ سَبَّوْا دِمَشْقَ وَالسَّامِرَةَ وَأَخْلَوْهُمَا بِالسَّبْيِ، وَقَتَلُوا مَلِكَ أَرَامَ وَسَجَنُوا مَلِكَ إِسْرَائِيلَ.

١. العدد ٢٢-٢٣.

٢. كما في سفر اللاويين ٢١: ٣ و١٣ و١٤: سفر تثنية الاشتراخ ٢٢: ١٩ و٢٣ و٢٨: سفر القضاة ١٩: ٢٤ و

٢١: ١٢: مزامير داود: ١٤٨: كتاب إرميا ٣١: ٢١: مراني إرميا ١: ١٥ و١٨ و٢: ١٠ و١٣: سفر عاموس ٨: ٣،

وغير ذلك (منه ❀).

٣. العدد ٩.

٤. العدد ٥.

يا سيدي، وبالمناسبة أقول أيضاً: ذكر إنجيل متى في الفصل الثاني:

لأنَّهُ هَكَذَا مَكْتُوبٌ بِالنَّبِيِّ. وَأَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ يَهُودًا لَسْتِ الصَّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ
يَهُودًا لِأَنَّ مِنْكَ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَزْعَمِي شَعْبِي إِسْرَائِيلَ.^١

ولا يوجد في العهد القديم ما يشبه هذا الكلام، إلا ما يوجد في العدد الأول في
الأصل العبراني في الفصل الخامس من كتاب ميخا.

ولكن بين الكلامين مخالفة كبيرة، فإنّ ترجمة كتاب ميخا حرفياً تكون هكذا:
وَأَنْتِ بَيْتَ لَحْمٍ أَفْرَاتَةَ صَغِيرٍ لَكُونُوكِ بِاللُّوفِ يَهُودًا مِنْكَ لِي لِيَخْرُجَ لِيَكُونَ
مُسَلِّطاً بِإِسْرَائِيلَ.^٢

وهذه المخالفة تكون من التحريف، فهل كان التحريف في كتاب ميخا أو في إنجيل متى؟
وذكر أيضاً في هذا الفصل:

إِنَّ مَلَاكَ الرَّبِّ أَمَرَ يُوسُفَ أَنْ يَأْخُذَ الْمَسِيحَ إِلَى مِصْرَ. وَكَانَ هُنَاكَ إِلَى حِينَ مَوْتِ
هِيرُودُسَ لِكِي يَتَمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: مِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي.^٣
يا سيدي، وهذا الكلام جاء في أوّل الفصل الحادي عشر من كتاب هوشع، وقد
كان قبل المسيح بما يزيد على سبعمائة سنة، وأصل الكلام هكذا: «لَمَّا كَانَ إِسْرَائِيلُ
عُغْلَاماً أَحْبَبْتُهُ وَمِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي».

ومن المعلوم أنّ المقصود من هذا الكلام إنقاذ بني إسرائيل من عبوديتهم في مصر،
كما يشهد له أيضاً مجرى الكلام في هذا الفصل.

وقد جاء في العدد الثاني والعشرين والثالث والعشرين من الفصل الرابع من سفر
الخروج: أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ مُوسَى أَنْ يَقُولَ لِفِرْعَوْنَ: «هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: إِسْرَائِيلُ ابْنِي الْبِكْرُ
فَقُلْتُ لَكَ: أَطْلِقْ ابْنِي».

١. العدد ٥ و ٦.

٢. العدد ٢.

٣. إنجيل متى ٢: ١٣-١٥.

٤. العدد ١.

وذكر متى أيضاً في هذا الفصل:

أَنْ هِيرُودُسَ قَتَلَ جَمِيعَ الصِّبْيَانِ الَّذِينَ فِي بَيْتِ لَحْمٍ وَفِي كُلِّ تَحْوَمِهَا ... وَجِيئِنْذِ
تَمَّ مَا قِيلَ بِإِرْمِيَا النَّبِيِّ الْقَائِلِ: صَوْتُ سُمِعَ فِي الرَّامَةِ نَوْحٌ وَبُكَاءٌ مُرٌّ وَعَوِيلٌ كَثِيرٌ
رَاحِيلُ تَبْكِي عَلَى أَبْنَانِهَا وَلَا تَرِيدُ أَنْ تَنْعَزَى لِأَنَّهَا لَيْسُوا مُوجُودِينَ.^١

وهل يخفى على سيدي أنّ هذا الكلام جاء في العدد الخامس عشر من الفصل
الحادي والثلاثين من كتاب إزميا.

ويا للعجب يا سيدي، ما هي المناسبة بين الرامّة التي هي في سَهْمِ سَبْطِ أَفْرَايِمَ بن
يوسف بن يعقوب من راحيل، وبين بيت لحم التي هي في سَهْمِ يَهُودَا، وبين القَرِيَّتَيْنِ
نحو ثلاثين ميلاً؟

وما هي المناسبة بين راحيل والذين في بيتِ لَحْمٍ، فإنّهم من سَبْطِ يَهُودَا من أبناء
لَيْئَةَ ضَرَّةَ رَاحِيلِ؟

مع أنّ العدد السادس عشر والسابع عشر من هذا الفصل من إزميا^٢ يقول على الأثر:
إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ بَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَبْنَاءَ يَرْجِعُونَ مِنْ أَرْضِ الْعَدَوِّ وَالسَّبْيِ إِلَى أَرْضِهِمْ. فما هي
المناسبة مع الأولاد المقتولين؟ يا سيدي، فهل إنجيل متى مُسَلِّطٌ على أن ينتهب الكلام
من مورد إلى آخر؟

هل يكون في كُتُبِ الوحي انتهاب؟

القسّ: يا عمانوئيل، قد وقع مثل هذا الانتهاب في العدد الثالث والثلاثين من الفصل
الثالث من أعمال الرُّسُل، حيث ذكرَ عن قول بُولُسَ: «أَقَامَ يَسُوعُ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي
الْمَزْمُورِ الثَّانِي أَنْتَ ابْنِي أَنَا الْيَوْمَ وَلِدْتُكَ».

ونحو ذلك في العدد الخامس من الفصل الخامس من رسالة العبرانيين.
وجاء أيضاً في أوّل رسالة العبرانيين المنسوبة لبُولُسَ، حيث احتجّ لفضل المسيح

١. أي في الفصل الأصحاح الثاني، العدد ١٦-١٨.

٢. أي الفصل الأصحاح ٣١.

على الملائكة بأن الله قال فيه ما لم يقل في الملائكة فقال:
 لِمَنْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَالَ قَطُّ أَنْتَ ابْنِي أَنَا الْيَوْمَ وَلِدَتُكَ وَأَيْضاً أَنَا أَكُونُ لَهُ أَباً وَهُوَ
 يَكُونُ لِي ابْناً^١.

يا عمانوئيل، وإنّ القول المذكور في العدد السابع من المزمور الثاني لا يمكن أن
 ينطبق على يسوع المسيح؛ لأنّ هذا القول أوحى لداود قبل ميلاد يسوع المسيح بأكثر
 من ألف سنة.

فإن أراد ولادة المسيح النبوية حين اعتماده من يوحنا «يحيى بن زكريا»، فهذا
 القول متقدّم عليها بأكثر من ألف وأربعين سنة.
 وإن أراد ولادة المسيح الأزلية - كما يقال - فهي سابقة على اليوم الذي أوحى فيه
 هذا القول لداود بسبق الأزل.

وعلى كلّ تقدير، ليس للمسيح في يوم هذا الوحي ولادة يصحّ أن يقول له: «أنا
 اليوم ولدتك»، فهذا القول إنّما هو لداود باعتبار ولادة الوحي، فإنّ داود يقول في هذا
 المزمور: «أخبر الحقّ الربّ قال لي أنت ابني أنا اليوم ولدتك»، ولكنّ الغارة والانتهاج
 لا تصعب على كثير من الناس.

عمانوئيل: يا سيدي، إنّ هذا المزمور قد جرى فيه قبل هذا الكلام ذكّر المسيح إذ
 يقول: «قام ملوك الأرض وتأمّر الرؤساء معاً على الربّ ومسيحه» فما هو الوجه في
 ذلك؟ وهل يكون مسيح الربّ غير سيّدنا يسوع؟

القسّ: المراد من المسيح في هذا المزمور هو داود نفسه، ويشهد لذلك أنّ داود
 سمّى نفسه في المزامير مسيح الله، كما في العدد الخمسين من المزمور الثامن عشر،
 والعدد العاشر من المزمور الحادي والثلاثين بعد المائة.

والمسيح: هو مَنْ يَمْسُحُونَهُ بِالزَّيْتِ، مَلِكاً أَوْ كَاهِناً أَلَا تَرَى أَنَّ دَاوُدَ قَدْ سَمَى شَاوُلَ
 مَلِكِ إِسْرَائِيلَ «مَسِيحَ الرَّبِّ» سَبْعَ مَرَّاتٍ، كَمَا فِي الْفَصْلِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ وَالسَّادِسِ
 وَالْعِشْرِينَ مِنْ سَفَرِ صَمُوئِيلِ الْأَوَّلِ، وَالْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنْ صَمُوئِيلِ الثَّانِي، بَلْ سَمَّاهُ بِذَلِكَ

صموئيل النبي مرتين، كما في العدد الثالث والخامس من الفصل الثاني عشر من سفر صموئيل الأول.

وجاء في المزمور الخامس بعد المائة عن قول الله: «لا تَمَسِّحُوا مسحائي». وفي أول الفصل الخامس والأربعين من كتاب إشعياء: «هكذا قال الرب لمسيحه لكورش الذي أَسَكَّتْ يمينه».

وأيضاً في المزمور التاسع والثمانين^١: «غضبت على مسيحك». وأصحابنا يقولون بأن داود قصد بالمسيح هنا نفسه؛ لأنهم لا يرضون للمسيح أن يكون الله يغضب عليه، وكيف يرضون بذلك وهو عندهم إله وأقنون الله؟

يا عمانوئيل، وأما قوله: «أَنَا أَكُونُ لَهُ أَبًا وَهُوَ يَكُونُ لِي ابْنًا» فقد جاء في العهد القديم في الفصل السابع من سفر صموئيل الثاني والسابع عشر من الأيام الأول، في خطاب الله لناثان النبي في شأن ابن داود الذي يبني بيت الرب في أورشليم.

وفي الفصل الثاني والعشرين من الأيام الأول صرَّح داود لسليمان بأنه هو المقصود بهذا الكلام، وأن الله سمَّاه سليمان بالصرحة.

وأيضاً أُخْبِرَ عن الله في الفصل الثامن والعشرين بقوله: «وقال: سليمانُ ابْنُكَ هُوَ يَبْنِي بَيْتِي وَدِيَارِي؛ لِأَنِّي اخْتَرْتُهُ لِي وَأَنَا أَكُونُ لَهُ أَبًا».

فيا للأسف على كتب العهد الجديد إذ تغتصب الحقائق من الكلام، اقرأ يا عمانوئيل ودعنا نتجرَّع العُصص.

سَيِّدَعِي ناصرياً

عمانوئيل: فقرأتُ آخر الفصل الثاني من متى قوله: «وأنتى وسكن في مدينة يُقال لها ناصرةٌ لكي يتِمَّ ما قيل بالأنبياء إنه سيُدعى ناصرياً»^٢. فقلت: يا سيدي، هل قيل في العهد القديم: إنَّ المسيح أو أحد الأنبياء أو المبشرين سيُدعى ناصرياً؟

١. العدد ٣٨ و ٥١ (منه ❀).

٢. العدد ٢٣.

القسّ: ليس لهذا الكلام عينٌ ولا أثر في العهد القديم، ولا تستغرب ذلك من إنجيل متى بعدما رأيت ما رأيت.

لا يغلط كتاب الوحي

عمانوئيل: يا سيّدي، وبالمناسبة أذكر أنّه ذكر في الفصل السابع والعشرين من إنجيل متى:

حِينَئِذٍ تَمَّ مَا قِيلَ بِإِزْمِيَا النَّبِيِّ الْقَائِلِ: وَأَخَذُوا الثَّلَاثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ ثَمَنَ الْمُتَمَنَّ الَّذِي تَمَنَّوهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَعْطَوْهَا عَنْ حَقْلِ الْفَخَّارِيِّ كَمَا أَمَرَنِي الرَّبُّ ١.

يا سيّدي، وهذا الكلام لا يوجد في كتاب إزميا أصلاً، ولكن يوجد ما يشبهه في بعض الألفاظ في الفصل الحادي عشر من كتاب زكريّا وهو هذا:

قَلْتُ لَهُمْ: إِنْ حَسَنْ فِي أَعْيُنِكُمْ أَعْطُونِي أُجْرَتِي وَإِلَّا فَامْتَنِعُوا فَوَزُّنُوا أُجْرَتِي ثَلَاثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ فَقَالَ لِي الرَّبُّ: أَلْقِهَا إِلَى الْفَخَّارِيِّ الثَّمَنَ الْكَرِيمَ الَّذِي تَمَنُّونِي بِهِ فَأَخَذْتُ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ وَأَلْقَيْتُهَا إِلَى الْفَخَّارِيِّ فِي بَيْتِ الرَّبِّ ٢.

وأنت إذا نظرت إلى العبارتين رأيت أنّ عبارة متى وعبارة زكريّا متضادتان في المعنى، متخالفتان في أكثر الألفاظ؛ فكيف يكون مثل هذا في الوحي والإلهام؟ كيف لا يعرف الوحي أنّ الكلام الذي حرّفت ألفاظه وبدّل معناه لا يوجد في كتاب إزميا، بل هو في كتاب زكريّا؟!

القسّ: اقرأ يا عمانوئيل، واسمع يا ألعازر وتبصّر فيما يجري في الكلام.

عمانوئيل^٣: بقي عندي سؤال وهو: أنّ إنجيل متى وإنجيل لوقا قد تعرّضا لتأريخ أحوال المسيح من أوّل حملته وولادته وطفولتيه إلى آخر أمره، فلماذا ينفرد كلّ منهما بذكر شيء مهمّ في تأريخ المسيح والبشرى به على نحو المعجز؟

١. العدد ٩ و ١٠.

٢. العدد ١٢ و ١٣.

٣. في الطبعتين السابقتين للكتاب وردت «القسّ»، والظاهر صحّة ما أثبتناه.

فهذا متى ذكرَ زيارة المجوس للمسيح في طفولتيه واعترافهم به، وطلب هيرودس لقتله، وقتل الأطفال من أجل طلبه، وأخذ يوسف أمه له إلى مصر.

وهذا لوقا لم يذكر شيئاً من هذا التاريخ الكبير المعجيد.

وهذا إنجيل لوقا ذكر خطاب الملائكة للرعاة وبشراهم لهم بالمسيح، وركز كلام سيمعان - الذي كان عليه الروح القدس - في البشري بالمسيح، وكلام حنة النبيّة مع أنّ متى لم يذكر شيئاً من ذلك، فلماذا يكون هذا يا سيدي؟

القس: يا عمانوئيل، إنّ مثل هذا الاختلاف بين الأناجيل كثير، ولكن يا عمانوئيل إنّ الأناجيل كثيراً ما تتفق على نقل خبرٍ واحدٍ وتختلف في نقله اختلافاً كبيراً يؤدي إلى التناقض، فهل يكون في الإلهام تناقض؟

أليعازر: ها نحن قرأنا فصلين من إنجيل متى، فاعترضتنا هذه الأمور المُدهشة الكبيرة، فكيف حالنا مع البقية من الأناجيل وباقي العهد الجديد؟ مع أنني لا أزال في حسرة الأسف ممّا ذكرتموه من تلوّث الأناجيل لقدس المسيح وتحريفها لكلام العهد القديم، كما ذكر فيما مرّ، ويزيد أسفي وحيرتي إذا أضفت إلى ذلك ما ذكرتموه من الاختلاف في استشهادات إنجيل متى بالعهد القديم في الفصلين الأوّلين منه.

القس: يا أليعازر، أمّا أسفك فلا أومك عليه، ولكن لا وجه لزيادة حيرتك؛ فإنّ هذه الأمور ترفع الحيرة وتعرف الإنسان رشده، اقرأ يا عمانوئيل.

متى، صوتٌ صارخٌ، وخلله

عمانوئيل: فقرأتُ في أوّل الأصحاح الثالث من إنجيل متى قوله: «في تلك الأيام جاء يوحنا المعمدانُ يكرز في برّيّة اليهوديّة بالتوبة» فوجدتُ فيه:

أَنْ يُوْحَنَّا هُوَ الَّذِي قَبِلَ عَنْهُ بِاشْغِيَاءَ النَّبِيِّ: صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً^١.

فقلت: يا سيّدنا القسّ ها هنا سؤالان:

السؤال الأوّل: أنّ متى كان يتكلّم في آخر الفصل الثاني في أيّام رجوع يوسف بالمسيح من مصر عند موت هيرودوس الوالي على اليهوديّة، وولاية ابنه أزيخيلأوس^١ وقد كان ذلك بعد ميلاد المسيح بنحو سنة، وقد كان عمر يوحنا المعمدان عند ذلك نحو سنة؛ لأنّه كان حملاً حينما كان المسيح حملاً، كما يصرّح بذلك الفصل الأوّل من إنجيل لوقا^٢. فهل جاء يوحنا يكرز في برّيّة اليهوديّة وعمره نحو سنة؟

وهذا إنجيل لوقا يذكر في الفصل الثالث: أنّ حلول كلمة الله على يوحنا وكرازته بالتوبة كانت في السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر^٣، بحيث يكون عمر يوحنا نحو ثلاثين سنة.

ياسيدي، هل يكون كتاب الوحي يغلط في التأريخ هذا الغلط الكبير؟ أو أنّه يقول: «في تلك الأيام» لفظاً بلا معنى.

والسؤال الثاني: أنّ الكلام الموجود في العدد الثالث من الفصل الأربعين من كتاب إشعيا مخالف للكلام الذي نقله متى، ففي كتاب إشعيا: «صوت صارخ في البرّيّة: أعدوا طريق الربّ قوموا في القفر سبيلاً لإلهنا» فلم يقل: «اصنعوا سبيله مستقيمة» فمن أين جاء هذا الاختلاف في كتب الوحي؟

القسّ: يا عمانوئيل، إنّ إنجيل مرّقس في الفصل الأوّل وإنجيل لوقا في الفصل الثالث قد نقلتا عن كتاب إشعيا مثل عبارة متى، فانظر إلى الأصل العبراني من كتاب إشعيا. عمانوئيل: يا سيدي، ها هو الأصل العبراني من إشعيا يقول: «قول قرأ بمدبر فنوا درك يهوه يسروا بعربه مسله لألهينو».

القسّ: يا عمانوئيل، هل رأيت تراجم العهدين في هذه المقامات؟

عمانوئيل: يا سيدي، قد رأيت كثيراً منها في الفارسيّة والعربيّة وغيرهما من طبعات

١. العدد ١٩ - ٢٣.

٢. العدد ٣٦.

٣. العدد ١.

متعددة، فكانت الترجمة لكلام إشعياء موافقة له والترجمة لكلام متى ومزقُس ولوقًا موافقة لما نقلناه عنهم.

القس: إذا لا بُدَّ من وقوع التحريف إمّا في كتاب إشعياء وإمّا في أناجيلنا. عمانوئيل: إذا قرّرت عيوننا بتحريف كُتبتنا، يا سيدي وما هو الجواب عن السؤال الأول. القس: لا يلزمني أن أُصرّح بالحال، أفلا تعرفه يا عمانوئيل؟ هل يخفى الخطأ؟ ألعازر: هل يُمكنكم إلّا أن تعترفوا بالغلط في إنجيل متى؟ فلماذا يحيد سيّدنا عن هذا الاعتراف؟

اعتماد المسيح وحال إبليس معه

عمانوئيل: ثمّ قرأت في هذا الفصل^١ ما مضمونه: أنّ المسيح جاء من بلاد الجليل إلى الأردنّ ليعتمد من يوحنا بمعمودية التوبة لكي يكمل كلّ برّ. فلما اعتمد وصعد من الماء انفتحت له السماء ورأى روح الله نازلاً وآتياً عليه مثل حمامة^٢.

ثمّ أضعّد المسيح إلى البريّة من الرّوح ليجرّب من إبليس. وبعد ما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلةً جاع، فتقدّم إليه المُجرّب وقال له: إن كنت أنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً، فقال: مكتوب: ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله. ثمّ أخذّه إبليس إلى المدينة المقدّسة وأوقفه على جناح الهيكل، فقال: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل؛ لأنّه مكتوب أنّه يوصي ملائكته بك فعلى أياديهم يحملونك لئلا تضدّم بحجرٍ رجلك، فقال يسوع مكتوب أيضاً لا تجرّب الربّ إلهك. ثمّ أخذّه إبليس أيضاً إلى جبل عالٍ جداً وأراه جميع ممالك المشكونة ومجدها. وقال له: أعطيك هذه كلّها إن سجّدت لي فقال يسوع: اذهب يا شيطان؛ لأنّه مكتوب: للربّ إلهك تسجد وإياه وحده تعبد. ثمّ تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت تخدمه^٣.

١. أي الفصل الأصحاح الثالث من إنجيل متى.

٢. العدد ١٣-١٧. وهذا آخر الأصحاح الثالث، وبعده يأتي الأصحاح الرابع.

٣. إنجيل متى ٤: ١-١١.

من الاختلاف [في الأناجيل]

أليعازر: هل يوجد هذا الكلام في إنجيل آخر؟

عمانوثيل: نعم، يوجد في الفصل الرابع من إنجيل لوقا مع اختلاف في الحكاية، والمهم من هذا الاختلاف أمور:

١. في لوقا: «بكل كلمة من الله».

٢. يعرف من لوقا أن أخذ إبليس للمسيح إلى جبل عالٍ قبل أخذه له إلى جناح الهيكل، على عكس ما يُعرف من متى.

٣. لوقا يقول: إن إبليس فارق المسيح إلى حين. وأما إنجيل مرقس فإنه بعدما ذكر نزول الروح على المسيح قال:

وللوقت أُخرجه الروح إلى البرية وكان هناك في البرية أربعين يوماً يُجرب من الشيطان وكان مع الوحوش وصارت الملائكة تخدمه.

أليعازر: هل يوجد اختلاف في متى ولوقا مع نقل المکتوب من العهد القديم؟

عمانوثيل: يا والدي، في العدد الثالث من الفصل الثامن من سفر التثنية ما ترجمته الحرفية: «لأنه لا على الخبز وحده يحيى الإنسان؛ لأنه على كل وصية فم الله يحيى الإنسان». وهذا لا يطابقه ما في متى، ولا ما في لوقا.

وفي العدد السادس عشر من الفصل السادس من التثنية: «لا تجربوا الرب إلهكم». فلا يطابقه ما في متى، ولا ما في لوقا.

وفي سفر التثنية ٦: ١٣ و ١٠: ٢٠ «للرب إلهك تسجد وإياه تعبد». فليس فيها لفظ «وحده» كما ذكره متى ولوقا.

أليعازر: إنك شديد التبع للعهدين.

عمانوثيل: يا والدي، قد تتبع منقولات العهد الجديد عن العهد القديم، فلا أكاد أجد نقلاً خالياً من المخالفة.

أليعازر: هل هذا لأن العهد القديم مُحرف؟ أو لأن العهد الجديد يُحرف في نقله؟

عمانوثيل: إن قلنا: إن العهد القديم مُحَرَّف، خسرنا عهدنا القديم، وإن قلنا: إن العهد الجديد هو الذي يُحَرَّف، فقد خسرنا عهدنا الجديد.

القس: اقرأ يا عمانوثيل.

عمانوثيل: يا سيدي، إنّي لم أفرغ من مُدهشات هذا الكلام، ولي فيه سوّالات، فإنّ الأناجيل يُفهم منها أنّ مكثّ المسيح في البرّيّة لم يكن باختياره، بل كان باقتياد وإجاء من الروح، كحالة الذهول والهيام.

يا سيدي، والمأمول من نزول روح الله على الشخص أن يكون مؤيداً للقوّة العاقلة وحسن الاختيار وكمال الرشد، ومميّزاً لمن يحلّ عليه بالأحوال العقلانيّة والأفعال السديدة؛ لكي يعلو مقامه في البشر ويتّم نفعه وتنجح مساعيه في الإصلاح. فكيف يكون سبباً للهيام في البرّيّة، والذهول الذي تتهاجم عليه ظنون السوء من الناس.

والأمر المُدهش أن يكون نزول الروح يعقبه تصرّف إبليس، ونفوذ قدرته في المسيح رسول الله، وينقله من مكان إلى مكان، إلى جبل عالٍ، وإلى جناح الهيكل، بل يتصرّف إبليس في حواسّ المسيح فيُريه جميع ممالك المسكونة ومجدها.

يا سيدي، هذه أمور لا تليق بجلال الله ولا بقدس الرسول.

وإذا قلنا بمقالة أصحابنا في تأليه المسيح، وأنّه الإله المتجسّد الجامع لأقنوم الابن وأقنوم الروح القدس، فإنّ المصيبة تكون عظيمة، ما فوقها مصيبة؛ إذ يكون إبليس يتصرّف بالإله هذا التصرّف الكبير، ويتلاعب به هذا التلاعب، ويطلب إبليس أن يسجد الإله له. وكيف لا يقول له: إخساً يا شيطان، فإنّي أنا الإله المتجسّد، وجميع ما في الكون في سلطاني، وليّ السجود؟!

ولكن يا للأسف، لا يمكن أن يجيبه بهذا الجواب بعدما تصرّف به إبليس ذلك التصرّف الكبير.

يا سيدي، وإنّ إنجيل لوقا قيّد مفارقة إبليس للمسيح وجعلها إلى حين، فهل يعرف

منه لإبليس مع المسيح مواقف آخر في التصرف به؟
أليعازر: أرى هذه الأناجيل كأنها وبال على قدس سيدنا المسيح، وعلو مقامه في
مجد الرسالة.

القس: اقرأ يا عمانوئيل، وستسمع يا أليعازر شيئاً كثيراً، ولكن لا تتكلم بحدّة.
عمانوئيل: فقرأت في الفصل الرابع من متى أيضاً:

أَنْ الْمَسِيحَ سَكَنَ فِي كَفَرٍ نَاحُومِ الَّتِي عِنْدَ الْبَحْرِ فِي تُخُومِ زَبُولُونَ وَنَفْتَالِي؛ لِكَيْ
يَبَيِّنَ مَا قِيلَ بِإِسْعِيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: أَرْضُ زَبُولُونَ وَأَرْضُ نَفْتَالِي طَرِيقُ الْبَحْرِ عَبْرَ
الْأُرْدُنِّ جَلِيلُ الْأُمَمِ. الشَّعْبُ الْجَالِسُ فِي ظِلْمَةٍ ابْصَرَ نُورًا عَظِيمًا.^١

أليعازر: يا عمانوئيل، هذا كلام لا مُحصل له إلاّ تسطير الألفاظ والأسامي، أفلا تنتظر
إلى كتاب إشعيا في أصله العبراني وترجمته، فإنّي عرفت أنّ أناجيلنا تخالف العهد
القديم في نقلها عنه.

عمانوئيل: فنظرتُ في آخر الفصل الثامن من كتاب إشعيا العبراني فوجدتُ ما
ترجمته الحرفيّة:

كَمَا أَنَّ الزَّمَانَ الْأَوَّلَ أَهَانَ أَرْضَ زَبُولُونَ وَأَرْضَ نَفْتَالِي وَالْأَخِيرَ يَكْبُرُ طَرِيقَ الْبَحْرِ
عَبْرَ الْأُرْدُنِّ جَلِيلُ الْأُمَمِ.^٢

وفي أوّل الفصل التاسع: «الشعب السائر في الظلمة رأى نوراً كبيراً»^٣.

يا والدي، وأنت ترى أنّ كلام متى لا يشبه كلام إشعيا إلاّ ببعض المفردات، وأنّ
الذي يعرف مواقع البلاد يعرف أنّ كفر ناحوم هي من سهم نفتالي وبعيدة عن تخم
زبولون بنحو ستة أميال، وبينها وبينه بيت صيدا الغربيّة وطن بَطْرُس وأندراؤس
وفيلبس من التلاميذ.

أليعازر: اقرأ يا ولدي.

١. العدد ١٣-١٦.

٢. هذا الكلام موجود في أوّل الفصل الأصحاح التاسع، العدد ١.

٣. إشعيا ٩: ٢.

الناموس والمسيح

عمانويل: فقرأتُ في الفصل الخامس عن قول المسيح:

لَا تَنْظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الْأَنْبِيَاءَ مَا جِئْتُ لِأَنْقُضَ بَلْ لِأَكْمَلَ؛ فَإِنِّي الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَا يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ وَنُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ. نَقَضَ إِخْدَى هَذِهِ الْوَصَايَا الصَّغْرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هَكَذَا يُدْعَى أَضْعَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ^١.

أليعازر: هذا صريحٌ في لزوم العمل بالتوراة، ولا يترك محلاً لدعوى الفداء.

نقض الناموس وتوهينه والاختلاف

عمانويل: لا تعجل يا والدي، فإن الزمان قليلاً ما يسمح لنا جيلنا أن تصفُو من الكدر، فقد نقل إنجيل متى في هذا الفصل على أثر هذا الكلام عن قول المسيح:

وقيل - أي في التوراة -: مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَلْيُعْطِ لَهَا كِتَابَ طَلَاقٍ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلَّا لِعَلَّةِ الزَّنى جَعَلَهَا زَرنِي وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقةً فَإِنَّهُ يَزْنِي. وَأَيْضاً سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقَدَمَاءِ: لَا تَخْنَثْ بِلِ أَوْفٍ لِلرَّبِّ أَقْسَامَكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ لَا تَخْلِفُوا الْبَيْتَةَ لَا بِالسَّمَاءِ؛ لِأَنَّهَا كُرْسِيُّ اللَّهِ، وَلَا بِالْأَرْضِ لِأَنَّهَا مَوْطِئُ قَدَمَيْهِ، وَلَا بِأُورُشَلِيمَ؛ لِأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ. وَلَا تَخْلِفْ بِرَأْسِكَ؛ لِأَنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَجْعَلَ شَعْرَةً وَاحِدَةً سَوْدَاءً أَوْ بَيْضَاءً. بَلْ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ نَعَمَ نَعَمَ لَا، وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الشَّرِّيرِ. سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ عَيْنٍ بَعَيْنٍ وَسِنٍّ بَسِّنٍّ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ لِتَقْوَامُوا الشَّرَّ بَلْ مِنْ لَطَمَتِكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَخَوِّلْ لَهُ الْآخَرَ أَيْضاً. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ نَوْبَكَ فَاتْرِكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضاً. سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تُحِبُّ قَرِيْبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ كَمَا بَارَكُوا لِعَيْنِكُمْ^٢.

١. إنجيل متى ٥: ١٧-١٩.

٢. إنجيل متى ٥: ٣١-٤٤.

يا والدي، وأنت ترى أنّ هذا الكلام نقضٌ للناموس وردّ عليه وتوهين لشريعته.

أليعازر: هل وافق إنجيل متى في هذه المضامين باقي أناجيلنا؟

عمانوييل: نعم، وافقه في كلامه في الطلاق إنجيل مَرْقُس ١٠: ٢ - ١٢ ولُوقَا ١٦: ١٨.

أليعازر: يا عمانوييل، ماذا يُريد إنجيل متى بقوله: «قيل للقدماء»؟

عمانوييل: يُريد التوراة كتاب الشريعة.

أليعازر: أحبُّ أن نُطابق هذا المنقول في إنجيل متى بمأخذه من التوراة، فإنّ من

عادة إنجيل متى عدم المطابقة في النقل.

عمانوييل: الموجود في التوراة في الطلاق:

إِذَا أَخَذَ الرَّجُلُ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا، وَهِيَ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لِأَنَّهُ وَجَدَ بِهَا عَيْبَ

شَيْءٍ، وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلَاقٍ^١.

ولا يوجد في العهد القديم «لَا تَحْنَثُ بَلَى أَوْفٍ لِلرَّبِّ أَقْسَامَكَ» وإِنَّمَا الموجود من

هذا النحو ما هو في الفصل الثلاثين من العدد وهو «إِذَا نَذَرَ رَجُلٌ نَذْرًا لِلرَّبِّ أَوْ أَقْسَمَ

قَسَمًا أَنْ يُلْزِمَ نَفْسَهُ بِإِلْزَامٍ فَلَا يَنْقُضُ كَلَامَهُ»^٢.

ولا يوجد في التوراة قوله: «تُحِبُّ قَرِيْبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ»، بل الموجود فيها:

«تُحِبُّ قَرِيْبَكَ كَنَفْسِكَ»^٣.

منقولات العهد الجديد عن العهد القديم والاختلاف

أليعازر: أحبُّ الآن أن نتصفّح عاجلاً جميع الفقرات التي تنقلها الأناجيل عن العهد

القديم ونُطابق بين الأمرين، فإنّه لم يمرّ علينا نقل إلّا وجدنا فيه الاختلاف المُدهش،

فليجِرِ الكلام في هذا في سلسلة واحدة.

عمانوييل: هل يأذن سيّدنا القسّ في ذلك؟ وهل يستحسنه؟

١. سفر التثنية ٢٤: ١.

٢. العدد ٢.

٣. سفر اللاويين ١٩: ١٨ (منه ﷺ).

القس: لا بأس بذلك، فإنه لا يخلو من فائدة، لكن بشرط أن نرجع إلى استيفاء الكلام في مطالب الأناجيل.

عمانوثيل: في الفصل الحادي عشر من متى عن قول المسيح في شأن يوحنا المعمدان: «فإنَّ هذا هو الذي كُتِبَ عنه: ها أنا أُرْسِلُ أمامَ وَجْهِكَ مَلَاكِي الذي يُهَيِّئُ طَرِيقَكَ قُدَّامَكَ»^١. ونحوه في الفصل السابع من إنجيل لوقا، والأول إنجيل مرقس. مع أنه لا يوجد في العهد القديم إلا قول الفصل الثالث من كتاب ملاخي: «ها أنا ذا أُرْسِلُ مَلَاكِي فِيهِئُ الطَّرِيقَ أَمَامِي»، فانظر إلى المخالفة.

وفي الفصل الثالث عشر من متى:

فَقَدْ تَمَّتْ فِيهِمْ نَبْوَةُ إِسْغِيَاءِ الْقَائِلَةِ: تَسْمَعُونَ سَمْعاً وَلَا تَفْهَمُونَ وَمُبْصِرِينَ تَبْصُرُونَ وَلَا تَنْظُرُونَ؛ لِأَنَّ قَلْبَ هَذَا الشَّعْبِ قَدْ غَلِظَ وَأَذَانُهُمْ قَدْ تَقَلَّ سَمَاعُهَا وَغَمَضُوا عِيُونَهُمْ لِئَلَّا يَبْصُرُوا بِعْيُونِهِمْ وَسَمِعُوا بِأَذَانِهِمْ وَفَهِمُوا بِقُلُوبِهِمْ وَيَرْجِعُوا فَاشْفِيَهُمْ^٢.

وأيضاً في الثاني عشر من إنجيل يوحنا:

لِأَنَّ إِسْغِيَاءَ قَالَ أَيضاً: قَدْ أَعْمَى عِيُونُهُمْ وَأَغْلَظَ قُلُوبَهُمْ لِئَلَّا يُبْصِرُوا بِعْيُونِهِمْ وَيَشْفُرُوا بِقُلُوبِهِمْ وَيَرْجِعُوا فَاشْفِيَهُمْ^٣.

فانظر إلى الاختلاف الكبير في النقل بين الإنجيليين مع أن الموجود في سادس إشغياء بالترجمة الحرفية:

اسْمَعُوا سَمْعاً وَلَا تَفْهَمُوا وَابْصُرُوا ابْصَاراً وَلَا تَعْرِفُوا غَلِظَ قَلْبَ الشَّعْبِ هَذَا وَأَذَانُهُ تَقَلَّتْ وَعِيُونُهُ طَمَسَتْ لِئَلَّا يَرَى بِعَيْنِهِ وَبِأَذَانِهِ يَسْمَعُ وَقَلْبُهُ يَفْهَمُ وَارْجِعْ وَأَشْفِيهِ^٤.

وأيضاً في ثالث عشر من متى: «لكي يَتَمَّ ما قيل بالنبي القائل: سأفتح بأمثال قمي وأطلق بمكتومات منذ تأسيس العالم»^٥.

١. العدد ١٠.

٢. إنجيل متى ١٣: ١٤.

٣. العدد ٣٩ و ٤٠.

٤. العدد ١٠.

٥. العدد ٣٥.

والموجود في المزمور الثامن والسبعين: «أَفْتَحْ بِيْمَثْلٍ فَمَي أذْيْعُ الْغَازَأْ مِنْذ الْقِدَمِ»^١.
وفي الفصل الحادي والعشرين من متى:

لِكَي يَتَمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: قُولُوا لابْنَةَ صِهْيُونِ هُوَ ذَا مَلِكٍ يَأْتِيكِ وَدِيْعاً رَاكِباً
عَلَى أَتَانٍ وَجَحْشِ ابْنِ أَتَانٍ^٢.

وفي الفصل الحادي عشر من إنجيل يُوحَنَّا:

وَوَجَدَ يَسُوعَ جَحْشاً فَجَلَسَ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ لَا تَخَافِي يَا ابْنَةُ صِهْيُونِ هُوَ ذَا
مَلِكٍ يَأْتِي جَالِساً عَلَى جَحْشِ أَتَانٍ^٣.

هذا، مع أنَّ الموجود في الفصل التاسع من كتاب زكريَّا:

ابْتَهَجِي جِدْداً يَا ابْنَةُ صِهْيُونِ اهْتَفِي يَا بِنْتُ أُورُشَلِيمِ هُوَ ذَا مَلِكٍ يَأْتِي إِلَيْكَ عَادِلٌ
وَمَنْصُورٌ وَدِيْعٌ وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى عَيْرِ ابْنِ أَتَانٍ^٤.

فانظر يا والدي إلى هذا الاختلاف الفاحش.

ويزيد على ذلك اختلاف الأناجيل فيما بينها، فإنَّ مَرْقُسَ وَلُوقَا وَيُوحَنَّا
لم يذكروا في القِصَّةِ إِلَّا الْجَحْشَ وَالرَّكُوبَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ مَتَّى زَادَ الْأَتَانَ، وَأَنَّ الْمَسِيحَ
رَكَبَ عَلَيْهِمَا.

وفي الفصل الثالث والعشرين من متى: «إِلَى دَمِ زَكَرِيَّا بْنِ بَرَخِيَّا الَّذِي قَتَلْتُمُوهُ بَيْنَ
الْهَيْكَلِ وَالْمَذْبَحِ»^٥. مع أنَّ الموحِّدَ الْمُؤْمِنَ الْكَبِيرَ الَّذِي قَتَلُوهُ فِي دَارِ بَيْتِ اللَّهِ وَبَيْنَ
الْهَيْكَلِ وَالْمَذْبَحِ إِنَّمَا هُوَ زَكَرِيَّا بْنُ يَهُوْيَادَاعَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي صَحِيفَةِ ١٢٧.

وفي الفصل السابع والعشرين من متى: «لِكَيْ يَتَمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ: أَفْتَسْمُوا ثِيَابِي بَيْنَهُمْ
وَعَلَى لِبَاسِي أَلْقُوا قُرْعَةً»^٦ ومثله في الفصل التاسع عشر من إنجيل يُوحَنَّا.

١. العدد ١.

٢. العدد ٤ - ٥.

٣. وجدناه في الفصل الثاني عشر العدد ١٤ - ١٥.

٤. العدد ٩ - ١٠.

٥. العدد ٣٥.

٦. العدد ٣٥ - ٣٦.

والموجود في المزمور الثاني والعشرين: «يَقْسُمُونَ تَوْبِي لَهُمْ وَعَلَى لِبَاسِي يَلْقُونَ قُرْعَةً»^١.

وقد ذكرنا صحيفة ١٧٤ عن الفصل السابع والعشرين من متى أنه قال: «جِيئْتُمْ مََّا قَبِيلَ يَارِمِيَا النَّبِيِّ وَأَخَذُوا ...» إلى آخره.

وقد ذكرنا هناك أن الذي يشبه هذا الكلام غير موجود في كتاب إزميا أصلاً، وإنما هو في كتاب زكريّا، فلماذا تضيع الأسماء على إنجيل متى؟

الأناجيل والعهد القديم والاختلاف

أليعازر:ها أنتَ فرغتَ من إنجيل متى وما يشترك معه من الأناجيل في النقل عن العهد القديم، فهلاً تتصفح الأناجيل الباقية؛ لكي ترى ما تنفرد به عن إنجيل متى في النقل عن العهد القديم؟

عمانويل: يا والدي، في الفصل الرابع من إنجيل لوقا:

أَنَّ الْمَسِيحَ فِي النَّاصِرَةِ دَفَعَ سَفَرَ إِشْعِيَاءَ وَلَمَّا فَتَحَ السَّفَرَ وَجَدَ الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ مَكْتُوباً فِيهِ رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ لِأَنَّهُ مَسَحَنِي لِأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ أُرْسَلَنِي لِأَشْفِيَ الْمُتَكْسِرِي الْقُلُوبِ لِأَنَادِي لِلْمَآسُورِينَ بِالْإِطْلَاقِ وَلِلْعُمَى بِالْبَصْرِ وَأُرْسِلَ الْمُسْحَقِينَ فِي الْحَرَّةِ وَأَكْرَزَ بَسْمَةَ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةَ^٢.

والموجود في الفصل الحادي والستين من كتاب إشعيا العبراني ما ترجمته الحرفية:

رُوحُ سَيِّدِي اللَّهِ لِأَنَّهُ مَسَحَ اللَّهُ إِيَّايَ لِبَشْرِ الْمَسَاكِينِ أُرْسَلَنِي لِلتَّعْصِيبِ لِلْمُتَكْسِرِي الْقُلُوبِ لِأَنَادِي لِلْمَسُورِينَ عِتْقاً وَلِلْمَسُورِينَ إِطْلَاقاً لِأَنَادِي سَنَةَ مَقْبُولَةَ اللَّهِ^٣.

يا والدي، فكم ترى من الاختلاف مع أن كتاب إشعيا لا يوجد فيه قول لوقا:

«وَلِلْعُمَى بِالْبَصْرِ».

١. العدد ١٧.

٢. العدد ١٦-١٩.

٣. العدد ١-٢.

وأيضاً إن قول لوقا: «لأسفي المُنكسري القلوب» قد جعل بين خطين هلاليتين، وهو علامة على أنه لا يوجد ذلك في أقدم النسخ وأصحبها.

وأيضاً في الفصل السابع من يوحنا عن قول المسيح: «مَنْ آمَنَ بِي كما قالَ الكتابُ تجري من بطنِهِ أنهارٌ ماءً حيًّا»^١ مع أنه لا يوجد في العهد القديم ما يشبه هذا الكلام إلا قوله في الفصل الرابع من كتاب زكريّا: «ويكونَ في ذلكَ اليومِ مياهاً حيةً تخرجُ من أُورشليم»^٢؛ فراجعهُ.

وفي الفصل الثامن من يوحنا عن قول المسيح: «وأيضاً في ناموسكم مكتوبٌ: شهادةُ رجلينِ حقٌّ»^٣.

ولا يوجد هذا اللفظ مكتوباً في التوراة أصلاً، نعم يوجد فيها ما حاصله أنه يقومُ الحكمُ بشاهدينِ أو ثلاثَةٍ ولا يقومُ بشاهدٍ واحدٍ؛

القَس: وهاننا أمرٌ يضحك بسخافته ويبيكي بنسبته إلى قُدس سَيِّدنا المسيح وشرف الرسالة وهو: أن إنجيل يوحنا نسب هذا الكلام للمسيح لكي يصوّر عنه الاحتجاج لأمره فيقول: إذا أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الأب الذي أرسلني.

أفلا يدري هذا الكاتب بأن التوراة تقول: «لا يقوم الحكمُ بشاهدٍ واحدٍ» وكلّ غيبي وفاهم يعرف أن المدّعي لا يُحسب شاهداً لنفسه في كلّ شريعة شرعيّة وعرفيّة، فكيف ينسب للمسيح أنه يجعل نفسه أحدَ الشاهدين؟!؛

وأيضاً إن بني إسرائيل وكلّ إلهي يقول: إن شهادة الله هي آية الحق، فلا تحتاج إلى انضمام شهادة المخلوقين، فكيف يضطهد مجد الله الذي يعرفونه ويجعل شهادته كشهادة رجلٍ تحتاج إلى شهادة رجلٍ آخر حتّى إذا كان هو المدّعي؟ فكيف كتب هذا الكاتب هذا الكلام؟!؛ ويا للأسف، اقرأ يا عمانوئيل.

١. العدد ٣٨.

٢. العدد ٨.

٣. العدد ١٧.

٤. سفر العدد ٣٥: ٣٠؛ سفر تثنية الاشتراع ١٧: ٦ و ١٩: ١٥ (منه ❁).

عمانوئيل: وفي الفصل الثاني عشر من يُوحَنَّا: «لَيْتَمَ قَوْلُ إِشْغِيَاءِ النَّبِيِّ الَّذِي قَالَ: يَا رَبِّ مَنْ صَدَّقَ خَبْرَنَا؟ وَلَمَنْ اسْتَعْلِنَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ»^١.

مع أن الموجود في أول الفصل الثالث والخمسين من إِشْغِيَاءِ بِالترجمة الحرفية للأصل العبراني: «من المصدق لخبرنا وذراع الله على من استعلنت وبالأقل ليس فيه يا رب». أليعازر: هذه الاختلافات شيء كبير مُدهش، ويا للأسف لم يسلم منها واحد من أناجيلنا.

القَس: لماذا تحكم يا عمانوئيل على الأناجيل بأنّها هي التي حرّفت ما في العهد القديم؟ ولماذا لا تقول: إنَّ العهد القديم قد كان مُحَرَّفًا قبل الأناجيل، والأناجيل نقلت ما نقلته منه على حقيقته الأصلية قبل تحريفه؟ أليعازر: يا سيدي، اسمح لي أن أقول:

أولاً: إِنَّا لايهون علينا في ديانتنا أن نخسر العهد العتيق، كما لايهون علينا أن نخسر العهد الجديد.

وثانياً: إذا لحظنا اختلاف الأناجيل في عبارة ما تنقله عن العهد القديم، رجّحنا أن يكون الاختلاف منها. ويشهد على أن الاختلاف من الأناجيل: احتجاجها الواهي بما تنسبه إلى المسيح وإلى العهد القديم، كما تقدّم في صحيفة ٨٨ - ٨٩.

يا عمانوئيل، ألتبّع موارد استشهاد العهد الجديد بالعهد القديم؛ لكي نعرف هل يوجد بينهما اختلاف كالذي بين الأناجيل وبين العهد القديم، ولكي نطلع على موارد الاختلاف، وكم هي؟

كتاب أعمال الرُّسل واختلافه مع العهد القديم

عمانوئيل: في الفصل الأول من أعمال الرُّسل: «لأنَّه مكتوب في سفر المزامير: لِيَتَصِرْ دَارُهُ خَرَاباً وَلَا يَكُنْ فِيهَا سَاكِنٌ وَلَا يَأْخُذُ وَظِيفَتُهُ آخَرٌ»^٢.

١. العدد ٣٨.

٢. العدد ٢٠.

والموجود هو ما في المزمور التاسع والستين: «لِتَصِرْ دَارُهُمْ خَرَابًا وَفِي خِيَامِهِمْ لَا يَكُونُ سَاكِنٌ»^١.

وفي المزمور المائة وتسعة: «ووظيفتهُ لِيَأْخُذَهَا آخِرٌ»^٢.

وفي الفصل الثاني من الأعمال:

بَلْ هَذَا مَا قِيلَ بِيُوئِيلِ النَّسَبِيِّ: يَقُولُ اللَّهُ وَيَكُونُ فِي الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ أَنِّي
أَسْكُبُ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ فَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبِنَاتِكُمْ وَيَرَى شُبَّانَكُمْ رُؤْيَاتٍ
وَيَحْلُمُ شِيُوخَكُمْ أَخْلَامًا. وَعَلَى عَبِيدِي أَيْضًا وَإِمَائِي أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي فِي تِلْكَ
الْأَيَّامِ فَيَتَنَبَّؤُونَ^٣.

والموجود في أوّل الفصل الثالث من كتاب يُوئيل في العبرانية وترجمته الحرفيّة:

وَيَكُونُ أَوْآخِرُ ذَلِكَ أَسْفُكَ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ وَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبِنَاتِكُمْ. شِيُوخَكُمْ
أَخْلَامًا يَخْلُمُونَ شُبَّانَكُمْ رُؤْيَا يَرُونَ وَأَيْضًا عَلَى الْعَبِيدِ وَعَلَى الْإِمَاءِ بِتِلْكَ الْأَيَّامِ
أَسْفُكَ رُوحِي.

فزاد كتاب الأعمال قوله: «يقول الله»، وبدّل قول يُوئيل: «ويكون أواخر ذلك» الذي
يشير به إلى أيام ردّ يهوذا من سبي بابل، كما صرّح به في أوّل الفصل الرابع
بحسب النسخة العبرانية، فقال كاتب الأعمال: «في الأيام الأخيرة» لكي يمكن انطباقها
على دعواه في أيام التلاميذ، وأسقط قول يُوئيل: «أيضاً»، وبدّل لفظ العبيد الإماء وزاد
قوله: «فَيَتَنَبَّؤُونَ».

وأيضاً في الثاني من الأعمال:

لَأَنَّ دَاوُدَ يَقُولُ: كُنْتُ أَرَى الرَّبَّ أَمَامِي فِي كُلِّ جِبِينٍ لِأَنَّهُ عَن يَمِينِي لِكَيْ لَا
أَتَرَعَّرَعَ. لِذَلِكَ سُرَّ قَلْبِي وَتَهَلَّلَ لِسَانِي حَتَّى جَسَدِي أَيْضًا سَيَسْكُنُ عَلَى رَجَاءٍ.
عَرَفْتَنِي سُبُلَ الْحَيَاةِ سَتْمَلُونِي سُورًا مَعَ وَجْهِكَ^٤.

١. العدد ٢٥.

٢. العدد ٨.

٣. العدد ١٦ - ١٨.

٤. العدد ٢٥ - ٢٨.

والموجود هو ما في المزمور السادس عشر:

جَعَلَتْ اللهُ أَمَامِي دَائِمًا لِأَنَّهُ مِنْ يَمِينِي بَلَا تَزْغُرُع. لَكِنْ فَرَحَ قَلْبِي وَابْتَهَجَ كَبْدِي
وَأَيْضًا بُشْرَى يَسْكُنُ لِلْأَطْمِنَانِ. تُعَلِّمْنِي سَبِيلَ الْأَحْيَاءِ شَبَعِ سُرُورِ أَمَامِكَ!

فانظر إلى الاختلاف الكثير.

وأيضاً «٣٤» إِنَّ دَاوُدَ نَفْسَهُ يَقُولُ: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَن يَمِينِي» وقد مرَّ
صحيفة ٨٩ إنَّ هذا تحريف لما في المزامير.

وفي السابع من الأعمال:

فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: اخْلَعْ نَعْلَ رِجْلَيْكَ؛ لِأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي وَاقَفْتُ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ. إِنِّي
رَأَيْتُ مَشَقَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ أُنْيَهُمْ وَنَزَلْتُ لِأُنْقِذَهُمْ فَهَلُمَّ الْآنَ
أُرْسِلُكَ إِلَى مِصْرَ^٢.

والموجود في الفصل الثالث من سفر الخروج:

وَقَالَ لِاتَّقِرْبْ هُنَا اخْلَعْ نَعْلَيْكَ مِنْ عَلَيَّ رِجْلَيْكَ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ الَّذِي أَنْتَ وَاقَفْتُ
عَلَيْهِ مُقَدَّسٌ هُوَ. وَقَالَ اللهُ رُؤْيَةً رَأَيْتُ عَنَاءَ شَعْبِي الَّذِي بِمِصْرَ وَسَمِعْتُ
صَرَخَتَهُمْ مِنْ أَمَامِ مُسْتَعْبِدِيهِمْ لِأَنَّهُ عَلِمْتُ وَجَعْتُهُمْ وَنَزَلْتُ لِإِخْلَاصِهِمْ مِنْ يَدِ
الْمِصْرِيِّينَ وَإِصْعَادِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ حَسَنَةٍ وَوِاسِعَةٍ إِلَى أَرْضِ
تَفِيضٍ لَبَنًا وَعَسَلًا^٣.

فانظر إلى الاختلاف الكثير، مع أنه لا يوجد في التوراة قوله: «فَهَلُمَّ الْآنَ أُرْسِلُكَ
إِلَى مِصْرَ».

وأيضاً في الفصل السابع:

كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابِ الْأَنْبِيَاءِ: هَلْ قَرَّبْتُمْ لِي ذَبَائِحَ وَقَرَّبِينَ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي
الْبَرِّيَّةِ يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ بَلْ حَمَلْتُمْ خَيْمَةَ مُوَلُوكَ أَوْ - مُلْكُوكُمْ - وَكُوكِبَ إِلَهِكُمْ

١. العدد ٨ و ٩ و ١١.

٢. العددان ٣٣ و ٣٤.

٣. العدد ٥ - ٨.

رَمَفَانَ. التماثيل التي صَنَعْتُمُوهَا لِتَسْجُدُوا لَهَا فَأَنْقَلِكُمْ إِلَى مَا وِرَاءَ بَابِلَ^١.

والموجود هو ما في الفصل الخامس من عاموس:

الدَّبَائِحِ وَقُرْبَانًا هَلْ قَدَّمْتُمْ لِي فِي الْبَرِيَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ. وَحَمَلْتُمْ خِيَمَةَ مَلِكِكُمْ وَكِيَوَانَ أَوْتَانِكُمْ كَوَكَبِ آلِهَتِكُمْ الَّذِي صَنَعْتُمْ لَكُمْ. وَأَجْلِيكُمْ مِنْ هُنَا لِدِمَشَقَ قَالَ اللهُ^٢.

فانظر إلى الاختلاف والزيادة، وقل: أين دمشق؟ وأين ما وراء بابل؟! مع أن التواريخ تشهد أنه لم يكن جلاء لبني إسرائيل إلى دمشق. وإن كان عاموس يُخاطب بني إسرائيل الذين في مملكة السامرة «شمرون» فهؤلاء كان سببهم إلى مملكة آشور، ولا ربط لسببهم ببابل ولا بما وراء بابل ولا بدمشق.

تصريف التراجم

ثم إن المترجمين لكتاب عاموس بنوا على غلظه بقول أصله العبراني لدمشق، فكتبوا نبوءة جديدة: ففي النسخة الأولى من المذكرات في صحيفة ١٩ و ٢٠ «عبر دمشق» وفي الثالثة «ما وراء دمشق» وفي ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ «بأن طرف دمشق».

وفي الفصل الثالث عشر من الأعمال:

وَأَقَامَ لَهُمْ دَاوُدُ مَلِكًا الَّذِي شَهِدَ لَهُ أَيْضًا إِذْ قَالَ: وَجَدْتُ دَاوُدَ بْنَ يَسَّى حَسَبَ قَلْبِي الَّذِي سَيَصْنَعُ كُلَّ مَشِيئَتِي^٤.

والموجود من نحو هذا هو ما في المزمور التاسع والثمانين: «وجدتُ داوُدَ عَبْدِي بِدُهْنِ قُدْسِي مَسْحَتُهُ الَّذِي يَدِي تَكُونُ»^٥ فانظر واعجب.

١. العدد ٤٢ و ٤٣.

٢. العدد ٢٥ - ٢٧.

٣. أي التراجم العشر لكتاب المقدس كانت عند المصنف المذكورة في ص ٢٢ - ٢٣.

٤. العدد ٢٢.

٥. العدد ٢٠ و ٢١.

رسالة رُومِيَّة واختلافها مع العهد القديم

وفي الفصل الثالث من رسالة رُومِيَّة قد كتب من العدد العاشر إلى العدد الثامن عشر جملة فقراتٍ من أسفارٍ متفرقة من العهد القديم، وها أنا أذكر كلَّ فقرة مع مأخذها من العهد القديم، وها هي الفقرات:

١- كما هو مكتوب - ليس بارٌّ ولا واحدٌ. ٢ ليس مَنْ يَفْهَمُ، لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ الله.

٣ الْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا معاً، لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحًا، وَلَا وَاحِدٌ.

والموجود من ذلك في العهد القديم هو ما اتفق عليه المزمور الرابع عشر مع

الثالث والخمسين:

١ لَيْسَ عَامِلٌ حَسَن. ٢ اللهُ مِنَ السَّمَاوَاتِ أَشْرَفَ عَلَى بَنِي آدَمَ لِيَرَى رَجُلًا فَاهِمًا

طالِبَ الله. ٣ الكُلُّ ارْتَدَّوْا فَسَدُوا لَيْسَ عَامِلٌ حَسَن لَيْسَ أَيْضًا وَاحِدٌ.

ومن الفقرات أيضاً قوله: «٣ بِالسِّيْتِهِمْ قَدْ مَكَّرُوا سَمَّ الْأَضْلَالِ تَحْتَ شِفَاهِهِمْ».

والموجود هو ما في المزمور المائة والأربعين: «٣ سَنَوْا لِسَانَهِمْ مِثْلَ الْحَيَّةِ حُمَّة

صِل شِفَاهِهِمْ».

ومن الفقرات أيضاً: «١٤ فَمُهُمْ مَمْلُوءٌ لَعْنَةً وَمَرَارَةً». والموجود هو ما في المزمور

العاشر: «٧ فَمُهُ مَمْلُوءٌ لَعْنَةً وَغِشًّا وَظُلْمًا تَحْتَ لِسَانِهِ مَسْقَةٌ وَإِثْمٌ».

ومن الفقرات: «١٨ لَيْسَ خَوْفُ اللهِ قُدَّامَ عُيُونِهِمْ». والموجود هو ما في المزمور

السادس والثلاثين: «لَيْسَ خَوْفُ اللهِ قُدَّامَ عَيْنَيْهِ»^١.

القس: يوجد في الترجمة اللاتينية والترجمة الحبشية والعربية ونسخة الفاتيكان

اليونانية في المزمور الرابع عشر هكذا:

٤ حَنَاجِرُهُمْ قُبُورٌ مُفْتَحَةٌ مَكَّرُوا بِالسِّيْتِهِمْ، سَمُّ الْأَفَاعِي فِي شِفَاهِهِمْ. ٥ وَهَوْلَاءُ

أَفْوَاهِهِمْ مَمْلُوءَةٌ لَعْنَةً وَمَرَارَةً وَأَرْجُلُهُمْ إِلَى سَفْكِ الدَّمِ سَرِيعَةُ الْبُؤْسِ وَالتَّعْبُسِ فِي

سُبُلِهِمْ وَطَرِيقَ السَّلَامَةِ مَا عَرَفُوهَا وَلَيْسَ خَوْفُ اللهِ أَمَامَ عُيُونِهِمْ.

وإنّ ترجمة العهدين العربيّة المطبوعة سنة ١٨١١ قد أدرجتْ هذه الفقرات في المزمور الثالث عشر، انظر إلى الجزء الرابع من كتاب جمعيّة الهداية في صحيفة ١٩. عمانوئيل: هل يصلح الحال بأن تكون بعض التراجم تزيد هذه الفقرات؟ أو أنّ الأصل العبراني والتراجم الكثيرة تغفل عنها؟ أو أنّ الترجمة التي تذكرها تتصرّف حسبما يسنح لها؟ هذا كلّه ممّا يزيد في وهن الكُتب وطريق نقلها، ويزيد في عدم اعتبارها.

يا سيّدي، وقد أمرتني بالنظر إلى جمعيّة كتاب الهداية، فكأنّك تُريد أن تدلّني على خطئهم بقولهم: إنّ السّت آيات هذه هي مذكورة في الكتاب المقدّس بنصّها، فليست ساقطة كما ادّعى المُعترض، وإنّما وضعها بعض المترجمين بعد الآية الثالثة من المزمور الرابع عشر.

يا سيّدي، هذا الأصل العبراني، وهذه غالب التراجم بالألسنة المختلفة والطبعات المنتشرة في العالم لا يوجد فيها ما ذكره، فكيف يقولون قولهم هذا ويكتبونه ويطبعونه وينشرونه؟!

عمانوئيل : وأيضاً في الفصل الرابع من رُومية في تطويب داود: «٧ طوبى للذين غَفَرَتْ لهم، ٨ طوبى للرجل الذي لا يَحْسُبُ لَهُ الرُبُّ حَظِيئَةً». والموجود هو ما في المزمور الثاني والثلاثين: «١ طوبى مَغْفُورُ الإِثْمِ مَسْتَوْرُ الحَظِيئَةِ طوبى إنسان لا يَحْسُبُ اللهُ لَهُ ذَنْباً وليس بَرُوجِهِ عَشٌّ».

وفي الفصل التاسع من رومية: «١٥ لأنّه يقول لموسى: أرحم من أرحم وأترأف على من أترأف» والموجود هو ما في الثالث والثلاثين من الخروج: «١٩ وترأفتُ الذي أترأفُ ورحمتُ الذي أرحمُ».

وأيضاً في تاسع رُومية: «٢٥ كما يقول في هُوشَع أيضاً سأذُعوا الذي ليس شَعْبِي شَعْبِي والتي ليستْ مَحْبُوبَةً مَحْبُوبَةً». والموجود هو ما في الثاني من سفر هُوشَع: «٢٣ وأقول للأشعبي: شَعْبِي أَنْتَ وَهُوَ يقول: إلهي» ولا يوجد في هُوشَع قوله: «والتي لَيْسَتْ مَحْبُوبَةً مَحْبُوبَةً».

وأيضاً في تاسع رومية:

٣٣ كما هو مكتوب: ها أنا ذا أضع في صهيون حَجَرَ صَدْمَةٍ وَصَخْرَةَ غَفْرَةٍ. وَكُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ لَا يُخْزَى.

والموجود هو ما في الفصل الثامن والعشرين من إشعياء:

ها أنا أؤسس في صهيون حَجْرًا حَجْرًا امْتِحَانٍ زاوية كريمة أساساً أساساً المؤمنين لا يستعجل^١.

القس: الموجود في الترجمة السبعينية: «المؤمن لا يخزي».

عمانويل: هذا كله مما يؤلم ويزيد في تشويش أمر الكتب، وفي وهن صحتها، سواء كان الاختلاف بين الأصل العبراني والترجمة السبعينية، أم كان بين العبراني والعهد الجديد.

وأيضاً في عاشر رومية: «١٩ موسى يقول: أنا أغتريكم بما ليس أمةً بأمة غيبية أغيظكم» والموجود هو ما في الفصل الثاني والثلاثين من التثنية: «٣١ وأنا أغتريهم بلا شعب بأمة غيبية أغيظهم».

وأيضاً في عاشر رومية:

٢٠ ثم إشعياء يتجاسر ويقول: وجدت من الذين لم يطلبوني وصرت ظاهراً للذين لم يسألوا عني. ٢١ أما من جهة إسرائيل فيقول طول النهار بسطت يدي إلى شعب معانٍ ومقاوم.

والموجود هو ما في الفصل الخامس والستين من إشعياء:

١ أصغيت لمن ما سألوا وجدت لمن ما طلبتني. ٢ بسطت يدي كل اليوم إلى شعب متمرّد الذاهبين في الطريق غير حسن وراء أفكارهم.

وفي الفصل الحادي عشر من رومية: «٤ لكن ماذا يقول له الوحي أبقيت لِنَفْسِي سبعة آلاف رجل لم يخنوا رُكْبَةً لبعل» والموجود هو ما في الفصل التاسع عشر من سفر الملوك الأول: «١٨ وأبقيت في إسرائيل سبعة آلاف كل الركب التي لم تجت لبعل».

وأيضاً في حادي عشر رومية:

٨ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ أَعْطَاهُمْ اللهُ رُوحَ سُبَاتٍ وَعَيُونًا حَتَّى لَا يُبْصِرُوا وَأَذَانًا حَتَّى لَا يَسْمَعُوا إِلَى هَذَا الْيَوْمِ.

والموجود من ذلك هو ما في الفصل التاسع والعشرين من إشغيا: «١٠ لِأَنَّهُ يَسْكُبُ اللهُ عَلَيْكُمْ رُوحَ سُبَاتٍ وَيُعْمِضُ عَيُونَكُمْ».

وفي الفصل التاسع والعشرين من التثنية: «٤ وَلَمْ يُعْطِ اللهُ لَكُمْ قَلْبًا لِلْعِلْمِ وَعَيُونًا لِلرُّؤْيَةِ وَأَذَانًا لِلسَّمْعِ إِلَى الْيَوْمِ».

وأيضاً في حادي عشر رومية:

٩ وَدَاوُدُ يَقُولُ: لِتَكُنْ مَا بَدَيْتَهُمْ فَحَاً وَشَرَكَاً وَعِزَّةً وَمُجَازَاةً لَهُمْ لِتُظْلِمَ أَعْيُنَهُمْ كَيْ لَا يُبْصِرُوا وَتُتَخَنَ ظُهُورُهُمْ فِي كُلِّ حِينٍ.

والموجود ما هو في المزمور التاسع والستين:

٢٢ تَصِيرُ مَا بَدَيْتَهُمْ أَمَامَهُمْ فَحَاً وَلِلْآمِينِينَ شَرَكَاً. ٢٣ لِتُظْلِمَ عَيُونَهُمْ عَنِ الرُّؤْيَةِ وَمُتُونَهُمْ دَائِماً لِلوُقُوفِ.

وأيضاً في حادي عشر رومية:

٢٦ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: سَيَخْرُجُ مِنْ صِهْيُونَ الْمُنْقَذُ وَيَزُدُّ الْفَسْقَ عَنِ يَغْقُوبَ. ٢٧ وَهَذَا هُوَ الْعَهْدُ مِنْ قِبَلِي لَهُمْ مَتَى نَزَعْتُ خَطَايَاهُمْ.

والموجود هو ما في الفصل التاسع والخمسين من إشغيا: «٢٠ وَيَأْتِي لِصِهْيُونَ مُنْقَذٌ وَلِلنَّائِبِينَ عَنِ الْمُعْصِيَةِ فِي يَغْقُوبَ أَوْحَى اللهُ. ٢١ وَأَنَا هَذَا عَهْدِي مَعَهُمْ».

وفي الفصل الثاني عشر من رومية: «١٩ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِي النِّقْمَةُ أَنَا أَجَازِي يَقُولُ الرَّبُّ».

وفي الفصل العاشر من العبرانيين: «٣٠ فَإِنَّا نَعْرِفُ الَّذِي قَالَ لِي الْإِنْتِقَامُ أَنَا أَجَازِي يَقُولُ الرَّبُّ». والموجود هو ما في الفصل الثاني والثلاثين من التثنية: «٣٥ لِي النِّقْمَةُ وَالسَّلَامُ».

وفي الفصل الرابع عشر من رومية: «١١ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنَا حَيٌّ يَقُولُ الرَّبُّ: إِنَّهُ لِي

سَتَجْتَوِ كُلُّ رُكْبَةٍ وَكُلُّ لِسَانٍ سَيَخْمَدُ اللَّهَ». والموجود هو ما في الفصل الخامس والأربعين من إشعياء: «٢٣ يَبِي حَلَفْتُ خَرَجَ مِنْ فَمِي الصِّدْقُ كَلِمَةً لَا تَرْجِعُ إِيَّاهُ لِي تَجْتَوِ كُلُّ رُكْبَةٍ يَحْلِفُ كُلُّ لِسَانٍ».

وفي الخامس عشر من رومية: «١٠ وَيَقُولُ أَيْضاً: تَهَلَّلُوا أَيُّهَا الأُمَّمُ مَعَ شَعْبِهِ» والموجود هو ما في الفصل الثاني والثلاثين من التثنية: «٤٣ تَهَلَّلُوا يَا أُمَّمُ شَعْبِهِ». القس: إِنَّ التوراة السامرية تقول في هذا المقام: «تَهَلَّلُوا يَا أُمَّمُ مَعَ شَعْبِهِ» وهي في هذا المقام أقرب للصحة.

عمانوثيل: يا سيدي، ما خرج الاختلاف عن كتب العهدين، ويا للأسف أن تكون التوراة السامرية أقرب إلى الصحة من العبرانية. وأيضاً في الخامس عشر من رومية: «١٢ وَأَيْضاً يَقُولُ إِشْعِيَاءُ: سَيَكُونُ أَضَلُّ يَسَى، والقائم لِيَسُودَ عَلَى الأُمَّمِ عَلَيْهِ سَيَكُونُ رَجَاءُ الأُمَّمِ». والموجود هو ما في الفصل الحادي عشر من إشعياء: «١٠ وَيَكُونُ بِذَلِكَ اليَوْمِ عَرَقُ يَسَى القَائِمِ رَايَةً للشعوب لَهُ الأُمَّمُ تَطْلُبُ وَيَكُونُ محلَّةً مَجْداً».

القس: الذي في النسخة السبعينية: «عَلَيْهِ يَكُونُ رَجَاءُ الأُمَّمِ». عمانوثيل: يا سيدي، وهل يهون الاختلاف والتحريف إذا وقع بين الأصل العبراني والترجمة السبعينية؟

وأيضاً في خامس عشر رومية: «٢١ بَلْ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: الَّذِينَ لَمْ يُخَيَّرُوا بِهِ سَيُنْصِرُونَ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْمَعُوا سَيَفْهَمُونَ». والموجود هو ما في الثاني والخمسين من إشعياء: «١٥ لِأَنَّ الَّذِي مَا أُخَيَّرَ لَهُمْ رَأَوْا وَالَّذِي مَا سَمِعُوهُ فَهَمُّوا».

رسالة كورنثوس الأولى والعهد القديم والاختلاف

وفي الفصل الأول من رسالة كورنثوس الأولى: «١٩ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: سَأَبِيدُ حِكْمَةَ الحُكَمَاءِ وَأَرْفِضُ فَهْمَ الفُهَمَاءِ». والموجود هو ما في الفصل التاسع والعشرين من إشعياء: «١٤ وَتَبِيدُ حِكْمَةَ حُكَمَائِهِ وَفَهْمَ فَهْمَائِهِ يَسْتَتِرُ».

وأيضاً في الأوّل من كورنثوس: «٣١ حَتَّى كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: مَنْ افْتَحَرَ فَلْيَفْتَحِرْ بِالرَّبِّ». والموجود هو ما في الفصل التاسع من إزميا: «٢٤ لِأَنَّهُ يَهْدِيهِ يَفْتَحِرُ الْمُفْتَحِرُ بِأَنَّهُ يَفْهَمُ وَيَعْرِفُنِي أَنِّي أَنَا الصَّانِعُ رَحْمَةً».

وفي الفصل الثاني من كورنثوس الأوّل:

٩ بَلْ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُجِبُّونَهُ.

والموجود هو ما في الفصل الرابع والستين من إشعيا: «٤ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَسْمَعُوا وَلَمْ يَضَعُوا عَيْنٌ لَمْ تَرَ إِلَهًا غَيْرَكَ يَصْنَعُ لِلْمُنْتَظَرِ لَهُ».

القس: يخطر ببالي أنّ جمعيّة كتاب الهداية قد أجابت عن هذا، فهل تعرف ما قالته؟
عمانوئيل: في الجزء الأوّل من كتاب الهداية ص ٢٣١ قال:

أولاً: أنّ المفسرين قالوا: إنّ الرسول بولس نقل ما في إشعيا بالمعنى.
وثانياً: أنّه استشهاد واقتباس من كلام إشعيا.

يا سيدي، وجميع ما قالته الجمعيّة واه؛ فإنّ النقل بالمعنى يلزم فيه اتّحاد المعنى في الكلامين، مع أنّه لا مناسبة هنا بين المعنيين في الكلامين المذكورين، نعم يتفقان في بعض المفردات.

وأما الاقتباس فهو أنّ الإنسان يجعل الكلام الذي يقتبسه بتركيبه ولفظه ومعناه جزءاً من كلامه، نحو ما استشهدت به جمعيّة كتاب الهداية.

فأين النقل بالمعنى؟ وأين الاقتباس من هذا المقام؟ مع أنّ رسالة كورنثوس تقول كما هو مكتوب، فيلزمه في صحّة النقل أن يذكر التركيب المكتوب. نعم إذا جعلنا الخطأ كما هاهنا من قسم النقل بالمعنى والاقتباس، فهنيئاً للمفسرين وجمعيّة كتاب الهداية.

وفي الفصل الرابع عشر من كورنثوس الأوّل:

٢١ مَكْتُوبٌ فِي النَّامُوسِ إِنِّي بِذَوِي أَلْسِنَةٍ أُخْرَى سَأُكَلِّمُ هَذَا الشَّعْبَ وَلَا هَكَذَا يَسْمَعُونَ لِي يَقُولَ الرَّبُّ.

والموجود هو ما في الثامن والعشرين من إشعياء: «١١ إِنَّهُ بَلَكْتَهُ شَفَقَهُ وَلِسَانٍ آخَرَ يُكَلِّمُ الشَّعْبَ هَذَا».

وفي الفصل الخامس عشر من كورنثوس الأولى:

٥٤ فَحِينِيذٍ - أَي حِينَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَمْوَاتِ - تَصِيرُ الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ ابْتِلَاحَ الْمَوْتِ إِلَى غَلْبَةٍ. ٥٥ أَيْنَ شَوْكُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ غَلْبَتُكَ يَا هَاوِيَةٌ؟

وقرئ بدل يا هاوية «يا موت» أيضاً. والموجود هو ما في الفصل الخامس والعشرين من إشعياء: «٨ بَلَغَ الْمَوْتُ إِلَى غَلْبَةٍ».

القس: يا عمانوئيل، إن التراجم التي رأيتها لإشعياء فارسيَّة وعربيَّة وغيرها تقول: «بَلَغَ الْمَوْتُ إِلَى الْأَبَدِ».

عمانوئيل: يا سيدي، المكتوب في الأصل العبراني: «بلع هموت لنصح» ولا يصح قول المترجمين: «إلى الأبد» إلا إذا قيل في العبراني: «لعلوم».

يا سيدي، وفي الفصل الثالث عشر من هوشع في الأصل العبراني: «١١٤ اهي دبريك موت هي قطبك شاول»، وقد اضطرب ما رأيته من التراجم في ذلك:

ففي النسخة الأولى من المذكورات في صحيفة ٣٢ - ٣٣: «أكون موتك يا الموت وعظك أكون يا الجحيم».

وفي الثانية والرابعة والخامسة: «أَيْنَ أَوْبَاؤُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ شَوْكُكَ يَا هَاوِيَةٌ؟».

وفي العاشرة: «اي موت، ضربات تو كجا است؟ اي هاويه هلاكت تو كجا است؟».

وفي السابعة والثامنة والتاسعة: «اي مرگ، من طاعونهايت خواهم بود و اي عالم

غيب، هلاكتت خواهم بود».

كورنثوس الثانية والعهد القديم والاختلاف

وفي الفصل السادس من كورنثوس الثانية:

١٦ كَمَا قَالَ اللَّهُ: سَأَسْكُنُ فِيهِمْ وَأَسِيرُ بَيْنَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهًا وَهُمْ يَكُونُونَ لِي سَعْبًا. ١٧ لِذَلِكَ أَخْرَجُوا مِنْ وَسْطِهِمْ وَاعْتَرَلُوا، يَقُولُ الرَّبُّ وَلَا تَمَسُّوا نَجْسًا.

فأقبلكم. ١٨ وأكون لكم أباً وأنتم تكونون لي بنين وبنات يقول الرب.

والموجود هو ما في الفصل التاسع والعشرين من سفر الخروج: «وأسكن في وسط بني إسرائيل وأكون لهم إلهاً».

وفي السادس والعشرين من اللاويين:

١١ وأجعل منكم في وسطكم ولا ترد لكم نفسي. ١٢ وأسير بينكم وأكون لكم

إلهاً وأنتم تكونون لي شعباً.

وفي الثاني والخمسين من إشعيا: «١١ اغتربوا اخرجوا من هنا لا تمسوا نجساً اخرجوا من وسطها تطهروا يا حاملي آية الرب». ولا يوجد للباقي مما ذكرته كورنثوس شبيه بالعهد القديم.

وفي الفصل الثامن من كورنثوس الثانية: «١٥ كما هو مكتوب: الذي جمع كثيراً لم يفضل والذي جمع قليلاً لم ينقص». والموجود هو ما في الفصل السادس عشر من الخروج: «١٨ لم يفضل المكثّر والمقلّل لم ينقص».

رسالة غلاطية والعهد القديم والاختلاف

وفي الفصل الثالث من الرسالة إلى أهل غلاطية: «١٣ لأنه مكتوب: ملعون ملعون كل من علّق على خشبة». والموجود هو ما في الفصل الحادي والعشرين من التثنية:

٢٢ وإذا كان بإنسان خطيئة من قضاء القتل وقتل وعلقته على خشبة لا تبث جثته على الخشبة بل قبراً تقبره بيومه؛ لأن المعلق لعنة الله.

فانظر إلى بلاء هذا التحريف.

وفي الفصل الرابع من غلاطية:

«٢٢ فإنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان واحد من الجارية والآخر من الحرّة».

وهذا الكلام غير مكتوب في العهد القديم.

« ٢٥ لأنَّ هاجَرَ جَبَلِ سَيْنَاءَ فِي الْعَرَبِيَّةِ، أَظُنُّ هَذَا الْكَاتِبَ كَتَبَ هَذَا فِي مَمْلَكَةِ الرُّومَانِ بَحِيثٌ يَأْمَنُ مِنْ تَكْذِيبِ الْعَرَبِ لَهُ، وَلَكِنَّ الْأَيَّامَ نَشَرْتُ قَوْلَهُ هَذَا بَيْنَ الْعَرَبِ، فَصَارَ عَجِيباً غَرِيباً عِنْدَ مَنْ يَسْمَعُهُ مِنْهُمْ. « ٣٠ لَكِنَّ مَاذَا يَقُولُ الْكِتَابُ؟ أَطْرُدُ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَرِثُ ابْنُ الْجَارِيَةِ مَعَ ابْنِ الْحُرَّةِ».

والموجود في الكتاب هو ما في الفصل الحادي والعشرين من التكوين عن قول سارة لإبراهيم: « ١٠ أَطْرُدُ الْأُمَّةَ هَذِهِ وَابْنَهَا لِثَلَا يَرِثُ ابْنُ الْأُمَّةِ هَذِهِ مَعَ ابْنِي مَعَ إِسْحَاقِ».

وما هو ثمرة الاستشهاد بقول سارة فهل قول سارة من وحي الله؟ وهل كلامها كلام الله؟ ولماذا لم يذكر المكتوب على وجهه؟ فهل بدله الخطأ أو العمد لثلا يعرف أنه قول سارة فيسقط التشبث به؟

رسالة العبرانيين والعهد القديم والاختلاف

وفي الفصل الأول من الرسالة إلى العبرانيين في بيان مجد المسيح بما قاله الله: « ٦ وَأَيْضاً مَتَى أَدْخَلَ الْبِكْرَ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ: وَلِتَسْجُدَ لَهُ كُلُّ مَلَائِكَةِ اللَّهِ، يَا سَيِّدِي وَلَا يُوْجَدُ هَذَا الْكَلَامُ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ.

القس: يقولون: إنه يوجد هذا الكلام في الفصل الثاني والثلاثين من التثنية ٤٣، حسب التوراة السبعينية.

عمانويل: يا سيدي، المصيبة واحدة، سواء زاد العهد الجديد على العهد القديم، أم زادت التوراة السبعينية على التوراة العبرانية.

وفي الفصل العاشر من رسالة العبرانيين:

٥ لِذَلِكَ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ ذَبِيحَةً وَقُرْبَاناً لَمْ تُرَدْ، وَلَكِنْ هَيَّأَتْ لِي جَسَداً.

٦ بِمُحْرَقَاتٍ وَذَبَائِحَ لِلخَطِيئَةِ لَمْ تُسَرَّ.

والموجود هو ما في المزمور الأربعين: « ٦ ذَبِيحَةً وَتَقْدِيمَةً لَمْ تُسَرَّ، أَدْنَيْنِ حَفَرَتْ لِي

مُحَرَّرَةٌ وَخَطِيئَةٌ» أي ذبيحة خطيئة ما سألت، فلم يقل: «هَيَّأَتْ لِي جَسَدًا» بل قال: «أُذْنَيْنِ حَفَرْتُ لِي»، ففي الأصل العبراني: «از نيم كريت لي» ولم يقل: «بمحرقاتٍ وذبائحٍ للخطيئة لم تُسرَّ».

القس: كتب في الترجمة السبعينية: «جَسَدًا هَيَّأَتْ لِي» بدل قوله في العبرانية: «أُذْنَيْنِ حَفَرْتُ لِي».

عمانوييل: يا سيدي، وهل من الهين أن يكون بين السبعينية والعبرانية هذا التحريف الكبير؟ ومن الوهن أن المترجمين للمزامير بعضهم يكتب في ترجمته «أُذْنَيْنِ فَتَحَتْ»: «غوشهای مرا باز کردی، گوشهای مرا سوراخ کردی». وبعضهم يكتب «بَلْ جَسَدًا هَيَّأَتْ لِي».

والنسخة المطبوعة سنة ١٨١١ جمعت في ترجمة المزامير بين الأمرين فكتبت: «وَأَعَدَدْتُ لِي جِسْمًا فَتَحَتْ مَسَامِعِي».

وفي رسالة العبرانيين اقتصرْتُ على قولها: «وَأَقْتَنَيْتَ لِي جِسْمًا».

يا سيدي، وإنّ تراجمنا لم تقف على قرارٍ، فتارةً تُترجم على وفق المتن العبراني وتارةً على مقتضى الحواشي، وتارةً على وفق الترجمة السبعينية، وتارةً على وفق السامرية. والمترجم الواحد لا يستقرّ على طريق مستمرّ، بل ترى كلّ مترجم كأنه يؤلّف من العبرانية والحواشي والسامرية والسبعينية واستحسانه كتاباً جديداً، وهذا ممّا يزيد في وهن الكتب.

نتيجة أمر العهد الجديد

أليعازر: قد صارت نتيجة درسنا أنّا خسرنا صحّة العهد القديم والعهد الجديد الرائجين، وبقينا في حيرة المهدين الحقيقيين، وهذا ممّا يدوم له الأسف. ولكنّي الآن أُحِبُّ أن أطلع على بعض الأمور تاريخياً، فهل يُمكن أن تذكر لي يا عمانوييل أحوال بولس، هذا الرجل الذي ساد في النصرانية اسمه وتعليمه؟

أحوال بُولُس

عمانوثيل: إِنَّ كِتَابَ أَعْمَالِ الرُّسُلِ وَالرِّسَالِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى بُولُسٍ تَذَكُرُ شَيْئاً مِنْ الْأَحْوَالِ لِبُولُسٍ، وَأَمَّا كِتَابُ التَّارِيخِ فَإِنَّ كَانَ فِيهَا شَيْءٌ فَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا.

ولأجل ذلك لم يكتب شيء من أحوال بُولُسٍ وسفره، وزمان موته ومكانه، وكيفيته من بعد رحلته الأخيرة إلى رومية؛ وذلك لأجل أن كتاب أعمال الرسل قطع كلامه على مكث بولس في رومية سنتين كاملتين.

فها أنا ذا أذكر ما يذكره كتاب الأعمال والرسائل فإتها تقول: إِنَّ اسْمَهُ الْأَصْلِيَّ شَاوُلٌ^١، وكان مولده في طَرُسُوسَ كِيلِيكِيَّةَ وترَبَّى في أُورُشَلِيمَ^٢، وهو إسرائيلي بَنِيَامِينِي عَلَى مَذْهَبِ الْفَرِّيْسِيِّينَ^٣.

والفَرِّيْسِيُّونَ من بني إسرائيل يعتقدون بقيامه الأموات وبقاء النفس ووجود الملائكة، بخلاف الصَّدُوقِيِّينَ الْمُتَنَكِّرِينَ لذلك.

وقد كان بُولُسُ بعد ارتفاع المسيح إلى السماء ضدّاً لكنيسة المسيحيين، يدخل البيوت ويجزّ رجالاً ونساءً لأجل إيمانهم بالمسيح ويسلمهم إلى السجن^٤، ولم يزل ينفث تهديداً وقتلاً على تلاميذ المسيح^٥، وصنع أموراً كثيرة لاسم يسوع المسيح، وحبس في السجن كثيرين من القديسين.

وفي كلّ المجمع كان يعاقبهم مراراً كثيرة، ويضطرّهم إلى التجديف - أي الكفر بالمسيح وشمته - ويضطهد كنيسة الله بإفراط ويتلفها^٦، وكان مجدّفاً - أي يكفر

١. أعمال الرُّسل ٩: ١.

٢. أعمال الرُّسل ٢٢: ٣.

٣. أعمال الرُّسل ٢٣: ٦.

٤. أعمال الرُّسل ٢: ٤ و ٨: ٣.

٥. أعمال الرُّسل ٩: ١.

٦. رسالة بولس إلى أهل غلاطية ١: ١٣.

بالمسيح ويشتمه - ومضطهداً ومفترياً^١.

وطلب رسائل من رئيس الكهنة ليختطف المؤمنين بالمسيح من الطريق رجالاً ونساءً، ويسوقهم مؤثّقين إلى أورشليم.

ويذكر كتاب الأعمال في الفصل التاسع^٢ والثاني والعشرين^٣ ما حاصله: إن يُوّلس نفسه يذكر:

إِنَّهُ عِنْدَ اقْتِرَابِهِ إِلَى دِمِشْقَ أْبْرَقَ حَوْلَهُ نَوْرٌ مِنَ السَّمَاءِ فَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ وَسَمِعَ صَوْتًا قَائِلًا: سَأُولُ شَاوُلُ لِمَاذَا تَضْطْهِدُنِي؟ قَالَ: مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدِي؟ قَالَ: أَنَا يَسُوعُ الَّذِي تَضْطْهِدُهُ. فَقَالَ - وَهُوَ مَتَحَيِّرٌ -: مَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ؟ فَمَ وَادْخَلَ الْمَدِينَةَ فَيَقَالُ لَكَ مَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَ. وَالرِّجَالُ الْمَسَافِرُونَ مَعَهُ وَقَفُوا صَامِتِينَ يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلَا يَرَوْنَ أَحَدًا فَهَنَضَ وَكَانَ مَفْتُوحَ الْعَيْنِينَ وَهُوَ لَا يُبْصِرُ فَأَقْتَادُوهُ وَأَدْخَلُوهُ دِمِشْقَ وَكَانَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا يُبْصِرُ فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ. وَكَانَ فِي دِمِشْقَ يَلْمِذُ اسْمَهُ حَنَانِيًّا فَقَالَ لَهُ الْمَسِيحُ فِي رُؤْيَا حَنَانِيًّا: فَمَ وَادْهَبْ إِلَى الزَّقَاقِ الَّذِي يَقَالُ لَهُ الْمُسْتَقِيمُ واطْلُبْ فِي بَيْتِ يَهُوذَا رَجُلًا طَرَسُوسِيًّا اسْمُهُ شَاوُلُ وَضَعْ يَدَكَ عَلَيْهِ لِيُبْصِرَ. فَعَضَى وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ فَلَبِوَتْ وَقَعَ مِنْ عَيْنَيْهِ شَيْءٌ كَأَنَّهُ قُشُورٌ فَأَبْصَرَ وَجَعَلَ يَعْطُ فِي الْمَجَامِعِ بِالْمَسِيحِ. وَبَعْدَ أَيَّامٍ تَشَاوَرَ الْيَهُودُ لِيَقْتُلُوهُ فَصَارُوا يُرَاقِبُونَ أَبْوَابَ دِمِشْقَ لَيْلًا وَنَهَارًا بِمُسَاعَدَةِ مَلِكِهَا «الْحَارِثِ الْعَرَبِيِّ» فَأَخَذَهُ التَّلَامِيذُ لَيْلًا وَأَنْزَلُوهُ مِنَ السُّورِ.

أليعازر: يا عمانوئيل، إن هذا الذي تذكره من نداء المسيح لبوّلس وفتح عينيه، أمرٌ خطير وآية كبيرة كافية في الحجّة إذا كانت معلومة الصحّة والوقوع، فهل إلى حصول العلم بها من سبيل، ومَن ذا الذي يذكرها؟

عمانوئيل: إن الذي يذكرها هو كتاب أعمال الرُّسل المنسوب، إلى لوقا عن نقل بوّلس نفسه.

١. رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ١: ١٣.

٢. العدد ٣-٢٥.

٣. العدد ٦-٢١.

أليعازر: يا عمانوئيل، كنتُ أحسبُ أنك تأتيني بجواب له قيمة، فإني قد سمعتُ مكالمتك مع حضرة سيدنا القس في صحيفة ١٣٦ إلى ١٤٠ واتضح لي منها أن لوقا لا يمكن أن نعرف أنه يكتب بالإلهام، ولا يمكن أن نعرف أنه ممن حلّ عليه الروح القدس، فماذا يُفيدنا كلامه؟

وإذا بنينا على أنه واحد من المؤمنين بالمسيح، فمن أين نعلم أن كتاب أعمال الرسل من إملائه؟

ولو علمنا أنه من إملائه وقلنا: إنه مؤمن تقيّ أنه لا يتعمد الكذب، لما حدث لنا أقلّ ظنّ بهذا المنقول؛ لأنّ لوقا لم يُشاهد هذه الأحوال. بل إنّ النظر في الثاني والعشرين من الأعمال وُحبة لوقا لبولس، يعطيان أنّ لوقا ينقل ذلك عن بولس نفسه، فهل يحتجّ بولس على الناس بقوله: «أنا هو الشاهد لنفسي؟».

وأيضاً يا عمانوئيل، إنّ كتاب أعمال الرسل يذكر في الفصل الثاني: «٣٤ إنّ داود يقولُ قال الربُّ لِرَبِّي: اجلس عن يميني» وقد ظهر من صحيفة ٨٨ ما في هذا الكلام من التحريف والتعليم بتعدد الأرباب. وقد ظهر من صحيفة ١٨٧ - ١٩٠ ما في كتاب الأعمال من خلل المخالفة للعهد القديم.

وبعد هذا كلّه هل يبقى وجه لقبول كتاب الأعمال وتصديق أقواله، سواء صحّت نسبته إلى لوقا أم لم تصحّ؟! فهو وإنجيل لوقا بميزان واحد لا ينبغي لنا أن نركن إلى أقواله، ولكن مع ذلك لا تقطع كلامك فيما يذكره العهد الجديد في أحوال بولس.

عمانوئيل: ولما جاء بولس من دمشق إلى أورشليم أراد أن يلتصق بتلاميذ المسيح، وكان الجميع يخافونه ولا يصدّقون بإيمانه بالمسيح، فأخذه بزناً وأحضره إلى الرسل وأخبرهم بأنّه أبصر المسيح في الطريق، وكيف كان يُجاهر بالدعوة إليه في دمشق.

وكان بعد قبول التلاميذ له يُباحث اليونانيين، فحاولوا أن يقتلوه، فلما علم التلاميذ أرسلوه إلى طرسوس محلّ ولادته في كيليكية ثم بعد مدة انحدر بزناً إلى طرسوس

ليطلب بُولُس، فلمّا وجده جاء به إلى أنطاكيّة، وكانا هناك سنة كاملة، ثمّ جمع المسيحيّون أموالاً وأرسلوها بيد برنابا وبولس إلى المشايخ في أرض اليهود^١.
أليعازر: يا عمانوئيل، ذكرت بَرْنَابَا، فهل تعرف شيئاً من تاريخه؟

أحوال برنابا وحقيقة إنجيله

عمانوئيل: بدء تاريخه في العهد الجديد أنّ اسمه يوسف أو يوسى، ثمّ سمّاه الرسل بَرْنَابَا، أي ابن الوعظ. وهو لاوي قُبرسي الجنس، كان له حقل باعه وأتى بالدراهم إلى الرسل^٢، وأرسله الرسل ليجتاز إلى أنطاكيّة للوعظ والتثبيت على الإيمان بالمسيح، وكان رجلاً صالحاً وممتلئاً من الروح القدس والإيمان^٣، ومنها خرج إلى طَرُشُوس في طلب بُولُس.

أليعازر: وهل يذكر أثر لبرنابا في بدء أمره غير هذا؟

عمانوئيل: يذكر التاريخ أنّ البابا جلاسيوس الأوّل - الذي جلس على الأريكة الباباوية سنة أربعمئة واثنين وتسعين مسيحيّة - أصدر أمراً يعدّد فيه أسماء الكتب المنهيّة عن قراءتها، وفي عدادها كتاب يسمّى إنجيل بَرْنَابَا، وهذا يعطي أنّ بَرْنَابَا كان له إنجيل يقرأ في تلك القرون.

ولكن لا يخفى أنّ قراءة الكتب الدينيّة في الأعصار القديمة إلى زمان شيوع الإصلاح البروتستنتي كانت مختصّة بالروحانيّين، غير مسموحة ولا مأذون بها للعامة، بالضرورة لا يكون حينئذٍ للكتب الدينيّة شيوع له اسم، خصوصاً إذا كان الكتاب مثل إنجيل بَرْنَابَا مخالفاً للتعاليم التي لها الغلبة والنفوذ في الديانة، فإنّ مخالفته كبيرة جداً. فبالضرورة يكون إنجيل بَرْنَابَا أقلّ الكُتب شيوعاً، فإن أظهر نفسه فعلى رغم المراقبة، لكن بعض العلماء يقولون: إنّ أمر البابا جلاسيوس

١. أعمال الرسل: ١١ (منه ❀).

٢. أعمال الرسل ٤: ٣٦ و ٣٧.

٣. أعمال الرسل ١١: ٢٢ و ٢٤.

تزييرُ بالمرّة.

يا والدي، ولا يخفى عليك أنّ القاعدة المعقولة تقتضي أنّ كلام التأريخ أحقّ بالقبول من دعوى هؤلاء العلماء النافين، خصوصاً بعد ظهور إنجيل بَرْنَابَا الهادم لببناء هذه النصرانيّة الموجودة.

ونقل عن صاحب اكسيهومو - من علماء البروتستنت - في الباب الخامس من التتمّة من كتابه المطبوع سنة ١٨١٣م في لندن، أنّه ذكر فهرست الكتب التي ذكر المشايخ من القدماء المسيحيّين أنّها نُسبت إلى المسيح وأتباعه، وعدّ من هذه الكتب إنجيل بَرْنَابَا ورسالته.

وقال المستشرق سايل في مقدّمته لترجمة القرآن: إنّ الراهب اللاتيني فرامرينو ذكر أنّه وجد رسائل للقديس ابرينا يوس - من الجيل الثاني للمسيح - ومن جملتها رسالة يُنَدّد فيها ببؤس ويزمّه ويسند تنديده إلى إنجيل القديس بَرْنَابَا. فصار الراهب المذكور شديد الشوق إلى العثور على إنجيل بَرْنَابَا، وتوفّق للعثور عليه في مكتبة البابا سكتس الخامس، وكان ذلك في أواخر القرن السادس عشر.

ثمّ ظهرت نسخة إيطاليّة سنة ١٧٠٩م، ووجد في أوائل القرن الثامن عشر نسخة أسبانيّة، ونقلها الدكتور منكهوس إلى اللغة الإنكليزيّة، ودفع الأصل مع الترجمة إلى الدكتور هويت سنة ١٧٨٤م، وقد شاع خبر هذا الإنجيل في الأندية الدينيّة والعلميّة في أوّل القرن الثامن عشر، وكان على هوامش النسخة الإيطاليّة المتقدّمة الذكر جملٌ كثيرة بأسلوب اللسان العربي، ولكنها لكثرة غلطها ككلام رجل غربي في أوّل تعلّمه في العربيّة.

ولم يعرف لإنجيل بَرْنَابَا نسخة عربيّة، ولا ذكر اسمه في تأريخ العرب والمسلمين، ولم يعرف ما فيه حتّى طبعت ترجمة الدكتور خليل سعادة سنة ١٩٠٨م وإنّ الشرق يشهد كلّه بأنّه لم يسمع باسم بَرْنَابَا وإنجيله، ولا عرف له أثراً وذكراً حتّى طلع كوكبه من الغرب.

ومهما قال أصحابنا في إنجيل بَرْنَابَا فهو خيرٌ من قولهم بأنّه منقول من أصل عربي،

وعلى الخصوص قول الدكتور هويت: «إنّ الأصل العربي لا يزال موجوداً في الشرق».
ومن الغريب قول البستاني في الدائرة في ترجمة بَرْنَابَا:

ويوجد إنجيل مزوّر منسوب إلى بَرْنَابَا في اللغة العربيّة، وقد ترجم إلى اللغة
الإنكليزيّة والأسبانيوليّة والإيطاليّة^١.

فانظر إلى هذا الكاتب كمّ من مسؤوليّة أوردتها على نفسه للتأريخ، فيا للعجب؟!
أليعازر: كيف يُنَدّد إنجيل بَرْنَابَا بالقدّيس بُولس؟
عمانويّل: يقول في أوّله:

إنّ الله العظيم افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبّه يسوع المسيح برحمة عظيمة
للتعليم. والآيات التي أتخذها الشيطان ذريعةً لتضليل كثيرين بدعوى التقوى
مبشّرين لتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله ورافضين الختان الذي أمر الله
به دائماً، مجوّزين كلّ لحم نجس، الذين ضلّ في عدادهم أيضاً بُولس الذي
لا أتكلّم عنه: إلّا مع الأسى.

وقال في آخره:

فإنّ فريقاً من الأشرار المدّعين أنّهم تلاميذ بشّروا بأنّ المسيح مات ولم يقم،
وآخرين بشّروا بأنّه مات بالحقيقة ثمّ قام. وآخرين بشّروا ولا يزالون يبشّرون بأنّ
يسوع هو ابن الله وقد خدع في عدادهم بُولس.

يا والدي، وقد ذكر الدكتور خليل سعادة في مقدّمته على إنجيل بَرْنَابَا أنّ هنالك
إنجيلاً يسمّى بالإنجيل الأغنسطي، طُمست رسومته وعفت آثاره، بيتدئ بمقدّمة تندّد
بالقدّيس بُولس، وينتهي بخاتمة فيها مثل ذلك التنديد.

يا والدي، والغرض من هذا كلّهُ أنّ إنجيل بَرْنَابَا يذكر أنّ بَرْنَابَا أحد التلاميذ الاتني
عشر الذين اختارهم المسيح.

أليعازر: يا عمانويّل، وهل كان في التلاميذ من يعارض بُولس في هذه التعاليم

المعروفة في النصرانيّة؟

تعاليم النصرانية بعد المسيح

عمانوييل: الذي يذكره الفصل الخامس عشر من أعمال الرسل هو: أن تعاليم النصرانية إلى نحو السنة الخمسين من تأريخ الميلاد والثانية والعشرين من ارتفاع المسيح كانت على وفق شريعة التوراة، ولكن التلاميذ اجتمعوا وخطب من بينهم يعقوب، وأبدى الرأي بأن يحصر والواجب على الأمم بالامتناع عن الزنى وأكل المخنوق والدم وما ذبح للأوثان^١. وصرح الفصل الحادي والعشرين من أعمال الرسل أيضاً: بأن بولس حضر إلى أورشليم في الدفعة التي أخذ فيها بعد أيام أسيراً إلى رومية، ومنها انقطع خبره وأثره، فاجتمع مع يعقوب والمشايخ وقالوا له:

إِنَّ الرِّبَاتِ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْمَسِيحِ غَيُورُونَ لِلنَّامُوسِ. وَقَدْ بَلَّغَهُمْ أَنَّكَ تَعْلَمُ الْيَهُودَ الَّذِينَ بَيْنَ الْأُمَمِ أَنْ لَا يَخْتِنُوا أَوْلَادَهُمْ وَلَا يَسْلُكُوا حَسَبَ الْعَوَائِدِ - أَيِ الشَّرِيعَةِ الْمَوْسَوِيَّةِ - وَأَمْرُوهُ أَنْ يَنْضَمَّ إِلَى أَرْبَعَةٍ يَرِيدُونَ أَنْ يَطَهَّرُوا حَسَبَ الشَّرِيعَةِ الْمَوْسَوِيَّةِ. وَقَالُوا لَهُ: وَعَامِلْ مِثْلَهُمْ، لِيُظْهَرَ أَنَّكَ حَافِظٌ لِلنَّامُوسِ. وَيَعْرِفُوا خِلَافَ مَا شَاعَ عِنْدَكَ. فَعَمَلُ بُولَسَ بِشَّرِيعَةِ التَّوْرَةِ. وَأَخْبَرَهُ الْمَشَايِخُ بِأَنَّهُمْ كَتَبُوا إِلَى الْأُمَمِ أَنْ لَا يَحْفَظُوا الْعَمَلَ بِالشَّرِيعَةِ الْمَوْسَوِيَّةِ غَيْرِ الْاِمْتِنَاعِ عَنِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ الْمَذْكُورَةِ^٢.

أليعازر: يعقوب هذا، هل هو من التلاميذ الاثني عشر؟

عمانوييل: كان في التلاميذ الاثني عشر رجلاً اسمهما يعقوب. أحدهما: يعقوب بن زبدي أخو يوحنا، والثاني: يعقوب بن حلفي.

أمّا يعقوب بن زبدي فقد قتله هيرودس قبل مجلس المشورة في رفع الختان وحصر الواجبات بالأربعة المذكورة، وعليه يكون يعقوب المذكور في مجلس المشورة وما بعده هو ابن حلفي، ولعله هو الذي سمّاه الفصل الأول من رسالة غلاطية «يعقوب أخا الرب» أي أخا المسيح.

١. العدد ١ - ٢٦.

٢. العدد ١٧ - ٢٦.

إخوة المسيح في العهد الجديد

أليعازر: هل كان عند المسيح إخوة؟ وهل هم إخوته من أمّه مريم العذراء؟

عمانوئيل: صرّح الفصل الثالث عشر من متى في العدد الخامس والخمسين والفصل السادس من مَرْقُس في العدد الثالث: أنّ المسيح لما جاء إلى وطنه تعجّب اليهود من تعليمه وقالوا: «أليس هذا ابنَ النجّار وأمّه مريم وإخوته يعقوب ويُوسبي ويسمعان ويهوذا».

وفي الفصل التاسع من رسالة كورنثوس الأولى ذكر إخوة الربّ في مقام يشعر بأنّ لهم رئاسة في الديانة والتعليم.

أليعازر: هؤلاء الإخوة الأربعة، هل هم أولاد مريم أمّ المسيح، أم هم أولاد يوسف النجّار من امرأة أخرى؟

عمانوئيل: لم أعرف من العهد الجديد بياناً من ذلك، ولكن كتاب مغني الطلاب في مواضع العهدين ذكر يعقوب بن حَلْفِي وسماه: «نسيب ربّنا»، وأشار في عنوانه إلى قول رسالة غلاطية: «يعقوب أخا الربّ» وإلى مَرْقُس ٦: ٣ لذكره يعقوب من إخوة المسيح. وأشير في حاشية العهد الجديد في الفصل السادس من مَرْقُس، عند ذكر يعقوب من إخوة المسيح إلى قول غلاطية: «يعقوب أخا الربّ» كما أُشير في حاشية غلاطية إلى ذكر يعقوب من إخوة المسيح في متى ١٣: ٥٥ ومَرْقُس ٦: ٣.

وفي متى ١٢: ٥٠ - ٦٤ ومَرْقُس ٣: ٣١ - ٣٥ ولوقا ٨: ١٩ - ٢٢ يذكر أنّ إخوة المسيح وأمّه جاؤوا إلى رؤيته فلم يعتن بهم.

وفي يوحنا ٧: ٣ و ٥ و ١٠ يذكر إخوة المسيح.

هذا، وفي كتاب قاموس الكتاب المقدّس في عنوان «إخوة الربّ»: أنّ في النسبة بينهم وبين المسيح ثلاثة آراء:

إنّهم إخوة المسيح من مريم ويوسف بعد ولادته، وهو التفسير البسيط الموافق

للآيتين في متى ١: ٢٥ و ١٣: ٥٥.

غير أنّ الاحترام للعذراء، وقيمة البتولية في الكنيسة القديمة، والاشمئزاز الكائن في كثيرين من جهة اعتبار مريم كامرأة اعتيادية تحبل وتلد بعد حلول الروح القدس فيها وولادة المسيح منها، قد دفعت الكنيسة الرومانية والشرقية بفروعها جانباً من الكنائس الإنجيلية إلى رأيين آخرين.

يا والدي، وليس في الرأيين الآخرين إلا التوهّم الواهي والافتراض البارد والمخالفة لصريح الأناجيل.

أليعازر: لا يهتّمنا ذلك، ولكنّ المهمّ المُدهش هذا التعليم المختلف المتناقض، يعلمون اليهود المؤمنين بالمسيح بأنّ يحفظوا الناموس، ويعلمون الأمم بأنّ لا يحفظوه، هل يكون مثل هذا في الشريعة؟

الاختلاف في التعليم

عمانويل: يا والدي، أحبّ أن أذكر لك أيضاً في ذلك شيئاً من العهد الجديد، فإنّ كتاب الأعمال يذكر بعدما تمّت مشورة الرّسل برفع الختان وواجبات التوراة، ورجع بولس بكتاب هذه المشورة إلى أنطاكية، وأقام فيها مدّة وسافر إلى لِسْتَرَة، أنّه وجد تلميذاً يونانياً، ولما أراد أن يأخذه معه في سفره ختنه^١.

ويذكر الفصل التاسع من الرسالة الأولى لأهل كورنثوس: أن بولس يقول:

صِرْتُ لِلْيَهُودِ كَيَهُودِي لِأَرْبَحَ الْيَهُودَ وَلِلَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ كَأَنِّي تَحْتَ
النَّامُوسِ لِأَرْبَحَ الَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ. وَلِلَّذِينَ بِلَا نَامُوسٍ كَأَنِّي بِلَا نَامُوسٍ لِأَرْبَحَ
الَّذِينَ بِلَا نَامُوسٍ!!^٢

ويذكر الفصل الثاني من رسالة غلاطية عن لسان بولس قوله:

ولمّا أتى بطرس إلى أنطاكية فاقمته جهاراً لأنّه كان ملوماً؛ لأنّه قبل ما أتى قوّم
من عنده يعقوب كان يأكل مع الأمم ولكنّ لمّا أتوا كان يؤخّر ويفرّز نفسه خائفاً

١. أعمال الرّسل ١٦: ١-٣.

٢. العدد ٢٠ و ٢١.

مَنْ الذِينَ هُمْ فِي الْخِتَانِ. وَرَأَى مَعَهُ بَاقِيَ الْيَهُودِ أَيْضاً حَتَّى أَنْ يَزْنَابَا لِنَقَادَ إِلَى رِيَائِهِمْ أَيْضاً.

ويذكر هذا الفصل عن بولس دعواه أنّه:

أُوْتِينَا عَلَى إِنْجِيلِ الْعَزَلَةِ كَمَا أُوتِينَا بِطَرُوسَ عَلَى إِنْجِيلِ الْخِتَانِ. وَأَنْ يَعْقُوبَ وَصَفَا - بَطْرُوسَ - وَيُوْحَنَّا الْمُعْتَبِرِينَ أَنَّهُمْ أَعْمِدَةٌ أَعْطَوْهُ لِيَكُونَ لِلْأُمَّمِ وَأَمَّا هُمْ فَلِلْخِتَانِ ٢.

أليعازر: عجباً، فكيف يكون الدين الواحد متناقض الأحكام، يجعل لكل أمة حكماً يناقض حكم الأمة الأخرى؟! و يا أسفاه على الدين إذا كان رُسله مرائين كما هو مكتوب؟!!

رسائل بولس

عمانوئيل: يا والدي، إنّ الرسائل المنسوبة لبولس قد رفعت مشكلة التناقض، ووحدت الدعوة لرفض الناموس والأعمال، وأخذت بمذمة المشايخ والتلاميذ الذين يدعون إلى حفظ الناموس والأعمال الصالحة، وأباححت حتى الدم والمخنوق وما دُبح للأوثان بأشدّ مجاهرة، وقد أحرز تعليمها للنفوذ والسيادة على تعاليم الرسائل والمشايخ.

لماذا ساد التعليم المنسوب إلى بولس بإبطال الشريعة؟

أليعازر: عجباً، كيف يسود التعليم المنسوب لبولس على تعاليم الرُسل والنصارى العبرانيين، مع شدّة اهتمامهم بحفظ الشريعة والأعمال الصالحة، كما يذكره كتاب أعمال الرُسل ورسالة يعقوب، حتى أنّ الرسائل المنسوبة لبولس تشهد باهتمام الرُسل والنصارى العبرانيين بحفظ الشريعة.

فهل تعرف يا عمانوئيل سبباً لذلك؟ وكيف غلبت التعاليم المنسوبة لبولس على

تعاليم المسيح بحفظ الناموس والعمل بتعاليم الكُتبة؛ لأنهم على كرسي موسى جلسوا، وغلبت على تعاليم الرسل والتصارى العبرانيين؟
 عمانوئيل: يا والدي، لا يحسن في أدبي أن أتكلّم في جواب سؤالك بحضرة سيّدنا القسّ.

القسّ: يا عمانوئيل، إن كنت تجد في نفسك معرفةً للسبب الذي سأل عنه أبوك فتكلّم.
 عمانوئيل: يا سيدي، فهل تسعدني أطافك بأن تزجرني حينما أنحرف عن الصواب؟
 القسّ: يا عمانوئيل لك ذلك.

عمانوئيل: يا والدي، لا بُدّ من أنّك عرفت من كُتب العهد القديم سرعة ميل الإسرائيليين إلى الأهواء الباطلة وأضاليل الوثنيّة، وشدّة تمرّدهم على الشريعة من زمان موسى النبيّ إلى سبي بابل، بحيث لا تردّهم الآيات العجيبة ولا الانتقامات العاجلة. نعم، عرفهم سبي بابل وما قاسوه من الذلّ أنّهم لا سبيل لهم إلى أن يستعيدوا شيئاً من مجدهم إلّا بجامعتهم القوميّة المرتبطة باسم الديانة الإسرائيليّة، فأورثهم ذلك تعصّباً شديداً في اللزوم لصورة الدين الإسرائيلي في الرسوم العموميّة مع تفرّقهم وراء أهوائهم في الأعمال الشخصيّة.

أليعازر: نعم، إنّي أجدّ نوع اليهود في الجيل الحاضر يحافظون في الظاهر على صورة أعيادهم ومواسمهم ورسومهم العموميّة، ولكن ليس لشخصيّاتهم كثير التزام بالشريعة، كما نراه شائعاً منهم في أكل اللحوم ومخالطة الأمم وشيوع المنكرات المنهيّ عنها في الدين، وهذا يشهد لنا بتاريخ متسلسل في أجيالهم.

عمانوئيل: يا سيدي الوالد، ولما صار اليهود تحت سلطة الروم، انتشر اليهود في بلادهم في آسيا الصغرى ومقدونيا وبلاد اليونان حتّى إلى رومية، وكان يصعب عليهم فيما بين الأمم التزمهم بالشريعة اليهوديّة، ويمنعهم تعصّبهم لجامعتهم الإسرائيليّة الدينيّة أن يخرجوا بالصراحة عن صورة ديانتهم.

فكانوا من أجل ذلك في عناءٍ شديد، تتجاوزهم فيه صعوبات الخلطة وميل الأهواء وشدّة التعصّب للجامعة القوميّة.

ولمّا بلغتهم دعوة المسيح وكراماته، ارتاحوا لها؛ لأنّها دعوة إسرائيلية توافق تعصّبهم القومي، وخيّلت لهم آمالهم أنّهم يستفيدون من تجديد هذه الدعوة ونهضة اتّحادها فائدةً قوميّةً أو سياسيّةً.

ولم تكن لهم رئاسات يأكلون بها الدنيا باسم الدين كالكهنّة والكّتبة الذين في بلادهم اليهوديّة لكي تتقلّ عليهم دعوة المسيح، بل ربما اغتموا منها الاستراحة من تلك الرئاسات التي يدعون أنّها رباتيّة، فكانت الدواعي لرغبتهم في الدعوة المسيحيّة كثيرةً جدّاً.

يا والدي، وهؤلاء اليهود - الذين آمنوا على البعد بالمسيح - لمّا اختلفت عليهم التعاليم باسم الدعوة المسيحيّة، وكان من جملتها ما يوافق أهواءهم في المساهلة ورفع القيود، ويهتئو لهم العيش بين الأمم، ويصفيّ لهم موارد الخلطة معهم، وهو هذا التعليم المنسوب إلى رسائل بولس، فمن الضروري أن يكون هو التعليم المقبول الذي تحسّنه الأهواء للنفوس وتجذبها إليه وتجعله هو التعليم السائد بنفوذ.

يا سيّدي الوالد، وقد ساعد ما ذكرته لك من السبب وأعانه على التأثير، انتشار الرومانيّين واليونانيّين في سوريا وفلسطين، وارتباط سوريا مع المملكة الرومانيّة بالروابط السياسيّة والتجاريّة، فإنّ ذلك اقتضى أن تشيع فضيلة سيّدنا المسيح في تعليمه بالفضائل الروحيّة ومعجزاته النبويّة على وجه لا يسترها إلاّ عناد التعصّب، فمن الضروري أن تهشّ إلى الإيمان به كثير من النفوس.

ولكن تحول دون ذلك صعوبات شديدة من ألفة الناس لأديانهم وعواندهم، فلمّا جاءهم التعليم المنسوب إلى بولس في الرسائل سهّل عليهم أمر الإيمان بسهولة كبيرة، حيث كان تعليم الرسائل لم يغيّر شيئاً من عوائد اليونانيّين، ولم يقيدهم بشريعة تخالف شرائعهم، ولا اعتقاد يخالف ثلوثهم والولادة من الله.

وغاية ما وجدوه في هذا التعليم من تجديد الدين المسيحي هو أن يُدرجوا المسيح في عداد الآلهة المتجسّدة وأبناء الله، فينالوا البرّ والنجاة والغفران بهذا الإيمان البسيط، فكان من الضروري أن يرغب في هذا التعليم كلّ من تحنّ نفسه إلى الإيمان بالمسيح

وتصدّه صعوبات الشريعة المخالفة لمألوفاته.

يا والدي، فتعاضدت الأسباب على سيادة التعليم المنسوب إلى بُولُس إلى أن تلاشى التعليم المخالف له.

يا والدي، وقد سهّل هذا التعاضد وأزَالَ عنه كُلَّ صعوبة، أَنَّهُ لم يبرز بين الناس من المسيح كتابٌ معلوم النسبة له، قد دوّنت فيه أصول تعاليمه وأساسيات دينه، ليكون هو المرجع واللسان المترجم عن المسيح في زمانه وبعده، بل كان بيان تعاليم المسيح -أصلاً وفروعاً- موكولاً إلى الأنتقال المرتبكة في معارك الأهواء، ومن الضروري أن تكون السيادة في هذه الأحوال لما يوافق الهوى.

أليعازر: يا عمانوئيل، أراك كأنك تشكك في نسبة هذه الرسائل وهذه التعاليم إلى بُولُس.

عمانوئيل: يا سيدي الوالد، أشك في ذلك من أجل أَنَّهُ لا يمكن الوقوف على سندٍ متصل لنسبة هذه الرسائل وهذه التعاليم إلى بُولُس، فلا تحتمل ذمتي أن أقطع بنسبتها إليه. وأما حقيقة حاله فعلمها عند الله، وإني على ثقةٍ تامّةٍ بقُدس تلاميذ السيّد المسيح وكمالهم في الإيمان وثباتهم على حقيقة تعليمه المقدّس.

وبالختام نقول بما هو رأينا من أوّل الأمر: إنّ كلامنا من الأوّل إلى الآخر إنّما يتعلّق بما نجده مكتوباً من دون نظر إلى شخصٍ معيّنٍ وكاتبٍ معيّنٍ، وإنّ ذكّرنا بعض الأسماء فإنّما كان ذلك على سبيل الاتّباع للتسمية، ومن ذلك قولنا: الإنجيل، إنجيل متى، إنجيل يوحنا، فلان، من هو متى؟ من هو يوحنا؟ فإنّنا لم نتحقّق عندنا نسبة كتاب من كتب العهدين وغيرها ممّا اعترضنا عليه.

ونسأل الله التوفيق إلى الهدى والسداد والصلاح لنا ولجميع البشر، وليكن هذا آخر الجزء الأوّل، والحمد لله أولاً وآخراً وله المجد والعظمة.

الجزء الثاني

[دراسة معارف الإسلام من القرآن والتاريخ]

بسم الله الرحمن الرحيم

ولله الحمد كما هو أهله، وهو المستعان، والصلاة والسلام على رُسله وأنبيائه وأوليائه.

دين الإسلام والقرآن

أليعازر: يا سيدي القس، إني ربما ألتفتُ إلى دين الإسلام، فأكاد أن أستحسنه حينما أنظر إلى صفاء توحيدِهِ، ونزاهة عرفانه، واستقامة تعاليمه، وسلامة كتابه ممَّا ذكرناه من كتب العهدين وأزعجنا بمنافياته لجلال الله وقدس الأنبياء.

ولكن يا سيدي إذا نظرتُ إلى قيامه بقوة السيف وغلبة القسوة نفرتُ منه، خصوصاً إذا كان يقطع علاقتي بالدين المسيحي، ويكدرُ صفاء إيماني بالسيّد المسيح، ويشوشُ محبّتي له واعتصامي به. فهل يسمح لي سيدي بأن ننظر في دين الإسلام ونخوض في أمره وأمر كتابه؟ وهل يسمح لي سيدي بأن يُجاهر في الحقيقة بصريح البيان؟

القس: يا أليعازر، قد جئتُ في هذا الكلام بفصول كثيرة، كلّ فصل منها يحتاج إلى إيضاح وتحقيق، وربما كان الوقت والحال لا يسمحان ببيان بعض الفصول.

أليعازر: يا سيدي، لي الثقة بأنّ عندك علماً كبيراً يضمن لنا إيضاح روح الحقائق، وينتبت أقدامنا في موقف الحقّ اليقين. ولكن يالأسف أراك تحيد عن المجاهرة بالبيان، وإني لا أتهم قداستك بكتمان الحقّ والإغماض عن إرشاد الجاهل، ولكّني أراك تنتظر الفرصة في تعليمنا وإرشادنا.

يا سيدي، والعمر قصير، فهل أعلّل نفسي بالفرصة بعد الموت؟! فإن كُنْتَ تحذر من

هيجان التعصّب فينا، فلَكَ علينا كلّ عهد وثيق أن نضع كلّ تعصّب تحت أقدامنا. القس: يا أليعازر، أمّا ما ذكرته من صفاء توحيد الإسلام ونزاهة عرفانه واستقامة تعاليمه وسلامة كتابه، فهو أمر لا يكفي في جوابه «لا، أخطأت»، ولا «نعم، أصبّت وأحسنت» بل يحتاج إلى أن ندرس معارف الإسلام من القرآن والتاريخ بكلّ إتقان علمي. وليس من الحسن أن نخوض في معارف القرآن وحدنا، بل لا بُدّ من أن نُحضر معنا واحداً من علماء المسلمين؛ لكي ينتهنا على ما يخفيه علينا الجهل بالقرآن. وأمّا الأمور التي اقتضت نفرتك من دين الإسلام، فإنّه يمكن البحث فيها فلسفياً وتاريخياً بسهولة.

ملخص تاريخ الإسلام من بدء دعوته إلى حين انتشاره

يا عمانوئيل، هل لكّ اطلاع على تاريخ الإسلام من أوّل دعوته إلى حين انتشاره؟ لكي تذكر لأبيك شيئاً يتعلّق بغرضه، على شرط أن تذكر ما هو معلوم ومتفق عليه من التاريخ، لا ما يختصّ به واحد دون واحد.

دعوة الإسلام

عمانوئيل: هل يخفى على سيدي أنّ بلاد العرب كانت على أقيح جانب من العبادة الوثنيّة الأهوائيّة، والعوائد القاسية الوحشيّة، وخشونة الظلم والجور، وإدمان الحروب والغارات؟ قد امتازت كلّ قبيلة بجبروت رئاستها، واستقلّت بعصبيّة قوميّتها، حتّى أنّ كلّ قبيلة اختصّت بصنم معبودٍ، لئلا تخضع إلى قبيلة أخرى.

واستمرّوا على ذلك أجيالاً متعدّدة، تراكم عليهم فيها ظلمات الوحشيّة، وضلالات الوثنيّة، وعوائد الظلم، وقساوة العداوة، والحروب المبيدة الفظيعة. بل كانت الدنيا بأسرها مرتبكة بين العبادة الأوثانيّة الصريحة، وبين التثليث وتجسيد الإله والسجود للأيقونات - الصور والتماثيل - وإن جرى لفظ التوحيد على بعض الألسن لفظاً بلا معنى، حتّى أنّك رأيت معارف التوراة الدارجة في الإلهيات، وعرفت أنّها من مبادئ وثنيّة يجب أن ينزّه عنها جلال الله.

وعند تراكم هذه الظلمات والضلالات وهيجان براكينها الهائلة، نبغ صاحب دعوة الإسلام والتوحيد الحقيقي محمد، وأعلن بين العرب - بادئ بدء - دعوة الإسلام التي هي أثقل عليهم من الجبال. فدعاهم جهاراً إلى رفض معبوداتهم من الأوثان، وترك عوائدهم الوحشية، وإلى الخضوع لعدل المدينة، والتجمل بالأخلاق الفاضلة والآداب الراقية، واستمر على هذه الدعوة في مكة نحو ثلاث عشرة سنة.

وفي السنة الثالثة من دعواه الرسالة أعلن بدعوته لعامة الناس إعلاماً تاماً، وصار ينادي بدعوته في جميع أيتامه في المحافل والمواسم بجميل الموعدة، وقاطع الحجة، والإنذار بالعقاب، والبشرى بالنواب، وحسن الترغيب والترهيب، وتلاوة القرآن، والإعذار بالنصحية.

ولم يهب في دعوته طاغوتاً، ولم يستحقر فيها صلوكاً، يدعو الشريف والحقير والمرأة والعبد. وقد آمن في خلال هذه الدعوة بدعوته - الثقيلة على الأهواء من كل جهة - خلق كثير من أهل مكة وضواحيها من قريش وغيرهم، واحتملوا في سبيل ذلك أشد الاضطهاد والهوان والجلاء عن الأوطان إلى الحبشة وغيرها، فكم من شريف في قبيلته عزيز في أهله وقومه صار بإسلامه مهاناً مضطهداً.

وكل هذا لم يصد الناس عن الإسلام، لا يصد الضعيف ما يقاسيه من العذاب، ولا يصد الشريف العزيز ما يلاقيه من الهوان، يرون الإسلام هو العز والشرف والحياة والسعادة. في السنة الخامسة هاجر إلى الحبشة من جملة المؤمنين اثنان وثمانون رجلاً، من معارف قريش وأتباعهم وذوي العزة، ومعهم مثلهم أو أكثر منهم من النساء المسلمات الشريفات. وبقي كثير من المؤمنين في مكة وغيرها، يقاسي أكثرهم سوء العذاب، وكل هذا لا يصد الناس عن إظهار الإسلام.

وقد أقبل على الإيمان بدعوة محمد - وهو بمكة - قبائل الأوس والخزرج وغفار ومزينة وجهينة وأسلم وخزاعة، ولا يخفى أن محمداً كان عزيز قريش، من بيت سيادتها وعزها، تسميه قريش: «الصادق الأمين» يودع عنده مشركو قريش والعرب ذخائرهم إلى حين هجرته.

ومع ذلك كان يقاسي الأذى الشديد من المشركين، والاستهزاء والتكذيب لدعوته، والحبس مع بني هاشم في الشعب. وهو مع ذلك متمسك بالتحمل والصبر الجميل وهدوء السلم، لا يفتر عن دعوته ونشرها وبثّ تعاليمه الفاضلة وحماية التوحيد وإبطال الوثنيّة.

حتى إذا اشتدّ عليه الاضطهاد وتعاهد المشركون على قتله، عزمَ على أن يقطع مادّة الفساد، ويحافظ على دعوة التوحيد والإصلاح، ويعتزل عن بلاده وهيجان المشركين للشّرّ، فهاجر إلى المدينة لنشر دعوته، وجمع المسلمين في حماية جمعيّة واحدة. فانتظم له في هجرته - زيادةً على مَنْ ذكرنا إسلامه - إسلام كثير من العرب بالطوع والرغبة، ومن جعلتهم قبائل اليمن وحضرموت والبحرين، بل ما من قبيلة من القبائل التي حاربتة إلا ويذكر التاريخ المعلوم أنّ أناساً منها أسلموا بالطوع والرغبة، فمنهم من تجاهر بإسلامه ومنهم من تسترّ به إلى حين.

حروب رسول الإسلام

يا والدي، وأمّا حروبه التي تشير إليها في كلامك، فإنّ أساس التاريخ الذي يذكرها يقرنها بذكر أسبابها التي يعلم منها أنّه لم يكن حرب من حروبه ابتدائيّاً لمحض الدعوة إلى الإسلام وإن جاز للإصلاح الديني والمدني، وتثبيت نظام العدل والمدنيّة، ورفع الظلم والعوائد الوحشيّة الجائرة القاسية.

لكنّ دعوته الصالحة الفاضلة تجنّبت هذا المسلك، وسلكت فيما هو أرقى منه، وهو الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، كما جاءه هذا التعليم الأساسي في الآية المائتين والخامسة عشرة من سورة النحل المكيّة^١.

وقد استمرّت سيرته الصالحة على ذلك، فكانت حروبه بأجمعها دفاعاً لعدوان المشركين الظالمين عن التوحيد وشريعة الإصلاح والمسلمين.

١. في قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْخَيْرِ وَجَدِّلْهُمْ بِأَيِّ هُوَ أَحْسَنُ...﴾.

ومع ذلك فهو يسلك في دفاعه أحسن طريقة يسلكها المدافعون، وأقربها إلى السلام والصلاح، يُقدِّم الموعظة، ويدعو إلى الصلاح والسلام، ويجنح إلى السلم، ويجيب إلى الهدنة ويقبل عهد الصلح. مع عرفانه بأنه المظفر المنصور، وهاك ما ينادي به التاريخ من أسباب حروبه وغزواته:

حرب بدر وأسبابها

فأوَّلُ حروبه المعروفة بعد هجرته هي حرب بدر، وهي في السنة الثانية من الهجرة، وسببها أن المشركين من قريش اشتدَّ اضطهادهم للمسلمين ومن يُريد الإسلام بمكَّة، ومنعواهم عن الهجرة والفرار بدينهم، حتَّى ضيقوا عليهم بقساوة الاضطهاد والحبس؛ لكي يردَّوهم إلى شرك الوثنيَّة وعوائد الضلال.

فإنهم عرفوا من سيرة محمَّد أنه لا يحبُّ إثارة الحرب، فزاد طغيانهم لمَّا آمنوا جانبه. فأراد أن يرهبهم بالقوَّة والمنعة، ويهدِّدهم بالتعرُّض لسبيل تجارتهم إلى الشام، لكي تُلجئهم الضرورة الاقتصاديَّة وحاجتهم لتجارة الشام إلى الكفِّ عن ضلالهم في اضطهاد المؤمنين بمكَّة ومنعهم عن الهجرة والفرار بدينهم.

فندبَ إلى ذلك بعض أصحابه، فنهضَ منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً على أضعف عدَّة، لم يكن معهم إلا سبعون بعيراً يتعاقبون عليها، وأسياف قليلة، فقصدوا قافلة قريش المقبلة من الشام. فسمعَ بذلك رئيس القافلة أبو سفيان، وأرسل إلى مكَّة يستصرخ قريشاً لتخليصها، فخرجوا بعدَّة كاملة من الخيل والسيوف والدروع، وكانوا نحو ألف رجلٍ.

واتَّفَقَ أن قافلة قريش نجت من أصحاب محمَّد، ولكنَّ قريشاً لم يكتفوا بنجاة قافلته، بل قصدوا محمَّداً وأصحابه اغتراراً بكثرة عددهم وقوَّة عدَّتهم، وقد منعهم عقلاؤهم عن قصد محمَّد فلم يقبلوا، حتَّى اجتمعوا مع المسلمين في مكان يسمَّى بدرًا، وابتدؤوا بالقتال، فانتصر المسلمون انتصاراً باهراً، وقتلوا من صناديد قريش سبعين وأسروا سبعين، ورجعت قريش إلى مكَّة بالانكسار.

غزوة بني القينقاع

ولمّا قدّم محمّد في هجرته إلى المدينة رأى أنّ موقع الإسلام والمسلمين بين اليهود خطر، فإنّهم كانوا مُحَدِّقِينَ بالمدينة، وهم بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع. فكان أول أعمال محمّد في هجرته أنّه عاهد هؤلاء اليهود على السلم وأمانة الجوار وأن لا يكيدوا للمسلمين ولا يخونوهم، ولا يساعدوا عليهم عدوًّا.

ولكنّ بني قينقاع غدروا بعد وقعة بدر وصاروا يكتابون المشركين، وأنشبوا حرباً بينهم وبين المسلمين، فغزاهم محمّد وانتصر عليهم، فطلبوا النجاة بالجملاء عن بلادهم فسمح لهم بذلك.

حرب أحد

ثمّ تجمّعت قريش بعدّتها وعديدها وغزوا محمّداً وأصحابه إلى المدينة في السنة الثالثة من الهجرة، حتّى وصلوا إلى مكان يقال له: أحد، وهو عن المدينة بأميال سيرة.

تأكيد العهد مع اليهود وجلاء بني النضير

ورأى محمّد أنّ اليهود لا يكادون يشبتون على عهدهم، فقصدهم هو وأصحابه، لتأكيد العهد وأخذ الميثاق منهم، فأبى بنو النضير، فعدل عنهم إلى بني قريظة، فأعطوه عهدهم مجدداً على أن لا يغدروا بهم ولا يساعدوا المشركين عليهم. فرجع عنهم إلى بني النضير وحاصرهم على إعطاء العهد، فاختراروا الجملاء عن بلادهم، فسمح لهم بذلك حفظاً للسلام بين البشر، فحملوا كلّ ما يقدرّون على حمله ونزل أكثرهم في خيبر، لكي يكيدوا محمّداً عن قرب.

حرب الأحزاب

ثمّ جمعت قريش في السنة الرابعة من الهجرة جموعها، منها ومن أحلافها من القبائل، وكذلك غطفان وأهل نجد، وتحزّبوا على قتال محمّد وأصحابه. وكان الساعي

في هذا التحزّب واجتماع غطفان وأهل نجد مع قريش على الحرب، هم جماعة من يهود بني النضير الذين أجلاهم محمّد ونزلوا خيبر، منهم آل أبي الحقيق وغيرهم، فقصّدوا المدينة بجيش عظيم يعدّ بنحو عشرين ألفاً، فخذق محمّد على المدينة وحاربهم. وقد كانوا كاتبوا بني قريظة على الغدر بمحمّد والنهوض إلى حربه، فخفّ بنو قريظة إلى الغدر ونقض العهد، وبدا منهم الاعتداء، فأرسل إليهم محمّد حليفهم سعد بن معاذ - رئيس الأوس - مع جماعة من الأوس والخزرج، فوجدوهم على أقبح الغدر، حتّى صار بعضهم يغير على بيوت المدينة ومجامع العيالات.

غزوة بني قريظة

وحينما انكسرت قريش وانحلّ جيش الأحزاب، عطف محمّد وأصحابه على الغدرة - بني قريظة - فحاصروهم، فجعل بنو قريظة حكمهم إلى سعد بن معاذ رئيس الخزرج؛ لأنّهم كانوا حلفاءه قبل الإسلام وظنّوا أنّ سعداً يتساهل معهم، فوافقهم محمّد على ذلك ولم يُصمّ على حربهم. فحكم سعد بقتلهم، فنفذ حكمه في الغادرين. ولو أنّهم اختاروا الجلاء إلى حيث يؤمن غدرهم لسمح لهم محمّد، كما سمح لبني قينقاع وبني النضير، ولو شفع فيهم سعد لتركهم له، فإنّ المعلوم من حال محمّد أنّه كان يحبّ السلم وصلاح البشر والعمو إذا أمن من فساده، ولم ينصبغ العفو بصبغة الضعف والوهن.

حرب بني المصطلق

وفي السنة الخامسة أو السادسة صار بنو المصطلق يستعدّون لحرب محمّد، فغزاهم وظفر بهم.

صلح الحديبية

وفي ذي القعدة من سنة ستّ قصد [محمّد] مكة للحجّ والطواف بالبيت، ومعه من أصحابه نحو سبعمئة رجل، وقدموا ذبائح العبادة سبعين بعيراً جعلوا عليها علائم الهدى لكرمبتهم ورسوم العبادة، ولكي يطمئنّ أهل مكة بالسلم.

فصدّه أهل مكّة واستعدّوا لحربه وطلبوا رجوعه، فسمح لهم بما طلبوا، وتساهل معهم بالصلح حسبما يقتضيه حبّ السلم، ونحر في مكانه هديه للكعبة ورجع.

حرب خيبر

وإنّ بني النضير الذين نزلوا بعد جلائهم في خيبر وخضع لهم أهلها، لم يزالوا يسعون في حرب محمّد وقطع أثره، وهم الذين سَعوا في حرب الأحزاب، ولم يزالوا على إثارة الفتن. فغزاهم في أواخر السنة السادسة، ففتح حصوناً لبني النضير منها: حصن ناعم، ومنها: القموص حصن بني أبي الحقيق، ومنها: حصن الصعب بن معاذ، وباقي حصون خيبر، إلاّ حصنين: «الوطيح» و«السلام» فإنّ أهلها طلبوا من محمّد أن يسيرهم ويحقن دماءهم، فسمح لهم بذلك.

فتح مكّة

وقد كان في صلح الحديبية أنّ خزاعة دخلت في حلف محمّد، وبني بكر دخلت في حلف قريش، فعَدَّتْ بنو بكر وقريش على خزاعة بالحرب العدواني، فجاء مستصرخ خزاعة إلى محمّد، فتوجّه في سنة ثمان بجيشه إلى مكّة في عشرة آلاف بعدة كاملة، ولما خافت منه قريش وأحلافها وضعفوا عن مقاومته، لم تحمله سوء أفعالهم معه على الانتقام منهم، بل دخل مكّة بأرأف دخول وأكرم معاملة، فكأنّه ساق إلى قريش جيش العفو وامتنان الرحمة وكرم الأخلاق.

حرب هوازن

ولما سمعت هوازن بفتح مكّة جمعت جموعها لحرب محمّد، فقصدتهم وحاربهم وغنم أموالهم وذرايرهم، فوفد رجالهم عليه بعد أن أسلموا في هزيمتهم طوعاً، فاسترحموه، فخيّرهم بين ردّ السبي وردّ الأموال، فاختراروا ردّ السبي، فاسترضى المسلمين في ذلك فأجابوه، فردّ السبي وكان نحو ستّة آلاف ما بين امرأة وطفل.

وقد كانت ثقيف من جملة المنهزمين من جيش هوازن، فرجعوا إلى الطائف و تحصنوا بحصونهم لحرب محمد، فوجه إليهم بعض جيشه.

حرب مؤتة وحرب تبوك

وأما بعثه الجيش إلى الشام، حيث حاربوا جيش الروم والعرب والرومانيين في البلقا شرقي بحيرة لوط، ومسيره بجيشه إلى تبوك، فكان الداعي لذلك أن هؤلاء تظاهروا بالعداوة للإسلام ومحمد، واستخفوا بحرمة، وقتلوا رسله الذين أرسل معهم كتبه لدعوة التوحيد. مع أن العادة المستمرة أن الرسول حامل الكتاب محترم لا يقتل، ولا يقتله إلا من تجاهر بالطغيان والعداوة لمن أرسله.

فإن محمداً كاتب ملك الروم في الدعوة إلى صلاح الإسلام وتوحيده الحقيقي، حينما كان قيصر راجعاً مع جيشه من انتصاره على الفرس، فتجرأ شرحبيل الغساني على قتل الرسول حامل الكتاب.

واستعد الروم وأتباعهم لعداء محمد وحربه، فاستعدّ لدفاعهم وعدم الخضوع لجرأتهم التي تهدد دعوة التوحيد والإصلاح.

سراياه وتجريدهاته

وأما سرايا محمد وتجريدهاته فكلها كانت دفاعية، يردّ بها كيد الغادرين، ويدافع بها من يستعدّ لحربه، ويسعى في الفساد والبغي، ولم تكن فيها مهاجمة ابتدائية على هادئٍ مُسلم، كما يشهد بذلك معلوم التاريخ.

سيرة محمد في دفاعه

وقد كانت حروبه الدفاعية محدودةً بالحدود الصالحة فيما قبلها وما بعدها: كانت محدودةً فيما قبلها بالدعوة إلى التوحيد الحقيقي ومدنية العدل، والكف عن عوائد الظلم والوحشية، ثم بالدعوة إلى الصلح وحفظ السلام والمعاهدة والهدنة.

ومحدودةً في آخرها بقبول العدوِّ لدعوة التوحيد والعدل، أو طلبه للصالح أو الهدنة. وقد كان محمّد في جميع ذلك يشدّد النهي عن قتل النساء والأطفال والمشايخ العاجزين والرهبان المعتزلين، وكان يجمع بين الرحمة وحقوق أصحابه المجاهدين، فيسمح برحمته بكلّ ما يسمح به أصحابه من السبي والغنائم، ويرعى للأسير الشريف حُرمة شرفه، ويطيّب قلوب الأسرى بلسانه وقرآنه، ويوصي أصحابه بهم ويرغبهم في عتقهم، حتّى أنّ العتق في شريعته من العبادات الواجبة في بعض المواضع. هذا ملخّص سيرة محمّد في دعوة الإسلام.

يا والدي، ولا بُدّ من أنّك عرفت من تاريخ العرب المدوّن وحالهم المورث الذي شاهده، أنّهم أمةٌ حرب وتحرّز وشدّة طغيان وتعصّب، وقد كانوا في عصر الدعوة الإسلاميّة قبائل فوضى، لا تصدّهم عن طغيانهم وظلمهم سلطة سياسة ولا قانون حكومة، بل كانت كلّ فرقة تُدافع عن نفسها بنفسها.

فليس من الممكن في العادة أن تستقيم بينهم دعوة صالحة تضادّ عبادتهم وعوائدهم، وترفض وثنيّتهم وأوثانهم، وتهدّد تحرّجهم الوحشي وفوضويّتهم، وعصبيّة رئاستهم العدوانيّة، وتلوي أعناقهم إلى الخضوع إلى عدل المدنيّة وناموس السلام، ما لم تكن تلك الدعوة معتزّةً بقوة دفاعيّة.

دعوة المسيح في بني إسرائيل

يا والدي، ألا ترى أنّ دعوة المسيح في بني إسرائيل لم يكن فيها ما ينهضهم في أصول ديانتهم وعباداتهم وناموس شريعتهم، بل كان أساس دعوته هو الحثّ على لزوم التوحيد، وحقّ العمل بالشرعيّة، وحفظ وصايا التوراة، والتعليم بمكارم الأخلاق وحسن العدل، وهذا ممّا يرتاح له نوع بني إسرائيل.

ولم يكن في دعوة المسيح إلاّ أنّها كانت تتعرّض لرياء الكهنة والكتّبة، وجبروتهم في الرئاسة الدينيّة، وأكلهم الدنيا باسم الدين، وهذا أيضاً ممّا يرتاح إليه نفوس العامّة. ولكن لمحض ذلك قامت قيامة الكهنة والكتّبة وأنصارهم، وجرى من أعمالهم مع

المسيح والمؤمنين به ما تسمعه من التأريخ والأناجيل من أنواع الاضطهاد، مع أنّ قدرتهم كانت محدودةً بالسياسة الرومانية، لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً إلاّ بالمحاكمة والتطبيق على قوانين السياسة بالاستعانة بالكذب وشهادة الزور، وبذلك صالحوا على المسيح والذين من بعده من أصحابه.

فكيف حال الدعوة الإسلامية التي سمعتَ حالها مع العرب الوثنيين المتوحّشين الذين شرحنا لكّ حالهم؟ فهل يُمكن في العادة أن تستقيم بدون دفاع؟ وهل يصحّ في حكمة الإصلاح الديني والاجتماعي أن لا تعترّ هذه الدعوة بالدفاع؟ وهل يجوز أن تسلّم أمرها بالوهن إلى التلاشي بعدوان أضعادها؟

استعداد المسيح للدفاع بالسيف

يا سيّدي، إنّ الأناجيل قد ذكرت وهن التلاميذ وضعفهم عن الصبر على الشدائد، وتفترقهم عن المسيح عند هجوم اليهود عليه كما أخبرهم به المسيح قبل ذلك، وقد أحصى هذا كلّهُ من الأناجيل في الجزء الأوّل من كتاب الهدى صحيفة ٤٧ - ٥٣، فراجعهُ فإنّك تعرف أنّ أوفياً من أمثالهم لا يقومون مقام واحد من أصحاب محمّد في الصبر والثبات على الإيمان والتفادي في سبيله.

ومع ذلك فإنجيل لوقا يذكر في العدد السادس والثلاثين من الفصل الثاني والعشرين: أنّ المسيح أراد من تلاميذه الاستعداد للدفاع بالسيف وقال لهم: «مَنْ لَيْسَ لَهُ فَلَئِيعُ تَوْبِهِ وَيَسْتَرِ سَيْفًا».

ولكن يا للأسف لم يحيوا أمره المؤكّد لهم جميعاً بالسمع والطاعة، بل قالوا قول المتناقل المتشبهت بالمعاذير «هاهنا سيفان» فلم يرَ المسيح في جواب تناقلهم إلاّ أن يقول: «يكفي» وظاهره أنّ جوابكم يكفي في بيان وهنكم.

يا والدي، إنّ اليهود والنصارى يعتقدون أنّ التوراة الموجودة هو كتاب الله الذي جاء بشريعة الله في كلام الله لموسى رسوله، وقد كثر في هذه التوراة الأمر بالمهاجمات الحربية الابتدائية في الحروب القاسية الآمرة بذبح الأطفال والنساء.

والتوراة وكتاب يشوع «يوشع» يذكر أنّ موسى الرسول ويشوع مختار الله قد عملا بهذا الأمر القاسي على أقسى وجوهه، كما مرّ في الجزء الأوّل في صحيفة ٨٤ - ٨٥، مع أنّ التوراة وكتاب يشوع لم يذكر أنّ ذلك كان لأجل الدعوة إلى التوحيد والإيمان والإصلاح، بل لم تذكر التوراة غايةً لهذه الحروب القاسية إلاّ انتهاب الأرض من سكّانها المطمئنين بها، وإعطائها لشعب بني إسرائيل الذين لم يستقرّوا على التوحيد والشريعة والطاعة جيلاً واحداً.

يا والدي، فهل من الصواب وشرف الإنصاف أن نغضّ الطرف عن هذا كلّه، ونعترض على الإسلام دين التوحيد الحقيقي والإصلاح والمدنيّة، حيث اضطرّته الأحوال إلى أن يدافع عن صلاحه عدواناً الوثنيّة وفساد الوحشيّة؟

يا والدي، إنك إذا تأملت في فلسفة الإصلاح الديني والاجتماعي، بل وعواطف الاجتماع، رأيتهما بوجدانك تسوّغ لمحمد في عصره المظلم بالظلمات المتراكمة أن يتبدّى بالمهاجمة في سبيل إصلاحه، فكيف نعترض عليه إذا سلك أرقى مسلك في الإصلاح، ألا وهو الدفاع الجميل الذي تقوم به الحجّة ويحدّده الصلاح وعواطف الرحمة بأكرم الحدود وأشرفها؟

خلاصة الكلام في دفاع الإسلام

يا والدي، وفي آخر الكلام أقول لك: إنك إذا نظرت إلى التاريخ نظر حرّ، تجد أنّ الذين نالهم السيف من الذين دافعهم محمد، لا يبلغون عُشر الذين آمنوا به بالطّوع والرغبة، وقدّوا أنفسهم وكلّ غالٍ دون دعوته الكريمة.

وإنّ هؤلاء الذين انقادوا إلى الإسلام بالسيف، لما تشرفوا بنعمة الإسلام، صار محمد أحبّ الناس إليهم، وذلك لما وجدوه من صلاح دعوته، وحسن سيرته في تبليغها، وإجراء شريعتها فيما عاملهم به من التحمّل والملاينة، وجميل الدفاع، وعواطف الرحمة، وكرم المرؤة، وحسن الخلق وحسن الولاية.

وإنّ حروبه معهم - وإن كانت لأجل أشرف الغايات - لم تكن إلاّ دفاعاً جميلاً

لحماية الإصلاح الديني والمدني، مقرونةً بحُسن المعاملة وجميل الصفح وعظيم المنّ، وأيادي الرحمة ممّا لا يتصوّر من محارب مظفّر معتزّ بنصيحة أصحابه وتفاديهم في سبيل نصره.

نعم، كان كثيرٌ من النائين عن مركز محمّد ينتظرون بإسلامهم قوّة الإسلام وارتفاع الموانع بينهم وبينه، ولأجل ذلك تقاطرت إليه قبائلهم بالطّوع والرغبة عندما ارتفعت الموانع.

أليعازر: إنّ من أنعمَ النظر في التاريخ وفلسفة الحقائق لا بُدَّ له من أن يعترف بما تقول، وإن كان النصارى الغربيون يُودعون في أذهان العوامّ أنّ محمّداً كان على أعظم جانب من القساوة الحربيّة والتهاجم العدواني، وأنّ دينه لم ينتشر إلّا بالسيف العدواني القاسي، وأنّ دياناته وثنيّة وحشيّة.

ولكن لما تقدّمتُ في النظر إلى التاريخ وتحقّقتُ في دين الإسلام، وجدت الحقيقة، على ما شرحه ولدي عمانوئيل، وأنّ توحيد الإسلام هو التوحيد الحقيقي، ولكنّي قلتُ ما قلتُ لكي أرى ما يقوله عمانوئيل ويرتضيه سيّدنا القسّ، لأكون على ثقةٍ وبصيرةٍ من معلوماتي.

الإسلام والمسيح

عمانوئيل: يا والدي، وأمّا قولك في أسباب نفرتك من الإسلام:

خصوصاً إذا كان يقطع علاقتي بالدين المسيحي، ويكذّر صفاء إيماني بالسيّد المسيح، ويشوّش محبّتي له واعتصامي به.

فمهلاً يا سيّدي إنّ الإسلام لا يقطع إلّا علاقتك بالتثليث، وسرّ الفداء، وحمل آثامنا، ولعنات التاموس على سيّدنا المسيح - وحاشاه - كما مرّ في الجزء الأوّل في صحيفة ٩٩ إلى ١٠٢.

فهل تريد يا والدي أن تعبد إلهاً مثلثاً متجسّداً وتنادي: «المسيح افتدانا من لعنة التاموس إذ صار لعنةً لأجلنا»؟ ألسنَ نفرتَ من هذه التعاليم في بحثنا فيها؟

نعم، يا والدي ويقطع الإسلام علاقتك بما نسبته الأناجيل إلى المسيح - حاشاه -

من القول بتعدّد الأرباب وتعدّد الآلهة، بتلك الحجّة الواهية والتحريف الصريح للفظ المزامير ومعناها، كما مرّ في الجزء الأوّل في صحيفة ٨٨ إلى ٩٠.

يا والدي، إنّ الإسلام بقرآنه وبيانه يُمجّد رسالة المسيح، وينادي بقُدسه وطهارته وبرّه وكماله، يبرّئه عمّا لوّثت به الأناجيل قدسه، فكيف يكذّر صفاء إيمانك به؟! نعم، إنّ الإسلام ينفي الوهيّة المسيح، فهل أنت تُريد الإيمان بالوهيّة البشر المضطهد؟

ولعلّما ينقدح في نفسك أنّ الإسلام اضطهد الكنيسة الشرقية الزاهرة، فاعلم أنّه لم يُرد منها إلّا أن تتنزّه عن شرك التثليث البرهمي، وعبادة الصور والأيقونات، وزخرف التسابيح الموسيقيّة، وخداع الغفرانات وتأثيراته التي تعرفها. وهل كانت زهرة الكنيسة إلّا بهذه الأمور المظلمة؟!!

يا والدي، ألم تعلم أنّ الإسلام جعل للكنيسة أن تبقى على صورتها بضمان حمايته، بشرط أن تعطيه عهداً على السّلم وعدم الغدر، وأن لا تتجاهر بالمنكرات وشرب الخمر ومضادّة الإسلام؟! ألم تبق الكنيسة في الشرق حين قوّة الإسلام الحربيّة آمنّة مطمئنّة، يصدح ناقوسها مع أذانهم، ويجلس قسوسها محترمين مع علمائهم، تجري في أعيادها ومواسمها على رسومها؟!!

النظر في دين الإسلام ورسالته وقرآنه

أليعازر: كفاانا ما مرّ من النظر في العهدين والديانة اليهوديّة والديانة النصرانيّة، فهلّا ننظر في دين الإسلام ورسالته وقرآنه، ونرى معارف القرآن؟

القس: لا بُدّ لنا من ذلك، ولكن لا بُدّ لنا من أن نُحضر معنا مُسلماً عارفاً بالقرآن والإسلام؛ لكي يجري البحث والكلام على الحقوق.

أليعازر: إنّ القرآن كلام عربي، ونحن قد تربّينا في بلاد العرب وعرفنا لسانهم. القس: إنّ الذي لا يتخذ القرآن أساساً لتعاليمه، بل ينظر إليه نظراً سطحياً، لا يُعطيه حقّه من فهم معانيه، ولا يدرى بما في زواياه من المعارف، ولا يستحضر ما فيه من

الفوائد، وإنّ الإنصاف لا يسمح لمن ينظر إلى القرآن نظر مستخفّف أن يجري حكوماته وتحكّماته فيه.

عمانوثيل: يا سيّدي، لأصحابنا النصارى على القرآن اعتراضات كثيرة، وربما كان الناظر إليها في أوّل الأمر يراها ثمينةً قويّة، وها هي الاعتراضات المذكورة في كتاب هاشم العربي، وكتاب جمعيّة الهداية، والكتاب المسمّى حسن الإيجاز، وغيرها من كُتب النصارى.

ولكن لما نظرتُ في كتاب الهدى وكتاب نفحات الإعجاز^١، عرفتُ بيانهما أنّ تلك الاعتراضات في غاية الوهن، وأتضح أنّ القرآن في موارد هذه الاعتراضات تتدفّق منه ينابيع البلاغة والفصاحة، وتشرق أنوار الحقائق السامية والمعاني الراقية، بحيث صارت اعتراضات أصحابنا النصارى سبباً لأنّ يُلَفَت كتاب الهدى وكتاب نفحات الإعجاز أنظارنا إلى فضيلة القرآن في مطالبه العالية وسلامته من كلّ اعتراض.

والاعتراضات وأجوبتها المسكتة والمقنعة لذوي المعرفة، ها هي في كتاب الهدى في الجزء الثاني من صحيفة ٣٩٣ إلى ٧٢٩.

أليعازر: إذا أحضرتُم معنا مسلماً فإني أخشى أن يطول الجدل وتهيج العصبية ويكثر القيل والقال، فتخفي بذلك علينا الحقيقة ويلتبس علينا الطريق ويطول السير.

عمانوثيل: إنّنا نبحثُ لنجاة أنفسنا وننظر بنور عقولنا مستندين إلى إرشاد سيّدنا القسّ، وقد رفضنا كلّ عصبية وتقليد، فإذا لم يُوافق طريقتنا ذلك المسلم تركناه واستبدلنا به غيره ممّن نرضى طريقته وعلمه.

مثلنا الشيخ محمّد عليّ عن ناحية القرآن والإسلام

عمانوثيل: يا شيخ، إنكم معاشر المسلمين تقولون: إنّ التوراة الموجودة مُحَرّفة بحيث سقطت عن الاعتبار، مع أنّ قرآنكم - الذي تؤمنون بأنّه كلام الله - يصدّقها ويعتبرها كتاباً إلهياً نبوياً، فماذا تقول؟

١. للعالم الكبير والمتحلّي في شبابه بفضيلة المشايخ سيّدنا السيّد أبي القاسم الخوئي النجفي دام فضله (منه ٥).

الشيخ: يا أصحابنا، إن بيان الحق في هذا الموضوع ربما يصعب عليكم، فهل تسامحونني فيما أقوله؟

القس: يا شيخ، إن قرآنكم يقول: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^١ ويقول في مقام آخر ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^٢. وإذا تأدبت بأداب القرآن فلا عليك إذا اغتاض المتعصب، بل قل ما عندك من الحق، فلعلك تُصادف نفساً كريمة وقلباً نقيماً.

الشيخ: لا يخفى على من نظر في القرآن بنظر حرٍّ، أنه جرى بكرامة منهجه على حقيقة الحكمة واللطف في الدعوة إلى حقيقة التوحيد وشريعة العدل والمدنية، اللذين هما المقصود الأصلي والمطلب الأساسي.

فسلك في أمرهما أحسن مسلك في الحجة، فلم يهاجم في الأمور الثانوية العرضية بصراحة تثير العصبية، فتكون معثرة في سبيل المقصود الأصلي وروح الإصلاح، مهما أمكن البيان لأولي العقول بنحو جميل.

وليس من حكمة الدعوة لأهل الكتاب أن يجاهروهم بالصرحة، بأن كُتبتهم التي بأيديهم قد كثر فيها التحريف والتبديل والكفر الوثني والخرافات الكثيرة والتناقض الظاهر؛ إذ لا يخفى أن المجاهرة بذلك تهيج داء العصبية المهلك، وتنفر عن الإقبال إلى الإيمان الصحيح، وتصرف عن الإصغاء إلى بيان الحق.

عمانوئيل: عجباً يا شيخ، هل يصح للقرآن - إذا كان كتاب الله الهادي إلى الحق - أن لا يبين هذا الأمر الكبير؟

الشيخ: لا ينحصر البيان بالمجاهرة التي ذكرناها، بل إنه أظهر ذلك وبينه وأوضحه بأحسن بيان وأجمل إيضاح، فأوقف ذوي العقول على بعض موارد التبديل والتحريف والزيادة بخصوصياتها، بحيث تنتبه عقولهم ووجدانهم لذلك على حين غفلة من هياج العصبية.

فتمرّض لذكر القصص التي لها نحو وقوع في التأريخ، فنزّرها عن الخرافات والأغلاط الزائدة، وأوردها على الحقيقة المعقولة، استلفاتاً للعقول إلى الخرافات الدخيلة في الوحي. وأمّا ما لم يكن له نحو وقوع، فلم يتمرّض لتكذيبه بالصرحة، لكنّه أودع في معارفه ما يوضح تكذيبه.

عمانوئيل: هذا شيء في غاية الحكمة بحسن الإرشاد، لكن يا شيخ أين موارد ذلك في القرآن، فأوضحها؟

الشيخ: إني عرفتُ دراستكم في كُتب العهدين، وعرفتُ أخذ التوفيق بأيديكم والتفاتكم إلى ما تبه عليه القرآن من خلل العهدين الرائجين، حتّى أنكم كتبتم ذلك وطبعتموه في الجزء الأوّل. ولأجل الاختصار أُشير بحسب صحائف المطبوع إلى ما ذكرتموه من الانتقاد، وكرامة القرآن الكريم في تنزيه الحقائق وحُسن التنبيه على الخلل. فمن ذلك ما مرّ في الجزء الأوّل في صحيفة ٢١ إلى ٢٢ قصّة آدم والشجرة والحية والكذب.

وما مرّ في صحيفة ٢٤ من كرامة القرآن في نقل القصّة الواقعة على حقيقتها المنزّهة. وأمّا ما مرّ في صحيفة ٢٦ إلى ٢٨ من خرافة التمشّي والاختباء والسؤال والمحاذرة من آدم؛ لأنّه صار كواحد من الآلهة.

وكذا ما مرّ في صحيفة ٣٥ من خرافة برج بابل والمحاذرة من ذرّيّة نوح. وفي صحيفة ٦٧ من خرافة مصارعة يعقوب مع الله وما فيها من الكلمات الوثنيّة، فإنّ القرآن يوضح بطلان هذه الخرافات بما تضمّنته معارفه وتعاليمه بحقيقة التوحيد وجلال الله وقدهس وإنّه الواحد القهار.

ومن ذلك ما مرّ في صحيفة ٤٢ و ٤٣ من أنّ هارون صنع العجل الوثني؛ لكي يتّخذة بنو إسرائيل إلهاً ويعبدوه من دون الله، وصنع أمام العجل مذبحاً لعبادته.

مع أنّ الله في ذلك الحين كان يُكلّم موسى في تقدّيس هارون بالكلام الطويل لرئاسة الدين والشريعة، وأنّ الله كلّم هارون في أمور الدين والشريعة مع موسى ومنفرداً قبل واقعة العجل وبعدها.

وقد مرّ في صحيفة ٤٢ و ٤٣ أنّ القرآن ينسب عمل العجل والدعوة للشرك إلى السامريّ «الشمروني» من عشيرة شمرون بن يساكر بن يعقوب، الذين كان منهم مع موسى ألوف.

كما مرّ في صحيفة ٤٥ أنّ القرآن يبرّئ هارون من أمر العجل، ويوضح أنّه نصح بني إسرائيل ونهاهم عن عبادته، وأخبرهم بفتنتهم وضلالهم. فالقرآن أوضح حال الخرافة الجامعة بين نبوة هارون وتقديس الله له والدوام على تكليمه، وبين كون هارون يدعو إلى الشرك ويصنع العجل الوثني ويبيّن له مشعر العبادة.

وقد مرّ في صحيفة ٥٥ و ٥٦ حكاية شكّ إبراهيم صريحاً في وعد الله له بأمرٍ ممكن عادي الوقوع، ومرّ أيضاً ذكر العلامة التي يقول كاتب التوراة الرائجة: إنّ الله أعطاها لإبراهيم لكي يعلم بصدق الوعد ويرتفع شكّه، وهي العلامة التي لا يعلم أحدٌ محصلها ولا ربطها بالكلام.

ومرّ أيضاً أنّ القرآن يذكر أنّ إبراهيم طلب أن يرى بعينه إحياء الله للموتى، ليؤكد بذلك إيمانه بيوم المعاد، ويطمئنّ قلبه بهذه الحقيقة بسبب تعاضد الحسّ والوحي. فجرى القرآن على الحقيقة المناسبة لإيمان إبراهيم خليل الله، وجلال الله في إعطاء العلامة المعقولة.

وقد مرّ في صحيفة ٥٧ حكاية الذين جاؤوا إلى إبراهيم وإلى لوط، واضطراب التوراة الرائجة في عددهم، وفي أنّهم الله أو ملائكة، وذكرت أنّهم أكلوا من طعام إبراهيم ولوط.

ومرّ في صحيفة ٥٩ بيان كرامة القرآن في ذكره لهذه القصة على الوجه المعقول، وقد عرفتُ مكالمتمكم الكريمة في ذلك في صحيفة ٦٠.

ومرّ أيضاً في صحيفة ٧٧ قول التوراة الرائجة: إنّ موسى وهارون وابنيه وسبعين من شيوخ بني إسرائيل رأوا الله وتحت رجله شبه صنعة العقيق، ولم يمدّ الله يده إليهم بل رأوه وأكلوا وشربوا.

وذكرتهم أنّهم في صحيفة ٧٧ أيضاً من آيات القرآن ما يكذب هذه الحكاية ويسفّرها.

مضافاً إلى أنّ القرآن الكريم يُكذّب خرافة رؤية الله المتكرّرة في التوراة والعهد القديم بقوله تعالى في الآية الثانية بعد المائة من سورة الأنعام المكيّة: ﴿لَا تُذْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُذْرِكُ الْأَبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

يا أصحابنا، وإنّ العهد القديم والعهد الجديد قد نصّا على نبوة يعقوب وموسى وهارون وداود وسليمان وإزميا والمسيح ﷺ، وإنهم أكرموا بالوحي والقداسة والأمر بإرشاد الناس، ومع ذلك ينسب العهدان إلى هؤلاء الأنبياء الكرام ما يُنافي مقام النبوة والإمامة في الناس للإرشاد والتعليم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى كذب هذه النسبة الساقطة بقوله تعالى في الآية الثالثة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ كما تقتضيه الحكمة وجلال الله وقدهس ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

فإنّ الكذب، والخديعة، والجُراة وسوء الأدب مع الله، وخيانتة، وعدم الإيمان به، والاستهزاء بوعدده، ونسبة الخداع والكذب إليه، والزنى الفاحش بالمحصنات، والغدر بالمؤمنين، والدعوة إلى الشرك بالله، وعبادة غيره وبناء مشاعر الأوثان، والقول بتعدّد الأرباب والآلهة، والتحريف.

هذه كلّها من أقيح الظلم، ومرتكبها من الظالمين. والعقل والوجدان يقبّحان ائتمان الظالم على الرسالة والنبوة وإمامة الدين والتوحيد والشريعة، كما مرّ في المثال المذكور في صحيفة ٤٥.

فالقرآن بجميل إشارته ووضوح حجّته يشير إلى كذب جملة من منقولات العهدين الراجحين:

منها: ما مرّ في صحيفة ٦٦ من أنّ يعقوب ﷺ خادع أباه إسحاق وكذب عليه مراراً، لكي يأخذ منه البركة.

وفي صحيفة ٧٢-٧٣ في ذكر ما نُسب إلى موسى ﷺ من الجراة على الله بالخطاب والشكّ في وعدده.

وفي صحيفة ٤٢ - ٤٣ في ذكر هارون وعمل العجل.
وفي صحيفة ٨٤ من أمر موسى بقتل الأطفال وجعله شريعة جري عليها خليفته
يشوع «يوشع».

وفي صحيفة ٨٠ - ٨١ في قول التوراة الرائجة عن الله - جلّ شأنه - أن موسى
وهارون عليهما السلام لم يؤمنا بالله وعصياه وخاناها.

وفي صحيفة ٦٩ من الإشارة إلى ما ذكره الفصل الحادي عشر من صموئيل الثاني
في نسبة الزنى بامرأة أوريا إلى داود عليه السلام مع الغدر بأوريا المؤمن المجاهد الناصح،
وبالها من نسبة شنيعة.

وفي صحيفة ٤٤ فيما نسب إلى سليمان عليه السلام من اتباع الأوثان وعبادتها وبناء مشاعرها.
وفي صحيفة ٨١ من أن إزميا نسب الخداع والكذب إلى الله جلّ شأنه.

ومنها: ما مرّ في صحيفة ٨٨ من أن إنجيل يوحنا ينسب إلى المسيح عليه السلام قوله بتعدّد
الآلهة، مع الاحتجاج الساقط والتحريف الواهي. وإن أنجيل متى ومرقس ولوقا تسبب
إلى المسيح القول بتعدّد الأرباب، مع الاحتجاج الساقط والتحريف الكبير.

ومنها: ما مرّ في صحيفة ١٤٠ فيما تذكره الأناجيل في أحوال تلاميذ المسيح، ممّا
لا ينفك عن الظلم ولو بمحض خذلانهم للمسيح ونكولهم عن مواساته التي طلبها منهم مراراً
بالتأكيد. فالقرآن بآية العهد المتقدّمة يوضح أن الأناجيل قد خالفت الحقيقة بأحد أمرين:
إمّا بوصف التلاميذ بما مرّ من صفات الذمّ.

وإمّا بإرسال المسيح للتلاميذ بعده ليعلموا جميع الأمم ويعظوا العالم أجمع
بالإنجيل، وأتّه أرسلهم كما أن الله أرسله، كما مرّ في صحيفة ١٤١ وهذا هو الإمامة
في الناس.

وقال للتلاميذ أيضاً: إن كلّ ما يربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات،
وكّل ما يحلّونه على الأرض يكون محلولاً في السماوات^١.

١. إنجيل متى ١٨: ١٨ (منه عليه السلام).

وكيف يجتمع في كتاب الوحي أن المسيح يقول لبطرس: «أذهب عني يا شيطان أنت معترّة لي لأنك لا تهتمّ بما لله بل بما للناس»، مع قول المسيح له: «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة» وأعطاه إمامة الحلّ والربط في الديانة، كما تقدّم لسائر التلاميذ^١.

ومنها: ما مرّ في صحيفة ٢٠١ من أن بولس كان ضدّاً للكنيسة، وكان يهجم على البيوت ويجرّ المؤمنين بالمسيح نساءً ورجالاً إلى السجن، ويقتلهم ويعاقبهم ويضطرّهم إلى التجديف - الكفر بالمسيح وشتمه - وكان مُجدِّفاً ومضطهداً ومفترياً.

وكيف يجتمع هذا مع ما يذكره العهد الجديد في أعمال الرسل والرسائل المنسوبة إلى بولس، أن بولس صار رسولاً وإماماً، بل كان النفوذ لإمامته في النصرانية، فقد قالت رسائله ما شاءت من إبطال شريعة التوراة وعيبتها وذمّها كما مرّ في صحيفة ١١٣-١١٤.

فالقرآن يوضح أن التلاميذ وبولس إن كانوا رُسلًا وأنبياءً وأئمّة، فوصفهم بما يؤدّي إلى كونهم ظالمين كاذب. وإن كانوا كما وصفوا به، فوصفهم بالرسالة والنبوة والإمامة كاذب. وهذا العهد الجديد قد جمع بين المتناقضين؛ فإنّ الظالم لا يكون إماماً.

برّ المسيح بوالدته المقدّسة، والأناجيل

وأيضاً إن أناجيل متى ١٢: ٤٧ - ٥٠ ومُرقس ٣: ٣١ - ٣٥ ولوقا ٨: ١٩ - ٢١ تقول: إن المقدّسة أمّ المسيح جاءت إلى خارج البيت الذي فيه المسيح وتلاميذه، فأرسلت إليه تطلب منه أن يخرج إليها، لكي تراه حسب شوق الأمّهات الحواني، فقال: مَنْ هي أُمّي؟ ومدّ يده إلى تلاميذه وقال: ها هي أُمّي؛ لأنّ مَنْ يصنع مشيئة الله هي أُمّي. فلأناجيل تقول: إن المسيح ﷺ استهزأ بأُمّه وبطلبتها، ولم يرأف بلهفة حنوّها ولم يبرّها. بل قد قدح بقداستها، وفضّل عليها التلاميذ الذين ذكروا حالهم في صحيفة ١٤٠-١٤٢.

والقرآن يُشير إلى مخالفة الأناجيل فيما ذكرت للحقيقة، ويقول في سورة مريم المكيّة عن قول المسيح ﷺ المعجز في طفولته في الآية ٣٢: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾. يا أصحابنا، فالقرآن الكريم بقصصه وقانونه المعقول في الإمامة الدينيّة، يوضح أنّ القسم الكبير من العهدين الراجحين مخالف للحقيقة والمعقول، فكيف تقولون: إنّه يصدّقهما، غاية الأمر أنّه أوضح ذلك بألطف إيضاح من غير تهاجم يشير العصبية بصراحة التّكذيب.

ما هو معنى كون القرآن مُصدّقاً لما مع أهل الكتاب؟

عمانوئيل: إنّ القرآن تكرر منه التصريح بأنّه مُصدّق لما مع أهل الكتاب، كما في الآيات الحادية والأربعين^١ والتاسعة والثمانين^٢ والحادية والتسعين^٣ والسابعة والتسعين^٤ من سورة البقرة، والسابعة والأربعين من سورة النساء^٥.

الشيخ: هذا الكلام في الاحتجاج على أنّ القرآن يُصدّق العهدين الراجحين، قد رأيناه في كتاب الغريب بن العجيب في صحيفة ١٢، وهو من مثل الغريب غير غريب، ولكنّه غريب منك يا حرّ الفهم والضمير.

متى صرّحت الآيات المشار إليها بأنّ القرآن مُصدّق لما مع اليهود والنصارى من العهدين الراجحين في زمان نزول القرآن؟

هل يكون الشاهد على هذه الدعوى ما تقدّم من أنّ قصص القرآن، وقانونه في الإمامة، ومعارفه في التوحيد، وتمجيد جلال الله وقُدسه، كلّها تشهد بأوضح الشهادة والبيان بأنّ القسم الكبير من العهدين مُخالف للحقيقة المعقولة؟

١. ونصّها: ﴿وَءَايَاتُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ...﴾.

٢. ونصّها: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ...﴾.

٣. ونصّها: ﴿... وَهُوَ الْخَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ...﴾.

٤. ونصّها: ﴿... مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى...﴾.

٥. ونصّها: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ ءَايَاتُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ...﴾.

بل إنَّ هذه الشهادة تُوضح بدلالاتها أنَّ المراد هو كون القرآن مُصدِّقاً لما مع أهل الكتاب من التوحيد وبطلان الوثنيّة، ومن الاعتقاد بالوحي، ونبوّة الأنبياء الصالحين، ونزول الكتب المقدّسة، ويوم القيامة.

القرآن مُصدِّق لما بين يديه من الكتاب ومُهيمن عليه

عمانويل: إنَّ القرآن أيضاً يُصرِّح بأنَّه مُصدِّق لما بين يديه من الكتاب ومُهيمن عليه، كما في الآية الثامنة والأربعين من سورة المائدة^١.

الشيخ: لا يخفى أنَّ الشيء الذي يكون له مكان يتحدّد هو فيه كزيد والبيت، فإنّه يصحّ أن يقال: «بين يديه» بمعنى أمامه وقُدّامه في المكان. فيُراد من «الذي بين يديه»: هو ما كان مقارناً له في الزمان وقُدّامه وأمامه في المكان.

وأما مثل القرآن - الذي هو كلام الله المنزل على رسوله ﷺ - فلا يكون له قُدّام وأمام وخلف بحسب المكان، فلا يكون معنى قوله تعالى: «بَيْنَ يَدَيْهِ» إلاّ بمعنى التقدّم في الزمان. فالكتاب الذي بين يدي القرآن هو ما تقدّم على زمان نزوله على الرسول ﷺ، والقرآن يصدِّق الكتاب الذي أنزل على موسى ﷺ والذي أنزل على المسيح ﷺ.

وأين هذا من تصديقه لخصوص النسخ المجتمعة معه في زمان نزوله التي تسمّى باسم التوراة والإنجيل؟ بل إنَّ القرآن قال: «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ»^٢ و «لِمَا مَعَكُمْ»^٣ على الإجمال، ولم يقل: ما معهم من نسخ الكتاب. ولما نصّ على تصديق الكتاب خصّ التصديق بالكتاب الذي بين يديه، أي قبله في الوجود. وهذا كلّه حياد عن تصديق النسخ الموجودة في زمانه، مع غضّ النظر عن الصراحة المزعجة بتكذيبها.

١. ونصّها: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ».

٢. البقرة (٢): ٩١.

٣. النساء (٤): ٤٧.

مامعنى كون القرآن مُهيمناً على ما بين يديه من الكتاب؟

عمانوييل: هل يُمكن أن نقول: إنّ اليهود والنصارى قد حرّفوا كتاباً جاء القرآن مُهيمناً عليه؟ وقد قال المفسّرون: إنّ معنى «مُهيّماً» رَقِيباً على سائر الكُتب، يحفظها من التغيير ويشهد لها بالصحة والثبات. فهل يمكن لك أن تقول: إنّ اليهود والنصارى حرّفوا تلك الكُتب بالرغم من محافظة القرآن عليها؟

الشيخ: يا عمانوييل، هذا الكلام الذي تقوله أنتَ قد رأيناه في كتاب الغريب بن العجيب في صحيفة ١٠ و ١١، وقد أخذه ممن قبله.

فهل أنتَ لا تدري بأنّ القرآن كلامٌ، مُنزل فيه بيان الهدى، أنزل على الرسول ﷺ بعد المسيح بنحو ستمائة سنة؟

وليس القرآن رجلاً بيده سيف، وهو متجرّد للمراقبة إلى زمان نزوله من زمان القضاة لبني إسرائيل، وفي أيام ملوكهم، وعند ارتداداتهم عن التوحيد، وعند تخريبهم لبيت المقدس وتنجيسه وجعله بيتاً للأصنام، وعند مهاجمات المشركين على الأُمّة الإسرائيليّة، وعند نهب مقدّساتهم، وعند إحراق بيت المقدس وبيوت أورشليم، وملاشاة الأُمّة بالقتل والأسر، وعند تفرّد حلقياً وعزراً بإظهار التوراة، وبعد سبي بابل، وبعد زمان المسيح، وحينما كانت كُتب العهدين محجوبة في كلّ أدوارها ونشأتها عن أعين العموم بسبب استقلال الروحانيّين برؤيتها.

فيكون القرآن ذلك الرجل الشاهر سيفه المتجرّد للمراقبة، مترصداً في جميع تلك الأوقات والأحوال، يقطع يد كلّ من يمدّ يده إلى كُتب العهدين بالإعدام أو تجديد الولادة أو التحريف.

يا عمانوييل، هل تقول: إنّ القرآن إذا كان مُهيمناً على التوراة والإنجيل، فلا بُدّ من أن يعمل بسيفه - كما ذكرناه - قبل نزوله في مدّة ألفي سنة؟

عمانوئيل: لا، يا شيخ، لا يمكن أن أقول ذلك ولا يقبله شعوري، فإن لي والحمد لله - من الشعور ما أعرف به أن القرآن كلامٌ هُدًى وبيان، لا سيف قدرة أو سلطان، وإنما يكون مُهيمناً وحافظاً ببيانه في زمان وجوده. لكن يا شيخ، أليس من اللازم عليك أن تُبين معنى معقولاً لكون القرآن بعد نزوله مُهيمناً على ما تقدّم عليه من نوع الكتاب المقدّس؟

الشيخ: إن القرآن الكريم بحكمة بيانه ولطائف إشاراته لأولي الألباب، قد قام لكتب الوحي الحقيقيّة بحماية ومحافظة كبيرة، فكان مُهيمناً عليها ببيانه بعد نزوله؛ لئلا تلوّث معارفها الإلهيّة وقُدس أنبيائها وكرامة قصصها بخرافات الشرك وتعاليم الوثنيّة وسخافة الاختلاف والتناقض.

فذكر قصص آدم وإبراهيم وواقعة العجل على حقيقتها المعقولة، وأشار بذلك إلى براءة كُتب الوحي ممّا أدخل على هذه القصص وشوّه صورتها.

وذكر قول الله - جلّ اسمه - لإبراهيم في الإمامة والرئاسة الدينيّة ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^١، وأشار بذلك إلى براءة الكُتب الحقيقيّة ممّا لوّثت به الكتب الرائجّة قدس لوط ويعقوب وموسى وهارون وداود وسليمان والمسيح ﷺ، هؤلاء الأنبياء الكرام الذين شهد القرآن أيضاً بنبوّتهم وقُدسهم وصلاحهم.

وقال في الآية الثانية والثمانين من سورة النساء: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾، وأشار بذلك إلى براءة الكُتب الإلهيّة الحقيقيّة من وصمة الاختلاف والتناقض، كما يوجد في التوراة والأنجيل الرائجّة وغيرها، فانظر أقلّاً الجزء الأول من كتاب الهدى في صحيفة ٢٤٩ إلى ٢٨٠.

وقال في الآية الرابعة والستين من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَيَّ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ، شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾، أي لا تتخذ من البشر أرباباً.

وقال في الآية التاسعة والسبعين والثمانين من سورة آل عمران أيضاً: ﴿مَا كَانَ لِإِبْتِسَارِ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي﴾ «وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيكََةَ وَالنَّبِيَّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ».

فالقرآن بهذا الكلام يُبرئ المسيح ﷺ وإنجيله الحقيقي مما تقدّم ذكره في الجزء الأوّل في صحيفة ٨٨ - ٩٠ عن أناجيل متى ومرقس ولوقا من نسبتها إلى المسيح قوله بتعدّد الأرباب واحتجاجه بالتحريف للمزامير.

وقال في الآية الثالثة عشرة من سورة التغابن المكيّة: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. وفي الآية الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من سورة الحشر المكيّة: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وفي الآية المائة والثالثة والستين من سورة البقرة: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. وأيضاً في الآية الخامسة والخمسين بعد المائتين منها: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقد تكرّر هذا في القرآن الكريم أكثر من أربعين مرّة.

وقال في سورة النمل المكيّة في الآية الحادية والستين إلى الخامسة والستين في مقام التوبيخ الشديد خمس مرّات: ﴿أَءَلَيْكُمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿تَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

والقرآن بمثل هذا وبشهادته برسالة المسيح وقُدسه، يُشير إلى براءته وبراءة الإنجيل الحقيقي من القول بتعدّد الآلهة والاحتجاج الواهي له، مع تبديل معنى المزامير، كما مرّ في الجزء الأوّل في صحيفة ٨٨.

وقال في الآية الثالثة بعد المائة من سورة الأنعام في جلال الله - جيل اسمه -: ﴿لَا تُذَرِكُهُ إِلَّا الْبُصُرُ﴾.

وبهذا يشير إلى براءة التوراة الحقيقيّة من قول التوراة الرائجة: إِنَّ يَعْقُوبَ رَأَى إِلَهًا وَجْهًا لَوْجِهِ، وَإِنَّ مُوسَى وَهَارُونَ وَابْنَيْهِ وَسَبْعِينَ مِنْ شِيُوخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ رَأَوْا إِلَهَ إِسْرَائِيلَ وَتَحْتَ رِجْلَيْهِ شِبْهُ صَنْعَةٍ مِنَ الْعِيقِ، فَرَأَوْا اللَّهَ وَأَكَلُوا وَشَرَبُوا، كما مرّ في الجزء الأوّل في صحيفة ٧٧.

يا أصحابنا، فالقرآن ببيان هذه الأمور وهداه بإشاراته خيرٌ مُهيمِن على كُتُب الله الحقيقتية، وخيرٌ حافظٌ لشرفها من أن يلصق باسمها هذا الذي ذكرناه، إذا وجّه التوفيق العقول السليمة إلى المقابلة بين القرآن الكريم وبين العهدين في المعارف الإلهية وقُدس الأنبياء والقصص التاريخية.

لا مُبَدَّل لكلمات الله

عمانويل: إنَّ القرآن شهدَ بآيات عديدة أنَّ التوراة والإنجيل كلامُ الله، وصرَّح أيضاً بآيات عديدة بأنَّ كلام الله لا يبدَّل، كما في سورة الأنعام ويونس والكهف، وغير ذلك من الآيات الشاهدة بأنَّ كلام الله لا يُمكن تبديله ولا تحريفه لفظياً.

الشيخ: لم يقل القرآن: إنَّ كلام الله لا يُمكن تبديله وتحريفه، وإنما قال: إنَّ كلمات الله في وعده وتقديره تقع وتتمُّ كما وعد وقدَّر، لا تتبدَّل ولا مبدَّل لها.

قال في الآية الرابعة والثلاثين من سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنصَبْنَاهُمْ نَصْرَنَا﴾، أي فاصبر على التكذيب والأذى ولك البشري بالنصر، كما نصر الله الرُّسل من قبلك ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أفلا ترى يا عمانويل أنَّه لا يناسب في الآية الشريفة إلا أن تقول: لا مبدَّل لكلمات الله في وعده لرُسله بالنصر وظهور الحق.

وفي الآية الخامسة عشرة بعد المائة من سورة الأنعام أيضاً: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، وهل يُناسب هذه الآية إلا أن تقول: إنَّ كلمات الله في وعده وتقديره - الذي لا بدُّ أن تتمَّ ويظهر صدقها - لا مُبدَّل لها، ومن ذا الذي يبدِّلها؟! وفي الآية الرابعة والستين من سورة يونس في شأن المؤمنين المتقين: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وهل يحسن أو يمكن في هذه الآية إلا أن تقول: لا تبديل لوعده الله بالبشري؟

وفي الآية السابعة والعشرين من سورة الكهف المكِّيَّة: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ والمعنى أنَّه قد قال الله لك ووعدهك البشري.

وفي الآية الرابعة والتسعين والخامسة والتسعين من سورة الحجر المكيّة: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ المكذّبين لكّ والمستهزئين بكّ، ولا تخش ضياع الدعوة باستهزائهم وتكذيبهم ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ووعدك الله بأن يظهر كّ ﴿عَلَى الَّذِينَ كَلَّمَهُ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ كما في الآية التاسعة من سورة الصفّ المكيّة. فأتل ما أوحى إليك من كتاب ربك، فإنّه قد وعدك بالكفاية والنصر وظهور الدين، ولا مبدل لكلماته في وعده وبشراه.

يا عمانوئيل، وإنك أشرت إلى هذه الآيات أتباعاً للغريب بن العجيب فيما لفقّه في رحلته في صحيفة ١٣، وتبعته في قوله أخيراً: إلى غير ذلك من الآيات الشاهدة بأنّ كلام الله لا يمكن تبديله وتحريفه لفظياً.

يا عمانوئيل، أين هذه الآيات الشاهدة لدعواك؟ ألا تدري أنّ الاتّباع الأعمى يكسر ظهر الشرف؟!

عمانوئيل: الشيخ غريب بن العجيب قال في رحلته الحجازية صحيفة ١٣: قال الإمام البخاري في صحيحه في تفسير الآية ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾: يُزِيلُونَ، وليس أحدٌ يزِيل لفظ كتاب من كتب الله، ولكنهم يحرفونه، أي يؤوّلون على غير تأويله.

ونقل الشيخ غريب في رحلته في صحيفة ١٣ - ١٧ عن البيضاوي والرازي ما يؤدّي إلى أنّ التحريف إنّما هو بالتأويل.

وفي صحيفة ١٨ و ١٩ عن ابن تيميّة: إنّ للعلماء في التحريف قولين: الأوّل: تبديل الألفاظ.

والثاني: تبديل المعاني، واحتجّ للثاني.

وعن الزرقاني: أنّ الفقهاء اختلفوا في أنّ التحريف للتوراة والإنجيل هل هو بالزيادة والنقص، أو بالتأويل والتفسير على غير المراد، فماذا تصنع يا شيخ بهذه الأتقال؟

الشيخ: أمّا ما نقله عن البخاري في صحيحه، فإنّي تتبعتُ صحيحه في كتاب التفسير وتصفّحته، فلم أجد لهذا النقل أثراً، بل إنّ البخاري في صحيحه في أواخر كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة روى مسنداً عن ابن عباس: أنّ رسول الله ﷺ حدّثهم أنّ أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً^١.

فهل البخاري يُفسّر برأيه مضادّة لما يرويه هو في صحيحه؟

يا عمانوئيل، إذا عرضنا عن كلّ شيء فإنّ هذه الرواية في جامع البخاري تكون حجة على البيضاوي والرازي، وابن تيميّة والعلماء والفقهاء الذين قالوا بأنّ التحريف بالتأويل.

يا عمانوئيل، هل بعدما وجدناه وذكرناه من مخالفات المعقول الباهضة في جلال الله وقُدس أنبيائه ورسله، ومن الاختلاف والتناقض، تُريد أن تحجّج عليّ وعلى جامعة المسلمين وعلمائهم ومحقّقيهم بنقل الغريب بن العجيب عن البيضاوي وابن تيميّة وجماعة يفسّرون بالرأي؟

عمانوئيل: يا شيخ، إنّك تدري بما كتبناه وطبعناه في الجزء الأوّل من هذا الكتاب عند دراستنا في التوراة والإنجيل، بحيث كشفنا للعيان والوجدان أنّ أكثر الموجود في العهدين لا تعقل نسبتته إلى وحي الله لأنبيائه، وأنّ القسم الباقي لا نقدر أن نجد له سنداً يوصله إلى الأنبياء والوحي. ولكنّي الآن أحبُّ أن أعرف الوجه فيما ينقل عن البيضاوي وابن تيميّة وبعض المسلمين من دعوى كون التحريف بالتأويل، وكيف يذهبون إلى ذلك؟!

الشيخ: يا عمانوئيل، هل يخفى عليك أنّ كتب العهدين كانت مخفيّة بسيطرة علماء الدين منكم ومن اليهود، مستورة حتّى على عامّة اليهود والنصارى، ولم تظهر وتنتشر باللسان العربي والفارسي إلّا قبل قرن أو قرنين بعناية البروتستنت وإصلاحهم.

ولم يكن لها أثر في بلاد الإسلام في زمان هؤلاء الذين ينقل عنهم الغريب بن العجيب، ولم يكن لهم نصيب من معرفة أمرها إلا السماع باسمها، فلم يكونوا يدرون بما فيها من كثرة مخالفة المعقول والقرآن والاختلاف الكثير والتناقض الكبير حسبما شرحناه، فكان يخيل لهم أنها بريئة من ذلك، فأخذتهم الشبهات إلى القول بالتحريف في التأويل، وحجبتهم عن التبصّر بما ذكرناه من رواية البخاري عن ابن عباس وغيرها من الروايات. ولم يلتفتوا إلى قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾، وقوله تعالى في الآية الحادية والتسعين من سورة الأنعام: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ، مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَتَّبِعُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، فإن القرآن يُبَيِّنُ أَنَّ اليهود يبدون من التوراة ما يوافق أهواءهم على القراطيس ويخفون كثيراً.

التوراة فيها حكم الله

عمانوئيل: يا شيخ، إن القرآن يقول في الآية الثالثة والأربعين من سورة المائدة: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾، فالقرآن يُصَرِّحُ بِأَنَّ التوراة التي عند اليهود في عصر نبيكم فيها حكم الله. الشيخ: نعم، إن الذي يسميه اليهود توراةً فيه شيء من أحكام الله التي جاءت في التوراة الحقيقية، والقرآن ينصّ في الآية التاسعة والأربعين من سورة المائدة أَنَّ الحكم المشار إليه - وهو قصاص النفس بالنفس - ممّا نزل في التوراة الحقيقية وكتب على بني إسرائيل، وها هو موجود في العدد العشرين من الفصل التاسع عشر من التثنية. ولم ينصّ القرآن على أَنَّ الكتاب الموجود عند اليهود في ذلك العصر هو كتاب الله الحقيقي المتكفل بأحكام الله في شريعة موسى، بل سمّاه التوراة؛ لأنّ اسم ذلك الكتاب عند اليهود توراة، فجاراهم في التسمية؛ لكي يجادلهم بالتي هي أحسن.

وعلى هذا النحو من المجازة بالتسمية جاء قوله تعالى في الآية السابعة والخمسين بعد المائة من سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾، يشير بذلك إلى ما في الفصل الثامن عشر من التثنية

كما مرّ في الجزء الأوّل في صحيفة ٨٧ إلى ٩٠ - وإلى ما في العدد السادس والعشرين من الفصل الخامس عشر وفي العدد السابع إلى الخامس عشر من الفصل السادس عشر من إنجيل يُوحنا.

وهو اللفظ اليوناني «بيركلوطوس» الذي تعريبه «فيرقلوط» بمعنى أحمد أو محمّد، كما يدّعيه النصارى ويصحّحونه «بيراكلي طوس» ويعتبرون عنه «فارقليط» كما عن التراجم المطبوعة في لندن سنة ١٨٢١م وسنة ١٨٣١م وسنة ١٨٤١م. وفي مطبوعة وليم واطس في لندن سنة ١٨٥٧م على النسخة المطبوعة في رومية سنة ١٦٦٤م.

وفي الترجمة العبرانيّة للأصل اليوناني المطبوعة سنة ١٩٠١م، وأبدله بعض التراجم بالمعزي والمسلي.

أو يشير إلى التصريح الكثير باسمه الشريف محمّد في إنجيل برنابا، الذي حرّمه البابا جلاسيوس الأوّل الذي نال الباباوية سنة ٤٩٢م، أو كما يقول البستاني في دائرته في ترجمة برنابا: حرّمه جلاسيوس الثاني الذي نال الباباوية سنة ١١١٨م^١. وقد سلف في الجزء الأوّل في صحيفة ٢٠٤ إلى ٢٠٦ بعض الكلام في إنجيل برنابا.

ما هو الذكّر الذي يحفظه الله؟

عمانويل: إن القرآن قد سمى التوراة بالذكّر، حيث قال في الآية الخامسة بعد المائة من سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾.

وسمى التوراة والإنجيل بالذكّر، حيث قال في الآية الثالثة والأربعين من سورة النحل والسابعة من سورة الأنبياء: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقال في الآية التاسعة من سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ﴾.

فقد وعد الله بحفظ الذكّر من التبديل والتحريف والزيادة والضياع، وهو إخبارٌ بحفظ التوراة والإنجيل من ذلك.

الشيخ: المراد من الذكْرِ في آية الحفظ هو القرآن؛ لقوله تعالى قبل ذلك في نفس سورة الحجر في الآية السادسة: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ فالذِّكْرُ الموعود بحفظه هو القرآن، وهو الذِّكْرُ المعهود في الآية السادسة. ويشهد لذلك ما تقدّم في مكالمتنا من أنّ جملةً من قصص القرآن وكثيراً من آياته تشهد بأنّ التوراة والإنجيل لم يُحفظا من الزيادة والتحريف والتبديل والضياع، وأيضاً يا عمانوئيل ليس المراد من أهل الذِّكْرِ في الآيتين السابقتين من سورتي النحل والأنبياء هم أهل التوراة والإنجيل، بل هم الراسخون في العلم من أهل القرآن.

تعليم القرآن بالأخلاق الفاضلة

عمانوئيل: يا شيخ، إنّ الأخلاق الفاضلة هي الحياة الإنسانيّة، وروح المدنيّة، وناموس الاجتماع، ومعراج السعادة والرفقيّ. ولا يليق بالكتاب المنسوب إلى الوحي أن يخلو من التعليم بها، فهل تُسمعنا شيئاً من تعليم القرآن بالأخلاق الفاضلة، وتشرح مراد القرآن فيما تقرأه؟

الشيخ: أمّا القراءة فأقرأ بعون الله، وأمّا الشرح فإني أحبُّ أن يكون حضرة القسّ هو المتولّي له بحسب ما يفهمه هو من لفظ القرآن وأسلوبه.

الشيخ: فتحتُ المصحف الشريف، فأطرقَ القسّ للإصغاء، وابتدأتُ بالتلاوة من الآية الثالثة والسّتين من سورة الفرقان المكيّة وقرأتُ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

القسّ: عجباً يا أصحابنا، ألا ترون كيف اشترط في الأبرار الذين يُريدون السعادة بالانتساب إلى عبوديّة الرحمن والتحرّز من عبوديّة الهوى والشيطان، وأوضح أنّ الرقي، إلى فضيلة عبوديّة الرحمن إنّما هو للذين يمشون على الأرض هوناً، بحسن السلوك بالأخلاق الفاضلة، وكرام الأدب مع النفس بتهديبها، ومع الناس بعدل المدنيّة وبحسن الاجتماع.

فيسلكون على هونهم في تحرّي الطريق ولزوم الجادة واتباع البصيرة، والتوقّي من

عثرة الاسترسال وورطات الجهل المركب والعجب والغرور، من دون تسرع يورطهم في هفوات الشهوات وطفرات الغضب والظلم، ويُدنّسهم برذائل العجب والغرور، فيزلّ بهم تسرعهم عن النهج المستقيم، ويضرّ بسعادة أنفسهم وراحة بني نوعهم.

فجمعت هذه الكلمة الواحدة للتعليم بكلّ خير وخلق فاضل يتكفل بالسعادة وال عمران الحقيقي وراحة المجتمع الإنساني، والتعليم باجتناّب الهرولة إلى بطالة التقشّف البارد ومسكنة العجز المضرتين برقيّ النفس في الكمال والمعاضدة في العمران.

وإذا تعرّض الجاهلون لهؤلاء الفضلاء بكلام الجهل أجاوبهم بما فيه السلام، حسبما تقتضيه الظروف والأحوال من الملائمة بالإرشاد أو الموعظة وما يصلح للجواب بالسلام، اقرأ يا شيخ جزاك الله خيراً.

الشيخ: فقرأت ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾^١.

القس: هذه هي المظاهر في الرابطة الحقيقية في عبودية الله والخضوع له وعبادته الخالصة، وحقيقة الرهبة منه، وهي الحقيقة المعقولة الجامعة بين الرغبة في طاعة الله وعبادته لأجل عظمتهم ومعرفة أهليته للعبادة الصادقة، وبين الرهبة بالالتفات إلى وبال المعصية، وبطلب المعونة من الله والتوفيق للخلاص من المعاصي واستحقاق من عقابهم الأليم.

يا أصحابنا، ما أجلّ قوله في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ فإنّ هذا هو الإخلاص بالعبادة، وفيه السلامة من الرياء الذي يسري في العبادة كدبيب النمل.

فإنّ بعض الناس لا تخطر المرات للناس في باله عند عبادته، ولكنّه ينشط للعبادة بين الناس ويكسل إذا خلا بنفسه، وهذا من داء الرياء الكامن.

وأين هؤلاء من عباد الرحمن الذين يفتنمون الخلوات وظلام الليل، فينهضون بالنشاط والإقبال إلى عبادة الله، ما أشرف هذا التعليم المحيي للروح، اقرأ يا شيخ.

الشيخ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^١.

القس: يا حبذا هذا التعليم الفائق في نظام المعاش وإعانة النوع ونظم أمر العيال، ووضع الإنفاق مواضعه حسبما تقتضيه الحاجة ومواقع الحكمة.

وإنه يقول: إن هؤلاء الكاملين ينفقون ويكون إنفاقهم مستقيماً على الحكمة، لا يميل به التقدير إلى التقصير واتباع رذيلة البخل والإخلال بواجبات النوع، ولا يميل به الإسراف إلى عبث السفه المؤدي إلى القصور عن الواجبات وإلى ارتكاب المنوعات، وإلى عادة تقلق على بني النوع نظام معيشتهم، اقرأ يا شيخ.

الشيخ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾^٢.

القس: إن هذه الأمور كانت مُندرجة فيما تقدّم، ولكن أهميتها العظمى في العرفان ونظام الاجتماع أوجبت على الحكيم الهادي أن ينصّ عليها بشديد الموعظة والتهديد والوعيد.

الشيخ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾^٣.

القس: هذا هو التعليم الجاري على الحكمة، والداعي إلى الصلاح، والهادي إلى الرشد، والدالّ على باب الرحمة، والمبين لحقيقة التوبة بتطهير النفس بالأعمال الصالحة، والمبشّر بالنجاة، والفوز، والمعرّف برحمة الله وجلاله وغناه، والمبين لوجه العفو وحسنه وأهليّة النائب له.

فإنّ مَنْ رجع عن كفره وفساده، وندم ما فرط منه، ووطن نفسه وعاهد ربّه على عدم التلوّث بتلك الرجاسات، وتطهّر بالأعمال الصالحة، ومنها الخروج من عهدة حقوق الناس، فإنّه يزكو ويرجع إلى الله رجوعاً حقيقياً بالعبودية الصالحة ويندرج في

زمرة الأبرار، فهو الأهل للعفو عمّا سلف منه.

ألا إنّ البيان يضيّق عمّا في هذه التعاليم من كشف الحقائق وحسن الإرشاد وسموّ التعليم، وإنّ نورانيّتها هي التي تهدي إلى كنوزها الفائقة، اقرأ يا شيخ.

الشيخ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾^١.

القس: إنّه ليُطربني قوله: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ فإنّه يعلم بأداء الوظيفة الصالحة لذلك المرور حسبما يقتضيه الحال والمقام من الإعراض، والموعظة، والنصيحة، واللين، والشدة، والزجر، والتأديب. فإنّ العامل بالوظيفة كريم، والمهمل لها لثيم، اقرأ.

الشيخ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِرُوا بِشَأْنِهِمْ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْنَانًا﴾^٢.

القس: باكيًا متضرعًا: اللهم لك الحجّة البالغة، فوقفنا ونور قلوبنا، وشرح صدورنا، وأعدنا من صمم الجهل والعناد، وعاية العصبية والغواية.

الشيخ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^٣.

القس: ما أكرم هذا التعليم بقاء النوع الإنساني، ودوام الحنان العائلي، وكفّ النفس عن الخيانة مع النساء الأجنبية، والتنزّه عن رذيلة الحسد للناس. ومن أهمّ ما تقرّ به العين من الأزواج والذريّات هو لزومهم لجادة التقوى والصلاح، ومن ذلك ينشأ الخير والاستراحة لهم.

وزاد في تأكيد ما مضى من التعاليم الفاضلة، أنّه ينبغي لعباد الرحمن أن يسعوا في تكميل أنفسهم وتهذيب أخلاقهم، بأن يطلبوا أن يكونوا بأقوالهم وأحوالهم وأعمالهم وأخلاقهم قدوةً للمتقين وأدلاءً على الخير والهدى.

زدنا يا شيخ من هذه الحكم الروحية والآداب المدنية والاجتماعية والتعاليم السامية.

الشيخ: فقرأتُ من سورة المعارج المكيّة في صفات السعداء وأخلاقهم الفاضلة:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾^٤.

١-٣. الفرقان (٢٥): ٧٢-٧٤.

٤. الآية ٢٣.

القَس: يُريد أَنَّهُمْ يُصَلُّونَهَا عَنْ رَغِيَةٍ فِي الطَّاعَةِ، وَمَعْرِفَةِ بَعْظَمَةِ الْمَعْبُودِ، وَشَوْقٍ إِلَى شَرَفِ مَنَاجَاتِهِ. وَلَمْ تَكُنْ صَلَاتِهِمْ عَنْ تَكْلِيفٍ فَيَقْطَعُهَا الْكَسَلُ، وَلَا عَنْ رِيَاءٍ فَيَهْمَلُونَهَا فِي الْخُلُوتِ.

الشيخ: «وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ»^١.

القَس: يَعْنِي أَنَّ إِعَانَتَهُمْ لِدَوِي الْحَاجَةِ مِنَ النَّاسِ لَمْ تَكُنْ بِتَكْلَفٍ تَابِعٍ لِلسَّوَانِحِ الْوَقْتِيَّةِ مِنْ دَوَاعِي الْهَوَى وَالخَجَلِ وَالرِّيَاءِ، فَتَكُونُ اتِّفَاقِيَّةً تَابِعَةً لِهَذِهِ السَّوَانِحِ إِذَا غَلَبَتْ عَلَى الْحَرَصِ وَالْبَخْلِ، بَلْ جَعَلُوا فِي أَمْوَالِهِمْ لِإِعَانَةِ الْمَحْتَاجِينَ حَقًّا مَعْلُومًا حَسَبَ فِرَاضِ الشَّرِيعَةِ وَفِرَاضِ رَحْمَتِهِمْ، لَا يَنْقُصُهُ الشَّخْ، يَعِينُونَ بِهِ السَّائِلِ وَمَنْ حَرَمَهُ النَّاسُ مِنَ الْمَعْرُوفِ لِأَجْلِ عَفْتِهِ وَعَدَمِ سَوَالِهِ.

الشيخ: «وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ»^٢.

القَس: هُوَ لِأَنَّ الَّذِينَ تَرَكُوا النَّفْسَ إِلَى كِمَالِهِمْ بِاطْمِئْنَانٍ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَا يَكْمُلُ لَهُ كَرَمُ الْأَخْلَاقِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، إِلَّا إِذَا كَانَتْ نَفْسُهُ دَائِمَةً الشَّوْقَ إِلَى رِفْعَةِ وَنَعِيمٍ عَظِيمٍ بَاقٍ، تَسْتَحْقِرُ دُونَهُ زُخْرَافَ الدُّنْيَا الْفَانِيَّةِ، وَدَائِمَةَ الرُّهْبَةِ مِنَ عَذَابِ تَهْوَنِ دُونِهِ مَصَاعِبَ الدُّنْيَا الْمُنْقِضِيَّةِ، وَشِدَائِدَ مَخَالَفَاتِ الْهَوَى وَالغَضَبِ وَحَبِّ السَّمْعَةِ. وَإِنَّ الْمَصَدِّقَ بِيَوْمِ الدِّينِ هُوَ مَنْ لَا يَتَغَافَلُ عَنْهُ وَلَا يَتَنَاسَاهُ وَلَا يَتَسَاهَلُ فِي أَمْرِ جَزَائِهِ وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، بَلْ هُوَ مُشْفِقٌ مِنَ عَذَابِ رَبِّهِ دَائِمًا، فَهَنِيئًا لَهُؤَلَاءِ الْكِرَامِ.

الشيخ: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْوَابِهِمْ حَانِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ»^٣.

القَس: مَا حَالُ الْعَادِينَ عَلَىٰ غَيْرِ أَزْوَاجِهِمْ وَالْمَتَعَدِّينَ حُدُودَ الشَّرِيعَةِ وَشَرَفِ الْإِنْسَانِيَّةِ؟ أَمَا إِنَّ الزُّنَى أَضْرَّ شَيْءًا عَلَى الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ وَحَيَاةِ النُّوعِ وَالْحَنَانِ الْعَالَمِيِّ.

الشيخ: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ»^٤.

القَس: مَا أَكْرَمَ الرَّاعِينَ لِأَمَانَاتِهِمْ فِي كُلِّ مَا يُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ، وَلِجَهْدِهِمْ مَعَ اللَّهِ وَمَعَ

١. ٢٧-٢٤: (٧٠). المعارج

٢. ٤٣-٢٩: (٧٠). المعارج

الناس، والقائمين بشهاداتهم على حقها وحقيقتها من دون كتمان ولا تبديل ولا تحريف، زدنا يا شيخ زادك الله من فضله.

الشيخ: فقرأت من سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^١.

القس: إن الإصلاح بين الناس هو قوام النظام وحياة الاجتماع، فليتق الناس ربهم من إهمال الإصلاح، وليطلبوا رحمة الله بالنهوض إليه.

الشيخ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّقَبِ بِنِسِ الْأَسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^٢.

القس: أيها الساخر إن لم تكن لك تقوى تصدك ولا شرف يردعك، فاترك السخرية؛ حذراً من أن يكون من تسخر به خيراً منك عند الله وعند الناس، فتجلب الهزء والفضيحة على نفسك. أيها العائبون للخلق لا تنتبهوا الناس على عيوبكم، فلا تلمزوا الناس بالعيوب ولا تذكرهم بألقاب السوء.

الشيخ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^٣.

القس: لا ينهى عن ظن الخير الذي تحسن به الروابط، وتتأكد به علائق الألفة، ويصفو به الاجتماع. ولكنه ينهى عن ظن السوء، المؤسس للبغضاء والنفرة والمثير للشر. فإن بعض الظن إثم وخطأ، وظلم للبريء، وسبب للتهجم بالبغضاء والأذى. وإن التجسس مثار الفساد، ومنبع الشر والفتن، ومقلق لنظم الاجتماع، ومكدر لصفائه. وإن الغيبة شر ما يغرس البغضاء، ويقدم بالشرف، ويخدش العواطف، ويكشف عن رذيلة المغتاب؛ إذ يغفل عن عيوب نفسه ويذكر عيوب الناس.

١. الحجرات (٤٩): ١٠.

٢ و٣. الحجرات (٤٩): ١١ و١٢.

أفلاتنظرون إلى هذا المثل الفائق في المطابقة في التنفير والتوبيخ والاحتجاج إذ يقول: أيها المغتاب إنّ الذي تغتابه أخوك، وإنّ عرضه أمانة عندك، وهو في غيابه كالميت لا يقدر أن يحمي شرفه وعرضه من لسانك، فلماذا تملأ فمك من غيبته، وتنهش عرضه بأنياب كلامك؟ أولست تكره أن تأكل لحم أخيك الميت؟ فلماذا تفعل مثل ذلك بغيبتك لأخيك الغائب؟ زدنا يا شيخ من هذه التعاليم الروحية المدنيّة.

الشيخ: إنّ تعاليم القرآن بالأخلاق الفاضلة كثيرة، تحتاج إلى عقد فصل لها بالانفراد بعدما نفرغ من تعاليم القرآن في الإلهيات والنبوة.

القس: يا شيخ، ألا تذكر لنا ما في القرآن من المعارف الإلهية، وتبين من ذلك ما يحتاج إلى البيان؛ لكي ننظر فيما تذكره ونبحث عن الحقيقة؟

الشيخ: ها أنا أذكر بعون الله ما جاء في القرآن الكريم من المعارف، وما أورده من حججها بالنهج الواضح الذي يرتاح إليه الوجدان الحرّ، ويأنس به العامي والفيلسوف، ولكن هل تسمحون لي بأن أجري على طريقتي الإسلاميّة في احترام القرآن الكريم عند ذكره بتمجيده اللازم علينا، وأن أقول عند تلاوته قال الله جلّ اسمه؟

القس: لا نمنعك أن تقول ما تقتضيه ديانتك، ولكن هل تريد منا أن نقبل منك كلّ ما تدعي أنّه حجّة واضحة؟ وهل تجبرنا على أن نعترف لك بمجرد قولك؟ أليس من اللازم أن تكون الحجّة معلومةً صالحة لأن توصلنا إلى العلم بالشيء المجهول والدعوى المجهولة؟

الشيخ: لا بدّ من ذلك.

عمانوئيل: إنّي أرى بين أهل هذا القرن والذي قبله حججاً لا زالت تقلقني، لأنّي أجدّها مبنيّة على تخمينات لا تبلغ أضعف مراتب الظنّ، فيبنون عليها أموراً كبيرة، ومع ذلك يسمونها «العلم». العفو يا شيخ، فإنّي أقول بحرّيّة وحرّيّة وجداني وحرّيّة الحقيقة: إنّي أرجو أن لا تأتينا بمثل هذه الحجج.

الشيخ: ألا تذكر هذه الحجج وتبين وجه انتقادك فيها، لكي نعرف أنك تصيب بالانتقاد، أو أنك تهجم على الحجج الصحيحة بدعوى الخلل، فأوضح ما عندك؟

مذهب داروين في أصل الأنواع

عمانويل: يا شيخ، أَلَسْتَ تسمع هذا الصوت العالي والدويّ الهائل بين أهل العصر فيما أحدثه داروين من مسألة أصل الأنواع، وتحوّل بعضها إلى بعض، ورجوع أنواع الحيوانات إلى أصل واحد. وكذا النبات، بحيث صار من المسلّمات في هذه المسألة أنّ الإنسان متحوّل من القرد المتحوّل عن غيره؟

وحين امتلأت أذناي بهذا الصوت وهذا الدويّ قلتُ: إنّ شرف العلم وناموس الفضيلة وحقّ الحقيقة وحفظ الشرف، تقتضي أن يكون ذلك مستنداً إلى البراهين الكبيرة العالية، المستندة إلى واضح الحسّ وبداهة الوجدان وعلم اليقين. إذاً فلا يحسن للإنسان أن يجهل أمراً يعتمد على هذه البراهين، فتصفّحتُ أقوال داروين وبخبر وغيرهما في ذلك، فرأيتُ الذي ذكروه لذلك من التشبّهات أموراً:

الأوّل: الانتخاب الطبيعي، بدعوى أنّ الطبيعة لا زالت تنتخب الأرقى فالأرقى من صفات النوع إلى أن يتحوّل إلى نوع آخر، وهكذا. وقال أصحابهم: إلى أن بلغ الانتخاب إلى أرقى القروء، ثمّ إلى الإنسان الأسود، ثمّ إلى الأبيض القوقاسي.

أليعازر: داروين ولد سنة ١٨٠٩م، وكلّ عمره ثلاث وسبعون سنة. فهل شاهد تحوّل الأنواع بعضها إلى بعض، كتحوّل القرد إلى الإنسان؟ وهل شاهد كون الطبيعة تنتخب الأرقى فالأرقى من صفات النوع من دون خضوعها للتأثيرات الخارجيّة، التي تتجاذبها مرّة إلى التقهقر والانحطاط، ومرّة إلى التحسين بحسب استعداد المؤثرات وفعاليتها، كما هو المشاهد بالتجربة.

إذاً، فمن أين علم أنّ الانتخاب والتحوّل سنّة في الطبيعة وناموس في الأحياء؟ ولو أنّ داروين شاهد التحوّل في بعض الأنواع مراراً، وشاهد انتخاب الطبيعة بدون المؤثرات السائدة بناموسها في العالم، ونقل له بالنقل القطعي أمثال ذلك مراراً، لما حسن منه - في شرف العلم التجريبي - أن يجعل ذلك سنّةً جارية في الطبيعة في جميع الأحياء من مبدأ نشئها.

فإنّ هذه المشاهدات والمنقولات في بعض الأحياء لو كان لها حقيقة ودامت مائة قرن، لما أفادت في دعوى داروين أضعف الظنون الاستقرائية، فإنّ من دون ذلك في قانون العلم وشرف الأدب عقبة لا يمكن عبورها. نعم، ربما يتوهم عبورها بطفرة الخيال وعدم المبالاة بالمسؤولية.

ألا وإنّ من تلك العقبات جواز أن تكون تلك المشاهدات وتلك المنقولات - التي افترضناها له - إنّما هي من تأثيرات روحية جارية على نواميس الخلق الخصوصي، حتّى لو فرضنا الخلق الخصوصي الناظر إلى الغايات احتمالاً تشكيكياً، فكيف به وهو الحقيقة الراهنة المتجلية للبرهان وبداهة الوجدان؟!

ومن العقبات أنّ تلك المشاهدات والمنقولات - التي افترضناها له خيالياً - يجوز أن تكون ناشئة من تأثيرات زمانها الخاصّ وإن كان قروناً متعدّدة، تصادف فيها استعداد موجوداتها الخاصّة مع المؤثرات المختصّ كيانها بتلك القرون، فمن أين يكون ذلك سنّةً جاريةً في الطبيعة؟

هذا كلّه لو فرضنا أنّ داروين شاهد في قرون كثيرة ما افترضناه له، ونقل له أمثال ما شاهد. ولكن من أين هذا الفرض؟ ومن أين يكون خيال هذا الحلم؟

يا عمانوئيل هل كتب داروين شيئاً يستند إليه لهذه الدعوى الكبيرة المهولة؟
عمانوئيل: قد رأيتُ كتاب داروين أصل الأنواع، فرأيتُهُ يستند إلى تربية الحمام ودراسة أحواله بعناية جمعيتين خصوصيتين في لندن. وقد أشبع الكلام في الكتاب المذكور في جهات التباين بين أقسام الحمام، وصرّح بأنّ التباينات بينها متنوّعة إلى حدّ يسوق إلى العجب، ومع ذلك قال:

ومهما كانت الفروق بين تولّدات الحمام ذات شأن، فإنّي على تمام الاعتقاد بأنّها متسلسلة من حمام الصخور «الكمباليقا».

مع أنّه قال أيضاً:

إنّنا لا نعرف من حمام الصخور سوى نوعين أو ثلاثة أنواع، ليس لها شيء من صفات التولّدات الأهلية.

أي من أنواع الحَمَام الأَهلي.

ثم قال:

قد آنستُ من نفسي زمان اشتغالي بتربية الحَمَام أنْ صعباً كثيرةً تحول دون الاعتقاد بنشئها عن أصل أولي معين، لكنّ جملة من الناس على اعتقاد تام بأن التولّدات المختلفة نشأت من أنواع أوليّة معيّنة.

يا والدي، إذا استدلّ الإنسان بالوجدان والعيان على التباينات العجيبة بكثرتها، وإنه ليس لحَمَام الصخور شيء من صفات الحَمَام الأَهلي، فهل يصحّ منه في شرف العلم أن يظفر بالنتيجة إلى القهقري والعكس ويقول: أنواع الحَمَام متسلسلة من حمام الصخور؟ فانظر معرّب أصل الأنواع صحيفة ٦٧ إلى ٧٩.

وهل من شرف العلم أن يقنع الناس في هذه الدعوى الكبيرة والنتيجة المعكوسة بقول داروين: «إني على تمام الاعتقاد» «جملة من الناس على اعتقاد تام؟» ولو أنّ رجلاً اقتصر على فتواه بأن أنواع الحَمَام الأَهلي متسلسلة من حَمَام الصخور، ويدّعي العلم بزمان تأهلها وتشعب أنواعها، والاطّلاع على حالات اتّصالها، وتسلسل تولّدها من تلك الحلقات، ويكون ذلك بنحو الفتوى المقدّسة، ثمّ يفتي بعد ذلك بأنّ جميع الأحياء تنتهي إلى أصل واحد، لكان أهون عليه من أن يتعب القلم بذكر المقدمات التي تعاكس دعواه.

أليعازر: إنّ الذي تساعد عليه التجربة والمشاهدة، هو أنّ الأنواع لها - بحسب العوامل العرضيّة - سته التحسّن والانحطاط المحدودين، بأن لا تخرج أفراد النوع عن صفته. ومن جملة العوامل تأثيرات الصقع والغذاء والتربية وغير ذلك، ومنها ما هو سريع التأثير، ومنها ما يبطن لأجل منازعته مع تأثير العامل الأوّل.

فإنّ النسل الزنجي إذا تحوّل إلى بلاد القوقاس، يبطن تحسّنه بمقتضى طبع الصقع إلى أجيال عديدة يتدرّج فيها بالتحسّن شيئاً فشيئاً، وقد يكون أسرع من ذلك بواسطة التزاوج. وكذا النسل القوقاسي إذا انتقل إلى بلاد الزنج، فإنّه يبطن انحطاطه التدريجي، وقد يكون أسرع بواسطة التزاوج.

وربما تكون تأثيرات بعض البلاد تتبدّل في البلاد الأخرى إلى تأثيراتها في نحو جيلين، فقد شاهدنا رجالاً مع نسائهم من بلاد سُنتها علوٌّ مقدّم الرأس على الجبهة وتثلث الرأس، وهم على تلك السُنّة قد انتقلوا إلى بلاد سُنتها استدارة الرأس واعتدال وضع مقدّمه على الجبهة، فأخذ نسلهم في هذه البلاد يتحسّن بحيث يزيد الولد الثاني على الولد الأوّل في التحسّن، حتّى صار الجيل الثاني على سُنّة هذه البلاد، وشاهدنا العكس أيضاً.

ومن المعلوم أنّ للأقاليم تأثيراً تمتاز به في الألوان، فإنّه لا يوجد في خيل بلاد العرب ما نصفه مثلاً أبيض خالص البياض والباقي أحمر أو أشقر أو أسود، كما يوجد بكثرة في بلاد الترك.

القس: ويقول داروين في أصل الأنواع حسبما هو مذكور في تعريبه ص ٦٠:
إنّ الدواجن الحاليّة قد وُجِدَت صورها في بعض النقوش المصريّة القديمة وما عمّر من البقاع حول بحيرات سويسرا، وإنّ هذه الصور لا تكاد تختلف مع تولّداتها الحاليّة اختلافاً ما.

انتهى كلامه.

وهذا الأمر كما يدلّ على قدم المدنيّة واقتناء الدواجن الأهليّة، فكذلك يكون من أقوى الأدلّة على أنّ النوع لا تُغيّر الأدوار الطويلة والتربية صفاته النوعيّة بالانتخاب الموهوم. نعم، قد يقتضي التزاوج وبعض العوارض أن تتغيّر بعض صفاته تغيّراً ما. ولكن بالتمادي على الاستقامة أو زوال العوارض، يرده إلى صفاته الأصليّة ناموس الوراثة النوعيّة بتقدير الله للتناسل. فقد شاهدنا من تزاوج الحمام الأبيض والحمام الأحمر، أنّ النسل الأوّل قد يخرج ملوناً، ولكنّ النسل الذي يحصل بتولّدات متعدّدة ترده الوراثة إلى لون واحد من أصوله.

ومما يذكره التاريخ أنّ حمام الرسائل استعمل في حرب طروادة، التي لها نحو ثلاثة آلاف سنة، فهل وصل الانتخاب الطبيعي بحمام الرسائل إلى زينة الطاووس أو قوّة النسر؟

وفي مُعَرَّب أصل الأنواع ص ٢٦١ و ٢٦٢:

لقد تكلمنا في الفصول الأولى من هذا الكتاب في التغيرات، وأثبتنا أنها كثيرة متعددة الصور متنوعة الأشكال في الكائنات العضوية إذ تحدث بتأثيرات الإيلاف. وأنها أقل حدوثاً وتشكلاً إذ تنشأ بتأثير الطبيعة المطلقة، وغالب ما نسبنا حدوثها للمصادفة العمياء، على أن كلمة «مصادفة» اصطلاح خطأ محض، يدل على اعترافنا بالجهل المطلق وقصورنا عن معرفة السبب في حدوث كل تغير معين يطرأ للأحياء. انتهى.

وقال أيضاً ص ٢٧٩ و ٢٨٠:

وكثيراً ما تستغلق دوننا وجوه الرشد في اكتناه دستور محكم نسترشد بهديه في ظلمات هذه الأبحاث، فقد لاحظ «جفروي» أن بعض التشوهات الخلقية الحادثة بالطبيعة كثيراً ما تتشارك في الوجود، وأن غيرها يندر تشاركها. كل ذلك ونحن غلف لا نعرف سبباً ننسب إليه وجودها على تلك الحال، وأية حالة أبعد تشابكاً في حلقات صلاتها من تبادل النسبة التام بين بياض لون السنانير وصمها.

عمانويل: يا سيدي، فياليت هذه الاعترافات الحقيقية قد صدت داروين وأتباعه عن طفرة الإيمان الغيبي بمسألة تحوّل الأنواع وتسلسلها عن أصل واحد، بل كان يكفيهم ما يحدده الحسّ والشعور التاريخي من أن لكلّ نوع حدّاً وسطاً تتراوح عليه آثار التحسين والانحطاط بحسب أسبابها إلى حدّ محدود في الصورة النوعية.

ويا ليتهم لم يتركوا الخيال قلقاً من أوهام الحلقات المفقودة، دائم الأسف عليها، كأنه أنس بها دهرأ ثم أصبح ثاكلاً لها. وكم وقع الأساتذة في خجل الخيبة حينما خيل لهم الشوق المستعجل أنهم وجدوا حلقةً من حلقات الاتصال، كما تجد ذكره في الصحف.

أما أن لأهل العلم التجريبي أن يسألوا هذا الفقيه الموهوم: هب أنا وجدنا في قاع البحار حجراً متعضياً تعضياً طبيعياً لا صنعياً ولا بناموس استحجار الحيوان، أو وجدنا في شواطئ البحار مادة جلائينية تهتز بحركة حيوية لا ميكانيكية، فلماذا نظفر ونؤمن دفعةً بأن هذه من حلقات الاتصال في تسلسل الأنواع؟ ثم ننظّم سلسلة طويلة وهمية من حلقات وهمية لا تحصى؟

ولماذا لا نقول: إنَّ ما وجدناه نوع من الكائنات التي لا يحصي الاستقراء أنواعها، ولا تتعدى عن نوعيته حتى يتجلى لنا بالحسّ تحوُّله إلى نوع آخر، فثبت ذلك في دفتر العلم التجريبي، ونقف بشرف العلم على هذه التجربة حتى يتجلى لنا بالحسّ تحوُّله أيضاً إلى نوع آخر، وهكذا، فنتكلّم كلاماً علمياً تجريبياً؟
يا سيّدي، وفي معرّب أصل الأنواع أيضاً ص ١٣٢:

إنَّ التفريق بين التّنوعات والأنواع لا يصحّ إلاّ بشرطين: أوّلهما: اكتشاف الصور الوسطى التي تربطهما.

يا سيّدي، فمن أين اكتشفت الصور الوسطى الرابطة في التحوّل؟ هل يكفي افتراضها خيالياً بتربية الحمام عشرين سنة؟
وأيضاً ص ١٣٢: «ثانيهما: معرفة مقدار التغيرات المحدودة التي تقع بينها» ولم يأت بشيء في هذا الشرط، بل قال ص ١٣٣ بعد كلام هو أعرّف بمحصّله في الحجّة: «بيد أنّنا لا نفقه لها معنى، ولا نكشف غطاء إذا اعتبرنا أنّ الأنواع قد خلقت خلقاً مستقلاً».

يا سيّدي، إذا قلنا: إنّ الأنواع خلقت مستقلاً على طبائع تجري على نواميسها في موالدها، فهل يتعدّر على العلماء درس طبائعها وعوارضها، وما يلائمها وما يضرّها وما يصلحها، فلا يفقه العلماء لها معنى، ولا يكشفون عن أمرها بدرسهم غطاءً؟ إذا فكيف درس العلماء طبائع الأحياء وأعضائها ودوّنوا طبئها وطبيعيّاتها قبل مذهب داروين؟

وهل قلب مذهب داروين نظريّاتهم السابقة إلى طبّ داروين وطبيعيّات داروينيّة، قد بنى فقهاها وكشف غطاءها على ارتباط الأحياء بالتسلسل من نوع واحد؟ متى كان ذلك؟ أليس كلّ ما في العلم من طبّ وطبيعيّات إنّما هو من درس أولئك السلف من الأساتذة، الذين لم يخطر مذهب داروين ببالهم، وعلى أساسهم بنى الخلف وترقى في اكتشافاته؟ أم يريد داروين أنّ التشابهات لا يفهم لها معنى بالخلق المستقلّ للأنواع، فهل يمتنع حصول التشابهات في الخلق المستقلّ؟ وهل بالقول بتسلسل الأنواع الموهوم

زاد فقهاً بالتشابهات وكشفاً لغطائها، وفاق به القائلين بالخلق الخصوصي، سواء كانوا إلهيين أو ماديين؟

داروين والتنازع في البقاء لحفظ الصفوف العالية

أليغاز: ومما يجعلونه في احتجاجهم على تسلسل الأنواع وتحولاتها، مسألة حفظ الصفوف العالية في التنازع في البقاء، وارتباط هذه بمسألة الانتخاب الطبيعي، وقد أشبع داروين فيها الكلام.

عمانوئيل: يا سيدي، وهل ذكر في ذلك إلا ما هو السنّة الجارية في الكائنات الحيّة، من أنّ بعض الحيوانات يتغذى ببعض، وبعض الحيوانات يعادي بعضاً آخر، وبعض النبات يحتاج في حياته وترقيته إلى محلّ صالح يتمتّع به في نُموّه بحيث تضرّه في حياته ونموّه مزاحمة النبات الآخر، وبعض النبات يكون ساماً للنبات الآخر، وبعضه يكون مصلحاً للآخر، وبعض أنواع الحيوان يببّد، وبعض النبات يترقى ويتحسنّ بعناية الفلاحة.

يا والدي، ولتأملأ الصحف من أمثلة ذلك، لكن من أين يدلّ ذلك أنّ الغاية منه - قصداً أو صدفة - إنّما هو حفظ الصفوف العالية؟ ومن أين يجيء اتصاله بالانتخاب الطبيعي؟ وبأيّ وجه يرتبط بتسلسل الأنواع؟

ألسنا نرى أقسام السباع تقتل الإنسان وتأكله وتعاديه، والحيوانات السامة - كالحية والعقرب - تعادي الإنسان وتقتله، وهذا المكروب بالاكتشافات الحديثة يقتل الإنسان بالمهاجمات الوبائية؟

أو ليس الإنسان - الذي منه العالم والفيلسوف والقوقاسي - هو أعلى صفوف الكائنات الحيّة؟ وقد شاهدنا في بعض البراري في أمكنة كثيرة سواداً متراكماً في الأرض، فقصدناه فوجدناه مشتتلاً على قسمين من النمل: القسم الأصفر النحاسي الصغار، والقسم الأسود الكبار الطيّار ذي الأجنحة. وقد اجتمع النمل الصغار على الكبار بتهاجم كبير، يتعلّق بالنملة الكبيرة جماعة كثيرة من الصغار حتّى تقتلها، فكانت

تلك القطعة مملوءة من النمل الكبار ما بين أسير وفي آخر رمق، وقتيل ومأكول بعضه، فهل كان ذلك لحفظ الصفّ العالي؟

وإنّ المنقولات من أصحاب الأحافير تفيد أنّ كثيراً ممّا وجدوه من الحيوانات البائدة هو من أعلى صفوف الحيوان في كبير الجثّة وإتقان البنية، كما أودعوا صورها في المتاحف.

ودع عنك ما لم يعثروا عليه، فمن ذلك «البروتوزورس» ويقدر طوله بخمسة عشر متراً.

ومنه «الديلودوكس» ويقدر طوله ببضعة عشر متراً، وعلوه بخمسة أمتار.

ومنه «مثلث القرون» من ذوات الأربع من نحو فرس البحر، وقدروا طوله بثمانية أمتار، وعلوه بمناسبتها في ذوات الأربع.

ومنه «الميلودون» وهو عظيم الجثّة هائل، قدروه بأنّه يأخذ النخلة الكبيرة فيميلها إليه.

ومنه «الكسلان»، وهو قريب من «الميلودون».

ومنه «الموا» في زيلاندا، وهو طير قدروا علوه بنحو أربعة أمتار وأكثر.

ومنه «دينوسور» زحّاف مجنّح عظيم هائل.

ومنه «دينوسور» زحّاف كبير، قدروا طوله عشرة أمتار، وعلوه من قمة رأسه إلى إبهام رجله نحو خمسة أمتار.

ألبعازر: ومن الظرائف أنّ بعض الصحّافيتين والكتّبة المنهمكين برأي داروين، لما رأوا أنّ انقراض هذه الصفوف العالية من الحيوان قادح في مذهب داروين في التناحر في البقاء قال:

إنّها انقرضت بأسباب طبيعيّة اقتضاها الانتخاب الطبيعي، وحلّ محلّها حيوانات

أصغر حجماً وأضعف بنيةً ولكنها أقرب إلى حاجيات الناس. انتهى.

وباليت هذا الكاتب يُبيّن أنّه متى درس طبائع هذه الحيوانات المنقرضة فعلم أنّ

الحيات والعقارب و السباع والسبع المكلوب بطبعه، هي، أقرب إلى حاجيات الناس

من هذه المنقرضة؟ ولماذا لم تجتمع المنقرضة في الوجود مع ما هو أقرب إلى حاجيات الإنسان؟ هل تقول: إنَّ علم هذا الكاتب عظيم كحكمة الانتخاب الطبيعي وشعوره الراقى؟

عمانوئيل: ومن حججهم على تسلسل الأنواع ما يجدونه من المشابهة في بعضها لبعض، كمشابهة بعض القروء لبعض أصناف الإنسان.

هل ذلك لأنهم لم يأذنوا لصدفة الطبيعة العمياء أن لا توجد الأنواع متشابهة في بعض أجزائها؟ أو لم يأذنوا للخالق الحكيم بأن يخلق الأنواع متشابهة لكي يدل على قدرته الباهرة بجعل التباين العظيم بين الأنواع في الخصائص الكبيرة والآثار العظيمة مع الاختلاف اليسير في الأعضاء؟ أتراهم لم يُعطوا امتيازاً في إيجاد الأنواع إلا على نحو التسلسل؟

ومن حججهم أن بعض الأعضاء لا فائدة فيها، فهي أثرية في هذا النوع المتحوّل، قد بقيت من آثار النوع السابق الذي كان محتاجاً إليها. ومثّلوا ذلك في الإنسان بعضلات الأذن، والزوائد الدودية في المعاء الأعور.

يا ساداتنا، وهذا من أدهى الدواهي المعرّقة للعلم عن سيره في البحث عن الحقائق، واكتشاف أسرارها واستخراج كنوزها.

أما إنَّ العلماء - لا غيرهم - يتمجّدون باعترافهم بأنَّ في الكون حقائق كبيرة كثيرة لم يكشف البحث عن نقابها، فهم يمدّون يد السير في العلم إلى رفع حجابها، فهل يجعل الجهل دليلاً علمياً؟

من أين علم أن عضلات الأذن تنحصر فائدتها بالتحريك، فلا فائدة لها في الإنسان، لا في تعديل وضع أذنه، ولا في حاجيات جهاز سمعه؟

من أين علم أن الزوائد الدودية ذات الصّام لا حاجة لحياة الإنسان بها؟ لماذا لا يظنَّ أن العناية بحياة الإنسان قد وظّفت الدودية بوضعها الخاصّ لأمر يعجز عنه الأعور البسيط، كما جعلت الأعور في البطّ أطول ممّا تقتضيه النسبة مع باقي الحيوانات؟

يا ساداتنا، هذه حجج أصحاب تسلسل الأنواع، هل ترون قعقتها تكون ظناً ولو من أضعف الظنون؟ هل ينفخ فيها روح العلم قول داروني:
بيد أنا لا نفقه لها معنى ولا نكشف عنها غطاءً إذا اعتبرنا أن الأنواع قد خلقت خلقاً مستقلاً؟

القس: يا عمانوئيل، كأتي ببعض المنهمكين بالمذهب الداروني يقولون لك في جواب كلامك وبحثك: «عذرَكَ جهلك»، كما كتبه شبلي شمّيل لبعض العلماء الباحثين في هذا الموضوع.

عمانوئيل: يا سيدي، إن ناموس العلم قد أدّبنى على أن أعترف بالجهل بكثير من الحقائق التي لا أهدني لها سبيلاً بنور الحجّة العلمية الكافية، وما نقص الإنسان إلا بالجهل المركّب ووهن الحجّة ولئن قال لي قائل: «عذرَكَ جهلك» - كما قيل لبعض العلماء والباحثين بتحقيق حينما أعي القائل جوابه - فإني أرجو من سماحة هذا القائل لي أن يعلمني، ولا يضطهد الإنسانيّة والعلم بهذا القول السهل عليّ والصعب على الشرف.

مذهب داروين ومزاعم الأعضاء الأثرية

القس: إنهم يتشبّهون لمزاعمهم في التحوّل ببعض أجزاء الإنسان، وبعض الأجزاء من كثير من الحيوان التي يسمونها «أثرية» كالعضلات الأذنيّة، وكالزائدة الدودية في المعاء الأعور، وكالتندين للذكور من كثير من الحيوان.

عمانوئيل: من أين علموا أنّ هذه الأجزاء لا حاجة فيها، ولا عمل لها، لا في حياة الشخص ولا في بقاء النوع، حتّى أنّهم من أجل علمهم هذا حكموا بأنّها أثرية، أي أثرٍ باقي من التحوّل عن النوع الذي كان ينتفع بها؟

من أين علموا أنّ فائدة العضلات في البدن منحصرة بالتحريك؛ لكي يقولوا: إنّ الإنسان لا يحتاج إلى تحريك أذنيه، فيستنجوا من ذلك أنّ عضلات أذنه أثرية، باقية من تحوّل عن الحيوان الذي يحتاج إلى تحريك أذنيه؟

إذا فماذا يقولون في العضلة الهرميّة على عظم أنف الإنسان، والعضلة الضاغطة للأنف؟

وماذا يقولون في عضلات الحياة الآلية التي لا تتعلق بالإرادة والتحرك، كالتي تكون في الحوصلة المرارية، والقناة الصفراوية المشتركة، وفي كؤوس الكلية وحوضها، والحالبين، وفي طبقات الشرايين، والأوردة؟

وماذا يقولون في العضلة الهدبية الموضوعة على الوجه الظاهر للطبقة المشيمية للعين، وفي العضلة الركابية في باطن الأذن؟ وأمّا العضلات الخاصة بالحياة الإرادية، التي يسمونها عضلات الحياة الحيوانية، فإنّ جملةً كثيرة منها ليست لأجل موافقة الإرادة بتحريك العضو، بل هي لإرجاع العضو إلى وضعه أو مركزه بعد تحريكه بالإرادة أو بالقسر، وذلك كالمحيطة الجفنيّة، والشادة للجفن، والخافضة للأنف، والعضلة الباطنة للأضلاع.

ولماذا لم يحتملوا أو يظنّوا أقلّاً أنّ الفائدة في عضلات الأذن الكبار والصغار هو حفظ مركز الصماخ وصورته عندما تطرأ عليه الحركات القسريّة، فتكون بانقباضها الطبيعي بمنزلة المرونة التي تردّ الجسم المرن إلى مركزه وصورته، كالعضلات الباطنة للأضلاع. هب أنّ العلم سامحهم في جميع ذلك، فلماذا لم يقولوا: إنّ عضلات الأذن جزء لا فائدة فيه، كما قالوه في الغدّة الدرقيّة وبعض الغدد الوحيدة؟ ولماذا يحكمون بأنّها أثرية؛ إنهماكاً بمذهب داروين؟

أوليس الواجب في شرف العلم أنّ الجزء الذي لا نعرف فائدته يُوكل أمره إلى مستقبل العلم التجريبي، عسى أن يوقف الناس في معرفة فائدته على قدم ثابتة؟ فإنّه يوجد في مركز الشبكية عند النقطة التي تقابل محور العين، أثرٌ مستديرٌ مرتفعٌ مائلٌ إلى الصفرة يقال له: «بقعة سويميرين» وفي مركز الأثر انخفاض يقال له: «الحفرة المركزية» وإلى الآن لم تعرف فائدة هذا الأثر.

الزائدة الدودية في المعاء الأعور للإنسان

ومن أين علّموا أنّ الزائدة لا حاجة للإنسان إلى وضعها الخاص في جهاز هضمه، حتّى حكموا بأنّها أثرية من طول المعاء الأعور في سائر الحيوانات، قد خرجت عن

وضعها الطبيعي ؛ لاستغناء الإنسان عن مقدارها من الأعور. فكأنّهم لم يعرفوا تفاوت الحيوانات الفقريّة في جهاز الهضم بحسب حاجاتها الخاصّة في طبيعتها النوعيّة، فالحيوانات المجترة جعل لها الكرش بدلاً عن المعدة، وهو وعاء عظيم بالنسبة إلى المعدة من الإنسان، خشن صلب، ويليه بطون أخرى صغار من فوق إلى تحت مضاعفة الحجب والصفاقات.

والسبب في كثرة بطونه احتياج هذا الحيوان لزيادة الهضم؛ فإنّ نهمته وكثرة أكله لا تدعه يمضغ ما كوله جيّداً حينما يظفر به، وهذا عمله في أكله الرطب واليابس، فتخزن هذه البطون ما كوله وتهضمه ليعيد عليه المضغ بالاجترار عند استراحته. ومعاء هذا الصنف من الحيوان أعظم من معاء ما لا يجترّ، مع حفظ النسبة بين الحيوانين في مقدار الجسم.

والفيل ليس له كرش ولا معدة، بل له معاء كثير التشبّك والالتفاف، وبعده معاء الدفع. وبعض الحيوانات لها مرارة، وبعضها ليس لها مرارة، قيل: ومنها الإبل والبغل والفرس. وبعض الحيوانات الفقريّة ليس لها طحال، وبعض الطيور لها حوصلة لهضم الشيء الصلب، وبعضها له بدل الحوصلة فم معدة واسع عريض، وبعضها له حوصلة وفم معدة، وبعضها لا حوصلة له ولا فم معدة بل له معدة مستطيلة. ولكثير من السمك والطيور شعب تتشعب من معاها، والمعاء الأعور من البطّ طويل بحسب نسبته مع باقي الحيوانات، وقيل: إنّ قسماً منه يكون أعوره أطول من سائر البط. يا سيّدي.

ولمّا كانت وظيفة الأعور هضم ما يقذفه للفائقي، وتطهيره من الموادّ المضرة المحتاجة إلى الهضم؛ لكي يقذفه إلى القولون خالصاً من تلك الموادّ، فتمتصّ منه الأوعية كيلوساً نقيّاً، وربما كانت الزائدة الدوديّة تتناول من الأعور ما يعجز عن هضمه بسرعة، فهضمه بطبعها وضغطها له.

وربما تكون مخزناً للإفرازات المضرة إلى أن تكسر عاديّتها، ثمّ تقذفها إلى المستقيم في نوبة لا يندسّ منها شيء في أوعية الغذاء.

وإنَّ صَمَامَ الزوائد وإن كان ناقصاً يشهد بأنَّ لها عملاً كبيراً وإنَّها نشوء ابتدائي، فإنَّه ليس في المعاء الأعور في غير الإنسان إلاَّ صَمَامَ واحد في أوَّلِه.
وإنَّ صَمَامَ الزوائد يرِدُ القول بكونها أثرية، فإنَّها إن كانت جزءً من الأعور قد خرج عن طبيعته، فمن أين جاء الصمَام؟

بل إنَّ غلظ جدرانها يشهد بأنَّ لها عملاً كبيراً، فإنَّ كلَّ معاء يكون أكثر عملاً يكون أغلظ جدراناً، بل إنَّ كثرة الغدد الوحيدة فيها كالأعور تشهد بأنَّ لها عملاً تحتاج لأجله إلى وجود الغدد وامتصاصها.

وإذا كانت الزائدة الدودية خرجت عن حالها الطبيعي، فلماذا توجد فيها جميع أوعية الحياة العضوية على الوجه التام، كما في الأعور وسائر الأمعاء؟ ولماذا لم تخرج هذه الأوعية عن حالها الطبيعي؟

هب أنا جهلنا فائدة الزوائد في حياة الإنسان، فلماذا تقتحم ونسفي فائدتها، ولا نرجو كشفها في مستقبل العلم إذا لم يعرقل في سيره؟ ولماذا تتقحم دعوى الأثرية فيها، مع أننا نرى التفاوت والاختلاف الكبير في أعضاء الحيوان وخصوص جهاز هضمه بحسب حاجاته؟ فهل يمتنع في نظام الأعضاء وأعمال الهضم أن يحتاج الإنسان إلى وضع الزوائد الدودية؟

أثناء الذكور

ومن أين عَلموا [أنَّ] فائدة الثديين منحصرة بالرضاع منهما، فتكون في الذكر أثريةً باقية من التحوُّل عن الأنثى؟

هب أنهم عَلموا أنَّ أثناء الذكور لا فائدة فيها أصلاً، فلماذا لم يقولوا: إنَّها من أجزاء الحيوان الزائدة، كما قالوه في غيرها؟ وكيف جزموا بأنَّها أثرية؟ من ذا الذي وماذا الذي أعلمهم بانحصار فائدة الأثناء في الإرضاع؟

ألا وإنا نجد لها في أثناء الإنسان مظاهر تدلُّ على أنَّ لها مداخلةً كبيرةً في بقاء الفرد والنوع:

منها: أنّها تُعصر من الأطفال الذكور والإناث في أيّام ولادتهم، فيخرج منها سائل كثير يشبه ماء العنب، وهذا يدلّ على أنّ غدّتها تمتصّ إفرازات كثيرة لكي تعمل فيها أعمالاً حيويّة.

ومنها: أنّها تهيجّ في ذكور الإنسان عند بلوغهم وابتداء نشوء المادّة المنويّة، فتكبر الغدّة ويلوح التغيّر على لون الحلمة والهالة، ثمّ تراجع عن تهيجّها تدريجاً بعدما يأخذ منيّ الذكر بالانفراز بالاحتلام أو الجماع.

وهذا يدلّ على مداخلة كبيرة للأثناء في مادّة التناسل وأنّها من جهازه. ومما يدلّ على ذلك ما عُرف من حال المخصّيين في طفولتهم، حيث ذكر جملة منهم أنّهم وصلوا إلى سنّ البلوغ وتجاوزوه، ولم تظهر هذه المظاهر على أئذانهم من التهيج وغيره.

ومما يدلّ أيضاً على ارتباط الثدي بجهاز التناسل والولادة، أنّ الأنتى إذا لم يظهر ثدياها على مقتضى الطريقة العاديّة، تكون عقيماً لا تلد.

وفيما ذكرناه كفاية، بل قيل: إنّ بعض الذكور قطعت أنداؤهم بعمليات جراحية فانقطع نسلهم، فهل أنت يا شيخ تأتينا بمثل هذه الحجج في دعاويك؟

الآلات الحجرية الصوانية

الشيخ: وأيضاً قد وجدت في الحفريات في طبقات الأرض قطع كثيرة من الصخور، تشبه في الوضع والهيئة بعض الآلات الحديدية، كالفؤوس والمناشير والسكاكين وأسنة الرماح ورؤوس السهام، فجزم الناس بلا ريب بأنّها آلات من صنع البشر، قد صنعوها لأجل غايات مقصودة لهم في أعمالهم، ونسبوا لعصر خاصّ كانت هي آلاته قبل إيجاد الآلات الحديدية، وسّمّوه العصر الصواني.

مع أنّ هذه القطع التي وجدوها لم يَرها أحدٌ مستعملة في غاياتها، فلماذا لا يقول الناس: إنّ هذه القطع بهيئاتها الخاصّة إنّما هي من أعمال النواميس الطبيعيّة، بسبب تأثيرات عوامل الاستحجار المقرونة بأوضاع معدّاتها التي تنتج هذه الهيئات الخاصّة؟

كما هو في صغار الصخور والصَّوان التي يكثر فيها أن تكون على أشكال هندسيّة: كالمسطّح والمستدير، وما يكون مثل نصف الدائرة أو قطعة منها، وكالمخروطي بقاعدة هلالية، أو كنصف دائرة مع التناسب في سمكه، وكالكرة، والشكل البيضي، والأسطوانة بقاعدة هي كنصف كرة أو قطعة منها، إلى غير ذلك من الأوضاع والهيئات.

وقد شاهدنا في سوق سامراء ملح طعام مؤلّف من قطع صغار، هي كأظرف ما يكون من أوضاع الأواني الزجاجيّة بأشكال هندسيّة متناسبة، المقعر والمحدّب في السمك والوضع، تكون مثنئاً ومسدّسة وغيرها، وربما يتدرّج تغييرها وتحديدها بدرجات متناسبة محفوظة الوضع.

إذاً فمن أين علّم الناس أن هذه القطع التي وُجِدَت في الحفريات، هي آلات صنعها الإنسان لأجل غايات مقصودة له؟ هل رأى أحد ذلك بعينه؟ هل رآها بخصوصها مستعملة في تلك الغايات؟ أوليست هذه الدعوى مثل دعوى تحوّل الأنواع، لا حجّة لها إلاّ التخمين؟

دلالة المصنوعات على إرادة صانعها وعلمه بالغايات وقصده لها

عمانوفيل: لا، يا شيخ، هذا لا يشبه ما ذكرناه من مسائل التحوّل، إنّ الإنسان إذا رأى ألوفاً من هذه القطع الكثيرة جارية على ناموس واحد في الصلاحية للغايات، فإنّه يجزم - بعلمه حسب الفطرة السليمة والوجدان الحرّ - بأنّها مصنوعة بالاختيار لأجل غاياتها. وإنّ الذي ذكرته من أسباب الشكّ لا يعده العقلاء إلاّ سفسطاً ساقطة، لا تقف أمام علم اليقين. ألا ترى عقلاء العالم ممّن رأى هذه القطع أوسع بها، لا يزالون ثابتي الاعتقاد بأنّها صنعت اختياراً لأجل غاياتها وإن لم يرها أحد مستعملة في تلك الغايات؟

الشيخ: ماذا تقول أيها القسّ في هذا الذي قاله عمانوفيل؟

القسّ: إنّهُ تحقيق فائق، وإيضاح للحقيقة، وبيان لما عليه البشر في أمورهم؛ فإنّ جميع الأفعال والموجودات والمصنوعات حتّى كلام المتكلّم، لا ميزان ولا طريق لليقين في معرفة كون الصادر منها صادراً عن إرادة الموجد وشعوره وحكمته في قصده

الغاية في إيجادها، إلا هذا الميزان وهذا الطريق الذي قاله عمانوئيل، وإنه لغريزة فطرية في البشر.

فإنّ الطفل والشابّ والكبير في جميع العالم، يميّزون ببداية هذا الميزان العادل والطريق الواضح المستقيم. وإنّ كلّ موجود يرتبط وضعه وأجزاؤه وتركيبه بالمقاصد والفوائد، فإنّ ما يعرف منه من هذا الارتباط يكون بالبداية دليلاً على أنّه صادر بإيجاد موجد مُريد، له علم بالفائدة والغاية، وقد أوجده بحكمته لأجل تلك الغاية.

وكلّ ما كثر ارتباط الوضع والتركيب والترتيب بالغايات، زادت دلالاته على علم الموجد وحكمته وضوحاً وسناءً، إلى أن تصل إلى حدّ لا محلّ فيه لاختلاج الشكّ والتشكيك، فضلاً عن الجحود القبيح الذي لا يكون إلاّ ممّن له غرض فاسد، وليس له شرف أو حياء رادع.

أليعازر: الموجد وغيره يخبرنا بأنّ ما أوجده أو وجده عن إرادة وعلم بالغاية وقصد لها، فلا يكون الميزان هو ما ذكره غبطة القسّ وعمانوئيل.

القسّ: نقول لك: أوّلاً: إنّ جميع البشر يعلمون من الأشياء والمصنوعات الموجدة لأجل الغايات، أنّ موجدها أوجدها بعلمه وحكمته لأجل غاياتها من دون أن يخبرهم أحد بذلك، كما في الآلات الصوانية المذكورة وغيرها. مع أنّهم لم يروا موجدها ولم يخبرهم أحد سمع من موجدها، مع أنّ العقلاء على يقين - لا يشوبه شكّ - بأنّها أوجدها موجدها لأجل غاياتها.

وثانياً: بأيّ ميزان تميّز أنّ هذا المخبر الذي تذكره قد تكلم بخبره عن شعور وإرادة التفهيم وقصدٍ للغاية، ولم يتكلم عن هذيان ومرض دماغي عرض له؟ إذا فكيف يحصل لك العلم بقصده للتفهيم والإعلام من كلامه؟ أو ليس لأنك تجد كلامه منتظم التركيب مرتباً بالغاية؟ وبعد ذلك يبقى في إخباره لك احتمال كذبه، فمن أين يحصل لك اليقين؟!

يا أليعازر، ليس لك في اليقين بمعرفة قصد الموجد للغاية وعلمه بها، إلا ما ذكرناه من الميزان والطريق، فعليك به تكن من المهتمدين.

مقدّمات: احتجاج القرآن على وجود الخالق العليم

الشيخ: احفظوا لي - أنت والعقلاء - مثل هذا من العلم اليقين بحسب الفطرة السليمة والوجدان الحرّ على الميزان والطريق المذكور، وإني أجعله المقدّمة الأولى لاحتجاج القرآن الكريم على وجود الخالق العليم، وهو الله جلّ شأنه وعظم سلطانه.

عمانويثيل: لا بُدّ من أن نحفظه لك، وإن كابرناك فيه فإنّ الحقيقة تحفظه لكّ وشرف الإنسانيّة والعلم يشهد لكّ.

المقدّمة الثانية: [بداهة وجود الخالق]

الشيخ: المقدّمة الثانية: ما برح الإنسان من ابتداء شعوره إلى آخر أمره يبحث عن علّة الكائن، وينظر فيها ويستنتج منها نتائجها جبلةً طُبع عليها في جميع أموره، حتّى أنّ الطفل إذا سمع جلبةً أو صوتاً غريباً فإنّه يدير نظره ويتجسّس عن علته؛ لكي يستنتج منها نتيجة في رجائه أو حذره، وكذا الحيوان. بل ما سار العلم والتتمدّن سيرهما ورقياً رقيهما، إلّا على النهج الفطري بالنظر إلى علّة الكائن وغايته؛ لكي تستفاد الفوائد الكبيرة في المنافع ودفع المضارّ من معرفة العلّة والغاية.

عمانويثيل: أقول بحضرة سيّدي القسّ وسيّدي الوالد: إنّ هذا الذي تقوله طبيعي للإنسان وضروري له في جميع أموره.

المقدّمة الثالثة: [الحاجة إلى الشريعة]

الشيخ: ما برح الإنسان أيضاً في أجياله وأحواله محتاجاً إلى شريعة ينظّم بها اجتماعه في المجتمع الإنساني والمملكة والقطر والشعب والقوم والعائلة والبيت، ولم يزل ولا يزال - حسب ما يقتضيه الإمكان والهمّة والاقتناع - يتطلّب شريعةً تقرب من الصلاح والعدل والارتباط بالمصالح النوعيّة والشخصيّة.

مع علمه بأنّ الشرائع البشريّة مهما أخذوا فيها بالتدقيق وجمع آراء العقلاء ورعاية

الأكثرية، فهي غير ضامنة لدوام الصواب، فإنَّ كلَّ أحدٍ يعلم أنَّ علم البشر ومبلغ عقولهم مهما كان فهو محدود قد يكثر فيه الخطأ الكبير، مع أنَّ بعض البشر غير مُبرِّئين عند مداخلة الأهواء والتعصّب في التشريع وغيره.

فإذا احتمل الإنسان أنَّ له سبيلاً مُمكنًا إلى تشريع مشرّع كامل يحيط علمه بجميع الأمور، ولا يخفى عليه شيء، وهو مقدّس من كلِّ هوى وعصبية، فإنَّ عقل الإنسان وشوقه إلى صلاحه يلزمانه بالسعي إلى طلب هذا التشريع المقدّس ولزومه.

المقدّمة الرابعة: [الحاجة إلى تعلّم الأخلاق الفاضلة]

وأيضاً لم يزل الإنسان ولا يزال محتاجاً إلى تعلّم الأخلاق الفاضلة، التي يبتهج بسببها بكماله ويفتخر بها، ويحلّ بها المشكلات في حفظ شرفه وحسن اجتماعه مع أبناء جنسه، طالباً لدرس هذه الأخلاق ومعرفتها؛ لكي يتحلّى بجميلها حينما يستغفل أهواءه الشخصية.

وهو يعلم أنَّ البشر معرّض للجهل والأهواء والتعصّب والتقليد، وبمقتضى الطبيعة البشرية لا يوجد فيهم من هو كامل في جميع أخلاقه، عارف حقّ المعرفة بجميع مكارمها؛ لكي يتجملّ بها ويجري عليها في مواضع إجرائها. وعارف حقّ المعرفة بجميع الأخلاق الرديئة؛ لكي يتنزّه عنها ويحاذر من وبال آثارها.

فإذا علم الإنسان أنَّ له سبيلاً مُمكنًا إلى تعلّم الأخلاق من كامل مُقدّس من كلِّ وجه، عالم بحقيقة كلِّ شيء، فإنَّ العقل وشوق الإنسان إلى صلاح نفسه يلزمه بدراسة علم الأخلاق في مدرسة هذا الكامل المقدّس، ويحتّمان على الإنسان بتطلّب هذه المدرسة، ويحدّثانه من تلوّثه برذيلة التعاليم المخالفة لها.

المقدّمة الخامسة: [التحرّز من الوقوع في المضرة]

وأيضاً لم يزل الإنسان ولا يزال منذُ مبادئ شعوره متحرّزاً من الوقوع في المضرة المحتملة، طالباً للأطمئنان بالسلامة منها، حتّى أنَّ الطفل يجري أيضاً على هذا

الناموس كما هو ظاهر. ولا يبقى الإنسان مقدماً على احتمال المضرّة إلا أن يكون له هوى يغلبه، أو حاجة لا يعتني العقلاء معها بتلك المضرّة أو باحتمالها. وأما المضرّة العظيمة التي لا يوازنها شيء ولا يوازن خوفها، فإنّ الإنسان مطبوع على عدم التقمّم في خوفها، وعلى عدم الاستراحة إلا بالاطمئنان بالسلامة من وبالها وبالأمّن منها.

المقدّمة السادسة: [عموم الدعوة إلى الله الواجب الوجود]

هل ينكر أحدٌ أنّ أقطار العالم بأسرها قد امتلأت بالدعوة إلى الله -جلّ شأنه- وعظمته؟ وهو واجب الوجود، خالق العالم، ومدبّر أمره، والعالم بكلّ شيء، والغنيّ الحكيم المقدّس، شارع الشرائع وقوانين الصلاح، ومعلّم الأخلاق الفاضلة، والزاجر عن الرذائل وموادّ الفساد والشّر، والمتوعّد بحكمته على جحوده ومخالفة أوامره ونواهيه وتعاليمه مهّدداً بالعذاب الشديد.

هل ينكر أحدٌ عموم هذه الدعوة على الأقلّ فيما بعد زمان موسى ﷺ. كلا، بل إنّ الوثنيّة من أوّل أمرها ناظرة إلى هذا الأساس، لكنّها غلظت بتأليه المخلوق وما يترتّب على ذلك من المفاسد. هذا، مع أنّ العقل -فضلاً عن هذا النداء- يجوّز ما ذكرناه في المقدّمات ابتداءً، ومن دون نداء بها، فيرى الإنسان نفسه مهّددةً بفوات المصالح اللازمة، وبالوقوع في المضارّ التي لا صبر له عليها.

عمانويل: يا شيخ، قد أكثرت في إيضاح أمور واضحة تشهد بها الفطرة، وقد أكثرت اشتياقنا إلى غرضك من هذا البيان والإيضاح.

الشيخ: الغرض من ذلك أنّ نوضح أنّ القرآن الكريم احتجّ على الإلهيّة بحجّة أشار فيها إلى هذه المقدّمات، التي لا ينبغي للإنسان أن يغفل عنها، مع أنّها مكشوفة له بحسب الفطرة والوجدان وعمله في جميع أحواله.

[موجد العالم عالمٌ بالغايات]

وأتمّ القرآن احتجاجه ببيان الدلالة على أنّ موجد العالم وعلته عالمٌ بالغايات، قد

أوجد الكائنات لأجل غاياتها على الحكمة الباهرة والنظام الفائق. ونبه على جميع المقدمات بالإنكار والتوبيخ على الشك، الذي لا محلّ له مع هذه المقدمات الواضحة الوجدانية والمشاهدات العيانية.

فقال - جلّ وعلا - في الآية العاشرة من سورة إبراهيم المكيّة: ﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ فَأُطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولماذا يشكّ الإنسان؟ فهل يصحّ له أن يبقى على شكّه لأنّه أعرضَ بجهله عن النظر وطلب الحقيقة في أمر المعرفة؟ كيف يعرض وهو مهتدّ بالعذاب الإلهي، وبفوات مصلحة الشريعة الإلهية ومصلحة تهذيب أخلاقه وتكميله؟ أليس من الضروري الفطري أنّه لا ينبغي لذي رشد أن يستقرّ على خوف الضر العظيم حتّى يأمن ويطمئنّ بنتيجة النظر الصادق؟

وليس النظر في هذا الشأن محتاجاً إلى نظم مقدمات وأقيسة متعدّدة، كما ينظر الإنسان في صحّة أشكال المقالة الثالثة من أصول الهندسة لأقليدس، لا وكلاً. بل إنّ مقدمات هذا النظر مكشوفة لعيان الإنسان ووجدانه في جميع أحواله بأوضح انكشاف، يرغم النفوس الحرّة على الإذعان بالحقيقة.

فهل يغيب عن الإنسان ما يُشاهده بالعيان، ويعرفه بعلم اليقين من عالم السماوات والأرض وما فيهما، ووجود نفسه ونوعه وسائر الأنواع؟ فكم يرى في العالم من شيء موجود بعد عدمه على أتقن صنع وأحسن نظام، تبهر العقول حكمته، ويعجز العلم عن إحصاء غاياته الشريفة؟

وهل تغفل الفطرة والوجدان الحرّ عن الحكم بأنّ هذه الأشياء الحادثة لا بدّ لها من موجدٍ منزّه عن الحدوث والحاجة إلى من يوجدّه؟

وحينما يشاهد الإنسان هذه الموجودات المستعملة في غاياتها العظيمة بأوضح ما يشاهد من الاستعمال الباهر بجماله وانتظامه، فهل تغفل فطرته ووجدانه الحرّ عن اليقين بأنّ موجدّها لا بدّ أن يكون عالماً بهذه الغايات، قد أوجد الموجود بنحوه الخاصّ به؛ لكي ترتّب عليه غايته الخاصّة؟

وهل يكون الخالق الواجب الوجود العليم الحكيم غير الله؟ فإنّ لفظ الجلالة «الله»

اسم خاصّ لذات الخالق الواجب الوجود العليم الحكيم.

يا أصحابنا، وإذا كانت بداية الفطرة تشهد بأنّ القطع الصوائيّة - التي ذكرناها - هي آلات صنعها صانع مختار لأجل غاياتها - كما قلتم سابقاً - مع أنّها لم يُشاهد لها أحدٌ مستعملةٌ في غاياتها فهذه أجزاء العالم المستعملة في غاياتها على أوضح حكمة وإتقان، كيف لا تشهد الفطرة والوجدان بأنّها صنعُ صانع عالمٍ بالغايات، قد صنعها لأجل غاياتها؟ وكيف لا تشهد الفطرة والوجدان بأنّ هذه الأشياء الحادثة في الكون لا بدّ لها من أن تكون محتاجة إلى موجد منزّه عن الحدوث والحاجة؟

عمانويل: يا شيخ، إنّنا متديّنون مقتنعون بهذه الأمور، نراها حقّ اليقين. ولكنّ للماديين فيها معارضات، فليس من الجيّد في التدقيق أن نخوض فيها وحدنا، بل لا بدّ من أن نُحضر معنا من يحامي عن المذهب المادّي؛ لكي يقول ما عنده و تقول ما عندك في إيضاح الحقيقة، لكي تنجلي ظلمات الأوهام عن صبح اليقين.

الشيخ: يا عمانويل، إنّ جميع ما يتشبّه به المادّيون غير خفيّ على أمثالك، فلماذا لا نمثلك محامياً عنهم؟

عمانويل: إنّ بعض دعاويهم وإنكاراتهم لا يدعني شرف وجداني أن أذكرها بصورة الجزم وأحامي عنها، فالأحسن حضور أحدهم ليبيّن ما عندهم، فإنّ كثيراً منهم يجاهر بما عندهم. ولكن يا شيخ يلزم أن يكون من نحضره له إمام بنواميس العلم وقوانين الحجّة وموازن الاستدلال، لا من الجديديين الذين غاية حجّتهم كُتب السر فلان، وخطب المسيو فلان، وقال الدكتور فلان، وذكرت جريدة المقتطف، ونقلت مجلة الهلال.

ولا يعرف في مقابلة الحجّة الواضحة إلّا أن يقول: هذه حجّة من العقل العتيق، شعوري المتنور لا يقبلها، هذا عصر الرقيّ والتنور، لا أعرف الإمكان والامتناع ولا الدور، هذه خرافات قديمة، والشعور الراقي لا يحتاج في حجّته إلى موازين الاستدلال، فاللازم أن نختار مادياً من أهل العلم يُراعي في الكلام شرف فضيلته.

القس: إنّني أعهد دكتوراً كما تريدون فمثّلوه.

[الدكتور يمثل الماديين]

عمانوئيل: مثلنا الدكتور فقلنا له: أيها الدكتور ألا تسمع ما يقول الشيخ ويذكره من احتجاج القرآن على الإلهية ضد المذهب المادّي؟

الدكتور: اذكروا لي ما يقوله الشيخ بنصّه ولفظه لننظر فيه، فإنّ الحرّ من لا عداوة له مع الحقّ، بل من يكون الحقّ قرّة عينه وضالّته التي يطلبها؛ لكي يتشرف علمه بفضيلة الصواب ويبتهج برقيته في درجات الحقيقة.

عمانوئيل: ذكرنا كلّ ما ذكره الشيخ بنصّه ولفظه.

الدكتور: أمّا ما ذكره الشيخ في المقدّمة الثانية فهو مسلّم بالبداهة، وعليه فطرة البشر كما ذكر، وبالنظر إلى علّة الكائن سار العلم سيره وورقي رقيته، وكذا ما ذكره في المقدّمة الثالثة والرابعة والسادسة. ولا يمكن أن ننكر ما ذكره في المقدّمة الخامسة من النداء في العالم باسم الإله وشريعته، وتعليمه دروس الأخلاق الفاضلة، وتهديده على جحوده ومخالفته.

ولكن يا للأسف، إنّ العلم لم يوصلنا إلى معرفة هذا الإله الذي يذكرونه، ولم يدلنا على لزوم وجوده؛ لكي نبحث عن مدرسة شريعته وتعليمه الأخلاق، فلذلك أمنا من خوف النداء المذكور في المقدّمة الخامسة.

الشيخ: أيها الدكتور، إنّ مكالمتنا مؤسسة على الحرّيّة المطلقة في سبيل الحقيقة، وكلامك هذا مجمل، فأوضح لنا مرادك بالصراحة؛ لكي تجري مكالمتنا على الطريق الواضح والنهج الهادي، فأجب بالصراحة هل العلم أوصلكم إلى نفي الإله فصرّتم تعلّلون الكائنات بما ليس به، أو كما قلت: إنّ العلم لم يدلّكم على وجود الإله، فوقفتم موقف الشكّ بحيث لا تدرّون بمّ تعلّلون الكائنات في مبدئها؟

الدكتور: إذا أردت المجاهرة فإنّ العلم أوصلنا إلى نفي الإله الذي تقولونه، فصرنا نُعلّل وجود الكائنات بحركة المادّة الأزليّة.

الشيخ: إذاً فحاصل كلامكم أنّ العلم أوصلكم بدلالته إلى اليقين بنفي الإله الذي نقول به، وأوصلكم إلى أزليّة المادّة. وحاصل كلامنا أنّ العلم أوصلنا إلى وجوب وجود الإله، وأنّ المادّة لا يمكن أن تكون إلّا حادثّة مخلوقة للأدلة. إذاً فعلى كلّ من الإلهي

والمادّي أن يُقيّم الحجّة على دعاويه؛ لكي يعرف ما يوصل إليه العلم الحقيقي.
وقبل الخوض في ذلك قل: ما هي المادّة الأزليّة التي أوصلكم العلم إليها وأوقفكم
في التعليل عليها؟

[حقيقة المادّة، أحداثة أم أزليّة؟]

الدكتور: إنّ العلم السيّار لم يقرّر قراره في حقيقة المادّة حتّى إلى الآن، فإنّ المعروف عن
ديمقراط أنّ المادّة: هي الجواهر الفردة، وهي الأجزاء التي لا تتجزّأ، وليس لها إلّا
أشكال هندسيّة.

ولكنّ العلم رفض القول بأنّ لها أشكالاً هندسيّة؛ لأنّه يناقض كونها لا تتجزّأ، فإنّ
الذي له شكل هندسي لا بُدّ أن يتجزّأ؛ ولذا قال المحقّقون من أهل العصر: إنّ الجواهر
التي نقول بها هي أصغر من جواهر ديمقراط جدّاً.

الشيخ: لا أحبّ قطع كلامك من مجراه، ولكن هنا كلمة ينبغي أن يؤسّس تذكّارها،
وهي: أنّ العلم قد أقام براهينه - التي يرجع تقريبها إلى نحو التجربة الحسيّة - للدلالة
على أنّ الكائن المادّي مهما بلغ من الصغر فإنّه لا بُدّ من أن يكون له طرفان على
الأقلّ، وبذلك يصحّح العقل قسمته وتجزّئته، وإن تعصّرت بالآلة الخارجيّة فيراه العقل
مركباً في المقدار لا ينفكّ عن الشكل الهندسيّ.

ألا ترى أنّك إذا جعلته فاصلاً بين جسمين يمّسّانه، فلا بُدّ أن يختصّ كلّ منهما
بمماسّة جانب منه ببداهة الوجدان، فتبيّن أنّه ينقسم بين جانبيه، فيبطل كونه لا يتجزّأ.
ولهذا ونحوه من البراهين الوجدانيّة قال بعض كتابكم المحاميين عن وجود
الجواهر الفردة:

إنّ كون الجواهر الفردة لا تقبل القسمة هو الأمر الذي لا يعقل كلاً، وإنّما لو

انقسمت لزلت خصائصها الجوهرية.

وعُدّ أيّها الدكتور إلى مجرى كلامك.

الدكتور: قد كان لوسيوس وايقورس يقولان: إنّ الجواهر الفردة تسيح بحركتها
في الخلاء، ولكن لما رأى بعض العلماء أنّ الفراغ مستحيل في الطبيعة، فرضوا أنّ تلك

الجواهر تسبح في مادّة لطيفة أو غاز أخفّ من الهواء أو سائل تامّ الاتّصال مألّئ للخلاء سمّوه «الأثير» تتحرّك فيه الجواهر - التي هي أجزاءه - حركة الزوابع^١. في الهواء الهادئ، ومن أحوال اجتماعها بالحركة وأفاعيلها تظهر صور الكائنات. وهذه الجواهر في الرأى القديم هي أزليّة أبدية، لم تحدث بعد العدم، ولا تتلاشى ولا تتعدم، وإنّما تخفى بتفرّقها هذا.

ولكنّ الرأى الجديد حسب اكتشافات العالم الشهير الفرنسي غوستاف لبون، الرأى المبنيّ على المشاهدة والاختبار، بحيث وافقه أكثر علماء أوروبا، ولم يثبت أمام النقد العلمي إلّا نظريّاته، وهو: أنّ المادّة قوّة متكافئة، وأنّ المادّة ليست أبدية بل تتلاشى بانحلالها إلى القوّة، كما أنّ الراديوم وما شاكله من المواد تتلاشى بإرسال ذرّات صغيرة تفلت منها ذات سرعة عظيمة تكون قوّة تكهرب الفضاء في التلغراف اللاسلكي. والقوّة أيضاً تنحل إلى الأثير، كما أنّ المادّة ليست أزليّة، بل إنّ الأثير تكاثف في الأزمان البعيدة بسبب لا نعلمه فصار مادّة.

فإن لم تكن المادّة والجواهر الفردة أزليّة - كما هو الرأى القديم - فالأثير على الرأى الجديد هو الأزلي وإلى هذا الأزلي ينتهي تعليل وجود الكائن، فلا حاجة إلى التعدي عن الطبيعة إلى فرض وجود الإله.

وأيضاً فإنّ العلم العصري لا يسمح لنا بأن نؤمن بوجود غير منظور. الشيخ: أيّها الدكتور، إنّي أبدأ بالتعرّض لكلمتك الأخيرة، أعني قولك: «فإنّ العلم العصري لا يسمح لنا بأن نؤمن بوجود غير منظور» ألا وإنّ هذه الكلمة ممّا يتبرأ منها العلم العصري وشرف الإنسانيّة، كيف يقول ذلك إنسان؟

أوليس جميع العالم مُدعناً بوجود القوّة الكهربائيّة؟ فهل هي منظورة؟ أوليس مشاهدة أعمالها وآثارها في الجذب والدفع والتحريك كافية في الإذعان بوجودها؟ مع أنّ العلم لم يأخذ قراره في ماهيّتها، ففي القديم: إنّها مرتبطة في المبدأ بالمادّة، تتولّد من

١. الزوبعة في اصطلاحهم: أسرع الرياح جرياً، وقدروها بما يجري في الثانية ستين قدماً، وقد تجري في الأقاليم الاستوائية ٣٠٠ قدم، والنسيم: ما يجري عشرة أقدام في الثانية (منه §).

انحلال المادة إليها بأحد الأسباب المقررة، كما أنها تتكاثف وتكون مادة.

هل ينكر أحد وجود النفس للحيوان؟ فهل هي منظورة؟ أوليست أعمالها الحيوية الشعورية تجبر الإنسان على الإذعان بوجودها بعد أن يرى أن الجسم الذي تفارقه لا تأتي منه هذه الأعمال، بل يكون كسائر الجمادات وإن خفي على العلم كنه النفس فتشعبت فيها الأقوال.

أفي القوة الكهربائية شك، مع مشاهدة الأعمال التي يحصرها العلم بتأثير القوة غير المنظورة؟

أفي النفس شك، مع مشاهدة أعمال الحياة التي يحصرها العلم بتأثير النفس؟
 ﴿أَفَبَىٰ آلِهِۦٓ شَكٌّ فَأَطِرِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^١، مع مشاهدة الأعمال الكبيرة في النظام الباهر والحكمة الفائقة في عالم الكون، هذه الأعمال التي لا يمكن للعلم المستقيم إلا أن يحصر تعليل صدورها بواجب الوجود العليم الحكيم، وهو الله جلّت عظمته؟
 أنها الدكتور، الجواهر الفردة وحركاتها اللولبية وزوايا الأثير والأثير، هل رآها أحد، أو رأى واحداً منها بالنظارات المكبرة أو المقرّبة؟
 الدكتور: لا وكلاً، بل إنهم افترضوا افتراضاً، لتوجيه التعليل والانتهاج به إلى أصل يوقف عليه.

الشيخ: لماذا التزموا بكون الجواهر المذكورة فردة لا تتجزأ، وتعرضوا للنقد العلمي المبين لاستحالة وجود الجزء الذي لا يتجزأ؟ ولماذا التزموا بكون الأثير في منتهى البساطة؟
 الدكتور: لأنهم إذا قالوا بتركب الجواهر من الأجزاء لم يمكنهم القول بأزليتها، وكذا الأثير.

الشيخ: إذ كان التجزؤ في المقدار تركيباً ينافي الأزلية، فالأثير المفروض مهما فرضوا له من بساطة الذات فهو متجزئ في المقدار، وله مادة وصورة، فهو مركّب، إذًا فكيف قالوا بأزليته؟!

دع هذا إلى حين، ولكن لماذا لم يقولوا بأنّ الجواهر والأثير متسلسلة من موجودات لا نهاية لها، فيذهبوا بسلسلة التعليل إلى غير نهاية، ولا يلتزمون بفرض موجود أزلّي لا حجّة لهم على أزليّته، بل إنهم يثبتون له أوصافاً تنافي الأزلّيّة؟

بطلان فرض التسلسل والدور

الدكتور: هل يمكن أن يدخلوا في هذه السلسلة ما يفرضونه عدماً ولا شيء ولا موجود؟ وهل يمكن أن يدخلوا فيها ما لا يفرضونه موجوداً؟
الشيخ: لا بدّ من ذلك، فإنّ الفكر في رفض هذه السلسلة قد عزل الفطرة وبداهة الوجدان، وكيف ينظّمون سلسلة الموجودات من عدم ولا شيء؟ بل لا بدّ أن يفرضوها ممّا يفرضونه شيئاً وموجوداً، وإنّ محلّ الفرض هو تسلسل الموجودات الحادثة التي ليس فيها موجود أزلّي.

الدكتور: فالفكر الذي هو يفرض هذه السلسلة ويصوّر حلقاتها في معمل تصوّره، لا بدّ من أن يحدّ أجزاءها المفروضة بحدّ الوجود والحدوث؛ لأنّ مبني فرضه على ذلك ومختصّ به.

الشيخ: لا بدّ من ذلك، فإنّ الفكر في رفض هذه السلسلة قد عزل عنها المعدوم وأزلّي الوجود، فتمحّضت أجزاءها للموجودات الحادثة مهما بلغت من التسلسل.

الدكتور: يا شيخ ويا أصحابنا، إذا افترض التسلسل إلى غير حدّ ولا نهاية باطل في نفسه وبحسب فرضه، فإنّ الفكر إذا حدّ أجزاء السلسلة بالحدوث فلا بدّ من أن يلتفت إلى السلسلة مهما بلغت، فهي محدودة بالعدم اللازم لحدوث أجزائها، وإن ضاعفها بكثرة ما يفرضه أوّل مرّة، فإنّه يلتفت إلى أنّ فرض التسلسل مستلزم لبطلانه.
وبيان آخر: إنّ الفكر إن أدخل الموجود الأزلّي في هذه السلسلة، فقد انتهت إلى الأزلّي.

وإن أدخل العدم، فقد انقطعت بالعدم.

وإن أخذ الموجودات الحادثة: فإنّه إن عجز في ترتيب فرض السلسلة عن تكرار

فرض الموجود الحادث وتصوره، فقد انقطعت بذلك العجز.

وإن لم يعجز، فإنه يلتفت إلى أنه مهما فرض من الموجودات الحادثة بسعة إحاطته، فإن فرضها بما هي حادثة يستلزم أن تكون سلسلتها محدودة بالعدم، فيبطل الفرض، وإلا خرجت عن كونها موجودات حادثة فيبطل الفرض أيضاً.

وأيضاً ما هي الغاية للعلم بفرض التسلسل؟

فإن كان تقهّم هذا الفرض الباطل لأجل أن يتحصّر العلم لعجزه عن إدراك السلسلة غير المتناهية ويقف موقف المبهوت، فليقف إذأ على حيرته من أوّل الأمر، بدون حاجة إلى كلفة هذا الفرض الموهوم.

وكيف يعجز العلم بسلسلة لو أمكنت لم تكن إلا بإحاطة صناعته لها، وقدرته على فرض ترتيبها بتصوير حلقاتها بكنهها في معمل أعماله؟

الشيخ: قد عدلنا عن مسألة السلسلة، ولكن لماذا لا تقولون: إن الأثير أو الجواهر الفردة معلومة لما يصدر عنها وصادرة عنه؟

الدكتور: العفو يا شيخ، كيف يكون الشيء صادراً عما يصدر عنه؟ فإننا لو فرضنا أن كلّ واحدٍ من الشيئين علّة فاعليّة أو مادّيّة لصاحبه ومعلولاً له كذلك، للزمن أن يكون كلّ واحدٍ منهما موجوداً حال عدمه ومعدوماً حال وجوده، ولزمننا توقّف وجود الشيء على وجوده، وفي هذا من المحال والامتناع والتناقض ما لا يخفى.

وهذا هو الدور الذي يعترف كلّ أحدٍ من المادّيين والمتديّنين وخصوص كُتّاب المسلمين ببداهة بطلانه، وما سار العلم سيره إلا بالبناء على بداهة بطلان التسلسل والدور، فمن الغريب يا شيخ تشبّثك، في المكالمة بهذه المستحيلات.

الشيخ: مهلاً أيها الدكتور، فإن جملةً من العصرين المائلين إلى المذهب المادّي، يكثر منهم الهياج إذا قابلتهم في الحجّة ببطلان التسلسل في الموجودات الحادثة وبطلان الدور، وعلى الخصوص إذا ذكر اسم الإمكان والوجوب والامتناع والاستحالة، فيهزؤون بهذه الألفاظ من دون دراية لهم في العلم، فأردت أن أتحقّق براءة فضيلتك من هذه الوحشيّة العامّة.

حدوث المادّة معها كانت

ثمّ أيّها الدكتور أنتم تقولون: إنّ الجواهر الفردة أو الأثير أزلية، ونحن نقول: إنّ الجواهر الفردة لو صحّ فرضها وإنّ الأثير لو تحقّق وجوده، لا بُدّ من أن تكون حادثاً محتاجةً إلى علّة، ننظر في تلك العلّة، فهل تكون الدعاوى من كلّ منّا مقدّسة في العلم، أو لا بُدّ لكلّ مُدّعٍ من حجّة تشهد في العلم على صحّة دعواه؟

الوجود بعد العدم

الدكتور: لا تكون دعوى مقدّسة بلا حجّة، ولكنّا قلنا بوجود الجواهر الفردة؛ لأنّ فرضها ممكن، وقلنا بأزليّتها لأجل أن نقف عليها بالتعليل، وأوجبنا أزليّتها لأجل أنّه يمتنع حدوث الموجود من العدم، وكذا نقول في أزليّة الأثير على الرأى الجديد.

الشيخ: ما معنى قولك: «يمتنع حدوث الموجود من العدم»، فإنّه محتاج إلى الإيضاح؟

الدكتور: لا يمكن أن يكون الموجود ناشئاً من العدم؛ لأنّ العدم لا شيء، ويستحيل وجود شيء من لاشيء.

الشيخ: لم توضح ما يحتاج إلى الإيضاح، فإنّ الإيهام باتّى على حاله، فبيّن لنا ما معنى قولك: «من العدم» ومن «لا شيء»؟

الدكتور: الموجود والشيء يستحيل أن يكون مادّته العدم واللاشيء، ويستحيل أن يكون فاعله العدم واللاشيء، وهذا بديهي وجداني.

الشيخ: هذا مستحيل بالبدهة كما ذكرت، ومن ذا الذي يقول به؟! كلاً، وإنّما نقول: إنّ الجواهر الفردة والأثير لو كانا موجودين لكانا حادثين موجودين بعد عدمهما بإبداع الإله الموجود الأزلي القادر، فأين لزوم المحال في حدوثهما؟

الدكتور: إنّ حدوث الوجود بعد العدم مستحيل.

الشيخ: عجباً يا صاحب العلم التجريبي، كيف تدّعي هذه الدعوى وأنّ في كلّ ساعة ترى ألوفاً من الموجودات قد حدثت بعد العدم؟

ألا ترى الإنسان؟ أوليس أقرب عهوده أنه نزل منياً في رحم أمه، ثم صار علقه دم، ثم صار إنساناً ذا أعضاء وحواس وشعور وعلم؟ أين كان المنى الذي نشأ منه حينما كان جدّه وجدته منياً؟

أولا ترى سائر الحيوان؟ أولا ترى الشجر والنبات كيف يحدث بعد عدمه؟ أولا ترى سائر الموجودات في العالم ممّا تعرف وجوده بعد عدمه؟ فكيف تقول: إنّ حدوث الوجود بعد عدمه مستحيل؟

الدكتور: لا أقدر أنا وكلّ ذي شعور على إنكار ما تذكره، وكيف يجحد ما هو مُشاهد معلوم لكلّ أحدٍ، ومنه نعلم بالبدهة أنّه ليس بين الوجود والحدوث مضادة. ولكن خصوص المادّة - وهي الجواهر أو الأثير - هذه يستحيل وجودها بعد عدمها؛ فإنا لم نر المادّة حدثت، ولم نر أحداً قدر على إحداثها وخلقها، ولم نرها انعدمت، ولم نر أحداً قدر على إعدامها.

فإنّ العلم يبيّن أنّ كلّ ما نشاهده من اضمحلال المادّة ليس انعداماً، بل إنّما هو انعدام الصورة الخاصّة، وتفرّق دقائق المادّة الصغار التي لا يدركها الحسّ، فهي باقية في الوجود غائبة عن الحسّ.

الشيخ: أسألك أيّها الدكتور: هل قدر أحد من الناس أن يأخذ تراباً أو غيره من الموادّ فيخلقها إنساناً ذا نفس وشعور وعلم، أو حيواناً ذا نفس وحركة، أو شجراً ذا نموّ وفاكهة، ويبدعها بغير النواميس المعهودة؟

أيّها الدكتور، فهل يحسن بالعلم أو بمن له شعور أن يقول: إنّ أفراد الإنسان والحيوان والشجر أزليّة؛ لأنّ العلم التجريبي يشهد بأنّه لا يقدر الإنسان على إيجادها بإبداعه وخلقه لها؟

الدكتور: مهلاً أيّها الشيخ، لماذا غاب عن شعورك أنّ العلم والحسّ والوجدان تشهد جميعاً بأنّه ليس كلّ ما هو حادث يقدر الإنسان على خلقه وإحداثه، بل إنّ من الحوادث ما يقدر الإنسان على خلقه وإيجاده كالمصنوعات البشريّة، ومنها ما لا يقدر على إيجاده كالإنسان والحيوان والشجر.

وتشهد أيضاً بأنه ليس كل ما لا يقدر الإنسان على إيجاده فهو أزلي غير حادث، بل يجوز أن يكون له علّة تُبدعه وتُحدثه هي غير قدرة الإنسان، فإنّ الإنسان والحيوان والشجر لا يقدر الإنسان على خلقه وإيجاده، وهو حادث بالوجدان؛ لأنّ له علّة تُوجده وتُحدثه بناموسها.

الشيخ: إنّ العلم مشتاق إلى هذا البيان الذي يُزيل المعائر التي جعلها الوقت في طريق الشعور، أيها الدكتور إذاً فلماذا لا تقولون: إنّ المادّة يجوز أن يكون لها علّة تُحدثها وتُوجدها وإن لم يقدر الإنسان على إيجادها، كما قلتم في إيجاد الإنسان والحيوان والشجر؟ وكيف قطعتم بأنّها أزليّة؟!

الدكتور: قلنا: إنّ المادّة أزليّة؛ لأنّها لا تنعدم، ولا يقدر أحد على إعدامها؛ لأنّه كلّ ما يرى من اضمحلال المادّة فإنّما هو تفرّق أجزائها وانحلالها إلى الجواهر الفردة التي لا تنعدم. فالمادّة باقية أبدية، وكلّ ما هو أبدي فهو أزلي.

الشيخ: هل يمكن رؤية الجواهر الفردة بالنظارات المكبّرة والمقرّبة؛ لكي يحسّ بها الإنسان ويحكم ببقائها بعد الانحلال والتفرّق؟
الدكتور: لا، لا يمكن رؤيتها.

الشيخ: إذا فكيف حكمتم ببقائها؟!

فإنّ قلت: إنّنا نرى في انحلالها صعوبات كثيرة.

قلنا: فليكن انعدامها بعد صعوبات أكثر من ذلك.

وأيضاً إذا كان إعدامها صعباً على البشر، فلماذا لا يُمكن أن يكون في العالم فاعلٌ غير البشر يسهل عليه إعدام المادّة؟

وأيضاً إنّ الرأي الجديد المقبول بين علماء أوروبا ينادي بأنّ المادّة تنعدم إلى القوّة،

فمن أين لكم أنّ القوّة لا تنعدم؟ فهل تقولون: إنّ القنينة الليدنيّة إذا تفرّغت تبقى

كهربائيّتها دقائق أو أجزاء لا تتجزّأ؟ من أين ذلك؟

وهذه الحرارة الناشئة من زيادة القوّة الكهربائيّة، والنور الناشئ من زيادة هذه

الحرارة، فهل تقولون عند اضمحلالها: إنّهما يبقيان دقائق أو أجزاء لا تتجزّأ؟ من أين

ذلك؟ هل الشرارة الكهربائية تبقى؟

ومن أين هذه القوّة تتحوّل إلى الأثير الذي هو فرض مزعوم؟

مَنْ ذا الذي أحسّ بذلك؟

ومن أين الأثير لا يندعم؟ هل رأى ذلك أحدٌ؟ وما هي الحجّة عليه من الحسّ، أو

من العلم التجريبي، أو ممّا تسمّونه العقل المجرّد من نظريات الفلاسفة؟

الدكتور: القدرة على الإيجاد مهما كانت إنّما تتعلّق بالممكن الخاصّ، من

المتّنع أن تتعلّق بالمستحيل. وإنّا إذا قلنا بوجود الإله القادر، لم يُمكن أن

تتصوّر أنّ قدرته تتعلّق بالمحال، ومن المتّنع أن يبرز الشيء من اللاشيء،

وأنّ يصدر الوجود عن اللاوجود، ومن المتّنع أن يخلق الكون في وقت واحد

مثلث الزوايا.

عبدالله الإباضي، والتناقض

الشيخ: المعنى الجوهرى من هذا الكلام قد تقدّم، وتقدّم ممّا نقده، وأظنّك رأيت نحو

هذا الكلام للمتّسّمى «عبدالله الإباضي» ص ٤٠٦ من كتاب المذهب الروحاني.

ولماذا نسيّت أنّ الإلهيّين يقولون: إنّ الإله خلق المخلوق وجعله شيئاً بعد أن

لم يكن شيئاً، وموجوداً بعد أن لم يكن موجوداً. ومن البديهي أنّ الإنسان يكون إنساناً

بعد أن لم يكن، وكذا الحيوان والشجر، والدائرة تكون بعد أن لم تكن، والمثلث يكون

بعد أن لم يكن.

ولا يقول ذو رشد بأنّ هذه برزت من اللاشيء، وصدرت من اللاوجود. ولا يقول:

إنّها تكون وجوداً وعدمًا في وقتٍ واحدٍ، كما مثلّ الإباضي بالدائرة والمثلث.

فإن قال الإباضي: إنّ الموجود بما هو موجود والوجود بما هو وجود، يستحيل

أنّ يحدثنا بعد العدم فإنّ العيان والوجدان يستهزئان به، بل يوبّخه قوله في المقام:

«وفي كلّ دقيقة وإلى الأبد وجد ويوجد وسوف يوجد» وأظنّه لا يعرف تناقضه إلا إذا

ناجته روح غاليوس.

كلمات عصريّ وجوابها

رمزي: متنوّر عصري: العفو يا سيّدي الدكتور، اسمح لي بأن أقول كلمتي الذهبية، وليسمح السادات بالالتفات إلى إحساسي في نظريتي، ها هي كلمتي ونظريتي تهتف بها إحساساتي المتنوّرة وحرّيّة وجداني. إنّ التنوّر الجديد قد أسقط الإمكان والوجوب والامتناع والاستحالة، فإنّها من الخرافات القديمة للفلاسفة والمتكلّمين التي يتعكّرون بها في حججهم، وها أنا أراك توافق الشيخ على الركون إليها.

ألا وإني دخلتُ المكاتب والكلّيّات وتخرّجت منها بالشهادات الكافية، فلم أحتج في تنوّري وعلمي العصري إلى إمكان أو وجوب أو استحالة، ولم أُعرقل فضيلتي وعلمي بهذه الأمور الفارغة.

يا ترى اختمار الآراء واحتكاك الأفكار بدرس الحقائق من الأساتذة، هل يتسنى لنا الارتكان إلى القديم الفارغ يا ترى؟

وها إنّ العلم في وسيطه ومحيطه قدنبغ توّاً نبوغاً مدرسياً راقياً، تجري كهربائيته في داخلية بيئته وخارجيتها. فإنّ كراسي المكاتب والارتقاء بالتحوّل إلى الكلّيّات يضمنان حفظ الصفوف العالية من تنوّعات العلم المركزي السائد والأدب المكرّس لتوضيح المطالب الحيويّة بحرارة.

فهل بعد ذلك تُدار المسائل على محورٍ أجنبي عن محيط العلم يا ترى؟

فمن الجهل يا سيّدي أن نصفي إلى خرافات قديمة: إمكان، وجوب، امتناع.

إذا نظرنا إلى مقدار من الصوف، فمن الضروري أنّه يكون قطعة جوخ إذا جعله العمّال في معمل الجوخ على الناموس الميكانيكي، ومن الضروري أنّه ليس بجوخ ولا يصير جوخاً وهو على الغنم، فالجوخ قبل العمل ميسور الحصول للعامل وعلى هذا الناموس تجري الأشياء، فما هي الحاجة للأمر الفارغة يا ترى؟

عمانوثيل: يا حضرة الدكتور، إنّي أرى في مخايل وجهك أنّك تُريد أن تجيب

حضرة «رمزي» ولكن اسمح لي بالمهلة، فإنّ عندي مشكلات أريد أن يتفضّل بحلّها

علمياً، فإنه قد أبهجني بتمجيده لدراسة العلوم ونبوغه بين تلاميذ الكليات الراقية، وقد أكد بذلك رجائي لأن يحلّ بفضيلته مشكلاتي بمحضر القسّ والشيخ والدكتور والوالد. رمزي: قلّ كلمتك يا عمانوئيل.

عمانوئيل: كلمتي تنحلّ إلى سؤالات:

الأول: قد وقعت التجربة الدائمة على أنّ المسافرين في البحر من البصرة إلى مكة في أواخر الربيع وأوائل الصيف، يصحبون ساعات كثيرة من أتنّ أصنافها مؤقتة على الساعات العربيّة. وكلّ يوم يسرون فيه تختلف ساعاتهم على ميزان واحد، فينطبق عقرب الساعات على الثانية عشرة في العربيّة بعد الغروب، ويزداد هذا التأخّر شيئاً فشيئاً على ميزان واحد إلى عدن، ثمّ يأخذ هذا التأخّر بالنقص الموزون شيئاً فشيئاً إلى حين وصولهم مكة، ثمّ ينعكس الأمر عند رجوعهم.

وبعكس هذا كلّه يكون إذا ساروا في أواخر الخريف وأوائل الشتاء، فما هو المنشأ^١

في ذلك؟

السؤال الثاني: إنّ الليل والنهار متساويان في خطّ الاستواء، كلّ واحد منهما اثنتا عشرة ساعة. وكلّما بعد البلد عن خطّ الاستواء أخذ ليله ونهاره بالاختلاف بالزيادة والنقصان، وتبلغ الزيادة بالتدرّج في أطول الأيام والليالي في عرض ٨ درجات و ٣٤ دقيقة نصف ساعة، وفي عرض ١٦ درجة و ٤٤ دقيقة نصف ساعة أخرى، ثمّ تتدرّج الزيادة إلى أن تبلغ في عرض ٦٦ درجة و ٣٢ دقيقة اثنتي عشرة ساعة، ثمّ إذا زاد ثمانية وعشرين دقيقة - أقلّ من نصف الدرجة - تكون الزيادة خمسمائة وثمانية وعشرين ساعة، فما هو الوجه العلمي في هذا التفاوت الفاحش في زيادة العرض اليسيرة؟^٢

١. هو اختلاف طول النهار في الزمان الواحد بحسب اختلاف البلدان بالعرض، كما أشير إلى بعض أمثلته في السؤال الثاني. (منه ﷺ).

٢. هو أنّ أفق هذا العرض يدخل في المنطقة الحارة الشماليّة ٢٨ دقيقة عرضيّة، ويبعد عن مدار الجدي من الجهة الأخرى كذلك. فكلّ المدارات اليوميّة الواقعة على دقائق الدخول تتحدّ بالأفق أو تقع فيه، فلا غروب. وكلّ المدارات الواقعة على دقائق البعد خارجة عنه، فلا إشراق. وبما أنّ سير السيّار في الانفلايين يشبه الموازي للمدارات المذكورة تكون متقاربة، وربما يتحدّ جملة منها تقريباً. ومن هذا المجموع ينتج ما ذكرناه، ومنه يعرف الحال في النصف الجنوبي. (منه ﷺ).

السؤال الثالث: إنّ الهيئة الجديدة تذكر أنّ الأرض تدور حول الشمس، ومن اللازم أن تكون في السنة في وقت عن يمين الشمس، وفي وقت آخر عن يسارها وهذا يقتضي أن يكون المشرق في وقت من يسار الأرض، وفي آخر من يمينها. فما هو الوجه في كون المشرق من يسار الأرض دائماً مع دورانها على الشمس؟^١

السؤال الرابع: إنّ جذر العدد هو ضلع المربع، وناموسه الحسابي هو أنّ المربع يحصل من ضرب الجذر في نفسه، ولا مداخله فيه للتضعيف. إذاً فما هو الوجه في أنّه يتفق في عملية استخراج جذر العدد أن تضعف الصورة المرقومة من الجذر، وتنقل الضعف إلى اليمين وتضرب فيه الصورة الأخرى من الجذر؟ من أين جاءت مداخله للتضعيف في التجذير؟^٢

رمزي وعمانوييل

رمزي: الذي درسته من العلوم في الكليات، هو النتائج العلميّة على مقدار الحاجة في عمليّات الهندسة والحساب ومعرفة الجغرافية والهيئة، بحيث أصلح لأن أكون مهندساً أو مُدرّساً في دار المعلمين لتدريس المعلمين في المكاتب الوطنيّة؛ لكي أنفع وطني بأعمالي، وأنفع نفسي برواتب الوظائف أو أجره الأعمال. وأمّا حلّ المشكلات العلميّة، فهو مخصوص بالأساتذة من العلماء المتبحّرين في براهين العلوم، فهل أنت يا عمانوييل تحلّ هذه المشكلات حلّاً علميّاً مُقنعاً لي؟

عمانوييل: ما أدري ماذا أعرض لحضرتك يا صاحبي، فإنّ الإقناع شرطه منّي ومن غيري.

الدكتور: إنّ سلوك عمانوييل في تقرير هذه المشكلات يشهد عندي بأنّه قادر على حلّها علميّاً قدرة كافية.

١. إشراق الشمس يحصل من اتّجاه الأفق نحو سمتها بحركة الأرض الوضعيّة، وذلك الاتّجاه والحركة هما إلى يسار الأرض دائماً بالنسبة لمستقبل القطب الجنوبي. (منه ❁).

٢. جاءت من قوّة الشكل السادس من ثمانية الأصول لإقليدس، وإنّ كلّ عددين يكون الحاصل من مربعيهما مع ضعف مضروب أحدهما بالآخر مساوياً لعدد ثالث، فأثهما إذا جمعا كان مربع مجموعهما مساوياً لذلك الثالث نحو ٤ و ٣ بالنسبة إلى ٤٩، و ٥ و ٦ بالنسبة إلى ١٢١، وهكذا. (منه ❁).

القَس: يا أليعازر، في آية كَلَيْتَ درسَ عمانوئيل هذه العلوم بهذا الدرس الراقبي؟ أليعازر: لم يدخل كَلَيْتَ، من الكليات المعروفة، ولا أدري أينَ درسَ هذه العلوم. عمانوئيل: يا سيدي، منذُ نشأتُ كنتُ مولعاً بالتفهم في درس العلوم، وقد وجدتُ درسَ المكاتب يدور على النظر إلى رؤوس المسائل، ولا أجد عند المعلمين بياناً بأكثر من التلقينات المسموعة، فتهتياً لي أن أدرسَ هذه العلوم عند واحد من طلبة مدرسة النجف أياماً قليلة درساً علمياً. وقد أفادني أن في النجف من الماهرين بهذه العلوم خلقاً كثيرين، ولكن لأجل أن الغاية المطلوبة لهم إنما هي علم الدين، لم يظهر لدراساتهم في هذه العلوم دوي ولا سمعة.

رمزي: ما علينا؛ فإن اكتشافات الغربيين العجيبة تجعلنا على ثقة من صحة آرائهم ونظرياتهم الراقية، وإن اللازم علينا في الأدب العصري أن نتناول من آراء الأساتذة ونعرض عن النقد والمحامات عن الحقائق. وما هي الغاية من ذلك؟ هل ترى أنال ثروة ومالاً أعيش به كما إذا كُنْتُ محامياً في الحقوق ياترى؟ ألا وإن حرّية النفس في هذه الحياة تُحبذ هذه الآراء الجديدة، التي تنال الإنسانية بها محبوباتها في أميالها بلذّة وراحةٍ فكرٍ من دون عراقيل وتهديدات، هذه العراقيل والتهديدات التي تُكدر صفاء المدينة السمحة، وليس من الهين أن نعتبر أن حياتنا هذه القصيرة مقيدة بقيود الشرائع ومهددة بأخطار الوعيد.

عمانوئيل: يا صاحبي رمزي، لا يغيب عن درايتك أن الاكتشافات العجيبة والاختراعات العلمية النافعة في لوازم الحياة، إنما كانت من إلهيين متدينين قد ألقنوا مبانيهم بالنظريات المحكمة الأساس. فلماذا لم نتناول من آراء أولئك الأساتذة؟ وكيف تختار رأياً من دون نقد للآراء الأخر ولا محامات عن الحقيقة؟ لا أذكر ذوي الشعور الراقبي، ولكن أقول: إن القاصرين من متوحشي السودان وغيرهم إذا اختلفت عليهم الآراء لا يركنون إلى واحدٍ منها إلا بتحسينه ونقد ما عداه بما عندهم من الشعور في التحسين والنقد.

نعم، المعروف أن الماعز والضأن إذا طفرت إحداهن نهرأ طفرت البواقي أيضاً ولو

على خطر أو عدم رجاء، لا أذكر لك في تنبيهك من غفلتك إلا وقوع الخطأ أو الاضطراب في آراء أساتذتك الذين حبّذت مبادئهم وهملجت خلفهم.

فإن ديمقراط يقول: إن الجواهر الفردة - التي يفترضها افتراضاً - لها أشكال هندسية. وبخبر يقول: إن جواهرنا الافتراضية أصغر بكثير من جواهر ديمقراط.

ومرجع هذا الكلام إلى أن بخبر وأصحابه يُخطئون ديمقراط بفرض الأشكال الهندسية؛ لأن ذلك يناقض كونها لا تتجزأ.

وديمقراط وليسوبوس وأصحابهم يقولون: إن الجواهر الفردة تسيح بحركتها في الخلاء؛ نظراً إلى إمكان الخلاء وعدم الحاجة إلى افتراض شيء آخر.

وجاء طمس وأصحابه فخطّوا ديمقراط وليسوبوس بدعوى إمكان الخلاء، وقالوا بامتناع الخلاء، فافترضوا الأثير مائلاً للخلاء، وجعلوا الجواهر الفردة أجزاءً من الأثير تدور فيه كالزوابع.

وجاء غوستاف ليون ومن اتبعوا آراءه فقالوا بحدوث الجواهر الفردة، وإنها نشأت من تكاثف الأثير في قديم الزمان لسبب لا يعرف، وإن المادة تنعدم وتكون قوة، والقوة تنعدم وتكون أثيراً. فخالف الذين قبله في قولهم: إن المادة أزلية وأبدية.

وأما قولك: إن حرية النفس تُحبذ... إلى آخره، فإنه لا ينبغي لذي الرشد والشرف أن يغفل عن أن النفس لها شؤون، فإن النفس إن ساد عليها شرف الإنسانية ورفي الشعور، نهضت بكل همّتها لحفظ حرّيتها من استعباد الجهل الساقط والأميال الشهوانية البهيمية، وتجرّدت جهداً وسعها لحماية شرفها ولحفظ مستقبلها من التهديد حتى تنق باطمئنانها من أخطار السقوط، ورأت أن المدينة هو الناموس الذي ينتظم به اجتماع البشر في حفظ شرف الإنسانية وحقوقها المعقولة.

نعم، إذا ساد على النفس شهوانيتها البهيمية حبذت الآراء التي تُسهّل لها اللذات الوقتية، وتلهيها بإغفالها عن كلّ أدب روحي وكلّ فضيلة تمتاز بها عن البهائم، تلك الآراء التي تمنّيها الأمان من أخطار التهديدات المهذّبة المكتملة.

ولكن، لتأسف كلّ الأسف أن حرّيتها الشهوانية المطلقة على مبدأ الآراء المذكورة،

هي مُعرّقة بالسلطة السياسيّة والقوانين البشريّة مهما تساهلت.

وأما دعاة الفوضويّة ووحشيّتها وهمجيّتها، فإنّ السياسات ضامنة لقطع الآمال منها، فلا تُمنّ نفسك بمدنيّة فوضويّة موهومة، تصفيّ لك اللذات على مبدأ الآراء الماديّة براحة وبدون عراقيل ولا خطر تهديد.

فإنّك لا بُدّ لك من أن تخضع لنير السلطة، وترزح شهوانيتك تحت قوانين الشرف والمدنيّة. فانظر ما هو الأحسن؟ هل هو التهذيب بشرف القوانين الإلهيّة المكتملة لك روحياً وأديباً واجتماعياً، أو هو التحير بين الانهماك بالملاذّ الشهوانيّة التي منّاك بصفتها ابيقورس وبين الحذر من رادع القوانين البشريّة في النظام المدنيّ؟

الدكتور: يا للأسف، إنّ كلام رمزي وأمثاله من العصريّين وأحوالهم وأفعالهم لتمثّل للناس أنّ اختيار المذهب الماديّ لم يكن على أساس علمي، بل على أساس شهواني وفرار باللذات الأهوائيّة والأخلاق البهيميّة من سيادة الشرائع الإلهيّة وحدودها، كفرار عبدٍ يغمض عينيه ويسدّ أذنيه ويقول: لا أرى لي مولياً ولا أسمع دعوته ولا تهديده، فها أنا ليس لي مولياً، أنا حرّ في أميال نفسي بلذّة وراحة فكرٍ، قد أمنتُ من العراقيل والتهديد، لا أفتح عيني ولا أذني، إنّ شرائع السيّد تُكدر لذاتي.

عمانويل: لا يا أيّها الدكتور، إنّ هذا الذي تأسّف منه ليس رأياً خصوصياً لرمزي وأمثاله من العصريّين، بل هو كلمة زعيم المذهب الماديّ ابيقورس، فإنّه قال:

إنّ راحة البال التي تقوم بها سعادة الإنسان هي في اضطراب دائم من جري الريب الواقع من نسبة الإنسان إلى الخليقة وإلى الله.

وإني لأحتشم محضر الدكتور من زيادة البيان.

الوجوب والإمكان والامتناع

الدكتور: يا رمزي لتلتفت إلى كلمتك ونقدك موافقتي للشيخ في مبادئ الإمكان والوجوب والامتناع، فهل تُريد أن أهلك شرف وجداني وأتجاهل عن ناموس الفطرة الشعوريّة؟

ألا ترى أنّ الطفل يلتقم صفحة من ثدي أمّه ثمّ يعدل سريعاً، حتّى إذا التقم حلمة الثدي استمرّ على الرضاع، فيجري في ذلك على مبدأ الامتناع والإمكان.

إذا أريتَ الطفل شيئاً وأطعمته بأنّه مرغوبه، فإنّه يتأمّل فيه وينظر هل يمكن أن يكون هو ذلك المرغوب لكي يرجو أخذه، أو يجب أن يكون هو فيطلبه، أو يمتنع أن يكون هو فيعرض عنه وهكذا حاله إذا أريتَهُ شيئاً وخوّفته بأنّه ممّا يؤذيه، وعلى ذلك يجري شعور الحيوانات فيما ترغب فيه وتحذر منه.

وإنّك أنتَ بذاتك اعتمدتَ في كلامك وبيانك على الإمكان والوجوب والامتناع في مثالك بالصوف والجوخ، فإنّ الوجوب هو معنى قولك: «ومن الضروري يكون» والإمكان هو معنى قولك: «ميسور».

وإنّ ديمقراط وأصحابه بنوا نظريّاتهم على إمكان الخلاء، وطمن وأصحابه بنوا نظريّاتهم في الأثير على امتناع الخلاء. فهل لك يا رمزي عداوة شخصيّة مع ألفاظ الإمكان والوجوب والامتناع؟ أفلا يلزم الإنسان أن يكون حرّ العلم والكلام.

رمزي: إنك إذا سمعتَ كلام الإلهيين في الإلهيات تضجر كثيراً من قولهم: ممكن، وجب، مُمتنع، إمكان عامّ، إمكان خاصّ، وجوب بالذات، وجوب بالعرض، امتناع بالذات، امتناع بالعرض. أما إني أضجر كثيراً إذ يكرّرون هذه الألفاظ، أما عندهم غير هذا يا ترى؟

عمانوثيل: إنّ لكلّ صناعة ولكلّ فنّ مواضيع وأدوات خاصّة، ولا بُدّ لمن يتكلّم في مباحث تلك الصناعة وعمليّاتها أن يكثر من ذكر آلياتها حسب اقتضاء العمليّات.

فالنجان إذا تكلم في نجارته يكثر في كلامه: خشب، مسمار، فاس، منشار كبير، منشار متوسط، منشار صغير، منشار مظهر، مثقب كبير، مثقب متوسط، مثقب صغير، مثقب برغي، مبرد، رندة كبيرة، رندة صغيرة، وهكذا. ولا تسمعه يقول في عمليّة النجارة: سدى^١، لحمّة، فحم، منفاخ.

١. السدى من الثوب ما يمدّ طولاً في النسج. واللحمّة خلافه. الصحاح ٥: ٢٠٢٧، «ل ح م» و ٦: ٢٣٧٤.

«س دى»: مجمع البحرين ١: ٢١٥، «س دى».

والكيمياوي إذا تكلم في العمليات الكيماوية يكثر في كلامه تكرار قوله: أكسجين، هيدروجين، نروجين، كلور، كربون، صوديوم، فسفور، غاز، وهكذا. ولا تسمعه يقول في عملته: بنك حوالة، سعر القماش، شعب، مملكة، وزارة. فاسمح لي إذا قلت: إن البدوي الوحشي يضجر إذا حضر كلام النجار أو الكيماوي في عملياته.

وسامحني إذا قلت: إن الكيماوي إذا عرض عن فته ومظهر علمه وكنز ثروته لمستقبله، وحبذ أن يضيّع حياته الثمينة في مسارح اللهو ورقص الآنسات وإدمان المشروبات وأحاديث الغرام ولذات المغازلة، فإنه يضجر ويتألم إذا سمع الكيماويين يتكلمون في مواضيع فتهم، ويقول: ها قد كدروا لذتي بهذه الألفاظ الفارغة التي تهدد الأُنس واللذة بتذكار سجون المعامل.

يا رمزي، إن المتكلمين في الإلهيات لا غرض لهم بخصوصيات الموجودات، وإنما يجعلونها بأجمعها جملة واحدة في معمل النظر؛ لكي يحللوها من طريق الإمكان والوجوب والامتناع إلى المعلول وعلة الأزلية، وكيفية التعليل، وخواص العلة الأزلية، والفاعل الأول.

فالإمكان والوجوب والامتناع هي الآلات الثمينة في هذا التحليل، فلا تضجر إذا فحصوها من حيث الذاتية والعرضية، ولا تضجر من تكرار ذكرها، فإنها هي الآلات الدخيلة في هذه العملية. هل رأيت [الموسوعة، ج ٦] كتاب أنوار الهدى ص ٦ - ٧ و ٣٠ - ٤٣؟ فإنه قد تعرض لمثل كلامك في الإمكان والوجوب والامتناع. رمزي: لا لم أره، ولكني لسْتُ بعاطل عن مطالعة الكتب، فإنني كثيراً ما أطلع الجرائد الوطنية وكتب الروايات العصرية.

عمانوئيل: أسفاً وأنت شرقي تطلب مجد الشرق، ولا تنظر إلى كتاب عالم شرقي قد أودع فيه نظريات راقية ونقوداً ثمينة، وهو مبذول مجاناً، هلاً تُطالعه للنقد عليه أقلّ لو كنت تقدر.

الشيخ: أيها الدكتور، ألا تعود إلى كلامنا على المادة والأثير؛ لأكشف لك عن

حدوثها وامتناع أزلتيتها بحيث لا يصحّ الوقوف عليها بالتعليل؟

أعيان وتُجَار: العفو يا شيخ، اسمح لنا بأن نقول كلمةً ننتف بها عن قلوبٍ حرّاً
تقلّب على جمرِ الأسف والغیظ:

إنّا أناس مسلمون في بلاد الإسلام، ولنا الأمل الوطيد بأنّ علماءنا يحمون
اعتقاداتنا وديانتنا من عوادي الشُّبهات بالبيان الواضح المقنع، ويدافعون عن الإسلام
من تصدّى للنقد عليه، وحاول بالقاء الشُّبهات والتشكيكات أن يبدّل آدابه وشرائعه
وأخلاق المسلمين.

وها هو الخطر والتهديد للإسلام بالنقود والردود مُحدق بنا، وها هي البواخر تحمل
إلى بلادنا من مصر وبيروت في كلّ شهر أُلوفاً من الكُتب التي وجّهت نيرانها إلى
الإسلام وكتابه ونيّبه عداءً.

يكفيك منها كتاب هاشم العربي مع تذييلاته، وكتاب الهداية المطبوع بمعرفة الرُّسليين
الأمريكان ولا حاجة لذكر الكتب الصغار ككتاب تعليم العلماء، وكتاب حسن الإيجاز،
وكتاب أبحاث المجتهدين، وكتاب رحلة الغريب بن العجيب وغيرها من الكتب.

ولا زال المبشرون اليسوعيّون يلقون علينا الشُّبهات بحرّيّة تامّة ونشاط، وهذا
يهون بالنسبة إلى انتشار كتاب شبلي شمّيل في تأييد المذهب المادّي والتنديد
بالإلهيّين، وبعضه دخائل المقتطف، ويؤيِّده غمزات بعض العصريّين بتحسين
مضامينه والرومانات بتلويحها، وهناك أوبية أخرى «قد تمشّت في مفاصلها كتمشّي
النار في الفحم».

يا شيخ، إنّ أولادنا وشبّاننا كادت الشُّبهات أن تُخرجهم من أيدينا، فتراهم كالرمل
السيّال يثرون مع كلّ زوبعة.

هب أنا نعلم أنّ هذه الشُّبهات مغالطات لا مساس لها بالحقيقة، لكن ماذا نضع فيما
لا نهتدي السبيل إلى دفعه؟ وماذا نضع بما يعلق بأذهان البسطاء والأغرار؟ وماذا نضع
مع أولادنا وشبّاننا المغرورين؟ فهل من الهين أن يقع هذا كلّه وأنتم ساكتون، أم
تقولون: لا ندري بذلك؟ لماذا لا تدرون؟

هل يُرجى جلاء هذا الغبار، وتمحيص هذا التمويه، وشفاء هذا الداء، ودفاع هذا المهاجم إلا ببركة علمكم. ولنا الثقة التامة بأن فيكم من يداوي هذا الداء في أسرع وقت بأوضح بيان، يبتهج به الشعور ويشبث به اليقين بدلالة الحقيقة والعلم الراسخ، فما يمنعكم والحرية المطلقة والإرشاد واجب؟

فإن مكالماتكم ومكالمات عمانوئيل قد جلت عنا ظلمات كانت متراكمة علينا، وأشعت في أفكارنا أنواراً تجلو لنا الحقائق رأي العين وتلاشي الشك باليقين. فهل من الجائز أن تحجبوا عنا هذه الإفادات، وتتركوا نخبط في ليل الشكوك والشبهات، فتذهب مساعي الرسول الكريم وأئمة المسلمين في الهدى ضياعاً؟

[عتابٌ وجوابٌ]

الشيخ: يا إخواننا، أما أولادكم وشبانكم فإننا نتبعنا أحوالهم فلم نجد عندهم صورة شبيهة تزلزلوا من أجلها، ولا مغالطة علمية تليق أن تشوش أذهانهم، ولم نجد عندهم إلا الانهماك بالأفكار الغربية الجديدة من دون شعور علمي ولا حذق صناعي.

وغاية ما عند أحدهم أن يُسمي نفسه متنوراً، وغاية بضاعته في ذلك أنه يطالع بعض الجرائد والمجلات، فيتلقى منها الفتاوى بالتسليم سطحياً، وليس له من علمياتها وصناعاتها إلا قراءة الألفاظ.

ومهما تكلمه لا يكون جوابه في الاحتجاج لخيالاته إلا الإطراء برقي الغرب والتوبيخ لا نحطاط الشرق، من دون أن يكون له من رقي الغرب نصيب. يسمي طفراته في اتباع الأهواء شجاعةً أدبية، وتقدماته في الشهوانية وخلع القيود تنوراً.

وإننا نحيبه بكلّ ترحيب إذا طلب حلّ مشكلاته بالبيان العلمي والحجة الأدبية، وله ما يشاء من الملاينة.

يا إخواننا، وأما عتابكم لنا على السكوت فنقول لكم: قد كتب الشيخ ﷺ الهندي

سابقاً كتاب إظهار الحقّ، وأجاد فيه وأفاد، وكُتِبَ في هذا العصر كتاب الهدى، ورسالة التوحيد والتثليث، وكتاب نصائح الهدى^١، وكتاب أنوار الهدى^٢. وها هي مطبوعة فهل تدرون بها؟ وهل رأيتموها؟ وهل يوجد عندكم منها عشر معشار ما عندكم من الكُتُب الأجنبيّة العصريّة في الروايات الرومانيّة؟

وهناك كتاب آخر هو أعمّ نفعاً وأقرب لفهم العموم، قد جاراها في محاوراتهم المألوفة لهم، وقد تعرّض للأديان وكُتِبَها، ونظريّات المادّيّين وكلماتهم، وذكرَ معارف القرآن الكريم، وحججه، وأخلاقه، وآدابه، وصلاح شرائعه، ومدنيّته، وإصلاحه، ووجوه إعجازه. بطرز يؤنس المطالع وترتاح إليه النفس.

ولكن مَضت مدّة وكاتبه وأصحابه يطلبون مَنْ يطبعه لنفسه طبعاً تجارياً، ولو باشتراك جماعة ولو بعد النظر إليه واستحسانه. ينادون بذلك في نُصرة الدين، فلا يجدون إلّا نفوساً لاهية أو مواعيد كاذبة، «عاد الدين غريباً». نعم، يسّر الله طبعه بهمة العلماء العاملين، واشتراكهم مع قليلٍ من المتديّنين الذين ربطتهم التقوى بأهل العلم، جزاهم الله خير الجزاء. وفوق ذلك أنكم تعاتبوننا!! سامحنا الله وإياكم ووفّقنا لما يحبّ ويرضى.

يا إخواننا، وهذا الحال ممّا يزيد البصيرة في كرامة دين الإسلام وعلوِّ مقامه وبهجة إشراقه بنور الحقّ ووضوح الحجّة، حيث إنّه مع تقاعد المسلمين عن نصره يتقدّم في سيره هذا التقدّم الباهر على رغم المعاصر الأهوائيّة.

١. نصائح الهدى والدين للعلامة البلاغي في ردّ الفرقة الضالّة الباطنية، ومناقشة آرائهم الواهية. طبع في مطبعة دار السلام في بغداد سنة ١٣٣٩ هـ، وترجمه إلى الفارسيّة السيّد عليّ الفاني باسم «نصيحت فريخ خوردگان باب وبهاء» وطبعت هذه الترجمة في أصفهان سنة ١٤٠٩ هـ، وأعيد طبعها في قم سنة ١٤٠٥ هـ، وقد فصلنا الكلام عنه في المدخل لهذه الموسوعة عند حديثنا عن مؤلّفات العلامة البلاغي ﷺ.

٢. أنوار الهدى للعلامة البلاغي، في الردّ على الطبعيّيّين والمادّيّين وشبهاتهم الإلحادية، انتهى من تأليفه في مدينة النجف الأشرف في الثاني والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٩ هـ، وطبع في النجف الأشرف، سنة ١٣٤٠ هـ، وتُرجم إلى الأوردية، وقد فصلنا الكلام عنه في المدخل لهذه الموسوعة وعند حديثنا عن مؤلّفات العلامة البلاغي ﷺ.

[بطلان فرض الجواهر الفردة]

عمانويل: عُدَّ أيها الشيخ إلى كلامك مع الدكتور في حدوث المادة، وأنه لا يصحّ الوقوف على الجواهر الفردة لو أمكن فرضها ولم يبرهن العلم على امتناعها، وأنه لا يصحّ الوقوف بالتعليل أيضاً على الأثير لو ثبت فرضه.

الشيخ: نعم، وليبان ما نقوله في ذلك وجوه:

الأوّل: أنّ المادّيين قد اضطّروهم لتعليلهم للكائنات إلى أن يشبّثوا للجواهر الفردة حركات مختلفة الوضع والمحلّ وقوى مختلفة، وذلك يستلزم تركيبها من عنصر تشترك به في الجوهرية، وعناصر تميّز كلّ واحد عن الآخر باقتضاء المسير في الطريق الخاصّ به والحركة الخاصّة به، فيبطل كونها أجزاء لا تتجزأ من كلّ وجه، بل تكون مركّبة محتاجة إلى فاعل يؤلّف أجزاءها.

وينتقل الكلام في التعليل إلى ذلك الفاعل، فإن كان فاعلاً بطبيعته لزم أن يكون مركّباً أيضاً، يُعلّل جزء منه جزء الجواهر الذي تشترك به في الجوهرية، ويعلّل جزء منه مميّزات الجواهر بعضها عن بعض، فينتقل الكلام في تعليل هذا، وهكذا.

وإن كان ذلك الفاعل فاعلاً بإرادته، انتقل الكلام في التعليل إليه.

وعلى كلّ حال لا يصحّ الوقوف على الجواهر الفردة في التعليل.

الدكتور: كيف قالوا بأنّ للجواهر حركات مختلفة الوضع والمحلّ، وقوى مختلفة؟!

الشيخ: المعروف عن ديمقراط أنّ الجواهر الفردة لها - بنظر بعضها إلى بعض - حركة دائرة وحركة اصطدام مستقيمة.

وعن لوسيبوس: إنّها تتحرّك في الفراغ منذ الأزل، والأشياء تظهر وتختفي بحسب ما تجتمع وتنفصل.

وعن ابيقورس: إنّ الجواهر متحرّكة دائماً في الخلاء الذي لا نهاية له بانحراف بعضها على موازاة بعض، بحيث تصطدم وتحدث حركة لولبية مخروطية كحركة الزوابع، فتؤدّي إلى تراكيب عديدة وصور متنوّعة ومتغيّرة.

فيلزم من قول لوسيبوس و ايبقورس أن تكون حركة الجواهر مختلفة الوضع ؛ لأنّ الحركة لو كانت واحدة في الجهة والسرعة لما اصطدمت الجواهر أبداً. هذا زيادة على كون الحركات مختلفة المحلّ والمسرى، بحيث لا بُدّ من تعليل اختلافها باختلاف مميّزات الجواهر بعضها عن بعض.

وقال بختر: أمّا حركة الجواهر عندنا فمن تضادّ قوّتي الجذب والدفع، اللذين نعتبرهما غريزتين في الجواهر.

فنقول: إن أراد أنّ في واحدٍ منها قوّة الجذب وفي الآخر قوّة الدفع، لزمه تركّب الجواهر المذكورة من جزء تشترك به الجواهر في الجوزيّة، ومن أجزاء تختلف غرائزها باقتضاء قوّة الجذب وباقتضاء قوّة الدفع.

وإن أراد أنّ الجوهر الواحد يشتمل على القوتين لزمه تركّب الجواهر وانقسامها وتجزؤها إلى أجزاء: بعضها يكون قطة لقوّة الدفع، وبعضها يكون قطة لقوّة الجذب. هذا مع غصّ النظر عن مباحث تجري هاهنا من حيث تكافؤ القوى واختلافها.

وحاصل الكلام: أنّ الجواهر الفردة التي لا تتجزأ لو أمكن وجودها في نفسها - وهو مستحيل كما بيّنه العلم - لكانت باعتبار هذه الأقوال مركّبة، ذات أجزاء في الماهيّة والصورة، تحتاج إلى علّة تؤلّف أجزاءها، وتجريها في حركاتها المختلفة، وتعيّن لها أمكنتها المختلفة. فلينظر إذّا في حال هذه العلّة، ولا يصحّ لنا أن نقف في التعليل على الجواهر ووقفاً علمياً.

وأما الأثير فإنّه منقسم إلى أجزاء يختصّ كلّ منها بمكانٍ غير ما يختصّ به الآخر، فإن كان هذا الاختصاص من طبع الجزء، لزم أن يكون كلّ جزء مركّب في الماهيّة من شيء تشترك به جميع الأجزاء في الأثيريّة، ومن شيء يقتضي بطبعه الحلول في المكان الخاصّ به ؛ فأجزاء الأثير إذّا مركّبة في الماهيّة تحتاج إلى علّة لتأليف ماهيّتها. زيادةً على كونه في الصورة مركّباً ذا أجزاء يحتاج إلى علّة تؤلّف أجزاءه الصوريّة.

وإن كان اختصاص كلّ جزء من الأثير ناشئاً من فعل فاعلٍ هو غير طبع الأجزاء، لزم الانتقال بالتعليل إلى ذلك الفاعل والبحث عنه. ثمّ إنّ المنقول من رأي طمسن هو

أنّ الجواهر الفردة إنّما هي حلقات زوابعية في الأثير أو الهيمولي، فالعالم مؤلّف من سائلٍ تامّ الاتّصال مالمّ للخلاء، ومن هذه الحلقات الزوابعية المنتشرة، وهي ليست سوى أجزاء هذا السائل المتحرّكة فيه.

فنقول: هذه الحلقات الزوابعية التي هي أجزاء السائل، هل هي باقية على طبيعته السائل وصورته حينما هي جواهر فردة أم تغيّرت صورتها؟

فإن تغيّرت قلنا: مَنْ هو وما هو الذي غيّرَها؟

لا يمكن أن يقال: غيّرَها طبع الأثير، أي إنّ طبيعة الأثير اقتضت أن تتغيّر بعض أجزائه إلى الجواهر الفردة وزوابعها حينما لم يكن هناك كائن غير الأثير، كيف يمكن أن يقال ذلك؟ وهو يستلزم أن يتغيّر الأثير بطبعه إلى الجواهر الفردة دفعةً واحدةً ويكون زوابعاً واحدةً، والذي يفرضونه خلافه.

وإن لم تتغيّر بل كانت على صورة الأثير وطبعه قلنا: مَنْ هو وما هو الذي حرّكها؟ لا يمكن أن يقال: حرّكها طبع الأثير، كيف يمكن؟ وهو يستلزم أن يتحرّك الأثير بأجمعه دفعةً واحدةً ويكون زوابعاً واحدةً، والذي يفرضونه خلافه.

أفلا يستلزم أيضاً أن يكون العالم كلّه كتلةً واحدةً من نوعٍ واحدٍ؛ لأنّ علّة الحركة على الفرض واحدة بسيطة؟

وإن قالوا: إنّ المعّيّر والمحوّل هو غير الأثير.

قلنا: فليجري النظر والتعليل في هذا المعّيّر أو المحرّك.

هذا، والمنقول عن رأي الدكتور غوستاف لبون: أنّ الأثير تكاثف في الأزمان البعيدة بسبب لا نعلمه، فصار مادةً صلبةً أفلا يلزم النظر إلى تعليل هذا السبب الذي تكاثف به الأثير، هل تكاثف كلّ الأثير فلم يبق أثير أم تكاثف بعضه؟

رمزي: يا شيخ، ليس لك أن تحكم في مجلسك وأنت على كرسيك وتقول: «يلزم أن يكون هذا مركّب الماهية، ويلزم أن يكون هذا مركّب الماهية» كما قلت في الجواهر والأثير، فإنّ الحكم بتركّب الماهية إنّما يقبل إذا شهدت به بوثقة الكيمياوي، ولا يقبل من الجالس على كرسيّ النظر المجرد.

الشيخ: إذا قيل لكّ عن قطعتين من الذهب بوزن واحد، غُطّست إحداهما في إناء فيه ماء فصعد الماء إلى درجة معيّنة، ثمّ أُخرجت القطعة وغُطّست الأخرى فيه فارتفع الماء إلى درج أعلى من السابقة، فماذا تقول في القطعة الثانية؟

رمزي: أقول: إنّها مركّبة من الذهب ومعدن آخر أخفّ منه في الوزن.

الشيخ: كيف شهدت باختلاف عناصر القطعة وحكمتَ بتركبها وأنتَ على كرسيك هذا، هل كرسيك بوثقة الكيمياوي؟

رمزي: الشعور العلمي يقضي قضاءه ويحكم حكمه، سواء كان على الكراسي أو في السيّارات أو في المعامل.

الشيخ: إذأ فاسمح لشعوري أن يُبدي نظريّاته على الكرسي، كما سمحتَ لشعورك أن يقضي قضاءه ويحكم حكمه.

رمزي: إنّ الحركة هي التي كوّنت الجواهر الفردة في وسط الأثير، وبها تتكوّن الصور والأشياء. وليس للحركة سبب سوى الحركة نفسها، فالحركة أزليّة أبدية. عمانوئيل: إن كانت الحركة كوّنت الجواهر الفردة من الأثير فقد تغيّر كيان الأثير، فلا يكون أزليّاً واجب الوجود.

وإن قلت: إنّ الحركة كوّنت الجواهر بعد عدمها لا عن مادّة موجودة، فقد أبطلت قول أصحابك المادّيين بأنّه لا يعقل حدوث شيء موجود بدون مادّة موجودة، وهدمت أساس مادّيتهم.

وأيضاً إنّ الحركة أكوان متتابعة، ينعدم كون ويحدث بعده كون آخر، وهكذا فما هو الأزلي الأبدى؟ هل هو الكون النعدم؟ أو هو الكون الحادث بعده الذي لا بُدّ من أن ينعدم؟ رمزي: الحركة لها وجود دائم، ألا ترى أنّك إذا أدّرت شعلة النار إدارةً سريعة فإنّها تحدث منها دائرة ناريّة متّصلة؟

عمانوئيل: يا رمزي يا صاحبي، إنّ هذا الخيال الوهمي لا يموه إلّا بقاء المتحرّك في الأمكنة التي تحوّل عنها، وأمّا تبدّل الأكوان وانعدام الحركة السابقة فهو مفروض كلامك في الإدارة القويّة السريعة.

ومع ذلك فإنك كأنك لم تسمع اتفاق العلم والوجدان من المتقدمين والمتأخرين على أن هذه الدائرة وهمية لا وجود لها ولا حقيقة:

فالمتقدمون علّلوا خيال هذه الدائرة ووهمها بوجود الحس المشترك الذي يحفظ خيال المحسوس بعد زواله عن آلة حسّه.

والتأخرون علّلوه بأن الصورة التي ترسم على الطبقة الشبكية في العين لا تزول عن الشبكة بزوال الشبح، بل تبقى نحو عشر الثانية.

هذا كله هيّن، ولكن يا رمزي لم تضطهد العلم وتشوّه جمال التعليل؟ هل سمعتَ قائلاً يقول: ليس للجدار سبب إلا الجدار نفسه. ليس للشيء سبب إلا الشيء نفسه؟ ليس للضحك سبب إلا الضحك نفسه؟

لا، لا تزعج العلم وأهله بمثل هذا الكلام، قل: هذا الشيء الحادث لا علّة له، واسترح من حيث تعب أهل العلم.

رمزي: هذا الكلام الذي قلته رأيتُه في الكتب المطبوعة للماديين.

عمانويل: أقول لمن كتّب هذا الكلام كما قلت لك.

الدكتور: يا شيخ، ما هو الوجه الثاني المانع من الوقوف بالتعليل على الجواهر والأثير؟

لا يوقف بالتعليل إلا على واجب الوجود

الشيخ: هل يُمكن أن نقف بالتعليل موقفاً علمياً على شيء نرضه محتاجاً في وجوده إلى علّة؟ وهل يمكن أن نحكم بأزليّة هذا الشيء مع احتياجه إلى العلّة أو العلل الكثيرة السابقة عليه؟ هل عندنا تأريخ يدلنا على الأزليّة؟ إذاً ما هو مستندنا لدعوى الأزليّة؟ هل هذه الدعوى مقدّسة لا مسؤوليّة عليها؟

الدكتور: وأنت يا شيخ إذا أردت أن تصف شيئاً بالأزليّة وأنت العلّة لجميع الكائنات،

فما هو استنادك في دعوى الأزليّة؟

الشيخ: إذا أوصلني السير العلمي والدرس في كيان الكائنات إلى ما هو واجب

الوجود لذاته، وغير محتاج في وجوده وكيانه إلى غيره، فحينئذٍ اعترف له بالأزليّة،

بشرط أن لا يكون يتأثر بغيره أو يتغير عن كيانه الأزلي؛ فإنّ الأزليّة ملزومة للأبدية، كما هو مسلّم ومقرّر في العلم في آرائه القديمة والحديثة.

الدكتور: لماذا لا تقول: إنّ الجواهر الفردة واجبة الوجود لذاتها، وإنّ الأثير واجب الوجود لذاته؟

الجواهر الفردة لا تكون واجبة الوجود

الشيخ: قد ذكرنا [في] صحيفة ٢٩٨ واحداً من أدلّة العلم على امتناع الجواهر الفردة، أعني الأجزاء التي لا يمكن عقلاً تجزؤها، وهناك أيضاً أدلّة متعدّدة ترجع كلّها إلى الاعتبار بالمحسوسات. وهب أنا أغمضنا النظر عن ذلك، فما هو الدليل الذي يضطرنا إلى الاعتراف بوجود الجواهر الفردة، مع أنّها تُفرض على نحو لا يدركها الحسّ؟

الدكتور: إنّ العلم بطبيعته وكيمياويته يضطرنا إلى الاعتراف بالجواهر الفردة، فإنّ الهيدروجين يتركّب مع الأوكسجين على نسبة اثنين إلى واحد، فيكوّنان ماءً. والكلور يتركّب مع الصوديوم بنسبة خمسة وثلاثين ونصف إلى ثلاثة وعشرين، فيكوّنان ملح الطعام. وأيضاً لو لم يكن الجسم مؤلفاً من الجواهر الفردة، لم يمكن تعليل الحالات الطبيعيّة كالمساميّة والانضغاط والتمدّد والمرونة ونحو ذلك، فلا بُدّ من التسليم بالجواهر الفردة.

الشيخ: عجباً، هل ترى الكيماوي يعدّ الجواهر الفردة، ويأخذ من حسابها التفصيلي وعددها هذه النسب التي تذكرها؟ فيعتمد على عدّه للجواهر الفردة في تركيبه وتحليله ويقول: هذه خمسة وثلاثون ونصف، ويعدها واحداً بعد واحد؟ هل سمعتَ هذا من أحد من أهل الدنيا ويعدها واحداً بعد واحد؟ هل سمعتَ هذا من أحد من أهل الدنيا من الأوّلين والآخريين؟

ألا وإنّ الكيماوي إنّما يأخذ النسبة بالوزن، وأمّا المزج والتركيب فيكفي فيهما اختلاط أصفر الدقائق وتأثير بعضها ببعض تأثيراً كيميائياً.

وأما تعليل الحالات الطبيعيّة المذكورة، كالمساميّة والانضغاط ونحوها، فيكفي فيه

الانفصال بين أصغر دقائق الجسم، فإنّ الدقيقة تكون أصغر من جزء من مائة جزء من عضو من أعضاء الحيوان الذي قيل: إنّ ملايين منه تعيش في نقطة الماء الذي يحمله رأس إبرة، أو جزء من مائة جزء من طعمة غذاء يتناوله هذا الحيوان.

فمن الغريب في العلم أنّ الرأي الجوهري يدّعي أنّه ينتهي انقسام الجسم إلى حدّ محدود، وهو الجزء الذي لا يتجزأ، مع اعترافهم بأنّ التجزؤ لم ينته بالتجربة.

رمزي: إنّ العلم قد توصل إلى استعمال أوزان الجواهر الفردة من كثير من العناصر، وقاس نسبة الجواهر الفرد من هذا العنصر مع وزن الجواهر الفرد من العنصر الآخر، وأوضح أنّ الجواهر الفرد من الهيدروجين إذا كان وزنه واحداً، فوزن الجواهر الفرد من الأوكسجين يكون ستّة عشر، ومن النتروجين أربعة عشر، ومن الصوديوم ثلاثة وعشرين، ومن الكلور خمسة وثلاثين ونصفاً، ومن الماء العذب الصافي المقطر اثنين وعشرين إلّا عشرأً ونصف العشر. وقد ذكروا القياس في جميع العناصر المشهورة بحسب جواهرها الفردة، ورسموا لذلك جداول في الوزن الجوهري.

عمانوييل: عجباً، هل قال واحد من أهل العلم الأوّلين والآخرين: إنّ وزن جوهراً فرداً منفرداً من كلّ عنصر، وقاس وزن كلّ جواهر فرد منفرد مع الآخر؟ ألم تقرأ في الطبيعيات الابتدائية أنّ الجواهر الفرد لا يكاد يُدرکه التصوّر، وإنّما هو افتراض محض، فكيف تقول قولك هذا؟

أفلا تدري أنّهم يأخذون العناصر متساوية الحجم، فيجدونها مختلفة الوزن في التركيب الكيميائي، فيزعمون أنّ جواهرها الفردة متساوية في العدد، وبناءً على هذا الزعم يجعلون التفاوت بأوزان الجواهر الفردة على نسبة، يجعلون فيها الجواهر الفرد من الهيدروجين واحداً ويقيسون عليه، وبهذا القياس يُفسّرون أحلام الجواهر الفردة ويجعلون لها أوزاناً مختلفة.

عمانوييل: أيها الدكتور، إذا مزجنا متقالاً من ملح الطعام مع مائة متقال من الماء المصفّى، وصار الماء مالحاً، فهل شاعت دقائق الملح في جميع الماء وانقسمت دقائقه على حسب دقائق الماء؟

الدكتور: نعم، والتجربة خير شاهد.

عمانوثيل: هل يمكن للتصوّر أن يلحظ دقيقة من الملح تعادل عشرة آلاف جوهر فرد؟
الدكتور: نعم، لا بُدّ من ذلك، فإنّ صغر الجواهر الفرد إذا لم يمنع من تصوّره وفرض وجوده وتأسيس المباني العلميّة، فكيف لا يمكن أن تتصوّر ما هو أكبر بخمسة آلاف مرّة؟ وكيف لا يمكن أن نحقّق وجوده؟

عمانوثيل: إذا أخذنا دقيقة ملح تعادل عشرة آلاف جوهر فرد، ومزجناها في ماء يعادل هذه الدقيقة مائة مرّة، فالى كم دقيقة انقسمت هذه الدقيقة؟

الدكتور: تنقسم إلى مائة دقيقة، كلّ واحدة تعادل مائة جوهر فرد.

عمانوثيل: دقيقة الملح التي تعادل مائة جوهر فرد، قل لي كم جوهر فرد يكون كلورها، وكم جوهر فرد يكون صوديومها، بحساب أنّ النسبة في كلور الملح إلى صوديومه كنسبة خمسة وثلاثين ونصف إلى ثلاثة وعشرين؟

أليس يجب في هذه العمليّة التجريبيّة أن يكون في جواهر الكلور جزء وكسر من جواهره الفردة وفي جواهر الصوديوم جزء وكسر من جواهره الفردة؟

يا حضرة الدكتور، إنّ العلم التجريبي يُبيّن لنا نسبة أجزاء المركّبات بعضها من بعض، والتجارب توضح لنا انقسام الدقائق فيما هو أكثر منها. والتصوّر بهذا النحو من العمليّات المختلفة الأشكال يتكفّل لنا بقسمة كلّ ما تفرضونه جوهراً فرداً إلى الكسور البسيطة والمركّبة، ويُبطل فرض الجواهر الذي لا يتجزّأ، ويحكم بامتناع فرضه. إذا فكيف تقول: إنّ العلم الطبيعي يضطرّ إلى الاعتراف بالجواهر الفردة؟

نعم، يضطرّ إلى الاعتراف بقبول الدقائق للصغر العجيب والانقسام المُدهش، كما قبل في خيوط نسيج العنكبوت، وانقسام قمحة من «الستركنين» في مقدار ألف وسبعمائة وخمسين ألف قمحة من الماء، ومقدار من الفضة في ملايين الملايين من أمثاله من الحامض النتريك.

الشيخ: لا شكّ إنّا نرى في العالم - في حيوانه ونباته وجماده - أنواعاً مختلفة وماهيّات متباينة: منيّ، ودم، ولحم، وعظم، وعصب، وعروق، وأنسجة، وشعر، وصوف،

وريش، إلى غير ذلك من أجزاء الحيوان المختلفة في الماهيات والألوان والخواص. وخشب، وأوراق، وأوراد، وثمار مختلفة الألوان والخواص والماهيات. وحجر مختلف بالألوان والخواص، ورمل، وتراب مختلفة الألوان، ومعادن متباينة الماهيات مختلفة الألوان والخواص، فأسألك أيها الدكتور هنا - لكشف الحقيقة - سوالات ثلاثة:

السؤال الأول: هل الجواهر الفردة لكل من هذه الأنواع كانت من الأزل على صفات النوع وخواصه، فجواهر المنيّ منيّ من الأزل، وجواهر الدم دم، وجواهر اللحم لحم، وهكذا بحيث تكون صفات الجواهر وماهياتها وخواصها متباينة منذ الأزل؟

السؤال الثاني: هل هذه الجواهر منذ الأزل وإلى الأبد هي على ماهية واحدة وصفة واحدة وخاصية واحدة، لم تختلف ولم تتغير لا في الأزل ولا في الأبد، لا في ماهيتها ولا صورتها ولا خواصها؟

السؤال الثالث: هل هذه الجواهر منذ الأزل على ماهية واحدة وصفات واحدة، ولكنها بالحركة وأعمال الطبيعة تتغير ماهياتها وتتبادل صفاتها وخواصها، مثلاً تكون تراباً، ثم تكون نباتاً، ثم يأكله الطير فتكون لحماً، ثم يأكله الإنسان فتكون دماً، ثم تتحول منياً، وهكذا؟

الدكتور: ماذا تُفيدك هذه السؤالات؟ إن أصحابنا يقولون: إن الجواهر لا يلحقها تغير طبيعي ولا كيميائي.

الشيخ: ماذا يقول أصحابك في الجوهر الفرد؟ هل يقولون بأنه يتغير عن كيانه الأزلي وخصائصه الأزلية؟

الدكتور: يقولون: إن لكل جوهر من الجواهر شكلاً ولوناً وثقلاً ونحوها، وإنها تبقى على حالها إلى الأبد، فلا يلحقها تغير طبيعي ولا كيميائي.

الشيخ: هل يقول أصحابك: إن في المادة والعناصر شيئاً موجوداً غير الجواهر الفردة؟

الدكتور: لا، ليس المادة الموجودة والعناصر إلا مجموع من الجواهر الفردة.

الشيخ: أما قولك بأن لكل جوهر من الجواهر شكلاً، فيلزمه الاعتراف بأن الجواهر

الفردة تتجزأ بالقسمة، وهو واضح، فيبطل قولكم: إنّ الجواهر الفردة هو الجزء الذي لا يتجزأ.

وأما قولكم: «إنّ لكلّ منها لوناً وثقلاً ونحوها، وإنّها تبقى على حالها إلى الأبد، فلا يلحقها تغيّر طبيعي ولا كيميائي» فهو معارض بالعلم والوجدان واعترافكم: فإنّ من واضحات العلم والوجدان واعترافات أصحابك أنّ العناصر عند تركيبها تفقد خواصّها الأصليّة، وتكتسب خواصّ أخرى قد لا يكون بينها وبين الخواصّ الأولى علاقة ولا نسبة.

فإنّ الكلور غاز سامّ، والصوديوم جامد سريع الاشتعال بالماء الساخن، ومن تركيبهما يحصل ملح الطعام المصلح، ومن تحليل هذا الملح المصلح يحصل الغاز السامّ والجامد الذي يشتعل. وإنّ روح الملح سامّ للغاية، وكذا الصودا الكاوية، ومن مزجهما وإحماثهما يتولّد الماء والملح، وهو القوام في نفع الإنسان لحياته.

وأمثلة هذا كثيرة، وكلّها تشهد بتغيّر الجواهر عن كيانها الأوّل وكيانها الثاني، وهكذا مهما تواردت عليها الأعمال الكيميائيّة. ودع ما نشاهده من التغيّر بأعمال الطبيعة ممّا لا يحصى، بل عليه جرى ناموس الكون في جميع الآتات.

انظر إلى مادّة نشوء الإنسان وأمثاله من الحيوان في الرحم، سواء قلنا: إنّ تلك المادّة هي منيّ الذكر أو بيضة الأنثى. وتأمل واحسب كم يلحق أجزاء تلك المادّة من التغيّرات، إذ تصير دماً، ولحماً، وعظاماً، ومخاً وعصباً، وأوردة وعروقاً، وعضلات، وجلداً، وشعراً، وصوفاً، وأظفاراً بأوصاف مختلفة وخواصّ مختلفة وألوان متعدّدة.

وانظر إلى غذاء الإنسان والحيوان إذ يتغيّر ويصير جزءً من الحيوان من أحد هذه الأجزاء المذكورة، ثمّ يتحلّل بالتبادل ويتغيّر بتغيّرات أخرى لا تحصى.

ثمّ انظر إلى بيضة الطير حينما ليس فيها إلّا مائع أبيض ومائع أصفر، فإذا بها تنفلق عن طيرٍ له أعضاء مختلفة، وأجزاء متنوّعة، وألوان كثيرة مختلفة تترقى إلى ألوان ريش الطواويس.

وانظر إلى هذه الحيوانات إذ ماتت، كيف تتبدّل أجزاؤها وتتبادل عليها التغيّرات الكثيرة.

وانظر إلى النبات من أوّل نشئه إلى أحوال كبره وورقه وورده وثمرته وبذره وأحوال فنائه، فكم يلحقه من التغيّرات والألوان والطعوم والخاصيّات. وانظر إلى أحوال الأرض وما يتولّد فيها من المعادن والصخور والأحجار، وما يلحقها من التغيّرات التي لا تحصى.

وبالجملة، كلّ ما تشاهده في عالم المادّيّات لا ينفكّ عن لحوق التغيّرات له بكثرة مُدهشة تفوق حدّ الإحصاء، تلك التغيّرات المختلفة الجهات الكثيرة. وعلى قولكم: إنّ عالم المادّيّات عبارة عن مجاميع من الجواهر الفردة، نقول لك: إنّ هذه المجاميع لازال التغيّر يتبادل عليها حالاً بعد حال، فإنّا نشاهد أنّ التغيّر لازال يسلبها كياناً ويكسوها غيره ممّا لم يكن لها، وهكذا وهكذا.

ويقول أصحابك: إنّ قوّة الجذب وقوّة الدفع غريزتان للجواهر الفردة، وإنّ قوّة الجاذبيّة في جواهر الجامدات أشدّ منها في السائلات، وفي السائلات أشدّ منها في الغازات.

ويلزم أن تكون في الجامدات مختلفة أيضاً بمراتب الشدّة، فإنّه لا بدّ من أن تكون قوّة الجاذبيّة في جواهر الحديد أشدّ من قوّة الجاذبيّة في لب السيسبان مثلاً، وهكذا في نسبة بعض الجامدات إلى بعض، وكذا السائلات.

ومن المعلوم أنّ الأعمال الطبيعيّة والكيميائيّة تُحوّل الغازات إلى سائل، وتُحوّل السائل إلى جامد، وتُحوّل الجامد من نوع إلى نوع آخر أشدّ منه جاذبيّةً. وتعمل العكس، وتدور على المادّة بأعمالها في التحويل طرداً وعكساً، حلّاً وتركيباً.

فهل يمكن أن يقال بقاء الكيان الأوّل للجوهر الفرد مع ما يطرأ من التغيّر على قوّته الغريزيّة، هذا التغيّر المدهش بتبادله؟

أيّها الدكتور، إنّ الموجود لا بدّ أن يكون له كيان خاصّ في وجوده، فإذا كان واجب الوجود كان ذلك الكيان واجب الوجود، فلا يمكن إذاً أن يتغيّر ذلك الكيان الواجب، إذاً فالجوهر المتغيّر الكيان لا يكون واجب الوجود.

الدكتور: لماذا لا نقول: إنّ الأثير الأزلي هو واجب الوجود؟

الأثير لا يكون واجب الوجود

الشيخ: الأثير الافتراضي لا يكون واجب الوجود، فإنّ غوستاف لبون يقول: «إنّ الأثير تكاثف في القديم بسبب لا نعرفه فصار مادّة» فالأثير تغيّر كيانه إلى المادّة المتغيّرة على الدوام، فلا يكون واجب الوجود.

وأما على قول طمسّن:

بأنّ الأثير سائل تامّ مألّ للخلاء والجواهر الفردة، أجزاء ذلك السائل تتحرّك فيه بحركات زويعيّة فتحدث منها الصور المتنوّعة.

فنقول: إنّ تلك الجواهر الفردة المتحرّكة التي هي أجزاء الأثير إن كانت أثيراً متحرّكاً، فقد تغيّر كيانه إلى التحرك الزويعي، وتغيّر أيضاً بتغيّر تلك المتحرّكات إلى الصور المتنوّعة بالتغيّر الذي لا يحصى على مدى الدهور.

وإن قلتم: إنّ الأثير تغيّر كيانه فصار جواهر فردة متحرّكة تلحقها التغيّرات التي لا تُحصى.

قلنا: إنّ الذي يتغيّر كيانه لا يكون واجب الوجود.

يا من ينتهي بتعليل الكائنات إلى افتراض الأثير المزعوم، هل عندك طريق في تعليلك لا يستلزم تغيّر كيان الأثير؟ كلاً، لا تجد طريقاً للموجود المادّي لا يكون واجب الوجود، ولا يمكن أن يوقف عليه بالتعليل للموجودات موقفاً علمياً مهما تحرّكت زوايا دعاوي وتسلسلت أنواع المصادر.

الدكتور: هل بقي وجه يمنع من الوقوف بالتعليل على الجواهر الفردة أو الأثير؟

موجد هذا الكون المنتظم عالم بغاياته

الشيخ: إنّ الذين يفترضون الجواهر الفردة أو الأثير يفترضونها عديمة الشعور، والذي يصحّ الوقوف عليه بالتعليل إنّما هو موجد العالم والكائنات، وهذا الموجد الأزلي هو عالم يوجد على الحكمة والغايات المعلومة له.

فإنَّ كلَّ ناظرٍ إلى هذا الكون، يراه في جميع عوالمه وأنواعه وأطواره وأدواره ومواليده منتظماً على نظام فائق متناسب، وحكمة باهرة وغايات كبيرة شريفة. وكلَّ جزء منه - صغيراً كان أو كبيراً - يراه مسخراً للغايات الجليلة، معداً للفوائد الكبيرة، مستعملاً في الآثار الباهرة، جارياً على حكمة فائقة.

وكلّما أمعن النظر وأحسن الجدّ، تجلّت له حسب استعداده من الغايات والحكم ما لم يكن يخطر على باله. وها هو العلم قد صار يكشف كلَّ يوم عن أسرارٍ وغايات لم تكن في الخيال، أسرار وغايات يرتاح لها الشعور، ويعظّمها العلم، ويستزيد منها العالم المجدّ الحرّ.

ألا وإنَّ الوجودان يحكم بأوليات حكومته وبديهيات قضائه، أنّ الموجد لأمثال هذه الأمور التي تهتفت بغاياتها لا يُدّ من أن يكون عالماً بتلك الغايات، قد أوجد موجوداته لأعمال غاياتها ونتائج فوائدها التي نعرف منها ما لا يحصى، ويكشف العلم في كلِّ حين عمّا يبهر العقول بحكمته وعظيم فائدة.

هذه القطع الصوانية التي وجدها الحفريون في جوف الأرض على هيئة فاس ومنشار وسنان، كيف حكم الوجودان من أهل العلم وسائر الناس بأنّها صنعها البشر قبل ألوف من السنين؛ لأجل غاياتها وفوائدها التي كانوا يتصوّرونها؟

وهذه موجودات العالم بأجمعها في جميع أدوارها، مرتبة على نظام الغايات، مستعملة فيها على أتقن الحكمة، كيف لا يحكم الوجودان بأنّها صنع صانع، أنشأها لأعمال غاياتها المعلومة لديه؟

إذا وجدنا مدينة ذات شوارع متوازنة، وبيوت شامخة، وعُرف منظمة، وآلات للضيء، وآلات لتعديل الحرّ والبرد، وطلمبات تقسم الماء بميزان مستقر إلى جميع مساكن البلدة ومعاملها، وطلمبات تجذب فضلة الماء المتكدّر بالعوارض، وتأتي به إلى معمل يصفّيه ويقذف بطلمبا إلى أخرى إلى طلمبات التقسيم، وهكذا، وعلى هذا تدوم دورات الماء.

ووجدنا فيها تلفوناً وتلفرافاً ممدودين بأنّهم الأدوات وأحسن الإلتقان، ومقادير وافرة

من قضبان المغناطيس واللواكب والبراغي، ولقّات من شريط النحاس، وصفائح من الحديد اللين، وبطاريات بكووسها ومزيجها، ومفاتيح وقوابل ورواقم وأواحاً معدنية وأعمدة وشريطاً، وغير ذلك من الأدوات اللازمة.

ووجدنا أيضاً فونوغرافاً يعرّفنا بكلامه، كيف نتكلّم بالتلفون، وكيف نتخاير بالتلغراف، وكيف نركّبهما من أجزائهما، وكيف نصلح خللهما.

ووجدنا كراسي: على كرسيّ منها عدّة نسخ كتب فيها مسائل أصول الهندسة والحساب بخطّ جيّد وإتقان فائق في ترتيبها وأشكالها، متساوية الوضع والكتابة والأشكال.

وعلى كرسيّ آخر عدّة نسخ - كذلك - كتب فيها مسائل الهيئة الجديدة وأشكالها. وعلى كرسيّ آخر عدّة نسخ - كذلك - كتب فيها الفلسفة الطبيعيّة بأبوابها وأشكالها. وعلى كرسيّ آخر عدّة نسخ - كذلك - كتب فيها علم الكيمياء بأبوابه ورسوم أعماله. وعلى كرسيّ آخر عدّة نسخ - كذلك - كتب فيها علم التشريح وفوائد الأعضاء، وأشكال التشريح لكلّ جزء من أجزاء الحيوان منفرداً ومجتمعاً بما له من التشعب والانعطف والاستقامة والاندغام والهيئة، وشرح ذلك بالإشارات والبيان الكافي.

فهل يسمح الوجدان أن تتوّهم أو تحتلّم أنّ هذا كلّه من فعل الطبيعة البكماء بالصدفة العمياء، حصل من مجرّد حركة الجواهر الفردة وتجمّعها على مرور الدهور، فصار مدينةً عامرة وبيوتاً ومعامل وأمكنة وتلفوناً وتلغرافاً وفونوغرافاً وأدواتها وكتباً متعدّدة على ما وصفناه، حصل هذا كلّه من دون صنع صانع ولا تتوسّط شعور ولا قصد غاية؟

هل يشكّ ذو شعور بأنّ هذه التي ذكرناها إنّما هي صنع صانع، صنّعت لأجل غاياتها التي يقدرها صانعها بعلمه.

إذا فهذا العالم المنتظم وموجوداته التي تبهّر العلم والعقل بغاياتها الكبيرة المستعملة فيها، كيف يقال: إنّهُ بتأثير الطبيعة البكماء والصدفة العمياء بلا شعور بغاية ولا حكمة؟! لماذا لا يقال ذلك فيما ذكرناه من القطع الصوائيّة والمدنيّة وما فيها؟!!

كرامة القرآن في حججه، خلق العالم وخلقة الإنسان

يا أصحابنا، وإن القرآن الكريم قد احتج على هذا الأمر بنحو العموم، ووتج العقول على غفلتها وغلبة الأوهام على وجدانياتها، حيث إنها تقضى في الأمور الجزئية الطيفية المستحقة في جنب نظام العالم، وتحكم بوجدانها بأن هذه الأمور الجزئية الحقيرة لا بد من أن يكون وجودها بإيجاد عالم بغاياتها أو جدها لأجل الغايات، ومع ذلك يخادعها الوهم في خلقه العالم الكبير وما فيه من الحكم والغايات.

فقال في الآية الرابعة عشرة من سورة الملك المكية: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ خالق هذا العالم بالنظام العجيب وموجده على الحكمة الباهرة، هل يمكن أن يكون لا يشعر ولا يعلم بغاية خلقه، ولم يوجد لأجل غاياته؟ كلاً.

ولم يكتف في حجته بهذا الإجمال وإن كان كافياً لذوي العقول الحرّة، بل استلفت شعور الإنسان إلى وجود لا يغيب عنه ولا يخفى عليه مهما خفيت الأشياء، ذاك هو خلق الإنسان ونشوؤه، وتناسل نوعه، وآلات نفعه، وخصائص صورته، فقال في الآية الخامسة والسادسة والسابعة من سورة الطارق المكية: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.

وقال في الآية السابعة والستين من سورة مريم المكية: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَكَمْ يَكُ شَيْئًا * متجلبياً بهذا الهيكل الإنساني الجميل الراقي في حسن الخلقة العجيبة والشعور.

وقال في الآية السابعة والثلاثين من سورة القيامة المكية: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَسَقًا * ويستهان به بالاستمنا باليد وجماع اليأس والزانية وفي اللواط.

[والآية] ٣٨: ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ بعد أن كان علقه لا صورة لها إلا صورة الدم، فخلق بأحسن خلقه وأتم صورة، وأحسن نظام يحفظ شخصه، ونظام يحفظ نوعه بأن خلق فيه جهاز التناسل وبقاء النوع بناموس الاجتماع والحنان والألفة التي تقوم بالتناسل والتوالد.

[والآية] ٣٩: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ وجعل لكلّ منهما جهازاً خاصاً يؤدّي وظيفته في التناسل وبقاء النوع، وجعل فيهما ميلاً يضطرهما إلى الاجتماع والاقتراب؛ لكي يسلم جهاز التناسل من الذكر وديعته إلى جهاز التناسل من الأنثى. ثم احتجّ بالآلات الموجودة فيه، التي يعرف عموم البشر عظيم نفعها في الحياة والمجتمع الإنساني، فقال في الآية الثامنة والتاسعة من سورة البلد المكيّة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ فإِنَّه مهما جهل الإنسان بمنافع أعضائه وأجزائه، فإنّه لا يجهل الأعجوبة من منافع العينين في الرؤية، ومنافع اللسان والشفتين في الكلام. وإن اختلف الناس في مبلغ إدراكهم لعجائب هذه الأعضاء، وكان الطبيب والمشرح يدركان ما لا يدركه سائر الناس من العجائب والأسرار الشريفة في خلقه هذه الأعضاء وعظيم نفعها في الحياة.

ثم احتج بمبدأ الإنسان وخلقه وبعض أقسام شعوره الآلي، الذي يدرك كلّ أحدٍ من الناس أنّه الشعور النافع في الحياة والمجتمع الإنساني، فقال في أول سورة الدهر المدنيّة: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ المراد أفراد الإنسان. ومن ذا الذي يقول: لا؟! كلّ أحد يعلم أنّه وبني نوعه قبل مدّة لم يكن شيئاً مذكوراً ومعروفاً يعتنى به.

أين كان الإنسان قبل أن يولد بألف سنة؟ هل كان شيئاً مذكوراً؟ لا، إن أقدم عهده بمبدأ نشأته وامتياز وجوده نزول نطفته من أبيه في الرحم ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^١.

ثم استلقت النظر والتدبّر إلى صورة الإنسان ووجهه وإتقانها، واختلاف تراكيبها التي يعسر إحصاؤها وحدّها، مع قلّة أجزاء الوجه التي هي جبهة وحاجبان وعينان وخدّان وأنف وفم، فقال في سورة الانفطار المكيّة ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فَبِئْسَ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾^٢ بحيث تمتاز من بني نوعك

١. الإنسان (٧٦): ٢.

٢. الانفطار (٨٢): الآية ٦-٨.

على طبق الحكمة التي يقتضيها انتظام النوع الإنساني، فجعل كل واحدٍ خلقاً سوياً معتدلاً التركيب بأجزاء متساوية النوع والعدد.

وقال في الآية الرابعة والستين من سورة المؤمن المكيّة، والآية الثالثة من سورة التغابن المكيّة ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ بالانتظام والإتيان.

فهذه الآيات وغيرها تُقيم الحجّة على الناس بحسب شعورهم المشترك، وتؤكد الحجّة على كل راقٍ في الشعور بحسب رقيّه في التنبّه والعلم.

وقال في الآية الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة من سورة المؤمن المكيّة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ في بدء خلق هذا النوع الكريم ﴿مِنْ سُلْسَلَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ فِي تَنَاسُلٍ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ من جهاز التناسل في الذكر وجهاز التناسل في الأنثى، وكلّ منهما كافٍ في أداء الوظيفة في استقراره وصيانتها في أحواله وأطوار تصويره إلى تمام نشوئه الرحمي ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾. وقال في الآية السابعة والثامنة والتاسعة من سورة السجدة المكيّة ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلْسَلَةٍ * مستخلصة يتكوّن منها الإنسان ﴿مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ مستقذر لا يعتنى به ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

وقال في الآية الثامنة والسبعين من سورة النحل المكيّة: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذا ما يعرفه كل أحد من نعمة الخلقة، فكيف إذا نظر العالم إلى أسرار خلقته، فينظر إلى عظامه التي هي دعائم لبدنه، وحفاظ لأجزائه الشريفة، ومعدلات لوضعه، وأمخال لحركاته، ومرتبات لأوضاعه.

وإلى ما جعل لها من الأغشية، وأوضاع المفاصل والرباطات والغضاريف؛ لحفظ كيانها وارتباطها وإمكان حركاتها.

وإلى الجلد الذي غلّف بدنه، وجمع أوصاله، وحسّن صورته، ووقى به الأنسجة

الغائرة، وأودعه حاسّة اللّمس، وجعل منه البشرة بمنزلة القشرة بوضع محكم، وجعلها سميكة صلبة في الأجزاء المعرّضة للضغط كراحة اليد وأخمص القدم، ورخوة خلويّة فيما بقي.

وجعل «الأدمة» باطن الجلد لدنة في الغاية، متينة في درجة عظيمة في الموافقة لوقاية الأجزاء الباطنة من الآفات، وجعل في الجلد منافذ تقوم بحاجات الإنسان في بقاء شخصه ونوعه.

وجعل في الجلد أيضاً مسامّاً كثيرة جداً؛ لإفراز فضول بدنه وامتصاص مروحات أعضائه.

وجعل العين على كيفيّة وفي محلّ يمكّنها من مجال واسع للبصر، ووضعها في التجويف الحجاجي وقايّة لها من الآفات، واستخدم في وقايتها الحواجب والأجفان والأهداب زيادةً على ما لهذه الأجزاء من الفوائد.

وجعل العين من طبقات ثلاث ومياه ثلاثة:

فالطبقة الأولى: كُرّة مؤلّفة من الصلبة، والقرنيّة من أمامها، والصلبة خمسة أسداس الكُرّة، والقرنيّة سدسها وزاد في تحديب القرنيّة؛ لتكون أقوى على جمع النور، وثقب الصلبة من الخلف؛ لمرور العصب البصري الذي يحمل حسّ البصر إلى الدماغ.

وعند هذا العصب تكون وريقة رقيقة غرباليّة تمرّ من ثقبها خيوط العصب، ويمرّ من أكبر ثقبها الشريان المركزي؛ ليزوّد العين بدورة الدم، وهو مصحوب بوريد لردّ الدم إلى القلب في دورة الدم، ما عدا أوردّة أخرى لإكمال هذه الوظيفة.

وحول الوريقة الغرباليّة ثقب أصغر من الأولى، تمرّ منها الأوعية والأعصاب الهدبيّة. والقرنيّة هي الجزء الشّفاف، ولها طبقات ووريقات وأعصاب وأجزاء يطول شرحها، وتبهر العلم بفوائدها.

والطبقة الثانية مؤلّفة من: المشيميّة إلى الخلف، وهي خمسة أسداس الكُرّة، ومن القرحيّة من الأمام، وهي فاضل عضلي حلقي وراء القرنيّة، في مركزه فتحة كبيرة هي الحدقة سُمّيت قرحيّة؛ لاختلاف لونها بحسب الأشخاص كالسواد والزرقة والشهل،

وجعلت بهذه الألوان لتمتص انتشار النور، وهي والشبكية يتقهما العصب البصري والشرايين والأوردة.

[الطبقة] الثالثة: الشبكية، وهي غشاء عصبي لطيف، قيل: ترسم على وجهه صور الأجسام الخارجة.

وتأمل في الجهاز السمعى والأذن، ظاهرها وباطنها وتركيبها وحكم أجزائها الباهرة، وأجزائها العجيبة المدهشة كالصماخ ووضعه، والدهليز، والطوبة، والعظيمات الثلاثة، والحصى الأذنية، وتية الأذن، والقنوت الهلالية وانتفاخاتها وانعطافاتهما، والقوقعة، وعصي كورتى، والأعصاب السمعية، والشريانات والأوردة.

وانظر في وضع الفم العجيب وأجزائه ووظائفها، والأسنان المرتبة على مقتضى الحاجة، وأحكام وضع الطواحن الفوقائية بأن جعل لكل واحدة منها ثلاث شعب، وانظر إلى عدد الفم وما ذكر لها من الفوائد الباهرة.

وتأمل في الجهاز الهضمي وما فيه من عجائب الحكم وإتقان التراكيب، وتغليف الأحشاء بالبريتون المستقضي لحفظها بسيره وانعطافاته وانعكاساته. وانظر إلى المعدة ووضعها، وما اشتملت عليه من الطبقات والأجربة والغدد والبواب والشرايين والأوردة والأعصاب، لأداء الوظائف والغايات التي أدرك العلم بعضها.

وتأمل في الأبيثيليوم الذي جعل لوقاية الأمعاء بمنزلة البشرة للجلد، وتأمل في الأمعاء وحكمة تركيبها، ووضعها، وانعطافاتهما، وانقسامها، وصمّاماتها، واختصاص كلّ منها بصمّام يحبس ما فيه إلى أن يؤدّي ذلك المعاء وظيفته من الهضم وغيره، ثمّ يقذفه إلى غيره.

فمنها المعاء الدقيق المتصل بالمعدة بواسطة البواب، والمتلفف المشتعل على الطبقات والشرايين والأوردة والأعصاب والغدد والأوعية الرواضع الليمفاوية اللبنيّة. قيل: وفيه يجتمع الكيموس وعصارة البنكرياس وإفراز الغدد المعوية، وفيه ينفصل بعض الموادّ الغذائية وهي الكيلوس عن الموادّ الثقيلة.

وينقسم إلى الاثني عشري، وهو أوسع أقسام المعاء الدقيق وأكثرها ثباتاً، وبعده

الصائم: وهو أوسع من القسم الذي بعده وجدرانه أغلظ، ويسمى صائماً؛ لأنه يوجد في الغالب خالياً.

وبعد اللفائفي، وهو أضيّق وأرقّ، وينتهي بابتداء المعاء الغليظ الممتاز بغلظه وتثبت وضعه وشكله المعقّد وحزمه المتكفّلة بأعمال كبيرة في الضغط والهضم والدفع.

وينقسم الغليظ أيضاً إلى الأعور، وهو جراب في مبتدئه، وتأمل في وضعه وسعته وصمّامه الذي يمنع سيل ما فيه إلى اللفائفي ولا يمنع السيل من غيره إليه.

وبعد القولون، وهو محيط بالمعاء الدقيق، وصاعد من ابتدائه عند ملتقاه مع اللفائفي والأعور، ثمّ يستعرض في البطن من اليمين إلى اليسار، ثمّ ينزل في المراق

الأسير، ثمّ يتعرّج وينتهي بالمستقيم الذي هو الجزء الأخير منه.

ومن فوائد الغليظ هضم الطعام الذي ضعف عن هضمه المعاء الدقيق، واستخلاص

ما بقي من الموادّ الغذائيّة منه.

ومهما أدرك العلم وفحص التشريح من فوائد هذا الجهاز العجيب وفوائد أجزائه وأوضاعه وأعماله العجيبة، فإنّه قليل من كثير، وهو مع ذلك يوقف الناظر موقف البصيرة، ويُعرّفه آيات الحكمة الباهرة.

وتأمل في الدماغ والنخاع المسمّى بالهبل الشوكي، القائمين بأمر كبيرة في الحياة

والشعور، كيف قد رُوعي ضعف جوهرهما عن الصدمات، فجُعلا في المحافظ المتينة والعظام القوية، وغشيا بالأُمّ الحنونة والعنكبوتية والأُمّ الجاقّة. ولأجل حاجتهما إلى

القوى والتغذية وإفراز الفضول قد أخذنا نصيبهما من الدورة الدموية، ووصلت عامّة أجزائهما بما يحتاجان إليه من الشرايين والأوردة والأوعية والأعصاب.

وتأمل في القلب وانقسامه إلى بطين أيمن وبطين أيسر وأذين أيمن وأذين أيسر،

وإلى دوامه على الانبساط والانقباض. وانظر إلى هذه الأجزاء الأربعة للقلب مع

صمّاماتها والشرايين والأوردة وصمّاماتها، وكيف يتألّف بواسطة ذاك الانبساط

والانقباض طلّبات سحب وطلّبات ضغط تدبّر الدورة الدموية، فتكون الصمّامات

بمنزلة مصاريع الطلمبا على ناموس مصاريع طلمبا السحب ومصاريع طلمبا الضغط.

وانظر إلى الشرايين وانبعث جذعها من البطين الأيسر للقلب، وكيف تتشعب من جذعها إلى عامة أجزاء البدن كتشعب الشجرة إلى الأغصان الكثيرة، وأنّ موقع السطحيّة منها وما هو قريب من السطحي يكون غالباً في المواطن المحميّة كجهات الانتشاء في الأطراف. ومن فوائدها أنّها تحمل الدم الصالح من البطين الأيسر للقلب بواسطة جذعها وضغط البطين بانقباضه، وتوصله إلى عامة أجزاء البدن. وانظر إلى صمّات الشرايين وفوائدها، التي منها موازنة الدم في قنوات الشرايين ليؤدّي الوظائف المطلوبة.

وانظر إلى تفمّم الشرايين، وهو أنّ جميع أغصانها وفروعها تتواصل فيما بينها بقنوات عرضيّة شريانيّة؛ لكي تقوم هذه التفمّمات بالوظيفة الشريانيّة في إيصال الدورة الدمويّة وغيرها من مغذّيات البدن وقواه، عندما يعرض لبعض أجزاء الفروع الشريانيّة من السدد والاختناق وشدّ الجرحّاحين أو قطعهم للشريان وغير ذلك. وانظر إلى سير الشرايين، فإنّه في الغالب مستقيم، لكنّه قد يتعرّج لموافقة حركة الأجزاء كالشريان الوجهي والشفويّني، وكذا الشرايين الرحيمة؛ رعايةً لكبره عند الحمل. وانظر إلى جعل الشرايين كنزّة البناء متينة مرنة؛ لكي تقوى على الدم المدفوع بالضغط، وتقبل الاتّساع عند زيادته أو عروض مزيج له. وهي أيضاً قنويّة الوضع لا تنخفض كالأوردة إذا خلت، ومتحرّكة دائماً نابضة بالانبساط والانقباض. والمظنون أنّ كلّ قناة بين صمّامين تكون بانبساطها طلبها جذب من التي قبلها من جانب القلب، وطلبها ضغط للقناة التي بعدها، وهذا يكشف عن أهميّة حملها في الحياة. وربما يكون منه التسيّم اللطيف المسمّى أوكسجين الهواء؛ لكي تحظى جميع أجزاء البدن بزيارته وتحيّته بترويح. وربما تكون لحركتها فوائد أخر لم يصل إليها العلم بعد، كما أنّه لا سبيل إلى حصر حملها الحيوي بمادّة أو موادّ معيّنة. وقد رئي للشرايين العظيمة أوعية دمويّة تسمّى أوعية الأوعية، وهي شرايين تبعد عن نقطة توزيعها، ولها أيضاً أوردة تأخذ منها الدم الوريدي إلى الأوردة المرافقة لها، ولها أعصاب تؤدّي الوظائف العصبيّة.

وانظر إلى الأوردة التي هي أغلظ وأكثر عدداً من الشرايين، وهي أيضاً متشعبة في عامة أجزاء البدن تشعب الأغصان من جذعها المتصل بالبطين الأيمن من القلب. ومن فوائدها أنها تجمع الدم من جميع أجزاء البدن وترجع به إلى البطين الأيمن من القلب، ومن سير الدم في الشرايين ورجوعه في الأوردة تكون الدورة العامة للدم.

وانظر إلى الأوعية الليمفاوية وانتشارها في الجسد، وخصاماتها المانعة لسائلها عن التقهقر، أو لأن تجعل السائل متوازناً في أوعيته؛ لكي تتوازن أعماله، أو لأن تقوم بعمل آخر.

وانظر إلى تفتّماتها ووضعها؛ لكي تقوم بغاية التفمّم الجارية في الشرايين والأوردة. وانظر أيضاً فيما ذكر لها من الفوائد من امتصاصها الكيلوس والمواد السائلة -ليمفا- وحمل ذلك السائل الصالح أخيراً إلى الدورة الدموية. وإلى الآن لم يشخص العلم حقيقة هذا السائل؛ لكي يعرف مقدار أثره في الحياة وحقيقته، وإن لفظ «ليمفا» بمعنى سائل. وتأمل في وظيفة الرئة ودوام حركتها بالانقباض والانبساط وفي أوردتها وشرايينها، فإن الشريان الرئوي يخرج من البطين الأيمن للقلب، فيحمل منه الدم الأسود الوريدي الراجع إليه من أجزاء البدن في الدورة الدموية العامة، وينقله بفروعه وأغصانه إلى الرئة، فتصفّيه وتطهره من العناصر الضارة، وتمدّه بما يلزم لقيام الحياة وتحولّه إلى دم أحمر شرياني، فيأخذه الوريد الرئوي ويوصله دماً صالحاً إلى البطين الأيسر مبدأ الدورة العامة، وهكذا في كلّ دورة.

وقيل في تصفية الدم في الرئة وإمداده بالمواد الحيويّة: إنّ الدم يأخذ من التنفّس الداخل أو كسجين الهواء، ويفرز الموادّ الضارة أو الكربون فتخرج بالتنفّس الخارج.

وانظر إلى الكبد وأجزائها، ورباطاتها، وأعصابها، وشريانها وفروعه، والوريد البابي والوريد الكبدي وفروعهما، والقناة الكبديّة والأوعية الليمفاويّة، وفي وظيفة الكبد في إفراز الصفراء من الدم وإرسالها إلى الحوصلة المراريّة.

وإلى ما قيل من أنّ الشريان الكبدي يحمل الدم الشرياني للكبد لأجل تغذيته، والوريد البابي يحمل الدم الممزوج بالصفراء لكي تصفّيه الكبد، والوريد الكبدي يحمل

الدم الصافي من الصفراء إلى القلب، فيكون الكبد قائماً بوظيفة دورة دموية صغرى لأجل تصفية الدم، كما في الدورة الرئوية.

أو كما قيل في الطب القديم من أنّ الكبد محلّ هضم الكيلوس، وتمييز الأخلاط منه بعضها عن بعض، وتقسيمها على مجاريها ومعادنها حسب وظائفها في قوام الحياة. وما عسى أن يقال في الأوعية البولية، وآلات التناسل، والأعصاب، والأغشية، والغدد، والعضلات، والرباطات، والغضاريف، ومواقع ملتقى العظام، وأوضاعها الموزونة بالحكمة، وأعمالها المدهشة وغاياتها العجيبة.

ولا يخفى أنّ الذي أدركه علماء الطبّ والتشريح من فوائد أجزاء الحيوان وغاياتها في الحياة من كثرة سعيهم، إنّما هو قليل من كثير خفي عليهم. ولا زال العلم يجدّ في استكشاف الحقائق المجهولة، فيتجلّى له منها تدرجاً ما يتهدج به ارتباحاً.

ثمّ انظر إلى أجزاء الحيوان على اختلافه، وامتيازاتها التي يقتضيها وضع الحيوان وحاجاته وما يراد منه.

فهل يكون هذا كلّه بلا موجد يعلم بالغايات؟ الغايات الكبيرة الشريفة التي أدرك العلم بعضها وذكرنا يسيراً من ذلك.

هل يسمح الوجدان بأن يقال: إنّ هذا كلّه من الصدفة العمياء والطبيعة البكماء؟ وكيف يغيب عن الشعور ما ذكر في صحيفة ٢٧١ وقد بنى القرآن الكريم احتجابه في الإلهية على هذه المقدّمة الفطرية البديهية التي عليها عمل البشر في جميع أدارهم وأحوالهم، فويخ ذوي الأغراض على تغافلهم عن هذا الأمر الذي جعلناه في صحيفة ٢٧١ المقدّمة الأولى، فقال من جملة ذلك في سورة الملك المكيّة: «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ» كما ذكرناه في صحيفة ٣١١.

أما إنّه لو سمح القصور بهذا القول للمغفل الغبي الجاهل، فإنّ العلم والشعور الحرّ لا يسمحان به للعالم والعارف والطبيب والمشرّح الملتفتين إلى عجائب أجزاء الحيوان وغاياتها الشريفة المدهشة بعناية حكمتها.

رمزي: إنّ جملة من أجزاء الحيوان لا فائدة فيها ولا غاية، وذلك كالغدة الدرقيّة، والزوائد الدوديّة، والغدد الوحيدة في سطح الأمعاء، بل إنّ الغدة الدرقيّة والزوائد الدوديّة معرض للأمراض المهلكة.

عمانوئيل: يا صاحبنا يا رمزي، هذا الدكتور المتقدّم في الطبّ والتشريح لماذا لم يقل مثل ما تقول؟ ولماذا لم يجعل مثل قولك اعتراضاً علينا أو تشكيكاً في مقصدنا؟ فإنّه لا بُدّ من أن يكون سمع ما تكلمت أنت به أو رآه مكتوباً كما رأيته أنت. ألا تعرف أنّ شرف علمه يمنعه من أن يعترض بمثل اعتراضك؟ من أين علمت أنّ الغدد الوحيدة لا فائدة لها ولا غاية في وجودها؟ هل أعلمتك بذلك الطبيعة البكماء؟ هل أنت حينما كنت جنيناً في بطن أمك رصدت الغدد الوحيدة في أمعائها، وراقبت أحوالها بمهارة العلم وجودة الفحص وعلوّ الفطنة، فكشف لك العلم الصحيح والتجربة عن أنّ الغدد الوحيدة لا غاية لوجودها ولا فائدة حتّى في حفظ جوهر المعاء أو مساعدته في أعماله؟ وهل جرى لك مثل ذلك مع الغدة الدرقيّة؟

لا يا صاحبي، لا ينبغي أن نجعل جهلنا بالفائدة والغاية دليلاً علمياً على عدمها. هب أننا حالاً لا نخجل من أجل ذلك من العلم، ولكننا نندم كثيراً إذا قيل لنا: إنّ الدكتور فلاناً انتزع الغدة الدرقيّة من جملة من المصابين بمرض الجواتر فوقعوا بالبلالاهة التامة، حيث يكشف لنا العلم عن أنّ الغدة الدرقيّة لها المداخلة الكبيرة في حفظ الشعور واستقامته، بل إنّ كبرها في الأنتى عند الحمل يكشف عن أنّ لها مداخلة كبيرة في امتصاص الموادّ العفنة ومنعها عن التصاعد إلى الدماغ.

وأما ظهور الأمراض الشديدة فيها، فإنّه يكشف عن أنّ لها عملاً كبيراً في حبس الموادّ الضارّة عن الوصول إلى الأعضاء الشريفة. ولكن تلك الموادّ قد تزيد على ما للغة من القوّة النوعيّة، فيظهر المرض كما هو السنت في جميع الأعضاء، فانظر إلى القولون والرئة، وبمثل هذا يجري الكلام في الزوائد الدوديّة.

ثمّ يا رمزي، إنّ الذي ذكرناه من الأجزاء وعجائب غاياتها، ليكفي الوجدان الحرّ في حكمه بأنّ موجدها أو جدّها لأجل تلك الغايات التي كان يعلمها. وهب أنّه توجد

أجزاء لا غاية لها كما تقوله أنت، فغاية ما يدلّ ذلك على أنّ الموجد قد يخالف الحكمة ويوجد أشياء لا فائدة لها، إذا رضي لنا شرف العلم والأدب أن نقول: إنّ هذا العضو لا فائدة فيه، وهيهات.

رمزي: إنّ هذه الغايات المذكورة في كلام الشيخ هي التي أوجدت الموجودات التي تحصل الغايات منها، فإنّ الرؤية هي التي أوجدت العين التي تحصل منها على ناموسها وأجزائها، والسمع هو الذي أوجد الأذن التي يحصل منها، والشعور هو الذي أوجد الدماغ الذي يحصل منه، وكلّ غاية هي التي أوجدت العضو التي تحصل منه، وحياة الشخص هي التي أوجدت الأجزاء الحيويّة لذلك الشخص. إذأ فما هي الحاجة إلى موجد آخر عالم بالغايات المذكورة يوجد الموجودات لأجل غاياتها؟

عمانوييل: قد سمعنا هذا الكلام عن بعض الصحف العصريّة كما رأيته أنت، ولكن أليس لنا في حقوق الشعور والخطاب أن نسألك عن المعنى الذي فهمته أنت من هذا الكلام واعتمدت عليه في كلامك، فهل تقول: إنّ هذه الغايات صار علم الموجد بها داعياً له لإيجاد الموجودات التي تحصل منها الغاية؟ كما أنّ تصوّر النجار للجلوس على الكرسيّ يكون داعياً له لأن يصنع الكرسيّ، وبهذا الاعتبار تتسامح وتقول: إنّ الجلوس التصوريّ أوجد الكرسيّ، بمعنى أنّه صار داعياً للنجار الذي هو الموجد الحقيقي للكرسيّ.

أو تقول: إنّ هذه الغايات هي الموجدة الحقيقيّة والفاعلة للإيجاد، فلا موجد سواها ولا علّة فاعليّة غيرها.

يا صاحبنا يا رمزي، إنّ القول الأوّل هو عين قول الإلهيّين بأنّ الموجد للموجودات أوجدها لداعي علمه بغاياتها وحكمتها. وأمّا القول الثاني فهو قول غير معقول.

يا صاحبنا، إنّ الغايات التي تذكرها هي أعدام محضّة قبل وجود الأجزاء التي تحصل عنها، فهل يقول ذو شعور بأنّ العدم والمعدوم يكون موجداً وعلّة فاعلة للإيجاد؟ هل يقول أحد: إنّ المعدوم يكون موجداً حقيقياً للموجود؟

أنت تقول: إن الغايات تحصل بالأجزاء، فكيف تكون موجدة وعلّة فاعليّة للأجزاء؟ أعيّد سؤالي عليك وأقول: لماذا لم يتكلّم الدكتور بمثل كلامك مع أنّه هو المترشّح لمكالمة الشيخ؟ أتدري لماذا؟ لأنّ له علماً وشعوراً يميّز بهما ما يكتب في الصحف.

ومن حجج القرآن الكريم

الشيخ: وقال الله تعالى تأكيداً للحجّة وقطعاً للمعاذير في الآية الثالثة من سورة الجاثية المكيّة: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالحقائق المتجليّة، لا يغالط إيمانهم بها غمزات العصبيّة وفتنات التقليد الأعمى، ومكابرة الوجدان الحرّ بعبوديّة الهوى وشكوك الوسواس.

فترى هؤلاء يهتدون بنور عقولهم ووجدانهم الحرّ في العرفان، كما يهتدون بذلك في سائر الأمور ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أيها الناس، وما فيه ما عجائب الغايات وإتقان للصنع وبدائع الحكمة الباهرة - كما ذكرنا - وذكر العلم منه قليلاً من كثير ﴿وَمَا يَبُتُّ مِن دَابَّةٍ ءَأَيْتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ على نهج مستقيم في الاهتداء بأسباب اليقين ودلائل العلم، فلا تراهم يصرفهم الهوى عن اليقين مع وضوح الحجّة، أو يلوي أفكارهم إلى زخارف الأوهام. وفي الآية السادسة من سورة يونس المكيّة ﴿إِنَّ فِي أُخْتُلُفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ وبالجمود الأعمى، ونقائص الجهل المركّب، ورذيلة اتّباع الأهواء، ومكابرة الحجّة الواضحة والوجدان الحرّ، ومضارّ الانحراف عن النهج الواضح، وهلكة الوقوع في تيه الضلال.

لا حاجة لنا في أن نهض الهيئة الجديدة بأن نقول: إنّ السماوات أفلاك تامّة منصّدة في غاية اللطافة والشقافيّة، بحيث لا تحجب عن النظر شيئاً.

ولا حاجة لنا أيضاً في المطالبة بالحجّة الكافية على أنّه ليس هناك أفلاك موجودة وسماوات منصّدة، وأنّه ليس الموجود إلاّ أجرام الكواكب تدور سيّاراتها في الفضاء، ويستقرّ مركز ثوابتها في الفضاء.

ولا تحسب إنّنا نعلم على الهيئة القديمة وما خيلته من دعاوى الأبعاد والأجرام

والأفلاك الجزئية، فإنَّ حجةَ القرآن الكريم لا مساس لها بشيء من ذلك، بل يمكن أن تُجاري الهيئة الجديدة ونقول: إنَّ المراد من السماوات: مراتب العلوِّ المحددة بمدارات السيَّارات.

وكيف كانت الحقيقة فانظر إلى ما في السماوات من الكواكب العجيبة: من ثابتة في مركزها، وسائرة في مداراتها على نظمات مستمرة. هذه الثوابت لماذا لم تعمل بها جاذبيَّة؟ وبماذا لزم كلُّ كوكب مركزه؟

ولنتكلَّم على وفق الهيئة الجديدة، فانظر إلى حركة أرضنا وسيرها على منطقة البروج بمدار بيضي، أبعده عن الشمس يكون عند السرطان في نصف الكرة الأرضية الشمالي، وأقربها عند الجدي في النصف الجنوبي.

وإن أردت أن تلتفت إلى ما في هذا الوضع من الغاية العجيبة والحكمة الباهرة في التعديل، وموازنة الحرِّ والبرد والقرب والبعد من الشمس بحسب اليابسة المسكونة، فاعرف أن أقصى وصول اليابسة من أرضنا في جهة الجنوب إنما هو رأس القرن من أمريكا الجنوبيَّة، وهو لا يزيد على الدرجة الخامسة والخمسين من العرض الجنوبي مع قلة المسافة فيما بين المشرق والمغرب وقلة الساكنين.

واعرف أن اليابسة المسكونة من آسيا وأوربَّا وأمريكا الشماليَّة تمتد إلى نحو الدرجة الثمانين من العرض الشمالي، مع كثرة المسافة جداً فيما بين المشرق والمغرب وكثرة الساكنين، فالنصف الشمالي إن قرب من الشمس من حيث البروج بُعد عنها من حيث المدار البيضي وإن بُعد عنها من حيث البروج قرب منها من حيث المدار البيضي، كل ذلك مراعاة لأهميَّة العمران في القسم الشمالي الواسع بحسن التعديل والموازنة.

ثم انظر إلى دور الأرض على الشمس على منطقة البروج وحركتها اليومية على نفسها، فكم ترى في ذلك من الغايات الكبيرة في موازنة الآثار، وتعديل العمران، وتوزيع المنافع، وأخذ كلِّ جزء من الأرض حظَّه من النور بناموس مقدَّر على الدوام، وتعديل الحرارة والبرودة، وتنفس الاستراحة، واستنشاق النسيم الخالص، وموازنة الزمان، وحفظ التاريخ.

وانظر إلى قمر أرضنا كيف تبع الأرض في دورها على الشمس، واستقلّ بمداره على الأرض مائلاً متحائداً عن منطقة البروج بهيئة مقدّرة وحركة متوازنة. وانظر إلى ما في ذلك من الغايات الكبيرة التي منها جعل تأريخ شهري يعرفه العموم، وتوقيت تجريبي للناس في ليالي الشهر بحسب الطلوع والغروب والعلوّ والانخفاض، ودليل هاد في غمرات البحار وفلوات البوادي. ومنها موازنة تأثيراته ونوره الضعيف في المسكون، ومنها تقليل اتّفاق الخسوف والكسوف، ولولا ذلك الميل لوقع الخسوف والكسوف في كلّ شهر.

ولينظر الفلكيّون المكتشفون لأقمار المريخ والمشتري وزحل، ويعتبروا بالحكمة التي راعت أبعادها عن الشمس، فمنحتها بالأقمار التي تعكس إليها نور الشمس، فتزيّن لياليها بهجة النور وبهائه وكبير نفعه وعظيم أثره.

وقد وازنت الأقمار على الأبعاد فجعلت لأرضنا قمراً واحداً، وللمريخ الزائد على أرضنا بالبعد جعلت قمريّن، وللمشتري الزائد على المريخ بالبعد جعلت أربعة أقمار، ولزحل الزائد على المشتري بالبعد جعلت ثمانية أقمار أو أكثر. فإله من عطاء يُراعي الحاجة ويجري على الحكمة.

هذا ما يعرف من غايات الصنع ومواقع الحكمة في العالم العلوي البعيد عنّا.

النظام الأرضي وعجائب غاياته

وهلّم إلى النظام الأرضي، وانظر إلى ما فيه من الغايات الكبيرة والعجائب الباهرة، التي لا تخضع إلا إلى سلطان القدرة ومواقع الحكمة.

البحار وعجائب غاياتها

وانظر أولاً إلى البحار وبديع التصرف بها بنحو يسهر العقول، إذ جعلت بحيث لا يعثرها التعفّن ولا التغيّر بالموثّرات، كما يتغيّر الماء المحقون ويتعفّن في أيّام يسيرة. وناهيك به مخزناً للماء الذي به تقوم حياة الحيوان والنبات، حيث جعلتها الحكمة

تسقي جميع المسكونة بالأمطار والثلوج، وبالقنوت المندفعة بالقوة إلى العوالي من الهضاب ورؤوس الجبال، فتنبت عيوناً تجري منها الأنهار بعد أن تحيلها العناية في الأمطار والثلوج والعيون مياهاً عذبة سائغة، تقوم بتربية الإرواء والأمد بالقوة كالأمّ الحنون.

وناهيك بها مُلطفاً للهواء، ومُعدلاً للحرارة، وجادة تُسهّل المواصلات السفريّة ونقل الأحمال الثقيلة.

وانظر إلى عجيبة المدّ والجزر في البحار، وإن كنا لا يظهر لنا من فوائدها إلا حفظ كيان الموانئ والمرافئ ممّا يترامك فيها على طول الزمان بالجاذبيّة وقذائف الأمواج. وأعجب من ذلك أنّ المدّ والجزر - السائدين على عموم البحار - لا سيادة لهما على البحر الأبيض المتوسط - بحر الروم - الممتدّ من بوغاز جبل طارق إلى بوغاز القسطنطينيّة، ولا على البحر الأسود الممتدّ من فوق باطوم إلى البوسفور، ولا على البحر البaltيك ممّا بين فرانسه وكريتلاندا إلى سويدن وفينلند، مع اتّصال هذه الأبحر الثلاثة بالمحيط، بل إنّ البaltيك لا يمتاز عن المحيط الا لتلتيك بمضيق وبوغاز يحده. أفلا تعجب من البحر الأبيض المتوسط إذ يجري فيه تيّار كبير من بوغاز جبل طارق على الدوام، ويجري إليه البوسفور من البحر الأسود، ومع ذلك لا تجد لمائه زيادة.

فهل أنت تقول كغيرك: إنّ ما يجري فيه يخسر مثله بالتبخير؟ أفلا تدري أنّ جاره البحر الأسود يفقد هذه المزايم ويوبّخها بالنقد إذ يقول بلسان حاله: أنا جاره وتبخيري مثل تبخيره، وأمطار مياهي مثل أمطاره، ولا مدد لي من تيار ونحوه، بل إنّني دائم الجريان على البحر الأبيض، فماذا يجبر خسراني؟! هل ظهر عليّ النقص؟ إنّ فوق أوهاكم تدبيراً، ووراء الطبيعة البكماء حكمةً.

وانظر إلى بحر الا لتلتيك، وهو ما كان غربيّه أمريكا، وشرقيّه أوربا وأفريقيا، وربّما يبلغ عرضه أربعة آلاف ميل. وانظر إلى استقامة الرياح فيه ولزومها لمهَبّ مستقيم، فهو فيما بين الدرجة الثلاثين من العرض الشمالي ومثلها من الجنوبي، تكون رياحه

مشخصّة معلومة، ففي شمالي خطّ الاستواء تكون ما بين الشمال والمشرق، وفي جنوبيه ما بين الجنوب والمشرق، وفيما يقرب من خطّ الاستواء تكون من المشرق. وانظر إلى المحيط الباسفيك، وهو المحيط الحليم الهادي، وهو ما تكون أمريكا في شرقه، وآسيا وأستراليا في غربه، ويمتدّ من نحو الدرجة السادسة والسّتين من العرض الشمالي إلى الثامنة والخمسين من العرض الجنوبي.

وهو على هذه السعة غالب الهدوء والسكون واستقامة الريح، حتّى قيل: إنّ السفن لا تحتاج فيه إلى تغيير وضع الشراع، وما تاهت فيه سفينة ولا تضررت. فكانّ العناية لحظت طرق المواصلّة بين أمريكا والقارّات في الشرق والغرب في الباسفيك والاتلنطيك، فرفعت في لبح هذه البحار العظيمة أخطار العواصف والزوابع. وانظر إلى تيّارات البحار التي لم يحص العلم عددها وشعبها ومواقع سيرها والتقاءها ورجوعها، وإتّما ذكر منها ما بلغه الاكتشاف المتشّبت.

فمن ذلك التيّار الاستوائي في البحر الهادئ، الذي يخرج من شواطئ أمريكا الجنوبيّة فيما بين مملكتي بيرو وشيلي جنوبي خطّ الاستواء، ويسير بنحو الاعتدال إلى الغرب إلى نحو جزائر ماليزا الواقعة في شمالي أستراليا، ويخرج منه عند أوّل الجزائر فرعان:

أحدهما يسير إلى الشمال الشرقي موازياً لجزائر اليابان، وما بعدها من آسيا إلى بوغاز - بهرنج - في أوّل المنقطعة الباردة في طول ١٧٤ غربي باريس تقريباً. والفرع الثاني يتوجّه إلى الجنوب نحو زيلاندا الجديدة إلى المنقطعة الباردة، ومن ذلك التيّار الأتلنطيكّي الخارج من سواحل أفريقيا الاستوائيّة من خليج غينا. فيسير بنحو الاعتدال إلى نحو رأس سان روك من أمريكا الجنوبيّة، فتسير شعبة منه إلى الجنوب مع شواطئ أمريكا الجنوبيّة إلى طرفها تقريباً فيما دون الدرجة السّتين من العرض الجنوبي، وترجع من هذه الشعبة شعبة إلى رأس الرجاء الصالح، ثمّ تميل إلى الشمال إلى خليج غينا، ويرافقه في طريقه الشمالي بينه وبين الشاطئ شعبة من التيّار البارد الجنوبي.

وتسير الشعبة الأخرى من نحو سان روك أيضاً، مائلة إلى الشمال الغربي إلى جزائر انتيله في خليج المكسيك، وهناك يقوى التيار فيسمى بالتيار الخليجي، ويسير محاذياً لشطوط الولايات المتحدة، مائلاً إلى الشمالي الشرقي إلى شواطئ الأرض الجديدة قرب الدرجة الخمسين من العرض الشمالي.

وهناك يندفع بعضه في تيار قطبي وبعض يتوجّه إلى الشرق، فتسير شعبة في البالتيك مارةً على سواحل كرينلاندا و ايسلاندا وانكلترا ونروج، وشعبة تسير مع شاطئ البرتغال إلى شاطئ أفريقيا، ويدخل البحر المتوسط من بوغاز جبل طارق شعبة منه، وهناك شعب أخرى من التيارات الاستوائية.

ومن التيارات: التيارات القطبية التي تحمل الماء البارد إلى المناطق المعتدلة والحارة.

ألا تنظر إلى الغايات الكبيرة والحكمة الباهرة في هذه التيارات؟!

لا ترى أن العناية بالغايات قد لحظت السير في أقطار الدنيا لعموم العمران، فشرعت للسائرين جادات منتظمة محدودة دائمة تتكفل بحسن الدلالة وراحة السير وعموم المواصلة، وربط القارات بعضها ببعض، والأمان من أخطار التيه، وغيره؟!

فكأنّ العناية تنادي: يا مَنْ يُريد السفر إلى أميركا، أسلك بسفينتك الجادة المشروعة للدلالة والأمان وهو التيار الذي في خليج غينا، وسر على استقامة الجادة وحدودها إلى رأس سان روك في أميركا.

فإن كنت تريد أميركا الجنوبية، فخذ جادتك الأمانة في الشعبة الجنوبية إلى أيّ شاطئ أردت.

وإن كنت تريد أميركا الشمالية، فخذ جادتك الأمانة في الشعبة الشمالية، فاسلك في الشعبة الموازية لجزائر أنتيله، إن كان قصدك إلى الممالك المتحدة والأرض الجديدة وكندا.

وإن كان قصدك إلى بلاد المكسيك والشواطئ الواقعة على خليج المكسيك، فاسلك في الشعبة الداخلة إلى الخليج، الخارجة ممّا بين كوبا ورأس فلوريدا. وإن كنت تريد الرجوع إلى أفريقيا، فاطلب الشعبة الراجعة إلى غينا.

وإن كنت تريد المسير في الجادة إلى كرينلندا وإيسلاندا وبريطانيا ونروج، فاطلب الشعبة المارة بهذه البلاد.

ويا مَنْ يطلب السفر من أميركا إلى مشارق آسيا، أسلك في الجادة الأمانة من قرب بيرو إلى جزائر ماليزا، وإن كان لك غرض في جزائر اسيا نيكا فأتها على القرب من جادتك، وإن كان لك غرض في زيلاندا الجديدة فسر في الشعبة الجنوبية، وإن كان غرضك في بلاد اليابان أو ما في شمالها من السواحل إلى بوغاز بهرنج فسر في الشعبة الشماليّة، ولك حسن الدلالة والأمان من كثير من الأخطار.

يا أهل الشواطئ الباردة، لكم البشرى بتعديل البرودة بحرارة التيارات الاستوائية المارة بشواطئكم، واستنبتوا بعض النباتات التي لا تنبت فيما يساوي بلادكم في درجة العرض حيث لا تزورها التيارات الاستوائية، واقبلوا زيادة الأخشاب الاستوائية وانتفعوا بها.

ويا سكّان الشواطئ الحارة ويا سالكي البحار، بشراكم بتعديل الحرارة بالتيارات القطبية الباردة. وإن كنتم تعدّون من فوائدها ضغط البخار لكي يتصاعد فينقذ سحاباً مطراً، فاعرفوا شرف هذه الغاية.

ألا وإن اختصاص التيارات بمجاريها من جنوبي خط الاستواء، ولزومها لها ودوامها على حالها، وتشعبها في نقاط مخصوصة، ورجوع بعضها من الغرب إلى الشرق، وذهاب بعضها إلى الجنوب بميله إلى الغرب كالمارّ بشواطئ البرازيل إلى آخر أميركا الجنوبية، وميل بعضها إلى الشمال الشرقيّ كالمارّ من خليج المكسيك إلى الأرض الجديدة، والمارّ من جزائر ماليزا إلى بوغاز بهرنج، ووجود التيارات القطبية المتوجّهة إلى جهة خط الاستواء لا إلى الغرب.

هذا كلّه ممّا يُعرفك الخطأ في الوجوه التي ذكرها لتعليل التيار بأُمور طبيعّية، بحيث لا يقف زيف هذه الوجوه أمام النقد العلمي، على رغم الصدقة العمياء المعشوقة والطبيعة البكماء المحبوبة.

ألا تعجب ممّن يعرض عن البحث عن غاية الكائن، ولا يجد السير في اكتشاف

فوائده النافعة في الحياة وال عمران، ومع ذلك يتفهم إلى أوهامه في تعاليل الصدفة العمياء، فيضطهد شرف الغايات ويصرف عنها الأنظار، لولا بقية روح علمي بقي من تأسيس السلف، يحرك على طلب الفوائد والغايات فيما ينفع البشر.

الأرض اليابسة

وانظر إلى مسكننا الأرض، كيف قد مهد الكثير منها للسكنى والزراعة، واختلفت أوضاع الباقي للقيام بلوازم العمران ودوام الراحة في المسكون وتعديل لوازمه، وكيف جعل تفجر العيون من الأعالي لكي يتهيأ عموم الري، وأمدتها الأمطار لإكمال النفع. أفلا تنظر إلى سيول الأمطار وذوبان الثلوج وجري الأنهار الكبيرة، كم تحمل من الجبال والوهاد في سيلها الجارف من الأطنان والصخور على مرّ الدهور والأحقاب، وتقذفه في البحار على وجه لو أهملت العناية إصلاح هذا الحال وتداركه لاضمحلت الجبال والهضبات وملاّ الطين أعماق البحار والخلجان، فاستولى الماء على المسكون. وها أنت وكلّ الناس تعلمون أنّ الجبال والهضبات والبراري والوديان والبحار والخلجان على حالها منذ زمان يبلغه التأريخ بجهده، وهذه الآية الكبيرة - التي يكفي العاقل فيها أقلّ تنبيه - قد أشار إليها القرآن الكريم واستلقت العقول إلى أعجوبتها وحبّتها بقوله تعالى في سورة الذاريات المكيّة في الآية الثامنة والأربعين: ﴿وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُنْهَدُونَ﴾.

وقوله في الآية الثانية والثلاثين من سورة النازعات المكيّة: ﴿وَأَلْجِبَالَ أَرْسَنَاهَا﴾ وحفظ وضعها ومهاد الأرض بأسباب القدرة وآثار الحكمة ورعاية الغايات بإتقان ماهد، لا تغفل عنايته عن رعاية دوام المهاد ورسوّ الجبال في مراكزها على الناموس الذي تقوم به غايات خلقها ونعمة منافعها، فلا تقوى العوارض والكوارث على تغيير هيئة هذا المهاد وهذه الجبال، بل لا تزال العناية في تعديل وضعهما وحفظ صورتها النافعة.

والمنظون أنّ المستخدم المسخّر في هذا التعديل هي النار السيّارة في جوف

الأرض على الدوام لأداء هذه الوظيفة الكريمة وغيرها من سوق الماء وإصعاده إلى العوالي كرؤوس الجبال وأعالي الهضاب، وتوليد المعادن والصخور والأحجار لتقوم بمنافعها للبشر، وتعديل مياه البحار وحفظ مناسباتها، وتصعيد البخار لأداء منفعه، إلى غير ذلك ممّا لم يدركه العلم بعد.

وانظر كيف جعل لهذه النار السائرة منافذ تخرج منها، وجواذب تعدّل سيرها وتدفع عادية حركتها القويّة عن الأرض. وهذه المنافذ هي منافذ البراكين - جبال النار - وهي فوهات في أعالي كثير من الجبال تخرج منها النار بأحوال عجيبة ترشد إلى الحكمة الباهرة.

ومع ذلك فقد أبت الآيات أثراً للاعتبار وإشارة إلى الموعظة وعظيم المنّة، وذلك أنّ هذه النار السائرة قد تزيد على مجاريها، أو تكثر في مكان لأجل تأدية أعمالها، فتحاول أن تخرج من قشرة الأرض، فتحصل الزلازل الخفيفة أو الهائلة. وربما يتعقّبها الانفجار أو الخسف، وفي ذلك أطف استلفات إلى النعمة العظيمة والغاية الكريمة في خلق جبال النار - البراكين - وسائر الجبال الجاذبة للنار والمثبتة لقشرة الأرض.

وإلى ذلك أشار القرآن الكريم في الآية الخامسة عشرة من سورة النحل المكيّة بقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾، ونحوه في الآية الواحدة والثلاثين من سورة الأنبياء^١ والعاشرة من سورة لقمان المكيّتين^٢.

ولولا هذه الجبال الراسية بالحكمة والمصرفّة للنار، لاستولى الميّدان والزلازل على الأرض.

وانظر إلى أجزاء الأرض وقطعها المتجاورة، فإنّك تراها مختلفة اختلافاً كثيراً، لم تجر على قياس مطرد. فترى في المنطقة الحارّة فيما يقرب من البحار وما يبعد عنها أرضاً طينيّة زراعيّة، وأرضاً صخريّة ناريّة، وصخريّة كلسيّة، وأرضاً رمليّة بينها

١. وهي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

٢. وهي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

طبقات مستحجرة، وترى ذلك في المنطقتين المعتدلتين والمنطقة الباردة الشمالية. وانظر إلى الثمار التي تنبت في أرض واحدة وتسقى من ماء واحد، وهي متساوية في مهبّ النسيم وإشراق الشمس، وتأمل في حكمة اختلافها في الأوضاع والخواص والطعوم واللذات.

احتجاج القرآن الكريم بخلق الأرض وما فيها

وقد جمع القرآن الاحتجاج بهذا كله في سورة الرعد المكيّة في الآية الثالثة والآية الرابعة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْتَفْكِرُونَ﴾ في خصائص هذا الكون وآثاره، فيعرفون دلائل القدرة وآثار الحكمة ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَبَعَرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفُضٍ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لزوم تعليل الحادث وآيات قصد الغايات.

وقد أوضح القرآن ما بلغه سير العلم بعد جهدٍ جهيد، من أن كل ثمرات التوالد ونتاج التوليد الذي يبقى به النوع من الحيوان والنبات، جعل فيها ذكورةً وأنوثة زوجين اثنين للتلقيح وأثمار التناج.

وانظر إلى ما بيث في الدنيا من دابة، وتأمل في عجائب الخلق فيها ومواقع الحكمة. وانظر أقلّ إلى الإبل وتسخيرها لمنافع الإنسان في المفاوز المعطّشة والمسافات البعيدة، تصبر على العطش وتقنع بالحطب.

وانظر إلى الحكمة كيف راعت أحوالها مع الأحمال الثقيلة، ونظرت إلى جسر ظهرها الطويل وضعفه عن معاناة الحمل الثقيل وصدمة ارتجاجات الأحمال وزيادة ثقلها عندما تنهض للقيام وعندما تبرك، فجعل لها السنام؛ لكي تكون كيفية تحميلها على نحو يتوجّه فيه الثقل من الأحمال وارتجاجاتها إلى قوائم يديها ورجليها، فتكون قوائمها هي الدعائم المقاومة للثقل الكثير.

وجعل لها في صدرها ثفنةً تعتمد عليها عند النهوض، وتسهّل تحريك يديها للقيام، وتقي عظام صدرها من ضغط الحمل وثقل ارتجاعه.

وراعت الحكمة طول أعناقها فجعلت تركيبها عمودياً؛ لكي تخفّ وتعين بخطرانها على المشي. وجعلت أخفافها عريضة ليّنة؛ مراعاةً لعلوها وكبر جثتها وثقل أحمالها. وقد استلقت القرآن الكريم أنظار الناس إلى التبصّر بعجائب هذا الحيوان المألوف، وما في خلقته من أنواع الحكمة التي تتساهل بها الألفة، فقال تعالى في سورة الغاشية المكيّة في الآية السابعة عشرة: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فيعرفوا من درس خلقتها مواقع الحكمة.

وأكد الحجّة بقوله تعالى ١٨: ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ سواء قالوا بأنّها طبقات شقافة تتضمّن الكواكب النيرة من سيّارة وثابتة، أو أنّ المراد منها أجرام الكواكب القائمة في مراكزها والسائرة في مداراتها على هذا النظام العجيب.

١٩: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، ٢٠: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ هذه الأشياء التي نصب أعينهم، ألا ينظرون إلى خلقتها وثباتها على مواقع حكمتها وغايات إيجادها. وانظر إلى «الكونغو» أو «الكانكور» الحيوانات ذوات الكيس، كيف قد راعت الحكمة والرأفة ضعف أولادها، حيث يولدون على الحالة الجنينيّة بحيث لا تتحمل الآثار الخارجيّة والحرّ والبرد، فجعلت للأُمّ من جلدها كيساً في أسفل بطنها تحضن أولادها فيه في حال ضعفهم، فهم فيه ورؤوسهم إلى ناحية أذنانها يرتضعون، وهم في مهد تربيتهم أو الرحم الثاني إلى أن ينالوا القوّة.

وانظر إلى السمك الرعاد وعجيب خلقته التي تنادي: أيّها الناس تنبهوا واكتشفوا من هذا الخلق العجيب جهاز التلغراف، الجهاز الكهربائي الذي يشابهه الجهاز الكلفاني، حتّى قيل: إنّ بعضهم عدّ في رعادة كبيرة ١٢٠٠ عمود، وإنّ عدد الصفحات في البطاريّة في نوع ما بين مائتين وخمسين ألف وثلاثمائة ألف و ١٢٠٠ موشور، وبين الصفحات سائل زلالي في المائة تسعون ماء وملح عادي.

ومّا ينبغي أن تستلقت له الأنظار الحرّة أنّنا ذكرنا في الدورة الدمويّة، أنّ الشرايين

في الحيوان المولود تحمل من القلب دماً شريانياً صافياً طاهراً من الفضول يقسم غذاءه على عموم الأعضاء. وإن الأوردة تحمل من الأعضاء دماً وريدياً مخلوطاً بفضول البدن فتؤديه إلى الرئة؛ لكي تطهره من الفضول والمواد الضارة، فيعود إلى القلب فإلى الشرايين، وهكذا.

فذكر لك الآن: أن الحال في الجنين على العكس، حيث إنه يكوّن من ناحية المشيمة مادة غذائه، وإلى ناحيتها مخرج فضوله. فكانت الأوردة تحمل من الوريد السري المشيمي دماً شريانياً طاهراً من الفضول تزود بغذائه أعضاء الجنين، ثم ترجعه الشرايين إلى المشيمة دماً وريدياً حاملاً إليها فضول الجنين بالشريان السري المشيمي، وعلى هذا تجري الدورة ما دام جنيناً، وبمجرد ولادته تنقلب دورة الدم إلى ما ذكرناه أولاً. عجباً، هل يكون هذا التدبير البارِع وجمال الإتقان الرائع من طبيعة بكاء وصدفة عمياء؟ كلّ هذا الذي ذكرناه من عجائب الحكمة والغايات - وهو بالنسبة لما لم نذكره ولا ندركه قطرة من بحر - هل يكون كلّه من فلتات هذه الطبيعة وهذه الصدفة؟

إذا دخلت غاراً صخرياً، ووجدت تجويفه على شكل هندسي، في شيء من الكتابات وشيء من النقوش وشيء من حُسن التخطيط وتنظيم قياس تجويفه، فإن وجدانك لا يسمح بأن يكون ذلك من صدفة الطبيعة، بل تقول: من أين لهذه البكاء وصدفتها هذه الصناعة البارعة المنظومة بسلطان العلم والشعور؟ صانع هذا المكان الجميل مقتدرٌ على الصناعة، عارفٌ بالهندسة والكتابة وحُسن التصوير، راقى الشعور، فله الثناء على صنعه لهذا المنظر البهيج الدالّ على قدرته وعلمه.

يا صاحبي، فأين أنت عن النظر في عجائب هذا العالم، وإتقان غاياته، وجمال حكمته الفائقة ونظامه الباهر؟! وما ذكرنا لك من ذلك إلا قطرة من بحر وقليلاً من كثير، فكيف تسمح بذلك كلّه لطبيعة فاقدة الشعور، ما هي الطبيعة؟ هل هي الفرد أو النوع أو الجنس؟ هل لها وجود غير موجودات العالم؟ أم ليست هي إلا انتزاع وهمي ينتزعها العقل ويفترضها من تماثل الموجودات؟

يا صاحبي، هذه الآلات الصوتية التي ذكرناها صحيفة ٢٦٨، والمدينة التي ذكرنا

مثلها صحيفة ٣١٠ أنها تقصر ولا تقاس بنظام خلقه الحيوان فضلاً عن غيره، وأراك وجميع الناس لا تسمحون بأن تكون من صنع الطبيعة العديمة الشعور وفلتة الصدفة، فكيف تسمحون بأن هذا العالم العظيم العجيب وغاياته الشريفة المنتظمة في دهوره ومواليده كلّه يكون بصدفة الطبيعة البكماء؟!!

ما أعجب حالك وحال أصحابك مع طبيعتكم؛ فتارةً تستحقرونها، ويأبى وجدانكم أن تسمحوا بأن تنسبوا إلى صدفتها واحداً حقيراً ممّا ذكرناه من الآلات الصوانية ومثال المدينة والمغارة وتارةً تفرضون لها وجوداً أصيلاً، وتسمحون لصدفتها بما لا يحصى من عظام العالم في دهوره ومواليده؟!!

أين وجدانكم الذي تحكمون به في أمر القطع الصوانية ومثال المدينة والمغارة؟ ما أقوى يد تغمض عيون الوجدان في شأن العالم وصنعه؟! أيّ يدٍ مبرقة هذه؟ ماذا يعينها وبأيّ نشاط تعمل أعمالها؟ ما أعجب هذه اليد المبرقة، قد شابكت يد العلم فلوحتها، وغطّت على عين الوجدان فأسقطت حسّها؟! لم يكن في الحساب أن بذر ابيقورس للاستراحة الشهوانية ينمو هذا النموّ في الأذهان مهما دملتها الأهواء بشهوانيتها. لا أخال لسانك يستطيع أن يقول كما يقوله بعض الشهوانيين العديمي العلم والشعور، والذين لا بضاعة لهم ولا حجة إلاّ تبسّم الاستهزاء وقولهم أين صانع العالم العليم الحكيم، هل هو في آسيا أو أوربّا أو أفريقيا أو أميركا، وفي أيّ بلدٍ هو، إنّا لا نراه بأعيننا، ولا نلمسه بأيدينا، ولا نسمع له صوتاً؟

ألا تقول لهم: قولوا ما هي الطبيعة؟ وأين هي؟ ولا تطالبكم ببيان وجودها الحقيقي الفعّال في الموجودات وإعطائها الوجود الأصيل الحقيقي.

أين رأيتم الجواهر الفردة؟ ولا نعارضكم بامتناع فرضها. كيف رأيتم مداراتها؟ وإلى أيّ جهة كانت تدور؟ وما هو مقدار حركتها في السرعة؟ أين عصفت عليكم زوابع الأثير؟ وأين رأيتم الأثير؟ وكيف وجدتموه؟ لا تطالبكم بهذه الافتراضات الموهومة، ولكن هل رأّت أبصاركم، أو سمعت أذانكم، أو لمست أيديكم أشياء لا شكّ في وجودها وتحققها؟

منها: هذا الشعور والإدراك الذي يمتاز به الحيوان، ويفتخر بكماله الإنسان.
ومنها: هذه النفوس التي هي ملكة الأبدان وسلطان الحياة والشعور وعروس الوجود، هل أحسستم بها بحواسكم؟

ومنها: روح الحقيقة ومظهر النعمة ولباس الزينة ومنشأ انتزاع الطبيعة، وهو ذات الوجود الذي تزيّنت به الموجودات العالميّة وتحقّقت حقائقها وأزهر ببهجته العالم. هل يرى أحد ذات الوجود أو يحسّ به بحواسه؟ لا تقل: نعم، فإنك إنّما تحسّ بالموجود المحسوس لا بذات الوجود، أين الحواس من إدراكه؟

لماذا تُعلّل الشعور بالقوّة التي في الدماغ أو غيره؟ ولماذا تُعلّل هذه القوّة وسائر الأعمال الإراديّة بالحياة؟ ولماذا تُعلّل الحياة بالنفس؟ لماذا لا تقول: إنّ هذه كلّها من صدفة الجسم؟ لكنّ الحجر المسكين لم يتوقّف لهذه الصدفة، ولم يسمح لدلال هذه الآنسة بمواصلته يوماً، لماذا دام هجرها للحجر المسكين؟

يا من يبعثه الشعور والفترة على التعليل، ويعرف أنّه مسؤول للإنسانيّة وشرف الشعور وسلطان العلم عن استقامة التعليل، والوقوف فيه على موقف علمي لا تتحمّل فيه ملامة الشعور والوجدان وتوبيخ العلم، أين أنت عن التعليل بواجب الوجود العليم الحكيم؟ ماذا يصدّك عنه؟

إذا صدقت النظر في شأن مولود الحيوان رأيت العجب، وعرفت أنّ له مُدرّساً رؤوفاً عالماً، يُعرفه كيف يسلك في طريق الحياة الجديدة الذي لم يره قبل ذلك ولم يعرفه. فترى المولود حين خروجه من بطن أمّه كأنّه تلميذ أكمل دروسه وتلقّى علمه وأدّى امتحانه، وصارت له نوبة العمل في أعمال معيشته ولوازم حياته. قد كان في الرحم، ولم يألف في حياته هناك إلّا ظلمات وأحشاء، ومشيمة تبعث إليه من الحبل السريّ غذاءه، وتأخذ فضوله من دون طلب منه ولا سعي في أمره. لم يعرف تغذية بضم، ولا غذاءً من ثدي، ولا طلباً للمعيشة، ولا سعيّاً للرزق، ولم يعرف أمّاً ولم يألف لها حناناً. فتراه في أوّل ولادته ينادي بطلب غذائه، ويسعى جهد قدرته في معيشته فترى طفل الإنسان إذا وضعت أمّه على الثدي أوّل مرّة يحاول الامتصاص، ويدير فمه على

الثدي باستعمال يطلب طريق رزقه فكأنه قد ألفه دهرًا، وقضى في لذته وطراً، وأنس به زماناً حتى إذا التقم الحلمة سكن بكاؤه، وقرّ قراره، وصار يمتصّ اللبن بإقبال والتناذ وسكون واستعمال. كأن له في هذه الأمور سابق تدريس، وعلم وامتحان، وتجربة ومحبة وألفة.

ولقد شاهدت شاةً حين ولادتها، فرأيتُ جنينها حينما زار الأرض مُخرجاً رأسه من كيسه طالباً للفرار منه، كأنه يعرف أنّ هذا الكيس قد صار في دورة الولادة سجن الضيق والضرر والفقر، بعد أن كان بيت الراحة والحماية والكفاية.

فصار ذلك القادم الجديد الغريب يرغب بلحاجة ويتحرك باستعمال، متوجّهاً إلى ناحية رأس أمه الذي لم يره قطّ. يزحف مرتعشاً، ويتحرك مستعجلاً متكلّفاً، حتى إذا وصل إلى رأس أمه وتمكّنت من لحس ما عليه من الرطوبات، سكنت حركته واطمأن في مريضه، فكأنه يُقدّم أعضائه إلى أمه لكي تلحس رطوباتها.

أيتها القادم الجديد، هذه الرطوبات كانت ثوبك المألوف في دور الجنينية، فلماذا تساعد على نزعها؟ متى عرفت أنه يكون قذارة مضرّة في دور الولادة؟

وحتى إذا سكن عن أمه ألم الولادة وقامت عن مريضها، تحامل الطفل للقيام على تكلف، كأنه يطلب أليفاً أنس به زماناً ففقدته، أو طريقاً اعتاد السلوك فيه فضلّ عنه، أو رزقاً سعى في تحصيله مدة فضاع منه. وصار يضع فمه على مواضع من بطن أمه، يحوله من موضع إلى موضع، حتى إذا التقم الثدي أقبل عليه بنشاط وابتهاج، كأنه وجد سألته وحظى بأنيسه القديم.

وإنك إذا تتبعت مواليد الحيوانات تجدها كلّها على هذا المبدأ في الشعور الابتدائي، كأنها متخرّجة من مدرسة قد درست فيها هذه التعاليم على معلّم عالم رؤوف بها.

فهل يكون هذا كلّ من دون عالم فمّال مدبّر، يلهمها رشدها ويعلمها تدبير أمرها؟ وفي هذا المألوف المعروف كفاية، فلا حاجة إلى ذكر عجائب المنقولات من أحوال الحيوان **﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَاكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾** **﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَّلَكَ﴾** **﴿فِي أَيِّ**

صُورَةٌ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ^١ وحباك بالحياة وزينة الشعور، وراعى شؤونك في نشأتك وأطوار حياتك الجنينية وبعد الولادة.

فأين أنت عن رشدك، ولماذا تاه شعورك، وبماذا انخدع وجدانك؟

مَنْ هو الذي أوجدك؟ ومن هو الذي حبأك بجمال الحياة وزينة الشعور جنيناً ووليداً؟ ﴿أَفَبَىٰ أَللَّهُ شَكَّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^٢، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾^٣.

تضطررك الفطرة إلى تعليل الموجودات التي تشاهدها، فتحرفك أوهام الأهواء إلى افتراض الجواهر الفردة وحركتها والأثير وزوابعه أو تكاثفه.

ومهما انحرفت ومهما افترضت، فبأنك لا تقدر أن تقف بالتعليل في إيجاد الموجودات إلا على ما هو واجب الوجود في نفسه، ولا تقدر أن تصفه بوجوب الوجود ما لم تقدر أن تنزهه عن كل ما ينافي وجوب الوجود.

وأين أنت من ذلك وقد مرَّ أنك مهما افترضتها ومهما تدعي فيها، لم تقدر أن تنزهها عن تغيير الكيان ونقص الإمكان.

دع هذا، ولكن واجب الوجود الذي ينتهي إليه التعليل في وجود الكائنات، لا يمكن للوجدان الحرّ إلا الاعتراف بأنه عالم بغايات خلقه قد خلق لأجل الغايات، فكيف يصحّ لكم أن تصفوا الجواهر الفردة والأثير بوجوب الوجود، مع أنكم افترضتموها عديمة الشعور والإدراك؟

الدكتور: يا شيخ، إني طالما أوجّه فكري في هذه الأمور التي ذكرتها وغيرها، وعلى الخصوص ما أجده في علم التشريح من عجائب الفوائد والغايات ودلالة الخلقة على قصدها، وأقدّر أنّ ما خفي على العلم أعجب وأدلّ على قصد الغاية.

وأزيدك يا شيخ، إني طالما تضايقتني الشدائد وتنقطع آمالي من الأسباب الطبيعية، فأجد نفسي تلتجئ بفطرتها إلى مدبرٍ فعّال بالإرادة تراه مالك التصرف والتسبيب، ملك

١. الانفطار (٨٢): ٦-٨.

٢. إبراهيم (١٤): ١٠.

٣. الملك (٦٧): ١٤.

القدرة و الرحمة ،فتطلب منه كشف الشدّة بقدرته ورحمته على رغم الأسباب العاديّة، وتطلّ شاخصة النظر إلى رحمته.

فيكثر عجبي من نفسي وتوجّهها والتجائها ابتداء، بفطرتها إلى من تراه خالقاً قادراً عالمأ يفعل بالإرادة، على رغم التزامي بالمذهب المادّي. وطالما درستُ أحوال الناس عند شدائهم وانقطاع آمالهم من الأسباب العاديّة، فأجد نفوسهم تجري بفطرتها على مبدأ نفسي في الالتجاء إلى مدبّر عالم قادر، وكثير من هذه النفوس لا تعترف له في العافية والسعة.

[عقبات دون الاعتراف بالخالق]

لكن يا شيخ، إنّ اعترافنا بالإلهيّة دونه عقبات:

الأولى: أنا لا نقدر أن نعرف حقيقة هذا الخالق العالم الواجب الوجود، وهذا ممّا يصدّنا عن الاعتراف به، فإنّه يصعب على النفوس أن تعترف بوجود موجود لا تعرف حقيقته. الثانية: أنا نرى الكثير من الناس قد تاه في هذا المقام، فإنّ منهم من يقول بتعدّد الآلهة، ومنهم من يقول: إنّ الإله يتجسّد ويلبس ثوب الناسوت، فيخضع بالطبيعة لاحتياج البشريّة ونقائصها والشدائد الواردة عليها، ومنهم ومنهم، وهذا كلّه يضادّ مقام الإلهيّة ووجوب الوجود على خطّ مستقيم.

مَنْ يتغيّر كيانه كيف يكون واجب الوجود؟ أيّ كيان منه واجب الوجود، هل هو الكيان الأوّل المنعدم، أو هو الكيان المتجدّد الحادث؟ أم إنّ وجوب الوجود لا يرتبط بكيان وجودي، بل بكيان وهمي انتزاعي لا وجود له؟

الثالثة: أنّ الذين يدعوننا للاعتراف بالإلهيّة، يريدون ممّا أن نعترف لهم بسيطرة دينيّة، ونخضع تحت نير ونزرع تحت ثقل. مع أنّنا نرى الكثير من هذه السيطرات بعيداً عن الحقيقة، مشوّهاً للتعاليم، وهذا لا يهون.

يا شيخ، فإن دعانا العلم والوجدان إلى الاعتراف بالإلهيّة، صدّتنا هذه العقبات. ولا تحسب أنّي ممّن يصدّه تكميل الشريعة الإلهيّة، وتعليمها الروحي، وزجرها عن فلتات الشهوانيّة ونقائص البشريّة المهذّدة للكمال والأدب والمدنيّة والاجتماع والمستقبل الصالح للإنسان.

الشيخ: هذا الكلام عجيب غريب منك ومن أمثالك، فإننا نقول لك: أولاً: إذا قادتك العلم والوجدان إلى الاعتراف بوجود الموجود، فهل يسوغ لك في شرف الشعور والأدب أن تجحد وجوده؛ لأنك لا تعرف حقيقته، من أجل قصورك عن إدراكها؟ إنك إذا رأيت شيئاً تقصر عينك عن تمييز حقيقته، فهل يسوغ لك أن تقول: لا وجود لهذا الشيء؟

إنك لا تعرف حقيقة النفس للحيوان ولا مائز العقل للإنسان، فهل يسمح لك الشعور بأن تقول: ليس للحيوان نفس يمتاز بها عن الحجر، وليس للإنسان عقل يمتاز به عن سائر الحيوان؟ فليكن أيها الدكتور أن تتبع العلم وحجته ودلالة الوجدان إلى حيث يوصلتك وتقف حيث يقفان.

وثانياً: إن اختلاف الناس وتيه كثير منهم في أمر الإلهية، هو عادة جارية للجهل المركب الذي يقتحم على كل حقيقة، فهل يسوغ إنكار الحقائق لأجل اختلاف الناس فيها وضلالهم عن سبيلها في متاهات الجهل والقصور؟

هل يوجد في الحس ما هو أجلى وأظهر من النور؟ أفلا تدري باختلاف الطبيعيين فيه حيث بعضهم: إنه مادة وذرات تنتشر من الجسم المنير بواسطتها تدرك العين المرئيات. وقال بعضهم: إنه حاسة يحدثها نقر تموج الأثير على عصب البصر، التموج الصادر من الأجسام المنيرة. فما أبعد ما بين هذين المذهبين!؟

ومما يزيد في خفاء حقيقة النور ويجعل الآراء فيها عرضة للسند والتزييف، ما كشفت عنه التجارب من النور غير المرئي، كالنور الأحمر من الحلّ الطيفي لنور الشمس، وكالنور غير المرئي من النور الكهربائي الذي اكتشفه روتكين.

ومما يزيد في خفاء حقيقة النور ما يوجد من الاختلاف الكبير بين النورين، فإن نور الشمس لا ينفذ إلا من الجسم الشفاف، وإذا حلّ على مكان ينكسر، والنور الكهربائي لا ينكسر، وينفذ من الأجسام الكثيفة ما عدا الفلزات، والمأمول من العلم أن يظهر من اكتشافاته ما يجعل العقول حائرة في حقيقة النور.

وهذه الكهربائية التي أعملت في الأفاعيل الكبيرة، قد قال قوم فيها: إنها عبارة عن قوتي سيّالين يكونان مزوجين متكافئين في الأجسام غير المكهربة، وبتفريق هذه السيّالين تظهر الكهربائية وتهيج، وباتحادهما تتفرّغ ويبطل التهيج.

وقال قوم: قوّة سيّال واحد في الأجسام متوازن، وبزوال الموازنة تتكهرب الأجسام، ويعود الموازنة تتفرّغ ويبطل التهيج.

ما هي حقيقة السيّال؟ وكيف يكون جاذباً؟ وكيف يكون دافعاً؟ وأين يذهب إذا تفرّغ؟ وأين يذهب إذا انقطعت دائرته؟ هل يختصّ بسطح الجسم؟ ولماذا يختصّ؟ وكيف يتكهرب الهواء والفضاء؟ ولماذا تختصّ الكهربائية برؤوس المروّس أو تزيد فيها؟ لا زالت زوايا الجهل المركّب تذهب بالأفكار في كلّ مناهاة، قد قحمتها في ضلال إنكار الوجود بعد العدم ودعوى امتناعه، مع أنّك وكلّ أحد ترون وتجدون في كلّ ساعة أوفواً وأوفواً ممّا حدث بعد العدم.

وإنّ مثلك لا ينبغي أن يخفى عليه أنّه يلزمه النظر الصادق في أمر الحقيقة واتباع الحجّة الواضحة والدليل الهادي، لكي ينجو من تيه الضلال ويتمسك بما وصل إليه من العرفان.

فانظر - هداك الله - في أمر الإلهيّة بعين البصيرة، وأثبت أقدامك في مراكز اليقين. فإذا تجلّى لك أمر الإله وعلمه وحكمته، فهل يقبل شرف إنسانيتك أن تفرّ فرار العبيد فتجدد الإله لمحض خوفك من الخضوع لنير تعاليم متدلّسة باسم الدين؟

أليس من اللازم عليك أن تنظر في أمر التعاليم التي تُدعى إليها؟ فما عرفته أنّه من التعاليم الإلهيّة الحقيقيّة أخذت به وأرشدت بني نوعك إليه، وما عرفته أنّه من الأهواء المتدلّسة باسم الدين أعرضت عنه وأوضحت لبني نوعك ضلاله. فإنّ هذه التعاليم المتدلّسة - كما قلت أنت -: هي نير الشقاء، وغلّ الضلال والعناء، وثقل الخسران الباهض.

ولكن هل يخفى عليك أنّ التعاليم الإلهيّة الحقيقيّة هي من رحمة الله للبشر، وهي تاج الشرف وزينة الكمال وفخر الأحرار، يستريحون إلى كمالها وعدلها وإصلاحها من عبوديّة الشهوانيّة البهيميّة ونير الأهواء الخسيسية؟

فيا للعجب من فضيلتك أيها الدكتور، أراك تحيد عن الحجّة الساطعة في أمر الإلهيّة والمحجّة الواضحة في العلم، وتتعلّل بهذه التشبّثات الباردة؟!
الدكتور: ألا تجري يا شيخ في الاحتجاج على المعارف الإلهيّة؛ لكي أعيد النظر وأزداد في البصيرة.

الشيخ: مهما اختلف الأهواء وتشعب الجهل، فإنّها لا تنني فطرة الإنسان الأوّليّة عن حكمها بلزوم تعليل الكائن والنظر في علّته، وإن اقتصر بعض المغفّلين والقاصرين على ما يهّمه في حاله الحاضر وحاجته الوقتيّة الطفيفة.

ولكن جميع النفوس - في نظرها إلى هذا العالم، وما يحدث فيه كلّ آن من الموجودات التي لا تحصى - لا زالت تطلب الوقوف على مصدر هذه الكائنات ومبدأ وجودها، وإن كانت الأهواء ها هنا قد عملت أعمالها بدسائسها.

فكان نوع الناس بجامع الفطرة الإنسانيّة قديماً وحديثاً ينظرون إلى العلّة الفاعلة في إيجاد الموجودات، مدرجين مادّتها في لفيف الموجودات الحادثة، إذ يجدون - بفطرتهم وإحساسهم وبرهانهم - إمكان وجود المادّة بعد عدمها، وخضوع وجودها للقدرة الفعّالة، فإنّهم يجدون موجودات بصورة ومادّة لم يكن لهما سابقة في الوجود.

ويوضّح لهم العلم بدلائله والفطرة بسيرها المستقيم، أنّ القول بقدّم المادّة مهما تقلّبت به الأفكار واحتالت له، إنّما هو رأي مخدوع ودعوىّ تحتوشها النقود والردود. وكيفما كان فإنّه لا يغني شيئاً عن لزوم القول بقدّم العلّة الفاعلة في الإيجاد والنظر في أمرها، وإن كانوا قد ذهب بهم في ذلك المذاهب الكثيرة حسبما تسمح الفرصة للأهواء وغفلات الجهل، أو يستقيم السير في نهج العلم اليقين.

ثمّ نبغ من خلال الأعصار وشذاذ البشر قومٌ صرفتهم الصوارف عن النظر إلى العلّة الفاعلة في إيجاد العالم، فتساهلوا في أمرها، ووجّهوا همتهم إلى افتراض المادّة ووصفها بالأزليّة، مع اختلافهم في وجوه افتراضها. وأوكلوا أمر العلّة الفاعلة إلى صدقة حركة الجواهر أو زوابع الأثير أو تكائفه، وأغمضوا النظر عن تعليل هذه الحوادث الافتراضيّة أعني الحركة والزوابع والتكائف، فخيّلوا أنّهم قد أصابوا

الموقف العلمي في التعليل ومركز اليقين الثابت.

ولكن يا صاحبي يا حضرة الدكتور، إنّ ثوب الأزليّة لا يكون بحياكة آرائنا وخياطة
أسننا؛ لكي نلبسه لمن نشاء، بل إنّ صفة الأزليّة صفة حقيقيّة، لها لوازم ومقومات ولها
منافيات لا تجتمع معها في شيء واحد.
كيف تكون الجواهر الفردة أو الأثير أزليّة يوقف عليها بالتعليل، وهي ليست
واجبة الوجود؟

وكيف تكون واجبة الوجود، وهي لا تزال متغيّرة الكيان بتقلّبها باختلاف الصور
والحقائق وتقلّبات الحركة كما تزعمون؟
وكيف يكون الأثير واجب الوجود، مع أنّكم افترضتموه مركّب المقدار محتاجاً إلى
أجزائه، وإلى فاعل يوجدها ويؤلّفها بالتركيب؟

وكيف تكون الجواهر الفردة واجبة الوجود، مع أنّ فرضها غير متجزّئة مستحيل
-بحسب فرضكم- لاشتمالها على قوّتي الجذب والدفع، وأنّ لها حركات مختلفة
الوضع والأمكنة والجهات. وكونها متجزّئة يستلزم تركيبها في المقدار، فتكون
محتاجة إلى أجزائها وإلى فاعل يوجد أجزائها ويؤلّفها. هذا كلّ في المادّة،
وقد مرّ مشروحاً.

العلة الأوّليّة الأزليّة الفاعلة للإيجاد

وأما العلة الفاعلة للإيجاد، فهما تساهلتم في أمرها وحاولتم صرف الأنظار عنها،
ألجأتكم الضرورة إلى أمرها، فقلتم: إنّها صدفة الحركة. الحركة: هي أكوان متتابعة
ينعدم الأوّل فيحدث الثاني.

ما هو العلة الفاعلة لهذه الحركة؟ هل نخادع عقولنا ووجداننا ونقول: إنّها أزليّة.
ما هو الأزلي منها؟ هل هو الكون المنعدم، أو الكون المتجدّد؟ أم نذهب بالتسلسل
إلى غير النهاية، رغماً على بدهة العلم في بطلانه وخصوص حجّتك المذكورة
صحيفة ٢٨٠.

كرامة القرآن في حجّته وتوبيخه

وقد احتجّ الله على المتغافلين عن خالق العالم فقال - جلّ شأنه - في الآية الخامسة والثلاثين والسادسة والثلاثين من سورة الطور المكيّة: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ يخلقهم ويوجدهم بعد عدمهم، هل يمكن في الشعور أن يقولوا بذلك ﴿أَمْ﴾ يقولون: إنهم ﴿هُمْ﴾ أَلْخَلِيقُونَ ﴿لأنفسهم؟ هل يتحمّلون شناعة هذا القول ﴿أَمْ﴾ يقولون: إنهم ﴿خَلَقُوا﴾ أَلْسَمَوْتِ وَالْأَرْضُ؟ هذا العالم الكبير هل خلقوه وهم عدم وقبل وجودهم؟

إذاً يا صاحبي، لا محيص للعلم وشرف الشعور والإنسانيّة عن الانتهاز بالتعليل لفاعليّة الإيجاد إلى الفاعل الأزلي، ولا يمكن وصفه بالأزليّة إلّا أن تعترف له بوجود الوجود والاستغناء في نفسه عن الموجد، ولا تقدر أن نصفه بوجود الوجود ما لم تعترف له بلوازم وجوب الوجود وملتزم بها، وما لم تنزه ذاته المقدّسة عن منافيات وجوب الوجود.

وقد أسلفنا دلالة الفطرة وحكم الشعور والوجدان السليم، على أنّ هذا الواجب الموجد للعالم لا بدّ من أن يكون عالماً، قد أوجد موجداته لأجل غاياتها التي يعلمها ويقدرها بعلمه قبل وجودها، كما رسمناه من صحيفة ٣٠٨ - ٣١٠.

وستسمع بعون الله دلالة العلم والوجدان على أنّ موجد العالم لا يمكن إلّا أن يكون موجداً بإرادته وعلمه بالمراد، وهذا التكرار الملخّص تذكّار لما تقدّم، وتأسيس الكلام في مطلوبك من الجري في الكلام على المعارف الإلهيّة.

واجب الوجود للعالم

يلزم في وجوب الوجود أن لا يكون الواجب مركّباً في الماهيّة والمقدار، فإنّ المركّب محتاج إلى أجزائه وإلى فاعل يركّبها ويؤلّف بينها، والمحتاج لا يكون واجب الوجود. إذاً فلا يكون الواجب مادّيّاً، فإنّ المادّي مهما فرض له من البساطة في الماهيّة لا بدّ من أن يكون مركّباً في المقدار، وقد مرّ امتناع فرض الجزء الذي لا يتجزّأ.

وأيضاً فإنه إما أن يكون ساكناً في مكان خاص، فيلزم أن يكون فيه - مع جوهريته ومادّيته المطلقة - جهة تقتضي سكونه في المكان الخاص، وإما أن يكون متحرّكاً فيلزم أن يكون فيه - أيضاً مع مادّيته المطلقة - جهة تقتضي حركته الخاصة. فيكون مركّباً محتاجاً إلى أجزائه وإلى فاعل يؤلّفها، فلا يكون واجب الوجود.

وإن كان السكون في المكان الخاص أو الحركة الخاصة من تأثير فاعل آخر يتصرّف فيه، لم يكن واجب الوجود، وانتقل الكلام إلى ذلك الفاعل المتصرّف.

الدكتور: كيف يمكن أن نتصوّر موجوداً غير مادّي؟

الشيخ: إن وجود المادّيات وتعليلها المستقيم دليل يقودنا إلى الإذعان بهذا الموجود غير المادّي، ويجبرنا على الاعتراف به، فإنه لا بدّ من تعليلها بواجب الوجود لذاته، ولا يمكن أن يكون واجب الوجود مادّياً.

إذا شهدت بوجود الموجود آثاره وأعماله المحسوسة بكثرة مدهشة، فلا يصحّ لنا جحوده أو التوقّف عن الاعتراف به؛ لمحض قصورنا عن تصوّر حقيقته. ولماذا لا نلتفت بذلك إلى قصور أفكارنا عن معرفة جملة من الحقائق؟ وإلى متى وحتى متى نكون معجبين بأفكارنا، فنقابل الحقائق بالبحود الأعمى والتوقّف السخيف؟! عادةً جرينا عليها ولم يرد عنّا عنها ظهور خطئنا وجهلنا، وكثرة الحقائق التي نعترف بها ولا نهتدي إلى معرفة كنهها سبيلاً.

سمع الناس على بعد باختراع التلغراف، فضجّوا بالبحود والتشكيك؛ اغتراراً بأوهامهم في الطبيعيات، حتّى إذا شاهدوا أعماله خمد صوتهم وصاروا يعلّونونه بالقوّة الكهربيّة التي لم يعرف كنه حقيقتها حتّى الآن.

وسمع الناس بالفونوغراف - صندوق الأصوات - فتسرع الناس - حتّى بعض الخواصّ الممارسين للطبيعيات - وجأهروا بجحوده والتشكيك في أمره؛ اغتراراً بأوهامهم في طبيعة الصوت.

ذكر التلغراف اللاسلكي، فلبّج السامعون بجحوده والتشكيك فيه حتّى مع أفئتهم للتلغراف السلكي.

ذكر النور غير المرئي - نور روتكين - فعده السامعون من الخرافات؛ اغتراراً بأوهامهم في طبيعيات النور والشفافية والكثافة. وإلى الآن لم يعرف كنه الحقائق المؤثرة في هذه الأعمال، يرون الناس أعمالها ويقفون في معرفة كنهها موقف المبهوتين.

نرى أعمال النفس في الحياة والشعور ولا يمكننا درك كنهها، نعم قد تسرع بعض الناس في البحث عن ماهيتها، فصار هذا يقول: هذا رأيي هكذا، وهذا يقول: رأيي هكذا. آراء مجردة وفتاوى كأنها مقدسة، لكن ذات النفس تشتمز من أوهامها وتضجر. ما هي القوة؟ وما هو كنهها؟ ما هي ماهية النفس والشعور؟ ما هو الوجود؟ هذه الأمور كلها غير مادية فكيف اعترفتم بوجودها؟! أليس ذلك لأجل مشاهدة أعمالها؟ إذاً فماذا يمنعكم عن الاعتراف بوجود واجب الوجود مع مشاهدة أعماله في هذا الكون الذي لا بدّ من تعليله به.

يا من يفترضون الأثير افتراضاً مزعوماً ويربطون به التعليلات الطبيعية، قولوا: إنّه في غاية اللطافة والبساطة، ولكن ما هي حقيقته؟ هل هو مادي؟ أستم تزعمون أنّ المادة من نتائج زوابعه أو تكائفه؟

قد أذعنتم لكثير من الحقائق أن لا تكون مادية، ولا يظهر لعالم الماديات والحواس إلا أعمالها، فماذا يصدكم عن الإذعان بذلك لواجب الوجود؟ أم تريدون أن تتقهقر في التعليل إلى ما لا يمكن أن يكون واجب الوجود؟ أليس من شرف الإنسانية أن لا تتلون في أفكارها؟ أليس من شرف العلم أن يجري في نهج مستقيم عادل؟ ألا تنظر إلى غفلات الأهواء، هذه الغفلات والظفرات التي يسمونها شجاعةً أدبية، انظر إليها كيف فعلت أفاعليها؟!

الدكتور: هل يمكن معرفة شيء من شأن هذا الواجب الوجود؟ الشيخ: نعم، من الأمور ما تكون معرفته ضرورية؛ للإذعان بوجود الوجود، فقد تكرر فيما مرّ أنّ واجب الوجود لا يكون مركباً، لا في الماهية ولا في المقدار؛ لأنّ التركيب بجميع وجوهه يصادّ وجوب الوجود؟ أليس المركب محتاجاً إلى أجزائه وإلى

فاعل يؤلفها؟ فأين يكون وجوب الوجود؟ ومن ذلك يتّضح أنّ واجب الوجود يلزم أن يكون في غاية البساطة والتقدّس من التركيب من جميع الوجوه.

الدكتور: يا غبطة القسّ ويا عمانوئيل، هل أنتم مدعون بما ذكره الشيخ من الدعوى والاحتجاج؟

القسّ: هل يمكن العدول عن جادّة الحقّ اليقين والحجّة الواضحة؟

الأقانيم الثلاث، والردّ عليها

الدكتور: إذأ فأسألکم عن التثليث والأقانيم التي يقول بها أصحابكم النصارى، كما قال بها البراهمة والبوذويون وكثير من الأمم الوثنيّة، هل هذه الأقانيم الثلاثة ترجع إلى التركيب في الماهيّة والجوهر، بحيث تكون الأقانيم عبارة عن أجزاء هذا المركّب؟ أم ترجع إلى أنّ الإله الواجب متعدّد في الوجود، بحيث تكون الأقانيم أفراد جنس الإله الواجب كأفراد الإنسان؟ القسّ: قل ما تعرفه في هذا المقام يا عمانوئيل.

عمانوئيل: يقول أصحابنا: إنّ أمر الأقانيم والثالوث فوق عقولنا، لكنّه موافق للعقل، وقد نطق به الكتاب المقدّس فوجب اتّباعه، هكذا يقولون.

الدكتور: ما معنى قولهم: «فوق عقولنا»؟ هل يقولون: إنّ العقل يراه ممتنعاً ومستلزمًا للمحال؛ لأنّه إمّا أن يرجع إلى كون الإله مركّباً فلا يكون واجب الوجود ولا إلهاً ولا قديماً ولا أزلياً؟ وإمّا أن يرجع إلى تعدّد الآلهة، وهو الباطل؟

إذأ فكيف تقبلون قول كتابكم بهذا الذي يراه العقل ممتنعاً ومحالاً؟ أليس العقل هو ميزان الحقائق وميزان صدق الكتاب وكذبه؟ ما كنت أحسب أنّ في الناس من يصدّق كتاباً في قوله الذي يحكم العقل بامتناعه وكذبه.

أم يقولون: إنّ أمر الأقانيم والثالوث يراه العقل جائزاً ممكناً، ولكنّه لا يهتدي إلى إثباته سبيلاً، فجاء الكتاب النبويّ فكشف الغطاء للعقل عن هذه الحقيقة المجهولة، فوجب على الناس قبولها.

إذأ فعليهم أولاً: أن يوضحوا مرادهم من «الأقانيم» و«الثالوث»، ويبيّنوا إمكان ما يقولون، وعدم امتناعه عند العقل، حتّى إذا وصلت التوبة إلى بيان الكتاب النبويّ كان

عليهم ثانياً: أن يبيّنوا سند هذا الكتاب بأجمعه إلى النبوة الحقيقية، واتّصالة بطريق العلم واليقين، لا بالتعاليل الواهية والتخمينات الباردة.

ومن شروط نسبة الكتاب إلى النبوة: أن لا يكون فيه شيء مما يصادف العقل ويحكم العقل بكذبه وبطلانه، ولا شيء مضادّ لأصول الدين المعلومة من أساسيات تلك النبوة، ولا أساسيات ذلك الكتاب في تعليمه، وأن لا يكون متناقض التعليم الديني، بل يكون كاملاً في شرف الكتب الإلهية النبوية.

وعليهم ثالثاً: أن يوضحوا صراحة الكتاب في أمر الأقانيم والثالوث، صراحة مفيدة في تأسيس التعليم وإعلان الديانة.

يا عمانوئيل، هل هذه الأمور الثلاثة مستطاعة لأصحابك؟

عمانوئيل: أحبّ تأخير الكلام في هذا حتّى يتّضح لنا الحال في أمر توحيد الإله وحكاية تعدّده وتجسّده، وحينئذٍ تتمّ مباني الكلام وتتمهّد أساسياته.

الدكتور: هذا الإله الواجب هل يتجسّد؟ وهل يلبس الطبيعة البشرية، لكي يرفع قدرها ويظهر مجده وقدرته، كما يقوله البراهمة والبوذويون وكثير من الرومان والأُمم والنصارى؟

امتناع تجسّد الإله

الشيخ: أمّا كونه - تعالى شأنه - جسداً من الأزل، بمعنى كونه مادّياً من الأزل، فقد تقدّم امتناعه على الواجب الوجود؛ فإنّه يلزم من كونه جسداً كونه مركّباً في المقدار أو في الماهية، ومقدوراً لمن يلجئه إلى السكون في المكان الخاصّ أو الحركة الخاصّة. وأمّا حدوث التجسّد له وتغيّر كيانه الأوّل، فقد مرّ في كلامنا وكلامك أنّ واجب الوجود لا يمكن أن يتغيّر كيانه.

ولزيادة الإيضاح نقول: إنّنا قد ذكرنا أنّ واجب الوجود لا بدّ من أن يكون منزهاً عن التركيب، وفي غاية البساطة من كلّ جهة. فذلك الكيان بتلك الحقيقة البسيطة هو واجب الوجود، ومن وجوب وجوده يلزم كونه أبدياً.

فمن الواضح إذاً أنّه يستحيل أن يتبدّل هذا الكيان إلى كيان آخر وإن كان بسيطاً أيضاً، فإنّ الكيان الأوّل يخرج عن كونه أبدياً وواجب الوجود، وأمّا الكيان الثاني فهو حادث بالضرورة، فلا يكون واجب الوجود، بل يجري نحو هذا البيان حتّى لو فرضنا الكيان الأوّل لواجب الوجود مركّباً فإنّه بفرض تغييره إلى كيان آخر مركّب أو بسيط، يخرج عن فرض كونه واجب الوجود، وهذا بديهيّ، وقد ذكرته أنت في صحيفة ٣٤٢.

ويا للعجب من قولك: «ويظهر مجده وقدرته»! أيّ مجدٍ وقُدرةٍ يظهران بالتجسّد؟ هل يظهران بالخضوع لفقر البشريّة وحاجتها إلى الطعام والشراب؟ أم بذلّة الآلام والاضطهاد؟ أم بالصلب والاستهزاء والقتل كما ابتلي به من زعم الناس أنّه إله متجسّد مثل بوذا وكرشنا واندرنا والمسيح، وغيرهم ممّن ألّهم المكسيك والرومان وغيرهم؟

عمانوئيل: يذكر الفصل الرابع عشر من كتاب أعمال الرُّسل: أنّ بولس وبرنابا دخلا لِسِتْرَةَ، وشفي فيها مُقْعَد عاجزُ الرِّجلين، فقال الجموع من أهل لسترة: إنّ الآلهة تشبّهوا بالناس ونزلوا إلينا، فكانوا بناءً على وثنيّتهم يدعون برنابا «زفس» أي المشتري، ويدعون بولس «هرمس» أي عطار.

فقال بولس وبرنابا للجموع في التوبيخ على ضلالهم والاحتجاج عليهم: «لماذا تفعلون هذا نحنُ أيضاً بشرٌ تحت آلامٍ مثلكم؟»^١. فوجدت في هذا الكلام احتجاجاً ثميناً على بطلان تأليه البشر، فإنّه يستلفت الأذهان الغافلة إلى الأمر البديهي وهو أنّ البشر الخاضع بطبيعته لسلطة الآلام وتقلّبات التغيّر الدائم كيف يكون إلهاً؟

الدكتور: هل تفتخر يا عمانوئيل بوجود هذا الكلام وهذه الحجّة في العهد الجديد؟ وهل تجعله دليلاً على سداد العهد الجديد في تعليمه في الإلهيّة؟

عمانوئيل: إنّي أعرف مواقع إشاراتك في هذا الكلام، ولا تحسب أنّي أخضع لأسماء الكتب وكلّ ما انطوى فيها، وإنّما أخضع للتعليم الصحيح حيثما أظهر مجده

بحجته الواضحة بالسير العلمي، لا بطرفة الشجاعة الأدبية.

ولا تحسب أنا في غفلة عما تشير إليه، فإننا قد انتقدنا على أناجيل متى ومرقس ولوقا وكتاب أعمال الرسل تعليمها بتعدد الأرباب وجعل البشر رباً، وأشرنا إلى تحريفها وسقوط حجتها. كما انتقدنا إنجيل يوحنا تعليمه بتعدد الآلهة، وأشرنا إلى تحريفه للمعنى وسقوط حجته، فانظر إلى [الجزء] الأول في صحيفة ٨٨ و١٨٧.

ونتقد أيضاً على كتاب أعمال الرسل قوله في شأن المسيح في العدد السادس والثلاثين من الفصل العاشر: «هذا هو رب الكل».

وعلى رسالة رومية قولها في العدد الخامس من الفصل التاسع: «ومنهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلهاً مباركاً إلى الأبد».

وعلى رسالة العبرانيين قولها في العدد الثامن من الفصل الأول في المسيح: «وأما للابن كرسيك يا الله إلى دهر الدهور»، «وأنت يا رب في البدء أسست السماوات والأرض هي عمل يديك»^١.

وهل ترانا لا نتقد على رسالة فليبي قولها في الفصل الثاني:

المسيح - يسوع - الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس^٢.

أولا نتقد على إنجيل يوحنا قوله في أول الفصل الأول: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله والكلمة صار جسداً»^٣.

أو لا نتقد على رسالة تيموثاوس الأولى قولها في العدد السادس عشر من الفصل الرابع: «الله ظهر في الجسد».

الدكتور: هذا الإله الواجب الوجود الذي يمتنع أن يتغير كيانه، هل يتحد مع شيء فيكون هو وذلك الشيء واحداً؟

١. العدد ١٠.

٢. العدد ٦.

٣. العدد ١٤.

امتناع الحلول والاتّحاد

الشيخ: ما هو معنى الاتّحاد؟ هل يتغيّر كيان واجب الوجود إلى كيان ذلك الشيء؟ أو يتغيّر كيان ذلك الشيء إلى كيان واجب الوجود؟ أو يتغيّر كيان الواجب وكيان ذلك الشيء بالاتّحاد فيحدث كيان آخر؟

إذا كان يمتنع أن يتغيّر كيان واجب الوجود، أو يكون الشيء الحادث بالتغيّر واجب الوجود، فكيف يمكن أن يقال بأحد الوجوه الثلاثة؟ إذا هان التناقض على الأهواء فإنّه لا يهون على النفوس الشريفة والعقول المستقيمة.

الدكتور: هذا الإله الواجب، الذي يمتنع افتقاره إلى غيره، ويمتنع أن يتغيّر كيانه، هل يحلّ في الأجسام الحادثة مطلقاً كما يقوله بعض الوثنيين؟ أو يحلّ في بعض البشر كما يقول بعض النصرى بحلوله في يسوع - عيسى - المسيح؟ أو كما يقول بعض المتصوّفة بحلوله في أبدان العارفين منهم؟

الشيخ: ما هو معنى الحلول الذي يقول به هؤلاء؟ هذا الحلول الذي يخصّونه ببعض الأجسام دون بعض، هل يمكن أن يكون مع تقدّس واجب الوجود عن كلّ ما يضاف وجوب وجوده؟

هل يحلّ الإله حلول البياض بالجسم والعرض بالجوهر؟ ألا تدري أنّ البياض الذي هو عرض لا يتقدّم بنفسه، ولا يمكن أن يكون له تحقّق ووجود بدون الجسم، بل هو مفتقر في تحقّقه ووجوده إلى الجسم.

أم هل يحلّ حلول الصورة بالمادّة؟ ألا تدري أنّ الصورة مفتقرّة في وجودها إلى المادّة.

هل يكون واجب الوجود مفتقراً في وجوده إلى غيره؟ إذا فأين وجوب وجوده؟! ماذا كان واجب الوجود قبل هذا الحلول الموهوم؟ هل كان متقوماً بنفسه غير محتاج إلى غيره، ثمّ تغيّر كيانه إلى الحال الذي يفتقر إلى غيره؟ إذا فأين يكون وجوب وجوده؟! الذي يتغيّر كيانه كيف يكون واجب الوجود؟!

أم تقول: إنّه لم يكن متقومًا بنفسه، بل كان مُنذ القديم محتاجاً إلى التقوّم بغيره. إذاً فأين يكون وجوب الوجود؟!

أم تقول: إنّ حلوله في البشر الخاصّ يكون من نحو تعلّق النفس ببدن ذلك البشر. فنقول: إذا فتكون أعماله وعلومه عند الحلول متوقّفة على آليّة البدن، كما هو الشأن في نفس الإنسان المتعلّقة ببدنه.

هذا التوقّف في أعماله وعلومه هل كان من اقتضاء كيانه مُنذ القديم؟ إذاً فلا يكون هو العلة الأولى في الخلق، ولا يصحّ الوقوف عليه بالتعليل.

وبماذا نعلّل وجود البدن وآليّته؟ هل البدن هو واجب الوجود؟ المادّي المركّب في ماهيّة والمقدار والآلات كيف يكون واجب الوجود؟!

أم أنّ التوقّف في الأعمال والعلوم حدث للإله الواجب الوجود عند تطوّر الحلول في البدن؟ أليس هذا تغيّراً في كيان الواجب؟ كيف يكون التغيّر إذاً؟ من يتغيّر كيانه لا يكون واجب الوجود.

أم تقول: إنّ المراد من الحلول: هو عناية الإله ببعض البشر، وترشيحهم لتعليم الناس بتعاليمه الروحيّة الصالحة. إذاً فلا تختصّ هذه الكرامة بالمسيح، بل هي عامّة لكلّ رسولٍ ولكلّ نبيٍّ، أو ولكلّ صالحٍ، فما هي الحاجة إلى التعبير بالحلول، هذا التعبير المشوّه؟

الدكتور: ما تقول أنت يا عمانوئيل؟ فقد جاء في العدد العاشر من الفصل الرابع عشر من إنجيل يوحنا عن قول المسيح: «الكلام الذي اكلمكم به لستُ أتكلّم به من نفسي لكنّ الأب الحالّ فيّ هو يعمل الأعمال».

عمانوئيل: قد تكلمنا في صحيفة ٨٨ من الجزء الأوّل على أنّ إنجيل يوحنا ينسب إلى المسيح - وحاشاه - تعليمه بتعدّد الآلهة، واستناده إلى تشبّه تحريفي واّه. فهل من بعد هذا أحمل مسؤوليّة من أجل إنجيل يوحنا؟ وأيضاً لا ينبغي أن ننظر إلى مسألة الحلول من إنجيل يوحنا، بل ينبغي أن ننظر إلى إنجيل يوحنا من مسألة الحلول.

وأيضاً إنّ إنجيل يوحنا ومُطلق كُتب العهد الجديد، قد تقلّبت واضطربت في أساليب

الكلام، إذاً فلا يؤخذ منها نتيجة في كلام ولا استقامة في مبدأ.
 فإنّ إنجيل يوحنا يوسّع نطاق الاتحاد والحلول، ويذكر في الفصل السابع عشر عن
 لسان المسيح في شأن التلاميذ والمؤمنين:
 ليكون الجميع واحداً كما أنّك أنت أيها الأب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً
 واحداً فينا، ليكونوا واحداً كما إنّنا نحن واحد. أنا فيهم وأنّ فيّ!^١
 وفي الفصل الرابع من رسالة يوحنا الأولى: «ومن لا يحبّ لم يعرف الله؛ لأنّ الله
 محبّة. الله محبّة ومن يثبت في المحبّة يثبت في الله والله فيه»^٢.
 فلا يعرف من هذه الكلمات فساد المبدأ أو تشويه الكلام بالتعبيرات السخيفة.
 ومن ذلك ما في الرسالة الأولى لأهل كورنثوس في العدد السادس عشر من الفصل
 الثالث: «أما تعلمون أنّكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم».
 ونحوه ما في العدد الثاني والعشرين من الفصل الثاني من رسالة أفسس.
 لكن تقف تشبّهات التأويل عند العدد العشرين من الفصل السادس من رسالة
 كورنثوس الأولى في قولها: «وفي أرواحكم التي هي الله».
 الدكتور: هذا الإله الواجب الوجود الذي لا يتجزأ، لا في الماهيّة ولا في المقدار،
 ولا يتغيّر كيانه، هل يلد؟ أو هل ينبثق من جوهره وكيانه الإلهي موجود آخر نسّميه
 إلهاً مولوداً من الإله؟

الإله لا يلد

الشيخ: ما هو معنى الولادة التي تقولها؟ هل هو أن ينفصل جزء من الإله ويدخل
 أرحام النساء فيكون إنساناً؟ كيف يكون هذا مع أنّ واجب الوجود لا يتجزأ
 ولا يتغيّر كيانه.
 وما هو معنى قولك: «ينبثق من جوهره وكيانه الإلهي»؟ هل تريد مثل ما ينبثق

١. العدد ٢١-٢٣.

٢. العدد ٨ و١٦.

الثمر من الشجر، فتكون أجزاء الشجر ثمرًا بسبب تقلب النمو وتطورات أجزاء الشجر بالتغير؟ كيف يكون هذا مع أن واجب الوجود لا يتجزأ ولا يتغير كيانه.

الدكتور: ماذا تقول أنت يا عمانوئيل في هذا الشأن؟

عمانوئيل: قد عرفت الغرض الذي ترمي إليه، وإني قد تتبعت الكتب المنسوبة لنبوت الديانة الإسرائيلية والديانة النصرانية، فوجدتها مضطربة المبدأ قلقه الكلام في معنى الولادة من الله:

فتارةً يلوح منها أنها تُريد بالنبوة لله والولادة منه معنىً جائزاً وإن تشوّهت عبارته بسخافة المبالغة، تُريد بذلك محض ارتباط الملة أو الشخص بالإيمان والتوحيد والصلاح، وامتيازه بذلك عن البشر، فتشير بذلك إلى امتياز هؤلاء بالارتباط بالله بالإيمان وصلاح الطاعة، كامتياز الولد بالارتباط والالتقياد لأبيه وشرف مكانه عند الأب. وربما يكون من ذلك ما يُحكى عن قول الله في شأن بني إسرائيل في التوراة في العدد الثاني والعشرين والثالث والعشرين من رابع الخروج، وفي أوّل الفصل الحادي عشر من كتاب هوشع: «إسرائيل ابني البكر أطلق ابني»، «لما كان إسرائيل غلاماً أحببته. ومن مصر دعوت ابني».

وفي شأن سليمان بن داود: «لأني اخترته لي ابناً وأنا أكون له أباً» كما في الفصل السابع عشر والثاني والعشرين والثامن والعشرين من سفر الأيام الأوّل، والسابع من سفر صموئيل الثاني.

وما يحكى عن المسيح في شأن المؤمنين الصالحين من قوله: «لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون» كما في خامس متى.

والعهد الجديد كثيراً ما سمى المؤمنين «أولاد الله»، كما في العدد الثاني عشر والثالث عشر من الفصل الأوّل من إنجيل يوحنا، والعدد الأوّل والثاني من الفصل الخامس من رسالة يوحنا الأوّل، والعدد الرابع عشر والسادس عشر من الفصل الثامن من رسالة رومية.

لكن تارةً أخرى تذكر الولادة في العهدين بنحو التأليه التابع للتقاليد الوثنيّة، بحيث لا يقبل إصلاح التأويل:

فمن ذلك ما في العدد السادس من الفصل التاسع من إشعياء في قوله:

لأنّه يولد لنا ولد ونعطى ابناً وتكون الرئاسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إليها قديماً أبدياً.

ومن ذلك ما تضمّنه الفصل العاشر من إنجيل يوحنا من العدد الثالث والثلاثين إلى السابع والثلاثين، فإنّه يذكر ما حاصله أنّ اليهود قالوا للمسيح:

نرجمك لأجل تجديد - أي لأجل أنّك تتكلّم بالكفر والشرك - فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً فقال يسوع: أليس مكتوباً في ناموسكم: أنا قلتُ إنكم آلهة. إن قال آلهة لأولئك ولا يمكن أن ينقض المكتوب فالذي قدّسه الأب أتقولون له: إنك تجدّف - تكفر وتشرك - لأنّي قلتُ: إنّي ابن الله.

فانظر إلى هذا الكلام وتعليمه السخيف بتعدّد الآلهة، واحتجاجه التحريفي الواهي،

فإنّه ينادي بأنّ المراد من ابن الله هي النبوة والوثنيّة الإشرائيّة.

ومن ذلك ما في العدد الثالث من الفصل الأوّل من رسالة العبرانيين في قولها في المسيح المعبر عنه بالابن: «ورسوم جوهره» أي جوهر الله - جلّ شأنه - أو «صورة جوهره» أو «صورة أقنومه».

ومن الدواهي أنّه يوجد في العدد التاسع من الفصل الثاني من رسالة العبرانيين في

المسيح: «لكي يذوق بنعمة الله الموت».

والنسخة الثالثة المذكورة في الجزء الأوّل في صحيفة ٣٣ تذكر في حاشيتها أنّ

هذه العبارة تقرأ هكذا: «لأنّ الله نفسه بنعمته ذاق الموت»، تعالى الله عمّا يصفون، وهذا

الغلط لو لم يكن جائزاً عند أصحابنا النصارى لما رسموا عبارته المشومة في قراءة

كتب وحيهم وطبعوها لكي تنشر في العالم، فيا للأسف والعجب.

الدكتور: هذا الإله الواجب الوجود الذي لا يتجزأ، ولا يمكن أن يكون مركّباً، لا في

الماهية ولا في الوجود ولا في المقدار، هل يلزم أن يكون واحداً مقدّساً عن الشريك

في الإلهية؟ أو يجوز تعدد الآلهة والشركاء في الإلهية؟ كما خطبت به أفكار الكثير من المتدينيين بالإلهية.

[نفي التعدد والشرك من الإله]

الشيخ: لما لزم الاعتراف للإله - الذي هو العلة الأولى للكائنات - بأنه واجب الوجود، ولا يمكن أن يكون متجزئاً، ولا مركباً، لا في ماهيته ولا في الوجود ولا في المقدار، فكيف يتعدّد الإله؟

ولأجل تشرح الكلام وتوضح البيان وتتبع الأوهام في متاهاتها نقول: إن تعدد الإله لا بُدَّ فيه بعد الإشراك في الإلهية أن يمتاز كل واحد بمميز له عن الشريك الآخر، بحيث يتحقّق التعدد ويصحّ الحكم به.

فهذا المائز هل هو بجعل فاعل متصرف؟ وبتصرفه وتكوينه ميز كل واحد عن صاحبه؟ إذ فالإله الذي هو الفاعل الأول وواجب الوجود الذي قلنا به، هو ذلك الفاعل الذي ميز بتكوينه هذه الأفراد التي تكون بذلك أفراداً عالمية، فلا يكون وصفها بالإلهية ووجوب الوجود إلّا من أغلاط الضلال والجهل.

لا تقل: إن هذا الفاعل المتصرف متعدّد؛ فإننا ننقل هذا الكلام بعينه إليه، فإلى أين تذهب؟ وعلى ماذا تقف بالتعليل؟

أم هل تقول: إن المؤثر في امتياز كل واحد من الأفراد المتعددة هو طبيعي بينها فيه؟ فنقول: لا بُدَّ من أن يكون المائز في امتياز كل منها هو غير الجهة المشتركة بينها من الطبيعة الإلهية ووجوب الوجود كما هو واضح، فيكون كل من الأفراد مركباً من الطبيعة المشتركة ومائزته الطبيعي، فيكون محتاجاً إلى أجزائه وإلى فاعل يؤلفها ويركّبها، فلا يكون كل منها واجب الوجود.

لا أراك تقول - كما قيل -: إن المائز بين الأفراد هو نفس الطبيعة المشتركة بينها. ألا تدري إن الذي يتراءى سرا به للخيال من هذا الفرض الموهوم: هو فرض شدة القدر المشترك في بعض الأفراد وضعفه في البعض الآخر، قياساً فاسداً على مثل امتياز

السّوادين بالشّدّة والضعف، وامتيّاز كثير الشّيئين من قليلهما. وكيف يخفى عليك أنّ تحقّق الأشدّيّة والأضعفيّة والاختلاف بهما يتوقّف على امتياز الأفراد ولو من حيث المكان والمقدار والحدود، ثمّ يتحقّق الامتياز بالشّدّة والضعف.

أو هل تقول: إنّ المائز بين أفراد الآلهة المتعدّدة إنّما هو معلول لأمر طبيعيّ؟ فنقول: من الواضح الجليّ أنّه لا بُدّ من أن يكون في التعليل الطبيعي ارتباط بين وجود العلة الخاصّة ومعلولها الخاصّ، فلا بُدّ إذاً من أن تكون علة المائز في هذا الفرد غير علة المائز في الفرد الآخر.

فيلزم على فرض التعدّد أن يكون في كلّ واحدٍ من المتعدّدين جزءٌ هو القدر المشترك بين الآلهة المتعدّدة، وجزءٌ يعلّل بطبيعته لكلّ فرد مائزه الخاصّ به، فيكون كلّ واحد من الأفراد مركّباً محتاجاً إلى أجزائه وإلى فاعل يؤلّفها.

إذا فكلّ واحد من الأفراد لا يكون واجب الوجود، بل نقول: إنّ كلّ واحدٍ من أجزاء الماهيّة محتاج في وجوده إلى الجزء الآخر، فلا يكون شيء من ماهيّة الآلهة المتعدّدة واجب الوجود. فياللعجب من الإنسان! تراه يتقهقر ويضلّ، وأعلام الطريق له واضحة وأنوار الحقيقة ساطعة. فما هو يضطرّه شعوره إلى تعليل الكائنات تعليلاً مستقيماً، يستقرّ على موقف علمي تثبت فيه الأقدام. وبأولّيات شعوره يُقدّر مبدأ تعليله قديماً أزلياً حينما تكون فطرته العلميّة - التي تنبّه من الغفلات - تناديه بأنّ القدم والأزليّة والوقوف بالتعليل لا تستقيم ولا تخرج عن الأوهام المستحيلة إلّا بالاعتماد على واجب الوجود. وحينما يعرفه وجدانه واعتباره في الكائنات العالميّة - التي تهافت باسم غاياتها - أنّ هذا الواجب الوجود يوجد الخليقة على الحكمة والعلم بالغاية، فاعترف به إلهاً وسماه في كلّ لغة باسم خاصّ مقدّس.

وحينما يناديه الشعور العلمي بأنّ وجوب الوجود ينافية تركيب الموجود بجميع صور التركيب، كيف لا ينافية؟! والتركيب تلزمه الحاجة إلى الأجزاء والحاجة إلى فاعل يؤلّفها. وينادي بأنّ الأفراد التي يدعي اشتراكها في الإلهيّة لا بُدّ من أن تكون مركّبة. فيأبها الإنسان لماذا تقهقرك أوهام الأهواء عن الحقيقة رغماً على أساسياتك التي

لا محيد لك عنها. في شرف العلم وناموس الشعور؟ تتقهقر وتجعل الإله آلهة متعدّدة، فلا تقدر حينئذٍ أن تصف واحداً منها بوجوب الوجود، الذي هو الأساس في الإلهية وعليه يبنتي عرفانها.

لماذا عدلت عن الحقيقة إلى المستحيلات، ونكصت عن الجادة إلى التيه، وعن المنهل إلى السراب؟ أين أساسياتك في الإلهية، أم أين الاستقامة في الشعور؟

احتجاج القرآن

هذا حال الإنسان الأثيم وقد احتجّ عليه إله الحقّ، ووبّخه على التقهقر التعيس في النكوص إلى تيه الضلال من نصف الطريق الواضح، فقال - جلّ اسمه - في الآية السابعة والثمانين من سورة الزخرف المكيّة: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ جرياً على فطرته في الوقوف بتعليل الخلق على واجب الوجود، الذي اسمه المقدّس الخاصّ به في العربيّة «الله» كما يُسمّى في كلّ لغةٍ باسم خاصّ به مقدّس.

فإنّه مهما غاب عن الإنسان شيء فإنّه لا يغيب عنه كونه حادثاً بعد عدمه، ينادي وجود مجموعته وأجزائه بخلقته على الحكمة وقصد الغاية، فلا بُدّ له من تعليل وجوده بخلقه الله.

إذاً ﴿فَأَنْتَى يُؤْفَكُونَ﴾ ومن أين جاءهم إفك الضلال بتعدّد الآلهة، وكيف يجمعون بين الانخداع لإفك الشرك وتقديس الله بوجوب الوجود والكمال الإلهي؟

وقال تعالى في سورة العنكبوت المكيّة الآية ٦١ و ٦٣: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنْتَى يُؤْفَكُونَ﴾، ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمه وظهور الحقّ وقيام الحجّة والله الحجّة البالغة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وجاء نحو هذا الاحتجاج أيضاً في الآية الخامسة والعشرين من سورة لقمان المكيّة^١، والثامنة والثلاثين من سورة الزمر المكيّة^٢.

١. ونصّها: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٢. ونصّها: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾.

وقال - جلّ اسمه - في سورة النمل المكيّة من الآية التاسعة والخمسين إلى السادسة والستين ﴿ءَاللَّهُ﴾ الذي يعرفونه ويعترفون بأنه الإله الخالق ﴿خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويجعلونه إلهاً مع الله ممّا لا يقدرّون أن يجعلوه واجب الوجود، بل ينتج من ضلال شركهم وقولهم بتعدد الآلهة أنّهم لا يقدرّون أن يصفوا واحداً بوجوب الوجود. هذه المخلوقات التي تُشركون بها، هل تدعون أو تُقيمون الحجّة على أنّها خلقت شيئاً؟ أو أفادت في العالم نفعاً؟ ﴿أَمْنَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ بَارِدَةٍ وَرِيّاً حَلِيماً﴾ بعد أن كانت أرضاً قفراءً موحشة ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ وبطاعتكم ﴿أَنْ تُنْسِبُوا شَجَرَهَا﴾.

أفليست الحجّة قد دلّت على أنّ الخالق العليم هو الله واجب الوجود، واعترفت الناس وأقرّت به؟! إذاً فكيف يُشرك المشركون، وأتى لهم بوجوب الوجود مع الإشراك؟! ﴿أَلَيْسَ لَكُمْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَّهُمْ قَوْمٌ يَغْدِرُونَ﴾ عن الحقّ إلى الباطل، وعن العلم إلى الجهل، وعن سداد الحجّة إلى وهن الأغاليط.

﴿أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلْسَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ من الجبال تنفذ منها النار السيّارة في الأرض لمنافعها، فتكون الرواسي بحكمتها واقية للأرض من الميدان بالزلازل ومخففة لوطأتها.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ من القدرة، يبقى معه العذب على عذوبته، والملح على ملوحته، والتيار على جريانه، والراكد على ركوده. أفلا يعترف المشركون أنّ الجاعل لذلك هو الله الواجب الوجود؟ بل إنهم ليعترفون، إذاً فكيف يشركون؟! ﴿أَلَيْسَ لَكُمْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا يهتدون إلى رُشدهم في العلم واتباع الحجّة، تشدّ بهم الأوهام، تقلبهم التقاليد على أعقابهم.

ألا وإنّ لكلّ بشرٍ حالات وأوقات تفرّ بها نفسه إلى الله مولاها، فتلتجئ به في حاجاتها وشدائد اضطرارها، وكثيراً ما يفرّج عنها وهي عارفة بنجاح التجائها وإجابة سؤالها، حتّى إذا تمتعت بالفرج زماناً نسيت النفوس ذلك التوجّه وذلك الالتجاء وتلك الإجابة.

أفلا يعتبر المشركون بتلك الحالات؛ إذ يرون نفوسهم تفرّ إلى مولئ واحد، لا تنزل حاجتها إلا بساحة رحمته، ولا ترى نجاحها إلا منه. فما الذي أغفلهم عن ذكر ذلك والتبصّر به في جميع الأحوال؟ أفلا ينظرون إلى من تلجئ نفوسهم عند شدائد الاضطراب؟

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ في طبقات خلقكم وفنائكم، تتعاقبون خلفاً بعد سلف، تقعدون مقاعد الماضين، وتمتعون بأموالهم التي كدّوا فيها، ومنازلهم التي تعبوا في عمرانها ورثاستهم التي اغتروا بها.

﴿أَإِنَّهُ مَعَ اللَّهِ﴾ ولو أحسنتم التذكّر والتبصّر في جميع أوقاتكم بحالات نفوسكم عند اضطاراتها، ونجاح التجائها رغماً على الأسباب العاديّة، وصدق عرفانها بمولايها في تلك الأحوال التي تتخلّص فيها النفوس من أسر الأهواء وتتوجّه بحرّيّة فطرتها إلى الله، لما اختلجت في عرفانكم الشكوك، ولا طمعت فيكم غواية الأهواء وأوهام الشرك، ولكنكم ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ بِدلالة الكواكب التي خلقها ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يسخر بها السحاب ليفيئسكم برحمته مطره، أفلمستم تعرفون الله؟! ﴿أَإِنَّهُ مَعَ اللَّهِ تَخَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وتقدّس بوجوب وجوده وكماله الإلهي.

يا أيّها الذين يؤمنون بالمعاد والقيامة بعد الموت ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ كما ترون حدوث الكائنات في الخلق طبقةً طبقةً وفناءها طبقةً طبقةً ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ في أنواع الكائنات على أحسن تماثل وأتمّ تناسب في طبقاتها ومواليدها، ويعيدها في أشخاص الإنسان من بعد الموت، كما تعترفون به وتنسبون الخلق إلى الله واجب الوجود.

﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ما به قوام حياتكم ﴿أَإِنَّهُ مَعَ اللَّهِ﴾ الذي تعرفونه وتعترفون به وبأنه الخالق وكاشف الضرّ ومدبّر الأمور فأين تذهب بكم الأوهام؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا مجادلهم سامحناكم عن كون تعدّد الآلهة من الأوهام المستحيلة، وإنّ الإلهيّة وكمالها ووجوب الوجود منافية لتعدّد الآلهة. ولكن ما هي حجّتكم على شرككم وإلهيّة من تدعونه شريكاً لله؟

ولا نطالبكم بأن كل ما تدعونه إلهاً مع الله هو رهن لدلائل الحدوث والحاجة إلى الإله الخالق، نغض الطرف عن ذلك لكن هل تكون دعواكم مقدسة لا يسأل عن برهانها؟ هيهات؟ هاتوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ وما هو برهانهم؟ هل يقدر أن يقيموا الحجّة الكافية على أن من يدعونهم آلهة مع الله قد خلقوا خلقاً بقدرتهم الذاتية الإلهية في مقابل قدرة الله وخلقهم؟ من أين تكون لهم الحجّة على ذلك؟

قال الله - جلّ اسمه - في الآية الأربعين من سورة فاطر المكيّة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي﴾ بعلم اليقين ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنْ﴾ عالم ﴿الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي﴾ عالم ﴿الْأَسْمَوَاتِ﴾ وخلقهم ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا﴾ يكون لهم وثيقة بالاعتراف باشتراكهم في الخلق في خلق شيء من الأرض والسموات ﴿فَهُمْ﴾ بهذا الكتاب وهذه الوثيقة الاعترافية بالاشتراك في الخلق ﴿عَلَىٰ بَيِّنَاتٍ مِنْهُ﴾ وأين يكون ذلك؟ ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الْمُظَلِّمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ في واهيات الشرك وخرافاتهم ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾. وجاء نحو ذلك في الآية الرابعة من سورة الأحقاف المكيّة^١، والآية السادسة عشرة من سورة الرعد المكيّة^٢.

هؤلاء الآلهة المتعددون بالفرض المستحيل، ماذا تفرضون لهم أنها المشركون من الحال بالنسبة إلى خلق العالم وتدييره وارتباط مخلوقاته وأطواره وانتظامه في أدواره ودهوره؟ هل تقولون: إنهم مشتركون في كلّ خلق، وفي كلّ عمل، وفي كلّ تدبير في جميع العالم وفي جميع الأحوال وجميع الأزمان؟
 مهما تنزّلنا إلى المحال وتساهلنا في وجوب الوجود واستقامة التعليل، فلا بدّ في

١. ونصها: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي الْأَسْمَوَاتِ أَمْ يَكْتُمُونَ﴾

٢. ونصها: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ الْأَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبِهَ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

فرض تعدد الآلهة من أن يكون كل واحد من الآلهة الموهومة غير كامل في مقام الإلهية؛ وذلك لأجل احتجابه عن الكمال الإلهي بالجزء المميّز له عن الفرد الآخر، ذلك الجزء الذي لا يُمكن أن يكون من مقام الإلهية؛ لأنّه لو كان من مقام الإلهية المشتركة لما كان مميّزاً في اشتراكها.

إذاً فلا بُدّ من أن تختلف علوم هذه الآلهة وأميالها وإرادتها وقدرتها ورحمتها وغضبها وعدلها بحسب طباع تلك الأجزاء المميّزة المتباينة، والمفروض أنّهم ليس لكلّ منهم كمال إلهي تامّ يوحدهم، ولا عليهم سلطة سياسية تُنظّم أمرهم، ولا تسديد من تسديد إله كامل في الإلهية فوقهم، ولا حاجة في كيانهم وبقائهم إلى مخلوقهم واستقامة نظامه وبقائه؛ لكي يحافظوا على ذلك، فيتنازل كلّ منهم عن معلوماته وأمياله وإراداته وأعمال قدرته ورحمته وغضبه، فينقاد إلى جهل صاحبه وضعفه وتساهله أو شدّته. ولا تهديد يلجئهم إلى هذا التنازل؛ لأجل التحزّب وعقد الجمهوريّة الزمنية للمحافظة على كيان اجتماعهم من خطر التهديد المحقق بهم.

وعلى هذا، فإن فرضناهم مشتركين في خلق جميع العالم وجميع مخلوقاته وتدييره في أطواره وانتظامه في أدواره، لم يستقم للعالم نظام، ولا للموجودات بقاء، ولا للطبائع والجِبَلات ناموس.

وهذا هو مرمى الاحتجاج بقوله تعالى في الآية الثانية والعشرين من سورة الأنبياء المكيّة: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ الْعِيسَىٰ إِذْ يَسْتَنصِرُونَ﴾ أي غير الله يكونون آلهة مثله وفي قبالة بدون أن تكون عليهم سيطرة خالقيّة إلهية ﴿فَسُبْحٰنَ ٱللّٰهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وإن فرضنا اختصاص كل واحدٍ بقسمٍ من المخلوقات في خلقه وحفظ بقائه وتدييره شؤونه في أطواره وأدواره، لم يستقم للعالم أيضاً نظام، ولا للمخلوقات بقاء ولا للطبائع والجِبَلات ناموس. فإننا نرى اشتباك العالم بالعلائق، وارتباط الموجودات بالتأثير، واقتران الطبائع في النواميس وتشابكها في التوليد وتركّب الموجودات في الخلق.

وهذا هو مرمى الاحتجاج في قوله تعالى في الآية الثالثة والتسعين من سورة

المؤمنون المكيّة: ﴿مَا أَتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ حسب ما يقتضيه علمه وإرادته وميله وقوّته وغضبه، وعدم الموحد له مع الآلهة الأخرى في الرأي والعمل كما ذكرنا، فينحلّ نظام الكائنات ويبطل ناموس التكوين.

﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فإنّه لا داعي لتنازل العالم للجاهل، والقويّ للضعيف والمغضب للراضي، والراضي للمغضب في كلّ موارد الاختلاف والاختصاص.

﴿سُبْحٰنَ اللَّهِ﴾ وتقديساً وتنزيهاً لشأنه العظيم ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ بأوهامهم من نسبة الولد والشريك له، فإنّه وصفٌ لا يبقى معه للإلهيّة شرف ولا كمال ولا معنى معقول، ولا لوجوب الوجود حقيقة، ولا لنظام العالم بقاء.

ولا تحسب أنّ من يؤلّه الجماد والحيوان وأجرام الكواكب يقول بالإلهيّة بما هي جماد لا حياة فيه، أو بما هي حيوان ناقص الشعور، بل يجعل لها ممّا وراء الحسّ شيئاً من صفات الإلهيّة من الحياة والعلم والقدرة والتصرّف والتدبير، كما شأن الوثنيين.

فالقرآن الكريم جارٍ بحجّته هذه بساطة أفهامهم - التي يستلفتها من جانب المحسوسات والتجارب في الطباع المحجوبة - بنقص الجسمانيّة والمادّيّة عن الكمال التامّ الإلهي، حيث لا يكون لها تعليم موحد ولا مانع عن الاختلاف.

وبقيام الحجّة على أنّ القرآن الكريم كلام إلهي يتجسّم هذا البرهان في الحسّ والوقوع، فيقال: إنّ هذا إله ينفي شركاءه، فلو كان هناك شريك، لثار الجدل والانتصار للشرف والدفاع عن الحقوق، فاستولى الفساد والانحلال على العالم في هذه الحرب العموميّة الإلهيّة.

يا عمانوئيل، يطول تعجّبي من أصحابك النصارى، هذه كتبهم - التي اتّفقوا على أنّها وحي الله - تُصرّح بأنّ المسيح عيسى ﷺ مخلوق الله، ففي صراحة العدد الخامس عشر من الفصل الأوّل من رسالة كولوسي: «أَنَّهُ بَكَرَ كُلَّ خَلِيقَةٍ».

وفي العدد الرابع عشر من الفصل الثالث من رؤيا يوحنا: «أَنَّهُ بَدَايَةُ خَلِيقَةِ اللَّهِ».

«وَأَنَّهُ يَلْتَجئُ إِلَى اللَّهِ فِي مَهْمَاتِهِ وَيَدْعُوهُ وَيَضْرَعُ لَهُ» فانظر العدد الرابع عشر والخامس عشر من الفصل الحادي عشر من إنجيل يوحنا.

«ويستغيث إلى الله في دفع الموت عنه» انظر في الفصل السادس والعشرين من متى، والرابع من مرقس، والثاني والعشرين من لوقا.

وفي السابع والعشرين من متى والخامس عشر من مرقس: «أنته استغاث بالله على الصليب قائلاً: إلهي إلهي لماذا تركتني؟».

وذكرت الأناجيل - زيادة على ما ذكرنا - اعترافه بأن الله إلهه، وأن الله هو الإله الحقيقي. فانظر إلى العدد السابع عشر من الفصل العشرين من إنجيل يوحنا، والعدد الثالث من الفصل السابع عشر منه.

وأن الله يسميه عبدي وفتاي، فقد جاء في أول الثاني والأربعين من إشعياء عن قول الله تعالى: «هو ذا عبدي أعضده...» إلى آخر العدد الرابع.

وذكر الفصل الثاني عشر من إنجيل متى: أن المقصود بذلك هو المسيح. انظر إلى العدد الخامس عشر إلى الثاني والعشرين وإن بدل الإنجيل لفظ «عبدي» بلفظ «فتاي». بل صرحت رسالة أفسس في العدد السابع عشر من الفصل الأول بأن الله إله المسيح، بل ذكر أصحابك في قاموس الكتاب المقدس وكتاب مغني الطلاب في أسماء عيسى المسيح: «الإنسان يسوع المسيح ... بداءة خليفة الله».

ومع هذا كله ويا للأسف يقول أصحابك: إن المسيح إله، حتى أنهم في قاموس الكتاب المقدس في مادة «بيت لحم» في تمجيد هذه القرية بولادة المسيح فيها قالوا: «ففيها إذاً تجسد اللاهوت وسكن الله مع الناس».

وفي مادة «مسيح» ذكروا من أسماء المسيح «عيسى الإله القادر على كل شيء»، «رب الأرباب».

وفي كتاب مغني الطلاب - الذي هو تأليف روحانيهم في الكتب الدينيّة - يذكر في عنوان «ألقاب المسيح وأسمائه الواردة في العهدين»: إله، إله مبارك إلى الأبد، إله الأنبياء، الإله القادر على كل شيء، إله قدير، الإله الحق، الله.

ويذكر أيضاً في ألقاب المسيح: الشفيع، ملاك الرب، ملاك حضرته، الرسول، ذراع الرب، نبي، فتاك القدوس، عبدي.

وأشار إلى أوّل الثاني والأربعين من إشغياء، وكأنّه استنكف أن يقول: عبدالله، أو خاف من التناقض، ويا للأسف.

عمانوئيل: التناقض ليس من أصحابنا وكتاب مغني الطلاب فقط، بل جاء هذا التناقض في كتب العهدين، فإنّ نفس التوراة تؤكّد تعليمها بوحدة الله، وتؤكّد النهي عن تسمية غير الله «إلهاً».

ففي العدد الثالث عشر من الفصل الثالث والعشرين من سفر الخروج عن قول الله: «ولا تذكروا اسم آلهة أخرى ولا يسمع من فمك».

وفي العدد الخامس والثلاثين والتاسع والثلاثين من الفصل الرابع من سفر التثنية: لتعلم أنّ الربّ هو الإله ليس آخر سواه. إنّ الربّ هو الإله في السماء من فوق وعلى الأرض من تحت ليس سواه.

وفي العدد التاسع والثلاثين من الفصل من سفر التثنية: «أنا هو الربّ وليس إله معي».

ومع ذلك تذكر التوراة عن قول الله لموسى في العدد السادس عشر من رابع الخروج في شأن هارون: «وأنتَ تكون له إلهاً».

وفي العدد الأوّل من سابع الخروج: «أنا جعلتك إلهاً لفرعون وهارون يكون نبيك». وجاء في العدد السادس والثامن من الفصل الرابع والأربعين من إشغياء عن قول الله: «أنا الأوّل وأنا الآخر ولا إله غيري. هل يوجد إله غيري؟».

ومع ذلك يذكر في إشغياء عن وحي الله في العدد السادس من الفصل التاسع: «يولد لنا ولد. ويدعى اسمه إلهاً قديراً أبدياً».

وهلّم الخطب في العهد الجديد، إذ يعلم تارةً بتعدّد الأرباب وتعدّد الآلهة، كما مرّ في الجزء الأوّل في صحيفة ٨٨.

وتارةً يجعل المسيح إنساناً مضطهداً يتألّم ويجوع، ويحزن ويبكي، ويتصرّف به إبليس، ويعترف بأنّ الله إلهه، وأنّه عبدالله وفتاه.

وتارةً يجعله إلهاً، كما مرّ في صحيفة ٥٧ و٦٧.

كرامة القرآن في حججه وتعليمه

قال الله تعالى في الآية الرابعة والسّتين من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ وهي كلمة التوحيد، توحيد الإله، الكلمة التي تلهج بها ألسنتنا وألسنتكم وكتبنا وكُتبتكم. فكانت هذه الكلمة في مبدأ التعليم وأساس الديانة وصراحة الكتب، سواءً بيننا وبينكم. فلماذا تحيدون عن ذلك، وتهدمون أساس التوحيد، وتشوّهون التعليم الحقيقي؟

بل تعالوا إلى التمسك بحقيقة كلمة التوحيد و﴿الْأَنْعُبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ الذي نعرف إلهيته ونعترف بوحدانيته، فلا ندعوا معه إلهاً آخر ولا رباً آخر ﴿وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً﴾ كما ذكر في فلتات كتبكم: التوراة الرائجة، والكتاب المنسوب إلى إشعيا، والأنجيل الرائجة، والرسائل المنسوبة إلى بولس.

﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا﴾ من البشر ﴿أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الذي نعترف بإلهيته وقُدسه، فلا نجري على تحريف الأنجيل وتعليمها بتعدّد الأرباب^١، واتخاذ البشر رباً من دون الله الذي خلقه، فإن اتخذ البشر رباً يرجع في الحقيقة إلى الجحود لشرف الإلهية وجلال الله في حقيقة الربوبية.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ ولم يأخذوا بحظهم من الهدى والرشد والسلامة من التناقض، ولم يقبلوا النصيحة، ولم يصفوا إلى الحجّة القاطعة ﴿فَقُولُوا﴾ لهم في مقام الإعذار والتوبيخ: ﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ لله ربنا بحقيقة توحيدة متمسكون بكلمة الإخلاص في عبادته كما نعترف لجلاله بالتوحيد، فلا نتقهقر عن ذلك ولا نخادع عقولنا.

وقال تعالى في الآية الحادية والسبعين بعد المائة من سورة النساء: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ في البشر المخلوق الذي تعرفون أنه رهينة الضعف والآلام وقر البشرية، ولا ترفعوه إلى درجة الإلهية والربوبية.

١. كما مرّ ذلك في الجزء الأوّل صحيفة ٨٨ (منه ﷺ).

وكيف تتجاوزون بالمخلوق البشر الفقير، وتتعدّون به عن حدوده المعلومة إلى حدود الإلهية المقدّسة عن كلّ ضعف وفقير، والمتعالية بكلّ جلال وكمال وعظمة؟ وإنّكم لتعترفون بهذا المقام - الإلهية - الشامخ، وتعترفون بضعف البشريّة وقرها، فكيف انخدعتم وتناقضت آراؤكم، فغاليتم بالبشر واجترأتم على جلال المقام الإلهي وعظمة الله، الذي تعترفون بجلاله ووحدانيّته وقُدسه؟!

فراجعوا رشدكم، واستقيموا في شعوركم، ولا تغلوا في دينكم ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الذي يليق بجلال الإلهية ووحدانية الإله، ولا تجعلوه والدًا، ولا تجعلوا له مولودًا.

كيف يلدُ الإله؟ وكيف يكون المسيح ولدًا له؟ وكيف تفرضون هذه الولادة الموهومة التي تخصّصون بها المسيح وتألّهونه بها؟

ليس الله مركّبًا مقدارياً ينفصل منه جزء، ويتجزّأ منه شيء، وينبثق منه منبثق، تعالى الله عن ذلك ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ البشر الخاضع بضعف البشريّة وقر الناسوت كما تعلمون ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أكرمه بالرسالة وشرّفه بمقامها.

وإن سمعتم بكراماته فإن ذلك من نعمة الله عليه، كما تشهد أناجيلكم الرائجة باعتراف المسيح لله بالفضل والمِنَّة عليه^١، كما أكرم موسى وإيليا واليشع حسبما تذكر كتبكم^٢. وإن سمعتم بولادته من غير فعلٍ، فخلقُ الله لآدم أعجب من ذلك^٣، بل إنّه خليفة الله^٤ ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ كلمة القدرة التكوينية، وهي قول الله - جلّ شأنه - بأمر قدرته: ﴿كُنْ﴾^٥

١. وقد كثر في الأنجيل الرائجة ذكرُ اعتراف المسيح بذلك. فانظر أقبلاً: إنجيل لوقا ٢٢: ٣٩؛ إنجيل يوحنا ١١: ٤١

- ٤٢ و ١٧: ٢ - ٢٢ (منه ﷺ)

٢. انظر إلى التوراة في سفر الخروج من الفصل الرابع إلى الخامس عشر فيما ذكر من آيات رسالة موسى، العصا، وضربات مصر، وشقّ البحر (منه ﷺ).

وانظر إلى معجزات إيليا واليشع ممّا ذكر في الفصل السابع عشر والثامن عشر من الملوك الأوّل، والفصل الأوّل والثاني والرابع إلى الثامن من الملوك الثاني، ومن ذلك إحياء الأموات وشفاء المرضى والبرص (منه ﷺ).

٣. انظر الفصل الثاني من التوراة (منه ﷺ).

٤. كما ذكرناه صحيفة ٣٦٢ و ٣٦٣ من صراحة العهد الجديد بذلك (منه ﷺ).

٥. البقرة (٢): ١١٧.

كما يذكر أول توراتكم في خلق السماوات والأرض والنور وآدم: إِنَّ اللَّهَ تَقَدَّسَ اسْمُهُ يَقُولُ بِقَدْرَتِهِ: «لِيَكُنْ كَذَا» فيكون المخلوق بعد عدمه.

وهذه كلمة القدرة والتكوين البديع ﴿أَلْقَيْنَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ وأجراها في آلات تناسلها، فالمسيح أثر كلمة القدرة وصنعية تكوين الله ﴿وَرُوحٌ﴾ موهوبة ﴿مِنْهُ﴾ ومحبوّة بلطفه ومكوّنة بخلقه^١.

﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالثبات على حقيقة التوحيد، والحذر من مخادعات الهوى والشيطان ومخالسات الشرك، وبتصديق رسله فيما يجيئون به من دين الحقّ وحقيقة التوحيد المؤيد بدلائل المعجزات.

﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ حينما تقولون وتعترفون - كما تصرّح به كتبكم - من أن الله - جلّ شأنه - إله واحد وكيف تقولون: إنّه ذو أقانيم ثلاثة: الابن على الأرض بشر يتألّم ويموت، والروح القدس ينزل بشكل حمامة وينقسم على التلاميذ كألسنة نار، والأب يبقى في السماء؟

ما هذه الكلمات؟ لماذا تُوقعون أنفسكم في التناقض بتوحيد الله وتثليثه؟ كيف يكون الواحد الحقيقي ثلاثة؟ وكيف تكون الثلاثة واحداً وحققيّاً؟ وكيف يتعدّد واجب الوجود؟ أم كيف يتجسّد؟ أم كيف يلد؟ أم كيف يولد؟

﴿أَنْتَهُوا﴾ عن هذه التناقضات والمستحيلات، فَإِنَّ الْإِنْتِهَاءَ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دينكم وشرف شعوركم. فإنكم محجوجون بكتبكم واعترافاتكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ كما تعترفون به وتلهج به كتبكم التي تقدّسونها.

لا سبيل إلى جحود الوحدانيّة، فَإِنَّ جحودها يرجع إلى جحود وجوب الوجود، وجحوده يرجع إلى جحود الإلهيّة.

١. فكما قال الله - جلّ اسمه - في شأن آدم في الآية التاسعة والعشرين من سورة الحجر المكّيّة والثانية والسبعين من سورة ص المكّيّة ﴿وَتَنَحَّضُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ المخلوقة بالقدرة، قال - جلّ اسمه - في شأن المسيح وأمه في حملها به في الآية الحادية والتسعين من سورة الأنبياء، والثانية عشرة من سورة التحريم: ﴿فَنَنْفَخُنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ ﴿فَنَنْفَخُنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾، وكنى بالنفخ عن إيلاج الروح في البدن؛ رعاية للطاقة الروح، كالريح التي تولج في الأجسام بالنفخ (منه ۞).

﴿سُبْحٰنَهُۥٓ أَنْ يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ وما معنى ولادته واتّخاذَه الولد؟ فإن كان ذلك بمعنى الخلق، فهو خالق كل شيء ﴿لَهُۥ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أم تقولون: إنّ المقصود من البنوة لله والولديّة هي علاقة الإيمان به ورابطة التوحيد، كما سّمّاكم بذلك العهد القديم والعهد الجديد، كما تقدّم في صحيفة ٣٥٣.

إذاً فلماذا تخصّصون المسيح بالولديّة والبنوة وتجعلونها من ألقابه الخاصّة به؟ كما يُعرف ذلك من الأناجيل والرسائل وأوّل رسالة العبرانيين. ما هذا التعبير الرديء الساري من وخامة الوثنيّة وعدوى الشرك القديم؟

فإنّ القرآن الكريم يشير بحجّته القاطعة إلى تكذيبكم في دعاوكم أنّ الوحي سّمّاكم أبناء الله، كما ذكرناه عن العهدين الرائجين.

ففي الآية الثامنة عشرة من سورة المائدة قول الله تعالى ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنٰؤُا۟ لِلّٰهِ وَأَحِبُّوْهُ قُلْ إِنْ صَدَقْتُ كِتٰبِكُمُ الرَّٰجِحَةُ فِي نِسْبَةِ تَسْمِيَتِكُمْ بِهٰذَا اللَّقْبِ إِلَى الْوَحْيِ، وَكُنْتُمْ صٰدِقِينَ بِهٰذَا اللَّقْبِ ﴿قَلِمَ لِيُعَذِّبِكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ بالعذاب الدنيويّ الذي طالما اشتعلت نيرانه في بني إسرائيل، الذين تقول التوراة: إنّ الله سّمّاهم «ابني البكر، ابني»؟

ولماذا يعذبكم في الآخرة، كما تعترفون به وتفزعون - يا معشر النصارى - إلى غفران القسوس، إنّ الابن الحبيب كيف يعذب؟!

وقال الله - جل اسمه - في الآية الثانية والسبعين بعد المائة من سورة النساء ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾، ألم تسمعوا أقلّاً من أناجيلكم: إنّ المسيح كان يصليّ لله ويصوم، ويجتهد في عبادته والصلاة، ويعترف له بالإلهيّة، ويفزع إليه في ضيقاته ومهمّاته، ويتضرّع إليه بالدعاء والمسألة؟

ولكن يا للأسف صرّتم أنّتم تستنكفون أن تسعوا المسيح عبداً لله فإنّكم أردتم أن تصرفوا إلى المسيح قول إشعياء في أوّل الفصل الثاني والأربعين: «هو ذا عبدي الذي

أعضده...» إلى آخره، فحملكم الاستنكاف على التحريف الصريح وتواطأتم على أن تكتبوا في العدد الثامن عشر من ثاني عشر مئتي: «هو ذا فتاي الذي...» إلى آخره.

وكتبتم في الثاني من رسالة فيلبي في شأن المسيح ما نصّه المشوّه: «لم يحسب خلسةً أن يكون معادلاً لله لكنّه أخلى نفسه آخذاً صورة عبدي» فيا للأسف والعجب!

وقال الله تعالى في الآية الثالثة والسبعين من سورة المائدة: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ» ووجدوا حقيقة التوحيد الذي يلهجون بالاعتراف به ويجعلونه دينهم الأساسي، ولا تقوم حجّتهم على الإلهية ووجوب الوجود إلّا به، فتناقضوا وتهافتوا وتقهقروا إلى جحود الحقيقة الأساسية، وكفروا بها، كيف يقولون ذلك؟! «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ» لا يعقل تعدّد الإله، الإله لا يتعدّد، وإلّا خرج عن كونه إلهاً.

٧٥ ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ البشر الذي ولد منها طفلاً ثمّ تدرّج في النموّ البشري إلى أن كبر ﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾ وَمَضَتْ ﴿مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ كنوح وإبراهيم وموسى، وجاؤوا بمعجزات تُضاهي معجزات المسيح، ونصحوها أممهم، وتحملوا الشدائد في إرشاد الخلق. بل يقول العهد القديم: إنه خَلَّتْ من قبله أنبياء جاؤوا بمثل ما جاء به من الآيات كإيليا واليشع.

﴿وَأُمَّهُ﴾ امرأة بشرية ﴿صِدِيقَهُ﴾ وقد كانا بشرين فقيرين بفقر البشريّة وحاجتها ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ لرفع ضرورة الجوع وألمه، وصيانةً لبدنهما من الفساد بتحليل الطبيعة البشريّة.

ودع عنك ما كان يعتري المسيح من الحزن والبكاء والتأمّ والعطش، وآثار الخضوع للفقير البشري ونقص البشريّة وضعفها، وهكذا يكون الإله ياذوي الشعور؟
﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نَبَّيْنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ وتخدعهم أهواؤهم، فلا يصغون إلى الحجّة الوجدانيّة.

٧٧ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ وتقولوا فيه ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ فتألهون البشر الضعيف وتجحدون حقيقة التوحيد والإلهية ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ إذ سوّلت لهم أهواؤهم ووثنيّتهم ضلالة التالوث

والأقانيم، وتجسّد الإله، وتألّيه البشر، وخرافة الولادة من الله، كما لهج به الأسلاف والبراهمة والبوذيون والرومان واليونان، وغيرهم من الأمم الوثنية ﴿قَلِّلهُ أَلْحَجَّةُ أَلْبَلِغَةُ﴾^١.

يا عمانوئيل، وإنّك قلتَ في صحيفة ٣٤٦: إنّ أصحابك يقولون: إنّ أمر الثالوث والأقانيم جاءت به الكتب المقدّسة فوجب قبوله.

يا صاحبي، أين هذه الكتب المقدّسة؟ وأين صراحتها في الثالوث والأقانيم؟ هل هذه الكتب جامعة لشروط الاحتجاج بها؟ إذا فأين مضت دراستكم في الجزء الأوّل؟ أم أين صراحتها؟

وإنّا قد رأينا ما يتشبّه به أصحابكم من كلمات العهدين وجمعت في رسالتي، قد رَدّتها رسالة التوحيد والتثليث المطبوعة في صيدا في مطبعة العرفان سنة ١٣٣٢، وفنّدت مزاعمها بتشبيّاتها من حيث اللغة العبرانية ومواضيع العهد القديم ودلالته، وربّما تتعرّض لذلك وزيادة فيما يأتي بعون الله. ولكن لا بأس بمراجعة الرسالة المذكورة عاجلاً فإنّها مبذولة لمن يطلبها.

الدكتور: يا شيخ، ما هذه الضوضاء في الغلط الكثير من الإلهيين إذ يشركون ويؤلّهون الجماد والحيوان والبشر؟ مع أنّ الذي يعترف بالإله يكون إشراكه وتألّيهه للبشر من خرافة الأغاليط، فلماذا كان ذلك؟

الشيخ: إنك ترى الناس إذا أسلسوا قيادهم للهوى أو للسجهل المركّب والتقليد الأعمى أو للتشامخ والكبرياء كيف تذهب بهم هذه الدواهي مذهبها، وتقحّمهم في ورطات الإفراط والتفريط فيتعامون عن بديهياتهم ودلائل وجدانهم ومحكمات أساسياتهم، فتسهل عليهم - لأجل ذلك - مصاعب المستحيلات، وتستحكم في أذهانهم خيالات الواهيات.

ألا تنظر إلى المادّيين لما علقت فكرتهم بالمبادئ المادّية، كيف ورّطهم انهماكهم بها في إنكار الوجود بعد عدم، حتّى صاروا يُغالطون في العبارة ويقولون: يستحيل حدوث

الوجود من العدم؛ لكي يوافقهم الغافل الذي يحسب أنهم يريدون من هذه العبارة أن الوجود لا يكون العدم مادته ولا فاعله؟!

ألا تراهم كيف كبروا في هذا الإنكار وجدانهم ومشاهداتهم التي لا تحصى؟! وورّطهم في فرض قديم أزلي لا يصفونه بوجوب الوجود، حذراً من مطالبتنا لهم بلوازم وجوب الوجود. فأوقعتهم هذه الورطة بين محاذير المستحيلات، وهي التسلسل إلى غير النهاية، أو الدور، أو افتراض أزلي لا يمكن تصوّر أزليته، وافتراض الوقوف عليه بالتعليل ولا يؤدي تكلف هذا الافتراض وتحمل مسؤوليته للعلم إلا إلى حيرة الجهل وموقف الحيرة.

وها هم قد قلقوا في مزاعم هذا الافتراض الموهوم، ودارت بهم زوابعه بين نظريات الجواهر الفردة وزوابع الأثير أو تكاتفه.

وورّطهم انهماكهم هذا أيضاً في تعليل وجود هذا العالم بالصدفة، والإيجاد بلا شعور ولا قصد للغاية، فراغمو وجدانهم فيما لهذا العالم وأجزائه من الخصائص الجليية، والحكم الباهرة، والمقاصد الكثيرة والنظام العجيب المتقن في أحواله وأدواره ومواليده. هذه الأمور التي تنادي بالخلق على الحكمة وقصد الغاية، ولا يرضون بالصدفة لما دون ذلك، كما مرّ في صحيفة ٢٧٠ و ٣١٠ و ٣٣٣.

يتشامخون في غرورهم بالعلم والشعور لأجل اكتشاف سير من نواميس الخلق، ويفرّطون بجحود العلم والشعور لخالق العالم ونواميسه، التي لا يكون سير العلم البشري في ميدانها إلا كأقصر خطوة.

وأما المتديّتون: فمنهم من أقحمه جهله فيما لا سبيل إليه من معرفة الحقيقة الإلهية، إذ كان السير في جادة الدلائل الحقيقية يحدّد معلوماته، ويعرّفه قصوره عن الخوض في لجج هذا التيار العظيم بما عنده من مقدّمات العلم البشري الصحيح، فغالطه أوهامه بخيالات دلائل تقمّمه أخطار الجهل المركّب، وتمنّيه زوراً بالامتياز بالوصول إلى أسرار العرفان، فخطت واه ورجع القهقري في لوازم مزاعمه عن قوله بوجوب الوجود وعلم الله وخلقّه بالإرادة وحقيقة توحّده.

ومن الناس مَنْ يتدلّس باسم التدين، ويمشي وراء غروره وتشامخه، ولا ترضى غواية تكبره إلا بدعوى مقام الألوهية. فيغالط بمقدمات أسسها غيره؛ لكي يبني عليها دعواه من الحلول والاتحاد والولادة من الله.

ومنهم: مَنْ لا يطمع في تأسيس دعوى لنفسه، ولا يقدر أن يدلّس نفسه إلا بتابعية غيره من الناس، فيغالي بمتبوعه ويرفعه إلى مقام الإلهية؛ لكي يتشامخ هو إلى أعلى مراتب البشر من الرسالة والنبوة ونحوهما.

الدكتور: اللّازم على الإلهيين في سيرهم على جادة وجوب الوجود، أن يكون الإله الواجب الوجود في منتهى ما يتصوّر من بساطة الذات وعدم التركيب بجميع ما يتصوّر من أنحاء التركّب، فليس فيه جهة تعدّد أصلاً، لا من حيث الأجزاء، ولا من حيث الأفراد، فهو واحد من جميع الجهات المتصوّرة.

الشيخ: نعم، وهل يمكن العدول عن هذه الجادة والاضطهاد لهذه الحقيقة؟ لا، لا يمكن، لا في الشعور العلمي، ولا في الشعور الفطري.

الدكتور: هل يخفى على ذي شعورٍ أنّه يجب في التعليل الطبيعي أن يكون بين العلة ومعلولها الخاصّ مناسبة وارتباط طبيعيّ؟

الشيخ: من الواضح أنّه يجب ذلك، فلا يمكن أن تتعدّد المعلولات مع وحدة الجهة التي تعلّلها تعليلاً طبيعياً، فالبسيط الواحد من جميع الجهات لا يمكن أن يعلّل طبيعياً إلا مثله بسيطاً واحداً من جميع الجهات.

الدكتور: هل يخفى أن التعليل الطبيعي يلزم فيه أن تكون العلة للموجود الخارجي حقيقة موجودة متأصلة في الموجود، ولا يكفي أن تكون اعتباراً انتزاعياً يصوّر له العقل وجوداً طفيلياً لا حقيقة ولا استقلال له في الخارج، وإنما الموجود هو منشأ انتزاعه؟

الشيخ: نعم، يلزم فيه ذلك ولا محيص عنه.

الدكتور: إذاً يا شيخ هذا العالم الكبير المشتمل على ما لا يحصى من الطبائع المتباينة، وكلّ طبيعة مشتملة على ما لا يحصى من الأفراد المتباينة في الوجود، هذا كلّ كيف تجعلون علته واجب الوجود، الذي يلزم من وجوب وجوده أن يكون في

منتهى ما يتصوّر من البساطة والوحدة من جميع الجهات؟
أفلا يلزم أن يكون لكلّ فردٍ من موجودات العالم جهة وجوديّة في واجب الوجود،
تناسب ذلك المعلول ولا تناسب غيره؟ إذاً فأين البساطة، وأين الوحدة، وأين
وجوب الوجود؟

العقول العشرة والفلاسفة

لا أخالك تقول مثل بعض الفلاسفة: إنّ الواجب صدر منه العقل الأوّل بتعليه الطبيعي،
وهو واحد بسيط. ولكن العقل الأوّل باعتبار إمكانه ووجوبه بالغير وتعلّقه لذاته ولغيره،
تكون له جهات بها صلح أن يتعدّد معلوله ويعلّل أشياء متعدّدة، ولأجل ذلك صدر منه
العقل الثاني مع فلك ونفس. وهكذا يتدرّج صدور العقول والأفلاك بالتعليل وإلى العقل
العاشر، وهو العقل الفعّال مع الفلك التاسع، وهو فلك القمر.

يا شيخ، هل تدري كم على هذه المزاعم من النقود والردود؟ سامحناهم في بناء
مزاعمهم على مزاعم الهيئة القديمة، ودعواهم انحصار العالم العلوي بالأفلاك التسعة،
وانتهاءهم في عدد العقول بانتهاه عدد الأفلاك.

ولكننا نقول لهم:

أولاً: إنّ الجهات المذكورة إنّما هي اعتبارات محضّة وانتزاعات صرفة ليس لها
وجود أصيل حقيقي، فلا تصلح لأن تكون معلّلة للموجود بالوجود الحقيقي، ولا يخرج
بها الواحد البسيط عن كونه لا يعلّل إلّا واحداً بسيطاً مثله^١.

١. قد كتب هذا قبل الاطلاع على ما كتبه العلامة الأرواح المحقّق نصير الدين الطوسي - قدّس الله نفسه - في مختصره
فصول الاعتقاد، وبعد الاطلاع آثرنا التبرّك بذكر كلامه - طاب ثراه - في هذه الطبعة الثانية: تنويراً للأفكار بأشعة
تحقيقه، مع مزج كلامه بشيء من شرحه وإيضاحه، فقال في مطبوع مصر سنة ١٣٤١ في الصحيفة ١٠ و ١١:
قالوا: لا يصدر عن البارئ تعالى بلا واسطة إلّا عقل واحد، والعقل فيه كثرة، وهي الوجوب بالغير والإمكان الذاتي
وتعلّل الواجب وتعلّل ذاته، ولذلك «أي ولأجل الكثرة فيه بهذه الأمور» صدر عنه عقل آخر ونفس وفلك مركّب
من الهولي والصورة.

وثانياً: مهما تعددت جهات المعلولية، ومهما تضاعفت من العقل الأول إلى العاشر، فإنها لا تبلغ في العاشر أن تكون ألف جهة، ولتكن عشرة آلاف، فماذا يصنع هذا المقدار في تحليل الكائنات التي لا تُحصى أنواعها ولا تحصى أفراد كل نوع منها؟
ثالثاً: إذا سمحتم بأن تكون الانتزاعات جهات في الواحد البسيط يصلح بها لتعدد التعليل، فلماذا لا تسمحون بمثل ذلك للواجب وتقولون: إن الواجب يعلّل المعلول الأول بذاته ويعلّل الثاني والثالث والرابع بجهات تعليله للأول وتعلّقه لذاته ولغيره، وهكذا، فتعلّلون الكائنات كلها بالواجب باعتبار ذاته وجهات تعليلاته وتعلّلاته لغيره، ولا تشاركون معه في التعليل غيره بهذا الإشارك الوثنى؟

من أين أخذ الإمكان والوجوب بالغير والتعلّل امتيازها بالصلاحية لأن تكون جهات وجودية مكثرة في العقل الأول دون واجب الوجود؟! مع أنها في المقامين مشتركة في كونها انتزاعات محضة، لاحظ لها في الوجود إلا بتصوير الانتزاع العقلي.

واجب الوجود خالق الكائنات بقدرته وإرادته

الشيخ: الواجب الوجود الذي هو في منتهى ما يتصوّر من البساطة والوحدة، إذا كان يعلّل الموجودات بالخلق والإرادة، لا بالتعليل الطبيعي، فهل تقول بأنه يلزم أن يكون معلوله ومخلوقه بالإرادة واحداً مثله وبسيطاً مثله؟

→ ويلزمهم - أي على مبناهم في هذه المزاعم من أن الواحد لا يصدر منه إلا واحد مثله - أن العقل الأول واحد لا يصدر منه إلا واحد مثله، وهكذا في جميع المعلولات، ولازم ذلك أن أي موجودين فرضا كان أحدهما علّة للآخر بواسطة أو بغير واسطة؛ إذ يمتنع على مبناهم أن يكون الموجودان معلولين لعلّة واحدة وبطلان اللزوم بديهي.

وأما زعمهم في التخلّص عن هذا الإلزام أن العقل الأول فيه كثرة كما ذكرناه، فإرد عليه أيضاً أن التكررات التي زعموها في العقل الأول وتشبّثوا بيهومها إن كانت وجودية صادرة عن الباري - جلّ اسمه - لزم صدورهما عن الواحد وهو نقض لمبناهم، وهو أنه لا يصدر منه - تعالى شأنه - إلا الواحد.

وإن صدرت عن غيره لزم تعدّد الواجب؛ إذ لا بدّ من انتهاء الممكن في التعليل إلى الواجب. وقد أوضحنا أن واجب الوجود لا يتعدّد. وإن لم تكن تلك التكررات موجودة لم يكن تأثيرها معقولاً كما ذكر في الأصل في الاعتراض الأول. (منه ﷺ).

الدكتور: لا، لا يلزم بل يجوز أن يخلق الكثير المتعدّد والمركب.
 الشيخ: إذاً فإننا نقول بما هو الحقّ المعقول من أنّ الواجب يوجد جميع الكائنات بالخلق والقدرة والإرادة، وأنّ دعوى الوساطة في الخلق بين الله والكائنات غير معقولة. ومن أدلّتنا على ذلك نفس ما ذكرته أنت هاهنا من الردود على دعاوي الفلاسفة في أنّ الواجب يعلّل بذاته تعليلاً طبيعياً، وفي افتراضات العقول وتوسّطها في التعليل، وافتراض العقل العاشر الذي يسمّونه العقل الفعّال.

فإنّنا نقول: إنّه لا بُدّ من تعليل الكائنات بواجب الوجود، ولو كان تعليله لها طبيعياً بنفس ذاته لا إرادياً، للزم ما ذكرته أنت من المستحيلات ومخالفات المعقول. إذاً فلا بُدّ من أن يكون تعليل الواجب إنّما هو بالخلق والقدرة والإرادة؛ فإنّ التعليل لا يخلو من أن يكون على أحد الوجهين.

ومن بطلان كون تعليل الواجب طبيعياً، نعلم أنّ تعليله إنّما هو بالقدرة والإرادة، وإنّه خالق جميع الكائنات بقدرته وإرادته. فسبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

بيان الإشارات الواقعة في أجزاء هذا الكتاب إلى ما في العهدين

تك: إشارة لسفر التكوين، وهو الأوّل من أسفار التوراة.

خر: لسفر الخروج، وهو الثاني منها.

لا: لسفر اللاويّين، وهو الثالث منها.

عد: لسفر العدد، وهو الرابع.

تث: لسفر التثنية، وهو الخامس.

مز: للمزامير، أي زبور داود.

مت: لإنجيل متى.

مر: لإنجيل مرقس.

لو: لإنجيل لوقا.

يو: لإنجيل يوحنا.

اع: للكتاب المسمّى أعمال الرسل، أي بعد المسيح.

وكّل واحد من هذه الكتب مشتمل على فصول يذكر عددها في عنوانها وعلى فقرات مفصولة بأعدادها بالرقم، فإذا أردنا الإشارة إلى فقرة من الكتاب ذكرنا الإشارة إلى اسم الكتاب على ما كتبناه هاهنا، ثمّ أشرنا إلى الفصل بعدده بالرقم، ثمّ وضعنا بعد رقم الفصل نقطتين إحداهما فوق الأخرى، ثمّ رسمنا بعد النقطتين عدد الفقرة المقصودة بالإشارة.

مثلاً: إذا أردنا أن نشير إلى الفقرة الثالثة عشرة من الفصل الثالث والعشرين من سفر الخروج رسمنا هكذا: خر ٢٣: ١٣.

وإلى الفقرة التاسعة والثلاثين من الفصل الثاني والثلاثين من سفر التثنية فهكذا: تث ٣٢: ٣٩.

وإذا جعلنا خطأً عرضياً بعد الرقم الأخير فالخطّ بمعنى «إلى» والنهية هو الرقم الذي بعد الخطّ، كما إذا أردنا أن نشير إلى عدّة فقرات من كلّ واحد من الأناجيل رسمنا هكذا: يو ١٠: ٣٣-٣٧، ومت ٢٢: ٤٢-٤٦، ومر ١٢: ٢٥-٣٨، ولو ٢٠: ٤١-٤٥.

المجزء الثالث

[دفاع عن العقيدة]

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد كما هو أهله وهو المستعان، والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه وأوليائه.
أليعازر: يا شيخ، إني أحبُّ أن تزيدني من احتجاج القرآن في المعارف الإلهية.
عمانويل: وأنا أحبُّ أن يكون بنحو يوافق أفهام العوامِّ بحسب شعورهم الفطري،
ويدقّق مع الفيلسوف بحسب موازين العلم، وهذا هو الذي ينبغي أن يجري عليه
الكتاب الإلهي الموحى لهداية البشرية كافة.

[الإبداء وحدث المادة والصورة]

الشيخ: إنَّ من الأمور ما يجعلها القصور معرضاً للشكِّ والجحود، ومنها ما لا يشكُّ فيها
إلا فاقد الشعور، أو من ضحى شرف إنسانيته لهواه.

ولكنَّ القرآن الكريم قد قطع المعاذير، وجارى بإيضاح الحجّة قصور الناس ووساوس
أهوائهم، ومن ذلك قوله تعالى في سورة العنكبوت المكيّة [١٩ - ٢٠]: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ
يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ: إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فكأنَّ القرآن الكريم يوبّخ كثيراً من أهل القرن الحاضر الذين أغفلتهم الدواعي،
فيقولون ويكتبون من غير التفات ولا مبالاة: «يستحيل إخراج الوجود من العدم،
فكري المتنوّر لا يذعن بإبداع الوجود بعد العدم».

أين هم؟ وأين أبصارهم وبصائرهم عمّا يراه كلّ ذي عين، ويحسّ به كلّ ذي حسّ، ويشعر به كلّ ذي شعور ممّا ملأ العالم من حدوث الوجود بعد العدم؟
 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ هذه الموجودات من الإنسان والحيوان والنبات كيف يحدث وجودها بعد أن لم يكن لها وجود كما يراها كلّ أحد، تتجدّد في وجودها زماناً بعد زمان وخلقاً بعد خلق؟ هل هم يجحدون محسوساتهم ويدعون أنّهم لا يرون من ذلك شيئاً، أو يقولون: إنّنا جلساء بيوتنا نرى الشمس والقمر والكواكب والأرض كما هي منذ نشئنا؟ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ واخرجوا من بيوتكم وظلمات جهلكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ يوجد النبات والحيوان والإنسان بعد أن لم يكن؟

رمزي: الذي يحدث من ذلك بعد عدمه وينعدم بعد حدوثه، إنّما هي الصورة النوعية، وأمّا المادّة فهي أزليّة لم تحدث بعد عدمها وأبدية لا تنعدم.
 عمانوئيل: من أين لك أنّ المادّة الأزليّة لم تحدث بعد عدمها؟ أليست هذه الأمور الحادثة من الحيوان والإنسان والنبات نراها قبل حدوثها، لا نعرف لها مادّة ولا صورة، ثمّ تبرز للوجود وتبلغ غاية كبرها، ثمّ يعترها النقصان والذبول، ثمّ تنمحي من الوجود، فلماذا لا تقول: إنّ مادّتها كصورتها تحدث وتنعدم؟
 رمزي: إنّني لا أرى هذا الحدوث في الشمس وسائر الكواكب والأرض، فلا أقدر أنّها تنعدم.

عمانوئيل: وإنّك لم تر حدوث أبيك وأمّك وأسلافك، فهل تقول: إنّهم قدماء منذ الأزل؟ وإنّ كثيراً من شجر الزيتون لم تدرك حدوثه، وليس لك من العمر يبلغ زمان انعدامه، فهل تقول وتفتي بأنّه أزلي أبدي؟
 أين أنت يا رمزي، وأين نشأت؟ ألم تسمع من الذين تتبّع آراءهم أنّهم يكتبون ويقولون: إنّ الشمس والكواكب والأرض قد حدثت بتقلّب الأحوال، وهي خاضعة لسلطان الانحلال والعدم متى ما انتهى أمدها واستعدادها المقدّر لها؟
 رمزي: إنّ الحدوث والانعدام والصغر والكبر لا يكون بحدوث المادّة وانعدامها، بل إنّما يكون بتجمّع المادّة وتفريقها بحسب حركتها في التقلّب بالصور.

عمانوييل: لا تليق هذه الدعوى إلا من أزلي أبدي، يحيط علمه بكل شيء في العالم بأجمعه في جميع الأحوال والأزمان.

من أين لك أن كل جزء يوجد في الحيوان والنبات هو مادة قديمة أزليّة تحوّلت صورتها إلى الحيوان أو النبات؟ ومن أين لك أن كل جزء ينعدم منها هو مادة باقية أبدية تحوّلت صورتها إلى غيرهما؟

هل يدلك الحسّ على ذلك في جميع الحوادث؟ أو لأنك تقول: إنّي لا أقدر على إحداث المادة وإعدامها، ولا أقدر على إحداث أرض ولا على إعدامها، ولا أقدر على إحداث مدفع ضخم بمادته وصورته، ولا أقدر على إعدامه بمادته وصورته؟

مهما ركنت لقول فلان وفلان ومهما أصغيت إلى المسموعات، فإنّ الاكتشافات الجديدة تنادي بحدوث المادة وانعدامها، ألم تسمع الخطباء يخطبون، والكتاب يكتبون أنّ الراديوم يتحوّل إلى القوّة، ولا يزال هذا التحوّل يبعث في الفضاء كهربائيته وحرارته ونوره حتّى قدروا أنّ الغرام منه يتحوّل نصفه في ألف وخمسمائة سنة تحويلاً تاماً، ووجدوا أنّ غازه إذا وضع في قارورة مسدودة ينعدم بعد مدّة ثمّ يحدث بدلاً عنه غاز الهليوم.

هذه اكتشافات الذين لا زلت تخضع لآرائهم وتستعبدك كلماتهم، مع أنّهم وجدوا أنّ الراديوم أبطأ العناصر انحلالاً، ولكن لأنهم وجدوا أنّه ينحلّ إلى حركة وحرارة ونور لم يستطيعوا أن يقولوا: إنّ مادته تكتسب صورة أخرى.

ألم تسمع هذا الدويّ الكبير من الاكتشافات التي أوجبت الانقلاب العلمي، والتي تبشّر بملاشاة التخمينات الملقّقة للمذهب المادّي؟ ألا وهو دويّ مذهب الدقائق الكهربائيّة، وهو: أنّ المادة متكوّنة من دقائق الكهربائيّة بل إنّ البحث المادّي قد تقهقر عن تقمّحه في القول بقدّم المادة، حتّى صار المهمّ فيه هو التهجّس على أنّه هل في الكون مادة ابتدائية نشأت عنها جميع الموادّ؟

ولا تحسب أنّ الذرّات الكهربائيّة أو الكترونات الكهربائيّة هي ذرّات مادّيّة، كلاً بل هي أقلّ ما وصل إليه الافتراض من مراتب القوّة.

يا رمزي إنّ العقل في غنى عن هذه الاكتشافات، فإنّ عنده من القضايا الوجدانيّة الفطريّة البديهيّة والمشاهدات الحسيّة ما يكفي في فصل القضاء في هذه المسألة، فقد تقدّم في الجزء الثاني مبيناً - صفحة ٣٠١ - أنّ ما لا يكون واجب الوجود لا يكون أزليّاً، بل لا بدّ له من أن يكون حادثاً محتاجاً إلى موجد يوجده، وأنّ المادّة الخاضعة لتغيّرات الكيان وتبادل التقلّبات بالحقائق النوعيّة لا تكون واجبة الوجود، بل هي حادثّة لا بدّ لها من موجد يبدعها ويوجدها بعد عدمها.

ومهما تغافلنا عمّا نحسّه من حدوث الأجسام وتجدّد وجودها، فإنّ علينا الحجّة الجليّة بما لا ينكره أحد من حدوث الصور النوعيّة، فإنّ ذلك يرغم مكابراتنا على الإذعان بأنّ إبداع الموجود بعد عدمه أمر معقول، مشاهد محسوس.

رمزي: لا يمكننا أن ننكر حدوث الصور النوعيّة بعد عدمها، بل لا نزال نشاهد صوراً حادثّة، والكثير منها ما لا يذكر له التأريخ مثلاً، بل إنّ المذهب الداروني - مذهب تسلسل الأنواع - مؤسس على أنّ الأنواع تتجدّد حقائقها على غير مثال سابق، ولكن شعوري المتنوّر لا يذعن بإبداع المادّة ووجودها بعد عدمها.

عمانوئيل: لا أطالبك بالاكتشافات الجديدة في العلم ولا بحجّة العقل، ولكن قل لي: كيف أذعنت بوجود الصور النوعيّة وإبداعها بعد عدمها؟! ولماذا لا تذعن بإبداع المادّة؟

رمزي: حدوث الصور النوعيّة ليس إبداعاً، بل إنّ الصور ناشئة من المادّة؛ لأنّ الصورة لا تكون بلا مادّة.

عمانوئيل: هل تقدر أن تفسّر لي كلامك هذا؟ فماذا تقول؟ وماذا تريد بقولك هذا؟ رمزي: ما عليّ إذا قلت: إنّ المادّة تتحوّل وتصير صورة، وهذه هي السنّة في الصورة فإنّها لا تكون إلّا من تحوّل المادّة.

عمانوئيل: لا أحمل كلامك هذا على عاتق أهل العلم، ولكن لك أقول: يلزمك على كلامك هذا أن تقول بانعدام المادّة شيئاً فشيئاً بسبب تحوّلها إلى الصور إلى أن ينتهي الحال إلى انعدامها بالمرّة، والذي يندم ولو تدريجاً ولو بالتحوّل لا يكون أزليّاً، فإنّ

الأزلي عند أهل العلم لا بدّ من أن يكون أدياً، وما ليس أزلياً لا بدّ له من علّة تعلّله وموجد يبدعه.

وأما قولك إنّ الصورة لا تكون إلّا من تحوّلها من المادّة، فإنّك قلته وكأنّك لا تدري بأنّ المادّة لا تكون في الوجود بلا صورة، فماذا تقول في أوّل صورة كانت للمادّة؟ فقل لنا: هذه الصورة الأوّليّة المقارنة للمادّة في الوجود واللازمة لها من أين تحوّلت؟ رمزي: إنّ الصورة لا تكون بلا مادّة، فلا يكون حدوثها إبداعاً.

عمانوئيل: الإبداع: هو إحداث الوجود بعد العدم، وهو لا شكّ في تحقّقه في الصور النوعيّة. ومن ذا الذي اشترط في معنى الإبداع أن يكون عبارة عن إيجاد الشيء منفرداً بالوجود، غير مرتبط بشيء آخر كارتباط المادّة بالصورة والصورة بالمادّة؟ وإن كانت لك نقرة مع الإبداع حتّى صرت تتحكّم فيه وتشتترط فيه ما ليس بشرط، فدعه ونكلّمك في خلق الشيء وإيجاده بعد عدمه. دع عنك الخلق والإيجاد، بل نكلّمك في وجود الشيء وحدوثه بعد عدمه.

يا رمزي، إنّ حدوث الصورة من أوضح الأدلّة على حدوث المادّة، فالمادّة ملزومة للصورة، ولا يعقل في العلم والوجدان وجود مادّة بلا صورة. وإذا كانت الصورة حادثّة بواضح الحسّ فلا بدّ من أن تكون المادّة حادثّة أيضاً؛ لأنّ ملزوم الحادث حادث بلا شكّ. هل يمكن أن تقول بقدّم المادّة، مع كونها ملزومة في الوجود للصورة الحادثّة؟ أم هل يمكن لأحدٍ أن يقول: أنّ الصورة قديمة؟

رمزي: إنّ الصورة الأوّليّة مقارنتاً للمادّة في الأزّل في أزليّة كالمادّة غير حادثّة. عمانوئيل: إنّ أهل العلم بأجمعهم يعترفون بما يحكم به العقل والوجدان من أنّ الأزلي لا بدّ من أن يكون أدياً لا ينعدم، وقد يجري هذا الاعتراف على لسانك، سواء كان عن شعور بحقيقة أو عن تقليد للمسموعات. وها هي الصورة تنعدم، وتخلّفها في الوجود صور أخرى لم يكن لها سابقة في الوجود، فكيف تكون أزليّة؟ حتّى أنّ صورة الأثير - الذي تفرضونه - تعترفون بخضوعها للانعدام وحدث صور أخرى بعد انعدامها، وعلى هذا جرى افتراضكم.

يا رمزي، لا يخفى على ذي حسّ وشعور كون الصورة والمادّة متلازمتين في الوجود، هل تكون مادّة في الوجود بلا صورة؟ إذا فكيف تكون المادّة أزليّة قديمة، مع أنّ الصورة اللازمة لها خاضعة للتغيّر والعدم والحدوث بعد العدم؟!

رمزي: إنّ العلم يبيّن أنّ العالم مضت له ملايين كثيرة من السنين ومادّته تتقلّب بها الصور وتتوارد عليها التغيّرات، فكيف يمكن أن نقول بحدوث المادّة؟!

عمانوئيل: عجيب قولك هذا يا رمزي، فهل أنت تنسى أوّل الكلام أم تتناساه؟! متى قبلنا افتراضات بعض المادّيين في أنّ المادّة بجميع أقسامها هي منذ الزمن القديم إلى الآن لم يطرأ عليها العدم ولم تحدث بعد العدم؟

وكيف تستند في دعواك هذه إلى بيان العلم، مع أنّ الاكتشافات الجديدة من المادّيين وغيرهم قد أوضحت في العلم السائد أنّ المادّة تنعدم وتحدث؟!

وأيضاً هل سمعنا نقول: إنّه لم يكن لنوع المادّة وجود قبل سبعة آلاف سنة أو ثمانية؟ فلماذا لا تدري بأنّ الذي نقوله بحكم العقل والوجدان هو أنّ المادّة ليست أزليّة؛ لأنّها لا يمكن أن تكون واجبة الوجود، وما لا يكون واجب الوجود لا بدّ له من أن ينتهي بإيجاده إلى واجب الوجود الجامع لخصائص وجوب الوجود، كما بيّناه في الجزء الثاني^١ وإن كان الإيجاد قبل ملايين الملايين من السنين؟

وأكدنا ذلك ها هنا بأنّ المادّة ملزومة للصورة ولا تنفكّ عنها، ولا شكّ في أنّ الصورة متغيّرة حادثة، وما هو ملزوم الحادث حادث ليس بأزليّ بالبداهة.

رمزي: ها هي التوراة تقول في أوّل سفر التكوين و ما بعده من التاريخ ما يرجع بحسب تواريخها إلى أنّ مبدأ خلق العالم السماوي والأرضي لم يمض عليه أكثر من ثمانية آلاف سنة، مع أنّ العلم يبيّن أنّ هذا الزمان لا يكفي في تكوّن طبقة من طبقات الأرض. عمانوئيل: قد أجرينا بعض التحقيقات اللازمة في شأن التوراة الرائجة، فانكشف لنا أنّها غير التوراة الحقيقيّة، فانظر إلى الجزء الأوّل من هذه الرحلة^٢، فليس من الصواب

١. تقدّم في ص ٢٨٢.

٢. تقدّم في ص ٣٢-٣٣.

أن تجعل مضامينها وسيلة لجدالك المبنّي على خضوعك للتخمينات.
 وها هو ذا قرآن المسلمين يبيّن أنّ خلق الأرض وسكّانها كان قبل خلق هذا النوع
 الإنسانيّ بمدة من الدهر، وأنّ هذا النوع الإنسانيّ خلق خليفة بعد نوع أو أنواع
 منقرضة. ولم يقتض المقام أن يتعرّض لبيان ما مضى للمخلوق من الدهور والأحقاب،
 فانظر إلى قوله في الآية الثلاثين من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي
 الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

رمزي: إنّ أقوال العلم العصري والرأي السديمي تفيد أنّ تكوّن الشمس والكواكب
 والأرض يحتاج إلى دهور طويلة وملايين عديدة من السنين، والتوراة والقرآن يقولان:
 إنّ السماوات والأرض وما فيها قد تمّ خلقها في ستة أيام.

عمانوئيل: قد أوضحنا فيما كتب في هذه الرحلة أنّ العلم الحقيقي يبيّن حدوث
 المادّة والصورة، وأنّهما لا بدّ لهما من موجد قادرٍ على خلقهما وتكوينهما، إذأ
 فمن ذا الذي حدّد قدرة هذا الموجد، أو حدّد حكمته بحيث لا يمكن أن يخلق العالم
 بستّة أيّام؟

أفلا تدري أنّ افتراضات المذهب السديمي إنّما خيلتها افتراضات مستحيلة في
 العلم، كافتراض قدم المادّة، وافتراض بساطتها في القديم بافتراض الجواهر الفردة، أو
 افتراض الأثير، ثمّ افتراض تطوّر المادّة في صورها بالحركات الحادثة المحتاجة إلى
 الدهور والأعوام وما هي القيمة لهذه الافتراضات إذا قاومتها الحجّة على استحالتها؟
 وكيف تصادر الإلهيين بافتراضات الماديين؟

وإن كنت من الإلهيين الذين خضعوا لتخمينات الرأي السديمي بالظفرة التي يسمونها
 بالشجاعة الأدبيّة، فليس لك أن تعترض على قرآن المسلمين، بل عليك أن تؤوّل
 الستّة أيّام المذكورة بستّة دهور على طول افتراضاتك الخياليّة، فإنّ القرآن لا يأبى
 ذلك، لأنّه قد قدر بعض الأيّام بمقدارٍ دهري كمقدار ألف سنة وخمسين ألف سنة.

نعم، إنّ التوراة الموجودة لا تساعد صراحتها على هذا التأويل، فإنّها تصرّح في أولها من العدد الثالث إلى الحادي والثلاثين بأنّ اليوم من هذه الأيّام الستّة كان عبارةً عن صباح ومساءً ونور نهار وظلمة ليل.

التأويلات الموهومة لـ «ستّة أيّام»

ومن الظرائف في هذا المقام أنّ جماعة ممّن يتمجّد بالروحانيّة المسيحيّة قد أُشربوا في قلوبهم المذهب السديمي وافتراضاته، ومذهب تحوّل الأنواع وافتراضاته، ولأجل ذلك ارتبكوا في أمر الستّة أيّام في الأعداد المذكورة في التوراة.

فرايت جرجي زيدان في صحيفة ٣ من كتابه عجائب المخلوقات يؤيد تأويلها بستّة دهور، ويذكر الاتفاق عليه ممّن أسّس آراءه على العلم الطبيعي، وأنّه نال الاستحسان عند عقلاء النصرانيّة في أنحاء العالم المتمدّن^١، وهذا كلّ منهم يكون رغماً على صراحة التوراة التي لا تقبل التأويل.

ورأيت في الكتاب المسمّى من أين جننا العربي المطبوع سنة ١٩١٢، والمكتوب عليه أنّ أصله تأليف الخوري مورو، وعرّبه الخوري لويس دريان، وأهداه إلى الذي طلب منه تعريبه وهو المطران بطرس شبلي رئيس أساقفة بيروت، ما نصّه - في صحيفة ١٣٤ :-

لم يخطر على بال الكنيسة أن تحدّد بنوع من الأنواع تاريخ وجود الإنسان وحالة الإنسانيّة، وقد يعترض بقول التوراة^٢. ولكنّ التوراة لا تدلّ على شيء من هذا وأما ما نفروّه فيها من الأعداد فلم يعد مخفياً على أحد أنّ التحريف قد تطرّق من النسخ بلا قصد، وهي تختلف من نسخة إلى أخرى، ولهذا يستحيل الاعتماد على ما جاء فيها من هذا القبيل. انتهى محلّ الحاجة.

١. عجائب المخلوقات ضمن مؤلّفات جرجي زيدان الكاملة: ١٧.

٢. وهو ما ذكرته في الفصل الأوّل من التكوين من أنّ السماوات والأرض وما فيها والإنسان خلقت في ستّة أيّام من يوم الأحد إلى الجمعة كلّ يوم عبارة عن صباح ومساءً ونور نهار وظلمة ليل مع ذكرها للتاريخ من مبدأ ذلك إلى موت موسى، وهو ما لا يبلغ ثلاثة آلاف سنة (منه ﷺ).

وليت شعري ماذا أبقى هؤلاء الروحانيون من الاعتبار لتوراتهم، إذ حكموا بتحريف الفصل الأوّل منها بأجمعه، وتحريف ما تضمّنته من التأريخ من أولها إلى آخرها؟ ولا أظنّ هؤلاء الروحانيّين يسمعون بالاعتراف بتحريف توراتهم فيما فيها من الخرافات الكفريّة في قصّة نهي الله لآدم عن الأكل من الشجرة، وتمشي الله في الجنّة، وخوفه من بناء برج بابل، وقصّة الذين جاؤوا إلى إبراهيم وإلى لوط، وبركة يعقوب ومصارعته، وغير ذلك ممّا ذكر بعضه في الجزء الأوّل من هذه الرحلة^١. ومن جرأة الانهماك بالمذهب الداروني ما وجدناه في صحيفة ٢٤٢ من مجلّة الحرّيّة البغداديّة من قول بعض:

إنّ الحجر الأساسي الذي لم يكشف إلّا على عهد داروين - وهو الذي يدعوه علماء الطبيعة: نظريّة النشوء والارتقاء - ليس لداروين، بل هو لرجل أعظم منه، وقد صرح بهذه الحقيقة الطبيعيّة وهذا النصّ بحروفه: «خَلَقْتُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ»^٢ إلى آخره. انتهى ملخصاً. فانظر واعجب، كيف تقهقر العلم وتساقل أمر الاحتجاج وسهل التناقض؟! إذا كان الحجر الأساسي لم يكشف إلّا على عهد داروين، فكيف يكون لرجل قد سبقه بنحو اثني عشر قرناً في كتاب يقرؤه الكثير من البشر؟ وأيّ ربط في الآية الشريفة بتحوّل أنواع الأحياء بالنشوء والارتقاء والانتخاب الطبيعي، لا بالخلق الخصوصي الذي تصرّح به الآية وتؤكد حقيقته؟ ولماذا لم يكتف هذا القائل باحتجاج داروين لمذهبه بتربية الحمام عشرين سنة، ونحو ذلك ممّا ذكرناه في الجزء الثاني في صحيفة ٢٥٦ إلى ٢٦٠؟

ومن هذا النحو ما نقل عن ابن رشد^٣ من أنّه عضد أزلّيّة المادّة بالنوع وحدوثها

١. تقدّم في ص ٢١ و٢٦ و٣٥ و٥٨ و٦٥.

٢. الحجّ (٢٢): ٥.

٣. نقله في صحيفة ١٥ من المقدّمة لرسالة بقاء النفس المطبوعة سنة ١٣٤٢هـ في مطبعة رعمسيس في مصر القاهرة (منه ❦).

بالصورة بآيات من القرآن الكريم، وحاول بها نفي الحدوث الحقيقي، أي وجود الشيء بعد عدمه المحض وذلك كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾^١ وقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾^٢، حيث يقتضي ذلك وجود الماء قبل إيجاد السماوات والأرض، يقتضي حدوث العالم بمشيئة إلهية عن مادة سابقة للعالم وهي الدخان.

ونقل عنه أيضاً أنه يقول: «ليس في ظاهر الشرع ما يثبت أن الله كان موجوداً بلا وجود شيء، أي موجوداً مع عدم الأشياء ثم خلقها». انتهى.

ويا للعجب، هل في آيات القرآن الكريم المذكورة أن الماء والدخان الموجودين قبل السماوات والأرض هما ليسا حادثين مخلوقين بعد عدمهما المحض؟! وهل يلزم أن الشيء الموجود قبل السماوات والأرض لا بد من أن يكون أزلياً؟ وكيف يكون الدخان هو المادة الأزلية بالنوع وخلق منها العالم فحدثت بالصورة؟ هل الدخان مادة بلا صورة؟ وهل يمكن وجود مادة بلا صورة؟

الصورة والمادة، ومزاعم الجواهر الفردة

يا رمزي، انظر إلى هيكلك الإنساني وما فيه من الأجزاء والأجهزة، وآلات الحواس والمشاعر، ثم انظر إلى أقرب الكائنات إليك من مبادئك، وهي النطفة التي نزلت من أبيك في رحم أمك فتكوّنت منها، أو كما يقولون: البيضة التي خرجت إلى رحم أمك من مبيضها، فهل تقدر أن تقول: إنك في حالك الفعلي بهيكلك الإنساني هذا لا يمتاز وجودك عن وجود المنى أو البيضة بشيء موجود؟

هل تقول: إن هيكلك الإنساني هذا لا شيء ولا موجود، وإنما أنت الآن منى أو بيضة الأنثى، ولم يحدث في صورتك الإنسانيّة وجود ولا شيء موجود؟

الإنسان الذي يشعر ولم يعرف شعوره بالتقليد للمسموعات، هل يمكنه أن لا يحس

١. هود (١١): ٧.

٢. فصلت (٤١): ١١.

ولا يجد في أول المحسوسات والبدهيّات بدهة حدوث الوجود والموجود بعد العدم؟
 إذاً فكيف يقول بعض الناس بملء فمه ويكتب بشجاعة قلمه: يستحيل خروج الوجود
 من العدم، يستحيل حدوث الوجود بعد العدم، يستحيل حدوث المادّة بعد عدمها؟
 أليست الإنسانيّة في أفرادها شيئاً موجوداً؟ أليست الحيوانيّة في أفرادها
 شيئاً موجوداً؟ أليست النباتيّة شيئاً موجوداً؟ أليست الصور النوعيّة من جميع
 الأنواع الموجودة شيئاً موجوداً؟ أو لم يحدث لكلّ فردٍ من هذه الأنواع والأجناس
 وجود بعد العدم؟

أفلا تعتبر، أفلا تنتبه إلى أنّ الافتراضات التي يلفّقها الإلحاد بأهوائه لا زالت
 ولا تزال تلاشيها البدهة العقلية والاكتشافات التجريبيّة حتّى ممّن ذهب مذهب الإلحاد؟
 أحسّ لوسيوس وديمقراط وبيقورس بأنّ تركّب الموجودات العالميّة من حيث
 المقدار والماهية يناهض بحدوثها وحاجتها إلى الإيجاد من الإله، الذي تبطل مرامي
 أهوائهم بالاعتراف به، فالتجأ هؤلاء إلى افتراض الجواهر الفردة، وافتراض حركات
 طبيعيّة لها مختلفة.

ولكن لأمر من الأمور وقفت شجاعتهم الأدبيّة عن الطفرة إلى افتراض موجود
 مادّي بلا صورة، ولا إلى افتراض صورة بلا شكل هندسي، فقالوا: بأنّ للجواهر الفردة
 أشكالاً هندسيّة، وسدّوا آذانهم عن نداء الحقائق المعقولة بأنّ الحركة واختلافها
 والصورة والشكل الهندسي من الدلائل على بطلان افتراضهم للجواهر الفردة والجزء
 الذي لا يتجزّأ.

وجاء خلف ذلك السلف فقالوا: إنّ جواهرنا الفردة التي نفترضها هي أصغر من
 جواهر ديمقراط، ولم يحتفل بنداء الحقيقة بأنّ الموجود المادّي مهما فرض له من الصغر
 لا ينفكّ عن الصورة، والصورة لا تنفكّ عن الشكل الهندسي، والشكل الهندسي لا ينفكّ
 عن قبول التجزؤ.

حتّى إذا جاءت الاكتشافات الجديدة وأوضحت أنّ افتراض الجواهر الفردة - أعني
 الأجزاء التي لا تتجزّأ من المادّة - إنّما هو افتراض باطل موهوم، ومن تلك الاكتشافات

اكتشاف الفيلسوف الأمريكي الدكتور روبر ميليقان، فإنّ أصغر ما افترضه من الجسم وسمّوه جوهراً فرداً و«اتوم» فقد اكتشف هذا الدكتور أنّ اتوم الهيدروجين مركّب من نواةٍ فيها الكترليك مثبت، والكترون يدور حول النواة فيه الكترون منفيّ.

ولا تقل: إنّ هذه النواة وهذا الكترون هي الأجزاء التي لا تتجزأ، لا تقل ذلك، فإنّه وجد أنّ ما هو بقدر اتوم الهيدروجين ينقسم إلى أكثر من ذلك من الكترونات، كالثلاثة والأربعة والخمسة إلى العشرين فما فوق.

فهذا الاختبار زيادة على دلالته على انقسام ما يفرضونه الجوهرة الفرد والاتوم، يدلّ على انقسام مقدار الكترون منه إلى أقسام لم يوقف على حدّها، ومع ذلك فكلّ ما يصلون إليه من الأقسام مرهون لبرهان العلم على انقسامه بأنّه لا بدّ على الأقلّ من أن يكون له طرفان ينقسم إليهما، كما هو لازم في كلّ موجود ماديّ.

كما قد أوضحت الاكتشافات أنّ المادّة تحدث وتنعدم، فتركت افتراضات الجواهر ونتائجهم منها ممخّضة للامتناع، كم استغفلت أهواء الإلحاد من تشبّث لمزاعمه بالتقحّم الفارغ من ادّعائهم أنّ في الإنسان جملة من الغدد العديدة القنوات، والغدد الوحيدة هي عديمة الفائدة في الحياة، بل هي مضرّة بها، ومنها الغدّة الدرقيّة الواقعة في العنق تحت الحجرّة، وكان هذا التقحّم من وسائل الإلحاد ونفي الإله الخالق بعلم وحكمة.

فجاءت الاكتشافات الجديدة العلميّة وفضحت تلك التقحّمات والوسائل الفاسدة، جاء اكتشاف الدكتور كوخر السويري، إذ نزع ١٥٠ غدة درقيّة، فظهر له أنّ نزعها مضرّ بالدماغ جدّاً؛ لأنّ المنزوعة منهم قد وقعوا في البلاهة النامّة.

واكتشاف العلم التجريبي أنّه عند عروض المرض للغدّة الدرقيّة يحدث خمول في الذهن يشبه البله، لا يشفى المريض منه حتّى يحقن بخلاصة الغدّة الدرقيّة من الفرس. وجاء اكتشاف الهرمونات «المنبّهات» التي تفرزها الغدّة المذكورة، وينشرها الدم في الجسد؛ لكي تنظّم حركة الجسم وتوازن عمل أعضائه وتسهّل، هذه النظرية التي شاع الاعتقاد بها في هذه الأيام.

كما وجدوا فوق الغدّة الدرقيّة غدّتين لا تزيد إحدهما عن رأس الدبوس، إذا نزعتا

من إنسان أُصيب بتشنج ومات بعد ستّ ساعات، وأنّ الغدّتين اللتين فوق الكلّيتين إذا نزعنا مات الإنسان في الحال، وأنّهما تفرزان سائلاً يسمّى «الأدرينالين» هو سبب حركة القلب.

فكانت هذه الاكتشافات الثمينة من جملة الزواجر للمستنتجين من الجهل بالحقائق جملةً من افتراضاتهم الفارغة، التي يعارضون بها الحقائق المعقولة، ودع وقوف دلائل العقل وبديهيّاته في مرصاد التوبيخ.

القرآن الكريم ومزاعم المادّة وخيالاتها

رمزي: يا شيخ، ألا يمكن أن تكون بعض الآيات القرآنيّة مؤيّدّة لمزاعم من ينكر الحدوث الحقيقي وخلق الشيء بعد العدم المحض ومن لا شيء، ويعنون بالشيء ما يستوّنه الهبولي والعنصر غير المصوّر؟ ألا يمكن أن يقال بأنّه لم يثبت مخالفة القرآن لهذا الرأي بعدما جاء فيه ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾^١ إذ الاستفهام إنكاري تحقيقاً؟
عمانويّل: قد ذكر الشيخ هذه الآية والتي بعدها في الصحيفة ٣٤٣ من الجزء الثاني، وهل يخفى عليك وعلى العارف بالقرآن الكريم أنّ الآيتين المذكورتين إنّما هما في مقام الحجّة لوجود الإله الخالق، وفي مقام الإنكار والتوبيخ على عدم اليقين به، لا للاحتجاج على أزليّة المادّة والهبولي غير المصوّر وخروجها عن دائرة مخلوقاته وإيجاده لها بقدرته بعد عدمها، فكيف تقول قولك هذا؟!

هل يتحمّل القرآن ويقول بغير المعقول، ويفترض وجود مادّة وهبولي غير مصوّر ويسمّيها شيئاً، وهي أزليّة غير مخلوقة ولا مسبوقه بالعدم، ثمّ يخلق بعد ذلك فيها الصورة؟ هل يمكن أو يعقل وجود مادّة بغير صورة؟ كيف والمادّة إنّما يتقوم وجودها بالصورة؟! هل هذا القائل لم يسمع من القرآن قوله: إنّ الله ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كما في سورة الأنعام ١٠٢، والرعد ١٦، والزمر ٦٢، والمؤمن - غافر - ٦٢.

﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ كما في سورة طه ٥٠.

﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ كما في سورة السجدة ٧.

فإن كانت هذه المادة الموهومة شيئاً يمكن افتراضه، فالقرآن قد كررت صراحته بأن الله خالق كل شيء. إذاً فكيف تقول: لم يثبت مخالفة القرآن لأزليّة المادّة؟! فليحفظ هذا ولينتكلم في معنى الآيتين المتقدّمتين بشرف علم بشأن القرآن وسوقه.

وماذا يجديك في خيالك الموهوم كون الاستفهام إنكارياً، بعدما يعرف من سياق القرآن الكريم وجه الإنكار بالاستفهام، ذلك الوجه الواضح؟

الشيخ: لا أظنه قال ذلك عن اعتقادٍ، بل على نحو بحث، كيف وإنه قد ردّ مزاعم ابن رشد في قوله: إنه ليس في ظاهر الشرع ما يثبت أن الله كان موجوداً بلا وجود شيء، حيث قال: «كيف وقد جاء: كان الله ولم يكن معه شيء».

عمانوييل: قد كان غنياً عن هذا البحث المتهافت الذي أوقع كلاميه في التناقض، وأوقعه في الغفلة عن المعقول وجلالة قرآنه واستقامة تعاليمه وفهم سوقه. وهل هذا إلا ككلامه في احتجاج العلامة نصير الدين على حدوث المادّة والعالم بدلالة لزوم التغيّر والحوادث لها حيث قال: هذا وأمثاله يثبت حدوثها أفرادياً لا ما يسمونه نوعياً، فلا ينافي أزليتها هيولياً.

يا شيخ، هل يعقل وجود نوعي أزلي بلا وجود أفرادى؟ وهل يعقل وجود هيولياً بلا صورة؟

تتمّة في احتجاج القرآن على الإلهيّة

الشيخ: إنّي ذكرتُ في الصفحة ٣٢٢ من الجزء الثاني احتجاج القرآن الكريم في الآيتين الثالثة والرابعة من سورة الجاثية المكيّة، وقد فاتني ذكر الاحتجاج بالآية الخامسة منها وهو قوله جلّ شأنه: ﴿وَ اٰخْتَلَفِ الْاَيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا نَزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمَآءِ مِنْ رِزْقٍ فَاٰخِطَا بِهٖ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ تَضْرِيْفِ الرِّيْحِ ؕ اَيِّنْتَ لِقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ﴾ ما في هذه الأمور من الآيات الباهرة والغايات العجيبة، ينظر العامي إلى موازنة اختلاف الليل والنهار

المستمرة في الأحقاب والأدوار وما لهذا الاختلاف من الحكم والآثار، فيعرف بفطرته أن هذا كله تدبير حكيم عليم قادر.

ويلتفت العارف إلى تدبير ذلك بسير السيار «الأرض أو الشمس» سنوياً على منطقة البروج، فيبهره هذا التدبير العجيب وهذا التسخير المتدفق بآيات الحكمة، كما مرّ بعضه في الجزء الثاني صحيفة ٣٢٢ - ٣٢٤.

ويتبصر العاظمي والعالم بالنظر إلى ما ينزله الله من السماء وجهة العلو من رزق الأحياء الذي تجري منه الأنهار، على تقدير مستدرج، وبالمطر الذي يعمّ الأرض المرتفعة عن الأنهار فيحيي برزق الثلج والمطر موات الأرض، ويقيم به معاش الأحياء في المطعم والمشرب والتنمية وتلطيف الهواء وتعديله بعد أن جعله عذباً سائغاً تراح به الأرض والأحياء، فلا تدع هذه الحكمة الجليلة مفرأ لأحد عن الإذعان بأن ذلك من تقدير حكيم رحيم.

ويتبصر العاظمي والعالم بالنظر إلى تصريف الرياح حسب منافع الناس ومواقع احتياجهم في تلطيف الهواء وإثارة السحب وسوقها إلى مواقع نفع الأمطار، وفي إذابة الثلوج وتسيير السفن الشراعية ورفع العفونات الحادثة، فتجري بتصريفها في نفع العموم على التناوب والتعديل والحكمة.

فالرياح المحلية تهبّ شمالية وجنوبية وشرقية وغربية ومن جهات متعددة ممّا بين هذه الجهات الأربع، والرياح التجارية التي تهبّ من جانبي خطّ الاستواء، هذه إلى الشمال وهذه إلى الجنوب، كما تهبّ من ناحية القطبين إلى خطّ الاستواء على ميل في هذه الرياح، هذه إلى الغرب وهذه إلى الشرق؛ لكي يساعد هذا الميل على السير في جهات متعددة بتغيير وضع الشراع.

من ذا الذي صرّف الرياح الاستوائية من هاهنا إلى الشمال ومن هنا إلى الجنوب؟ ومن ذا الذي صرّف الرياح القطبية إلى خطّ الاستواء؟ ومن ذا الذي أمال هذه الرياح عن وجهها؟ هب أن حرارة خطّ الاستواء تمدّد الهواء وتخفّفه وترفعه، فلماذا يتوجّه إلى القطبين؟ أين التعليل بالارتفاع؟ ألا ترى هذه الرياح الاستوائية ينتفع بها الشراع في

قرب خط الاستواء، كما ينتفع بها إذا بعد عنه على نهج متساوٍ.

ومن ذا الذي جعل الرياح الموسميّة مختصّة ببعض المواضع وتقسم السنة بفصلين؟ ومن ذا الذي حكم على رياح المحيط الهادئ وبعده المحيط الأطلسي بالانتظام في الهبوب والسلامة من عصف الأعاصير التي تعصف أحياناً كثيرة في بحر الصين وبحر انتيلة المقابل لأمريكا الوسطى؟ فأين العقول عن مثل هذه الآيات المشرفة بدلائل الحكمة والقدرة الإلهية؟

وقال - جلّ اسمه - في الآية السابعة والخمسين من سورة الأعراف المكيّة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نِّقَالًا سُقِّنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ في كلّ بلدٍ ما تقتضيه الحكمة وتوزيع النعم وتنسيق التجارة ومناسبة المحيط.

كرامة العقل وتسويلات الإلحاد

رمزي: إنّ العلم لا يعتمد إلّا على المحسوسات أو ما يرجع إلى الحسّ، وكلّ ما تذكره في أمر الإلهيّة والإله يرجع وينتني على مقدّمات هي من العقل المجرد. هذه مبانيكم: الموجود الحادث لا بدّ له من موجد، لا بدّ من أن ينتهي التعليل إلى واجب الوجود، موجد الموجودات المنتظمة في غاياتها، عالم بالغايات، أو وجد الموجودات لأجل غاياتها، واجب الوجود لا يتعدّد، لا تتجسّد هذه المباني التي لا مساس لها بالحسّ بل هي من العقل المجرد.

الشيخ: إنّ خفي عليك فلا يخفى على أصحاب العلوم أنّ كلّ علم لا غنى له عن الرجوع إلى مثل هذه القضايا العقلية الكلّية الفطرية البديهية، بها يسير سيره وعليها تبني أدلته وبراهينه، وهي الحجر الأساسي لبناء العلوم واستنتاج كليّاتها النظرية المدوّنة فيه، وتمشي أحكامها للموارد الجزئية في مقام استثمار العلوم. ولا يجدي الحسّ في أدلّة العلم شيئاً، لولا هذه القضايا - التي تمتاز بها فطرة العقل المجرد المشرف على الحقائق بنورانيته - لا يؤسّس مجرد الحسّ قاعدة كليّة تنفع في العلوم،

ولعلك تتخيل ذلك في الاستقراء، أتدري ما هو الاستقراء؟ وما هي فائدته؟
 الاستقراء: هو أن تتبع غالب الأفراد وتشاهدها على حالة، فتأخذ من ذلك كَلِيَّةَ
 ظَنِّيَّةٍ في كَلِيَّتِها وعمومها، وتسري بواسطتها ظناً إلى الفرد النادر الذي لم تشاهده،
 فتحكم ظناً على هذا الفرد بأنه متَّصِفٌ بتلك الحالة.

إذا فاعلم أنه ليس في العلوم العمليَّة المتداولة ما هو مبنيٌّ على هذا الاستقراء.
 هلمَّ إلى أقرب العلوم إلى الحسِّ وهو علم الحساب، فلا تحسب أن أصول قواعده
 من الحسِّ. ألا ترى أن من أصوله البديهيَّة حكمك بأن كلَّ زوج ينقسم إلى متساويين
 من الصحاح، وكلَّ فرد لا ينقسم، وكلَّ ثلاثة وأربعة إذا جمعتهما يكون مجموعها سبعة،
 وكلَّ خمسة تطرح منها ثلاثة يبقى منها اثنان، إلى غير ذلك. هل تدَّعي أنك حصلت
 العلم بذلك من استقراء المحسوسات الغالبة؟

كلا ثمَّ كلا، هب أنك من زمان الطوفان إلى الآن قسَّمت الأربعة من أنواع الأزواج
 في ليلك ونهارك، فهل تبلغ من أفراد الأربعة واحداً من ألوف الملايين؟
 أو لاحظت الثلاثة من أنواع الفرد فوجدتها لا تنقسم إلى متساويين، فهل تبلغ من
 أفراد الثلاثة واحداً من ألوف الملايين؟

وكذا إذا جمعت من أفراد الثلاثة والأربعة، أو طرحت الثلاثة من الخمسة، كيف ينفع
 الحسِّ المجرَّد واستقراؤه القليل مهما بلغت من العمر؟ وكيف يغنيك عن العقل مع هذا
 الاستقراء النزر الطفيف، فتحكم حكماً قطعياً بديهيّاً بقضيَّة كَلِيَّةٍ لم تحسَّ من أفرادها
 بواحد من ألوف الملايين؟!

أليس ذلك الحكم القطعي البديهي لأجل حكم العقل الفطري المجرَّد بانقسام الزوج
 إلى متساويين بالنظر إلى طبيعته، وعدم انقسام الفرد إلى متساويين بالنظر إلى طبيعته،
 وأنَّ طبيعة الثلاثة والأربعة يلزمها أن يكون المجموع منهما سبعة، وهكذا في بديهيَّات
 الحساب والهندسة والتشريح؟

نعم، إن كان للحسِّ تأثير ومداخلة، فإنما هو بمقدار استلفات العقل إلى طبيعيات
 المحسوسات، فيحكم ببداهة الفطرة بأحكام القضايا الكليَّة القطعيَّة.

وإن كان غير المحسوس ممّا يعسرا حصاؤه من أفراد هذه القضايا، فإن كنت تعدّ أحكام هذه القضايا حسّية، فإنّ أحكام قضايا الإلهيين أشدّارتباطاً وأكثر تشابكاً بالمحسوسات، فإنّ جميع المحسوسات الحادثة المشاهدة في العالم تستلقت العقل بالبداهة إلى الحكم بحاجتها إلى موجد هو واجب الوجود، وتستلقت بتقان صنعها وارتباطها بالغايات الثمينة الباهرة إلى أنّ موجدها وهو واجب الوجود عالم بالغايات، أو جدها لأجل غاياتها، وقد أُشير إلى ما ذكرناه في كتاب أنوار الهدى صحيفة ٨ - ١٠ [ضمن المجلّد ٦ من الموسوعة]¹.

تسويلات ابيقورس

رمزي: قد كتبوا في الصفحة المائة والعشرين من مجلّة الحرّيّة البغداديّة قول ابيقورس في الإلحاد، وهو:

إنّ الإله إمّا أنّه رغب في أن يمحي الشرّ ولا يقدر، أو يقدر ولا يريد، أو لا يقدر ولا يريد، أو يقدر ويريد. أمّا الفروض الثلاثة فغير متصوّرة في إله جدير بهذا الاسم، فإن صحّ الفرض الرابع فلماذا الشرّ باقي إلى الآن؟

عمانوئيل: هل تدري يا رمزي ماذا يريد ابيقورس من لفظ «الشرّ» الذي جعله في كلامه؟ رمزي: الشرّ معروف، كلّ إنسان يعرفه، فلماذا تسأل عنه؟

عمانوئيل: إنّ مزاعم الإنسان الخاطئة قد وسّعت دائرة التسمية للشرّ، وأدخلت فيها كلّ ما يبهض الأهواء والألّفة والحرص والأمل والطمع والشره، حتّى أنّ الزاني يجعل منعه عن الزنى شرّاً ورد عليه، وقاطع الطريق إذا صدّه أحد عن قطع الطريق وحرمه من نهب أموال الناس فإنّه يعدّ ذلك شرّاً ورد عليه، وكافر النعمة إذا ابتدأته بالإنعام والتفضّل عليه زماناً ثمّ قطعت نعمتك عنه لحكمة أو لا لحكمة، فإنّه يعدّ قطعك لذلك الإنعام شرّاً كبيراً أو رده عليه وفعلاً ذمياً صنعته معه، فينالك بلسانه ويرميك بسهام لومه ويكفر بنعمتك عليه، تلك النعمة الابتدائيّة التي لا استحقاق له في أقلّ قليل منها.

هل أنت لا تدري بنعم الله على خلقه؟ أفلا تدري بأنّ المخلوق مغمور بنعم الله

خالقه؟ فإن كنت غافلاً عن جلالة هذه النعم وعظم مواقعها في العقول وفي النفوس فإننا نشير إلى بعض منها: هذا النوع الإنساني، مع علمه بأن حياته العاديّة في هذه الأدوار لا تتجاوز الثمانين سنة، مع أنّها مهذّدة بالانقطاع فيما قبل ذلك، انظر إليه كيف يرغب في حياة هذه مع قصرها وتهديدها، وكيف تجدها محبوبه ثمينة عنده بحيث لا يستطيع أن تقدّر محبوبيتها العظيمة عنده ولا مغالاته بقيمتها.

تراه منهمكاً بالاستعداد وتهيئة الأسباب لاستدامة حياته هذه والتمتّع بنعمها، يسعى لها بأنواع السعي والحرص والظلم والتكالب وإن انحطت قواه وقلّت ملاذّه، وفقد أنفع حواشيه وثروته وعزّه وشرفه وولده الوحيد، كلّ هذا لكي يتمتّع بنعمة الحياة وما بقي من ملاذّها بحرص وعظيم محبّة وانهماك بحياته وإن أيقن بقصر المدّة.

وبهذا الميزان تكون نعمة الحيوان في حياته وقيمتها في شعوره وابتهاجه بتمتّعه بها. وانظر إلى العلماء كيف يجدون حياتهم في العلم نعمة لا يستطيع تقدّيرها، ولا تحدّد محبوبيتها.

وانظر إلى المال ولوازم التميّش، وإلى الأولاد والسيادة والشرف، كيف يجدها الإنسان - بطبعه وفطرته - نعماً عظيمة محبوبه بجميع مراتبها.

بل إنّ الذي يشمخ ويتعالى بثروته، إذا زال عنه ذلك، فإنك تراه يتقحّم أرذل الوسائل وأخسّها لتحصيل ما يسدّ الرمق ويحفظ صحّته وحياته، ويجد حصول ذلك غنيمةً محبوبه ونعمة كبيرة يتمتّع بها ويتلذّد.

وكذا من عجز عن تحصيل المراتب العالية من المالاّ ومطامح الشهوات.

وانظر إلى من قنعت نفسه الكريمة ورضيت بما عنده، كيف يتلذّد ويتمتّع بما يجده ويعدّه نعمةً ثمينة محبوبه في حياته رغيدة.

لكن يا للأسف، إنّ الإنسان الأنيم إذا فقد مرتبةً عاليةً من النعم التي علق بها طعمه وحرصه، فإنه يعدّ فقدانها شراً صنع معه، وإنّ النعمة المفقودة كانت حقاً لفضيلته الموهومة وملكاً لدوام استحقاقه. فأوضح لي وفسّر لي ماذا يريد ابيقورس في كلامه من لفظ «الشر»؟

رمزي: يريد ويعني ما ملأ العالم من دواهي الموت، والأمراض، والأوجاع، والفقر، والبلايا، والمحن، وفقدان الأحبة، والانحطاط بعد الرفة، والدَّلة بعد العزّة. هذه الشرور التي لم تدع في العيش صفاءً ولا هناءً.

عمانوئيل: هذا ما نتهتك عليه إذ قلت لك: إن كافر النعمة يعدّ بجهله قطعها شراً كبيراً صنع معه، ولقد سبق التنبيه على هذا في كتاب أنوار الهدى صحيفة ٥٩ - ٦٨ [ضمن الموسوعة، ج ٦].

كل إنسان في العالم لا استحقاق له في شيء من الوجود والحياة والصحة والثروة والعزّ والأولاد والأحبة وجميع ما يرغب فيه، ولا يدخل شيء منها تحت قدرته ولا مساس لتأثيره بها، بل إنها كلّها نعم ابتدائية تفضّل بها عليه واهبها من دون استحقاق للإنسان لأقلّ قليل منها. فكلّ ما تعدّه من الموت والأمراض والأوجاع والفقر والبلايا والمحن وفقدان الأحبة، إنّما هو قطع للنعمة المحدودة بحسب الحكمة، لا شرّ ولا إيذاء ولا اضطهاد للاستحقاق ولا استلاب للشيء المستحقّ. لكنّ الإنسان الأثيم أليف الطمع والحرص والشهه وكفران النعمة بجهله ولؤمه وكبريائه يعدّ قطع النعمة شراً يكفر بالنعمة السابقة، ويسخط على المنعم، ويتجرأ عليه إذا قطعها لحكمة.

وإنّ الكثير من نوع الإنسان لا تراه يعترف بما ذكرناه من الحقيقة الواضحة إلا إذا أُنعم على إنسان تفضلاً وابتداءً من دون استحقاق ثمّ قطع نعمته، فصار ذلك الإنسان يشكوه وينسب له الإساءة والإيذاء بقطع النعمة، ويعدّ ذلك عليه شراً مذموماً. فترى المنعم حينئذٍ تتجلى له حقيقة ما قلناه، ويوبّخ هذا الشاكي على لؤم الحرص وكفران النعمة ونقص الجهل وردالة الطمع وخسّة الأخلاق.

الآلام والأوجاع

إنّ تنعم النفس بالنعم الجسمانية - ومنها وجود الجسم وصحته - إنّما هو بخلق الرابطة الأكيدة والعلاقة الوثقى بين النفس وجسدها، وبجعل تلك الرابطة طبيعياً على ناموس مستقرّ؛ لكي يتمّ للنفس نعيمها وتنعمها بالآية الجسد بتلك النعم التي لا تحصى، ولكي

تكون مسخرة في حفظ الجسد من الفساد وواسطة في تدبير صحته. ومن أجل هذه الرابطة وهذه العلاقة تتألم عند فقد الإنسان صحته وعند اختلال مزاجه، حينما يريد المنعم بتقديره وحكمته قطع بعض النعم عنه مؤقتاً أو دائماً. فالنفس بتلك الرابطة المجعولة لإيصال النعم العظيمة والملاذ الكبيرة، تكون شاعرة بما يعرض للجسد من فقد الصحة واختلال نظامه. فما عروض الآلام إلا أثر طفيف لتلك العلاقة التي تقوم بناموس إيصال النعم العظيمة إلى النفس وشعورها بها، ولا ينحجب عنها الألم إلا بقطع علاقتها حينئذٍ من الجسد، وفي ذلك يفوت تدبير النفس لنظام الجسد في ذلك الحين، وتبطل مدافعتها لأسباب الآلام طلباً لاسترجاع الصحة، إذاً فليست الآلام والأوجاع شرّاً يجب على الإله أن يمحوه.

من فوائد خلق الإنسان والحيوان على هذا النظام

كم ترى في الإدراك والشعور من مجدٍ وكرامة وإشارة إلى السعادة، إذاً فاعلم أنّ أشرف علوم الإنسان وأكرمها، والذي يكون وسيلة للسعادة الأبدية، وموصلاً إلى المدنية الحقيقية والاجتماع الراقى السعيد، إنّما هي معرفته لإلهه وواهب حياته وولي نعمته ومالك أمره، ومعرفة ما لهذا الإله من صفات الجلال والجمال، فيفوز من بركة هذه المعارف باتباع تعاليم إله في المدنية الحقيقية والكمال الروحي ورقى السعادة.

ألا وإنّ خلق العالم على هذا النظام باب لتلك المعرفة وملفت للنظر نحوها، ودليل هادٍ في جميع الأحوال إليها.

إذا التفت الإنسان إلى دوام التوالد والفناء، والحدوث والتغيير، والنمو والتحليل والمرض، والعجائب في تراكيب الحيوان وغايات أجزائه، وكيف يجري ذلك كلّ على نواميس منظومة الدوران، متناسقة الآثار، متماثلة الغايات.

فإنّ هذا الالتفات يتكفل بالهداية لمن لم يستأسر للهوى، ولم يساعد الجهل وبالتغافل والانهماك بالشهوانية والغرور، ويضمن له الإرشاد إلى أنّ لهذا العالم العجيب النظام خالقاً ومدبراً هو واجب الوجود، عالم بالحوادث والغايات؛ إذ أنشأ عجائبها

وقدّر فوائدها وربط متماتلاتها بنواميسها على نسق دائم في أدوارها وجعل الألاحق يحذو السابق على نظام متقن وتقدير باهر.

رمزي: أما ترى طغيان الطاغين، وفساد المفسدين، وظلم الظالمين، وتمرد المتمردين؟! أليس هذا شرّاً؟! أو ليس قد أظلم به العالم وكدر صفاء الإنسانية؟! أفلا يجب على الإله المستحق لهذا الاسم أن يمحوه، فلماذا الشرّ باقٍ إلى الآن؟

عمانوئيل: إنّ هذا الذي تذكره له جهتان، لكلّ منهما وجهة من الكلام: جهة من حيث وقوع الظلم والعدوان على المظلوم وتضرره بذلك، وجهة من حيث وقوع الاعتداء والظلم والتبذير من الفاعل. إذاً فيلزم أن نكلّمك في كلّ واحدة من الجهتين، ونستفتي فيها الشعور الحرّ والمبادئ المعقولة، فنقول:

أمّا الجهة الأولى: فإنّها ترجع إلى قطع النعمة عن المظلوم حسبما تقتضيه الحكم، وقد تبين أنّ الإله قد جعل نعمه محدودة بالتأثيرات المقدّرة في هذا العالم، وأنّ تحديد النعم وقطعها ليس من الشرّ في شيء، ولا يعدّه شرّاً إلّا من تلاعب بشعوره كفران النعمة وفساد الأخلاق والمبادئ الأهوائية.

من ذا الذي يوجب على الإله إدامة النعمة والمحاماة عن دوامها؟ أيّ مبدأ معقول وأيّ أدب مستقيم وأيّ شعور حرّ يوجب ذلك؟!

الإله الخالق هو واهب النعم ابتداءً وتفضلاً، وهو محدّدها، فلا شرّ في تحديدها، سواء كان ذلك التحديد لحكمة معلومة من معلوماتنا القليلة، أو مجهولة من مجهولاتنا الكثيرة الكبيرة، أم قلنا بجهلنا وغرورنا: إنّ تحديد النعمة لا حكمة فيه، فليس لايقورس وأتباع مزاعمه من هذه الجهة أدنى تشبّه خيالي.

وأمّا الجهة الثانية الراجعة إلى خلق الإنسان مختاراً في أعماله.

فإنّ مزاعم ابيقورس وأتباعه تتلاشى فيها بالالتفات إلى حكمة إتمام الإله لنعمته على الإنسان وإكرامه له بحرّيّة الإرادة والقدرة؛ لكي يتهيأ له السبيل إلى معارج الكمال والسعادة باختياره محاسن الأفعال، وتحصيل مكارم الأخلاق، واستحقاق المدح وثناء الشرف لكي يتنعم بإدراكه للذة الصلاح الاختياري، ورفعة الكمال التحصيلي، والارتقاء

لكرم الأخلاق الكسيبة واستحقاق المدح.

هذا في هذه الدار الدنيا، وقبل الجزاء العظيم والنتيجة الكبرى في الدار الآخرة ومقام السعادة العظمى والنعيم الدائم والجزاء الخالد، تلك النشأة التي لا تقدّر كرامتها العظيمة ولا تحدّ، لا يشمخ في أهوائه من يجحد الدار الآخرة؛ فإنّ ما أشرنا إليه من الفوائد في دار الدنيا كافٍ في الحكمة والنعمة بسخلق الإنسان حرّ الإرادة والقدرة، وإنّ هذا هو الروح لنعمة وجوده والمظهر للذة حياته في الابتهاج بكماله ورقية في فضيلة الصلاح.

أتمّ الإله على الإنسان هذه النعمة والكرامة بأن جعل في بديهيات إدراكه وفطريات شعوره ومعرفته لفضيلة الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة وأسباب الكمال وحسن ذلك وكرامة نتائجها الراقية الفاضلة المحبوبة. ومعرفة الأخلاق الخسيصة والأعمال الرديئة وأسباب النقص والسقوط وقبح ذلك ورذالة نتائجها السيئة الذميمة البغيضة.

وأيد هذه المعارف وأزال عنها معثرة الغواية، وساوس الأهواء. فأرسل الرسل والأنبياء بدعوتهم الصالحة، وإيضاحهم لما يخفى من ذلك على العقول، أو يستر غبار الغفلة واتباع الأهواء. وعضد الرسل بالكتب المقدسة، وما فيها من البيان والإرشاد وحسن الدلالة، وزاجر الوعيد على سوء الأعمال، وجميل الترغيب بالوعد بالجزاء العظيم على الأعمال الصالحة واتباع الهدى.

وأكد أطافه في ذلك بشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأديب الرئاسة الدنيئة التي جرت السياسات الزمنية على معقولها وإن تفاوتنا أحياناً بالتطبيق.

أفلا تدري أنّ الأفعال التي يفعلها الإنسان في الشرور، هي من نوع الأفعال التي يفعلها الإنسان في تنعماته المباحة وترقيه في الكمال، وإنّما تختلف الأفعال بالعناوين والإضافات، وأنّ القدرة وأسبابها على الفعل القبيح هي القدرة وأسبابها على الفعل الحسن؟! أم أنت لا تلتفت إلى أنّ الناس منهم من يختار اتباع الهدى وفعل الخير، فيرتقي بذلك إلى مراقي الكمال ومكارم الأخلاق والسعادة، ومنهم من يختار التلوّث بذميم الأفعال ورذيل الأخلاق وخسة السقوط؟! وسيأتي إن شاء الله لهذا زيادة إيضاح في

الكلام على المعاد وصحة مسؤوليّة الإنسان.

فهل يريد ابيقورس بتحكّمه أنّه يجب على الإله أن يسلب اختيار الإنسان وإرادته وقدرته، ويسدّ عليه باب الرقيّ في الصّلاح والكمال ويجعله كالحجر الذي لا يفعل الشّرّ؟ فيكون الإله قد سدّ باب النعمة والرحمة عن خلقه، وحجب كرامته عمّن يكون صالحاً كاملاً باختياره، وحرّمه الرقيّ باختيار الفضيلة ومكارم الأخلاق، وحجبه عن التّنعّم بسعادة الصّلاح والابتهاج بالكمال واستحقاق المدح والجزاء.

أما إنّه لا يحرم بذلك الصّالح وحده، بل يحرم المتمرّد أيضاً عن أهليّته وقدرته على الرقيّ المذكور.

هل يكون هذا من رحمة الله ولطفه بعبيده؟ وهل يجب هذا الحرمان على الإله، فيقاوم رحمته ولطفه وجوده لمحض أن لا يتمرّد المتمرّد بهواه، مع وضوح الحجّة له وتتابع المواعظ والإرشاد والزواجر عليه؟

أفلا يكفي المتمرّد ما يتّضح له في بديهيات إدراكه وفطريّات وجدانه، من حسن اختياره للصّلاح والأعمال الصّالحة، وما في ذلك من الفوائد العظيمة. وما يتّضح له من قبح اختياره للأعمال الرديئة وضرر نتائجها السيّئة، مع زاجر العقل والأنبياء والكتب الإلهيّة والوعاظ، وتهديد الشريعة بتأديبها؟

فهل بعد قيام الحجّة بهذه الأمور يبقى للمتمرّد أهليّة لشيء من العناية؟

فكيف يتحكّم إذاً ابيقورس وأتباعه على الإله بأن يعنّي بهذا المتمرّد الخسيس، ويحاييه بالحاء الإنسان وسلب اختياره وحرّيّة قدرته وإرادته، بحيث يسدّ على الصّالح - بل على المتمرّد أيضاً - باب النعمة والرحمة واللطف؟

خلاصة الكلام: يا رمزي، إنّ الإله يقدر على إدامة نعمه، ولكن لا يجب عليه أن يجعلها محدودة بأمر عاديّة أو اتّفاقيّة، لا يخرجها التحديد عن كونها نعمة، ولا يكون تحديدها من الشّرّ الذي يجب على الإله أن يرغب عنه ويرفعه.

وإنّ الإله يقدر على رفع التمرّد من المتمرّدين، ويرغب في صلاحهم باختيارهم؛

لكي يكونوا كاملين سعداء، وقد ساعدهم على أفكارهم بالحجج والبيان والترغيب والزرع، ولكنته بحسب رحمته ولطفه لا يرغب في رفع تمردهم بالبراءة للإنسان وسلب اختياره وقدرته وحرية إرادته.

فهل يخفى على الشعور الحرّ أنّه لا يحسن في رحمة الله ولطفه أن يحابي المتمردين الساقطين، بأن يسدّ عليهم وعلى الصالحين باب النعمة والرحمة واللطف؟ فليسقط قول ابيقورس: «فلماذا الشرّ باقي إلى الآن؟».

شبهة الجبر

الدكتور: هل يحسن في جلال الله وقده أن يساعد الإنسان الأثيم على فعل الإثم، أو يكون الإله هو الخالق لذلك الفعل، وهو الذي يلجئ الأثيم إليه ويضله؟
عمانويل: لا، وكلاً وحاشا.

الدكتور: إذا أرى الكثيرين من أصحاب الأديان يقولون بما أنكرته، وأرى جملة من الكتب المنسوبة إلى الوحي الإلهي تجاهر بهذا القول.

عمانويل: إنّ أقوال البشر المضطربة لا ينبغي أن يلقى ثقلها على عاتق الحقائق، ولا تكون وسيلة للخدش في شرف الحق والصواب، فكم ترى الأهواء تلاعبت بأقوال البشر ومزاعمهم، مع أنّ مجد الحقيقة محفوظ لها مهما نارت زوابع الاختلاف.

ولكن أيها الدكتور أين مجاهرة كتب الوحي بأنّ الإله يساعد الأثيم في عمل الإثم، أو يكون هو الخالق لعمل الإثم، أو هو الذي يلجئ عليه؟
رمزي: هذه كتب العهدين وهذا القرآن.

متشابهات القرآن وشبهة الجبر ومحكماته وإيضاحها

عمانويل: نلثفت إلى بيان مجد القرآن، فإنّا لا نجد فيه ما يخالف المعقول، ولا ما ينسب إلى الإله شيئاً ينافي قدسه.

لا يخفى أنّ القرآن جرى في العريّة على أسلوب البلاغة وحسن التصرف والتفنّن

بالاستعارة والتمثيل ومحاسن المجاز، هذه الأمور التي يبنتي بيان معانيها على القرائن والإيضاحات من دلالة العقل واللفظ والأسلوب، ومن أجل الغفلة عن ذلك وقصد الإغفال فيه تكثر عثرات الجاهلين ومخادعات الزيف والأهواء.

وقد نبه نفس القرآن على ذلك بقوله في سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ۝١ جارية على الصراحة في المعاني الحقيقية المؤيدة بحكم العقل واقتضاء السياق، فتندر عنها احتمالات المجاز في الشعور المستقيم. فقد أحكمت عباراتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه بحسب أهل اللسان المستقيمين في الشعور، والمبرئين من غواية الأهواء وفلتات الجهل.

ومن ذلك قوله في الآية الثالثة بعد المائة من سورة الأنعام المكيّة: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ هذا القول الذي يعتضد معناه الحقيقي المحكم بدلالة العقل على أن الإله ليس مادياً تدركه الأبصار.

وكقوله في مقام الإنكار على الأشرار في الآية الثامنة والعشرين من سورة الأعراف المكيّة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾.

وقوله في الآية التسعين من سورة النحل المكيّة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. والآيات المحكمات ﴿هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾ وأصله الحاكم الذي ترد إليه الحكومة حتى في المتشابهات.

﴿و﴾ منه آيات ﴿أُخْرٌ مُّتَشَبِهَةٌ﴾ في بادئ الأمر يحتاج فهم معانيها إلى القرائن العقلية أو الحالية أو المقالية؛ لكون تلك الآيات جارية على مقتضى البلاغة العربية وأسلوب كلام العرب الراقى في التفنن في محاسن المجاز والتمثيل والاستعارة والكناية، فتشبه الاحتمالات فيها بادئ بدء في أول النظر إلى معانيها.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَنْجٌ﴾ وانحراف عن الهدى والاستقامة ﴿فَيَسْبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾

ويتشبهون به في مقام الإضلال وتأييد الأهواء ﴿أَتَبِعَاءَ أَلْفِتْنَةٍ وَأَتَبِعَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾^١ وحمله على مغالطات الأهواء، رغمًا على دلالة القرائن من محكمات القرآن ودلالة العقل والقرائن. رمزي: ها هو القرآن قد كثر فيه قول الله «يضلّ الظالمين» و«الكافرين» و«المسرف

المرتاب» كما في سورة إبراهيم ٢٧، والمؤمن ٧٤ و ٣٤.

و«يضلّ من يشاء» كما في سورة الرعد ٢٧، وإبراهيم ٤، والنحل ٩٣، وفاطر ٨، والمدثر ٣١. و«إنّ من يضلله لا هادي له» كما في سورة النساء ٨٨ و ١٤٣، والأعراف ١٧٨ و ١٨٦، والرعد ٣٣، والإسراء ٩٧، والكهف ١٧، والمؤمن ٣٣، والزمر ٢٣ و ٣٦، والشورى ٤٤ و ٤٦، والجاثية ٢٣.

و«إنّ الله يطبع على قلب الأثيم» كما في سورة النساء ١٥٥، والأعراف ١٠٠، والتوبة ٩٣، ويونس ٧٤، والنحل ١٠٨، والروم ٥٩، والمؤمن ٣٥، ومحمد ١٦. ومعنى ذلك أنّه لا يترك قلبه ينفث للهداية، بل يكون مداوماً على فعل الشرّ.

و«إنّ الله يختم على قلوب الضالّين» بمعنى يطبع عليها، كما في سورتي البقرة ٧، والجاثية ٢٣.

الشيخ: هذا من المتشابه الذي أشار إليه القرآن، لماذا لم تعرف أنّ المراد من الإضلال في هذه الموارد: هو قطع العناية عن المتمرد في جذبه إلى الإيمان والصلاح؛ وذلك لأجل خروجه بتمرّده عن كونه أهلاً للعناية والتوفيق، فيوكل إلى انهماكه بتمرّده بعدما قامت عليه الحجج ووضحت له الدلالة على طريق الصلاح والنجاة والسعادة.

ولأجل أنّ عناية الله بالتوفيق، لها المداخله الكبيرة في جذب الإنسان إلى الصلاح والاهتداء ومقاومته للهوى والأميال الرديئة، كان انقطاع العناية عن التمرد والخذلان له ممّا يستحسن أن يستعار له لفظ الإضلال، إشعاراً وإفاناً إلى نعمة العناية وكبير أثرها في الاهتداء، فلا يتشبهت بسطح اللفظ من دون التفات إلى ما توضحه القرائن الكثيرة من المراد بحسن الاستعارة ونكات التفنّن في البيان.

ها هو القرآن نفسه يبيّن بمضامينه ما ذكرناه؛ إذ يقول في الآية الخامسة عشرة بعد

المائة من سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ ويرفع عنهم عنايته بالتوفيق ﴿بِعَذِّ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ بدلالة العقل في معرفة الحسن والقبيح ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ ويجتنبونه من المآثم والردائل، إقامة للحجّة، وتأكيذاً لدلالة العقل، وبياناً لما يخفى عليه أو أخفته العوائد الوحشيّة والغوايات الأهوائية.

هذا الكلام الذي يقّده الله وبنوّه بمجده ورحمته ولطفه، ويبين أنّه الهادي برحمته، وأنّه لا يضلّ قوماً بعد أن رحمهم بالهدى حتّى يوضح لهم الأمر، ويؤكد عليهم بالإرشاد والتنبيه، ويبين لهم ما يتقون. هل يمكن أن يعني من الإضلال: مساعدة الله على الضلال، والإلجاء إليه أو خلقه في الضالّ؟

إذاً فأين يكون تقديس الله وتمجيده؟!

أما إنّ هذا الكلام المتقدّم في الآيات إذا سمعته من بشر يتكلّم به، لم يسوغ لك شرف الفهم وأخذ النتيجة من مجموع كلام المتكلّم وشؤونهم إلّا أن تقول: إنّ المراد من الإضلال: هو رفع العناية والتوفيق.

هذا وإن لم نلتفت إلى القرينة بدلالة العقل ونفس القرآن على قدس الله.

إنّ الإله الذي يتمجّد بأنّه لا يأمر بالفحشاء، وأنّه ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ويعظ الإنسان، هل يمكن أن يخبرنا بأنّه يساعد على الضلال، أو يلجئ الإنسان إليه أو يخلقه فيه؟

أفلا يكون ذلك التمجّد دليلاً على أنّ المراد من الإضلال معنى لا ينافي ذلك التمجّد؟ أفلم تعرف ما ذكرناه من قوله في الآية السادسة والثمانين بعد المائة من سورة الأعراف: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وإنّ الإضلال هو أن يترك المتمرّد يعمه في طغيانه وترفع عنه عناية التوفيق، لخروجه عن اللياقة للطف، بعدما وضحت له الدلالة وقامت عليه الحجّة بالمواعظ والزواجر؟!

أفلم يتّضح ذلك أيضاً من قوله في الآية الثالثة والعشرين من سورة الجاثية: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ، وَقَلْبِهِ﴾ هذا الذي لم تتفع به دلائل العقل والمواعظ والزواجر، بل انهمك باتّباع هواه على علم منه بالحقّ

وبإدباره عنه بهواه وسوء فعله، فجعل هواه إلهاً له في الانقياد إليه.

هذا الذي قد رفع الله عنه عناية التوفيق، فتركه الله وهواه وطغيانه، واستعير لذلك لفظ الإضلال، فلم يوفق سماعه للانتفاع بما سمعه من النصح، ولم يوفق قلبه للإذعان بما ينفعه كل ذلك على علم بما ينفعه وما يضره، وعلى معرفة بالصالح والفاسد. فتركه الله وهواه، فكأنه ختم على سمعه وقلبه، فلا يدخل إليهما بعناية التوفيق ما ينفعه.

أفلا تنظر في الآيات الثامنة والتاسعة والعاشرية بعد المائة من سورة النحل فيمن توغّل بكفره، وتعامى في غيّه، وشرح بالكفر صدرًا، واستحبّ الحياة الدنيا على الآخرة، وحرمه الله هداية التوفيق بعد أن قام عليه الحجّة بهداية الدلالة، فلم يلتفت إليها، ولم يعتبر بما يراه من الآيات، ولم يصغ لما يسمعه من المواعظ والزواجر ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ تركهم الله وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم إلى ضلال كفرهم.

إذاً فلا ينتفعون بقلوبهم وسمعهم وأبصارهم في الهدى، ومن أين يأتيهم التوفيق إلى الهدى إلا من الله، وبذلك يكون الله جلّ اسمه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم. أفلا تنظر إلى ما جاء في القرآن من الإنكار والتوبيخ على فعل الشرّ والمعصية؟ فهل ينكر الله ويوبخ على ما خلقه هو في الإنسان أو ألجأه عليه؟

أفلا تنظر إلى قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾^١، ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾^٢، ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾^٣، ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^٤، ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^٥، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾^٦، ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا﴾^٧؟

أفلا تنظر إلى كثرة ما في القرآن من النهي عن الآثام والفواحش والزجر عنها

١. البقرة (٢): ٢٨.

٢. آل عمران (٣): ٧١ و٩٩.

٤. يونس (١٠): ٣٥.

٥. الانشقاق (٨٤): ٢٠.

٦. المدثر (٧٤): ٤٩.

٧. النساء (٤): ٣٩.

والوعيد عليها؟ أفلا يكفي هذا كله في تفسير الإضلال بمعنى استعاري يناسبه؟ أعني تفسيره بترك الأثيم وهو، واستعير لذلك لفظ الإضلال؛ لأجل الإشارة إلى نعمة التوفيق، وأن حرمان الأثيم من هذه النعمة لسوء فعله وتمرده يكون بمنزلة الإضلال.

أفلا تنظر إلى مجاهرة القرآن بقوله: «وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ»^١، «أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»^٢، «لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ»^٣، «فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا»^٤، «لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ»^٥، «إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا»^٦، «كَأَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ»^٧ * فَمَن شَاءَ ذَكَرْهُ»^٧؟

رمزي: إن الآية الثامنة والعشرين من التكوير متممة بقوله تعالى: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»^٨.

والثامنة والعشرين من الدهر [الإنسان] متممة بقوله تعالى: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا»^٩ * يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا»^٩.

والخامسة والخمسين من المدثر متممة بقوله تعالى: «وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَعْفِرَةِ»^{١٠}.

فهذه الآيات الثلاث لماذا لا تدل على أن الإنسان ليس حر المشيئة والإرادة، بل إن مشيئته مقيدة وتابعة لمشيئة الله، وإن الإنسان لا مشيئة له بدون مشيئة الله ولا يقدر أن يشاء.

١. الكهف (١٨): ٢٩.

٢. فصلت (٤١): ٤٠.

٣. المدثر (٧٤): ٣٧.

٤. النبأ (٧٨): ٣٩.

٥. التكوير (٨١): ٢٨.

٦. المزمل (٧٣): ١٩، والدهر (٧٦): ٧٩.

٧. المدثر (٧٤): ٥٤ - ٥٥.

٨. الآية ٢٩.

٩. الآيات ٣٠ و ٣١.

١٠. الآية ٥٦.

الشيخ: وأزيدك بأنه جاء في الآية الحادية عشرة بعد المائة من سورة الأنعام: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يا رمزي لماذا لا تلتفت إلى أن القرآن لم يقيد مشيئة الإنسان للإثم بمشيئة الله، ولم يقل: «إلا أن يشاء الله» في مقام ذكر العصيان ومشية الإنسان له، حتى أنه لم يقل ذلك بعد الثامنة والعشرين من الكهف، ولا بعد الآية الأربعين من سورة فصلت، ولا بعد الأربعين من سورة المدثر؟

أفلا تفهم من هذا أن الله لا يشاء ضلال الإنسان وعصيانه؟

أفلم يستلفت هذا ذهنك إلى أن الإنسان بسبب أميال النفس وشهوانيتها وتزيين الشيطان المغوي، يرجح جانب شهواته وشخصياته. وبسبب نعمة العقل وهداية الله وإرشاده ولطفه وتوفيقه، يرجح جانب الصلاح وأتباع الحق والإيمان بالحقائق، والتزيين بالأخلاق المتكفلة بالسعادة والاستقامة وصلاح الاجتماع؟

لماذا لا تعرف أن مشيئة الله المذكورة في الآيات الأربع إنما هي كناية عن هداية الله وإرشاده وتوفيقه؟ هذه الأمور التي تبصر التفكير وتمهد له سبيل الهدى وتنور الإرادة الحرّة، فترجح جانب الاستقامة وأخذ السبيل إلى الله والإيمان به.

رمزي: جاء في الآيتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من سورة الكهف: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فالقرآن علّق فعل الإنسان - خيره وشره - على مشيئة الله وربطه بها، فلا يكون حرّ الإرادة والاختيار كما تقولون، بل تكون أفعاله - حتى الأثيمة - بمشيئة الله.

الشيخ: لم يقيد القرآن إرادة الإنسان، ولم يعلّق فعله بأنواعه على مشيئة الله، بل لم يعلّق إلا الفعل الذي يجزم الإنسان بغروره بأنه سيفعله بقدرته في المستقبل، مع غفلته عن كونه عرضة للموت والمرض والعوائق وتغيّر الأمور.

فالقرآن يوبّخ الإنسان على اغتراره بما عنده في وقته من القدرة، فيتوهم بغروره بقاءها في المستقبل، ويجزم بأنه يفعل غداً، كأنه ليس له إله يغيّر الأمور، ويقدر عليه الموت والمرض والعوائق، ويستلفته بتعليمه الراقي إلى دوام الاعتراف بعجزه، وأنّ بقاء قدرته ومتعلقات إرادته ومواضيع فعله إنما هو بقدرته الإله العظيم المتصرّف في العالم وبمشيئته.

فالمقصود: إلا أن يشاء الله بقاءه، وبقاء قدرته على الفعل، وبقاء مواضع الفعل ومتعلقات الإرادة. وهذا أيضاً معنى مشيئة الله للفعل إن أبيت إلا تعليق المشيئة في الآية بالفعل. ولعمري إن سوق الآية وتعليمها ليوضح ما قلناه، فضلاً عن دلالة العقل والقرآن والدين على تقديس الله.

رمزي: أليس في الآية السادسة عشرة من سورة الإسراء قوله تعالى:
 ﴿وَإِذْ أَرْدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾؟ أليست هذه الآية تدل على
 أن الله يأمر بالفسق؟

الشيخ: من أين لك أن المراد: أمرنا المترفين بالفسق؟ ومن أين أتيت بهذا التفسير؟ هل نسيت ما ذكرنا قريباً في قسم المحكم قول القرآن: إن الله لا يأمر بالفحشاء، وإن الله يأمر العدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي؟

كان ينبغي لك أن تجعل مجد الله وقده بين عينيك وملء ضميرك، فتفهم أن المراد: أمرنا المترفين بأوامر الصلاح والعدل والإحسان، فخالفوا الأوامر وفسقوا، فكيف بك والقرآن يصرح بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وينهى عنها وعن المنكر والبغي.

لو كان مجموع هذا الكلام من إنسان، لكنت القرينة فيه واضحة على أنه لا يأمر بالفسق، بل يأمر بالصلاح فيفسقون. كأنك - وأنت مسلم - لم تسمع في شأن القرآن قوله في الآية الثانية والثمانين من سورة النساء: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

تفرض بأهوائك أن الله يأمر المترفين بالفسق، مع أن القرآن لم يذكر بماذا يأمر المترفين، وتعرض عن دلالة العقل والقرآن على أن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر والبغي. ولا تعرف أن الذي تزعمه بغفلتك يوجب اختلافاً كبيراً في القرآن، وكل هذا لم يعدل فكرك لماذا؟

ولماذا لم تعرف أن المراد من الآية: إن أهل القرية إذ خالفوا بديهيّات عقولهم في المعارف الإلهية وأعمال الصلاح والفساد، وعبدوا أهواءهم، واستحقوا النكال قطعاً لدابر المفسدين، وأراد الله بحكمته أن ينكل بهم، فلا ينكل بهم إلا بعد تأكيد الحجّة عليهم

بأوامره الشرعية في واجباتهم من الأفعال والتروك، كما في قوله تعالى في الآية الخامسة عشرة من سورة الإسراء أيضاً: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. ف يأمر المترفين في عموم أهل القرية، يأمرهم باتباع الهدى والصالح والعدل والإحسان، ومجانبة الأميال الشهوانية والفلمات الغضبية فيكون المترفون - عبيد الشهوات المألوفة لهم - أسرع إلى الفسق بمخالفة أوامر الله، فيعدى فسقهم وفجورهم غيرهم، كما قيل: «الناس على دين ملوكهم»^١ ويتساهل الباقون في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيفسقون بذلك أيضاً، فتمت الحجة على الجميع ويحق عليهم العذاب.

رمزي: قد جاء في الآية النامنة والسبعين من سورة النساء: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكُ كُلُّ مَن عِنْدَ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ فالقرآن يصرح بأن الحسنات والسيئات وأعمال الإثم من عند الله، فماذا تصنع بهذه الصراحة؟

الشيخ: لماذا لا تفقه أن المراد من الحسنة: ما يحسن عند الناس من نعم الدنيا كالنصر والفتح والغنائم، والمراد من السيئة: ما يسوء الناس من بلايا الدنيا؟ ألم تنظر إلى الآية قبل هذه الآية فتعرف أنهما في سياق واحد، في حال المتناقلين عن الجهاد والجازعين من أسباب السعادة وواجب الدفاع عن التوحيد ودين الصلاح؛ لأجل انهماكهم بحب الدنيا والراحة، وارتباكهم بالجهل وضعف العزائم والتطير برسول الله، كما قال الله في الآية الحادية والثلاثين بعد المائة من سورة الأعراف عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من العذاب الذي ابتلاهم الله به وأنذرهم به موسى ﴿يَطِّيرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾.

فأمر الله رسوله أن يقول لهؤلاء المتناقلين عن الجهاد الذين لا يفقهون حديثاً: إن

جميع النعم التي تحسن عندكم والبلايا التي تسوؤكم، هذه كلها من عند الله بعبائه أو قضاؤه في قطع نعمه.

لماذا لا تعرف الألفاظ العربيّة وما يراد منها؟ فإنّه يكون معنى السيئة: هو ما يسوء الناس من البلايا، كما تقدّم في الآيتين، ويكون من معانيها: عمل الإثم، وقد جاءت المجاهرة التي تزيل الأوهام وتجلب الحقيقة بجمالها الواضح كما في الآية التاسعة والسبعين من سورة النساء أيضاً: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾.

فيا للعجب ممّن يرى هذه الآية ويشتهب الحال عليه في الآية الأولى؟! أليست هذه الآية تفصل القضاء وتوضح المتشابه ببيانها؟

رمزي: ماذا تقول في الآية الخامسة والثلاثين من سورة الأنبياء: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فالقرآن يصرّح بأنّ الله يبتلي بالخير والشرّ لأجل أن يفتن الناس؟

الشيخ: ألم تعرف من صدر الآية أنّ المراد من الشرّ: هو ما يكرهه الناس ويسمّونه شرّاً، وهو ما جرى عليه نظام العالم من انقطاع النعم، وقد جرى الله الناس في تسميته شرّاً. وأنّ تقدير النعم وانقطاعها - حسب كرم الله وحكمته - تظهر فيه حالات الإنسان من الشكر والبطر، والإحسان والطغيان، والصبر والتسليم لله، والكفر والاعتراض على الله. وبحسب ما يقارن الخير والشرّ من ظهور أحوال الناس، يكونان ثانياً وبالعرض ابتلاءً وامتحاناً للإنسان.

قوله: ﴿فِتْنَةً﴾ إمّا بمعنى الابتلاء، فيكون المعنى: ابتلاءً وامتحاناً، أي ترتّب عليهما هذه الغاية وإن كانت عليهما الأوليّة غير هذا، كما في قوله تعالى: ﴿فَالْتَمَطَةُءَآلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾^١ أو تكون حالاً من الخير والشرّ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^٢.

١. الفصص (٢٨): ٨.

٢. التغابن (٦٤): ١٥.

رمزي: قد جاء في القرآن: إِنَّ اللَّهَ «خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ»، كما ذكر في صفحة ٣٩١ عن سور الأنعام والرعد والزمزم والمؤمن، وهذا يقتضي أن أفعال البشر - حتى في الإثم - مخلوقة الله وبقدرته، لا مخلوقة للبشر ولا بقدرتهم.

الشيخ: ها هو القرآن يصرح بنسبة الخلق للبشر، كقوله تعالى في الآية العاشرة بعد المائة من سورة المائدة، في خطاب الله للمسيح الذي يعتبره القرآن بشراً: «وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ» وعن قول المسيح الرسول في الآية التاسعة والأربعين من سورة آل عمران: «أَبَتِي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ»، فصرح القرآن بأن فعل المسيح وعمله لصورة الطير خلق منه.

ويقول القرآن في الآية السابعة عشرة من سورة العنكبوت عن قول إبراهيم الرسول لقومه في الأصنام التي يعملونها ويعبدونها: «إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا» فصرح بنسبة خلق الإفك إليهم، فماذا تصنع بهذه الصراحة؟

هب أنك تغافلت عن قضاء البديهة بأن الإنسان مختار في فعله؛ لكي تعرف من قول القرآن: إِنَّ اللَّهَ «خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ» هو أن الله خالق كل شيء يكون خلقه من الأعمال الإلهية في تكوين العالم.

فإنه يكفي في استلفاتك إلى هذه الحقيقة من مراد القرآن، ما تكرر من تصريح القرآن من نسبة الخلق إلى البشر.

ويكفي في استلفاتك أيضاً ما كثر في القرآن من نسبة الفعل والعمل وأصناف الأفعال إلى البشر في مقام الإخبار والأمر والنهي، والمدح والذم، والتوبيخ والإنكار، والوعد والبشرى والترغيب والوعيد، والزجر والتهديد.

ويكفي في استلفاتك أيضاً ما كثر في القرآن من تهديد الآثمين ووعيدهم بالعذاب، فهل أنت لا تقدر على الله ولا تنزهه عن العيب والظلم؟

لو كان الله هو الخالق للأفعال الأثيمة، أو إنها واقعة بقدرته لا بقدرته الإنسان، أو إنه يلجئ الإنسان عليها إجماعاً لا محيد عنه، إذ لا كان من العيب واللغو نهيه للخاطئ الأثيم، وأيضاً يكون من الظلم الفاحش توبيخ الإنسان وذمه وعقابه على

صدور فعل الإثم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

رمزي: قد جاء في الآية السابعة عشرة من سورة الأنفال في خطاب الرسول وأصحابه من أهل بدر: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ فهذا يبيّن أنّ الأفعال البشرية هي أفعال الله في الحقيقة وإن نسبت في الظاهر إلى البشر. الشيخ: من نظر فيما اتفق عليه التأريخ في حرب بدر، يعرف أنّ المسلمين كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً على أضعف عدّة، نوع سلاحهم جريد النخل، ولم يكن معهم إلاّ أسياف قليلة، ولم يخرجوا بعزم حرب ولا استعداد لها، بل خرجوا لتهديد قافلة قريش بما يعدّه المهذّب الضعيف الذي يطلب دفع الشرّ بشيء من التهديد.

وكانت قريش نحو ألف رجل منتخبين على أكمل عدّة من السيوف والرماح والدروع والخيل والمؤونة، فكان انتصار المسلمين عليهم بذلك الانتصار الباهر في الموقف القصير ممّا هو على خلاف العادة، وعلى غير فنون الحرب وقوّته ولم يكن فيه قطع لخطّ الرجعة على قريش، ولا استيلاء على مائهم، ولا أعمال حيلة حربية، ولا خلل في مركز قريش الحربي، بل كان على نحو المصادمة التي يسود فيها جانب القوّة والكثرة والعدّة.

ولقد بيّن القرآن في الآية السابعة وما بعدها من سورة الأنفال وأوضح إعانة الله للمسلمين بإجابة استغاثتهم يوم بدر وربطه على قلوبهم وإمدادهم بالملائكة، وقذف الرعب في قلوب المشركين، كما ذكر القرآن المسلمين بنعمة الله عليهم: إذ قال لهم في الآية الثالثة والعشرين بعد المائة من سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾. فكان استيلاء المسلمين في تلك الواقعة بذلك المجد الباهر العجيب، هو أولى بالاستناد إلى الله المعين الناصر والمسبّب بإعانته الخصوصية وعنايته لذلك الانتصار الخارج عن حدود العادات.

فالقرآن يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^١ في المستقبل حرباً

﴿رَخْفًا فَلَا تُؤَلُّوهُمْ الْأَذْبَانَ﴾ فراراً واحتقاراً لقوّتكم الحربيّة، فإنّ الله ناصركم ومعينكم، ولكم العبرة بانتصاركم على قريش في واقعة بدر، فإنّكم بحسب العادة لم تقتلوا المشركين ولم تأسروهم بقوّتكم وكفاءتكم ورجحانكم في الاستعداد الحربي، بل الله هو الذي سبّب نصره وإعانتة قتلهم، فكانت نسبة قتلهم إلى الله أولى.

يا أيها النبيّ ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ أنت بقوّتك البشريّة تلك الرمية التي أثّرت ذلك الأثر الكبير حينما حمى الحرب، وأخذت كفاً من حصاء ورميت به المشركين فأصابتهم الرمية، وصار كلّ واحد من صدمتها مشغولاً بنفسه. هل يكون هذا الأثر من قوّة بشريّة؟ بل الله هو الذي جعل من هذه الرمية ذلك الأثر الكبير، فالله المسبّب لذلك التأثير الكبير هو أولى بأن تنسب إليه تلك الرمية ومجدها.

ما أكثر ما يجري هذا التعبير المليح في محاورات بكلّ لسان وخصوص اللسان العربيّ حينما يراد التنويه بمجد السبب أو المعين، وكونه هو الدخيل في الأثر الكبير. وأنّ أسلوب القرآن الكريم في هذا المقام ينادي بوجه هذا الكلام في نفيه وإثباته، إذ نفي الرمي عن الرسول من وجه حينما أثبت له حيث قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

هذا كلّهُ فضلاً عمّا ذكرناه من دلالة القرآن في محكمه وبديهة العقل والوجدان على حرّيّة الإنسان في إرادته وفعله، وإنّه غير مجبور عليه ولا ملجأ إليه، وسيأتي إن شاء الله لهذا تتمة في بيان مسؤوليّة النفس في بحث المعاد^١.

في الحسن والقبح العقليّين

الشيخ: غير خفيّ أنّ لأفراد الإنسان أميلاً شخصيّة في الأفعال والترك، تحبّد جهة شخصيّة ونفسيّة ما يوافق تلك الأميال وتدمّ ما ينافرها، تلك أميال تخصّ شخصه ونفسيّته في قضاء أوطاره الشخصيّة في هذه الحياة وإن نفر منها غيره شخصياً أو نوعياً.

ومهما خفي على الإنسان من شيء فإنه لا يحسن بإنسانيته أن تخفى عليها الحقيقة المتجلية لشعوره بأوضح المظاهر وأسناها، وهي أنّ له مبدأ إدراك يشترك به نوعه وتسمو به إنسانيته ويمتاز به فيها، ألا وهو العقل الذي تنكشف له الحقائق على ما هي عليه من الصفات، فينادي الإدراك الإنساني بصفاتها تحسناً أو تقييحاً ويؤثر تأثيره في النفوس من وجهتها النوعية في الإنسانيّة، سواءً وافقته الأميال الشخصية، أم خالفته. هل يخفى أنّ للإنسان نفسية تراعي شخصياته، وله عقلية تراعي الحقائق التي لا تستميلها الأهواء؟ هذا الظالم الذي يريد بأهوائه ونفسيته أن يتوصّل إلى ظلمه بالتزوير ورشوة الذي يحكم له، يجيء إلى مرجع محاكمته فيبدل له الرشوة، ويوفيه صورة الاحترام ويخضع له في الكلام والاستعطاف، ويعدّه شكر الإحسان.

فإذا زاغ المرتشي عن العدل والحقّ، فحكم للظالم بالجور الذي يلائم ميله ويحبّذه بظالميته وشهوانيته، فإنّ هذا الظالم يدرك بعقله وإدراكه الإنساني قبح حكم الحاكم وانقياده إلى الجور، ويراه منافراً لعقليته والشعور العقلاني والوجداني الإنساني وإن لاءم نفسيته ووافق مطلوبه الشخصي، ويرى نقصان الحاكم بالجور واستحقاقه للمذمة، وإنّه ليدمّه وينتقصه وإن وافق هواه.

وإذا أبى ذلك الحاكم إلا أن يحكم بالعدل والحقّ مهما تضاعفت الرشوة وزاد التملّق، ولم يرض لشرفه ودبّنه إلا الحكم بالحقّ والعدل، فإنّ حكمه بالعدل ينافر ميل الظالم ويغضبه في نفسيته وأهوائه، ولكن ذلك الظالم بذاته يقدر بعقله ووجدانه الإنسانيّ حسن عدل الحاكم واستحقاقه لكرامة المدح والثناء.

وهكذا الحال فيما إذا طلب الظالم من شخص أن يساعده على ظلمه بشهادة الزور، فإنّ شهادة الشاهد زوراً تلائم ميل الظالم ويحبّذها بشهوانيته ولكنّه يدرك بعقله وإدراكه الإنساني قبح الشهادة من المزور وقبح انقياده إلى الزور، ويرى ذلك منافراً لعقليته وشعوره العقلاني وإن لاءم نفسيته، ويرى نقصان شاهد الزور واستحقاقه للمذمة.

وأما إذا أبى المدعوّ لشهادة الزور إلا أن يجري على الحقّ، فإنّ الظالم نفسه يقدر بعقليته حسن امتناع المدعوّ عن شهادة الزور، ويراه مستحقاً بهذه الفضيلة للمدح والثناء.

تجد الناس الذين لا علاقة لهم لا بالظالم ولا بالمظلوم ولا بالحاكم ولا بالمدعوى لشهادة الزور، ولا بما تعلقت به الخصومة، وليس لهم ميل إلى جانب أصلاً، تراهم يقبّحون في الصورة الأولى فعل الحاكم وجوره ويرونه ناقصاً أهلاً للمذمة والانتقاص، وكذا شاهد الزور ويستحسنون عدل الحاكم في الصورة الثانية، ويرونه بذلك مستحقاً للثناء من العموم، وكذا من امتنع عن شهادة الزور لا يختلف الناس في ذلك، سواء كانوا إلهيين أم مادّيين، على شريعة إلهية أو شريعة زمنية.

هذا كلّه وأمثاله في أعمال الناس مكشوف لكلّ أحدٍ وعليه استمرار طريقة الناس في الأعمال، طريقة فطرية لا يعترها شك ولا يشوبها تشكيك شبهة.

هذا كلّه يوضح للبداهة أنّ حسن الفعل غير منحصر بملاءمته للنفسية والميل النفسي ولا بموافقته للشرع، وأنّ قبح الفعل غير منحصر بمنافرته للنفسية والميل النفسي ولا بمخالفته للشرع، بل إنّ الحسن والقبح صفتان ثابتتان للفعل بحسب العقلية المشتركة بين البشر، يدركهما العقل مهما اختلفت النفسيات واضطربت الأميال الأهوائية.

ولا نمنعك أن تقول: إنّ حسن الفعل عقلاً هو ملاءمته للعقل المشترك بين البشر، وإنّ قبحه عقلاً هو منافرته للعقل المشترك بين البشر.

لكنّا نقول لك: إنّ هذه الملاءمة إنّما هي أثر للحسن العقلي الذي هو الصفة الأصلية للفعل، وكذا نقول في المنافرة.

وبحسب ما ذكرناه من طريقة الناس الفطرية المستمرة الجارية على البداهة والوجدان العام، يتضح أنّ الإنسان غير مجبور في أعماله لكي يبطل تحسينها وتقبيحها عند العقلاء، تلك الطريقة الفطرية تشهد أيضاً بوجدانها وبداهتها على أنّ الإنسان مختار في أعماله، فيحسنها العقلاء بعقولهم الفطرية ويقبّحونها، وسيأتي إن شاء الله إيضاح اختيار الإنسان في أعماله^١، كما تقدّم الكلام عليه^٢.

١. يأتي في ص ٤٣٠ - ٤٣١.

٢. تقدّم في ص ٤٠٩ وما بعدها.

التشكيكات في الحسن والقبح العقليين

رمزي: قد وجد في بعض الكتب بعض التشكيكات في هذه الحقيقة، وها أنا أحب أن أذكرها:

قد قيل: إنَّ الفعل لا يمكن أن يتَّصف بالحسن والقبح، وذلك لأنَّ الفعل عرض، والحسن والقبح من قسم العرض أيضاً، والعرض لا يعرض عليه عرض ولا يتَّصف بالعرض، فالفعل الذي هو عرض لا يمكن أن يتَّصف بالحسن والقبح - اللذين هما عرض أيضاً - ولا يمكن أن يعرض عليه.

عمانوئيل: إنَّ الذين يشككون بهذا التشكيك يقولون بحسن الفعل وقبحه باعتبار ملاءمته أو منافرته للنفسية الشخصية، وكذا باعتبار موافقته أو مخالفته للشرع، فكيف جاز هنا أن يعرض العرض على العرض ويتَّصف العرض بالعرض؟!

وأيضاً لا يخفى أنَّ الألوان أعراض، كالسواد والبياض والحمرة وأمثالها، ولا يخفى أنَّ الشدة والضعف والحسن والقبح تعرض على الألوان وتتَّصف الألوان بها، هذا اللون شديد، وهذا اللون ضعيف، وهذا اللون حسن، وهذا اللون قبيح، فكيف جاز هنا أيضاً عروض العرض على العرض واتَّصاف العرض بالعرض؟!

ما هذه التشكيكات التي تذكرها إلاَّ شبهة في مقابلة البداهة، ومغالطة لا تخدم في شرف الحقيقة المتجلية للوجدان، تشكيكات لا يقدر المشكك بها أن يتخلص من تراكم النقوض عليه، تراكم يوبِّخه على هذا التشكيك.

رمزي: إنَّ النقوض التي تذكرها معلومة ووجدانية بديهية وكافية في دفع التشكيكات المذكورة، ولكنِّي أطلب دفع هذه التشكيكات بالحلِّ العلمي الكاشف للحجاب.

الشيخ: قد اشتبه الحال بين العرض الوجودي والعرض الانتزاعي، والذي وقع الكلام من الفلاسفة في عروضه على العرض إنَّما هو العرض الوجودي كالبياض والسواد، وأمَّا العرض الانتزاعي كالحسن والقبح والشدة والضعف فلا يمكن

للسفيلاسوف بفلسفته ولا لصاحب الحسّ والوجدان أن ينكرا عروضه للعرض واتّصاف العرض به، إذ فأين المفرّ عن الأمثلة البديهية الوجدانية التي ذكرها عمانوئيل وأمثالها؟

رمزي: وقيل أيضا ما معناه: إنّا سلّمنا بثبوت الحسن والقبح العقليّين في أفعال البشر، فإنّه لا يمكن أن نسلم بإمكان تحكّم البشر والعقل على جلال الله مالك الملك فيقال: هذا الفعل حسن بحيث يقبح من الله تركه فيجب أن يفعله، هذا الفعل قبيح فيجب أن يتركه. من ذا الذي يكون له الحكم على الله مالك الملك الفعّال لما يريد؟ أم يكون ذلك بقياسه على المخلوق المملوك المحكوم عليه بالأمر والنهي، كيف يصحّ هذا القياس مع هذا الفارق العظيم؟

الشيخ: إن الحسن والقبح لا يكونان بتحكّم العقل، بل هما صفتان حقيقيّتان لازمتان للأفعال والتروك، يدركهما العقل بنورانيّته إدراكاً، ويدرك أنّ ارتكاب الفعل القبيح أو الترك القبيح صفة نقص تنافر الكمال، ومن أجل ذلك لا يسوّغ للإنسان الذي منحه الله الاستعداد للكمال أن يتلوّث بصفة النقص والسقوط.

لم يقبح فعل الإنسان أو تركه ولم يقبح صدور القبيح منه لمحض كونه إنساناً مخلوقاً مملوكاً، بل يقبح صدور ذلك منه؛ لأنّه نقص ومنافر للكمال وقد أنعم الله على الإنسان بأن جعله مستعداً للكمال، والجهة التي يدور العقل مدارها في التحسين والتقييح هي صفة الفعل وكمال الفاعل، ولذا لا يحكم على البهائم كما يحكم على الإنسان بالنقص واستحقاق الذمّ بارتكاب بعض الأفعال والتروك.

إذاً فجلال الله وقدهس وكماله أولى بالتنزّه من نقائص بعض الأعمال والتروك، وهل يعنى العقل فلا ينزّه جلال الله وكماله من منقصة الكذب والخداع، وعن الغضب على مطيعه فاعل الحسن وتقييح فعله وعقابه عليه، وعن الرضى عن عاصيه المتمرد الناقص فاعل القبائح وتحسين فعله للقبيح وإثابته عليه؟ كلّاً ثمّ كلّاً.

فالعقل بهذا الميزان ينزّه جلال الله وقدهس وكماله عن بعض الأفعال والتروك، فيقول هو والعلاء: هذا الفعل حسن وتركه قبيح فلا يتركه الله القدّوس الكامل، وهذا الترك

قبيح فلا يصدر من الله القدوس الكامل. لا يحكم العقل ولا يتحكّم على الله، بل يفخر بأته يعرف جلال الله وقده، فيعرف أنه - جلّ شأنه - منزّه عن صدور مثل الفعل الفلاني ومثل الترك الفلاني. لا يلوّث العقل نورانيته بالقياس، بل لا يحكم إلاّ حيث تتجلّى الحقيقة لنورانيته بأثبت من رأي العين ولمس اليد.

ها هو العقل والإدراك يميّز الأفعال والتروك بذواتها وصفاتها وإضافاتها، ويصف حقائقها في صفوفها، ويفصل بينها بحدودها وعوارضها وجهات صفاتها، لا يتوقّف في الحسن والقبح على ملاءمة نفسيّة شخصيّة أو منافرتها، ينادي ببيانه ويوضح بتنسيق صفوفه: أنّ العدل والإنصاف حسن مطلقاً، الظلم والجور قبيح مطلقاً، ترك العدل ممّن هو قادرٌ عليه قبيح مطلقاً، ترك الظلم حسن لازم مطلقاً.

إذا رأيت يتيماً من عائلة شريفة عاملة في حسن السياسة ومساعدة العمران ونظم الاجتماع، وهو المرشّح لأن يكون خلفاً لعائلته في ذلك العمل الصالح، ووجدته بعد أن كان هادئاً جميل الأخلاق ملازماً للتعلّم، قد مال لأهل الفساد البطّالين ذوي الأخلاق الفاسدة والأعمال الشريّة، وعرفت أنّ ضربك له للتأديب يرده إلى الصلاح والهدوء والانكباب على العلم واللياقة لأن يقوم بأعمال آبائه الصالحة، فكم ترى في ضربك له للتأديب من الحسن الكبير واللزوم؟

وإذا رأيت ظالماً شريراً يهاجم على قتل النفوس البريئة الزكيّة وعلى هتك الأعراس وإفساد العمران، وعرفت أنّك تقدر على دفعه ودفع شرّه بالضرب أو القتل، فكم ترى من الحسن الكبير اللازم في ضربك له أو قتله في سبيل دفاعه؟ وكم ترى من القبح الهائل في أفعال هذا الظالم وقلته الناس وإفساده؟ وكم ترى من القبح المزعج في ضرب اليتيم الضعيف الهادئ أو قتله ظلماً؟

لا ينقلب الضرب القبيح أو القتل في هذه الأمثلة حسناً، ولا ينقلب الحسن قبيحاً، بل إنّ نوع الضرب أو القتل ينقسم باعتبار أصنافه وصفاته المقسّمة له والمميّزة لأصنافه إلى صنف هو حسن باعتبار صفته وعنوانه بجميع أفراده وأحواله، وإلى صنف هو قبيح باعتبار صفته وعنوانه بجميع أفراده وأحواله.

في النبوة العامة وإرسال الله للرسول

إذا قيل لك: إنَّ الملك الفلاني الكبير الكامل العلامة، الوحيد في فلسفة الاجتماع وال عمران والأخلاق، والبارع المتقدّم في قوانين الحقوق، والقادر على إعلان تعاليمه الصالحة في المملكة، وتنفيذها بسيطرة عادلة وتعليم حكيم رؤوف عادل.

هذا الملك قد ترك رعيته الكبيرة ومملكته الواسعة المؤسّسة على المدنيّة، والمرشّح أهلها - بموهبة العقل - للتعلم والرقّي في مراتب الكمال الحقيقي تركها مهملة جاهلة وحشيّة فوضويّة، لم يهدّبها بالتعليم الصالح الضامن لكمالها وحسن اجتماعها وعمرانها وحفظ مستقبلها، بل تركها تعوم في غمرات الجهل، وتخبط في ظلمات الوحشيّة، وتتجاوزهم تشريعات الفوضويّة المتلوّنة والتعاليم الشهبانيّة والأخلاق الاستبداديّة.

فهل تقول: إنَّ هذا الملك لا يقبح منه هذا الترك لرعيته وهذا الإهمال لإصلاح مملكته؟ وهل تراه كاملاً؟ وهل يليق هذا الحال بالكامل؟ أم تقول: إنَّ هذا قبيح لا يجتمع مع الكمال، ولا يكون من كاملٍ صالح.

هل تقول هذا لأجل مخالفته لنفسيتك وأميالك الشخصيّة؟ أم تقول به لأجل مخالفته لوجدانك العقلانيّ الذي تشترك به مع نوع البشر؟

لا أظنّك تقول: إنَّ الملك المتسلّط على الرعيّة بالاستحقاق والمالك لهم على الإطلاق، لا يقبح منه أن يهمل أمر الرعيّة وإصلاح المملكة هذا الإهمال، بأن تقول: إنّه له أن يفعل ما يشاء حسب تسلّطه وقدرته، ألا تدري أنّ الشعور الحرّ يرى هذا الإهمال مضاداً للكمال والاستقامة، وكلّما تقدّم الملك في الكمال إزداد هذا الإهمال قبحاً وبعداً عن مقام كماله المقدّس.

لم يكن حكم العقل بلزوم إصلاح الملك لرعيته ومملكته من ضعفه وقصور سلطته، لكي يقف هذا الحكم عند قدرته ونفوذه، بل هو من أجل كمال الملك وشرف ملكه وحسن الإدارة والمقدرة عليها.

في الشريعة

أيها الدكتور، فهذا الإله الكامل على الإطلاق، العالم بالخفيات، والمحيط بحقائق المصالح والمفاسد وأسرارها، إله الرحمة والرأفة والصالح والإصلاح، هل يليق بجلاله وكماله وقده ورحمته أن يهمل الإنسان المدني الطبع ويتركه بلا تعليم يكمله، ولا شريعة تنظم اجتماعه وتهذب مدنيته وتحفظ الحقوق وتقوم بالإصلاح، جارية على حقيقة الحكمة في مصلحة النوع والفرد، تكافح فلتات الجهل بحقائق المصلحة النوعية، وتقاوم الشهوانيات الشخصية والعصبيات القومية والعوائد الاستبدادية؟

أم هل يليق بجلاله وقده وكماله ورحمته أن يهمل الإنسان من تعليمه بالأخلاق الفاضلة، لكي يتجمل بفضيلتها وينتظم بها أمر الاجتماع وتشابك المدينة، وينبئه على الأخلاق الرديئة؛ لكي يصدّ بذلك مخادعة الأهواء ومخالسة الشهوانيات ومغالطة العوائد، فيصون العمران والمدنية والاجتماع وشرف الإنسانية وسعادة مستقبلها من وباء الأخلاق الرديئة وعواصفها المدمرة، ذلك الوباء وتلك العواصف التي نراها في أرقى العصور - بزعم الزاعمين - قد تركت الإنسانية في جميع العالم تترجح وتثنّ تحت أثقالها الباهضة ونير العناء وتلاعب الأيدي المبرقة؟

أم هل يليق بجلاله وقده ورحمته وكماله أن يترك نوع الإنسان ألعوبة لجهله وأهوائه في جهات العبادة لإلهه، وأسباب شكره والتقرب له وطلب الوسيلة إليه ومعرفة المستقبل، وكشف الغطاء عن حقيقته، وأسباب نيل السعادة فيه. فترك الإنسان يخبط في هذه الشؤون في أدواره وأجياله ذلك الخبط المدهش، قد لعبت بالإنسان أيدي الجهل والأهواء ما شاءت:

تارةً يعبد الأوثان من الأخشاب والمعادن والأحجار، يجهد نفسه بالمشقات الكبيرة والرياضات الشاقة في عبادتها.

وتارةً يعبد باللهو واللعب والرقص والمعازف.

وتارةً ينذر نفسه للزنى واللواط به في سبيل عبادة الأصنام، ويسمي نفسه إذاك قدّيساً.

وتارةً يذبح لها بنيه وبناته ويحرقهم بالنار.

وتارةً يقدّم مئات وألوفاً من الذبائح البشرية في أوهام الخيرات للموتى.

هل يليق هذا كله بإله الرحمة والقدس والكمال، مع قدرته على تمهيد أسباب الصلاح والخير للإنسان بتعاليمه الصالحة، وإعلامه بشريعة مدنيّة، وتهذيب الأخلاق وبيان المعارف والعبادات؟

يعمل أعمال رحمته ولطفه وحكمته وقده في هذا كله بإرسال رسول بشري، يمدّه من فيض علمه وحكمته، ويوسّطه في تبليغ البشر عنه ما يحتاجون إليه في نظام اجتماعهم ومدنيّتهم وأخلاقهم وكمالهم ومعارفهم وعباداتهم وسعادة مستقبلهم.

يختاره بشراً كاملاً في الأخلاق الفاضلة، عاملاً رؤوفاً، جارياً على الحكمة والسداد والحنان، يعضده بحجّة على رسالته بحيث تقطع معاذير العقول في شكوكها وتعلّمهم أنّه رسول الله المبلّغ رسالته والصادق الأمين، كما سنذكر وجه ذلك إن شاء الله تعالى!

لا يرضى العقل والشعور لجلال الله وكماله وقُدسه إلا أن يرحم عباده، ويعمل أعمال رحمته وكماله وقُدسه بإرسال الرسول لسعادة البشر فيما ذكرناه، وإنقاذهم من تيار الجهل والأهواء وبواعث الفساد، يصلح أمرهم في ذلك مع حرّيّة إرادتهم التي يرتقون بها إلى أوج الكمال والسعادة على ناموس الحكمة والرحمة.

التشريع البشري

الدكتور: لماذا لا تقول بأنّه يكفي في التشريع ما يقوم به البشر من تشريعاتهم العدليّة المدنيّة ونظامهم الحقوقي والسياسي الاجتماعي، فالإله الذي يعلم أنّ البشر يسدّون هذا الخلل لا يقبح منه تركهم إلى تشريعاتهم ونظاماتهم؟

الشيخ: إنك تعلم، وكلّ أحد يعلم حتّى نفس المشرّعين، وحتّى الواضعين لقوانين

الانتخاب والتشريع، أنّ علم البشر مهما كان وكانوا فهو محدود، يغيب عنه أكثر الحقائق ولا يحيط بحقيقة المصالح، وربما تدلّس عليه كثير من المفاصد فيحييها بتشريعات المصالح.

إنّ أرقى ما تتصوّره من التشريع البشري هو تشريع الحكومات النيابيّة الدستوريّة في العصور الحاضرة، مع أنّ نفس مبادئ التشريع والاهتمام في أمره واحتياجات الحكومات والأُمم في سبيله، تستلقتك إلى معرفتهم بما في طريقه من أخطار الخطأ والجهل وغير ذلك.

فانظر إلى الانتخاب للتشريع في أحسن سيره القانوني، كم يتخطى من الرجال الراقيين في التقدّم والصلاح ودرس الحقائق ونتائج التجارب؟ وكم يتخطى من الأدمغة المفكّرة والقلوب المتيقّظة والأذهان المتوقّدة ويعبر عنهم إلى ذوي الوجاهة والشهرة والنبوغ؟ الشهرة التي تعرف أنت وغيرك أنّها لم تجعل يدها بيد الحقيقة، بل طالما تخالفتا في السير والوصول.

ومع هذا فإنّك ترى هؤلاء المنتخبين يكثر بينهم الاختلاف في موادّ التشريع وموافقها لمصلحة الأُمّة، فيسود من الموادّ بالنفوذ ما يترجّح بالأكثرية ولو باثنين، وهل يخفى أنّه يكثر أن يكون في الجانب الأقلّ من هو أحسن وصولاً للحقائق؟ ومهما كان، فإنّ تشريع الأُمّة يؤيّد مصلحة الأُمّة ووطنها وقوميتها ومنافعها الخاصيّة، ويندر أن يعدل ذلك بمصلحة نوع البشر وخدمة الإنسانيّة المطلقة، ومصلحة المشتبكين مع الأُمّة المشرّعة في جهات المنافع، وبعد ذلك تبقى تلك التشريعات معرضاً للتعديل.

ومهما أخذت الأُمم في احتياطاتها في أمر التشريع فإنّهم يعلمون أنّ الإنسان كثيراً ما لا يعرف جهله ولا يعترف به، كثيراً ما يتورّط في الخطأ وهو يفتخر بالصواب، ومع ذلك ترى الأُمم وزعماءها وساستها يجدّون باحتياطاتهم في شأن التشريع الذي يريدونه لصالح الأُمّة.

إذا فكيف يهمله الإله القدّوس الرحيم إله العلم المحيط، كيف يهمل ما يعلمه من

حقيقة التشريع الذي يضمن لعموم البشر وجامعة الإنسانيّة حقيقة الصلاح والعدل في مدنيّتهم واجتماعهم؟ يجد البشر بظنونهم المحدودة شريعةً هي أقرب إلى الصلاح، فيستقبحون - لشرف إنسانيّتهم - أن يهملوا تشريعها. كلّ ذلك حيّاطة لمصلحة الأُمّة. فما ظنّك بإله العلم والرحمة المنزه عن كلّ قبيح؟

وماذا تقول في تعليم الأخلاق الفاضلة والتحذير من الأخلاق الرديئة؟ هل تكفي فيها بتعليم العوائد وأثره الوطنيّة والقوميّة، تلك العوائد التي تفعل ما تفعل بالإنسانيّة وتلك الأثرّة التي أطالت أنينها؟

وماذا تقول فيما يخفى على العقول البشريّة المحتجبة بشريّتها ويغيب من المعارف ومستقبل الإنسان وأسباب السعادة فيه؟ وماذا تقول في الإرشاد إلى النهج المستقيم في عبادة الإله والشكر له حقّ شكره والتقرّب إليه؟

الرسالة العامّة في القرآن الكريم

هاهو القرآن الكريم قد تعرّض لما ذكرناه بالبيان الذي يوضح الحقيقة وتقوم به الحجّة، فقال في الآية الخمسين من سورة المائدة «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا» هل يقول أحد: إنّ البشر ذا العلم المحدود والجهل الطبيعي والحواجب البشريّة، هو أحسن وصولاً للحقائق وتعديل المناسبات في جميع الأمور، وأحسن حكماً وتشريعاً من الله إله الكمال والعلم المحيط؟

وقال - جلّ اسمه - في الآية الخامسة عشرة بعد المائة من سورة التوبة: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا» يتركهم يخبطون في ضلالهم ويقطع عنهم رحمة التوفيق؛ لأجل خروجهم عن أهليّته بتمرّدهم «بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَهُمْ» بدلالة العقل وبداهة الفطرة إلى أصول المعارف.

فلا يقطع رحمة التوفيق «حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ» ويتمردون عليه، يُبين ما يجتنبونه من الأفعال والتروك؛ حيّاطة لمصلحتهم في نظام اجتماعهم وأخلاقهم وعرفانهم وعبادتهم وسعادة مستقبلهم. ويوضح البيان في كلّ ما يحتاجون إليه في جميع ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية من جميع ذلك وجميع الأمور، قد أحاط بكل شيء علماً، فالقرآن يبين أن الله يجلّ ويتقدّس عن أن يهمل عباده ويتركهم بلا بيان لمافيه صلاحهم. وفوق ذلك إنه يجلّ ويتقدّس عن أن يقطع رحمته بتوفيقه وتأيدته عن من لم يتمرّد ولم يخرج عن أهلية الإحسان، وما كان الله ليتركه يخط في الضلال بلا توفيق. وقال - جلّ شأنه - في الآيات الثالثة والرابعة والخامسة والستين بعد المائة من سورة النساء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ...﴾ مَن لم يقطع الطوفان تأريخهم البشري العمومي، فلا يكون ذكر أسمائهم ونبواتهم مستغرباً، يشوش استغرابه مواقع الكلام فيخرج عن مواقع الحكمة.

ثمّ ذكر القرآن أسماء بعض النبيين والإشارة إلى بعض الرسل الذين ذكر الوحي قصصهم للرسول، والرسل الذين لم يذكر قصصهم، وقال - جلّ شأنه - في غايات إرسال الرسل: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ مُبَشِّرِينَ للإنسان بسعادته في الدنيا والآخرة بسبب خضوعه لما يصلحه في فرديته ونوعه واجتماعه من بيان الشريعة والأخلاق والمعارف، ومنذرين ومحدّرين له من الشقاء والخطر المحدق به في دنياه ومستقبله من مخالفته لما بلّغوه فيما يصلحه عن الله بالبيان الكافي.

أرسل الله هؤلاء الرسل الكرام لأجل واجب لطفه ورحمته وحكمته وقُدسه وإصلاحه لعباده، وأشار إلى ذلك ببيان غاية شريفة مطلوبة تترتب عليه وتُشير إليه بقوله جلّ اسمه: ﴿لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ لئلا يقولوا: يا إلهنا القدوس، إله الرحمة والكمال والحكمة، لماذا لم تشرع ولم تبين لنا بواجب لطفك ورحمتك ما يصلح نفوسنا ومدنيتنا وأخلاقنا ومعارفنا وعباداتنا وأسباب السعادة في مستقبلنا؟

هذه الغاية المذكورة إحدى الغايات، وهي غاية ثانوية تشير إلى العلة الأولى، وهي رحمة الله ولطفه في إصلاح عباده وتعليمهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ في قدسه وكماله، لا يمكن أن ينسب إلى جلاله نقص الإخلال بواجب الكمال والقدس والرحمة ﴿حَكِيمًا﴾ في أعماله على واجب حكمته وإحاطة علمه بمواقع المصالح والمفاسد ومواقع الحكمة في إرسال الرسول.

الرسالة في أقطار الأرض

عمانوثيل: يا شيخ، إن الغفلة قد تُثير من غبار شكوكها ما يكدر الابتهاج بالنظر إلى جمال الحقائق، فهل تسمح لي بأن أؤدي بعض الشبهات؛ لكي تزيل معائرها بالبيان الكافي؟ فإني وإن كنتُ واثقاً بأنّ الذي تذكره من واجب اللطف وإقامة الحجّة بإرسال الرسل هو الحقّ المعقول والمناسب لجلال الله، لكن قد تختلج الشكوك في ذلك عند النظر إلى أطراف الدنيا ممّا لم يذكر التأريخ إرسال الرسل فيها، وذلك ما عدا مصر وسوريا والحجاز، وإن تعدّينا إلى إرسالية بطرس وبولس فتضمّ إلى هذه الأقطار الثلاثة رومية وما يحيط بالأرخبيل من البحر المتوسط كآسيا الصغرى وأوروبا الشرقية الشماليّة.

إذاً، فلا يعرف ماذا يقال في الشرق من بلاد فارس إلى منتهى آسيا شرقاً وشمالاً؟ وماذا يقال في أقاصي أوروبا وأفريقيا؟ وماذا يقال في أمريكا؟ ماذا يقال في هذه البلاد الواسعة الشاسعة التي لم يعرف إرسال رسول فيها حسب لطف الله وإقامته للحجّة؟ وأيضاً، إذا عطف النظر إلى البلاد التي عرفنا فيها إرسال الرسل، فماذا يقال فيما جرى فيها من الفترات الطويلة بين الرسل؟ تلك الفترات التي يستفحل فيها الضلال على أجيال كثيرة من البشر في قرون عديدة.

الشيخ: كأنك تقول: إن التوراة قد اعتنت بالتأريخ المستوفي منذ بدء العالم إلى موت موسى، فلم تذكر إلاّ أنّه في أيام شيث ابتداءً أن يدعى باسم الربّ، وأنّ أخنوخ «حنوك بالعبرانيّة، وإدريس بالعربيّة» سار مع الله، وأنّ نوحاً سار مع الله وخاطبه وكانت له شرائع، وأنّ الله خاطب إبراهيم في حاران وسوريا وجعل له شريعة الختان، وخاطب الله إسحاق ويعقوب، ثمّ أرسل الله موسى بالدعوة والشرية.

فلم تذكر التوراة إلى آخر أيام موسى نبوّة ورسالة في الهند والصين واليابان، ولا شمالي هذه البلاد، ولا في أوروبا، ولا في أقاصي أفريقيا. وجرت كتب العهد القديم على ذلك، فحصرت ذكر النبوّة والرسالة ووجود الأنبياء بسوريا وبابل، وجاءت كتب

العهد الجديد فحصرت ذكر النبوة والرسالة وتأريخها بسوريا وآسيا الصغرى وأوروبا الشرقية الشماليّة ورومية.

فقول حينئذٍ: يا عمانوئيل، لو كان غير ذلك من أقطار الدنيا نبوة ورسالة لذكرتها كتب العهدين.

يا عمانوئيل، أين مضت نتيجة بحثكم في خلل كتب العهدين، كما مرّ في الجزء الأوّل؟ أفلا يكفيك من ذلك ما ذكره القسّ في صحيفة ٣٦ من أنّ التوراة أهملت شيئاً كثيراً من تأريخ النبوات والرسالة، ومن ذلك ما استدركه عليها العهد الجديد؟ لتقتصر على هذا المقدار من الكلام على كتب العهدين.

يا عمانوئيل، لا ينبغي في شرف العلم أن يقال: إنّه ليس في أقطار الدنيا نبوة ولا رسالة ولا دعوة رسالة غير ما ذكره العهدين، أليس من الجائز أن يكون في جميع أقطار الدنيا أنبياء ورسول ودعوة رسولية بأضعاف ما ذكره العهدين، ولكن التأريخ المعرقل بالأهواء لم يذكر من ذلك شيئاً على وجهه الحقيقي؛ لأنّه لا يلائم خطته؟

بل يجوز أن يكون من الأنبياء والرسول غالب هؤلاء الذين جعلهم الناس آلهة متجسّدة وأركان الثالوث والأقانيم، وجرى عليهم الصلب والاضطهاد من أجل دعوتهم الصالحة، ولكنّ الأيام وأحوالها بدّلت صورة دعوتهم ومسخت شرائعهم، كما أشير إليه في كتاب العقائد الوثنيّة^١ في صحيفة ٥ و ٦.

كما أنكم يا عمانوئيل قد حققتكم في بحثكم في أواخر الجزء الأوّل^٢ أنّ هذا الحال بعينه جرى مع المسيح ودعوته الصالحة وحفظه للشريعة، فلماذا لا يكون من نحو ذلك «برهما» و«بودا» و«كرشنا» و«اندرا» و«بالي» و«كونفوشيوس» وغيرهم في الهند

١. هو كتاب مصوّر، جيّد التبويب واسع الاطلاع، يُشير إلى مصادر نقله، طبع في بيروت سنة ١٣٣٠ هـ في ١٦٧ صحيفة بقطع هذا الكتاب مع تسع صحائف مُمخّضة للصور المهمّة. تأليف الفاضل محمّد طاهر التنير وفقّه الله، قدّمه إلى صليبي القرن العشرين المُبشّرين، وهو كتاب فائق في بابه.

٢. تقدّم في ص ١٥٥ وما بعدها.

والصين واليابان وما والاها، و«متر» و«زورستر» وغيرهما من الفرس، و«باكو» و«بوشيك» وأناس كثيرون يذكرون في أقطار أمريكا، وكالذين يذكرون في اسوج ونروج وغيرها من بلاد الاسكندنافيين؟

مضافاً إلى أنه يوجد عند الأمريكيين في أقطار أميركا، وعند الهنود والصينيين ومن والاهم، والأفريقيين، والأوروبائين اسم التوحيد مع القول بالأقانيم ورسوم العبادات للإله والصيام والمعمودية، والاعتماد على المخلص والتخليص من الجحيم وإغواء الشيطان، وبقاء النفس بعد الموت وسعادتها وشقائها والاعتماد على الغفران، فانظر أقللاً إلى كتاب العقائد الوثنية إن لم يتيسر لك النظر إلى مصادر نقلها وغيرها.

وهذا كله يُشير إلى أنه إنقراض دعوات رسولية قد تمت بها الحجّة واللفظ، ولكن الأهواء والضلال مدّت إليها أيديها الأثيمة، فهدمت صروحها وشوّت توحيدها تعاليمها وشرائعها. عادة جارية في ضلال الإنسان وابتلاء الأديان، فإنّ التأريخ يعيد نفسه، وجديده يمثل قديمه.

وما يُدريك بالحال، فلعلّ الفترات بين الرسالات القديمة هي بنحو الفترة بين المسيح ورسولنا عليهما الصلاة والسلام.

ولعلّك تنظر في كلامك إلى القرآن الكريم، فغير خفيّ أنّ وحى القرآن الكريم لايهمّه التأريخ، وإنّما يذكر منه ما يدخل في أغراضه الحميدة ولا يستنكره الجهل، ولقد قال في الآية الثامنة والسبعين من سورة المؤمن المكيّة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وفي الآية الرابعة والستين بعد المائة من سورة النساء المدنيّة: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

فالقرآن ينادي بأنّ هناك من الرسل من لم يقصصهم الله على رسوله، وهذا كله ممّا يصدّ عن التسرّع بالقول بأنّ أقطار الدنيا لم يرسل فيها رسول ولا بلغتها دعوة رسول على مقتضى اللطف وإقامة الحجّة، يا للعجب بأيّ علم مُحيط ينفي ذلك؟!

تنبيهات

يا عمانوئيل، لندكر بعض التنبيهات في المقام؛ لكي تستعين بها على دفع الشبهات:

١: قد أشرنا في صحيفة ٤٠٠ إلى أنّ الحكمة اقتضت خلق الإنسان مختاراً في إيمانه وأعماله بحيث لا يدخل في ذلك إجماع، وهذه الحكمة بعينها تقتضي أن يكون أمر النبوات في سيرها ونفوذها وقبولها غير مبنيّ على إجماع الله للبشر في ذلك، بل تجري في ذلك على نهج الأمور البشريّة العاديّة، يسير أمرها ويمضي نفوذها بحسب العادات والأحوال من الإقبال والافتتاع والسعي والدفاع والعزّة والمنعة.

٢: إنّ الاعتبار بحال النبوات التي ظهر لها صوت من بين مصادمات الضلال، يفهمنا أنّه يجوز في كثير من الأزمان والأقطار أن يكون الضلال المستفحل فيها مستعدّاً لأن يخلق الدعوة الرسوليّة عند أوّل ولادتها، ولا يمهلها بأن تنفّس، فلا تدخل الرسالة ودعوتها حينئذٍ في اللطف والحكمة.

انظر إلى أنّ موسى كان ينتظره وينتظر دعوته الرسوليّة مئات الألوف من قومه - بني إسرائيل - لكي ينصر إيمانهم الموروث من إبراهيم، وينقذهم من شرك المصريين واستعبادهم القاسي، وقد أجابوا بأجمعهم دعوته بابتهاج وآمنوا بها برغبة وإذعان.

ولكن هل يخفى عليك ما جرى على دعوته من التهديد مع اعتزازه بمئات الألوف من قومه؟ وهل يخفى عليك ما وقع في سيرها ونشر موسى ﷺ لها من المعائر والعراقيل حتّى من خصوص قومه بني إسرائيل؟ وهل تنسى واقعة العجل وعبادتهم له؟ وانظر إلى حال المسيح مع بني إسرائيل في دعوته وما جرى معه، فإنّ بني إسرائيل كانوا ينتظرون دعوةً رسوليّة تنظّم جامعتهم وتردّ لهم استقلالهم السياسي، ولم يجنّهم المسيح بما يخالف دينهم الذي استقرّوا عليه بعد سبي بابل ولا شريعتهم، بل كان كالواعظ الزاجر عن الرياء وأكل الدنيا باسم الدين.

ومع ذلك قامت عليه قيامة بعض الناس حتّى أغروا السياسة الرومانيّة به بزعم أنّه يريد أن يدحر سياستها عن بلاده، وجرى ما جرى.

وإنك قد ذكرت في الجزء الأول من الصحيفة ٢١٠ إلى آخره ما هو الوجه في رواج التعاليم الدخيلة في النصرانية على خلاف ما كان عليه المسيح، وكذا تلاميذه من بعده إلى نحو عشرين سنة، كما تذكره الأناجيل وكتاب أعمال الرسل، وهذه طريقة جارية في رواج الدعوة الرسولية بعد تشويه تعاليمها.

وانظر إلى رسول الله وكونه عن أعز طائفة في العرب، وأحب الرجال وأوثقهم وأكملهم عند قومه، وقد نهض أقرباؤه لحمايته وحماية دعوته وأقبل عليها ذوو الوجاهة والحماية، فاضطرت الأحوال إلى أن يهاجر جملة من المؤمنين إلى الحبشة، ويحاصر هو وذووه في الشعب ويتحمل الأذى، ويهاجر إلى المدينة، ويبتلى بالحروب الدفاعية مدة حياته المقدسة في المدينة.

فالله العالم بالأمور يُجري رسالاته بحسب الأصقاع والأزمان في مقام يعلم بأنه يكون لدعوته صوت يقوم به اللطف وتتأكد به الحجّة، ولعلّما يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة الأنعام: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

وهل يخفى عليك أنّ الله قد أقام حجته على جميع الناس في المعارف الإلهية، بما وهبه لهم من العقل الذي تتجلى في بديهياته حقائق المعارف الإلهية، وبطلان المادية والشرك والثالوث وتجسد الإله وحديث الفداء؟

وكيف ترى إصرار الأمم على ذلك، وإصرار البشر نوعاً على الظلم والجور وفساد الأخلاق، مع أنهم يعرفون قبح ذلك ببداهة عقولهم.

مضافاً إلى أنّ الناس قد بلغتهم دعوة رسولية تُوبّخهم على الضلال، وتحتج عليهم ببديهيات عقولهم، ولم تقترن بشيء من الموانع العقلية ولا بتعليم غير معقول، ومع ذلك فإنك ترى الأهواء كيف تلعب ما تلعب بإصرارها.

فالحجّة العقلية البديهية قائمة على جميع البشر في الشؤون الإلهية ومواقع العدل والإنصاف ومحاسن الأخلاق، وأنت ترى حال الناس مع ذلك، وهل يخفى أنّ الرسالة مؤكّدة لهذه الحجّة بتكرار بيانها والنداء بها؟

نعم هي مؤسّسة في الشرائع التي لا يُدرك العقل تعديلها، والعبادات التي لا يُدرك العقل وجوهها، والناس مصرّون على تمرّدهم وحرمان أنفسهم من كرامة دلالة العقل، فمن الجدير لأجل ذلك أن يكون الكثير منهم في شعوبهم وأقطارهم وأجيالهم قد أخرج نفسه عن لياقته للطف المختصّ بالرسالة ولم يدع لحكمتها محلاً؟

إذاً فاعرف أنّ الحكمة الإلهية في الرسالة تنظر إلى هذه الشؤون من أحوال البشر، وتجعلها حيث يمكن بحسب حال الناس أن يظهر لها صوت بدون إلقاء يسلبهم الاختيار، والله الحجّة البالغة وهو العليم الحكيم.

يا عمانوئيل، إذا قامت الحجج العقلية على أمرٍ من الأمور فلا يصحّ لك أن تُشكّك فيها، لأجل احتمالات موهومة يشرها الجهل بالحقائق، بل ينبغي أن تجعل الحجج العقلية دليلاً إجمالياً على الحقائق المجهولة التفصيل.

صفات الرسول في القرآن الكريم

قد ذكرنا في صحيفة ٤٢٦ قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^١ فهذه الآية الكريمة في مضمونها المتقدم وقطعها للحجّة، تستلقتك إلى أحكام العقل والبداهة في صفات الرسول، التي يجمعها أن لا يكون للناس بحسب معقولاتهم وتنفّراتهم حجّة تصدّهم عن الركون إلى الرسول والإذعان بتصديقه والانقياد إلى تعاليمه والتسليم لتأديبه.

وذلك بأن لا يكون من جهة الرسول نقص ينفر الناس عنه، ويكون سبباً للريب العادي في صدقه وللاستنكاف عن أتباعه. كيف تكون الرسالة مع النقص الذي يستتبع كمالات البشر بطلان فائدها وانحطاط دعوتها، وتكون للناس الحجّة العقلانية على الله في عدم إيمانهم بالرسول وانقيادهم إليه.

وقد أيّد الله هذا المعنى بقوله في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة الأنعام:

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ يعني المشركين ﴿ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ﴾ بالحقائق التي يعلم بها الرسول ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ﴾ من الوحي والرسالة ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ فوبّخهم الله على تشامخهم مع نقصهم وقال لهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ويختار لها بعلمه وحكمته من هو الصالح الكامل من البشر، والذي ليس لقائل في صلاحه وكماله مغمز، وليس من جانبه نقص ينفر البشر منه.

كيف يضع الله رسالته مع قدسه وكماله وحكمته وعلمه، ويجعلها فيمن ليس أهلاً لها ولا يليق لفائدتها المطلوبة؟ فالآية وإن كانت بادئ بدء إخباراً، إلا أنها بسوقها واستنادها إلى علم الله القدّوس تُشير إلى وجه الحجّة والشروط المطلوبة في الرسول. لا يجعل الله رسالته في الآثمين، والذين يكذبون أو يظلمون، أو تتناقض أقوالهم وأفعالهم، أو يكابرون الحقّ ويتمردون عليه، أو يخالفون الحقائق المعقولة، أو يأتون بما ليس بمعقول.

وقد أوضح الله الحال في شأن الرسالة بالقانون الكلّي المعقول في قوله تعالى في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أُنزِلَتْ آيَاتُهَا رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ومقدّماً في تبليغ الأحكام الإلهيّة وسيطرة الشريعة وتنفيذها وتعليم الدين وتهذيبه وتأديبه ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

عهدي هذا الذي قلته لك وطلبت أنت أن أجعله في بعض ذرّيتك، لا ينال الظالمين لأنفسهم بالكفر والفسق والخروج عن الاستقامة وتعدي الحدود المشروعة والمعقولة، والظالمين لغيرهم بالعدوان وفساد الأخلاق.

كيف ينال الظالمين عهد الله القدّوس العادل الحكيم بهذا المقام الكبير، والمقصود منه أشرف الغايات؟

ألست ترى أنّ الظلم ينادي بنقص الظالم، وأنّه ليس له كمال يردعه عن ظلمه، ويوجب الوثوق بصدقه في إخباره وتبليغه واستقامته في تهذيبه وتعليمه وسيطرته، فلا يبتغى العقلاء به ولا ينقادون إليه. فكيف يجعل الله الإمامة الدنيّة فيه؟ وكيف ينقض الله غرضه ويجعل الحجّة للعباد عليه، مع أنّه الإله القدّوس الكامل العليم الحكيم؟

دعوى النبوة والرسالة حيث ترد بدلائل كذبها

هل يخفى من العقل والشرع والقانون الفطري الأولي في كل قضاء، أن كل دعوى يراد إقامة الحجّة عليها لا بُدَّ من أن تكون غير ساقطة في نفسها، ولا مقرونة بالموانع الشاهدة على سقوطها؟ وقد أشرنا لك في الكلام السابق من دلالة العقل وبيان القرآن الكريم وحجّته، وأومأنا إلى ما لا يُناسب مقام النبوة^١، بل يمنع منها بحيث إنّ التلوّث بشيء من تلك الأمور لا تسمع منه دعوى النبوة والرسالة.

ولئن زعم أن عنده شيئاً من الحجّة على دعواه، صاح به الحقّ والحقيقة: أأف وأسكت يا هذا المدّعي باطلاً؟ فإنّ تلوّثك المحسوس والمعلوم بموانع النبوة أوضح حجّة وأصدق شاهد على سقوط دعواك وبطلانها. وعلى أنّك إن أتيت بشيء تحاول به الاحتجاج لدعواك الساقطة، فإنّما هو خرافة مشوهة أو صورة موهمة لا مساس لها بشيء من الصواب.

عمانوئيل: يا شيخ ما هي موانع النبوة التي تشير إليها بحيث تسقط بالتلوّث بها دعوى المدّعي للنبوة والرسالة؟

الشيخ: هي النقائص التي تنقض الغرض من الرسالة وتبطل غايتها الكبيرة الكريمة، ومنها ما ذكرنا في صفات النبيّ والرسول أنّه يجب أن يكون مبرّءاً منها كما توجبه الحجّة المعقولة^٢.

فمنها: ظهور الكذب على المدّعي وإن كان في الأمور العاديّة، فإنّ الذي يظهر عليه الكذب لا يوثق بمنقولاته التي يمكن لهم التجسّس على صدقها، فكيف يثقون به في الأمور النبويّة الغيبية؟ وحاشالله القدّوس أن ينقض الغرض الكبير من النبوة ويضيع أمرها الجليل في رجل لا يماسك عن الكذب ولا يثق الناس به، بل يعدّونه من الرجال الناقصين.

١. تقدّم قُبيل هذا.

٢. تقدّم قُبيل هذا.

وإنَّ كلَّ من عرف الإلهَ وقُدسه وحكمته، وعرف النبوةَ وشأنها الجليلَ وغاياتها الكبيرة، ليعرف بحسب فطرته الأصليَّة وبديهته الأولىَّة أنَّ الله لا يضيع أمر النبوة وفائدتها في الرجل الكاذب.

نعم، ربما يعترض في بعض الخيالات توهم أنَّ اللازم هو أن لا يكون كاذباً في التبليغ عن الله. ولكن هبِّي لصاحب هذا الخيال رجلاً كاذباً يدَّعي النبوة ويدعوه إلى تصديقه واتباعه، فإنَّ صاحب هذا الخيال أوَّل ما يقوله لذلك المدَّعي: ألم يجد الله رجلاً صادقاً لنبوته؟

وإذا قال له المدَّعي: أنا في التبليغ عن الله أمين لا أكذب.

فإنَّ صاحب الخيال يقول له: من لا أتق به في شأن تمرّة كيف أتق به في شأن درّة؟ من لم يكن أميناً في القليل كيف يأتمنه الله في الجليل الخطير، ويضيع هذا الأمر الجليل ويسقط فائدته، لو سمح هذا المدَّعي أن يصدق فيه ولا تغلبه نفسيّته وأهواؤه؟! ومن الكذب الفظيع أن يتقلّب مدَّعي النبوة في دعاواه المتناقضة التي يكذب بعضها بعضاً وينقض بعضها بعضاً.

عمانوييل: وهل لها مثال فيما سمعنا به من الحوادث؟

الشيخ: مثاله عليّ محمّد الشيرازي، فإنّه ادَّعى في أوَّل أمره أنّه نائب المهديّ المنتظر عند المسلمين وخصوص الشيعة وأنّه داعٍ للمهدي، ثمّ ادَّعى أنّه نفس المهديّ المذكور، ثمّ ادَّعى أنّه نبيّ الله ورسوله، ثمّ ادَّعى أنّه الله تعالى عمّا يقولون، وكلّ هذه الدعاوى مسطّورة في كتبه، فانظر إلى ما نقله في نصاب الهدى^١ ٨٥ - ٨٨ و١٦٣ - ١٦٨ و١٧٨ - ١٨٠.

ومن موانع النبوة: أن يُخبر عن الله بأمر، ويلزم من ذلك الإخبار كذبه على الله بأحد وجوه: [الوجه] الأوَّل: أن يكون المدَّعي للنبوة يخبر بنبوة شخصٍ وصدقه في دعاوها ودعوتها، ويكون ذلك الشخص يصرّح بتكذيب هذا المدَّعي للنبوة في ادّعائه لها.

فهذا المدّعي إن كان صادقاً اتفاقاً بإخباره بنبوّة ذلك الشخص، إذاً فنبيّ الحقّ يكذب هذا المدّعي في ادّعائه النبوّة لنفسه، فتسقط دعواه.
وإن كان كاذباً بإخباره بنبوّة ذلك الشخص، كفى بكذبه في هذا الأمر الكبير حجة على سقوط دعواه.

عمانويّل: هل لهذا الوجه مثال في حوادث الدنيا؟

الشيخ: مثاله مسيلمة المتنبّي في عهد رسول الله محمد ﷺ فإنّ مسيلمة اعترف وأخبر بأنّ محمداً رسول الله، مع أنّ رسول الله محمد ﷺ يكذب مسيلمة في تنبيهه ويسمّيه مسيلمة الكذاب، فتسقط دعوى مسيلمة؛ إذ يلزم ما ذكرناه كذبها.
[الوجه] الثاني: أن يعترف المدّعي للنبوّة والوحي، ويشهد بنبوّة شخص ورسالته وأنّ كتابه ودينه من الله، ويكون كتابه المعروف ودينه المعلوم وكلامه المتواتر يكذب ذلك المدّعي بنحو العموم.

عمانويّل: وهل لهذا الوجه مثال فيما نعرفه من الحوادث؟

الشيخ: مثاله عليّ محمّد الشيرازي الملقّب بالباب ويحيى الملقّب صبح الأزل، وأخوه حسين عليّ الملقّب بهاء وغلّام أحمد القادياني؛ فإنّ كلّ واحدٍ من هؤلاء الأربعة قد اعترف وشهد في كتبه مراراً - يعسر إحصاؤها لكثرتها - وأخبر بأنّ رسول الله محمد ﷺ هو رسول الله، وأنّ كتابه القرآن الذي جاء به كلام الله، وأنّ دينه دين الحقّ الذي لا ريب فيه.

مع أنّ المعلوم من دين رسول الله ﷺ أنه لا نبيّ ولا رسول بعد رسول الله، وقد تواتر عنه ﷺ قوله: «لا نبيّ بعدي»^١ وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رُّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^٢. وإذا انتفت النبوّة بعد رسول الله ﷺ انتفت الرسالة وانتفى الوحي؛ لأنّ النبوّة أوّل مرتبة من ذلك.

مع أنّ كلّ واحد من هؤلاء الأربعة يدّعي لنفسه النبوّة والرسالة والوحي ونزول

١. صحيح مسلم ٣: ٤٧١ ح ١٨٤٢/٤٤؛ مسند أحمد ١: ٢٩٨ ح ١٥٨٧؛ سنن البيهقي ٨: ٢٤٩، ١٦٥٤٨.

٢. الأحزاب (٣٣): ٤٠.

الكتاب من الله عليه، إذاً فكلّ واحد منهم إذا صدق في شهادته واعترافه برسالة رسول الله محمد ﷺ وأنّ قرآنه ودينه من الله، فرسول الله وقرآنه ينفيان عنه النبوة والرسالة والوحي وإنزال الكتاب عليه من الله، ويكذّبانه في ادّعائه لذلك. ولو كذّب فيما ذكرناه من شهادته واعترافه، لكفى كذبه في هذه الأمور حجّة في تكذيب دعواه للنبوة والرسالة والوحي.

[الوجه] الثالث: أن يعترف المدّعي للنبوة ويشهد بنبوة شخص ورسالته وأنّ كتابه ودينه من الله - جلّ اسمه - ومع ذلك يجحد أكبر الأساسيات من دين ذلك الشخص الرسول وكتابه، ويجاهر بجحود تلك الحقيقة المهمة في معارف تلك الرسالة، والمتقدّمة في طليعة التبليغ وعناوين الكتاب ورؤوس المعلومات من الرسالة والدين.

عمانوثيل: هذا أمر كبير، فهل له مثال فيما نعرفه من الحوادث؟

الشيخ: مثاله عليّ محمد، ويحيى، وأخوه حسين عليّ؛ فإنّهم يعترفون ويشهدون بأنّ محمداً رسول الله ﷺ وأنّ كتابه القرآن ودينه من الله لا ريب فيهما، ومع ذلك يجحدون المعاد الجسماني في الآخرة^١.

مع أنّ القرآن الكريم لا يزال يجاهر بالمعاد الجسماني بأوضح صراحة، ويحتجّ عليه بالحجج المقنعة المعقولة، ويصف جاحديه بالكفر والضلال.

ومن نحو ذلك أنّ عليّ محمد قد ادّعى في تقلّباته بدعاواه أنّه المهديّ المنتظر الموعود به في دين الإسلام، هذا وهو يعترف في كتبه بأنّ الأئمة الأحد عشر من أهل البيت أئمة معصومين، هم أمناء الله على وحيه لرسوله. ومع هذا فقد جاء عن رسول الله وعن الأئمة الأحد عشر ما يفوق التواتر، بأنّ المهديّ المنتظر الموعود به هو ابن الإمام الحادي عشر الحسن العسكري^٢.

١. قد ذكر بعض كلامهم في هذا الموضوع في كتاب نصائح الهدى [انظر الموسوعة، ج ٦] صحيفة ٩١ - ٩٧ (منه ﷺ).

٢. أمالي الطوسي: ٢٩١ ح ٥٦٦؛ كمال الدين وتمام النعمة: ٢٥٣، ح ٣؛ عيون أخبار الرضا ﷺ: ١، ٤٧، ح ١؛ ينابيع المودة: ٣، ٢٨٣، ح ٢.

فرسول الله والأئمة الأحد عشر يكذبون عليّ محمّد في دعواه أنّه المهدي المنتظر، وقد ذكر جميع ذلك في كتاب نصائح الهدى صحيفة ٣٩٦-٤٤٩ [ضمن الموسوعة، ج ٦].

[الوجه الرابع] أن يبني مدّعي النبوة دعواه على أساس دعوى قد قضت الأدلة القيّمة والحجج الثمينة بكذبها وخرافتها، ويجعل دعواه ودعوته فرعاً على تلك الدعوى وتلك الدعوة، وهل يمكن أن تصدّق دعوى مؤسّسة ومبنية ومتفرّعة على دعوى تنادي بالحجج بكذبها وخرافتها؟

[الوجه الخامس] أن يجيء مدّعي النبوة في دعوته بتصديق دعوى نبوة خرافية، ورسالة خرافية، وكتاب طويل عريض خرافي، ودعوة طويلة عريضة خرافية. خرافات تخجل منها الإنسانيّة والأدب والمعقول، خرافات عرف أتباع صاحبها شناعتها فأخفوها حسب جهدهم أشدّ الإخفاء، ولكن الأيّام لم تساعدهم على سترها كما يريدون.

عمانوئيل: هل لهذين الوجهين العجيبين مثال فيما نعرفه من الحوادث؟

الشيخ: مثاله يحيى وأخوه حسين عليّ، فإنّ كلّ واحد منهما بنى دعواه ودعوته ومبادئه الجديدة على دعوى عليّ محمّد ودعوته ومبادئه، وكلّ واحد منهما يقول: إنّ مقامه في دعواه ودعوته إنّما هو من تابعيته لعليّ محمّد وبشارة عليّ محمّد به، ويعرف مثال الوجه الخامس من تصديقهما وإيمانهما بكلّ ما جاء به عليّ محمّد في دعوته.

مع أنّ دعوى عليّ محمّد ودعوته وكتابه هي التي ذكرنا أنّها خرافات تخجل منها الإنسانيّة والأدب والمعقول، وأنّ أتباع صاحبها عرفوا شناعتها فأخفوها.

وإن لم يتيسّر لك شيء منها فانظر إلى كتاب مفتاح باب الأبواب^١ وكتاب نصائح الهدى، وسل أتباع صاحبها لماذا أخفوها بأشدّ الإخفاء؟ مع أنّ صاحبها قد أكد الأوامر عليهم بأن يكتبوا كتبه، ويديموا قراءتها في كلّ يوم، ولا يخلو واحد منهم من

١. المطبوع بمطبعة مجلّة المنار بمصر سنة ١٣٢١ في ٤٤٠ صحيفة، في تاريخ البايّة والبهائيّة من بدء أمرهم، وذكر جملة ممّا في كتبهم وخصوص البيان. وهو كتاب فائق شريف المسلك، نقيّ الأسلوب، كبير الفائدة. تأليف الفاضل الدكتور المرزا محمّد مهديّ خان التبريزي نزيل مصر، وقد كان جدّه وأبوه قد اجتمعا مع عليّ محمّد في تبريز وباحثاه وعرفا أحواله (منه ❀).

شيء منها. فلماذا عصوا أوامره المؤكدة وخالفوه بهذه المخالفة الشديدة؟
ومن موانع النبوة: أن يجيء مدعيها في دعواه ودعوته بما يخالف المعقول، ويعدّه العقل والعقلاء من ضلال الأباطيل. ومن ذلك أنّه بشر ناقص رهين الحاجة البشرية وضعفها ونقصها ومقهوريتها، ومع ذلك يدّعي مقام الإلهية وأتته الإله، ينادي بذلك بألحان مختلفة، ويقول ما لم يجترئ عليه الوثنيون.

عمانوئيل: وهل لهذا الأمر الشنيع مثال في هذه القرون؟

الشيخ: مثاله عليّ محمد، ويحيى، وأخوه حسين عليّ، والقادياني. وها هي كلمات عليّ محمد وحسين عليّ ودعاة يحيى قد ذكر بعضها في كتاب نصائح الهدى في صحيفة ١٧٨ - ١٨٣.

وأما القادياني فإنه في كتابه العربي المطبوع - ومعه ترجمته بالفارسية والهندية - يقول في صحيفة ٩ ما يرجع إلى أنّه يصبغ بصبغ صفات الألوهية، وفي صحيفة ٢١ يقول: «ليرى بي ربي من بعض صفاته الجلالية والجمالية».

وفي كتابه العربي الصغير المسمّى استفناء وحقيقة وحى يذكر صحيفة ٨٠ في ضمن ما يدّعيه من خطاب الله له - جلّ شأنه - بقوله: «يا قمر يا شمس أنت منّي وأنا منك». يا للعجب، هل سمعت مثل هذا الكلام وجرأته من الوثنيين، كيف يكون الله من القادياني؟!

وحسين عليّ أيضاً في كتابه المسمّى ألواح، المشتمل على ثلاثمائة وستين صحيفة، والمؤرّخ طبعه سنة ١٣٠٨ هـ، وسنة ٤٨ من تأريخهم، قال في صحيفة ٢١ بأنّه:
لا يرى في هيكله إلّا هيكل الله، ولا في كينونته إلّا كينونة الله، ولا في ذاته إلّا ذات الله، ولا في حركته إلّا حركة الله ولا في سكونه إلّا سكون الله.
وقال أيضاً:

إنّ الربوبية اسمي، والألوهية اسمي، ولم أزل ناطقاً في جبروت البقاء إني أنا الله لا إله إلّا أنا المهيم القَيوم، ولا أزال أنطق إني أنا الله لا إله إلّا أنا العزيز المحبوب.

وقال في صحيفة ٧٨: «لا يرى فيّ إلّا الله».

وقال في صحيفة ٢٨٦ حينما كان في سجن عكّا: «لا إله إلا أنا المسجون الفريد». وقال في صحيفة ٣٢٠: «كذلك يأمرك الرحمن إذا كان بأيدي الظالمين مسجوناً». فانظر واسمع واعجب.

الدكتور: إننا نجد بين الإلهيين كتباً ينسبونها إلى الوحي الإلهي، ويحامون عن نسبتها إلى الوحي أشدّ المحامات. ونرى هذه الكتب - أو كما يقولون ذلك الوحي الإلهي - قد كثر فيه أنه ينسب الشرك والقول بتعدّد الآلهة والأرباب، وكبائر الفسق والفجور والظلم، والكذب في التبليغ، ينسب هذه الأمور إلى من يقول ذلك الوحي: إنهم رسل الله أو أنبياءه الصالحون الذي يوحى الله إليهم، ويجعل لهم الإمامة في الدين والمقام الكبير في هداية البشر وتهذيبهم.

فكيف يجتمع هذا كلّ في المعقول؟ وكيف يجتمع مع ما تقوله في صفات النبيّ والرسول من الحجّة، وتذكره عن قرآنكم من البيان المشير إلى وجه الحجّة؟ وقد دلّنا على ذلك تحريرات الكاتبين منكم في هذا القرن، وراجعنا مصادر ذلك من كتب وحي الإلهيين فرأينا شيئاً مدهشاً، فماذا تقول أنت يا شيخ في ذلك؟

الشيخ: إن الذي تذكره قد جرت فيه المباحثات الدينيّة، وفصلت فيه التحقيقات اللازمة قضاؤها. وإنّ من الكلام ما يتوسّع فيه بالعبارة حسبما تحتمله لغته من عموم الموضوع له، أو السعة في دائرة الألفاظ فيها والتفنّن في التعبير بمحاسن المجاز والاستعارة.

وهذا ممّا يندحر به بعض الاعتراضات المبتنية على التحكّم بالتضييق على التعبير، رغباً على سعة الألفاظ في مداليلها بحسب أوضاعها، أو جريها على محاسن التفنّن في الكلام. ومن الكلام ما لا يمكن إصلاحه حتّى بـ«ليت» و«لعلّ» بل هو مخالف للمعقول على خطّ مستقيم.

وهذا القسم إذا صدر في الكتب المنسوبة إلى الوحي الإلهي فإنّه ينادي بأنّه أجنبي عن الوحي، وأنّ الكتاب المشتمل عليه معتدّ بانتسابه إلى الوحي، فليطلب ميلاده البشري وينسب إلى أبيه الحقيقي ولا يחדش في شرف النبيّ الذي يُنتسب إليه تديساً بمساعدة الأيّام واستغفالتها.

ألا وإنّ الحقائق المعقولة لا تقف أمامها الأسماء المستعارة والانتساب الموهوم، بل الحقائق هي التي يكون لها الحكم في ذلك، رغماً على مكابرة الشهرة الحادثة وتصفيقها وضجّة التصويت المتواطئ عليه.

وقد كتب الباحثون في ذلك، وإن شئت فانظر في الجزء الأول من كتاب الهدى من صحيفة ٦٥ - ٣٧٨، وإلى مكالمة عمانوئيل وأبيه في الجزء الأول من هذا الكتاب^١، حتّى لا تعود تقول: «راجعنا مصادر ذلك من كتب وحي الإلهيين» بل تقول: راجعنا مصادر ذلك من الكتب التي يرفض شرف الوحي منها ذلك، وقد أغنتنا عن الإطالة في تحقيقات العلماء الكاتبين.

دعوى النبوة والرسالة المسموعة وحجّتها

عمانوئيل: يا شيخُ خذ في شأن مدّعي النبوة وحجّته. الشيخ: فإذا كان مدّعي النبوة ودعوته سالمين ممّا ذكرناه وما يجري مجراه من الموانع، وكان مدّعي النبوة والرسالة ظاهر الصلاح، ممتازاً في نوعه بجمعه لفضائل الصدق والثقة والأمانة، وشرف النفس والعفاف وكرم الأخلاق، مرضي الطريقة، محمود السيرة، مستقيم الدعوة المعقولة، تألف إلى كماله النفوس، وتركن إلى فضيلته المستقيمة في أحواله وأطواره.

ولم يكن في أحواله وأطواره وأقواله ودعوته ما يكذبها، أو يوجب الريب العقلائي الذي يطردها عن ساحة القبول.

فلا ريب في أنّ النفوس السالمة من داء العصبية والغناد والأهواء لا تسترّع إلى دعوته بالجوحد، ولا تبادر أمانته بفلتات سوء الظنّ. بل تركن إلى الوثوق بقوله، والإقبال على دعواه، وتوسّم بباطنه الخير وموافقته لظاهره. وكلّما ازدادوا خبرةً بصلاح ظاهره في أحواله ازدادوا وثوقاً بصلاح باطنه أيضاً، وتفوّقه على سائر الناس بكماله البشري.

ولكن مهما يكن من ذلك، فإنّ هذا الوثوق وهذا الاعتماد لا يتعدّيان مرتبة الظنّ المبنيّ على الظاهر، فإنّ سرائر الإنسان مستورة، ودعوى النبوة والرسالة من الله دعوى غيبية كبيرة لها آثار عظيمة، فلا يكفي فيها الركون الظنيّ والوثوق المبنيّ على ظاهر الصلاح، بل لا بدّ فيها من اليقين الدافع لاختلاج الريب واعتراض الشكوك؛ ليكون الإذعان بها والالتزام بآثارها والانقياد إليها ثابتاً على أساس رصين.

ولأجل ذلك يظهر الله المعجز على يده؛ ليكون حجّة قاطعة على صدقه في دعوى النبوة والرسالة عن الله، وما يلحق بذلك من التبليغ عن الله في دعوته.

في المعجز حجّة النبوة والرسالة

عمانوييل: ما هو المعجز المذكور؟

الشيخ: هو ما كان بحسب ذاته ومميّزاته خارقاً للعادة ممتنعاً على البشر وإرادتهم، يعجزون عنه بحسب قدرتهم المحدودة، خارقاً عن حدود قدرتهم المجعولة والأسباب العامّة ونواميس الطبيعيات وقوانين العلوم، وعن نتائج التدريس والتعليم وتجارب المعامل، والتناول بالاتباع بعد الاختراع بحسب سير العلم والصناعة فيما ينكشف من أسرار الموجودات.

عمانوييل: هذا الأمر الذي تصفه والخارق للعادة والذي يعجز عنه البشر بقواهم البشريّة المجعولة، ليس له لسان ناطق يقول به ويشهد أنّ المدّعي هو رسول من الله أو نبيه، فكيف يكون حجّة وشاهداً على النبوة والرسالة ودليلاً قطعياً على ذلك؟!

الشيخ: إذا كان مدّعي النبوة والرسالة على ما ذكرناه من السلامة من الموانع عن صدق دعوته، وكان على ما وصفناه من ظهور الصلاح، وكلّ ما يقتضي الوثوق بقوله والإقبال على دعواه بالوثوق والإقبال المبنيّين على الظاهر، فإنّه عند ظهور كرامته بظهور المعجز على يده يحصل العلم اليقين بصدقه للنفوس السليمة، الجارية على مرتكزات الفطرة ودلائل العقل القيّمة، فتطمئنّ النفوس الحرّة ويشبث اليقين بصدق دعوته وعصمته.

فإنّ دلائل الفطرة والعقل تُرشدهم إلى أنّ إظهار المعجز على يده إنّما هو لأجل كرامته على الله، والعناية الخاصّة من الله به، من حيث سلامة ضميره وموافقة باطنه لظاهره في الصدق والصلاح.

وأته لو كان فاسد الباطن، يكذب على الله بدعوى النبوّة والرسالة، ويريد أن يخدع الناس بهذه الدعوة الكبيرة، لكان من أشدّ المزورين الذين يظهرون الصلاح والصدق ويضمرّون الغدر والافتراء.

ولو كان على هذا الحال، لما أظهر الله عنايته الخاصّة به وأظهر المعجز على يده؛ فإنّ إظهار المعجز على يده يكون من أقبح أنواع الإغراء بالجهل، وإلقاء العباد الطالبين للرشد بهلكة الضلال، ومن أقبح الاشتراك مع المدّلس في تدليس، وذلك ممتنع ومستحيل على جلال الله القدّوس.

وتتأكد جهة الامتناع والاستحالة في ذلك، بأنّ الذين نعرفهم من الأنبياء والرسل قد احتجّوا بأنّ معجزاتهم إنّما هي من الله عناية بهم وتصديقاً لدعواهم ودعوتهم، ودلالة على استقامتهم في هداهم.

إذا فكيف يشاركهم الله القدّوس على عمل الضلال والتدليس لو كانوا كاذبين؟! فهذا هو الوجه في شهادة المعجز على صدق النبيّ والرسول في دعواه ودعوته، وعلى استقامته في هداه وعصمته.

عمانوئيل: نفرض أنّ مدّعي النبوّة والرسالة، الظاهر الصلاح والأمانة والصيانة على التفصيل المذكور، ربما لا يكون متعمداً للكذب في دعواه ولا مقترياً، ولكنّه يكون متوهماً مخطئاً في دعواه؛ لأجل خيالات تلقّتها له بعض الأمور والأحوال والأمراض العصبية، فهل يجوز إظهار المعجز على يد مثل هذا المدّعي؟

الشيخ: كيف يجوز وفيه من الإغراء بالجهل ما يقصم ظهر الحقائق والعلم، ويضطهد الإنسانيّة والهدى والاستقامة؟! فإنّ هذه الصورة كالصورة السابقة في لزوم الإغراء بالجهل وقبحه الشديد وامتناعه على جلال الله القدّوس.

عمانوئيل: نفرض أنّ مدّعي النبوّة والرسالة يكون في أوّل أمره وأوائل دعوته على

الصفات المذكورة من الصلاح والصدق والصيانة، ويكون أيضاً متوافق الظاهر والباطن في الصلاح والأمانة، وصادقاً في دعوى النبوة والرسالة والتبليغ عن الله ويستمرّ على ذلك زماناً، ثمّ ينقلب حاله في الباطن والخفاء على الناس إلى التخفيّ في الفسق أو الفجور أو الظلم أو الكذب في التبليغ عن الله، فهل يجوز إظهار المعجز على يد هذا في أوّل أمره وحال صلاحه وصدقه في الباطن وقبل انقلابه؟

الشيخ: لا يجوز إظهار المعجز على يده؛ لأنّه إغراء بالجهل، كما في الصور السابقة. مضافاً إلى أنّ مثل هذا المدّس الذي ليس له رادع ثابت من الورع الذي يلزم به التقوى، لا يصلح لمقام النبوة من أوّل أمره.

وأيضاً فإنّ النبوة والرسالة هي أكبر الألفاظ الإصلاحية المكتملة، والله العليم قادر على أن يجعلها في محلّ لا يجد العقل فيه مجالاً للريب.

إذاً فلا يخلّ الله بالحكمة واللفظ، ولا ينقض الغرض في جعلها في محلّ يجوز انقلابه من الصلاح والأمانة إلى الفساد والتدليس والخيانة فيكون الريب العامّ مستمرّاً في كلّ نبيّ وكلّ رسول، فلا يصدق في تبليغ، ولا يعتمد عليه في شيء، ولا تنتظم له شؤون الإصلاح ومهمة الطاعة والانقياد؛ حذراً من انقلابه وتدليس، فالعقل لا يجوز أن تكون في لطف الرسالة وحكمتها وإصلاحها مثل هذه المفسدة الكبيرة.

عمانويّل: هذا الفرض المتقدّم نفرض فيه أنّ مدّعي النبوة أو الرسالة انقلب من الصلاح الحقيقي على الصفات المتقدّمة إلى التجاهر بالفسق أو الفجور أو الظلم أو الشرك أو مخالفة المعقول، فهل يجوز إظهار المعجز على يده في أوّل أمره وحال صلاحه الحقيقي؟ ولماذا لا يجوز؟ فإنّه ليس فيه إغراء بالجهل، فإنّ الناس ينصرفون عنه ويعرفون انسلاخه عن النبوة والرسالة عندما يعرف انقلاب حاله.

الشيخ: وهذا الفرض أيضاً ممّا يبطل فائدة النبوة والرسالة، وينقض الغرض منهما، وينافي حكمتها فإنّ كلّ من يطّلع على عمله القبيح يقول: ليس هذا أوّل قبيح تجاهر به، فإنّ العادة تقتضي بأنّه لا يطّلع عموم الناس على العمل القبيح في حال عمله، فيثور الريب الشديد في تبليغاته السابقة، ويحمل أكثرها وأكثر إجراءاته على الشقاوة بإرادته

تسخير البشر لأهوائه واستعبادهم لأوامر رئاسته الكاذبة.

بل إنَّ العادة تقتضي أَنه لا يطلِّع الناس على الأعمال القبيحة إلَّا بعد أن يجري أمثالها في الخفاء، وتكون النفس مريضة بداء الشقاوة منذ زمان قديم، فيجىء الإغراء بالجهل.

ولو جاز هذا الفرض لجرى الريب الشديد في كلِّ نبوة وكلِّ رسالة وكلِّ معجز من أوَّل الأمر، فيذهب أمر النبوة والرسالة والمعجز ضياعاً.

والحاصل: أَنَّ العقل وفطرة العقلاء يرى أَنَّ موقع الحكمة واللطف والرحمة في أمر النبوة والرسالة والمعجز إمَّا هو حيث يكون النبيُّ أو الرسول معصوماً من الزلل إلى آخر عمره، فيكون هذا هو مقتضى لطف الله ورحمته وحكمته في الرسالة، وإجرائها لحصول غايتها المطلوبة من دون تشويش في اللطف والرحمة ولا إخلال في الحكمة.

عمانوثيل: هل يجوز أن يتكرَّر النوع الواحد من المعجز لرسَل متعدِّدين؟

الشيخ: لا مانع من ذلك، فإنَّه لا يخرج بالتكرار عن كونه خارقاً للعادة البشرية وخارجاً عن القدرة المجعولة للبشر، فإنَّ إحياء الميت الذي جرى على يد المسيح قد جرى مثله لغيره ومنه ما يحكيه العهد القديم في شؤون إيليا واليشع، وما يذكر من إشباع المسيح للخلق الكثير من الطعام القليل قد وقع مثله لرسول الله مراراً عديدة، فإنَّ المعجز لا يخرج بتكرَّره من الله عن كونه معجزاً.

عمانوثيل: المعجز أمرٌ ممكنٌ في قدرة الله، فكيف يستحيل صدوره على يد الكاذب

في دعوى النبوة؟!

الشيخ: يستحيل لكونه في هذا المقام من الإغراء بالجهل، ولأجل قبحه يستحيل ويمتنع على جلال الله القدوس، فالمعجز وإن كان في ذاته ممكن الوقوع من الله، لكنَّه باعتبار عنوانه القبيح يكون ممتنعاً على جلال الله.

عمانوثيل: إذاً يجوز صدوره على يد غير النبيِّ إذا لم يستلزم الإغراء بالجهل، ومن

ذا الذي يمنع على الله إعمال قدرته في خليقته وإظهاره خوارق العادات حيث يشاء؟

الشيخ: نعم، يجوز إظهاره على يد من يعلم الله أنه لا يدعي النبوة الكاذبة، ولا يدعي دعوى دينية كبيرة يدعو إلى ضلالها البشر.

عمانوئيل: من الناس من يدعو إلى الضلال، وتكون دعواه ودعوته مقرونتين بالموانع العقلية والشرعية من صدقهما، محفوفتين بالشواهد القيمة على كذبهما وامتناعهما، كما في الأمثلة التي ذكرتها في موانع النبوة. فهل يجوز على جلال الله إظهار خارق العادة على يد مثل هذا؟ فإنه ليس فيه إغراء بالجهل لكافة البشر، ولا مصادمة لأدلة الهدى، ولا إغاثة على الضلال.

الشيخ: إن لله توفيقات وعنايات وتسديدات خصوصية، يراعي بها غير المتمردين عليه من عباده، الذين هم ضعفاء في المدارك وقاصرون في مجال التحقيق، فإنه يرحمهم ولا يجعل للريب والفتنة مجالاً في قصورهم. وإن أوضح لهم الحق بأكمل إيضاح، فلا يظهر خارق العادة على يد هذا الذي تذكره.

اللهم! إلا إذا تمرد الناس على الحق، وأعرضوا عن الحجج الواضحة وعاندوا الأدلة الكافية، وآتبعوا لأجل ترويح أهوائهم كل ناعق، فإنهم يخرجون عن أهليتهم للعناية والتوفيق والتسديد، فتبقى الحكم الخصوصية في أعمال الله بلاجهة تعارضها.

عمانوئيل: نجد أنّ معجزات الأنبياء لم تؤثر في الإيمان بالرسول والتصديق به، ولم تنفع في كلّ الناس وخصوص المشاهدين لها والعالمين بها من أهل قطرها وعصرها، بل نرى كثيراً منهم من جحد النبوة والرسالة ولم يبال بالمعجز.

الشيخ: ليس المعجز تكوين يُلجئ الناس إلى الإيمان والتصديق إجماعاً، بل هو حجة ودليل يهدي إلى الإيمان من لم يتلوث بالموانع وسفسطات التشكيك وعناد الأهواء. فلا يلزم فيه رفع الموانع التي احتجبوا بها عن نور عقولهم وشرف إنسانيتهم بسوء اختيارهم للعصية والحسد، وآتباع الهوى والتقليد في أمر الدين، ممّا لم يحتجوا به في القليل والكثير من أمور معاملاتهم وأموالهم ومنازعاتهم وحججهم، بل ترى لهم في أمورهم رشداً وتمييزاً لما هو دون المعجز ودونه في الدلالة والحجة، وترى لهم صحة استدلال واعتماد على العقل فيما هو أخفى من دلالة المعجز.

تنوع المعجز بحسب الحكمة

عمانوثيل: لماذا اختلفت معجزات الرسل، فكان لموسى نوع من المعجز، وللمسيح نوع من المعجز، ولنبي الإسلام نوع من المعجز؟

الشيخ: اللازم في حكمة تحصيل الغرض من المعجز أن يكون كافياً من جهة ذاته في الحجّة والدلالة والإقناع للذين يدعوهم النبي أو الرسول إلى الإيمان، ويكون بعيداً عن وساوس جهلهم ومثار شكوكهم.

ولا شك في أنّ لكلّ أمة معارف وفنوناً يتقدّمون فيها، ويعرفون نتائجها التي تنالها قدرة البشر المحدودة، ويميّزون ما هو خارج عن قدرة البشر ممّا هو من نحو نتائجها. فمقتضى الحكمة أن يكون المعجز بحسب كلّ قوم ممّا يعرفون خرقه للعادة وخروجه عن قدرة البشر، بحسب ميزانهم من العلم الذي تقدّموا فيه وعرفوا حدود نتائجه العاديّة.

ولمّا كان أهل مصر في عصر موسى ﷺ متقدّمين وراقين في فنّ السحر وظواهر الأعمال العجيبة، كان الأنسب في الحكمة أن تكون معجزة موسى في دعوتهم من الأعمال العجيبة ما يعرفون أنّها ليست من نتائج الفنون ولا مرتبطة بنواميس العلم، بل هي خارجة عن حدّ القدرة البشريّة.

ولمّا كان أهل سوريا ونزلاؤها والقرييون منها والمرتبون بها في عصر المسيح راقين في علم الطبّ ومتقدّمين فيه، بحيث يميّزون المقدور الداخل في شؤون الطبّ وما هو خارج عن حدوده وحدود القدرة البشريّة، فلأجل ذلك جاءت معجزات المسيح بإبراء الأعمى وإحياء الميت في الحال بقول وعمل خارج عن قانون الأسباب العاديّة والأعمال البشريّة.

وغير خفيّ أنّ العرب في عصر رسول الله محمد ﷺ وما قبله، قد كانت معارفهم نوعاً منحصرةً بفنون لغتهم وشؤون كلامهم في الفصاحة والبلاغة وجودة البيان، وقد ولعوا بذلك ولعاً لم تتمحّر رسومه على مرور القرون، وقد زاد ولعهم بذلك وتقدّموا فيه في ذلك العصر تقدّماً باهراً، حتّى صار ذلك عنوان فخرهم ومعارفهم ومفاخرتهم،

يعقدون له المواسم والمحافل وميادين المسابقة فيه، وحتى صار لهجتهم في البدو والحضر. حتى رقت بينهم هذه الصناعة إلى أوج مجدها، وزهت بأجمل مظاهرها، وأحاطوا بأطرافها ومقدورها.

ولم يكن لهم في غير ذلك من معارف الدنيا تقدّم ولا معرفة بحدودها، ولا ما يرتبط بنواميس علمها.

فكان أنسب شيء لهم في المعجز وأوفق بحكمته هو القرآن الكريم، كما سيأتي بيانه إن شاء الله في محلّه.

ولو كان المعجز العامّ لهم غير القرآن من الأعمال العجيبة، لخيّل لهم جهلهم النوعي بالعلوم والصناعات وخلوّ بلادهم وجنسهم منها، أنّ ذلك من نتائج علوم الرومانيين واليونان والفرس وصناعاتهم البديعة، أو من أسرار سحر المصريين والكهّان، لا من الله ولا خارجاً عن حدود قدرة البشر، وسيأتي إن شاء الله في محلّه بيان الألفاظ العظيمة والحكم الكبيرة في كون الإعجاز العامّ لرسول الله بالقرآن الكريم الجامع لوجوه كثيرة من الإعجاز.

عمانوئيل: بقيت كلمة، هل يمكن أن يكون المعجز بحسب حال الشخص الذي يظهر على يده خارقاً للعادة وخارجاً عن حدود القدرة البشرية، ولكنه يمكن أن يكون بعد ذلك عادياً، أو يحصل مثله بإتقان العلوم وبذل الجهد في الزمان الطويل في التعليم والرقيّ في الاكتشافات؟

الشيخ: نعم، كما إذا تكلم الصبيّ ابن شهر أو شهرين بكلام فصيح ذي فائدة وحكمة وبيان معقول، وكما إذا أمرّ رجل يده على عين إنسان فصار موقّناً يرى بواطن الجسم كما تعمله أشعة رونتجين، إلى غير ذلك من الأمثال؛ فإنّ المعجز ما يعرف أنّه بذاته وخصوصياته خارج عن النواميس العلميّة وأسباب الصناعة وحدود القدرة البشرية ومجاري العادة، فيعرف أنّه من الله لحكمة خصوصيّة وفائدة تختصّ به.

رمزي: أرى الشيخ وعمانوئيل يتكلّمان على حرّيتهما من دون أن يعارضهما الدكتور في مجرى البحث.

الدكتور: بعد البناء على أمر الإلهية يكون هذا الكلام كله جارياً على جادة التحقيق وإيضاح الحقيقة.

في ماهية النفس وإمكان بقائها بعد الموت

رمزي: إن الأديان المعروفة قد اتفقت على بقاء النفس بعد الموت، والمادّيون بحسب آرائهم في ماهية النفس يرون بقاءها بعد الموت من الممنوعات، ومن آراء المادّيين ينتج وهن النبوات بسبب اتفاق دعواتها على أمر غير معقول.

الشيخ: ما تقول أنت يا دكتور في هذا الموضوع، فهل توافق المادّيين على آرائهم، وتعرض على أهل الأديان ونبواتها باعتراضهم؟

الدكتور: يا شيخ، أما بقاء النفس بعد الموت، فأني طالما أجلت فكري في ميدانه ونقدت الآراء المتشعبة فيه، فوجدت اللائق بمن لا يعترف بالنبوات والأديان أن يقف على قوله: «لا أدري»، لا أدري ما هي حقيقة النفس؟ وما هي هذه الفتاة المحتجبة عن فكر البشر، هذه الغادة التي لا تكاد أن ترفع حجابها للفلسفة الطبيعية؟

وربما كان المشهور عن تجارب أهل المذهب الروحاني المنتشر - كما أسمع منه ضجة ودويًا - بأن النفس تثبت وجودها بعد الموت. ولكنني لم أحصل من مجرد ذلك على مقنع لي في الاعتقاد، ومهما أتفلسف في ماهية النفس فإنه لا يغيب عن وجداني وشعوري قصور مداركي عن الوصول إلى حقيقة النفس وماهيتها، كما تقصر المدارك عن الوصول إلى كثير من الحقائق.

هل يغيب عن شعوري اضطراب المدارك والأفكار ووقوفها عن الوصول إلى حقيقة الكهربيّة والنور؟ هاتان الحقيقتان اللتان أضاءتا العالم ببهجة أفعالهما وهما محتجبتان في ستر الخفاء.

لا أدري هل الكهربيّة مرتبطة في المبدأ بالمادة وتحدث من انحلالها؟ أم هي مباينة للمادة وعبرة عن سيالين متكافئين في المادة، تهيج بخروجهما عن التكافؤ وتفرغ بعودهما إليه؟

أم هي سيّالة واحدة تتوازن في المادّة، وباختلاف الموازنة تهيج، وبعود الموازنة تفرّغ؟
كيف يختلّ التوازن والتكافؤ؟ وأين يذهب ما يختلّان بنقصه؟ وأين تذهب القوّة عند التفرّغ؟
هل تنعدم أو تبقى؟ وكيف تنتقل من مادّة إلى مادّة؟ وأين محلّها فيما تنتقل إليه؟
أم هي أمر وراء هذه الآراء والتخمينات، ووراء معركتها؟

أم ليس لنا سبيل إلى معرفة حقيقتها، أم يضمن لنا المستقبل إيضاحها؟
وهل النور مادّة أو ذرّات تنتشر من الجسم المنير، أم هو حاسّة يحدثها نقر تمّوج
الأثير على عصب البصر؟

وما هو شأن الحلّ الطيفي مع هذين؟ ولماذا ينفذ نور رونتجين من بعض الأجسام
الكثيفة؟ ولماذا لا ينكسر؟ ولماذا ينكسر غيره ولا ينفذ إلّا من الجسم الشّفاف؟
لا يغيب عن شعوري ووجداني أنّ الحواسّ المجرّدة لا تصل إلى رؤية المكروبات
وأمثالها، ولا إلى رؤية نباتون وبعض الأقمار، ولا إلى سماع صوت الإنسان المتكلّم من
مسافة عشرة أميال وأكثر.

أليس الوصول إلى ذلك من كرامة النظّارات المكبّرة والمقرّبة والتلفون اللاسلكي؟
يا شيخ، لا يصحّ في شرف العلم والإنسانيّة أن أحكم طبيعياً في النفس بأنّها تبقى
بعد الموت أو لا تبقى، ماذا عُرف من حقيقتها لكي يحكم عليها بحكم طبيعياتها؟ لكن
يا شيخ إن صحّ أمر الإلهيّة والنبوّات أمكن أن يكون إخبارها بمنزلة النظّارات المكبّرة
والمقرّبة لمداركنا ما يخفي عليها، إلّا أنّه لا يقبل منها ما يبتني على أمر غير معقول.

رمزي: هل تسمحون بأن أذكر الكلمات التي جمعتها نزعة واحدة من الغرب
والشرق في كتاب^١، والمقولة في ماهيّة النفس وشأن بقائها بعد الموت وعدمه؛ لكي
يتجلّى الأمر فيها باحتكاك الآراء في هذا المجمع السعيد، أقولها كأنّها كلماتي
ولا مساس لها بما في ضميري؟

الحاضرون: قلّ كلماتك يا رمزي بكلّ حرّيّة.

١. في كتاب ماهيّة النفس المطبوع في بغداد سنة ١٩٢٢م (منه ٥).

الماديات والحقائق الروحية والتعليل

رمزي: إنَّ المادّيات مع كونها محسوسة، لم تضمن لنا مادّيّتها عصمة العقول عن الخطأ في تعليلها وتفسيرها، فقد مضت أجيال والناس مجمعون على أنّ الشمس تدور حول الأرض، مع أنّ الأيّام أوضحت فساد هذا الاعتقاد. فما حال قولنا في الحقائق الروحية التي لا سبيل لنا لإدراكها سوى الحدس والافتراض؟! فالحقائق الروحية التي اكتشفها البشر إلى يومنا هذا ليست سوى بنات التعليل التي لم يقم على إثباتها دليل حسي، ولم تكتسب صفة الحقائق الراهنة إلاّ لإحجام العقول وعجزها عن تعليل ينافية. فلتن كان الأمر كذلك فمنّ ذا الذي يضمن لنا أنّنا لا نخبط فيها خبط عشواء في ليلة ظلماء؟

عمانوييل: أراك أخذت هذا الكلام من زمزمة جديدة قد أباحت بتلويحاتها الصدور، وأظنّك لا تدري بغرضها ومرماها، هل تدري بأنّ أوّل غرض يرمونه بهذا الكلام هي مسألة الإلهيّة؟

دع هذا، ولكن لنخض معك في كلامك، لماذا لا تدري أنّ الصواب والخطأ، والعلم والجهل المركّب، والاستقامة والخبط لا تأتي من ناحية الحقيقة، وكونها مادّيّة كبيرة أو صغيرة أو حقيقة روحية، وإنّما تأتي تلك الأمور من ناحية الإدراك وجهات استعداده وقصوره، ومعرفة ميزانيتها والجهل بها، ومعرفة حدوده والجهل بها، وتدخل الأحوال المقارنة في إثارة غبار الأوهام دون الحقائق حسبما يسنح لها؟ وقد أُشير إلى شيء من ذلك وأمثاله في كتاب أنوار الهدى^١، ونزيدك هاهنا شيئاً من الأمثال:

يشمخ الجبل العالي في مكانه، وضعيف البصر لا يراه من قرب، وبعض صحاح العيون يحسونه من البعد غمامةً أو دخاناً. تراه يخفى إذا حال دونه الغبار والبخار،

١. المطبوع في النجف الأشرف سنة ١٣٤٠هـ [انظر الموسوعة، ج ٦ صحيفة ٥٤-٥٦ و ٥٨-٦٠] (منه ٥٤).

ويظهر إذا صفا الجوّ، وتتجلّى مظاهره إذا اكتنفه النور وإن كان البعد في هذه الأحوال واحداً وميزان البصر متّحداً.

لا تُدرك المكروبات بالنظر المجرد، ولا بالنظارات المكبّرة التي تقصر ميزانيّتها عن تمثيلها للعيون، ولكنك إذا حقّقت ميزانيّة المكبّرة وصلاحتها لتمثيل هذه الحقيقة واستعملتها حسب ناموسها، ترى المكروبات بصفاتها وأوضاعها عالماً كبيراً، فتعرف وجودها.

لا تُدرك القوّة الكهربائيّة المحرّكة بحسّ أصلاً وإنّما تُدرك أعمالها، وتعرف مقاديرها بمعرفة ميزانيّة الموصّلات، كالفضّة والنحاس الأحمر والحديد والزئبق ونحوها. ماذا تقول فيمن ينكر وجود المكروبات وأمثالها؛ لأنّ العين المجرّدة لا تراها، وكثير من المكبّرات لا توصل إلى رؤيتها؟

وماذا تقول فيمن ينكر وجود القوّة الكهربائيّة المحرّكة، لأنّها بنفسها لا تقع تحت الحواسّ، ويقول في مكابرتّه: إنّ القوّة الكهربائيّة ليست إلّا بنت التعليل من بعض الآثار التي أقول وأقول: إنّها من أعمال الصدفة ليس هناك قوّة؟! ألا تدري بأنّ التعليل هو روح العلوم وأساس قواعدها، وأنّ أمّهات العلوم وقوانينها ليست إلّا بنات التعليل؟

يحسّ الإنسان بشيء طفيف من المحسوسات المتماثلة في جهة، فيهديه تعليل العقل الفطري المنزّه إلى العلة الكلّيّة المعقولة، فيجعلها دعامة من دعائم العلم وقانوناً من قوانين الفنّ.

يرى الإنسان يسيراً من الخطوط المتوازية لا تتلاقى فيما يصل إليه من الأبعاد، فيحكم حكماً قطعياً بأنّ كلّ متوازيين لا يلتقيان وإن خرجا إلى غير النهاية.

متى أحسّ جميع الناس بهذا الناموس لكلّ المتوازيات، مع أنّهم لم يحصوا من المتوازيات إلّا بنسبة واحد إلى ما يتعدّر عدّه منها؟ ومتى وصل حسّهم باختيار المتوازيات إلى مائة ألف فرسخ؟ فمن أيّ حسّ حكموا عليها بأنّها لا تتلاقى حتّى لو خرجت إلى غير النهاية؟

هب أنّ الإنسان يحسّ بألف ألف من العدسيّات المزدوجة التحديق، ومثلها من المزدوجة التقعير، ويرى لكلّ صنّفٍ منها آثاراً متماثلة من انكسار النور أو جمعه أو انفرجاه أو تصغير الشبح أو قلبه، ويرى الجمع بين الصنفين يوجب كبر الشبح وقربه. فلماذا يحصل من هذا قوانين كئيّة علميّة لكلّ ما تفرض في العالم من نحو ما ذكرنا من العدسيّات؟ أليس ذلك من تنبّه العقل الفطري إلى التعليل الطبيعي؟!

هذا هو الناموس السائد والجاري في العلم التجريبي وقوانين العلوم البصريّات والسمعيّات وسائر الطبيعيّات، بل كلّ قوانين العلوم بأجمعها ليست إلّا بنات التعليل. لا تتوهّم أنّها من بنات الاستقراء والتتبّع الحسيّ، فإنّ بنات الاستقراء لوجرى التتبّع لأكثر الأفراد لا تكون إلّا عموماً ظنّياً مرتعشاً.

ومن ذلك حكمهم الاستقرائيّ الظنّيّ الواهي بأنّ كلّ حيوان ذي أذن فإنّه يتناسل بالولادة، وكلّ حيوان ذي صماخ فإنّه يتناسل بالبيض. وقفوا بذلك على الظنّ المتزلزل؛ لأنّ العقل لم يجد فيه للتعليل سبباً.

ومهما بلغ التتبّع والاستقراء بالكثرة لم تصلح نتيجته لأنّ تُدرج في قوانين العلوم، ولا لأنّ يبنى عليها علم؛ لكونها معرضاً لظهور الخلاف، كما ظهر خلاف ذلك في بعض الحيوانات الثدييّة في استراليا فإنّها تلد وتبيض، هذه بنات الاستقراء والحسّ المجرد. أمّا بنات التعليل - أعني العلميّات المحكّمة القيّمة - فإنّها تكفي فيها مشاهدة أفراد يسيرة، تنبّه العقل إلى التعليل الطبيعيّ والملازمة البيّنة، فيجري الحكم القطعيّ العامّ لكلّ فردٍ يفرض وجوده في العالم.

يُروى أنّ رجلاً فلمنكيّاً جمع اتفاقاً بين عدسيّة مزدوجة التحديق وبين أخرى مزدوجة التقعير، فنظر فيهما فرأى الشبح كبيراً قريباً، فجزّب والده ذلك مراراً يسيرة، فاهتدى بعقله الفطريّ إلى التعليل الطبيعيّ إجمالاً، فاخترع النظارة المكبّرة والمقرّبة «التلسكوب»، وصار قانونها علميّاً.

فليست قوانين «التلسكوب» إلّا بنات التعليل، ليست الكرامة في هذه الأمور للحسّ، وإتّما الكرامة للتعليل الذي يشبهه العقل الفطريّ ولو من إشارة الحسّ وتنبهه

أحياناً، وقد أُشير إلى شيء من ذلك أيضاً في كتاب أنوار الهدى صحيفة ١١ - ١٢.

الآراء الماديّة في النفس، ونقدها

رمزي: النفس روح لا حسّ لها ولا تأثير إلّا إذا اتّحدت بالمادّة، فكيانها بالمادّة وللمادّة وُجدت، فكيف يمكن بقاؤها بعد انفصالها من البدن؟

عمانوئيل: هل أنت باحث يا رمزي، أو جالس على كرسيّ الإفتاء؟

من أين لك أنّ النفس لا حسّ لها ولا تأثير إلّا إذا اتّحدت بالمادّة؟

ومن أين لك أنّ كيانها إنّما هو بالمادّة؟

ومن أين لك أنّها للمادّة وُجدت لا لأجل غاية أخرى أيضاً؟

فهل يخضع البحث والحقيقة لهذه الفتاوى المجرّدة من كلّ روح علمي؟ أما ترى أنّ الذي يدلّ عليه الحسّ والوجدان هو أنّه لا حسّ للمادّي ولا تأثيراً إرادياً إلّا إذا اتّحد بالنفس؟ وأما حسّ النفس وتأثيرها إذا فارقت المادّة فهو محلّ البحث واختلاف الآراء، ولا سبيل إلى نفيه بالفتوى المجرّدة التي تقدّسها الأهواء.

لا يقول: «إنّ كيان النفس بالمادّة» إلّا من تجلّت له حقيقة النفس بأجلى ظهور، يعرف منه أنّه لا يمكن لها الكيان إلّا بالمادّة، ومع ذلك فإنّه لا يصحّ أن يقابل خصومه في ذلك إلّا مع إقامة الأدلّة الكافية المقنعة.

ولا يقول: «إنّها للمادّة وُجدت لا لغاية أخرى» إلّا من بيده أمر وجودها وإيجادها وغايته، أو له الإشراف التامّ على ذلك، فكيف تقبل في ذلك الفتاوى التي يشمئزّ ويخجل منها العلم وشرف الإنسانيّة؟

رمزي: لم يشعر بوجود النفس قبل اتّحادها بالمادّة وبعد مفارقتها، ما من نفس شعرت بكيانها قبل أن تلبس المادّة، وما من نفس أثبتت وجودها وشعورها بالوجود بعد أن خلعت عنها ثوب المادّة، فليس لنا برهان حسّي على أزلتِكَ يا نفس.

عمانوئيل: ليس في الدين الصحيح تعليم بأزليّة النفس، ولا يبتني بقاؤها بعد الموت

على أزلّيّتها. ليس الأزليّ الأبديّ إلّا واجب الوجود خالق النفس والعالم، إنّما تعليم الدين ببقاء النفس بمشيئة خالقها.

من ذا وماذا أوجبَ على الحقيقة أن تثبت وجودها في جميع أحوالها لكلّ أحد، أو تثبت وجودها بنحو مخصوص بحسب الاقتراح؟

كم من حقيقة لم تثبت وجودها لعامة الناس إلّا بنقل الخواصّ بحسب استعدادهم للوصول إليها، فلماذا لا يكفي في إثبات وجود النفس بعد الموت إخبار النبوات بذلك؟ النبوات التي هي الأخصائيّة والمرجع في إثبات ما وراء الحسّ بسبب اختصاصها برصد الوحي الإلهي.

أيّ هويّ وبيء لوى العقول عن هذه الحقيقة حتّى قوبلت بالجحود المفرط، ولم يسمح لها من أنباء الوحي بها أن تكون من مطارح الشكّ أقلّاً؟

كم من افتراض ليس عليه دليل - لا حسّي ولا عقلي - قد صفّق العالم المتمدّن في قبوله قبول الحقائق المحسوسة، أو التي ينادي بها الدليل العلمي الجليّ.

متى أثبت الأثير وجوده وزوابعه؟ وبأيّ شيء أثبتته؟

متى أثبتت الجواهر الفردة وجودها وزوابعها؟ ومتى تخلّص فرضها من قيد الامتناع؟

مناجاة الأرواح

ها هو مذهب الروحاني قد ملأ دويّه العالم، وجرت تجاربه بالكثرة المدهشة، وخدمته الجرائد والمجلّات، وصنّفت فيه الكتب. وإنّه وإن جرت فيه الشكوك باستعمال الجيل والتمويه في بعض الموارد، لكن المشكّكين قد ألجأتهم التجارب الكثيرة إلى الاعتراف بحقيقته. حتّى صاروا من المدافعين في حماية حقيقته رغماً على مبادئهم.

قد أثبتوا بالحسّ والتجارب مناجاة الأرواح ومشاهداتها ومشاهدات أعمالها وعجائبها، بما يعرفك أنّ وراء هذه المادّة موجود من العالم الروحي، قد شاء أن يثبت وجوده وشعوره بوجوده المجرّد من هذه المادّة.

نعم، إنّ بعض حوادثه ومشاهداته قد لا تضمن لك صدق الأرواح المستحضرة في

كونها أرواحاً بشرية، بل ربما يحتمل البعض أنها صنف آخر من الأرواح وهو المسمّى بالجنّ، ولكنّه مع ذلك يحقّق واحداً من أمرين يشتركان في ثبوت الروح العارية من لباس هذه المادّة التي تعنيها في كلامك.

رمزي: يمكن الاتفاق مع النفسيتين على وجود النفس، على شرط أن تكون اسماً لمسمّى، هو الأفعال الروحية الحاصلة من قيام الجسد بوظائفه. أمّا كونها جوهرًا خاصًا هو علّة تلك الأفعال، فيستحيل ما لم يكن لهم على ذلك دليل محسوس.

عمانويّل: ليتك تلتفت وتشعر بمعنى قولك: «الأفعال الروحية» وليتك تلتفت إلى أنّه لماذا لا تصدر هذه الأفعال من الحجر والحديد؟ ولماذا لا يقومان بمثل ما يقوم به جسد الحيوان والإنسان من الوظائف؟

هل أنت لا تعرف أنّه لا بدّ من أن تكون لهذه الأفعال علّة مختصّة بجسد الإنسان، تنسب إليها هذه الأفعال دون الحجر والحديد؟

هل كلّ شيء لا يقوم عليه دليل محسوس يُوافق أهواءك واقتراحك يكون مستحيلًا؟! .

لماذا يستحيل أن تكون النفس جوهرًا خاصًا هو علّة أفعال الجسد الحيواني؟

هل يستحيل ذلك لمجرّد قول القائل في ماهيّة النفس: «رأبي رأبي رأينا رأينا»؟

وإذا كان مستحيلًا فكيف تخضع لقبوله إذا قام عليه دليل محسوس؟! .

ومن ذا الذي حصر الدلالة على الحقائق بالدليل المحسوس؟ هذا الدليل المحسوس

هل يجب أن يكون محسوساً لك في وقت صفاء خيالك من افتراضات آرائك

ونزعاتك؟ من أين لنا صفاء خيالك وهدوء أهوائك؟ وسنذكر إن شاء الله شيئاً من

دلائل الوجدان والمشاهدات على أنّ النفس جوهر خاصّ هو علّة تلك الأفعال!

رمزي: وظيفة النفس إنّما هي إعطاء الحياة، وأعني بالحياة: الشعور بالوجود

والحركة ولما كانت ماهيتها في الجسد من الأمور المعنوية التي لا يعبر عنها بالكلام،

فيمكننا أن نعبر عنها بظواهر فعلها وتأثيرها.

ولذا يصحّ لنا أن نقول: إنّ ماهيّة النفس في الجسد إنّما هي الحرارة المنتشرة فيه تلك الحرارة التي تدفع كلّ عضو من الأعضاء إلى مباشرة الوظيفة التي خصّصتها لها القوّة المكوّنة، جعلت الحرارة من فعل النفس مستنداً إلى ما يحلّ بالجسم من البرودة والإتلاج عند مغادرتها إياه.

هذا لو صحّ أن تكون برودة الجسم ناشئة من مغادرة النفس، ولكن هلاًّ يمكن أن تكون مغادرة النفس حاصلّة من وقوف حركة الدم وبرودة الجسم، أي أن تكون برودة الجسم سبباً لمغادرة النفس لا نتيجتها.

عمانوئيل: من الجدير أن لا أورد على السامع ضجراً بتكرار هذا الكلام لبيان ما فيه، لولا أنّه مطبوع بمساعدة جمعيّة ومؤلف من تفلسفات متنوّعة.

ماذا تقول إذا قال أحد رصفائك في أدبك: ليس كما قلت، بل الذي ينبغي أن يعني بالحياة هو الشعور بالمعقولات والأُميال والإرادات؟

أو قال آخر: لا ينبغي أن يعني بالحياة إلاّ شعور الجسد بلذّاته وآلامه.

أو قال آخر: إنّ الذي يعني بالحياة هو تبادل التغذية والتحليل على الجسد.

أو قال آخر: إنّما هو أعمال الأجهزة الباطنة في تنمية الجسد وحفظه من الفساد

العامّ، فيسيل على فتواك من نحو ذلك سيل الفتاوى الجارف.

وماذا تقول إذا قال لك العلم: إنّ الذي ذكرته أنت ورفصاؤك إنّما هو بعض من آثار

الحياة ومظاهرها؟ وليتك تستطيع أن تفسّر لي بالاستقامة قولك: «إنّ ماهيّة النفس في

الجسد من الأمور المعنويّة التي لا يعبر عنها بالكلام».

ماذا تريد بقولك: «معنويّة»؟ هل تريد أنّها لا وجود لها، بل هي معنى افتراضي؟ من

ذا يتفق معك على هذا الوهم؟

أم تُريد أنّها ليست من الأمور الظاهرة بحقيقتها للحسّ؛ لأنّها ليست من عالم هذه

المادّيّات، ولأجل احتجاب حقيقتها عن الحسّ لا يمكن لنوع الإنسان أن يعبر عنها

وبيّن حقيقتها بالكلام؟

إذاً قد نطقت بالصواب من حيث لا تدري ولا تريد، ولكن لماذا تناقض كلامك وتقذف نفسك في لجة البحث عن ماهيتها، فيذهب بك تيارها إلى مهلكة التناقض والتمخّلات؟ إذا كانت ماهية النفس لا يعبر عنها بالكلام، والذي يمكن هو التعبير عنها بظواهر فعلها وتأثيرها، فبأيّ شعور وبأيّ طفرة رتبت على ذلك نتيجتك المناقضة وقلت: «ولذا يصحّ أن نقول: إنّ ماهية النفس في الجسد إنّما هي الحرارة المنتشرة فيه»؟

إذا كانت الحرارة هي ماهية النفس، فكيف تناقض ذلك بقولك: «جعلت الحرارة من فعل النفس...» إلى آخره؟

وإن كانت الحرارة من فعل النفس وآثارها، فكيف تقول: إنّ ماهية النفس هي الحرارة؟! وكيف يصحّ لك ذلك؟!

وليتك تدري ماذا تريد بقولك: «هذا لو صحّ أن تكون برودة الجسم...» إلى آخره، ويا للأسف كيف يخاض في أمر ماهية النفس بمثل هذا الكلام المتناقض؟!

تشبيه النفس ومعارضته

رمزي: وتقريباً للأذهان يمكننا أن نُشبه ماهية النفس في الجسم بالبخار، فإنّ هيئة الماكينة بمجموعها لا تفترق بشيء عن الأجسام الحيوانية، فالبخار نفس للماكينة إذا حصرته فيها، وتضحى جسماً مائتاً إذا انفصلت عنه. فالبخار حياة في الماكينة، وهو عدم لا قائمة له بذاته إذا انفصل عنها.

عمانوييل: لماذا تسافل أمر البحث في ماهية النفس إلى مثل هذه التشبيهات؟ نجاري فكرك وننتبهك على أنّ حياة الماكينة بالبخار إنّما هي بتحرك المدك من تبادل حركته في الأسطوانة، ومن ذلك تسري الحياة والتحرك إلى باقي الأجزاء، ويغادر الأسطوانة معمل الحياة ويجري في مجاريه وهو بخار على كيانه يعمل أعمال البخار إلى أن يصل إلى الفضاء، ثمّ يتحلّل بتأثره بالعوامل.

فلتكن النفس كذلك، تغادر الجسد وهي باقية على كيانها. ومن أين لك أنّها بعد

ذلك ينحلّ كيانهما بتأثير العوامل؟ ولو قلت ذلك من فتاواك المجردة لكان غير ما تتفلسف به.

لماذا لا تشبّه النفس بمدير الماكينة الذي يضرّم نارها ويزن بخارها وينظّم أعمالها ويصلح أجزاءها ويستخدمها بشعوره لأمياله وأغراضه، وبمدير السيارة، ومدير السفينة الشراعية، ومدير المركب البخاري، وبالحائك بألة الحياكة اليدوية؟

فإنّ كلّ واحد من هؤلاء يستخدم بإرادته وشعوره آلة أعماله الآلية من هذه المذكورات، ثمّ إذا فسدت أجزاءها بفساد لم يكن إصلاحه من وظائفه، فإنّه يغادرها وهو باقٍ على كيانه وإدراكه وأعماله التي لا ترتبط بهذه الآلة.

وإنّك تجد هؤلاء المديرين المذكورين مع اتّحادهم بالنوع الإنساني يختلفون في الشعور والعلم والمدارك، ويكفي بعضهم من الإدراك والعلم ما لا يكفي الآخر، ولكلّ منهم بحسب آله عمل لا يقدر عليه الآخر ولا يصدر منه.

فهذا الاختلاف في أعمال هؤلاء المديرين بحسب أغراضهم واستعدادهم وآلاتهم، هل يدلّ على أنّ الأعمال المذكورة إنّما هي من خصائص الآلات المذكورة لا غيرها؟ وأنه ليس للمديرين كيان يبقى بعد مفارقتهم لهذه الآلات، ولا صلاحية في ذاتهم للإدراك والشعور؟

فالنفس في أدنى الحيوان وأرقاه وإن كانت واحدة بالجنس أو بالنوع، تكون مختلفة بالشعور والإدراك والأخلاق والأعمال بحسب اختلافها في النوع أو في الصنف أو الخصائص الشخصية، وبحسب استعدادها وآلاتها، كما في اختلاف المديرين المذكورين. فلماذا يلزم أن تكون واحدة في جميع الصفات والخصائص، كما جرى توهم ذلك في مصادر كلماتك؟

ترى المديرين المذكورين على أنّهم وافق مع آلاتهم المذكورة في استخدامها في أعمالهم ما دامت سلامتها الطبيعية، يحفظون بقاء سلامتها بالمسح والدهن وإمطاة الأذى، ونحو ذلك ممّا تحتاج في حفظ بقائها على صحتها حسبما يدخل تحت قدرتهم. فإذا خرجت عن نظامها الطبيعي وصلاحيتها للعمل ولم يكن إصلاحها من وظيفتهم

ومقدورهم، فارقوها وهم على كيانهم وإدراكهم وأعمالهم اللاتقة بذاتهم.
ولا يقال: إن كيان هؤلاء وشعورهم وبقاء ذواتهم تابع لسلامة آلتهم، فلماذا لا يكون
مثال النفس مع الجسد مثال المدير مع آتته؟ ولماذا يتوهم خلافه، ويجعل هذا الوهم
الخرافي دليلاً في المكابرات، ويتقلب بهذا الوهم والتحكّم الفارغ في عدّة صحائف؟
لا تخفى الرابطة في الاستعمال بين المديرين المذكورين وآلاتهم ما دامت على
نظامها الطبيعي، إذ فمن هو الذي يبدأ بالانفصال عند فسادها؟ وكلّ ما تقول هاهنا
على الاستقامة في الشعور نقوله في انفصال النفس عن الجسد عند الموت.
رمزي: رأينا فيما سبق أنّ وظيفة النفس قائمة من جهة بإعطاء الحياة والحركة
وتلك الحركة [والحياة] موجودتان في جسد الحيوان وجسد الإنسان على السواء،
فأين الفرق بين نفسيهما؟

عمانوثيل: ووظيفة المديرين للآلات المذكورة قائمة من جهة بإعطاء الحياة العمليّة
والحركة، وتلك الحياة وتلك الحركة موجودتان في السفينة الشراعية في النهر الصغير،
تلك السفينة البسيطة بيد المدير الذي لا يحسن ولا يعرف إلا إدارة السكّان وجذب
الشرع وإرخائه.

وموجودتان أيضاً في المركب البخاري البحري المجهّز بألة الضياء الكهربائي،
والتلغراف اللاسلكي، والآلات المعرّفة للأوقات والجهات ومديره عالم طبيعي جغرافي
فلكي، يستعمل جميع أجهزة المركب بعلم وسموّ إدراك.
فالفرق بين نفس الحيوان ونفس الإنسان هو الفرق بين المديرين المذكورين،
والمشاهدة والوجدان شاهدان على أنّ قول القائل: «فأين الفرق بين نفسيهما؟» من
الكلام الساقط.

كما يحتاج الحيوان إلى الغذاء والأكل والشرب، ترى المركب البخاري يحتاج إلى دهن
يحفظ أجزاء الحديدية من صدمة الاحتكاك بالحركة، ويحتاج إلى ماء ونار لقوة التحريك.
فهل يتوهم ذو رُشد بأنّ مدير المركب يستفيد في كيانه وغذائه بتغذي المركب
بالدهن والماء والنار بواسطة ارتباطه مع المركب بالمديريّة والاستعمال؟ فمن الشطط

أن ينسب إلى القائلين ببقاء النفس أنها تستفيد من الأكل والشرب في كيانها، وينتقل ذلك إليها بواسطة الرابطة بينها وبين الجسد ثم يعترض عليهم ويقال: «أما إنه يستحيل وجود رابطة بين عنصرين متضادين متنافرين نقيضين كالروح والمادة» ولماذا يتعب القلم والطابع في الوهم بتسويد عدّة صحائف؟

يا رمزي، من أين جئت بهذه الاستحالة التي تدّعيها؟ هذه الفتوى المجردة التي لهج بها مصدر كلماتك؟ ما هو التضاد؟ وما هو تضادّ الروح والمادة؟ ومن أية جهة تتضادّان؟ وكيف يستحيل وجود رابطة بينهما؟ وما هي الرابطة المستحيلة؟ وما هو التنافر بينهما بحيث يستحيل وجود رابطة بينهما بوجه من الوجوه؟ وما هو التناقض؟ وكيف تتناقض الروح والمادة؟ ومن أيّ جهة تتناقضان؟

هل أنت جسد بغير نفس وروح ترتبط به، أم أنت روح ونفس بغير جسد يرتبط بها؟ لماذا نسيت قولك صحيفة ٤٥٦ سطر ٢٢: إنّ ماهيّة النفس من الأمور المعنويّة التي لا يعبر عنها بالكلام؟

ولماذا نسيت قولك في أول كلامك في النفس^١: إنّ الحقائق الروحيّة لا سبيل إلى إدراكها؟ وليس لك من يضمن أن لا تخبط فيها خبط عشواء. إذاً فلماذا ناقضت كلامك، وتقمّحت في لجة البحث عن حقيقة النفس والروح تقمّحاً ليس فيه إلاّ الخبط والفتاوى المجردة والتحكّم؟

رمزي: لو كان من مزايا النفس إعطاء الحياة، لبقيت المخلوقات الحيّة تتمتع بفعل الحياة ولو بغير أكل وشرب. وإذا كان ذلك من المستحيلات، فقد وصلنا قسراً إلى نتيجة غريبة وهي: إنّ الحياة ودوامها من بواعث المادة لا من بواعث النفس.

ما هذا التناقض؟!

عمانوئيل: يا للعجب من عدم المبالاة بالتقلّب في التناقض؟! إنك قلت فيما تقدّم: إنّ وظيفة النفس إنّما هي إعطاء الحياة، وإنّ وظيفة النفس قائمة من جهة بإعطاء الحياة.

فكيف الآن تنكر كون إعطاء الحياة من مزايا النفس؟!
 أم تريد أن تشير إلى التناقض الذي في مصدر كلماتك؟! أما إنّ التناقض مثل
 الفتاوى الفارغة والتشبيّات السخيفة، فكم ذا تشير.
 ولماذا لم ينقدح في فكرك عند كلامك هذا أنّه قد قدّرت حياة المخلوقات
 بصلاحيّتها للتغذّي في حركة النموّ والتحليل بتدبير النفس، فإذا اقتضى التقدير سقوطها
 عن هذه الصلاحيّة فارتقتها النفس والحياة التي هي من أعمالها؟ فمن أين يلزم أن
 تكون الحياة من مبعوثات المادّة لا من مبعوثات النفس؟ وهل يوصل إلى نتيجتك إلاّ
 بالظفرة في تقهقر الشعور والأدب؟

كلام العلماء النفسيين ورضهم منه

رمزي: إذا سألنا العلماء النفسيين عن ماهيّة النفس، قالوا بالحرف الواحد: «إنّها قوّة
 أودعها الله في الإنسان ليكون بها وجدانه وتفكيره وإرادته».

أمّا قولهم: «إنّ النفس هي قوّة الإحساس والتفكير والإرادة» فلست أعلم أنّهم
 يقصدون كون هذه القوّة هي مزيّة خاصّة بالنفس، أم أنّها مشتركة بينها وبين الجسد.
 أمّا كونها مزيّة خاصّة بالنفس وحدها، فهذا محض خلط وهذيان، وذلك لأنّنا
 نشاهد أنّ مفعول هذه القوّة يبطل عند حصول خلل في الأجزاء الجسميّة.

وأما كونها مشتركة بين النفس والجسد، فهذا كلام مجمل يحتاج إلى الإيضاح.
 عمانوئيل: لتفهم أولاً أنّ رضهم في كتب علم النفس هو البحث عمّا يخصّ
 الإنسان، ولأجل ذلك اختصّت إشارتهم في مقام التعريف الرسمي بنفس الإنسان،
 وأشاروا إليها ببعض خواصّها ممّا يدخل في رضهم، معرضين عن خطر التحقّم في
 لجة البحث عن حقيقتها بحدودها، تمسكاً بفضيلة معرفتهم بحدود إدراك النوع البشري
 وصدّاً لجماح الجهل المركّب من أن يتحقّم في هذا العمر الهائل. كالطبيعي الذي يُعرّف

١. كلّ ما هو مذكور في مكالمات رمزي في النفس مأخذه الكتاب المطبوع في بغداد سنة ١٩٢٢م إلاّ قليلاً ممّا

القوة الكهربائية ببعض أعمالها، حياً عن التقدم في البحث عن حقيقتها التي اعتركت فيها الآراء.

ولأجل سهولة التعبير قالوا في تعريفها ما ذكرته، قالوا ذلك إشعاراً بمحلّ بحثهم في أثرها وأعمالها في الهيكل الإنساني، متغاضين عما يعترضهم من المزامع، وعن دعوى أنّ النفس لا يستقلّ وجودها عن المادّة، ولا يكون لها عمل وأثر بغير المادّة.

وإن أردت بيان مقصودهم في خصائص النفس فإنّهم يقولون: إنّنا إذا نظرنا إلى النوع الإنساني نظر بصيرة وتحقيق، وجدنا لنفسه من الخصائص قسمين ممتازين:

أمّا القسم الأوّل: فهي خصائص وأعمال آليّة تستخدم بها الجسد التي هي مرتبطة به هذا الارتباط الأكيد المشاهد، وليكن منها الإحساس والتفكير والوجدان. فهذه الخصائص من حيث المصدر هي خصائص النفس؛ لأنّها تدور حول النفس وارتباطها بالجسد، ويقف ظهورها نحواً ما باحتياجها بالنوم أو الإغماء فضلاً عن الموت.

نعم، بما أنّ هذه الخصائص آليّة، فإنّ ظهور آثارها للوجود يتوقّف على استعمال الآلة وصلاحتها، كتوقّف عمل النجّار على آلاته الصالحة.

انظر إذا بطلت أعمال النجّار عند حصول الخلل في آتته وانقطاع رابطته بها، فهل يقول مستقيم: إنّ صناعة النجارة ومزيّتها وإرادتها هي للآلة، وليس للنجّار مزيّة ولا خاصّة؟ أو يقول: هي مشتركة بينها وبين النجّار بحيث يقول: إنّ النجّار يفقد مزيّة الصناعة وملكتها إذا لم يظهر مفعولها عند اختلال الآلة! لا تحسب إنّنا نريد الإقناع فيما مضى وهاهنا بالتمثيل، بل إنّنا يكفيننا من الأدلّة ما يأتي.

النفس تثبت مزيّتها واستقلالها في بعض أعمالها

وأمّا القسم الثاني: فهي خصائص نجدها لا تدور حول آليّة الجسد، وكثيراً ما لا يكون لها أدنى مساس.

نجد في الإنسان مدركاً جازماً حاكماً بالقطع واليقين بأنّ الفعل لا بدّ له من فاعل، والأثر لا بدّ له من مؤثّر، والحادث لا بدّ له من علّة، والنقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان،

والضّدين لا يجتمعان، وكلّ زوج ينقسم بمتساويين، وكلّ فرد لا ينقسم بمتساويين، إلى غير ذلك من القوانين الحسابيّة والهندسيّة.

يعلّل الموجودات الحادثة ويسير في تعليله، ويميّز العلة عن اللازم المقارن.

يدرك القوّة التي لا تحسّ إلّا آثارها، ويحكم بوجودها، ويعلّل بها تلك الآثار.

يحكم بهذه الأحكام اليقينيّة الكليّة الجارية بتيّار عمومها إلى حيث لا يجد مجراها في المصاديق.

يدرك القوانين الكليّة والقواعد العامّة التي بها أُسس أساس العلوم وبنيت صروحها وأقيمت دعائمها، تلك القوانين والقواعد المشرق يقينها والمطرّد تيار عمومها، والتي تعرّفك هي والشعور المستقيم أنّها ليست بنات الحسّ والحواس، وليست إلّا بنات النفس، وبالواسطة بنات التعليل العامّ الذي هو من خصائص النفس.

رمزي: إنّ كثيراً من هذه القوانين العامّة تحتاج إلى التجربة والحسّ، فليست من خصائص النفس.

عمانوئيل: نذكرك أولاً بأنّا قد بيّنا لك على أوّل كلامك في النفس، إنّ اتقن قضية استقرائيّة جرى فيها التتبّع لغالب الأفراد لا تحظى إلّا بالظنّ الذي كثيراً ما ينكشف فيه الخلاف، كما في بعض حيوانات استراليا، فلا يفوز عموم في قانون باليقين إلّا باستقلال النفس وامتيازها بإدراكه وإدراك تعليله.

ولما كانت النفس محجوبة عن مزيتها بكثافة المادّة بقدر ارتباطها وعلاقتها بمادّيتها، صارت تستطلع إلى ما يحجب عنها - وهي القوانين التي تشير إليها - من خلال ذلك الحجاب من ناحية الحواسّ التي هي آلة لإعمال ميزتها.

فيكون الإحساس والتجربة بقليل من الأفراد بمنزلة التجسّس على المطلوب من خلال الحجاب، وتكون الحواسّ بمنزلة النوافذ من الحجاب، تعبر النفس منها بالتحسّس إلى إدراكاتها وتعليلها وعموماتها ويقينها ومزاياها الخاصّة بها. فليست الحواسّ هي الآلة لتلك الإدراكات والقوانين اليقينيّة، بل إنّما هي معبر للنفس إليها.

ونبتّك ثانياً أنّه كيفيك في إثبات النفس لميزتها واستقلالها قانون واحد تستقلّ

بإدراكه من دون مداخلة لحسّ أو تجربة، فكيف ولها من ذلك قوانين وإدراكات وأحكام يقينية كثيرة؟!

وأيضاً ترى النفس في حال ارتباطها بالبدن واتّحادها به، وإدارة شؤونه في حياته ونموّه وحواشيه وحاجياته، يكون لها جهتان تتغالب آثارهما: جهة جسمانية وشهوانية وغضبية ينبعث منها حجاب الجهل والنزوع إلى الشخصيات، وجهة روحانية عقلية تشع بالشعور والإدراك وترعى النوعيات والحقائق الصالحة.

فترى من نتائج ذلك التغالب لأعمالها أقساماً:

منها: ما يقوم بآلية الجسد، أي بالحواش الظاهرة والباطنة، فتراه يقوى بقوة الآلة الجسدية ويضعف بضعفها، ويأخذ بالضعف نوعاً بعد سنّ الوقوف، وذلك كالإحساسات الجزئية والحفظ والتذكّر.

ومنها: ما تستقلّ به النفس وتدافع به الحجاب، فهو يقوى بعد سنّ الوقوف وتخلخل الحجاب المادي، ويكون حينئذٍ أدقّ وأتقن وأكمل وأوصل إلى الحقائق، وذلك كالتعليل وإدراك القوانين العامة أمّهات العلم وأساس التعليم والتعلّم.

ومنها: ما يحتاج في مدافعة الحجاب إلى التجربة والتفكير، فإنّه من حيث الإحساس والتجربة يتبع الآلة وضعفها، كالقسم المذكور أولاً، ومن حيث التعليل والوصول إلى الحقائق يجري على ناموس القسم المذكور ثانياً.

إرادة النفس ونزعاتها

وأما الإرادة فمنشؤها هو توجه النفس إلى مطلوباتها: إمّا من حيث نزعتها الروحية، وإمّا من حيث نزعتها المتولّدة من اتّحادها بالجسد، وبالحرّي أن نسمّيها النزعة الجسمانية، ثمّ ينمو ذلك التوجّه بحسب الدواعي والاستحسانات والمدافعات من النزعتين الجسمانية والروحانية إلى أن يبلغ الإرادة الفعّالة، فتحرك النفس آلتها وتعمل أعمالها.

ولأجل صرف النفس بالاختيار عن نزعاتها الجسمانية، وما ينشأ من التمادي على

ذلك من الألفة وسهولة الانقياد للشهوات والأهواء المرديّة والملكات الرديئة، نهض الرسل وأمناء الوحي عن أمر الله ووحيه بالتبليغ والدعوة إلى الصلاح والكمال والسعادة، بالتعليم والبيان والنصح والوعيد والتبشير والإنذار والتربية الروحية، وتعليم الأخلاق الفاضلة، والتدريب إلى الملكات الراقية، ونيل السعادة العظمى. واتّبعهم على ذلك العلماء العاملون، كلّ ذلك ليستلّفوا النفس إلى الحقائق الروحية؛ لتكون هي الناهضة بالأعمال والمتقدّمة على النزعة الجسمانيّة.

ولأجل تشبيهاها على مدافعة الحجاب الجسماني الجهلي وكسر عادية غباره والتنبيه من عطلته جهله، دوّنت العلوم وأُسّس التعليم ونُظّمت بعض قوانينه في كتب علم النفس.

قد شرحنا لك بعض ذلك لنصدّك عمّا تقوله اتّباعاً لمصادر كلماتك.

هل يحسن منك أن تقول: إنّ مقطوع الرجلين أو مشلولهما من الحقوين، ليس فيه نفس تدرك المشي وخصائصه ومدخلته في حاجياتها الجسمانيّة؟ هل يسعك إلا أن تقول: إنّ النفس التي كانت تُريد المشي وتحرك له الأعضاء هي موجودة، ولكن فساد الآلة أوقف أعمالها الآليّة؟

الرجل العالم المهذب تمرّ عليه وهو ساكت، فلا تدري ما لنفسه الكريمة من العلوم والإدراكات والملكات الراقية، فهل يسوغ لك أن تقول: ليس له علم ولا ملكة؟

ألست تدري بأنّ خصائص النفس لا تظهر للحسّ إلا إذا ظهرت مظاهرها على الجسد، وكان الجسد صالحاً لأنّ تظهر عليه، ولم يعرض عليه ما يحجبه عن النفس وتأثيراتها؟ فإذا خرج الجسد عن هذه الصلاحية لم يصحّ لذي شعور أن يقول: إنّ جميع خصائص النفس إنّما هي خصائص جسديّة وإنّ النفس بنت المادّة.

رمزي: لو كانت النفس عنصراً مستقلاًّ هو علّة الإحساس والحياة، لأخلد الإنسان

ولم يمت، وماذا يهتمّها صلاح الجسد وفساده لو كانت مستقلّة بميزتها؟

عمانوييل: لو كان أمر النفس بيدها وهي حرّة في اختيارها، لما كان لك عليها

السؤال فيما يهتمّها ولا يهتمها. هي وما تشاء في اختيار من تقترن به في الارتباط، ومن

ذا الذي يمنعها من أن تشتترط في تعليلها للحياة سلامة الجسد وأهليته، أم هل كنت ضامناً أن لا تغليها علّة الموت فتطردها عن قرينها وتبطل تعليلها لحياتها؟! وأما إذا كانت مخلوقة، قد قدرّ تعليلها للحياة بتقدير إلهي، فما أنت وهذا السؤال، بل ما أنت وهذا السؤال لو كان تعليلها للحياة محدوداً بحدّ طبيعي؟ وماذا يمنع من أن تكون لها مزية تستقلّ بها ومزية آية تدور حول صلاح الجسد؟

أعمال النفس تثبت وجودها المستقلّ ومزيّتها الخاصّة

(١) من ذلك زيادة على ما تقدّم أنّ النفس تدرك ذاتها، ومن الواضح أنّها لا تقع تحت الحواس والآلات الجسمانيّة مطلقاً.

(٢) تدرك إدراكها الآلي والاستقلالي، ومن الواضح أنّ ذات الإدراك لا يقع تحت الحواس والآلات الجسمانيّة.

(٣) إدراكها ما ينقسم وما لا ينقسم.

نجد أنّ مبدأ الإدراك وفاعله يدرك ما يقبل الانقسام وما لا يقبله، وعليه فلا يكون المدرك فاعل الإدراك جزءاً من الجسد قابلاً للانقسام، ولا جواهر فردة متعدّدة لو أمكن وجود الجوهر الفرد، ولا هبئات وذرات من القوّة المتحلّلة من المادّة أو التي تتألف الأجسام من اجتماعها حسب الآراء الحديثة، ولا جوهرراً فرداً واحداً من الجسد، ولا هبئة واحدة من قوّته.

فيتعيّن أن لا يكون المدرك جسمانيّاً، ولا قوّة يتألف منها الجسم أو ينحلّ إليها، بل لا بدّ من أن يكون روحياً منزهاً عن هذه الجسمانيّة ولوازمها.

أما أنّه لا يعقل أن يكون المدرك فاعل الإدراك جزءاً من الجسد يقبل الانقسام، فلأنّنا نجد أنّ المدرك يدرك الحقائق البسيطة التي لا تقبل الانقسام، كالوحدة وذات الإدراك والمعقولات الوحدانيّة، وفي مقدّماتها العلّة الأولى واجب الوجود بما له من الوحدة من كلّ جهة - جلّ شأنه - ويفترض في تصوّره الجوهر الفرد وهبئة القوّة والنقطة التي لا تنقسم.

ومن البديهي أنّ ما لا ينقسم لا يمكن أن يرتبط بالارتسام ونحوه بمجموع ما ينقسم، فإنّ افتراض هذا الارتباط يستلزم أنّ ما لا ينقسم يكون منقسماً على أجزاء ما ينقسم، وهذا خلف بديهيّ البطلان.

ولا يرتبط بكلّ واحد من الأجزاء التي لا تتجزأ من الجسد؛ وذلك لما مرّ مبيناً من أنّه لا يمكن وجود الجزء الذي لا يتجزأ من الجسم، وإنّما هو افتراض موهوم. وزيادةً على ذلك إنّ هذا الفرض يستلزم تعدّد الإدراكات بتعدّد الأجزاء المفروضة وتعدّد الارتباطات بها، فيكون المعلوم الواحد معلومات متعدّدة، وهو باطل بالبدهة والوجدان.

لا يمكن أن تدعي أنّ هذه الإدراكات من الأجزاء تتوحّد بمدركٍ واحدٍ يجمعها ويوحدها، وهو وراء الدماغ وخلاياه وتلافيفه، كما يفعل ذلك مجمع العصب البصري. فإنّنا نقول لك: إنّ هذا الموحد للإدراكات إن كان روحياً فقد ثبت مطلوبنا، وإن كان جسمانياً سألتك أيضاً: هل يقبل القسمة أو لا يقبلها؟ فإن قلت: يقبل القسمة، عاد كلامنا بأنّ ما لا ينقسم لا يمكن أن يرتبط بالارتسام ونحوه بمجموع ما ينقسم إلى آخر ما قلناه، وتنبعك بذلك مهما كرّرت في كلامك وافتراضاتك.

وأما أنّه لا يمكن أن يكون المدرك فاعل الإدراك جزءاً واحداً جسمانياً، لا يقبل القسمة ولا يتجزأ، أو هبأة واحدة لو أمكن وجود الجزء الذي لا يتجزأ، فلأنّنا نجد أنّنا ندرك المركّبات المقداريّة بطولها وعرضها وعمقها، ندركها شيئاً واحداً دفعة واحدة بإدراك واحد، ومن البديهي أنّ المركّب المقداري والقابل للانقسام إلى أجزاء كثيرة لا يمكن أن ترتبط جميع أجزائه بالارتسام ونحوه دفعة واحدة بجزءٍ لا ينقسم لو أمكن فرضه.

(٤) دود الحرير وأعمال النفس فيه .

هذه المشاهدات في الأدوار المستمرّة لدود القزّ والحرير في نشأته وأطواره ومواليده، تعرّفنا كيف تغادر نفسه جسده وتتركه فاقد الحياة قد استولت على عامّة أعضائه آثار الموت وتغيّرات الفناء، كالجمود والتقلّص والذبول المشوّه والمعدّم للصورة، فيظهر عليه ذلك بأجلّ مظاهر الموت زماناً، ثمّ تعود النفس إليه ليعود حيواناً حياً طرياً قوياً ذا

هيئة جميلة، يفعل الأفعال العجيبة، ويخلف نسلًا تجري به نفسه على نواميسه السالفة، يكون حبًا أصفر ثم يسود، ثم يكون في أول آذار دوداً كالنمل يتغذى بغذاء أسلافه وينمو نموّ أسلافه، يخلقتهم وأعمالهم ونواميس تطوّراتهم ونشأتهم.

أما إنّ مظاهر الذبول والتقلص والتغير وانعدام الصورة تدافع الشكّ في موته وفي مغادرة النفس له، وتجعل الشكّ في ذلك سفسطة فارغة، وإنّ جريانه في حياته الثانية على نواميس أسلافه ينادي بأنّ النفس التي أكسبته الحياة ثانياً هي تلك النفس التي غادرته، قد استقلّت بذاتها ومزاياها زماناً ثمّ عادت إليه عودة الأمّ الحنون.

رمزي: إنّ كثيراً من الحيوانات الرخوة كالذباب وأمثاله ربما تعرض عليه العوارض كالبرد ونحوه، فيستولي عليها السكون أيّاماً ثمّ تفيق من دون أن تفارقها نفوسها، فلماذا لا تكون الحالة في دود القزّ مثل ذلك من دون أن نحكم بمفارقة النفس؟

عمانوييل: من أين علمت أنّ هذه الحيوانات لم تفارقها نفوسها في الأحوال المذكورة؟ رمزي: استدللّ على ذلك بأنّها لا تعرض عليها في تلك الحال تغيّرات الموت.

عمانوييل: إذا فإنّ تغيّرات الموت تظهر على أجساد دود القزّ بالمظاهر الجليّة فكيف تقيسه على غيره؟

وأيضاً فإنّ الذباب وأمثاله تبطل فيه أعمال النفس كالحركة والنموّ ونحوها، ويجوز أن يكون استعداد جسده يدافع التغيّيرات زماناً، فيجوز أن تكون نفوسها تفارقها زماناً ثمّ تعود إليها.

استدلال المتكلّمين في النفس

رمزي: يستدلّ المتكلّمون على وجود النفس بأنّ الأجسام متشاركة في الجسميّة مع امتياز بعضها بالحياة والإدراك والإرادة، ولا بدّ من أن يكون ما به الامتياز غير ما به الاشتراك، فلا يكون ما به الامتياز جسمانيّاً.

وهذا الاستدلال لا يُعني شيئاً؛ لأنّ الامتياز حصل من التركيب الخاصّ لجسم الحيوان والإنسان، كما امتاز الحجر بتركيبه الخاصّ عن بقية الأجسام.

عمانوئيل: ألا تلتفت يا رمزي أولاً: إلى أنّ الحجر لا يفقد حجريته التي يمتاز بها ما دامت صورته وتركيبه الخاصّ باقيين، وما هو الحيوان ترى صورته وتركيبه على حالهما الأول، ولكنّه قد عرض مع ذلك عليه فقدانه للحياة والشعور والإرادة.

تراه يعرض عليه فقدانه للحياة والشعور والإرادة في حين لم تتغيّر صورته وتركيبه المختصّين به، فلو كانت النفس والحياة والشعور والإرادة هي نفس التركيب الخاصّ أو معلولة له، لما زالت حينما هو باق بحاله، وإلى هذا يرجع كلام المتكلّمين.

وثانياً: إنّك تشاهد دائماً أنّ الحيوان عندما تفارقه النفس والحياة يأخذ تركيبه بالفساد إلى أن يتلاشى، فلماذا لا تتبّهك هذه المشاهدات إلى أنّ تركيب الحيوان الخاصّ به إنّما هو المعلول للحياة والنفس في نشأته وبقائه، وأنّ النفس والحياة علّة لتركيب الجسد، فلا تكون هي ذات الجسد، ولا ذات تركيبه، ولا ذات مادّته، ولا ذات صورته، فتنبّه إلى أنّ هذه العلّة هي المائزة بين الحيوان وبين الجماد الذي ليس فيه إلّا مادّته وصورته.

وثالثاً: إنّنا نجد للحيوان تركيبين: تركيباً يقارن الحياة والنفس ويناسبها، وتركيباً ثانياً فسادياً ينافر الحياة وتدير النفس، إذ ينشأ من فقدهما، ويكون هذا التركيب ممّا يرجع به إلى الجمادية ويشارك به الجماد ويمتاز به عن الأحياء، فلا يزال هذا التركيب يتمسّى به الفساد إلى ناحية الفناء والتلاشي.

فماذا تقول إذا حدثت الحياة وعادت النفس فجأةً لهذا التركيب بعينه؟ فبماذا يمتاز ذلك الحيّ عن الجماد؟

فإن قلت بتركيبه الخاصّ.

قلنا: هذا التركيب الجسماني الخاصّ بعينه كان يشارك به الجماد ويمتاز به عن الأحياء، فكيف تعكس الأمر وتتناقض؟

وإن قلت: يمتاز بشيء جديد غير الجسم وتركيبه، فقد أبطلت وهمك ورجعت إلى صواب المتكلّمين.

ألا وإنّ من مثال ما ذكرنا ومصداقه هو دود القزّ، تراه حيواناً يأكل وينسج، ثمّ

يخنفه نسيجه فتفارقه مظاهر الحياة وتقرن به مظاهر الموت، ومنها فساد التركيب وتمشيّه إلى الفناء، ويزداد هذا الفساد وعند ذلك فجأةً يعود حيواناً يمتاز عن الجماد بمائز لم يكن قبل، ثم يأخذ بالنشاط في نموه وصلاح تركيبه ورجوعه إلى غضارة الأحياء وقوة الحياة وأعمال النفس.

رمزي: إذا كانت الروح شيئاً سوى تركيب هذا الجسد، فلماذا يختل إدراكها وتعقلها باختلال الجسد، كما يشاهد في مرض الحمى ومرض الدماغ؟ وكون الجسد آلة لها في جميع الأحوال أمرٌ غير مفهوم، فلا يحسن الجواب بمثله.

عمانويل: ها هي النفس وأعمالها تثبت مزيتها، وإنها شيء سوى الجسد وسوى تركيبه كما أشرنا إليه، والذي يختل باختلال الجسد إنما هي أعمالها الآلية.

نعم، لا تظهر لنا أعمالها الاستقلالية إلا إذا ظهرت آثارها على الجسد؛ لأنّ المعقولات لا تُدرِكها الحواس، وإنما تدرك آثارها ومظاهرها على الأجسام، فإنك لا تشعر بمعقولات غيرك إلا أن تتجلى مظاهرها على الجسمانيات المحسوسة.

أما أنك إن تكن لا تفهم كون الجسد آلة للنفس، فلا يكون في ذلك نقص على الحقائق، ولا ينسب إليها من ذلك قصور أو تقصير.

وماذا يكون إذا ناديت في أيامك بأعلى صوتك: ليس مدير السيارة إلا تركيبها، ها هو السير على حسب المقاصد يختل باختلال السيارة؟ كون السيارة آلة للمدير أمرٌ غير مفهوم، ناد بذلك؛ فإنك قد تنال تصفيق الاستحسان من بعض الناس لأسباب مختلفة، وأما حسن الجواب فله حقيقة لاسيادة لآرائك عليها.

رمزي: إذا أفاق الإنسان من نومه يرى يقضته بعد نومه كوجودٍ بعد عدم؛ إذ كان لا يعلم ولا يشعر بشيء، فأخبرني ماذا يفعل بروحه الكريمة إن كان له روح سوى تركيب هذا الجسد؟ نعم قد يرى رؤياً ولكنه كثيراً لا يرى.

عمانويل: نسامحك من الدلائل المتقدمة وغيرها على مغايرة النفس للجسد وتركيبه، ولكن قل: إذا كُنّا لا نعرف حقيقة النفس وأحوالها وأطوارها، ولا ندري ما يفعل بها في كثير من أحوالها، فهل يلزم من ذلك أن تكون النفس هي تركيب الجسد؟

أوهل يلزم من مغايرتها للجسد وتركيبه أن نعرف حقيقتها وجميع أحوالها وأطوارها؟ وهل تكون مغايرتها للجسد وتركيبه أو كونها ذات الجسد وتركيبه، خاضعة لسيادة علمنا وجهلنا وتابعة لهما؟

لا تدري ما هي حقيقة الكهرباء، ولا يحيط الناس بجميع نواميسها، فهل يلزم من ذلك أن تقول: إن الكهرباء ليست قوة مغايرة للمادة والجسم، وليس للأجسام قوة كهربائية سوى تركيب الجسم؟ إليك مثلاً طفيفاً ممّا ذكر في كتب الطبيعيات:

هذه الإبرة التي تستعلم بها جهتا الشمال والجنوب في الآلة التي تسمى «الحك» و«القطب» لم تعرف حقيقة القوة التي يختلف بها توجه الإبرة، ففي بعض البقاع لا يكون لها ميل عن الجنوب والشمال، وفي بعضها يكون لها ميل غربي ويتفاوت باختلافها حتى يبلغ العشر درجات والعشرين وهكذا إلى التسعين، وفي بعضها يكون الميل شريقاً متفاوتاً بحسب اختلافها إلى التسعين درجة أيضاً، ومع ذلك يتغير هذا الميل واللاميل في البقاع بحسب الأزمنة.

فهل لأجل أنّنا نجهل حقيقة القوة المتصرفّة بالإبرة ومنشأ اختلافها يحسن بنا أن نقول: ما هذه القوة إلا نفس تركيب الإبرة الجسماني؟ أو نقول ذلك لأجل أنّ هذه القوة تختل أعمالها أو تبطل إذا اختل وضع الإبرة وآليتها؟ لماذا نجهل ونضطهد بجهلنا دلالة معلوماتنا وبديهيّاتنا ووجدانيّاتنا؟

الدكتور: غيراً على الحقائق والإنسانية أتمنى لكلّ إنسان أن يميّز حدود إدراكه ويعرف مواقع جهله، فلا يشوّه العلم ويضطهد الحقائق وشرف الإنسانية بالجهل المركّب، وهو جهل الشخص وجهله بأنّه جاهل.

فما أجمل علم الإنسان بحدود إدراكه ومواقع جهله، وهذا هو الذي يسمّيه العلماء «الجهل العلمي» قالوا: إنّه هو الذي تصل إليه النفوس الكبيرة وهو بالحقيقة العلم القائم بمعرفة الإنسان نفسه، وهو نادر الوجود بين الناس، يحفظ صاحبه من الوسواس والزيف والضلال.

وإنّ الجهل المركّب يكون عند أناس هم بين بين، وهم الذين خرجوا قليلاً من بساطة العوامّ، وتحقّموا في الجولان في ميدان العلم بأقدام مرتعشة حتّى في مبادئه، فهم يقلقون العالم ويشوّهون العلم تارةً بالتقليد الأعمى في المسموعات الموافقة للأهواء، وتارةً بالوسوسة والتشكيك في كلّ شيء^١.

هذه الأدلّة التي أوردتها عمانوئيل لإثبات النفس لوجودها الروحاني وميزتها الخاصّة، ممّا لا ينبغي لذي الشعور أن يحيد عنها ولا يخذل فيها أقلّ خدشة. ما ذكره رمزي تبعاً للمكتوبات - كما أوضح ذلك عمانوئيل - يطول تعجّبي من الإصرار على جحود بقاء النفس بمثل هذه التشنّبات المتلاشية، التي سمعت بعضها من رمزي ورأيت بعضها في المكتوبات.

لماذا كان ذلك؟ فإنّ العلم لا يمنع وجود موجود ليس بذی مادّة، ولا من بقائه، كما تشهد به التجارب في القوّة زيادة على افتراض الأثير، مع أنّ النفس تثبت وجودها الروحاني وميزتها الخاصّة بالأدلّة الكافية.

أم كيف يقتحم المتدينّ في جحود بقاء النفس مع أنّه ممكن ومن أهمّ أساسيات الأديان؟ هل يريد أن يشير بذلك إلى انسلاخه من الدين؟ ليس لغير المتدينّ إلا أن يقف في بقاء النفس موقف الشكّ، أو يجيل نظره وتحقيقه في أمر المذهب الروحاني الذي علا دويّه في هذا العصر.

الشيخ: يجد الإنسان جهله بالكثير من الحقائق، ولا يغيب عنه أنّ حقيقة النفس لا تحوم حولها مشاعره، ولا تدخل بجميع أحوالها وأطوارها في حدود إدراكه، ووجد أنّها في بعض أحوالها تثبت للبدية وجودها الروحاني وميزتها وبعض مزاياها الاستقلالية، ومع ذلك يزعجها بعض الناس ويقلق العلم في أمرها.

فتارةً يجحد ما هو ثابت بالبداهة، وتارةً يتحقّم ما يقصر عنه إدراكه البشري. لا يسترشد بالبدهيّات، ولا بنصيحة جهله العلمي، ولا يهدى الهادي العليم في قوله

١. ذكر ما يقارب هذا في دائرة المعارف للستاني في مادة «جهل» (منه)، انظر المجلد ٦: ٥٧٥، «ج هل».

- جَلَّ شَأْنُهُ - في الآية الخامسة والثمانين من سورة الإسراء المكيّة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ لا من خلقكم لكي تحيطوا خبراً بحقيقتها ومزاياها. ماذا عرفتم من حقيقة القوّة وماهيّتها؟ بل ماذا عرفتم من حقائق الجسمانيّات وماهيّاتها حقّ المعرفة؟ لا يصل إدراككم أحياناً بعد الجهد الجهد إلا إلى بعض آثار الحقائق.

وكم لكم أيّها البشر في ذلك من خبط عشواء، أفلاتعتبرون بأنكم محجوبون بحجاب الجسمانيّة ﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾^١ ممّا يمكن أن يدخل في حدود إدراككم البشري، فينال بالتعلّم الصحيح من خلال الحجاب الجسماني؟! (٥) أعمال النفس تثبت وجودها المستقلّ وميزتها الخاصّة.

ينام الإنسان فيستولي السكون على جوارحه، وينقطع إحساسه وتفكيره وإراداته العاديّات، ثمّ يكون لنفسه من وراء ذلك أمور:

الأوّل: أنّه يكون في حلمه يحسّ ويفكّر ويريد ويتحرّك، ويتكلّم ويسمع ويرى، ويرتاح ويتألّم، ويضحك ويبكي ويخاف، ويرضى ويفضب ويأمر وينهى. مع أنّه ليس لجوارح حسّه عمل في ذلك، ولا لتفكيراته ومعلوماته وأمياله العاديّات.

أفلا ينبغي أن أسترشد من ذلك إلى أنّ المبدأ العامل لهذه الأعمال هو جوهر مغاير للجسد وتركيبه، يستعمل الجسد آلة لهذه الأعمال في حال اليقظة، ويستغني في حال النوم في أعماله عن تلك الآلات؟

الثاني: أنّه يرى في منامه أموراً غيبية ليست ممّا يناله الحسّ أو أسباب العلم في اليقظة، ويظهر مصداق ذلك بعد أيّام، كما وقعت عليه التجارب الكثيرة.

فمن ذلك ما يكون برمز مطّرد عرف مرموزه بتكرار التجارب، كما يرمز قلع الأسنان في الحلم إلى موت الأقارب، والتلوّث بالنجاسات إلى الحصول على المال، إلى غير ذلك من الكثير المطّرد.

ومن ذلك ما يكون بالصرحة في الإخبار عن أمر مستقبل أو واقع في مكان بعيد، كوقوع السفر أو الإياب أو الموت أو الصحة.

دع القائل يقول في الأمر الأول: إن الصور المرترمة في الحافظة تؤلفها المخيلة حسبما يتفق تأليفاً جديداً مشوّش النظام مختلف الترتيب، فتبرز للإدراك بهذا التأليف حلماً، كما يفعل مرتّب المطبعة بحروفها فتبرز للقارئ كلّ آونة بشكل.

لكن قل له: إن جرينا معك فيما ذكرت في الحافظة والمخيلة وكونهما عوامل جسمانيّة، فلا بدّ أن نسألك: ما هو المدرك لهذا التأليف؟

ومن هو القارئ لحروفه وكلماته؟

ومن ذا الذي يريد ويتحرّك ويتكلّم ويسمع ويرتاح ويتألّم ويخاف ويفضب ويرضى ويضحك ويبكي ويأمر وينهى؟

من هذا الذي يتفعل بما في هذه من الانفعالات ويفعل ما في هذه من الأفعال؟ ليس للجسد في ذلك مداخلة في تجدد الفعل والانفعال، إنك ترى الجسد حينئذٍ في قيد السكون. نجد أننا نحلم وندرك في الحلم أنّه حلم، فكيف يكون هذا من أعمال الجسد المحض وتركيبه؟

نرى الإنسان تارةً ينسى حلمه وتارةً يبقى في حفظه، فهل يقول: إن الحافظة ترسم بها أغلاط المخيلة في صور الحافظة؟ أم كيف ذلك؟ سامحناه في هذا الذي يعود إلى الأمر الأول وإن كانت الحقيقة لاتسامحه، فماذا يقول في الأمر الثاني والإدراك لما هو في صحيفة الواقع المحجوب عن كلّ حسّ وكلّ شعور وحافظة ومخيلة؟

في المعاد الجسماني

الشيخ: هناك حقيقة أخرى يقابلها المادّيون ومن مشى وراءهم بالجحود وخيالات الامتناع، ألا وهي المعاد الجسماني وإحياء الأجسام بأنفسها للجزاء في يوم المعاد. وقد أخبر القرآن الكريم وبشّر وأنذر به، وكافح الأوهام في خيالات امتناعه، واحتجّ على إمكانه بالحجّة الكافية التي تستلقت العقول إلى مبدأ الإنسان ومبدعه في

وجوده العجيب، فيهون عليها التصديق بوقوع المعاد بالتدرّج في النظر في حكمة الخالق ورحمته وقدرته.

ففي سورة يس المكيّة: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُعْجِبِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُخْبِئُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^١.

وفي سورة المؤمنون المكيّة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾^٢.

أول شيء له اسم وعنوان يعرفه نوع الإنسان مبدأً لمنشأً أفرادها وتصويرها، هو النطفة التي يتعاقب عليها التصوير في الرحم، حتّى تكون إنساناً مولوداً وناشئاً ورشيداً.

والنطفة: هو المقدار من السائل، سواء كان مراد القرآن منها هو مني الذكر كما هو المعهود، أم سائل بيضة الأنثى، أو سائل حويصلتها الجرثوميّة على الرأي الجديد.

أفلم ير الإنسان كيف بلغ به الخلق والتصوير من هذه النطفة إلى حالته التي يشعر فيها بما في هيكله من عجائب التراكيب، التي تهتف بخالقها القادر وقصده لغاياتها الشريفة؟! يكفي في ذلك التراكيب الظاهرة لكلّ أحد وغاياتها الكبيرة المعلومه، فضلاً عمّا أشرنا إلى بعضه في الجزء الثاني من صحيفة ٣١٤ إلى ٣١٩، بل إلى ٣٣٣ من العجائب التي تبهر العقول في بدائع القدرة وبواهر الحكم والغايات.

كيف لا تكفي الإنسان رؤيته لذلك في إذعانه بأنّ الذي بلغ به في التصوير والخلق من النطفة إلى حال شعوره ورشده، وهو خالق قادر حكيم عالم بالغايات؟!!

ترى الإنسان تضطرّه الفطرة في أمر طفيف بالنسبة إلى ما ذكرناه، وهو صنع الآلات الصوتيّة، فيذعن بلا شكّ بأنّها صنعت بصنع قادر عالم بغاياتها، صنعها لأجل غاياتها. فانظر في الجزء الثاني في صحيفة ٢٦٨ و ٢٦٩ و ٣٠٩ في مثال المدينة، و ٣٣٣ في مثال الغار الصخري.

١. الآية ٧٧-٧٩.

٢. الآيات ١١٥-١١٦.

فكيف يعرقل شعوره ويكابر وجدانه، فيتجاهل ويجحد قدرة خالقه وعلمه وحكمته، ويكون من أجل ذلك خصماً يبيّن خصومته في أمر المعاد ويتمثل بالعظام التي تبلى وتصير رميمًا، فيضرب بجهالته هذا المثل السخيف لجحود المعاد ويقول: إنَّ العظام التي صارت رميمًا كيف تحيي؟ ومن هو الذي يقدر على جمع أجزائها التي تشتت وعلى إحيائها؟ ومن هو الذي يحييها؟

قل يجمعها وينشئها على صورتها الأولى ويحبوها بالحياة، ذلك الخالق القادر العليم، الذي أنشأها أول مرة وقدر أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وصلابتها ولينها ومفاصلها، على مقتضى الحكمة وحاجة الغاية، ووصلها بالأربطة، وأكمل نظامها بالآلات البدن العجيبة، فأجرى فيها أعمال الحياة وحفظ الكيان.

أيها الجاحد للمعاد، هذا الخالق العليم الذي ينشئ العظام في الأدوار المتعددة والمواليد المتعاقبة بكثرة لا تقدر أن تحصيها، وقدّر نشوء متمائلاتها على ناموس واحد وتمائل باهر، ليست هي وحدها بل جميع مواليد العالم في أدوارها.

هذا الخالق الذي تعرفك أنواع مخلوقاته التي لا تحصى وأطوارها بأدوارها، وتشهد بأنه لا يعيبه خلق ولا يغيب عن علمه خلق، وأنه بكلّ خلق عليم، وبكلّ مخلوق عليم. فهل يغيب عن علمه جمع رميم العظام وخلقها على صورتها الأولى وإحيائها؟ ماذا يكبر إحياء العظام الرميمة على إنشاء العظام من النطفة وإحيائها في دور من أدوار النشأة الأولى؟ وفي سورة الإسراء المكيّة: «أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ» في جحود المعاد «فَضَلُّوا» في غيهم، وأصرّوا على خيالات الأهواء وانهمكوا في أوهامهم، فلا يعتبرون بمبدئهم ولا يفكّرون في خلقهم ونشئهم، وأبعدوا أفكارهم عن جادة الرشد والسير في نهج الاعتبار ودلالة الهدى.

إذاً «فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا» إلى معرفة الحقّ ما داموا معطين قياد أفكارهم بيد الأهواء والإصرار عليها، حتّى استدبرت بهم الطريق وورطتهم في خبط العسواء «وَقَالُوا» في غوايتهم في ضرب الأمثال لجحود المعاد، وحسبوا أنّهم جاؤوا بالحجّة والقول الفصل والبرهان الكبير.

مع أنّ جهد ما خيّلت لهم أو هامهم هو أن يقولوا: ﴿أَءَدَأُ﴾ تقطعت أوصالنا و﴿كُنَّا عِظْمًا﴾ مجردة ﴿وَرُفُنَا﴾ عظاماً متحطمةً باليةً بعد ذلك ﴿أَءِنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ في الصورة من تلك الموادّ البالية؟

﴿قُلْ﴾ لا تقتصروا في المثل على العظام والرفات، بل لتقلّب بعد ذلك بأجزائكم الصور، وتلعب بها عوامل التغيير المقدر في نظام العالم، لتبعد أوصالكم عن صورة الإنسان كيفما أبعدها عوامل التغيير وجهد ما تتصوّرون من البعد و﴿كُونُوا حِجَارَةً﴾ من أيّ أنواع الحجارة ﴿أَوْ حَدِيدًا﴾ * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ في مقام الترقّي في ضرب المثل وبعده عن صورة أجزاء الإنسان.

فإنكم تُبعثون بحسب الصورة خلقاً جديداً، تردّ به أجزاءكم إلى صورتها الإنسانيّة وتعلّق أرواحكم بها.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ﴾ يعيدكم القادر على ذلك مهما تغافلتم في مقام الجحود، لا أبعد لكم الإشارة إليه هو ذلك ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^١ وبلغ بخلقه لكم إلى ما ترونه من أحوال نوعيتكم وخصائص شخصياتكم، فانظروا أقلّاً إلى فطرتكم الإنسانيّة من بعدما كنتم نطفة، وإلى وجودكم الإنساني بعد أن لم تكونوا كذلك.

وإن خادعتكم أو هام الأهواء ونظرتكم إلى ما قبل ذلك، فمهما تجاهلتم وافترضت أو هامكم القدم لأولكم في المادّة، فإنكم لا بدّ لكم من أن تُدعنوا بأنّ مادّتكم التي تقلّبت بها تغيّرات الصور وتصرف بتغييرها عامل التكوين، لا بدّ من أن تكون محدثة مفطورة.

هذه المادّة الخاضعة للتغييرات بالصور وعوامل التصرف والمقترنة بفقير الإمكان، لا تكون واجبة الوجود.

إذاً فانظروا إلى ما يصل إليه إدراككم من أوّل فطرتكم، وانظروا إلى تصرف القدرة بإبداعه وأعمالها الباهرة في تصوراتها. فهذا القادر الذي فطركم أوّل مرّة، وأراكم من

أعمال قدرته في نشوئكم ونشاطكم ما ترونه من العجائب، هذا هو الذي يعيدكم. وقال في الآية الخامسة^١ من سورة الحج: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ أَلْبَتُوبِ﴾ لأجل تفرّق أجزاء الإنسان بالبلى، فتستبعدون إحصاءها وجمعها واحياءها تارةً أخرى.

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ﴾ ظهرت عليها بالخلق مخائل أعضاء الإنسان ﴿وَوَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ من قبل ذلك.

ومن حكم هذا التقدير والتدرّج في الخلق استلفاتكم إلى تصرف القدرة الإلهية في خلق الإنسان بما له من الجسم وتركيبه العجيب في حكمه وغايات أجزائه، وبما له من الحياة والشعور والعقل، لئلا تكونوا على غفلة فتقولوا: خلق الإنسان صدفةً ولا ندري كيف صار.

بل للتفتوا إلى مبادئ نشأته البسيطة والفاقدة للحياة وترقيها للخلق إلى الترتيب الباهرة بحكمها، وإلى جمال الحياة وكمال العلم.

﴿وَلَنَبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بالاستلفات مواقع القدرة في مبادئ النشوء وأطواره ﴿وَوَنُقَرِّئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ محدود للولادة، ونحبوه في الرحم بعظائم النعم ومواد التغذية ولوازم الحياة، على نهج مغاير لنهج عالم الولادة في طرق التغذية والإفراز ودورة الدم ونحو ذلك.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ عاجزاً عن أمره، نجدّد له صورة غذائه ومنبعه، وطريق التغذي، ومخرج الإفرازات والفضلات، ونغيّر دورة دمه، ونحبوه بحنان الوالدين.

﴿ثُمَّ﴾ تتدرّج بكم الأطوار في النمو ومراتب الشعور والإدراك والعلم والقوة ﴿لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّى﴾ حينما يبلغ أشده وقبل ذلك حسبما تقتضيه الحكمة في نظام العالم ونواميسه المجعولة.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾ يبقى بعد أن يبلغ أشده، فيأخذ بالانحطاط

على حسب التقدير والحكمة في الشخص أو النوع.

﴿لِكَيْلًا﴾ أي تكون عاقبته بعد العلم وجودة الإدراك وصفاء الشعور لا ﴿يَعْلَمَ مِنْ بُعْدٍ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ هذا استلفاتكم وتنبيه اعتباركم في خلقكم أيها الإنسان. ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ قاحلة لا نبات فيها ولا بهجة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ بالقدرة الباهرة في توليد المطر على الأنحاء التي تقرر في توليد السحاب وحمله الماء وعجائب نشئه وضغطه في توليده وسوقه وتسييره وإرساله المطر، فإذا نزل على الأرض الميتة ﴿أَهْزَّتْ﴾ بحياة الإنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ بالنمو ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ﴾ تكفيكم بهجته في أطواره في الدلالة على باهر القدرة.

وإن غاب عنكم ما في النبات من الخصائص والفوائد الكبيرة المتنوعة، وما لأزواجها من خاصيّة التلقيح ليبقى نوعها وتوالدها على ناموس مستقيم.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي تلي عليكم من مبادئ نشوء الإنسان ومبالغ نشوئه وحفظ نوعه بنواميس تواليده، وما في مراتب ذلك من عجائب القدرة ودلائل الحكمة وقصد الغاية. وفي نشوء النبات ومبالغ نشوئه وحفظ نوعه بنواميس تواليده، وما في مراتب ذلك من عجائب القدرة ودلائل الحكمة وقصد الغاية.

هذا كله يشهد بأنّ موجد إله قادر حكيم، عالم بغايات خلقه، يوجد المخلوقات لحكمة غاياتها.

قام وجود هذه الموجودات المذكورة ونشأتها وخلقها وحياتها واستقام توليدها ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ الإله القادر العليم الحكيم واجب الوجود ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ لا الصدفة العمياء، ولا الطبيعة، ولا الحركة الحادثة المتصرّمة، ولا المادّة المتغيّرة المقرونة بدلائل الحدوث والحاجة إلى الموجد ﴿وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى﴾ كلّ ميّت الإنسان والنبات.

ترى الحياة تطرأ على أصل ميّت لاحياة فيه، بل يحييه الله بقدرته ويتصرّف بخلقه بأنار القدرة الباهرة ﴿وَأَنَّهُ، عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تتصوّرونه في ناحية الخلق وأنواعه وأطواره ونشأته متسلّط ﴿قَدِيرٌ﴾.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ يوم القيامة وإحياء الناس بعد بلاهم للحشر ﴿ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾

لا محلّ للريب فيها، فإنّ نبوّات الحقّ المؤيَّدة بدلالة المعجز قد أخبرت عن الله - جلّ اسمه - بها وإنّ دلائل القدرة في خلقكم وخلق النبات وغيره من الحيوان وأنواع الجماد وأطوارها وتواليدها وغاياتها، تقيم الحجّة الواضحة عليكم بأنّ الله الخالق في النشأة الأولى بقدرته وحكمته هو قادر في النشأة الأخرى على إحياء العظام والريميم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

وقال في الآية الثالثة والثلاثين من سورة الأحقاف المكيّة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بما فيها من عجائب التقدير ومواقع الحكمة ومحاسن النظام بحيث يجلو النظر في ذلك لكلّ إنسان حسب استعداده، ويوضح مواقع القدرة والحكمة وقصد الغاية بأوضح المظاهر، كما أشرنا إلى بعض ذلك في الجزء الثاني صحيفة ٣٢٢ إلى ٣٣٢.

خلق السماوات أي العالم العلوي، والأرض أي العالم السفلي بهذا النظام العجيب بوضعه وحكمته ﴿وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ﴾ ويتعدّر عليه شيء منه. أليس هذا الخالق القادر العليم الحكيم ﴿بِقَدْرِ عَلَيَّ أَنْ يُخَيِّبَ الْمَوْتَى﴾ ويعتصم ليوم الجزاء؟ ﴿بَلَى﴾ إنّ أقلّ نظر حرّ في خلق هذا العالم ومظاهر القدرة يشهد ﴿إِنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. هذا بعض ما في القرآن ممّا يستلفت النظر المنزه وينبّه العقل الحرّ إلى الحجّة الساطعة على إمكان المعاد الجسماني وإحياء الأجسام بعد بلاها وعلى وقوعه.

الأديان والكتب والقيامة

الدكتور: نرى لأهل الأديان في هذا المقام مقالات مختلفة، فمنهم من ينكر المعاد بتاتاً كالصدّوقيين من اليهود، ومنهم ينكر كونه جسمانياً ويجعل نعيم الآخرة وعقابها بنحو روحي عقلي، أليس هذا ممّا يضعف مقامه في الأديان والحقيقة؟
عمانويل: إنّ الحقيقة ودين الحقّ لا تضعف مقامها شكوك الشاكين ولا جحود الجاحدين، فإنّ الأهواء لا زالت تضلّ باضطرابها عن النهج المستقيم وحقائق الدين، ولا زال دين الحقّ تتلاعب بأتمته الأهواء والانقلابات الضلالية، حتّى يكون المتداول

منه بين تلك الأمة اسماً مستعاراً لصورة مشوهة.

فالصدوقيون من الأمة اليهودية سرت إليهم مبادئ ابيقورس اليوناني بسبب تلمذ صاحب دعوتهم في فلسفة ابيقورس، فأنكروا خلود النفس وبقاءها بعد الموت كما أنكروا القيامة، بل وأنكروا وجود الأرواح من ملائكة وشياطين.

ويقال: إنَّ مبدأ دعوتهم كان في نحو المائتين وثمانين سنة قبل المسيح، وقد ساعدهم على هذا الابتداع في اليهودية أن التوراة الراجعة في عهد بدعتهم وانشقاقهم من عموم الأمة لم تبق فيها التقلبات ذكراً لقيامة الأموات ويوم القيامة، لا في مقام الوعيد والإنذار، ولا في مقام البشرى بالجزاء، ولا في مقام التعليم بالحقائق الدينية. نعم يوجد ذكر القيامة في باقي كتب العهد القديم، ولكنَّ الصدوقيين أنكروا انتساب هذه الكتب إلى النبوات.

العهد الجديد والقيامة

أليعازر: تذكر الأناجيل أنَّ هؤلاء الصدوقيين جاؤوا إلى المسيح وسألوه في أمر القيامة من الأموات، فاحتجَّ عليهم في أمرها كما في العدد الحادي والثلاثين والثاني والثلاثين من الفصل الثاني والعشرين من إنجيل متى، والعدد السادس والعشرين والسابع والعشرين من الفصل الثاني عشر من إنجيل مرقس، والعدد السابع والثلاثين والثامن والثلاثين من الفصل العشرين من إنجيل لوقا، حيث قال لهم المسيح: وأما من جهة الأموات أنَّهُم يقومون أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العليقة كيف كلمه الله قائلاً: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب ليس هو إله أموات بل إله أحياء.

و زاد في إنجيل لوقا قول المسيح في إكمال الحجّة: «لأنَّ الجميع عنده أحياء».
عمانوئيل: وددتُ أنَّه لم ينسب هذا الاحتجاج لقدس المسيح، يا والدي ألا تذكر ما ذكرناه في وهن هذا الاحتجاج في الجزء الأوَّل صحيفة ١٥٢ و ١٥٣.
فإن قلت هنا: إنَّ الله قال ذلك باعتبار حياتهما المستقبلية في القيامة، فإنَّ الجاحد

يقول: لماذا لا تقول: إنَّ الله قال ذلك باعتبار حياتهم الماضية.

فإن قلت: إنَّ المقصود من الاحتجاج هو أنَّ إبراهيم وإسحاق ويعقوب منذ انتقلوا من هذا العالم كانوا أحياءً بأرواحهم وأجسادهم، على خلاف عادة الموتى.

قلنا: ماذا تقول إذا قال الجاحد: من أين لنا العلم بأنَّ هؤلاء كانوا كذلك بعد انتقالهم من هذا العالم؟ ولو سلّمناه فإنَّ سؤالنا عن قيامة البشر من الأموات بعد البلا ليس عن شأن إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

يا والدي، كيف ترضى مثل هذا من احتجاج المسيح على هذه الحقيقة الكبيرة، حقيقة قيامة البشر من الموت بعد البلا؟!

أليعازر: في الفصل الخامس عشر من رسالة كورنثوس الأولى من العدد الثاني عشر إلى الثاني والعشرين يوجد احتجاج على القيامة من الأموات، فكيف تراه؟

عمانوئيل: حاصل ما أشرت إليه ومضمونه هو أنَّه كان في الكنيسة الأولى قوم يؤمنون بقيام المسيح من الموت وينكرون قيامة الأموات، وحاصل الاحتجاج عليهم هو أنَّه إذا لم تكن قيامة أموات فلا يكون المسيح قد قام من الموت، وإذا لم يكن قام من الموت فإيمانكم بقيامه من الموت باطل، والتبشير بذلك باطل.

يا والدي، وأنت ترى أنَّ هذا لا يصلح إلّا أن يكون جدلاً لقوم مخصوصين، وهم الذين يؤمنون بما سمعوا أفواهياً من أنَّ المسيح مات وقام من الأموات، وماذا يجدي هذا الجدل مع من لا يؤمن بقيام المسيح من الموت ويراه كسائر البشر؟

أليعازر: هل يذكر الإنجيل حال الإنسان فيما بعد الموت فيما يعود لجسمانيته؟

الإنجيل والبرزخ

عمانوئيل: يذكر إنجيل لوقا في الفصل السادس عشر عن كلام المسيح لتلاميذه: إنَّه كان غنيّ مُتتَمِّع، وكان مسكين لعازر وهو مبتلى مطروح على باب الغنيّ، فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم، ومات الغنيّ أيضاً فُدْفِنَ فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه فنادى يا أباي يا

إبراهيم ارحمني، وأرسل لعازر ليبلّ طرف إصبعه بماء ويبرّد لساني لأتّي معذبّ في هذا اللهب، فقال إبراهيم: إنك استوفيت خيراتك في حياتك واستوفى لعازر البلايا، فهو يتنعم وأنت تتعذب، وزيادة على هذا إنّ بيننا وبينكم هوّة لا يقدر أحد أن يجتازها، فقال الغنيّ: إذن أسألك أن ترسل لعازر إلى بيت أبي ليشهد لهم وينذرهم لكيلا يتلوا بهذا العذاب. فقال إبراهيم: عندهم كتب موسى والأنبياء تكفيهم واعظاً ومنذراً. فقال الغنيّ: إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون، فقال إبراهيم: إن كانوا لا يسمعون من كتب الأنبياء فلا يصدّقون أن قام واحد من الأموات.

ألعازر: هذا بيان كبير لعالم جسماني يذكر فيه: «إصبع»، «ماء»، «لسان»، «عذاب»، «لهيب»، «قيام من الأموات». ولكن يا للعجب مثل هذا البيان الكبير المفيد ماهو السبب في أن أغفلته الأناجيل الثلاثة، ولم يتعرّض له إلا لوقا؟

عمانوئيل: يا سيّدي الوالد، إن سألت عن السبب في أنّ الأناجيل الثلاثة لم تذكر هذا البيان المفيد، فهو السبب الذي شوّه هذا البيان، وجعل السبب في عذاب الغنيّ هو كونه استوفى خيراته في الدنيا، والسبب في نعيم لعازر أنّه كان مُبتلى في الدنيا.

أوليس الصحيح المعقول اللائق بتعليم النبيّ المرشد، هو أن يُبيّن أنّ السبب في العذاب هو التمرد على الله بفعل الخطايا، والسبب في النعيم هو الصلاح وعمل الصالحات؟ فكم ترى من غنيّ قضى حياته السعيدة في طاعة الله وعبادته والعدل والإحسان والأخلاق الفاضلة ووجوه الصلاح، وكم من فقير مُبتلى قضى حياته بالمأثم والكفر والظلم والأخلاق الرديئة وأعمال الفساد وسوء الأثر.

لقد كان حقّ التعليم النبويّ الصحيح أن يُعلّل سعادة لعازر بأعماله الصالحة وأخلاقه الفاضلة، ويُعلّل عذاب الغنيّ بشقائه في الدنيا وأخلاقه الرذيلة وتمرّده على الله.

ألعازر: قد جاء في الأناجيل عن قول المسيح: إنّ مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنيّ إلى ملكوت الله^١.

١. إنجيل متى ١٩: ٢٣ و٢٤؛ إنجيل مرقس ١٠: ٢٤ و٢٥؛ إنجيل لوقا ١٨: ٢٤ و٢٥ (منه ❀).

عمانوئيل: يا سيدي الوالد، هل ترى هذا من التعليم المعقول الصحيح؟ وهل يكون هذا من تعليم المسيح؟ أليس العيان شاهداً على خلافه.

القس: يا عمانوئيل: إنَّ في القرآن مثل هذه العبارة، فهل هي واردة في مثل هذا التعليم المردود؟

عمانوئيل: يا سيدي، الآية الأربعين من سورة الأعراف المكيّة هكذا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ وهذا هو الصحيح المعقول في هذا الكلام.

وهذا المورد من القرآن من جملة ما كان يذكره لنا الشيخ، وتنبهنا إليه في الجزء الأول من أن القرآن كثيراً ما يُشير بالإشارة الجميلة إلى أغلاط العهدين وتصحيحها. فإنك ترى القرآن في هذا المقام جرى على رسله في تعليمه الفائق، وأورد هذه العبارة في مثل الجمل وسم الخياط فيما يناسبها، ولكنّه تبّه بذلك على أن المعقول الصحيح هو هذا التعليم، لا تعليم الأناجيل في الغني.

الدكتور: يا عمانوئيل: قد ذكر «يوم القيامة» في العهدين متكرراً، فماذا تحصّل لك من بيانها؟

المعاد الجسماني في العهدين

عمانوئيل: في العدد التاسع عشر من الفصل السادس والعشرين من كتاب إشعياء: «تحيي أمواتك تقوم الجثث ترتّموا يا سكّان التراب».

وفي العدد الثاني من الفصل الثاني عشر من كتاب دانيال:

وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يقومون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى الازدراء الأبدية.

وفي الفصل الخامس من إنجيل يوحنا:

لا تتعجبوا من هذا فإنّه تأتي ساعة يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج

الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيّئات إلى قيامة الدينونة^١.

وذكرت الأناجيل في مقام الموعظة والإنذار: أنّ الجسد كلّه يلقى في جهنّم النار الأبديّة^٢، وجهنّم النار التي لا تطفأ حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ^٣، ويجمع الملائكة بني المعائر وفاعلي الإثم ويطرحونهم في أتون النار هناك يكون البكاء وصرير الإنسان^٤.

وأما من حيث نعيم الأبرار ففي الفصل الثاني والعشرين من لوقا في البشرى للتلاميذ: وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي وتجلسوا على كراسيّ تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر^٥.

لكن في أناجيل متى ومرقس ولوقا: إنّ الصّدّوقيين المنكرين للقيامة جاؤوا إلى المسيح لكي يمتحنوه ويغالطوه، فسأله عن المرأة إذا تزوّجها سبعة إخوة، واحداً بعد موت الآخر، لمن تكون زوجة في القيامة؟ فأجاب المسيح - على ما في إنجيل متى^٦ ومرقس^٧: تطلّون إذ لا تعرفون الكتب وقوّة الله، لأنّهم متى قاموا من الأموات لا يزوّجون ولا يزوّجون بلى يكونون كملائكة في السماوات.

و صورة الجواب في إنجيل لوقا^٨ هكذا:

أبناء هذا الدهر يزوّجون ويزوّجون ولكن الذين حسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات لا يزوّجون ولا يزوّجون؛ إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضاً، لأنّهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة.

١. العددان: ٢٨ و ٢٩.

٢. إنجيل متى ٥: ٢٩ - ٣٠، و ١٨: ٨ - ٩.

٣. إنجيل مرقس ٩: ٤٣ - ٤٩.

٤. إنجيل متى ١٣: ٤١ و ٤٢.

٥. العددان ١٩ و ٣٠.

٦. الفصل ٢٢، العددان ٢٩ و ٣٠.

٧. الفصل ٢، العددان ٢٤ و ٢٥.

٨. الفصل ٢٠، العدد ٣٤ - ٣٦.

أليعازر: أين يوجد في الكتب أنّ القائمين من الأموات لا يزوّجون ولا يزوّجون، بل يكونون كملائكة السماوات؟ في أيّ كتاب يوجد هذا، لكي يصحّ توبيخ المسيح للصدّوقيّين على جهلهم به، أين ذلك؟

نعم، كان ينبغي في تجهيلهم وتوبيخهم أن يقول لهم: تضلّون؛ إذ لا تعرفون من التوراة أنّ الزواج ينقطع بموت الزوج، ويصحّ للمرأة أن تتزوّج بالآخر. فلا صورة لسؤالكم، وإتّما هو سؤال جاهل بالتوراة والشريعة، ولو قال هذا لكان جواباً بحجّة، وتوبيخاً بمستند محكم.

دع هذا، ولكنّ العارف الذي يحتجّ على سائل ممتحن يلزمه في الأدب والعلم أن يجيبه بحجّة واضحة قاطعة: إمّا ببرهان علمي يرجع إلى البدهة، وإمّا بجدل بما يدعن ويعترف به السائل.

إذاً فما هو معنى قول إنجيل لوقا: إنّ أهل القيامة لا يزوّجون ولا يزوّجون ولا يستطيعون أن يموتوا أيضاً؟ وما هو وجه الحجّة فيما على السائل؟ أيّة مداخلة للزواج بالقدرة على الموت في المستقبل؟

وما معنى قوله: إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضاً؟ متى كان موت البشر باستطاعتهم؟ وما هو وجه التعليل بكونهم أبناء الله وكملائكة بأنّهم أبناء القيامة؟ إنّ العهد القديم وتعليم المسيح في الأناجيل كلّها تصرّح بأنّ الأشرار وعاملي السيّئات يكونون من أبناء القيامة أيضاً، فهل هؤلاء أيضاً أبناء الله وكملائكة؟

عمانويّل: يا سيّدي، تهجنني كثيراً بعنايتك بمثل هذا النقد وهذا التحقيق وإن كان قد مرّ بعضه في الجزء الأوّل صحيفة ١٥١ و ١٥٢، ولكن لنستطرد الكلام في شؤون القيامة في العهدين.

ففي الفصل الخامس عشر من كورنثوس الأولى^١ هكذا:

قيامة الأموات يزرع في فساد ويقام في عدم فساد. يزرع في هوان ويقام في

مجد يزرع في ضعف ويقام في قوّة. يزرع جسماً حيوانياً - وفي نسخة نفسياً - ويقام جسماً روحانياً.

ولكن يا والدي ليس من الممكن أن نجعل لهذا الكلام قيمة وشأناً في بيان هذه الحقائق، فإنّه يقول بعد هذا الكلام من هذا الفصل بسبعة أعداد:

هو ذا سرّ أقوله لكم لا نرقد - أي لا نموت - كلنا ولكننا كلنا نتغيّر في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير فإنّه سيبوق فيقام الأموات عديمي فساد ونحن نتغيّر^١.

أين يكون قوله في هذا السرّ الموهوم وقد مات ورقد هو وكلّ من خاطبه منذ قرون عديدة؟

ولئن كان كاتب رسالة كورنثوس هو كاتب رسالة غلاطيّة، فبالحرّي أن لا يجعل له مقام مع الصادقين ولا مع المؤمنين، فكيف تتبّع أقواله في هذه الحقائق الغيبية؟ أليس هو القائل في رسالة غلاطيّة في الفصل الثالث:

المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا؛ لأنّه مكتوب: ملعون ملعون كلّ من علّق على خشبة^٢؟

ألا تذكر يا والدي مامرّ في الجزء الأوّل صحيفة ٩٩ و ١٠٠ من نفرتك من هذا الكلام، وما بيّناه فيه من الجرأة على قدس المسيح، ومن الكذب على التوراة وتحريفها والجهل بمفادها الظاهر؟

وأما ما ذكر في إنجيل متى وإنجيل لوقا «أنّهم في القيامة لا يزوّجون ولا يزوّجون بل يكونون كملأئكة في السماء أو كملأئكة في السماوات»، وكذا ما في إنجيل لوقا، فإنّه يكفي في عدم الالتفات إليه - زيادة على ما ذكرته أنت - أنّ نفس الفصول الذي تضمّنت هذا الكلام من الأناجيل الثلاثة قد نسبت إلى قدس المسيح تعليمه - وحاشاه - بشرك تعدّد الأرباب مع تحريف المزامير والوقوع في التناقض، كما ذكرناه في الجزء الأوّل صحيفة ٨٨-٨٩، وانظر إلى الجزء الأوّل من كتاب الهدى صحيفة ٢٤٢ و ٢٤٣.

١. العددان ٥١ و ٥٢.

٢. العدد ١٣.

ودع عنك ما ذكرنا بعضه في الجزء الأوّل والثاني، وما ذكره في كتاب الهدى ممّا يدلّ على وهن العهد الجديد وبراءة ساحة النبوة والحقيقة من الكثير من مضامينه.

الشيخ: كثير من الحقائق ما يكثر فيه اللغظ وتدخّل الجهل والأهواء، ولكن جاء في فلسفة القرآن الأدبيّة وتعليمه الراقي قوله في الآيتين السابعة عشرة والثامنة عشرة من سورة الزمر المكيّة: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ يعلم مضمون الآية وفحواه بأنّ الإنسان العاقل المهديّ هو الذي يستمع ما يقال، فينظر فيه من ناحية العقل الحرّ وحال العاقل، فيأخذ بالصحيح وأحسنه، وله البشري في ذلك بالكمال والهدى والفوز بالفوائد الكبيرة.

يا حبذا لو تتلمذ الناس على هذا التعليم، وبنوا دينهم وأدبهم على هذا الأساس المحكم، الضامن للهدى والكمال والبشري.

لماذا كان المعاد جسمانياً لا روحانياً فقط؟

الدكتور: لماذا كان المعاد جسمانياً يقوم في جزائه بالنعيم الجسماني والآلام الجسمانيّة؟

أفلا يكفي فيه أن يكون روحياً يقوم ببقاء النفس ونعيمها العقلي أو آلامها العقليّة؟

الشيخ: إنّ من يصل به النظر إلى مثل هذا السؤال ينقطع عليه طريق هذا السؤال وأمثاله، لا وقت لهذا السؤال إلّا بعد الانتهاء بالنظر إلى الإذعان بالإله واجب الوجود الغنيّ، الذي يستلزم غناه المطلق أن يجري أعماله على حقيقة الحكمة، ومن حكمته إرسال الرسل الصادقين الذين بشّروا وأندروا بما في المعاد الجسماني للمحسنين والمسيئين.

وإذا كان اعتمادنا في سيرنا على حقيقة المعاد متقوماً بالإذعان بحكمة الله لأجل غناه ووجوب وجوده، فإنّ هذا الاعتماد يوجبنا على هذا السؤال إذا جهلنا وجه الحكمة الخاصيّة، وينادي بنا ويعلمنا أن نُدعن بالحكمة على الإجمال، ونقف في وجهها التفصيلي على الجهل العلمي كأكثر الحقائق المُحدقة بنا، وقد حجبنا عنها جهلنا البشري، ولنا الفخر والشرف إذا عرفنا جهلنا بها ولم نخبط خبط العشواء في ظلام الجهل المركّب.

بعض وجوه الحكمة في كون المعاد جسمانيّاً

مهما خفى من شيء فلا يخفى شدة ارتباط النفس بالجسم حال الحياة واتحادهما في الائتلاف والأناثية، يقول الإنسان: «أنا» مشيراً إلى هيكله الحيّ بروحه وجسمه بإشارة وحدانية، بلا نظر إلى مائر في جهته الجسمانية أو الروحانية.

ولشدة هذا الارتباط والاتحاد ترى الإنسان إذا أراد التعبير عن أحد هذين الأليفين المتّحدين يُعبّر عن أنانيّته بالآخر، فتارةً يقول: جسمي، وتارةً يقول: نفسي. يجد أنّ ملاذّة الروحانية ينتعش بها الجسم والروح، وكذا الملاذّد الجسمانية. ويرى الآلام الجسمانية يتأثّر بها الجسم والروح، وكذا الآلام الروحانية.

يعلم نوع الإنسان أنّ جسمه سوف تُفارقه الحياة وتنفصل عنه الروح، فيعود جماداً يتلاعب به البلا. وإنك ترى نوع الإنسان بحسب طبعه الأوّلي - ومنهم من لا يدعن بخلود النفس - كيف يحاذر في حياته على حال جسمه فيما بعد الموت مهما أمكنه، ويفار عليه ممّا يمسّ كرامته، ولا يهون عليه أن يكون معرضاً للاستهانة والإهانة والاستهزاء وتناهب الوحوش له، ولا يستسلم إلّا لما استسلم إليه نوع الإنسان كرهاً، بل يودّ تحسين قبره وقبره من أهله.

وهذا هو الذي دفع المصريّين، وكثيراً من القدماء، وبعض من هو بعدهم إلى تعاطي التحنيط، وإيداع الجثث في المحافظ المتينة والمواقع التي تدفع - سيراً - إسراع البلا. ولئن سمعت ببعض من يُوصي بحرق جثّته أو يرضى به، فإنّما ذلك من مبادئ خيلت له أنّ في ذلك حفظاً لكرامتها ودفاعاً عن إبتلائها بالمحاذير الكبيرة، كمن يرضى بالعملية الجراحية دفعاً لما هو أعظم منها من المحاذير المهذّدة لحياته.

إذا فالحرّيّ والأحرى في غاية معاد الإنسان وآثاره أن ترتبط بما تقوم به أنانية الإنسان، تلك الأنانية التي تكون آثار المعاد عاقبة لأعمالها.

وأيضاً، فإنّ الغاية الكريمة من المعاد، تلك الغاية التي تقوم بخلق الإنسان مختاراً في أعماله؛ لينال الغاية الحميدة في المعاد بابتهاج الأهلية وكرامة الاستحقاق والكمال

والطهارة العمليّة الاختيارية، هذه الغاية اقتضت أن يُعان نوع الإنسان على تحصيلها بترغيب البشرى وزاجر التهديد على أكمل الوجوه التي لا تسلب الاختيار. وهل يخفى أنّ أكمل الترغيب والزجر وأقربه إلى حصول الغاية، هو البشرى والتهديد بما يراه نوع الإنسان راجعاً إلى ما تقوم به أنانيّته، التي يعرفها ويرغب في كرامتها ويكره مهانتها.

وإنّك ترى نوع الإنسان يرى أنانيّته - التي يحافظ عليها وعلى كرامتها - تقوم بهيكله الحيّ، الذي يفرض تحليله بالفهم العميق إلى جسم ونفس. فالأحرى بالحكمة واللفظ وكمال الصدق، أن يرجع صدق الترغيب والزجر ومصداقهما إلى ما تقوم به الأنانيّة التي يعرفها نوع الإنسان.

وأيضاً، فإنّ كمال الكرامة وكمال الابتهاج بها إنّما يحصلان باجتماع الكرامة المادّية الجسمانيّة والكرامة الروحيّة، ولا ريب أنّ الأحرى بالرحمة والغاية لخلق الإنسان أن تجتمع له سعادة الكرامتين وابتهاجه بهما.

رمزي: إذ قد وصل الكلام إلى هاهنا، وأنّ معاد الإنسان يكون بهيكله المادّي الحيّ، الحاصل من اتحاد الروح بالجسم، فبالضرورة تكون احتياجاتنا في المعاد مادّية، أكل وشرب نحفظ به كياننا، وقرار مادّي تستقرّ عليه أجسامنا.

وقد قال بعض^١: إنّنا نضطرّ إلى أن نحكم، بل نجزم بأنّ جزء الآخرة لا يمكن أن يكون مادّياً، وأنّ الإنسان لا يمكن أن يلج باب السعادة الأبديّة بالنفس والجسد، وإليك البرهان.

إنّ جزء الصالحين الأبرار - كما تشهد به الكتب الإلهيّة، وكما يقرّ به جميع أرباب الأديان المعروفة بلا استثناء - إنّما يكون في نعيم الملكوت حيث يقاسمون الله وملائكته وقدسيه سعادتهم الأبديّة، وتشهد تلك الكتب بأنّ الله روح لا تضمّها مادّة، فليس - والحالة هذه - لله وملائكته محلاًّ معيّناً ترتكز عليه المادّة.

١. في كتاب ماهيّة النفس صحيفة ٤٨ (منه ❁).

عمانوئيل: يا رمزي، أنت تعرف وستسمع في صحيفة ٤٩٤ و ٤٩٥ ما وقع فيه في هذا المقام من تعمد في كلامك على مكتوبه، وما تقمّم فيه من مخالفة الحقيقة الواضحة من التناقض الصريح، عجباً للإنسان المتقمّم! ويا رحمة لانحطاط البرهان المسكين.

يا رمزي، أيّ كتاب إلهي يقول بلفظه أو مآل معناه: إنّ نعيم الصالحين يكون في الآخرة بنحو تقدّس الله عن المادّة، وبنحو كماله الذاتي وغناه وأبديّته ومعنى وجوب وجوده، وإنّهم يشاركون الله ويقاسمونه في قدسه ووجوب وجوده وكماله الإلهي؟! ليس من الممكن أن ينالوا من مواهب الله وأعمال قدرته سعادة أبدية تناسب جسمانيّتهم بدون أن يستلبوا مقام جلال الله وقده ووجوب وجوده ويقاسموه في ذلك؟ يا للعجب، هذه المادّة المقرونة بفقر الإمكان وتقلّب الصور، يسمح لها بعض الناس أن تكون أزليّة أبدية من دون اعتماد على واجب الوجود القادر، ولا يسمحون لها بالخلود بقدره الإله الأبدى القادر واجب الوجود؟!!

كيف ينسب إلى الكتب الإلهية وأرباب الأديان ما نسبه؟

أوليس هذا قرآن المسلمين يقول في الآية الخامسة والعشرين من سورة البقرة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهَا مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْجَارٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ويقول في سورة الواقعة المكيّة: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾، ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَكِينِينَ عَلَيْهَا مُتَقَنِّينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَنْبَارٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزَفُونَ * وَفِيهَا مِمَّا يَنْخَبِثُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾^١.

ويقول في سورة المرسلات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَّلٍ وَعُيُونٍ * وَقَوَائِمٍ مِمَّا يَشْتَبِهُونَ * كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَيْتًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^١.

وانظر في سورة الصافات من الآية الأربعين إلى الثامنة والأربعين، وسورة الزخرف من الآية السبعين إلى الثالثة والسبعين، وسورة الطور من الآية السابعة عشرة إلى الخامسة والعشرين، وسورة الحاقة في الآيتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين، إلى غير ذلك مما في القرآن من ذكر نعيم المعاد الجسماني.

يا رمزي: ها هم المسلمون الذين لا يخفى مقامهم الكبير في أرباب الأديان المعروفة، تراهم بأجمعهم يقولون في أمر القيامة بما يقول به قرآنهم من النعيم الجسماني. لا تعدّ منهم الباطنيين والبهائيين، فإنهم ينكرون القيامة بتاتاً على طبق المذهب المادّي الإلحادي، كما تصرّح بذلك كُتب الباب والبهاء.

رمزي: ويقول هذا القائل^٢: وكذا العقاب فإنه لا بدّ وأن يكون من نوع المكافاة - أي لا بدّ من أن يكون جسمانيّاً؛ لأنّه مكافاة للإنسان الجسماني الذي عمل الشرّ - ولا يمكن أن يكون جسمانيّاً؛ لأنّ سكّان جهنّم - وأريد بهم الأبالسة والشياطين - الذين هم الأشرار وأساس الغواية على عمل الشرّ، كما تدلّ عليه الكتب المذكورة، هؤلاء ليسوا سوى ملائكة وأرواح حكم الله عليها بالعذاب، فليس لهذه الأرواح محلاً مخصوصاً ولا يمكن أن تحلّ على مادّة، فالعقاب الذي ينالهم لا يكون إلّا روحياً، وهذا العقاب الروحي وجهنّم التي ليست محلاً مادّياً كيف يرتبط بالجسم المادّي ويعاقب به؟!
عمانوفيل: لقد أصلحت عبارة صاحبك في ظاهرها، ولكن هل سمحت بالالتفات إلى معناها واستدلّالها؟ لم تنصف نفسك ولا أدبك إذا لم تلتفت إليها.

يا رمزي: إنّ كُتب الأديان تقول: إنّ جهنّم نار مادّيّة في محلّ مادّي، وإنّ عقاب الإنسان الأثيم في جهنّم هو مادّي. وها هي الكتب بمرءى من الناس، وبذلك يقول أهل الأديان.

١. الآية ٤١-٤٣.

٢. في كتاب ماهيّة النفس صحيفة ٤٩ (منه ❁).

ولئن كان هذا العقاب ينال الأبالسة والشياطين؛ فلأنّها ليست أرواحاً مجردة عن المادّة والصورة بحيث لا تحلّ محلاً مخصوصاً، ولا يمكن أن تحلّ على مادّة، بل هي مادّيّة وإن كانت بنحو يخالف مادّيّة البشر، ولتكن مثل الغازات، بل قل مثل القوّة، بل قل مثل الأثير.

ها هي كتب الأديان المعروفة تُثبت للشياطين والأبالسة أعمالاً من نحو الأعمال المادّيّة، كالدخول والخروج والهبوط والهلاك، ولهم مسكن ومستقرّ مادّي تحلّ عليه ويطرحون في جهنّم.

فمن أين لهذا الكاتب أنّ الأبالسة أرواح مجردة عن المادّة والصورة، ليس لها محلّ مخصوص، ولا يمكن أن تحلّ على المادّة؟

إن كان هذا الكاتب وأصحابه يرجعون في هذا الشأن إلى الكتب الدينيّة، فهذه صراحة الكتب الدينيّة.

وإن كان يعتمد على مبادئ المادّيّين، فإنّ المادّيّين ينكرون وجود الأرواح المجردة، سواء كانت أبالسة وشياطين أم ملائكة أختيار أو أشرار.

فعلى أيّ مبدأ يفتي هذا الكاتب ويستنتج من فتواه ويجادل؟ يا للعجب لو تعذّر على هذا الرجل أن يفهم أنّه يمكن أن تعذب الشياطين بنار مادّيّة وعذاب مادّي في محلّ مخصوص، لما كان له أن يضطهد صراحة الكتب الدينيّة بأنّ الإنسان الأثيم يُعاقب في الآخرة بنار مادّيّة في محلّ مخصوص.

أليعازر: يا رمزي، كم ينبغي أن أقول: يا للأسف على الأدب! ترى الرجل يريد أن يجادل أهل الأديان بكتبهم الدينيّة، لكي يجحد القيامة والمعاد في الآخرة، وحاصل مغالطته أن يقول تارة: إنّ الدلائل الموجودة في كتب الأديان على كون الإنسان يلاقي جزاء أعماله في حالة مشتركة بين الروح والمادّة، والتي تؤيد أنّ جزاء الآخرة مادّيّاً أزيد منه روحياً أكثر من أن تحصى^١.

وتارة أخرى ينسب إلى الكتب الإلهية وأصحاب الأديان المعروفة بلا استثناء شيئاً لا يمكن معه المعاد الجسماني^١، مع أنّ صراحة الكتب الإلهية وتعاليم الأديان المعروفة تدحر هذه النسبة خاصة.

رجل تبعته نزعته إلى أمر فيتستّر بأنه يقوم بأن يمثل دور واحد من الفلاسفة، فيتكلم بلسانهم وما عندهم من الشكوك... إلى آخره^٢.

أفلا يشعر بأنّ الفلاسفة الذين يُشير إليهم لا موقف لهم مع الإلهيين في شأن المعاد، فإنّ موقف الإلهيين في حقيقة المعاد إنّما هو في مقام بعد الخطوة الأولى، أعني الخطوة الأساسية، أساس المعارف الدينية والنور الذي يوقف على الحقائق بأجلى مظاهرها، ويدعم بنيانها بدعائم براهينه وحججه.

تلك خطوة العقل بدلائله الفطرية الأولية واعتباراته الحسية والوجدانية إلى اليقين بوجود الإله الخالق القادر، واجب الوجود، الغنيّ العليم الحكيم، وإنه بقدرته وحكمته وعلمه يرسل الرسل الصادقين العارفين بوحيه؛ لكي يهدوا البشر إلى مناهج الصلاح ومواقف الحقائق، ويكونوا لعقول البشر بمنزلة النظارات المكبرة والمقرّبة، يجلون الحقائق بمجاليتها.

تجد الممثل لأحد الفلاسفة يتكلم في أمر المعاد بإحدى نزعتين: النزعة الأولى: وهي النزعة التي تغمز وترمز إلى جحود الإلهية والقدرة، النزعة التي يقول من جرّائها: إنّه لا وسيلة لإدراك الحقائق الروحية سوى الحدس والافتراض، وإنّها ليست سوى بنات التعليل التي لم تقم على إثباتها دليل حسي، ولم تكتسب صفة الحقائق الراهنة إلّا لإحجام العقول وعجزها عن تعليل ينافيه. انتهى تلك النزعة التي يقول من جرّائها في أمر المعاد الجسماني^٣.

إنّ جمع تراب الإنسان بعد موته، وإعادته إلى حاله قبل الموت، وإصعاده إلى أعالي

١. المصدر، الصحيفة ٤٨.

٢. المصدر، الصحيفة ٤٦.

٣. كتاب ماهية النفس، الصحيفة ٤٩ (منه %).

السموات، ويبنى له مسكن في الفضاء كل واحد من هذه يحتاج افتراضه إلى افتراض أعجوبة سماوية، ولكن الفيلسوف الذي يطلب الحقائق الملموسة لا يكتفي عن الأدلة بالأعاجيب.

يا رمزي، هل ترى رجلاً لا يعرف أن الإلهي لا يقابل الفيلسوف في حجة المعاد بالأعاجيب، وإنما يحتج عليه بدلالة الكتب الإلهية والأدلة النبوية بعدما يُمهّد دلالتها بالحجة على الإلهية والنبوة.

فإن شاء الفيلسوف أن يروغ إلى الاستبعاد والاستهزاء، الذي يضطهد الأدب والشرف، ويضرب المثل بالعظام والرميم، وجمع تراب الإنسان وإعادته وإصعاده إلى أعالي السموات، وبناء مسكن له في السموات، فإن الإلهي حينئذٍ يداري استهزاءه، ويوتخ مغالطته، ويروض من جوده باستلقاته إلى أن ذلك كله ليس بعجيب ولا مُستصعب ممن خلق الإنسان والحيوان من نطفة، وخلق السموات والأرض وما فيهما بهذا النظام الباهر.

ولم تتسرع إلى الإذعان به؛ لمجرد إمكانه وعدم صعوبته على خالق البشر والسموات والأرض وما فيهما، بل دلنا على ذلك كشف النبوات التي برهن الحس والعقل على صدقها في تعليمها.

والنزعة الثانية: هي التي من جزائها يقتحم التناقض والتقول على الكتب الإلهية وأهل الأديان المعروفة، مع أن الأمر مكشوف لكل راءٍ وسامع.

النعيان الجسماني والروحاني، وبيان القرآن في ذلك

الشيخ: لبيان الحقيقة بقیة كاد طول الكلام أن يحجبها بستار الإغفال، وهذه البقیة هي التي تنبّه على ميزة الحقيقة بحسنها الجامع وبهجتها المعشوقة، نرى الإنسان في هذه الحياة له لذتان ونعيمان:

نعيم جسماني قائم بمرغوبات الجسم وشهواته ومرّوحاته.

ونعيم روحي تتبّهج به النفس وترتاح إليه، وهو إدراكها للحقائق والمعقولات

الكريمة والمعارف العالية، وابتهاجها بكاملاتها وملكاتهما الراقية وكريم مقامها في رفعة العز والاحترام، وسلامتها من انحطاط النقائص ومهانة الانتقاص والتوبيخ.

فالصالح المستحق لنعيم الآخرة قد أعد له الفوز بالنعيمين وبشر بهما، النعيم الجسماني والنعيم الروحاني الذي تشناق إليه النفس وترغب فيه ذلك اليوم، وإنك ترى نوع البشر في دار الدنيا يكون نظرهم إلى النعيم الجسماني ورغبتهم فيه أكثر من الروحاني. ولأجل ذلك جرت حكمة القرآن الكريم على كثرة بيانه لمجد النعيم الجسماني في الآخرة: أداء لحق الاستصلاح والترغيب في الصلاح بنحو يشوق الفكرة النوعية البشرية. ومع ذلك قد أعطى النعيم الروحي في الآخرة حقه من البشرى والترغيب به، وبيان مجده الكبير بوجهته الحقيقية المطلوبة في ذلك اليوم.

يرغب الإنسان في حفظ مقامه ومرتبة شرفه، وأن يوفى حقه من التكريم والإجلال، فبشر بذلك في الآية السابعة والأربعين من سورة الحجر المكّية بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ كل من أهل النعيم يوفى صاحبه حقه من الاحترام، ويرضى كل منهم بمقدار حقه.

وفي الآية الثالثة والأربعين من سورة الأعراف: ﴿وَتُودُوا أَنْ تَتَكَبَّرَ الْجَنَّةُ أُوْرَثْمُوهَا﴾ بفضيلة صلاحكم واستحقاق كمالكم بأعمالكم واجتنابكم الرذائل، فكانت كرامة تكريم ودلالة كمال وجزاء ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وفي الآية الثالثة والسبعين من سورة الزمر المكّية: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَاسِدِينَ﴾ بشرى بعناية خزنة الجنة أمناء تشریفاتها وتكريماتها.

ومثلها البشرى بما في الآيتين الثالثة والرابعة بعد العشرين من سورة الرعد المكّية: ﴿وَأَلْمَسِيكُمْ يَدْخُلُونَ عَلَيْكُمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّارِ﴾.

وأرقى من هذه البشرى قوله تعالى في الآية الثامنة والخمسين من سورة يس: ﴿سَلِّمٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾ قولاً بتحية وتكريم من الرب الرحيم.

وفي السادسة والأربعين من سورة الحجر: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينِينَ﴾ من كل مخوف يمس الكرامة في نعيم الجسم والنفس.

وقوله تعالى في الآية الثانية والسبعين من سورة التوبة: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ» وأعلى من ذلك هو النعيم الروحي الكبير، وهو إدراك الكمال البهيج والتكريم المنوّه به، وأحسن نتائج الكمال ودلائله، وهو «رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» ما يتصوّر من النعيم الروحي لدى العارف «ذَلِكَ هُوَ أَلْفَوْزُ الْعَظِيمِ» إذا أحسّ الإنسان برضوان الله فقد عرف ما هو عليه من الكمال ولياقته لأن يرضى الله عنه، وذلك أقصى آمال العارفين في الابتهاج والنعيم الروحي والسعادة العظمى.

والبشرى الجامعة في ذلك قوله تعالى في الآية الثالثة عشرة من سورة الانفطار والثانية والعشرين من سورة المطففين: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ» من دون تخصيص بالنعيم الجسماني.

وفي الآية الخامسة والثلاثين من سورة «ق» في ذكر الجنة: «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ» لم يعط القرآن حقّه من الفهم والإنصاف من يقول: إن بشرى القرآن للأبرار في جزاء الآخرة إنما هي الملاذّ الجسمانيّة.

المغالطات في المعاد الجسماني وجهنّم

رمزي: قد بقيت عندي من تلك الأناشيد بقيّة، فهل تسمحون بإنشادها تمحيصاً للشبهات؟
قد قيل: إنّه لو كان لجهنّم محلّ ماديّ معلوم وفيه الملايين من الأجساد، فلا بدّ أن يكون هذا المحلّ العظيم عرضة للاكتشاف.

عمانوئيل: هل قال لك أصحاب الأديان: إنّ جهنّم وجهنّم النار التي لا تطفأ هي في إحدى القارّات من أرضنا أو في أحد الجزائر، لكي تقول قولك هذا؟

لعلّك تقدّر في أمانيك أنا إذا قلنا لك: إنّ جهنّم هي في غير أرضنا هذه، إنك تستفحل وتقول: عجباً، ومن هو الذي يوصل البشر الخاطئين من أرضنا هذه إلى جهنّم؟ حتّى كأنك تؤمّل أنّه لا يقدر أحد أن يقول لك: اسمح بذلك لزوابع الأثير، أو زوابع الجواهر الفردة، أو للقوّة التي أدارت السيّارات والمذنبات على شمسها كما يقال

في الهيئة الجديدة. ولولا أن أصحاب الشجاعة الأدبية يغتاظون لقلتُ لهم: اسمحوا بذلك للإله الخالق للعالم وما فيه من النظام الباهر.

رمزي: ولو قيل: إن هذا المحلّ تحت الأرض أو فوقها، لكنّا نرى الأجساد تغلغل تحت الأرض أو تحلق إلى العلا، مع أننا نرى الأجساد يعترها الفساد والبوار بعد الموت فتتلاشى وتباد.

عمانوئيل: لماذا نسيّت يا رمزي إن كلامنا إنّما هو في يوم المعاد، يوم تعادُ الأجسام بعد البلى؟ أذكر وافهم إنّه لم يقل أحد: إنّ الأموات الخطاة ينقلون من حين موتهم إلى جهنّم القيامة، ولا يدخلون القبر ولا يعترى أجسادهم الفساد.

أراك تؤكّد في قولك: «يعترها الفساد والبوار فتتلاشى وتباد» إن كان لك في ذلك غرض فإنّ القرآن يقول لك: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُخْبِئُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^١ هل بقيت بقيّة من أناشيد يا رمزي؟

المغالطات في المعاد ومسؤوليّة النفس

رمزي: قد تكلمنا فيما مضى من الوجهة الدينيّة، ونتكلّم فيما يأتي من الوجهة الفلسفيّة فنقول:

لا يمكن مساءلة النفس وحدها، فإنّ النفس لا تأتي بعمل صالح أو قبيح قبل أن تلبس المادّة، فلماذا تنسب إليها الأعمال التي فعلتها مشتركة مع الجسد؟

هذا لو كان لها مزيّة الاشتراك مع الجسد في إبراز الأعمال، ولكن ليس للنفس دخل في الأعمال، فإنّا رأينا فيما سبق أنّ فعل النفس لا يفرق بشيء عن فعل البخار، أي أنّه مقصور على فعل الحركة لا غير، وأنّ أعمال النفس تابعة لتركيب المادّة، فما فخر النفس وما ذنبها؟

عمانوئيل: هل تكلمتم فيما مضى من الوجهة الدينيّة إلّا بأن نسبتم إلى الكتب الإلهيّة ما تصرّح بخلافه، وإلى أهل الأديان ما يتبرّؤون منه، وأنّ النظر في مصادر كلماتك يعرّفنا أنّ الحقائق الفلسفيّة قد لقيت منكم مثل ما لقيته الحقائق الدينيّة وبالأسف؟! ومهما يكن من ذلك فإنّنا من حيث المعاد في يوم القيامة لا تهتمّنا هذه الترنيمة الباردة من أناشيدك، فإنّ الكتب الإلهيّة دلّت بصراحتها الواضحة المتكرّرة على أنّ المسؤوليّة في يوم القيامة تتعلّق بالإنسان الخاطئ بجسده وروحه، كما عليه العموم من أهل الأديان المعروفة، ولا علينا من تأويل المؤلّفين الذين يمزجون الدين بتعاليم أجنبيّة. قد سبق في صحيفة ٤٥٤ - ٤٧٥ ما يدلّ حرّ النفس والشعور على أنّ النفس جوهر قائم بذاته، له ميزة الإدراك والشعور والإرادة وتدبير حياة الجسد وتسخيرها في أعماله الآليّة، وأنّ لها جهة تراعي بها شؤون الجسد المتّحدة به. ولها جهة أخرى عقليّة تراعي بها الحقائق الصالحة والصلاح الشخصي والنوعي، وكثيراً ما ترجع الحقائق الصالحة على شؤون الجسد واحتياجاته الماسّة، والتي ترجع بسبب الاتّحاد إلى كونها احتياجات النفس ومقاصد أهوائها. بل كثيراً ما تغدّى شؤون الجسد بل وحياته لأجل تلك الحقائق، مع الافتخار بالفضيلة وإحراز الموقفيّة لذلك الفداء وترجيحه واختياره، وكثيراً ما تنال بذلك فضيلة الاستحسان والمديح.

في النفس والعقل

لا ينبغي للمناقشات في الحيثيّات أن تقف أمام الحقائق الملموسة بيد الإدراك الأوّلي والمنظورة بعين البصيرة، بل اللازم في فلسفة الحقائق أن نمشي مع واجبها العلمي لتحصيل النتائج المطلوبة جنباً لجنب.

إذاً فلا يهتّمنا في مقامنا هذا أن نوسّع نطاق البحث لكي نقول: إنّ العقل هو جوهر قائم بذاته ملازم في مرافقته للنفس؛ لتستهدي به إلى الحقائق الصالحة، ويكون دليلاً مرشداً لها في سبيل هداها.

أو لكي نقول: إن ذات النفس تسمى نفساً باعتبار تمايلها إلى شخصيات الجسد وتحرك إرادتها بأهوائه، من دون اعتناء لها بما تدركه من الحقائق الصالحة، وتسمى عقلاً باعتبار إدراكها للحقائق وجريان إرادتها وأعمالها على مقتضى تلك الحقائق وإدراكها. لا مساس لهذا البحث المتشعب ونتائجه في تشويش ما نُريد بيانه، أو في تنويع ما نتطلبه من النتائج.

في تعليل الأعمال والأفعال

يتوهم المتوهم أو يغالط المغالط بأن أعمال الإنسان وتروكه معللة بأمر جسديّة، إمّا طبيعيتة للجسد كالمزاج والسحنة، وإمّا كسبيّة كالأخلاق المكتسبة من العادة، أو مقتضى البيئة والمحلّ أو المحيط كالقرين والخليط والأحوال، ونحو ذلك. ولكن صدق الاعتبار والإشراف على الحقائق الراهنة يجلو غبار الأوهام ويضمحلّ به سراب المغالطات، وإليك بعض ما ينبهك من الغفلات.

المزاج وأعوانه

ترى ما لا يحصى من الشبان والكهول ذوي المزاج الدمويّ الحادّ القويّ والراحة والقوّة والعيش الرغيد، وهم غير مزوّجين، وفي شدّة الشوق والحاجة إلى مقاربة النساء، وفي موقع وحرقة يكثر فيها ابتلاؤهم بالنساء الجميلات المتبرّجات والداعيات إلى أنفسهنّ بمغوى الكلام السحّار ومغازلة الإشارات ومخادعة الجمال الفتان، وتراهم مع ذلك على جانب كبير من العفّة والتقوى. تمثّل له عقته وتقواه المرأة الأجنبيةّ مثال الحجارة، وتجعل سحر كلامها ومخادعة إشاراتها كالرقم على الماء يقضون على ذلك السنين والأزمان. وترى الكثير من المتقدّمين بالسنّ ذوي المزاج البلغمي والقوّة الساقطة، وهم في غنى عن الزنى بوجود نسائهم، ومع ذلك يتطلّبون ويقتحمون في شناعته وخسارته ومتاعب تحصيله ورذالة تطلّبه ومضارّ عاقبته، يتسارعون إليه سواءً حصلت لهم امرأة جميلة أو قبيحة.

وكم ترى بين الفريقين المذكورين من ذوي الدرجات المختلفة في العقّة والزنى، أمّا إنَّ الالتفات إلى ذلك يعرف الحرَّ أنَّ العقّة والتقوى والفساد والزنى ليست معلولةً للمزاج، ولا من لوازمه الطبيعيّة.

كم ترى من ذوي المزاج العصبي من لا تستفرّجه الحدة والغضب، ولا التجبّر والكبرياء، ولا نخوة الغيرة، ولا تبعثه على ما يمنع عنه الشرف والفضيلة والعقل والشرع. بل تراه يكون في جنب ذلك ألين ما يكون جانباً، وأحسن ما يكون حلاًماً وهدواً وصلاًحاً.

وكم ترى من لا يكون مزاجه عصبانيّاً، وهو منغمس بالأعمال التي يضطهد بها النواميس العقلية والشرعية، وتشمئزّ منها الإنسانية والصلاح والفضيلة.

وكم ترى بين الفريقين من ذوي الدرجات المختلفة في الأحوال والأعمال.

وكم ترى صاحب المزاج الخاصّ ينقلب في أعماله وأخلاقه إلى ضدّها من دون تغير في مزاجه وطبيعيّاته.

السحنة ودلالاتها الطبيعيّة

انظر إلى كلّ صنفٍ من الأصناف التي نعدّها كما ذكروها، انظر إلى قصار القامة، وإلى ذوي الأنوف الطويلة والعيون الزرق، وإلى ذوي العيون السود اللامعة مع الاستدارة والرطوبة والأنوف والشفاه السميكّة والأفواه الواسعة، وإلى ذوي الوجوه المنقبضة والعيون المجوّفة والحواجب السميكّة المتنافرة والشفاه الرقيقة والأصوات الخشنة، وإلى ذوي الأجسام السمينّة الضخمة، وإلى طوال القامة ونحاف الأبدان ومتوسّطها، وإلى الذين تخالف سحنتهم هذه الأوصاف المذكورة.

انظر إلى هذه الأصناف وتتبعها فإنّك تجد في كلّ صنف منها بكثرة من هو خدّاع فتان، أو ماكر أو فاسق، أو رديء قاسٍ، أو صالح ممتاز بالأخلاق الفاضلة، أو متوسّط في أعماله وأحواله. وتجد في كلّ صنف كثيراً ممن هو ليس بخدّاع ولا فتان، ولا ماكر ولا فاسق، ولا رديء قاسٍ، ولا صالح حلِيم.

لا تجد لما يزعمونه من آثار السحنة أثراً مطرداً ولو في الغالب، بل الكلّ منقوض بالشرط الوافر والأوفر، بحيث يتّضح لك أنّ أعمال الناس وأخلاقهم وملكاتهم ليست معلولة لأحوال أو أوضاع جسدية وأمور طبيعية في الجسد، لا تعتمد على ذلك في شخص إلا وتراه منقوضاً في شخص آخر. بل إنك كثيراً ما ترى الشخص الواحد يكون على أعماله وأخلاقه مدة، ثمّ ينقلب إلى غيرها أو ضدها من غير تغيير في سحنته.

أوهام التعليل بالحاجة

كم ترى الكثير من الفقراء الأقوياء القادرين على السرقة والاختلاس، تمسّهم الحاجة الشديدة إلى الشيء وهم قادرون على اختلاسه، ومع ذلك تراهم يتورّعون ولا يأخذون المال إلا من حلّه ومتاعب الاكتساب والأعمال.

كم من فقير محتاج وجد لقطعة من ذهب أو فضة مسكوك وغير مسكوك أو غير ذلك، فلا يأخذ منه لحاجته شيئاً، بل يتحمّل فوق ذلك كلفة التعريف به والتطلّب لصاحبه بأنواع الوسائل.

وكم ترى من غنيّ يقطع الطريق، أو يقتحم بيوت الناس ومخازنهم ويقدم على قتل النفوس لأجل استلاب أموال الناس وسرقتها.

وكم تجد من غنيّ مُتْرٍ يغالط العمّال الفقراء بالحساب ويختلس من أجورهم الفلس وأشباهه، يقطع ذلك من أجور متاعبهم وأقوات عيالهم وأطفالهم.

أوهام التعليل بالبيئة أو المحيط

انظر إلى المدن الصالحة نوعاً، والقرى الصالحة نوعاً، والأحياء الصالحة نوعاً، والبيوت الصالحة نوعاً، فكم ترى فيها من المختارين للفساد، وكم ترى تفاوتهم في درجاته إلى أن يبلغ بعضهم أقبح الانغماس بالفساد.

ثمّ انظر إلى المدن والقرى والأحياء والبيوت التي يغلب فيها الفساد، فكم ترى فيها من المختارين للصالح، وكم ترى تفاوتهم في درجاته إلى أن يبلغ بعضهم درجات الكمال العالية.

وأنعم نظرك في الشعوب ومَن تجمعهم إلفة المصانع والحرف ونحو ذلك، فكم ترى فيهم من الاختلاف والصلاح والفساد.

مَن تجتمع فيه التعليقات الموهومة

وانظر إلى كلِّ صنف متساوٍ بالمزاج والسحنة والمحيط والبيئة ممَّا تتساوى فيه أفراده تمام المساواة، ثمَّ انظر كيف تختلف أفراده في الأعمال الصالحة والردئية بدرجات مختلفة، يصل اختلافها إلى البعد الشاسع.

كم وكم ترى الشخص الواحد يمضي له زمان وهو على مزاج واحد، وسحنة واحدة، ومحيط واحد، وحال واحد، وبيئة واحدة. ويكون في شطر من ذلك الزمان ذا أعمال صالحة، وفي شطر منه ذا أعمال رديئة يتغيَّر من شأن إلى ضده.

وكم تراهم يتفاوتون في هذا التغيَّر بدرجات مختلفة، ترى من ذوي القسامات الطويلة والأجسام السمينة الضخمة والأمزجة الليمفاوية البلغمية والسحنة التي ينسبون إليها الصلاح، وممَّن لا يقدر لذاته رفعة شرف ولا كرامة محلَّ. تراه إذا مسَّت شخصيته أدنى معاملة من الحقِّ، يتقمَّح الجرائم القبيحة في الانتصار لباطله، ويتهور في الانتقام ويتجاوز الحدود.

وكم ترى من دمويِّ عصابي شابٍّ مقتدر رفيع الشرف عزيز المقام، يعتدي عليه ظلماً مَن هو دونه، وهو قادر على الانتقام، يأمن من أكثر الموانع، ولكنه يصفح عن الانتصار لشخصيته وخصوصية مظلوميته، ويتمسك بفضيلة العفو وشرف الهدوء وكرامة الصلاح، وكثير من هؤلاء مَن تبعته عاطفة الإصلاح إلى استصلاح ظالمه بالموعظة والإرشاد بلين الكلام وإمارات النصح والحنان إن ظنَّ فيه خيراً وتأثراً بالموعظة.

وكم وكم بين كلِّ فريق وقرينه ممَّن ذكرنا وبين الأشخاص بحسب أزمانهم من درجات متفاوتة، لا تراها ترتبط بمزاج ولا سحنة ولا حاجة ولا بيئة ولا محيط ولا حال، ولا مقدار من الغضب، ولا مقدار من الشهوة لا تقدر أن تربط تليلها بشيء من

ذلك، وستسمع لذلك بعون الله بقيةً إيضاح.

ليس ما ذكرناه وفضلنا الإشارة إليه محجوباً بالستار، ولا ممّا يحتاج إلى رصد فلكي أو تجوّل رحّالة. كلّه مكشوف للعيان،

تجد مصاديقه بكثرة حتّى في أهل المدينة والقرية. لماذا يكون ذلك؟ وكيف يكون معلولاً للجسديّات؟ إذاً فلماذا يتخلّف التعليل هذا التخلّف الذي لا يحدّ؟ كيف تتخلّف المعلولات عن عللها الطبيعيّة؟!

رمزي: بقيت كلمة أقولها كما قالوها، أقولها تمحيصاً للحقيقة.

خُذ رجلاً زانياً من عاشقي سادوم وعمورة - أي مدينتي قوم لوط - ثمّ أخْصِه أو أسقه دواءً يميّث شهوته، ثمّ أطلقه، فإن عاد إلى فسقه وفجوره كان دليلاً على أنّ الميل الزنائي هو هوىٌّ من أهواء النفس أمّا إذا رأيناها يكون أعفّ من يوسف، أفلا يكون ذلك برهاناً على أنّ المزاج الجسدي هو الحاكم على أعمال الإنسان؟

عمانوفيل: لماذا غابَ عنك أنّ الزنى من أعمال النفس الآليّة، وأنّ إرادة النفس له إذا اقتضتها وجهة التصرّور إنّما تكون من وجدان النفس للشهوة بواسطة اتّحاد النفس بالبدن وارتباطها به. تتحرّك قوّة الجسد، فتشتهي النفس فُتريد، فتُحرّك الأعضاء على عمل الزنى.

وكيف تشتهي النفس إذا بطلت قوّة الجسد؟! وكيف تُريد ما لم يمكن إعماله ولا تجد له أدنى ميل ولا آله؟!

إذا لم يكن لك ولد، فإنّك لا تُريد أن تسرق له مزاراً يزرّم به، لكي تستريح من هياجه ومطالبته بالمزار.

وأما إذا كان لك ولد يطالبك بالمزار، فليس من اللازم الطبيعي أن تكون سارق مزامير لأجل تسكّيته، بل إنّك بحسب وجهة تصوّرك، إمّا أن تكون سارق مزامير سواء كنت متمكناً من الشراء أم لا، وإمّا أن تشتري له بالحلال ما يسكن هياجه، وإمّا أن تعرض عنه وهو يهدأ أخيراً.

هذا مثال الزاني الذي ذكرته في حال إخصائه وفحولته، أمّا قول القائل: «إنّه يكون

عند إخصائه أعف من يوسف» فهو كلام من لا يعرف للعفة معنى. ليست العفة عدم الفعل عند عدم القدرة، وإنما العفة هي ترفع النفس الشريفة بتصوراتها الراقية عن العمل القبيح، مع القدرة عليه ووجدان شهوته.

الأخلاق والتفكير

رمزي: إن الإنسان يكتسب أخلاقاً تبعته على ما يلائمها من الأعمال، فما هو القول في هذا الموضوع؟ وهل يبقى مع بعث الأخلاق مسؤوليته على النفس؟ وهل الأخلاق نفسية أو جسدية؟

عمانوئيل: كأنك سمعت من بعض الكاتبيين قولهم: «إن الخلق لا يتغير» فحسبت أنه يلجئ على الأعمال فتقول: إذا لا محلّ للمسؤولية العادلة المعقولة مع الإلجاء.

نعم، لا مسؤولية مع الإلجاء، ولكن من أين تقدر أن تكابر العيان والخبرة الشاهدين على أن الخلق لا يلجأ ولا يضطرّ على مناسباته من الأعمال، بل نجده كثيراً ما يبطل أثره بحسب الدواعي المزاحمة له في التصور والاختيار، وكثيراً ما يتعدّل أو يتغير إلى ضدّه دفعة أو تدريجاً بسرعة أو ببطء، بحسب ما لأسباب التغيير من القوة أو الضعف. الشيخ: إذا حرّرت فكرك وأنعمت النظر، لم تجد الخلق إلا نتيجة من أمور:

منها: حسن التفكير والاسترشاد بالعقل وتعاليم الهدى، بحيث يكون وقوف التصور على العمل الصالح والترك الصالح بسبب الإذعان بحسنه واستيجابه للترجيح بالإرادة، وبالنظر إلى غلبة ذلك في نوع من الأفعال أو التروك يسمّى خلقاً خاصاً، كالسخاء والحلم والرحمة والعفة، وبالنظر إلى نوع الصالحات من الأفعال والتروك يكون كمالاً وتقوى.

ومنها: التساهل في التفكير، وذلك بأن يترك وجهة تصوّره منصرفة نحو فعل أو ترك فيه ملائمة للحالة الجسدية، ولا يعطى التصور حقّه في التوجّه إلى ما في ذلك الفعل أو الترك من المضارّ العقلية الجسدية، ولا إلى ما هو الصالح الأهمّ من المصالح العقلية أو المصالح الجسدية.

بل يسترسل بوجهة تفكيره للنزعة الجسدِيّة الحمقاء، أو لقرين السوء، أو لغير ذلك من الجهات. ويقف عند ذلك ويعرض بوجهة تفكيره وتصوّره عن حقيقة تمثّلها الفطرة لتصوّره في كلّ حين، ألا وهي الموازنة بين المصالح والمفاسد لأخذ النتيجة للعمل. وبالنظر إلى غلبة ذلك في نوع من الأفعال أو التروك يسمّى خلقاً خاصّاً، كالبخل والحِدّة الحمقاء والقسوة والفجور، ونحو ذلك، وبالنظر إلى نوع الأعمال السيئة يكون تمرّداً وسقوطاً.

لكن مهما يكن من ذلك فإنّك تجد أنّ تفكير الإنسان وإرادته واختياره لم يسيطر عليها مُسيطر طبيعي أو عادي لازم، فكم ترى من الأفعال أو التروك ما يقع بالاختيار ونتيجة نوع من التفكير على خلاف مقتضى الأخلاق. انظر في حال كلّ ذي خلق من الأخلاق، فكم ترى من أعماله ما هو على مضاة خلقه.

كم ترى من بخيل يسمح بالكثير من ماله على رغبة منه، حينما يستحكم في تصوّره رجحان الإنفاق، إمّا رغبةً في الخير، أو حبّاً للجاه، أو انقياداً إلى الشهوة، أو غير ذلك. يكثر منه ذلك ويقلّ، وقد يبلغ أن يكون سمحاً في فعل الخير أو في الانقياد إلى الشهوة أو في حبّ الجاه والسمعة، وهو بخيل فيما عدا ذلك. وقد يتبدّل بخله بالسماحة في أكثر الأمور، ويتفق له الشحّ في بعضها.

وكم ترى من سخّي يبخل بالقليل في كثير من الموارد، ترى بعضاً يبخل في فعل الخير، وترى بعضاً يبخل في فعل الفسوق، وترى بعضاً يبخل في موارد مختلفة بحسب الجهات المتشتمّة.

وكم ترى من حليم يثور به الغضب ثورةً شديدةً بحسب الدواعي المختلفة، فمنهم من يشتدّ غضبه على الأفعال المنكرة، ومنهم من يشتدّ غضبه على مخالفة أمياله وشهواته أو كبريائه.

وكم من حادّ غضوب لا ترى لخلقته أثراً في الأمور المشروعة، ولا مع امرأته، ولا مع ولده، ولا مع الأكابر، ولا عند دواعي التملّق ومصانعة الأغراض.

وكم من جبان يكون شجاعاً في كثير من الموارد، وكم من شجاع مقدام تراه يجبن

ويحجم في كثير من الموارد، وكم ترى ذا خلق تغيّر خلقه إلى ضدّه، كم ترى من بخيل صار سخياً، وكم ترى من سخّي صار بخيلاً، أو حليم زال عن حلمه، أو غضوب صار حليماً، أو متكبر صار متواضعاً، أو متواضع تشامخ بالكبرياء.

ترى الإنسان إذا توفّق للتقوى والورع، أخذت تقواه وورعه وأفكارهما بمخاتق أخلاقه المضادة لهما في الآثار. وإذا انقلب - والعياذ بالله - إلى الشرارة والدعارة، تلاعبت أفكار شرارته ودعارته بما عنده من الأخلاق الجميلة.

كم ترى الأخلاق محكومة لسوانح التفكير المختلفة.

لا، لا ترى في الأخلاق ما هو سالب للاختيار وملجئ للعمل على طبقه، بل ترى الخلق - مهما بلغ - محكوماً لسلطان التفكير، أي سلطان هو سلطان التفكير؟

تأثير التفكير في الوجدان

انظر إلى تفكير النفس ونظرها في وجوه الأمور الماثلة لديها كيف يتصرّف بالوجدان والعواطف؟ ترى الإنسان قد يجوع هو وأولاده وتضعف قواهم ويتألم من أجل ذلك، فيحرّر فكره للنظر في أحوال بني نوعه، فيفكر في أنّه يقدر على رفع جوعه وجوع أطفاله ببذل المال وإن كان كثيراً، وليس بينه وبين الشبع إلاّ السعي في ذلك.

ولكنّ الكثير من بني نوعه من الأطفال والأيتام والأرامل والعاجزين من لا يقدر على القوت، لا من حيث المال ولا من حيث السعي، ولا أمل لهم بالقوت والشبع. فترى هذا التفكير الحميد يرفع عنه وجدان جوعه وألمه وعاطفته على أولاده، ويبدّل ذلك بعاطفة الحنان والرحمة، فيقوى وينشط لأعمال كبيرة في سبيل هذه العاطفة الحميدة على بني نوعه، وهكذا ترى كثيراً ممن يمسه العطش.

يرى الإنسان داره لا تقوم بحاجته التي ينزع إليها بحسب اختلاف الفصول والحرّ والبرد والاعتدال، والعائلة والضيف ونظام رفاهيته، فيجد من ذلك ألماً دائماً وسخطاً لحالة داره، وربما يبعثه ذلك على نيّة الإقدام على الحرام والظلم لأجل توسعة داره.

ولكنّه إذا فكّر في أمر الكثيرين الذين رأهم أو سمع بهم من الفقراء القاطنين في

البرّ، وليس لهم بيوت إلا من أسمال^١ خلقه، لا تقبهم من حرّ ولا برد ولا مطر، وهم عرضة لرياح السموم المحرقة ورياح البرد القارص، تتغيّر أوانهم في الحرّ والبرد. فإنّ هذا التفكير يبدّل وجدانه الأوّل بوجودان الرضى والأنس بداره والإقلاع عمّا كان ينويه، ويجمع له مع هذا الوجدان وجدان الحنان والرحمة للفقراء. يموت بعض أولاد الإنسان، فيجد الحزن الشديد المؤلم، ويستولي عليه الجزع والقلق. وكثير ممّن يتلى بمثل ذلك يفكّر في أنّ وجود ولده وحياته وموته وعاقبة حياته ليست بيده، مع أنّه قويّ له رجاء بولادة الأولاد وعنده أولاد متعدّدون. ولكن هلمّ المصيبة في فلان وفلانة الشيخين الفانيين الفقيرين العاجزين بالعمى أو الإقعاد، لم يكن لهما إلا ولد وحيد شابّ حسن الشمائل والأخلاق، بارّ بالديه، يسعى في قوتها وخدمتها وحوائها وأنسها ورضاهما، وقد فقد ذلك الشابّ الصالح البارّ العامل، وفوق ذلك أنّهما صبرا صبرا الأحرار على مصيبتها الكبيرة من كلّ وجهة. فترى هذا المفكّر ينقلب وجدانه الأوّل إلى الصبر والسلوّ والسكون مع الحنان والرحمة لذئيك المسكينين، ما أكثر الأمثلة لذلك في الوقوع بكثرة عظيمة.

إحداث التفكير للوجدان

ألا ترى أنّ التفكير كيف يُحدث الوجدان؟ ترى ذلك بكثرة مُدهشة. كثيراً ما يكون الإنسان لا يجد شهوة وشوقاً لمقاربة النساء، ولكنّه يمثّل في تصوّره امرأة جميلة بادية المحاسن، ثمّ يتصوّر أنواع الملاطفة والملاعبة معها، فيهبّ فيه وجدان الشهوة، ثمّ يترقى في تصوّره أنواع الملاعبة ويؤكّد في تمثيلها للنفس، حتّى يجد من نفسه ميلاً هائجاً إلى أن تهبّ تلك التصورات أعصابه إلى الانتصاب ومادّة التناسل إلى الخروج والإمضاء. كثيراً ما يكون الإنسان هادئاً آمناً، فيلتفت بتصوراته إلى بعض الأحوال فيجد الخوف، وكثيراً ما ينعكس الأمر ويجري مثل ذلك في المحبّة والكراهيّة والابتهاج والحزن والرجاء واليأس.

١. السئل: الخلق من الثياب. الصحاح ٥: ١٧٣٢، «س م ل».

وكثيراً ما تشتغل النفس بتصوراتها عن وجدان الأمل واللذة، وكم وكم يحصل لها الابتهاج والتألم بمحض التصورات.

قدرة الإنسان على تغيير أفكاره وتعديلها وصرف النفس عن نزعاتها الجسدية كثيراً ما تعرض لنا الأمور المزعجة، التي كلما دام عليها التّصوّر زاد الانزعاج الذي قد يبعث على أعمال مذمومة، فنقصد بنزعتنا العقلية أن نتخلص من الانزعاج وعاقبته الذميمة، فنصرف الفكر إلى تصوّر ما يسكنّ الانزعاج حتّى يضمحلّ، أو نشغل الفكر بتوجيهه إلى أمور آخر حتّى ننسى الانزعاج، أو نتشاغل بأعمال تُلهينا عن الانزعاج، أو نبتعد عن أسباب الانزعاج فننساه.

ومن هذا النحو إرشاد أئمة الدين الإسلامي في تسكين الغضب والتخلّص من آثاره وأعماله، وتعليمهم بأنّ الغضبان يغيّر حالته، وأقلّ ذلك أن يقوم إذا كان قاعداً ويقعد إذا كان قائماً، وكذا عند عروض الشهوات وإقبال النفسية عليها.

نعم، قد يسهل ما ذكرناه في عنوان الكلام، وقد يحتاج إلى إعمال المقدمات والاستعانة والإعانة بحسب ما يحصل من ألفة النفس؛ لوقوفها على التصورات النفسية الجسدية، ومجانبتها لتوجيه تصوّرها إلى الحقائق الصالحة العقلية. أو من عكس ذلك من ألفة النفس وتصوّراتها للاستضاءة بنور الحقائق العقلية والتنوّر بالوقوف عليها، كما هو حقّها.

فترى كثيراً من الناس من يحتاج في صلاحه إلى مرشد يعدّل أفكاره، وقرين صالح يروّض فكره بنصائح أقواله وقدوة أعماله، مع ترويض النفس على إمالة وجهها إلى النزعة العقلية، وصرف خيالاتها عن النزعة الجسدية، أو مع الابتعاد عن موارد الغواية وعدواها. وترى كثيراً من الناس من تحتاج غوايته - والعياذ بالله - إلى مقدمات هي على العكس ممّا تقدّم، وللناس بحسب أحوالهم في ذلك مراتب مختلفة، ترى ما ذكرناه جلياً في أحوال البشر وعليه عملهم، طالما نستعمله في تفكيرنا وتعديله وصرف أميالنا وأفكارنا عن وجهها، ويشترك جميع الناس في عملهم على ذلك في أميالهم الجسدية

وتعديلها فيما بينها، فضلاً عن صرف الفكر إلى العقليات الصالحة.

مهما نار غبار الشبهات والمغالطات، فإنّ الالتفات إلى ما ذكرناه يجلو للإنسان جوّ الحقائق، فيراها ماثلة للعيان ملموسة بيد البداهة. يعرف الإنسان منها أنّ المصدر لاختيار الأفعال والتروك إنّما هو ذلك الجوهر المدرك، المشرف بإدراكه على الأمور الشخصية والنوعية الجسدية والعقلية، صالحها وفاسدها، وجهات منافعها ومضارها. وإليه ترجع موازنتها وتصريف الأفكار فيها وتعديلها، وإنه أيّ تصوّر يقبل إليه ويقف عليه تنشأ عنه الإرادة للفعل فتحرك العضلات والأعضاء، أو الإرادة للترك فتمسكها عن الحركة.

ومن أجل احتجاب هذا الجوهر عن آثار نورانيته بحجاب الجسمانية وظلمتها وكثافتها، كان محتاجاً في جودة إدراكه إلى مدافعة الحجاب بالتعلم والتفكير والتجول في ميدان الحقائق لاستجلائها لبصيرته.

كما أنّه من ارتباطه بالجسد ووحدتهما في الأناية يحصل له الوجدان بجميع العوارض الجسدية، يحصل له الجوع والعطش والألم واللذة والشهوة والغضب والاحتياج والميل والحبّ والبغض والعاطفة والابتهاج والحزن والرجاء واليأس، فيحصل له من ذلك نزعات جسدية تقف له صفّاً في مقابلة النزعات العقلية الصالحة، فيرجع الأمر إلى اختياره لحسن التفكير والموازنة، أو اختياره للإقبال على النزعات الجسدية والإعراض عن النظر في وجوه الصالحات.

إذاً فكلّ ما يكون من آثار الجسد وسحته ومن آثار الوجدان، لا أثر له في الأعمال والتروك، إلّا بتمثله أمام تصوّر النفس، كتمثّل الحقائق العقلية الصالحة.

وأما تعليل العمل والترك فهو راجع إلى إرادة النفس، بحسب ما يقف عليه تصوّرها، بحسب اختيارها لإجادة التفكير، أو تقصيرها فيه مع مقدرتها على إجادته وسحق المعائر في سبيله ولو بالتوسّل بمعونة الأسباب والمقدمات التي أشرنا إليها قريباً. فلا توجه للمسؤولية إلّا على النفس التي هي العلة الفاعلة، وأيّ توجه للمسؤولية على الجسد الذي هو جماد لولا ارتباط النفس؟!

إذا وقف الظالم المبطل والمظلوم المحقّ أمام القاضي الذي بيده إجراء قضائه

وتنفيذه، ففضى جوراً وأجرى جور قضائه، فعلى من تكون مسؤولية الجور في القضاء؟ هل تقول بأنها تكون على الظالم الذي لم يصدر منه إلا الوقوف أمام القاضي؟ وهب أن دراهم الظالم لأجل الرشوة وقفت معه أيضاً.

أم تقول أنت وكلّ أحد: إن مسؤولية الجور في القضاء إنما هي على القاضي الجائر المجري لجوره؟

لكننا ذكرنا في صحيفة ٤٨٩ إلى ٤٩٦ بعض وجوه الحكمة في كون المعاد جسمانياً، وكون المسؤولية والعقاب والنعيم تتعلّق بهيكل الإنسان نفسه وبدنه؛ فراجعه.

تعليم القرآن الكريم بما شرحناه في فلسفة الأعمال والتروك ورجوعها إلى

اختيار النفس في التفكير

وذلك كما في قوله - جلّ اسمه - في الآية السابعة والثلاثين إلى الأولى والأربعين من سورة النازعات المكيّة: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.

ما من حقيقة صالحة من فعلٍ أو تركٍ إلا وأرشد الله إليها بكتبه الكريمة وتبليغ أنبيائه الكرام، وأخبر بأنها وسيلة رضاه ورغب إليها ووعد عليها بالجزاء الحميد. وما من أمرٍ فاسدٍ إلا ونبه الله عليه وحذّر من فساد، وأخبر بأنه موجب لسخطه، وزجر عنه بالوعيد بالعذاب الأليم.

وقد أشار الله - جلّ اسمه - في هذه الآيات إلى منشأ أعمال الإنسان من حيث تفكيره واختياره، وإلى وجه الحجّة على المسيء واستحقاقه المسؤولية والعقاب، وإلى وجه مدح المحسن واستحقاقه للكرامة.

فأبان - جلّ اسمه - أن المسيء يعمل السوء بطغيان بجسدّيته الأهوائية، فيختار أن يتبع في تفكيره أهواءه الفاسدة، ويعرض عن النظر بتصوره في وجه الصالحات؛ رغبةً عنها، مع مثلها لتصوره، بل يقبل بوجهة فكره وتصوره على الأعمال السيئة؛ إشاراً لمحض الحياة الدنيا وأميالها الضالّة، ولم يوازن بينها وبين العمل الصالح الذي يجمع له

كرامة الدنيا والآخرة، ولا يختار صرف أمياله بتفكيره إلى الملاذّ المباحة.

كما أبان - جلّ ذكره - أنّ المحسن هو الذي يستعين في تفكيره على منازعة الأميال الجسدِيّة، بالنظر في تصوّره إلى مقام الله ربّه العظيم، مولاه في جميع الأمور، ووليّ أمر الدنيا والآخرة، العليم بكلّ شيء، مهيب السخط، شديد النكال. فيوجه تصوّره إلى خوف مقام الله، ويدحر بذلك أمياله الفاسدة، فيخاف ربّه وينهى نفسه عن هواها، فيستقيم بتفكيره في طريق الهدى والكمال والأعمال الصالحة.

رمزي: قد جاء في القرآن الكريم في الآية الثالثة والخمسين من سورة يوسف مانصّه: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أفلا يدلّ ذلك على أنّ عمل السوء لازم طبيعي للنفس؟ فكيف تكون مختارة فيه؟! وكيف تحمل المسؤولية عنه؟

الشيخ: جاء هذا في القرآن حكاية عن قول النبيّ يوسف، وقد قال باعتبار اتّحاد النفس بالبدن في الأنانيّة، وأنّ شعورها بنواقص الجسد يؤثّر فيها وجداناً شهوانياً أو غضبياً، فتكثر فيه النزعة والميل إلى ذلك.

ولكنّ النبيّ يوسف أشار في كلامه هذا إلى أنّ للنفس أيضاً نزعة عقلية موهوبة لها من رحمة الله، يستهدي بها الإنسان، ويقدر بها على تمحيص فكره وتعديل أمياله. تلك النزعة الراقية بنشأتها الكريمة من خلق الله برحمته للنفس، عقلية تقدر أن تسير بها وتشرف على الحقائق والموازنة في الفكر، فتتباعد عن السوء وتختار الخير، فقد قال النبيّ يوسف: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾.

من المغالطات في المعاد

عمانويل: يا رمزي، قد بقيت في مصادر كلامك كلمات تُنادي ببواعثها ولا تستترّ بمرامها، قد تجاوزت عن حدّ البحث إلى فلتات الاستهزاء بالإلهية والأديان ﴿أَلَلَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^١ تلك الكلمات التي يتحاشى الغرب عن

التجاهر بها، فنقلها التجوز وألقى مسؤوليتها على عاتق الشرق، فلماذا لم تذكر شيئاً منها؟
رمزي: إن الشرف وحرمة الأديان وأهلها يابيان أن أذكرها بما فيها، فكيف أذكرها
وأنا متدين؟!

عمانوئيل: من الممكن أن تجرّدها من خلاف الأدب، وتوردها أسئلة بسيطة
افتراضية، لكي يعرف ما فيها.

رمزي: قد افترضوا أن النفس تقول: يا إلهي إتني لادخل لي فيما عمله هذا
الجسد الخاطيء.

أليعازر: ما كلّ نفس تقول ذلك، إلا نفس أثيمة اختارت رذيلة الكذب، هل الجسد
بلا نفس إلا كسائر الجمادات لا حس له ولا شعور ولا وجدان، ولا إدراك ولا ميل، ولا
إرادة ولا حركة ولا عمل؟

انظر إلى حال الجسد الذي فارقته النفس، فهل ترى فيه من ذلك شيئاً؟
يا أيتها النفس الخاطئة، إن الله أنعم عليك بأن هيأك للكرامة الكبرى بالاستحقاق،
وللتنعم بالملاذ الحسية والعقلية. ولأجل ذلك جعلك متّحدة بالجسد، ووحدكما
بالأناثية، وسخر الجسد بذلك لإرادتك. منك الميل، ومنك الاختيار، ومنك الإرادة،
ومنك تحريك الجسد، ومنك الأعمال.

جعل الله لك إدراكاً تميّز به الصالح من الفاسد، وأيدك بالقوة العقلية والتعاليم
الصالحة وتتابع العبر والمواعظ، وجعل لك عن كلّ عمل فاسد سلوة وشاغلاً بالأعمال
المباحة، لا يغيب عن شعورك ما يحصل لك عاجلاً في المجتمع الإنساني بسبب
الأعمال الصالحة من لذة الرفعة والمحبوّية والقدر، يكون لك هذا المقام المحمود حتّى
عند الفسدة والأعداء.

كما لا يغيب عن شعورك ما يلزمك في العاجل أيضاً بسبب الأعمال الفاسدة، من
رذيلة النقص والانتقاص والضعفة والنفرة حتّى عند أهلك وقومك.

ألا ترى مجد الأبرار الصالحين ومهانة الأشرار عند الناس، ومع هذا كلّه تختارين
الشرّ وتسخرين الجسد في أعماله بإرادتك. ومن قبائحك أنك تبتريين من أعمالك،

وتنسبها إلى الجسد المسخّر لإرادتك إفكاً وزوراً.
رمزي: وافترضوا أنّ النفس تقول: يا إلهي ألسْتُ أنا نَسَمَتَكَ الطاهرة التي نفختها في
هذا الهيكل الدنس؟

أليعازر: يا للعجب من هذا الافتراض السخيف، النفس مخلوقة من مخلوقات الله،
والجسد مخلوق من مخلوقات الله، فهما من حيث الذات والمخلوقيّة سواء. ولكنّ
النفس خُلقت مستعدّة لنيل الكمال والرفعة بالاختيار؛ لتنال بذلك النعيم وأكبر الملاذ.
ولكن منها ما يختار الانحطاط إلى حضيض التدنّس والرذيلة، ومن ذلك استعلاؤها
الكاذب بدعوى الطهارة، وبهتانها على الجسد بنسبة الدنس له.

من المغالطات الكاذبة

رمزي: وافترضوا أنّ النفس تقول: إلهي، ألم تجعلني على صورتك ومثالك؟ فما
ذنبِي حتّى أُؤخذ بجريرة هذا الجسد الفاسد؟
أليعازر: قبحاً لضلال هذه النفس الأثيمة التي تقول هذا، ما أشنع كبرياءها وجرأتها،
من أين لها أنّ الله جعلها على صورته ومثاله؟ من أين جاءت بهذا الزور؟ كيف تكون لله
صورة؟ تعالى الله عمّا يصفون.

هذا العهد القديم ينزّه الله - جلّ شأنه - عن المثل والمثال والصورة، ففي الفصل
الرابع من التثنية في مقام النهي عن التماثيل الأوثانيّة تُبين التوراة في العدد الخامس
عشر أنّه لا صورة لله، ولم يروا صورة لكي يفتروا بالتمثيل الأوثاني.
وفي العدد الثامن عشر من الفصل الأربعين من إشعياء في مقام الإنكار: «فيمن
تشبهون؟ وأيّ شبه تعادلون به؟».

وفي العدد الخامس والعشرين: «فيمن تشبهوني فأساويه؟ يقول القدّوس».
وفي العدد الخامس من الفصل السادس والأربعين: «لمن تشبهوني وتساوا
وتمثلونني ونتشابه».

والقرآن يقول في الآية الحادية عشرة من سورة الشورى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

عمانوئيل: يا والذي، يوجد في العهدين شيء يتشبّه ببعض الناس بموهومه، فقد جاء في الفصل الأوّل من سفر التكوين: «فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه»^١.

وفي أوّل الفصل الخامس: «يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله».

وفي الفصل التاسع: «لأنّ الله على صورته عمل الإنسان»^٢.

وفي الفصل الحادي عشر من كورنثوس الأوّل: «فإنّ الرجل لا ينبغي أن يغطّي رأسه لكونه صورة الله ومجده»^٣.

وفي الفصل الثالث من كولوسي: «خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله وليستم الجديد الذي يتجدّد للمعرفة حسب صورة خالقه»^٤.

وفي الفصل الثالث من رسالة يعقوب: «به نبارك الله الأب وبه نلعن الناس الذين تكوّنوا على شبه الله»^٥.

أليعازر: اسمعا يا رمزي ويا عمانوئيل، إنّ تقدّس الله عن المثال والصورة هو الحقيقة الساطعة في أوّل صفّ المعارف الإلهية، وهذه الحقيقة هي الميزان لاستقامة العهدين وغيرهما، فكيف نقبل من العهدين الرائجين أو غيرهما أوهام القول بأنّ لله صورةً ومثلاً؟! ألم يعض في درسنا في الجزء الأوّل ما يعرفنا حال العهدين؟ وهذا أيضاً ممّا يزيد في معرفتنا لحالهما.

وأيضاً إن كانت هذه النفس الأنيمة تشبّهت بشهادة العهدين، فإنّ العهدين لا يشهدان لها، بل يؤخذ من كلامهما المتقدّم أنّ الذي هو على صورة الله هو الهيكل الإنساني والرجل لا النفس. فهل تريد هذه النفس أن تستهزئ بالأديان بواسطة العهدين؟ وما أقبح ظلم النفس الأنيمة؟! هي التي تُريد الفساد، وتسخرّ الجسد لإرادتها في أعمالها الفاسدة، ومع ذلك تتركّي وتصف الجسد بالفساد ظلماً وزوراً.

١. في العدد ٢٧.

٢. في العدد ٦.

٣. في العدد ٧.

٤. في العدد ٩.

٥. في العدد ٩.

رمزي: وافترضوا أن الإنسان يقول: إلهي إني لست سوى خليفة مخلوقة، وإذا كانت طبيعتي فاسدة فذلك لم يكن باختيارى ولا عمل يدي. خُلقت ميثالاً للذنوب فأذنبت، وإلى ارتكاب الشرور فارتكبتُ ووو. نعم، جعلت لي عقلاً لأُميّز به النافع والضارّ والخير والشرّ، ينير لي ظلمات الحياة ويهديني إلى الصراط المستقيم، لكن ما حيلتي إذا خُلقت وإرادتي ضعيفة لا طاقة لها على مقاومة التجارب.

أليعازر: هل يخفى أن الإنسان الأثيم والإنسان الصالح لا يختلفان من حيث الطبيعة البشرية؟ ويوضح ذلك ما ذكره عمانوئيل والشيخ من الصحيفة ٥١٠ إلى هنا، فكيف يقال: «إنّ طبيعة الإنسان فاسدة، ولم يكن ذلك باختياره ولا عمل يده»؟
ألسنا نعرف كثيراً من نوع الإنسان من يختار فضيلة الصلاح، ويرتقى باختياره إلى الدرجات الرفيعة؟

ألسنا نعرف كثيراً من الناس نشؤوا على الصلاح وقضوا أيامهم عليه؟
ألسنا نشاهد الأثيم من الناس إذا أحسن تفكيره أقلع عن أمياله، واختار ما هو الصالح المعقول؟

نرى كثيراً من نوع الإنسان في زمان واحد يخلط في أعماله بين الفاسد والصالح حسبما يختار من تحسين الفكر والتساهل فيه، ونرى الكثير منهم من إذا اختار أن يحلّ بين الصالحين للقدوة بهم، رغّب في الأعمال الصالحة ونشط لها، وأقلع عن الأعمال السيئة واشمأزّ منها. وإذا حلّ بين الفساق هوى في اختيار الفسوق وابتعد عن اختيار الصلاح. كم من إنسان فاسد الأعمال يلفته إلى الصلاح يسير من الموعظة والتنبيه، وكم من إنسان قضى كثيراً من عمره على الفسوق والفساد ثمّ اهتدى إلى خير حالٍ في الصلاح والأعمال الصالحة.

ضعف الإرادة وقوتها

من الأغلاط الكبيرة أن يقال: «إنّ الإنسان خُلِق وإرادته ضعيفة». لم تُخلق إرادة الإنسان حين خلقه، وإنما تتكوّن الإرادات على طول حياة الإنسان متدرّجة بحسب

الدواعي المتجدّدة ونتائج التفكير. خُلِق الإنسان قادراً على التفكير، مختاراً في توجيهه وتعديله ولو بالوسائل العمليّة الاختيارية.

وبحسب وجوه التفكير قد تكون له إرادة قويّة لاتزعزع، سواء كانت في الخير أو الشرّ. وقد تكون له إرادة ضعيفة، قد ينصرف عنها حتّى بعد إعمال شطر من مقدّمات الشيء الذي يُريده، سواء كانت أيضاً في الخير أو الشرّ. وقد تكون له إرادات متوسّطة مختلفة في مراتب القوّة والضعف، تحتاج في الانصراف عنها إلى ما يرجّح على دواعيها في التفكير.

ترى الإنسان الواحد في نوع العمل يكون في زمان قويّ الإرادة فيه، ويكون في الزمان الآخر ضعيف الإرادة أو متوسّطها، كلّ ذلك بحسب أحوال التفكير واختيار التساهل فيه أو عدم التساهل والإقبال بالتصوّر أو الإعراض.

مقاومة التجاريب والإغواء

ومن الأغلاط الكبيرة أن يقال: «إنّ الإنسان خُلِق لا طاقة له على مقاومة التجاريب، أي الإغواءات» كم ترى من الناس من يُقاوم التجاريب والإغواء ويطردها خاسئاً. كم ترى من الفسّاق من تحدق به التجاريب وأسباب الغواية القويّة في كثير من الأحوال، فيقاومها بأمر يقبل عليها بتصوّره ووجهة تفكيره، وهي طفيفة بالنسبة إلى غيرها، يسمع فلان، أخجل من فلان، أراعي جانب فلان، معشوقتي تغار من ذلك، تعرض عني، امرأتي تتكذّر، تغضب عليّ، احتشم فلان، التاجر الفلاني لا يأتمني، الحاكم لا يستخدمني، هذا العمل يخلّ بمقصدي الفلاني، ونحو ذلك.

وكم ترى هذا الإنسان ينقاد للضعيف من التجاريب ولا يقاومها بأقوى الروادع، ولا تجد السبب في ذلك إلّا أنّه يوجّه تصوّره تارةً إلى الروادع فيرغم التجاريب مهما كانت من القوّة، أو يوجّه تصوّره إلى تسويلات التجاريب ويعرض عن الروادع ويغالط فيها فيسقطها عن التأثير.

كثيراً ما ترى الإنسان الواحد يقاوم التجاريب في الغواية بنوع من الروادع، وينقاد

لتلك التجاريب وما دونها في مقام آخر على رغم ذلك النوع من الروادع، وعلى رغم ما هو أقوى منه. لا تجد ميزاناً في ذلك إلا حالة تفكير الإنسان وإقباله بتصوره، أو إعراضه وتغاضيه بحسب اختياره.

الشيخ: نعم، ربما ينبعث الإنسان من المداومة على العمل القبيح ومتابعة نفسانيته الأهوائية، والإعراض عن هدى عقله وإرشاد المرشدين، ويحصل له من ذلك نوع إلفة وانهماك بالأعمال الرديئة وانغزال عن عادة الصلاح، فيتوهم حينئذٍ أنه يعسر عليه أن يتوب من أعماله الرديئة ويتزَيّن بالصلاح.

ولكنه توهم فاسد، فإنه متى قابل ما ذكر من الإلفة والانهماك، وعارضه بحسن النظر والتفكير في قبح تلك الأعمال وقبح عاقبتها، وأحسن الإقبال بفكره على ذلك، فإن تلك الإلفة وذلك الانهماك يضحلان ويبطل أثرهما.

بل تزداد قوته على المعارضة إذا داوم على تفكيره في قبح الأعمال وعلى إرادة ترك القبيح، فإنه يسهل عليه الأمر جداً، كما هو واضح للمشاهدات والوجدان، وأن المداومة تؤثر حتى في الطبيعيات وتحدث في أعضاء الجسم قوة.

ترى الإنسان إذا تعلقت إرادته بالركض الشديد فاشتد ركضه، فإنه لا يقدر حينئذٍ - بحسب طبيعته الجسم - على الوقوف بأول فكرة فيه وأول إرادة له؛ وذلك لما يحصل له من قوة الحركة، وهي الحالة التي تسمى عطلة الحركة ولكنه إذا أقبل على تفكيره في الوقوف وإرادته له، فإنه يأخذ بتخفيف الركض إلى أن تزول تلك العطلة فيقف.

على أن إلفة العمل القبيح ليست طبيعته، مثل عطلة الحركة التي تسلب الأعضاء والعضلات قدرتها على ضد الحركة ما دامت العطلة. ألا ترى أن أشد الناس انهماكاً بالأعمال الفاسدة وإلفاً لها، يجعل إلفته وانهماكه بها تحت قدمه دفعة واحدة، إذا حصل له بعض الدواعي التي يعم فيها بالتفكير، وذلك مثل حكم معشوقته، أو حضور من يحتشمه أو يخاف منه أو يرحوه، أو غير ذلك كما ذكر قريباً. ولكن يا للأسف، إن فكرة الصلاح والكمال يتساهل فيها.

مخادعات الأهواء

عمانوئيل: ما أدري ما هذه التشكيكات في أمر المعاد والحساب؟ وما هي إلا من مغالطات الأهواء للفكر، وكثيراً ما يغالط المتمرد والمتهور بهواه في الأخطار، فيدعي أنه آمن وليس وراءه خطر، بل ربما يغالط عقله بذلك، ومن نحو ذلك ما ينقل عن ابيقورس من قوله:

إنّ راحة البال التي تقوم بها سعادة الإنسان هي في اضطراب دائم، من جري الريب الواقع من نسبة الإنسان إلى الخليفة وإلى الله.

يا للعجب، ما هي سعادة الإنسان التي تقوم براحة البال المضطربة من الله؟! هل هي سعادة الأخلاق الفاضلة والعلم والأعمال الصالحة، والمعارف المستقيمة، والعدل والاستقامة وترك الفساد، والتنزّه عن الأعمال الشريرة؟

يا للعجب، كيف تضطرب راحة البال في هذه السعادة من الله؟! بل إنّ صاحبها وباله وأمله في ابتهاج عظيم ببشرى سعادة أكبر منها عند الله، وببشرى قبول وكرامة وفضل عند الناس.

أم يزعم ويُراد من سعادة الإنسان تقلّبه في رجاسات الدعارة والفساد والشهوانية والخلاعة وردالة الأخلاق؟ هذه الرذائل التي ينبغي لصاحبها أن يكون دائم الاضطراب من الله، ومن الناس إن كان له عقل وحياء.

فهب أنّ هذا الزاعم يأمل أن تقام له حفلة التبريك بهذه السعادة التي يستهزئ بها الشعور، ولكن كيف يرتفع الاضطراب بمغالطة الجحود لله لأجل تأمين هذه التي يسمّيها سعادة؟

ولياسف هذا المغالط، فإنّ راحة باله التي تقوم بها سعادة أهوائه لاتزال مهذّدة بالسياسة وتأديبها، حتّى السياسة الاشتراكية فإنّها تُهدّد راحة باله في سعاده بدعارته وأهوائه التي يسلب بها حرّية غيره.

أليعازر: هؤلاء الذين يغالطون وتغالطهم أهواؤهم بجحود الله ويوم القيامة، مثلهم

كمثل مديون ضايقه الدائن بالمطالبة، فجلس في بيته مفكراً مهموماً لا يكلم امرأته ولا أولاده، ثم رفع رأسه مبتهجاً فقالت له: ماذا صنعتَ في أمر الدين والدائن؟ فقال: قد وجدت لي من ذلك مخرجاً حسناً، أجدد على الدائن ثلث الدين وأدعي عليه أُنِّي وفيته مقدار ثلث، وحينئذٍ لا بُدَّ أن يستحي ويسامحني من الباقي إذا طلبتُ منه المسامحة. هذا الرجل يريد أن يرجع إلى إسرافه وتمردّه على الدائن وعلى شرف الذمّة، فصارت أهواؤه تسخر به وتبعثه على أن يتصامم عن توبيخ عقله، ويغالط بهذه المغالطة التي لا يستهزئ فيها إلا بنفسه.

ومن العجب أن بعض من ينتسب إلى بعض الأديان لا يرضى أن يقال: إنّه مادّي، ومع ذلك يحتج لأهوائه ومضادّة الأديان بهذه الشبهات الواهية، وكأنّه لا يدري أنّ هذه الأحوال تنادي بأنّه مادّي ومنافق ومخدوع مخادع.

العقاب في المعاد

الشيخ: قد تقدّم^١ مكرراً أنّ الحكمة والنعمة اقتضتا أن يُخلق الإنسان مختاراً في أفعاله وإرادته؛ لكي يبتهج بذلك وبكمال الاختياري، وينال سعادة الجزاء بابتهاج الاستحقاق والكرامة ومجد الأهلية والفضيلة، فجعل الله له برحمته ولطفه قدرةً واختياراً لأجل صلاحه الاختياري، وبعثه على الكمال والسعي إلى كرامة الفضيلة ومجد الجزاء بالاستحقاق، ووهبه عقلاً يهديه ببديهاته إلى ما يُصلحه في شؤون شخصه ونوعه.

وأيد ذلك بنعمة إرسال الرسل وإرشاد الأنبياء والأئمّة والصالحين، وأكمل ذلك وأتمّ النعمة بزواج الوعيد بالعقاب الأخروي المجهول لغاية إصلاح الإنسان بالتهديد به، وتحذير الإنسان من وبال الإثم الذي يرذله ويجعله من الساقطين المستحقين لذلك العقاب. ولأجل تحقيق التهديد والتحذير وغايتها الحميدة في إصلاح الشخص وتكميله وصلاح النوع والاجتماع، جعل الله العقاب حتمياً في الجملة، وأنذر بذلك وأكد الإنذار؛

لكيلا تغالطنا أهواؤنا، فتسقط غاية التحذير والتهديد.

وإن شئت الاعتبار لذلك لكي تدعن بحكمته ونعمة إصلاحه، فانظر إلى الحكومات المعنوية بإصلاح المملكة وتكميل أفراد الرعيّة، كيف تجعل قوانين العقاب، وتجعل لكلّ جرم عقاباً وتذيراً بذلك. وبحسب استطاعتها لاتجعل لأهواء الرعيّة مجالاً للمغالطة بتأمين المجرم من عقابه الذي يستحقّه لثلاً يستفحل التمرد.

وإنّ الحكومات يلزمها تعجيل العقاب؛ حذراً من أن يفوتها إجراؤه، فتمحى صورة العقاب من المملكة، ويبطل التهديد وفائدته في مهمّة الإصلاح وتكميل الرعيّة.

لكنّ الله الإله القادر الذي لا يفوته شيء، قد أجّل العقاب نوعاً إلى الآخرة؛ إمهالاً لعباده لأجل استصلاحهم بالتوبة التي دعى إليها ورعّب فيها ووعد التائب بالغفران والرحمة والجزاء، ولأجل أن يعطيهم مجالاً للتوبة والرجوع إلى الصلاح والاستقامة في سيرهم في نهج الكمال.

ألا وإنّ الاعتبار الصحيح والنظر الحرّ والفهم المستقيم المنزه، تُعرّف الإنسان أنّ العقاب والتهديد به وتأجيله نوعاً والإمهال لأجل إصلاح التوبة، قد أحاطت بها الحكمة والنعمة في إصلاح الإنسان وتكميله باختياره من جميع الجهات.

ولأجل أنّ نظام المدنيّة وصلاح الاجتماع وقطع انتشار الغواية والفساد تحتاج إلى نوع من التأديب المعجّل، شرّع الله في شريعته المدنيّة الإصلاحيّة نوعاً من العقاب التأديبي، وقرنه بجهات من الحكمة من حيث التوبة والعفو. لكنّ الإنسان الأثيم تُغالطه أهواؤه للتمرد في فساده بالشبهات التي لا يخفى فساده، كما ضرب أليعازر لذلك المثل المطابق.

في المعاد

عمانوثيل: ربما يسأل السائل ويقول: إنّ الإنسان يذنب وهو صغير الجسم أو نحيفه، ثمّ يكبر ويسمن ويموت، فهل ينال العقاب هذا الزائد؟ بل إنّ بدن الإنسان لا يزال في نموّ وتحليل حتّى أنّه يمكن أن يقال: إنّ بدنه بواسطة التحليل والنموّ الدائم قد يتبدّل في

حياته مراراً، فأَيّ هذه يعود؟ وأَيّ هذه يعذب وينعم؟
 الشيخ: يولد لك الولد طفلاً صغيراً، ثم يكبر وتتبادل هيئاته وصفاته ومقاديره،
 ويتغير بتلك التغيرات التي يعسر إحصاؤها من حال طفوليته إلى زمان شيخوخته.
 وأنت تقول أيضاً: إن بدنه بواسطة النمو والتحليل يتبدل مراراً كثيرة، فهل تقول يا
 عمانوئيل: إن الذي هو ولدك حينما ولد قد تغير وتبدل مراراً؟ فمن هو ولدك إذاً من
 هذه الموجودات المتبادلة؟

عمانوئيل: للإنسان أناتية جسمانية مستقرة لا تتبدل، وذلك لأنها تقوم بأجزاء
 أصلية لا تتبدل، بل هي ثابتة من أول نشئه إلى آخر عمره. فكل زيادة بالنمو إنما هي
 إضافة محسنة وخادمة لها، والذي يذهب بالتحليل إنما هي الأجزاء التي تنضاف إليه
 بالنمو. فهذه الأجزاء التي تنضاف بالنمو وتذهب بالتحليل لا مداخلة لها في الحقيقة
 بالأناتية الإنسانية الجسمانية، بل هي كأليف يتحد بالإنسان زماناً ويفارقه، إن الإنسان
 إذا سمن جداً ثم هزل جداً لا يقول: نقصت ذاتي وأناتيتي الجسمانية.

ومما يستأنس به لهذا البيان: إن بعض الأجزاء إذا قطعت من الإنسان لا تعود بالنمو،
 وهذه هي التي يستعملها الأطباء بالأجزاء المنوية، فيستدل من ذلك أن النمو والتحليل لا
 مداخلة لهما في ذات الأجزاء الأصلية التي تقوم بها أناتية الإنسان الجسمانية.

الشيخ: إذا فالذي يقوم به المعاد الجسماني هي تلك الأجزاء التي تقوم بها أناتية
 الإنسان، والثابتة من أول نشئه إلى آخر عمره، لا تزول بالتحليل، ولم يكن نشؤها من
 النمو بواسطة الغذاء، وهي محفوظة لأناتية صاحبها حينما ذهبت.

هذه يجمعها الله في المعاد من أين ما كانت ﴿يُخَيِّبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ
 خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^١ فيعود الإنسان بما قامت به أناتيته الجسمانية في الحياة الدنيا، تلك
 الأجزاء التي إن أكل الإنسان شيئاً لا تزيد بذاتها، وإن أكله غيره لا تكون جزءاً أصلياً
 تقوم به أناتية الآكل.

في المعراج وصعود البشر إلى السماء

رمزي: بقي شيء أريد أفهمه، فإنّ جملة من أهل الأديان يقولون بصعود البشر إلى السماء، وجملة من الأديان تصرّح بذلك. فما هو العهد القديم يصرّح بصعود إيليا إلى السماء، كما في العدد الحادي عشر من الفصل الثاني من سفر الملوك الثاني.

وها هي الأنجيل تصرّح بصعود المسيح إلى السماء، كما في العدد التاسع عشر من الفصل السادس عشر من إنجيل مرقس.

والعدد الحادي والخمسين من الفصل الرابع والعشرين من إنجيل لوقا، ومثلها العدد التاسع والحادي عشر من الفصل الأوّل من أعمال الرسل.

وها هو القرآن يُشير إلى ما يقوله المسلمون في معراج رسول الله إلى السماء كما في سورة النجم^١، كما تواترت به أحاديثهم واعتقدوه.

أفلا يعترض الشكّ في ذلك؟ هذا الجسم البشري الأرضي كيف يصعد إلى السماء؟ أليس ذلك الصعود من الممتنع؟

الشيخ: إنك لترى المادّيين لا يقولون بامتناع ذلك في الطبيعة، ويرجون أن يكشف العلم في المستقبل عمّا يسهّل صعوباته ويرفع من طريقه الأخطار.

إذاً فكيف يمتنع ذلك على قدرة الإله، خالق الإنسان والأرض والسموات وأسرارها الغامضة وطبيعتها المحجوبة، والتي لا يزال العلم يكشف منها ما كان للناس ضجّة فارغة بدعوى امتناعه؟!

إذاً فكيف يمتنع على الله القادر إصعاد البشر إلى السماء؟! قد صعد الإنسان في المنطاد ثمانية وثلاثين ألفاً من الأقدام الإنكليزية، بحيث صار أعلى من جميع جبال الدنيا بألوف من الأقدام، أفلا يقدر الله أن يرفع عنه الصعوبات فيما فوق ذلك ويهيئ له ما يُناسب طبيعيات جسمه؟

رمزي: إنَّ بعض المسلمين - وهم الشيخيَّة أتباع الشيخ أحمد الأحساني - ينكرون المعراج بالنحو الذي يقول به غيرهم من المسلمين، لأنَّ الشيخ أحمد المذكور يقول في شرح الرسالة القطيفية:

إنَّ رسول الله ﷺ لَمَّا عرج إلى السماء تحلَّل جسمه الشريف قبل الوصول إلى فلك القمر، وألقى كلَّ عنصرٍ من عناصره الأربعة في كرته، عنصر التراب في كرة الأرض، وعنصر الماء في كرة الماء، وعنصر الهواء في كرة الهواء، وعنصر النار في كرة النار. ولَمَّا رجع من العروج أخذ ممَّا تحت فلك القمر عناصر جسمه، أخذ كلَّ عنصر من كرته، فعادله جسمه الشريف.

فهذا الشيخ الأحساني يذكر معراجاً غير ما يذكره المسلمون، ويشير إلى امتناع ما يذكره المسلمون.

عمانوييل: لا يخفى أنَّ هذا الحلم والخيالات في الدين لا منشأ لها إلاَّ بخارات التُّخمة والامتلاء من تقليد الفلسفة القديمة في فلكياتها، بلا تأمُّل في أطراف تلك الفلسفة، حلم وخيالات لم تعدمها يقظة الدين ويقظة الاعتبار ويقظة العلم.

لماذا لا يلتفت المقلِّدون لذلك؟! إنَّ أصحاب تلك الفلسفة يقولون: إنَّ الإنسان والحيوان على الأرض وفي أعماق البحار فيه جزء من النار وجزء من الهواء، وإنَّ كثيراً من النار ما يصير في بطن الأرض ويتخلَّل في طبقاتها، فكيف غادرت النار كرتها العالية وعبرت الهواء وكرة الماء، وصارت تتجول في كرة التراب؟

يا أيُّها المتفلسف، إنَّ الإله القادر الذي ربَّك المخلوق من العناصر، وألجأ العنصر في هذه الأمثلة إلى مفارقة كرته، وحفظ تركيب المركَّب في الأرض وفي كرة الهواء، لماذا لا يمكن أن يحفظ تركيب المركَّب بقدرته فيما فوق كرة النار وفوق السماء؟!

ويقول لك المادِّي الطبيعي: هب أنك تغافلت عن قدرة الإله الذي تعترف به، أو فعالية العقل الفعال كما ترعمون، ولكن لماذا لا تدلِّك أعمال الطبيعة في الأمثلة المذكورة على أنَّ فعالية الطبيعة وتأثيراتها يمكن لها أن تتجاوز بالمركَّبات إلى أيِّ محلٍّ يكون؟

رمزي: من أقوال الفلسفة القديمة: إنَّ العالم منضدٌ من أكر وأفلاك كطبقات البصل، يمسّ محدب السافل مقعر العالي، وهكذا حتّى تنتهي الحدود والجهات في ملكوت الله بمحدب ما سمّوه: فلك الأفلاك، والمدير، والأطلس، ومحدّد الجهات.

ومن أقوالها: أنّه يمتنع الخرق والالتئام في الأفلاك بحسب طبيعها، ولأنّ الخرق يستلزم اتّساع المنخرق في الجهة، وذلك يستلزم اتّساع ما فوقه، وهكذا إلى أن يستلزم اتّساع محدّد الجهات. لكن محدّد الجهات يمتنع اتّساعه في الجهة؛ لأنّه لا جهة فيما فوقه، إذاً فيمتنع الخرق؛ لأنّه يستلزم أمراً ممتنعاً مستحيلًا، وكلّ ما يستلزم الممتنع المستحيل هو ممتنع مستحيل، إذاً فيمتنع صعود البشر بجسمه البشري إلى السماء، وقد ذكر التشبّث بامتناع الخرق والالتئام في شرح الرسالة القطيفية.

عمانوئيل: يا عجباً!! لو تساهلنا مع الهيئة القديمة والمفرورين بها في وضع الأفلاك وتحديد الجهات، لقلنا لهم: لماذا لا يكون جرم الفلك ممّا يقبل الانضغاط والتمدّد والمرونة، فينضغط عند الانخراق ويرجع بالمرونة والتمدّد عند الالتئام، وقد دلّت التجارب على أنّ أكثر الأجسام - ومنها الماء والهواء وجملة من المعادن - تقبل الانضغاط والتمدّد.

من ذا الذي أعلمهم أنّ الفلك ليس كذلك؟! فقالوا: يمتنع ويستحيل. دع ذلك، لكن من أين علموا أنّ الجهات تنتهي بمحدب الفلك الأطلس؟ من ذا الذي استعلم الجهات والفضاء الذي يكون ظرفاً للكائنات وأخذ المساحة شبراً شبراً فوجد الجهات تنتهي بما يفترضونه ويسمّونه: «الفلك الأطلس» ومحدّد الجهات؟ أليس الله الذي خلق العالم قادراً على أن يتصرّف بأفلاك الهيئة القديمة ما يشاء؟!!

إنّ المدقّقين من أصحاب الهيئة يعترفون بأنّ أفلاكهم ووضعها المذكور إنّما هي افتراضية؛ لأنّه لمّا رأى أهل الفنّ لبعض الكواكب سيراً منظوماً وحركات متناسقة في أدوارها، أرادوا أن يفترضوا لها وضعاً مناسباً لها ينظّمون به مسائل الفنّ، فصاروا يفترضون أوضاعاً بمناسبة الحركات حسبما يصل إليه استعدادهم بالافتراض،

ويعترفون بأنه يجوز أن يكون الوضع الحقيقي هو غير ما يفترضونه.
ولكن هلمّ العجب من الإلهي المتدين، إذ يراغم دينه بالتقليد لموهومات الهيئة القديمة المنتقضة في افتراضاتها من أطرافها.
وأعجب من ذلك أنه يبني معارف دينه وأصوله على افتراضاتها الموهومة الموهونة، فيقول بافتراض العقول العشر بمناسبة الأفلاك التسع الذي افترضها وحصر العالم وقدرة الله بها، ويتصرّف في جملة من أصول دينه؛ بناءً على افتراضات الهيئة القديمة الموهومة بلا هدى ولا كتاب منير ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^١.

الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى

الشيخ: والقرآن الكريم ذكر هذه الحقيقة، وذكر حجتها التي ترغم مغالطات الجاحدين، فقال في أول سورة الإسراء: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ فنسب الإسراء بالنبي إلى الله، قطعاً لمن يغالط ببعد المسافة بين المسجدين، فأشار إلى أن قدرة الله لا يمتنع عليها مثل ذلك.

هذا احتجاج على من يتشبّه بالطبيعيّات الموهومة قبل أن تعرف الطيّارات التي يسير بها الإنسان هذه المسافة في سويعات، فما ظنك إذا شاء ذلك خالق العالم والطبيعيّات والعاديّات؟!

وهذا الاحتجاج المشار إليه يشير أيضاً إلى الاحتجاج على إمكان المعراج بقدرة الله، فمن الغلط أن تأوّل هذه الأمور على مقتضى الأوهام، أو يجحد وقوعها لأجل امتناعها على قدرة البشر عادةً، أو لأجل الشكّ في صدق الإخبار بها، فماذا عسى أن تفعل إذا ثبتت نبوة المخبر بها على وجه لا يمتنع على قدرة الله الذي يجريها تكريماً لأنبيائه على خلاف العادة المألوفة؟!

في الحجّ في دين الإسلام

رمزي: قد يعترض المعترض على الحجّ في دين الإسلام؛ لما يرى فيه من المشقّات وصرف الأموال الكثيرة، ولما يرى فيه من الأحوال الغريبة، وتقييد الإنسان بقيود الإحرام، ومنعه عن كثير من الملاذّ، وتكليفه بأعمال تخلّ بشرفه ككشف رأسه، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والهرولة في السعي. فما هو الوجه في هذه الأعمال؟ بل يقال في أوّل السؤال: ما وجه تخصيص مكّة وما يتبعها والكعبة بالحجّ وفرضه وهذه الأعمال؟

مكة وتاريخها وحجّة القرآن له

الشيخ: أمّا السؤال عن تخصيص مكّة والكعبة بالحجّ؛ فلأنّ الكعبة أوّل بيت وضع بعد الطوفان لعبادة الله والإخلاص بتوحيده، حينما كانت الأرض قد استولت عليها العبادة الأوثانيّة والشرك، فكانت الكعبة باكورة مشاعر التوحيد وعبادة الله الخالصة. وقد بناه أوّل ناهض في دعوة التوحيد ومعارضة الشرك والوثنيّة، وهو إبراهيم خليل الله، ومعه ولده إسماعيل مبارك الله. فكانت الكعبة هو المكان الجدير بأن يبقى تذكاره في عبادة الله وتعظيم شعائره مدى الأيّام.

والقرآن الكريم يُشير إلى هذا الوجه في قوله تعالى في الآيتين السادسة والتسعين والسابعة والتسعين من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ ليكون لهم مشعراً عامّاً لعبادة الله والإخلاص في توحيده ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ اسم مكّة، وقد أكّد الله الإخبار بأوّلّيته علماً منه بما يقع من حسد الحاسدين وجحود الجاحدين.

﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ إذ يتوجّهون إلى عبادة الله وتوحيده، واتباع رسله دعاة الهدى والتوحيد. لا يختصّ بقوم دون قوم ولا بعصر دون عصر، بل هو للعالمين.

﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ تهدي إلى كرامته بكرامة بانيه، وغاية بنائه، وحفظ تاريخه، وشرف انتسابه ومبادئه. فقد كثرت بتعدّدها القرون بنحو خمسة وعشرين قرناً،

واختلفت بتداولها الأيدي، وتقلّبت بشؤونها الأحوال، وتشعبت بنحلها الأديان، وتوقّرت دواعي الحسد لإسماعيل ومجده، واستفحل ضلال الوثنيّة وغواية الأصنام في محو آثار الرسالة ودين رسل الله والتوحيد.

ومع هذا كلّه بقي تذكّار إبراهيم رسول الله ومجد إسماعيل ومشعر التوحيد وتاريخ بناء البيت، تذكّاراً خالداً في كلّ زمان وقرن بين ملايين من البشر، متسلسل التاريخ المجيد بين الأمم يداً بيد ونسلأ بعد نسل.

لم يخف أنوار تاريخه المسلسل غبار الجحود من الإسرائيليين، ولا قوميّة القحطانيين، ولا أهواء الوثنيين، ولا جبروت الأمم، ولا سطوة الحبشة؛ بل كان في القرون والأجيال في جزيرة العرب علّم، رغم مرور الدهور واختلاف البواعث والنزعات وتداول الأيدي.

ودام في خصوصيّات مجده ناراً على علم، محفوظاً بمجد النسبة إلى إبراهيم وإسماعيل، وشعار الجلال والاحترام، وشرف المنسكيّة والمشعريّة والمسجديّة العامّة. وتلك آيات بيّنات من عناية الله بهذا البيت، وحفظه لمجد تاريخه وشرفه بأحسن ما يحفظ به التاريخ.

ويمثّل تلك الآيات «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» وهو صخرة كان يقف عليها إبراهيم لبناء البيت^١، وعليها أثر قدميه غائصاً في تلك الصخرة الصمّاء إلى الكعبين، وفي ذلك يقول أبو طالب في لاميته المشهورة:

وموطئُ إبراهيم في الصخرِ رطباً على قَدَميه حافياً غيرِ ناعِلٍ^٢

فإنّ غوص قدميه في الصخرة آية، وبقاء الصخرة والأثر على مرور الأحقاب على رغم المشركين والملحدين آية. وكذا بأنّه حفظ فيه اسم إبراهيم، وقيامه بنفسه الكريمة في بناء البيت بأتقن تاريخ، يراغم مرور القرون بظهور مجده وخصوصيّات شرفه.

١. كان المقام عند حائط الكعبة إلى ما بعد حياة النبي ﷺ بسنين على أصح الروايات، ثم نُقل إلى محلّه المعروف في هذه الأيام، وجعلت عليه قُبّة وستر، فلا يراه عامّة الناس. ويقال: إنّ المقام مدفون في القبة (منه ❁).

٢. البداية والنهاية ١: ١٥٤؛ خزائن الأدب ٢: ٥٦؛ السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢٩١.

تأريخ تسالم عليه عالم كبير من أهل الدنيا في أجيال عديدة، مع قوميات متباينة وأديان مختلفة ووثنيّة وحشيّة مستمرّة بتلوّنها في قرون عديدة.

ومما ينبئك إلى معرفة عناية الله بالكعبة، وحفظ كرامتها، وتأريخها المجيد، وأثرها الخالد بآيات مشيئته على رغم عادات الضلال، هو أنّ بني إسرائيل - وخصوص سبط يهودا - يعرفون أنّ جامعتهم السياسيّة وقوّتهم القوميّة لها ارتباط شديد ببيت المقدس وشعار مجده. ولكنّهم بمجرد انحراف غالبهم إلى الضلال والوثنيّة تكون ضربتهم على بيت المقدس، ومن أجل ذلك قد خرّبوه مراراً.

منها: أنّ بني عثليا الخبيثة - والظاهر أنّهم أولاد يهورام ملك يهودا - هدموا بيت المقدس إلى أن أمر يواش - ملك يهودا - ببنائه، فأقيم على رسمه، كما تعرف ذلك من العدد السابع إلى الرابع عشر من الفصل الرابع والعشرين من أخبار الأيام الثاني، وكذا من العدد الرابع إلى الثالث عشر من الفصل الثاني عشر من سفر الملوك الثاني.

ولمّا ارتدّ إلى الوثنيّة احاز - ملك يهودا - وتبعه بعض رعيتّه، أغلقوا أبواب بيت المقدس وملؤوا القُدس نجاسة، حتّى أنّ جماعة كثيرة حينما ملك حزقيا المؤمن اشتغلوا ثمانية أيّام في إخراج النجاسة من القُدس - أي قُدس الأقداس - وهو أهمّ موضع في بيت المقدس وأشدها احتراماً، انظر إلى الفصل الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من أخبار الأيام الثاني.

حتّى أنّه لمّا ملك يوشيا المؤمن احتاج إلى جمع أموال من بني إسرائيل لشراء حجارة وخشب لأجل ترميم الهيكل وعمارة بيوته التي أخرجها ملوك يهودا، انظر من العدد الرابع إلى الثامن من الفصل الثاني والعشرين من سفر الملوك الثاني، ومن العدد الثامن إلى الثاني عشر من الفصل الرابع والثلاثين من أخبار الأيام الثاني.

ودع عنك ما نال بيت المقدس من تخريب بخت نصر وطيّطوس الذي أخرجته بالخراب الكلّي، هذا ولم يمضِ على بيت المقدس ألف وخمسمائة سنة.

ومن ذلك تعرف أنّ بقاء احترام الكعبة ومجد تأريخها، وآثار إبراهيم الخالدة وتذكّار اسمه الشريف وبنائه للبيت نحو ألفين وخمسمائة سنة مع استيلاء الوثنيّة عليه،

إِنَّمَا هُوَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْخَارِقَةِ لِنَوَامِيسِ الْعَادَةِ. وَلَا تَنْسِ وَاقِعَةَ الْفِيلِ وَأَبْرَهَةَ - مَلِكِ الْحَبَشَةِ - وَجَيْشِهِ الْعَظِيمِ وَهَلَاقِهِمْ، هَذِهِ الْوَاقِعَةُ الَّتِي كَانَ عَامَهَا مَبْدَأَ لِلتَّأْرِيخِ عِنْدَ الْعَرَبِ وَعَنْوَانًا.

وَمِمَّا يَمْتَلِئُ تِلْكَ الْآيَاتِ دَوَامَ حَرَمَةِ الْبَيْتِ وَاحْتِرَامِهِ بَيْنَ عُمُومِ الْعَرَبِ، ذَوِي النُّخْوَةِ وَالْجَبْرُوتِ وَالتَّخْرِيبِ وَالتَّنْقَامِ وَالْعَارَاتِ وَالعُدْوَانِ. فَلَا يَكُونُ هَذَا الْاحْتِرَامُ الدَائِمُ بَيْنَ تِلْكَ الْأُمَّمِ الْمُتَضَادَّةِ الْمُتَوَحَّشَةِ إِلَّا بِعِنَايَةِ مِنَ اللَّهِ لِتَخْلِيدِ ذِكْرِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ، فَهُوَ مُحْتَرَمٌ ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَءِ امْنًا﴾ نَوْعًا بَيْنَ الْعَرَبِ، لَا يُؤَاخِذُ فِيهِ بِجُرْمٍ وَلَا يَعْتَدِي عَلَيْهِ، مَعَ مَا يَعْرِفُ مِنْ حَالِ الْأَعْرَابِ، وَهَذَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ.

فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ يُشِيرُ إِلَى تَأْرِيخِ الْكَعْبَةِ وَدَلَالَتِهِ، بِحَيْثُ لَا يَتَّفَقُ لِقَدِيمِ مِثْلِهِ مِثْلُ إِتْقَانِ هَذَا التَّأْرِيخِ وَظُهُورِهِ، وَالتَّسَالُمِ عَلَيْهِ بَيْنَ مَلَائِينَ مِنَ الْبَشَرِ فِي أَجْيَالٍ مُتَعَدِّدَةٍ، كُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يَعْنِيهِ أَمْرُهُ وَيَخْضَعُ لِاحْتِرَامِهِ، مَعَ أَنَّ الدَّوَاعِيَّ الْمُتَكَاثِرَةَ تَقْتَضِي أَنْ يَنْطُمِسَ تَأْرِيخُهُ وَيَنْدَرَسَ اسْمُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلِ، أَوْ يَثُورَ بَيْنَ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ الْجِدَالِ وَخُصُومَةِ الْجُحُودِ وَالْإِنْكَارِ.

وَلَوْ كَانَ فِي هَذَا التَّأْرِيخِ الْمَجِيدِ أَدْنَى شَكٍّ، لَمَا أَدْعَنَ بِهِ الْقَحْطَانِيُّونَ هَذَا الْإِذْعَانَ الْكَلْبِيَّ، وَتَرَكُوا الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ يَتَقَدَّمُونَ وَيَفْتَخِرُونَ بِهِ عَلَى جَمِيعِ الْعَرَبِ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْمَفَاخِرَاتِ عِنْدَ الْعَرَبِ كَانَتْ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ.

نَعَمْ، أَدْعَنَ بِهِ الْقَحْطَانِيُّونَ وَخَضَعُوا لَهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ سَبِيلًا إِلَى إِنْكَارِهِ مَهْمَا تَارَ الْحَسَدُ بِنُخْوَةِ الْقُوَّةِ.

وَلَا يَخْفَى فِي فِلْسَفَةِ التَّأْرِيخِ أَنَّ مِثْلَ تَأْرِيخِ الْكَعْبَةِ وَبِنَائِهَا بِالنَّحْوِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَكُونُ أَوْلَى بِالْإِذْعَانِ مِنْ كُلِّ تَأْرِيخٍ فِي الْعَالَمِ، فَإِنَّ التَّأْرِيخَ الَّذِي فِي الْكُتُبِ غَايَةٌ مَا فِيهِ أَنَّهُ يَنْتَهِي سَوَادُ كِتَابَتِهِ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ. وَإِنْ شِئْتَ سَمَّيْتَهُ الْمُؤَرِّخَ الْكَبِيرَ وَالرَّحَالَهَ الْبَاحِثَ الْمُحَقِّقَ، فَإِنَّهُ لَا تَكُونُ لِمَشَاهِدَاتِهِ قِيَمَةٌ عِلْمِيَّةٌ إِلَّا إِذَا تَأَيَّدَتْ بِشَهَادَةِ قَوْمٍ أَوْ أُمَّةٍ، إِذَا فَمَا حَالُ مَا يَكْتَبُهُ بِالسَّمَاعِ عَنِ فُلَانٍ عَنِ فُلَانٍ؟

وَبَعْدَ أَنْ أَظْهَرَ اللَّهُ مَجْدَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَشَرَفَ بَدْئِهِ وَكِرَامَةَ تَأْرِيخِهِ وَحُجُجِهِ، بِمَا

لم يحظ به تأريخ في العالم، أظهر ما تقتضيه كرامته وألويّته بالاحتفال وإقامة التشريعات، تذكراً له وتخليداً للعبادة التوحيدية، وإكراماً لأوليائه حماة التوحيد وتذكراً أعمالهم فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ لا على جميع الناس حتّى فقيرهم وعاجزهم ومن يخاف على أهله ونفسه، بل على ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ بالاستطاعة العرفية الدائرة بين الناس في أسفارهم.

وقال الله - جلّ اسمه - في الآية الخامسة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مشعراً لعبادتهم لله، وسبباً لتوابعهم بامتنال أوامر الله وخضوعهم له في الحجّ وأعماله ﴿وَأَمَّنَّا﴾ كما أجراه الله بلطفه نوعاً فيما بين العرب، فكان من يلجأ إليه يكسب الأمن، ومن جاوره يحظى بالاحترام.

وخاطب الله عباده تشریفاً لإبراهيم بقوله تعالى: ﴿وَآتَخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ هذا الذي تعرفونه بتأريخه القطعي المتسلسل في الأمم والأجيال يداً بيد، وتعرفون أنّ إبراهيم قام عليه لعمارة بيت عبادة الله وتوحيده، اتّخذوا من ناحيته ﴿مُصَلًّى﴾ لله؛ تذكراً لإبراهيم ومساغيه في سبيل الله.

ثمّ أظهر الله أنّ شعار العبادة هناك كانت شريعته وشريعة الطواف بالبيت عهداً من الله لإبراهيم، فقال - جلّ اسمه -: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

ثمّ ذكر الله بناء إبراهيم وإسماعيل للبيت، وأنّ بنيانها له كان لوجه الله فقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ حال كونهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿أَلْعَلِيمُ﴾^١ بنياتنا وإخلاصنا في عملنا وتوحيدينا لك.

هذا وإنّ التوراة الرائجة - على ما فيها - تشير إلى مثل هذا التأريخ لمكة المعظمة، فقد ذكر في العدد الثلاثين من الفصل العاشر من سفر التكوين في تحديدها لمنازل بني يقطان وقالت: «وكان مسكنهم من مسالمجيثك سفار جبل المشرق».

و«مسا»: اسم لمكّة، كما يعترف به الكاتبون من النصارى، حتّى أنّهم في رسومهم للبلاد المذكورة في العهدين يرسمون «مسا» في موضع مكّة، وهو ما فوق الدرجة الحادية والعشرين من العرض الشمالي، وفوق الدرجة الأربعين من الطول الشرقي. والتوراة في العدد الثلاثين من الفصل العاشر من التكوين، وكذا في العدد الرابع عشر من الفصل الخامس والعشرين تذكر أنّ أحد أولاد إسماعيل الاثني عشر اسمه «مسا». فيؤخذ من ذلك أنّ «مسا» بن إسماعيل هو الذي مَصَّرَها وبنى فيها دور السكنى فسَمَّيت باسمه، كما سمَّيت تيمّا ودومة باسمي تيمّا ودومة من أولاد إسماعيل الاثني عشر، وكما سمَّيت جملة من بلاد اليمن بأسماء أولاد يقطان - قحطان - كحضرموت وأوزال وأوفير وحويلة.

لكن تراجم التوراة جرت على عاداتها، فذكرت مسا بن إسماعيل كما هو مذكور في الأصل العبراني، وتقلّبت في ذكر مسا اسم مكّة: فبعضها تذكره ميشا، وبعضها ماسا لماذا؟ مع أنّ الاسمين في الأصل العبراني بنحو واحد ليس فيهما إلّا ميم في الأول، وحرف مرّدّد بين السين والشين في الوسط، وألف في الآخر.

نعم، يوجد فرق في علامات الفتح والكسر للميم، ولكن علامات الحركات حادثة لم توضع إلّا فيما بين القرن الثاني والثالث قبل المسيح، وضعها أحد الأحبار في طبرية، ومع هذا فالتوراة التي يقَدِّسها اليهود في معابدهم خالية من هذه الحركات وهذا الفرق المذكور.

عمانوثيل: هل يسمح لي سيدي الشيخ بأن أذكر ما قيل من الكلمات في هذا المقام، أذكرها وأظنّ أنّ حضرته يبرّئ ساحتي من الاعتقاد بها، أذكرها لكي أسمع ما تقوله فيها من التحقيقات اللازمة.

وقد وجدتُ جملة من الكتاب يذكرون أنّ مكّة توطَّنها إسماعيل بن إبراهيم، ومن جملة هؤلاء المستشرق جرجي سائل في مقالته في الإسلام، وهي التي عَرَّبَها وذيلها هاشم العربي، قال في أولها في ذكر تهامة - وهي الناحية التي فيها مكّة -: «إنّ إسماعيل بن إبراهيم توطَّنها».

ولكنّي رأيتُ بعض كتابنا ينكرون مجيء إبراهيم إلى مكّة، وكذا إسماعيل ابنه. ومن هؤلاء المنكرين هاشم العربي في تذييله في الصحيفة السابعة من المقالة المذكورة، وكذا في الصحيفة العاشرة والحادية عشرة من تذييله المستقل. وكذا النصراني المتمسك المتسمّى بالغريب بن العجيب في الصحيفة السابعة والتسعين والحادية عشرة بعد المائة من كتابه^١، الذي أشرنا إليه في الصحيفة ٥٣ من الجزء الأوّل.

الشيخ: كيف يحدون ذلك، مع أنّه قد اتّفتت عليه العرب في أجيالهم - كما شرحناه - بحيث لا يتيسّر لحقيقة مثل هذا التأريخ في الإتيان؟!

عمانوئيل: يتشبّهون لذلك بخلو التوراة من ذلك، مع عنايتها بالتأريخ وخصوص تأريخ إبراهيم وإسماعيل، وقد ذكرت رحلات إبراهيم والمواطن التي سافر إليها، ولم تذكر منها مكّة ولا تهامة ولا الكعبة.

الشيخ: يا عمانوئيل: إنكم في الجزء الأوّل قد درستم حال هذه التوراة الرائجة وحققتم أمرها، فهل تراها بعد ذلك تصلح للاعتماد عليها في شيء؟ خصوصاً مع ما ذكرته أنت في الصحيفة ٣٦ من الجزء الأوّل، وأنّ التوراة أهملت أهمّ أمور إبراهيم بالذكر، وهو حياة إبراهيم وإيمانه ونبوّته في وطنه ما بين النهرين.

وذكرت أنّها بمقتضى العهد الجديد قد خالفت الحقيقة، حيث إنّ ظهور الله لإبراهيم وهو فيما بين النهرين قبل أن يسكن في حاران وقبل أمر الله له بالهجرة من أرضه ومن عشيرته، قد حولته التوراة إلى حاران فغيّرت وبدّلت.

يا عمانوئيل: إنّ توراة حلقياً أو غيره هذه التي ذكر في الجزء الأوّل ما فيها من الدواهي والمنافيات لجلال الله وقده، هل يعترض بها على الحقيقة لو صرّحت بخلافها؟ فكيف وغاية ما يتشبّه به منها أنّها لم تذكر مكّة ولا مسير إبراهيم وإسماعيل إليها.

يا عمانوئيل: كيف يسمح آباء هذه التوراة أن يذكروا فيها فضل مكّة وإسماعيل؟!

١. كتاب في ٤٩٧ صحيفة بعنوان رحلة إلى الحجاز للحجّ سنّاه الرحلة الحجازيّة لم يذكر اسم مطبعته. (منه ﷺ).

عمانوثيل: ويقول هؤلاء: إن التوراة - التي لا نعلم بوجود إسماعيل إلا منها - قد ذكرت أن إسماعيل لما طُرد من بيت أبيه سكنَ في بَرِّيَّةَ فاران، وهي بَرِّيَّةَ سيناء بين مصر وبلاد ثمود.

الشيخ: ألم تذكروا في الصحيفة ٥٣ من الجزء الأوّل أنّ هاشم العربي والغريب بن العجيب قد كذبا على التوراة في شأن إسماعيل، فزادا فيها لفظة «أتى» لأجل أن يعنوا بالتعمية سكنى إسماعيل في مكّة، مع أنّ هذه اللفظة لو كانت موجودة في توراتهم، لما كان لها أثر في المنع، إذ فكيف يأمل هاشم أن يصدّقه أحد فيما يدّعيه في بَرِّيَّةَ فاران.

يا عمانوثيل: إن الجزء الثاني من كتاب الهدى من الصحيفة ٥٧٠ إلى ٥٧٩ قد أوضح أنّ قول التوراة بأنّ إسماعيل سكن في بَرِّيَّةَ فاران لا ينافي سكناه في مكّة فراجعه، فإنّ هاشماً قد موّه الكلام هاهنا.

لو أنّ هذه التوراة الرائجة تصرّح بأنّ إسماعيل سكن في بَرِّيَّةَ سيناء، لما كان لها أدنى تأثير في معارضة الحقيقة المعلومة، فإنّه لو لم نعرف من خلل هذه التوراة الرائجة ما ذكرتموه أنتم في الجزء الأوّل، وما ذكره كتاب إظهار الحقّ وكتاب الهدى في جزئه، لكفانا في ردّها ما نجده فيها من عدم التحقّق عن الخبط والتناقض في أمر الأسماء ومواقع البلدان.

ألا ترى أنّها لما ذكرت الذين اشتروا يوسف وباعوه في مصر لفوطيفار رئيس شرطة فرعون تقلّبت في أسمائهم ما شاءت، فتارةً تسمّيهم مديانيين نسبة إلى مديان بن إبراهيم، وتارةً تسمّيهم - كما في الأصل العبراني - مدياتيين نسبة إلى مديان بن إبراهيم أيضاً، وتارةً تسمّيهم إسماعيليين نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم، فانظر إلى العدد الثامن والعشرين والسادس والثلاثين من الفصل السابع والثلاثين، والعدد الأوّل من التاسع والثلاثين من سفر التكوين.

وأيضاً ذكرت في أوّل سفر التثنية عبر الأردن الذي كَلّم فيه موسى بني إسرائيل بسفر التثنية، فذكرت أنّه قبالة سوف بين فاران وتوفل ولابان وحضيروت وذو ذهب.

وأنت إذا عرفتَ مواقع بحر سوف وحضيروت من الفصل الثالث والثلاثين من سفر العدد وعرفتَ موقع عبر الأردن والعربة، تعرف أنّ هذا الكلام ممّا لا يمكن أن يستقيم. عمانوئيل: إنّ جماعة من علمائنا والروحانيين في النصرانية يصرّحون بأنّ برّيّة فاران هي جزء من برّيّة سيناء، أفلا يكون قولهم حجّة؟

أليعازر: أسفاً على حرّيّة ضميرك يا عمانوئيل، كيف تُجادل في العلم وتضطهد الحقائق بشيء أنت تعلم أنّه موهون. ألا تعرف أنّ الروحانيين الناهضين للتبشير وإصلاح الأخلاق والتعليم بالتقوى والصالح والصدق وللمباحثة في الأديان، هم أولى الناس بأن يكونوا محلّ الثقة والاعتماد على علمهم وصدقهم؟

وقد أتضح لنا في الصحيفة ٢٠ من الجزء الأوّل أنّ جمعيّة كتاب الهداية مع المرسلين الأمريكيّان قد أنكروا قول التوراة: «وبارك الله اليوم السابع وقَدّسه» وأيضاً هذه الجمعيّة مع هؤلاء المرسلين ادّعوا أنّ القرآن يراعي السجع دون الحقائق، ولذا قال: «قابل» لأنّه على وزن «هايل» ومن الواضح أنّه لا يوجد هذان الاسمان ولا واحد منهما في القرآن، كما مرّ ذلك في الصحيفة ٣٤ من الجزء الأوّل.

كما مرّ أنّ هاشم العربي والغريب بن العجيب زادا على التوراة لفظة «أتى» وأنّ كتاب ثمرة الأمانى - المطبوع بمساعي الروحانيين وابتهاجهم به - قد كذب على التوراة والقرآن مراراً، كما مرّ في الجزء الأوّل في الصحيفة ٤٦ إلى ٤٩.

وما عسى أن أقول في أشعار أصحابنا التّاريخيّة في القرون الوسطى، تلك الأشعار والأنشيد التي رسخت خرافاتها في الأذهان، ولا يزال بعضها راسخاً حتّى إلى الآن، إذ كانوا يصفون المسلمين فيها بأنهم مشركون وعبدة أوثان، وأنهم جعلوا لهم ثلاثة آلهة: ماهوم، وبافوميد، وماهوميد.

وأنّ نبيهم محمّد ﷺ كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب، وفي بعض القصص أنّ الإله محمّد جاء في موكب عظيم يضرب بالطليل والمزامير والكلّ يرقصون ويغنون، وأنّ صنم المسلمين «ماهوم» قد وضعوا في جوفه عفريناً جاء به السحرة، وصار ينطّ ويعربد، ثمّ أخذ يكلم المسلمين وهم يسمعون.

وَأَنَّ امرأةً من أعيان النصارى أرادت أن تسلم أمام صلاح الدين الأيوبي فقالت: أريدُ أن أعبد محمداً، فلما أتوها بصورته الصنمِيَّة أسلمت وخرت ساجدة له. وما عسى أن أقول فيما يفترونه على نبيِّ المسلمين من الصفات التي كان أبعد ما يكون عنها، وإن شئت فانظر إلى الكتاب المسمّى الإسلام وسَمِّي في ترجمته العربيَّة خواطر وسوانح^١ من صحيفة السابعة إلى السادسة عشرة من المطبوع العربي، وانظر إلى الملحق الأوَّل من هذا الكتاب من الصحيفة ١١٣ إلى ١٣٢ وما في ذلك من الافتراء على المسلمين ونبيِّهم والإسلام.

القس: هذا سهل يا أليعازر، هذا كان في القرون الوسطى في العصور المظلمة، وكان مستوراً في أوروبا. ولكن انظر إلى هذا العصر، عصر النور والعلم، عصر التمدن والفضيلة، عصر الأخلاق والتحقيق.

وانظر في هذا العصر إلى جمعيَّة رسولِيَّة تبشيريَّة، وهي لفييف من جمعيَّة كتاب الهداية والمرسلين الأمريكان، الذي كتب على أجزائه لأجل تمجيده: إنَّه طبع في مصر بمعرفتهم. فانظر إلى هذه الجمعيَّة الدينيَّة الرسوليَّة حيث ذكرت في كتابها أن محمداً نبيِّ المسلمين تزوج امرأة ابنه، ولم تكفِ بكتابة هذا مرَّةً واحدةً، بل كتبت مراراً عديدة^٢، وكتبت في هذا من الكلام ما لا يرتضيه شرف الصدق.

وقد توافق معهم على هذا النهج هاشم النصراني الشامي^٣، وجرى ذلك من غير هؤلاء، ولو أن هؤلاء كتبوا ما كتبوه وطبعوه في أوروبا بغير اللسان العربي لربما كان مستوراً. الشيخ: لو لم يكن هذا كلُّه لكان يكفي أن تقول لعمانوئيل: إنَّ غاية الأمر فيما تنقله عن هؤلاء الروحانيين أنَّهم أخذوا لك بالتهجس في كلام التوراة التي عرفتَ حالها، أو من بعض السكَّان في برِّيَّة سيناء.

١. تأليف الكونت هنري دي كاستري الفرنسي، وترجمه بالعربيَّة أحمد فتحي زغلول باشا، وطبع في مصر في مطبعة السعادة في ١٥٢ صحيفة (منه ❀).

٢. في الصحيفة ٦٦ و٦٨ من الجزء الأوَّل، الطبعة الثانية، سنة ١٩٠٠م، وفي ١٦٩ من الجزء الرابع، المطبوع سنة ١٩٠٢م (منه ❀).

٣. في الصحيفة ٦٥ من تذييله المستقلَّ لتعريبه لمقالة سايل في الإسلام، المطبوع سنة ١٨٩١م (منه ❀).

وكيف يكون هذا معارضاً لتأريخ اتفق عليه في كلّ جيل ألوف الألوف من الناس؟! ذلك التأريخ المتسلسل في أجياله، والذي يوصل بناء الكعبة باليقين إلى إبراهيم وإسماعيل، ذلك التأريخ المؤيّد بالآيات والدلالات على العناية لتخليد ذكر إبراهيم وإسماعيل وآثارهم في بناء البيت ودعوتهم الدينيّة، كما تقدّم.

رمزي: إنّ بعض الكتّابين يذكرون أنّ الكعبة كانت بيتاً للأصنام منذ عهد قديم - وهي بيت زحل - ومشعر عبادة الصابئة الأوثان، فمن أين يكون بناء إبراهيم وإسماعيل لأجل عبادة الله التوحيدية؟

الشيخ: نفرض أنّ جماعة من الرحالة المؤرّخين قد مرّوا بأرض أورشليم في السنة الثانية والثالثة لملك سليمان، قبل الشروع بعمارة بيت المقدس، فكتبوا حال تلك الأرض وخلوّها من هيكل ومعبد^١.

ثمّ بعد ذلك في أوائل ملك منسي بن حزقيا مرّ جماعة أخرى على أورشليم، فأروا هيكلًا كبيراً مملوءً بالأصنام والأشباه ومذابح الأصنام، وأروا العبادة الأوثانية شائعة في أورشليم في يهوذا وملكهم، والهيكل على هذا الحال بيت للأصنام والعبادة الوثنيّة. وتردّد هؤلاء المؤرّخون على أورشليم والهيكل نحو عشرين سنة، والحال على هذا الوثنيّة، والأصنام في مراكزها من الهيكل، وهي على زيادة^٢، وحول بيت المقدس - مركز الأصنام - بيوت المأبونين، وهم الذين يندرون أنفسهم للأوثان لكي يلاط بهم^٣. وكتب هؤلاء الجماعة المؤرّخين حال الهيكل وأصنامه وأشباهه، ومذابح الأصنام والعبادة الوثنيّة فيه والشائعة في مدينة أورشليم.

١. انظر العدد الثاني من الفصل الثالث من أخبار الأيام الثاني (منه ﷺ).

٢. انظر الفصل الحادي والعشرين من سفر الملوك الثاني، والفصل الثالث والثلاثين من أخبار الأيام الثاني إلى العدد السادس عشر (منه ﷺ).

٣. انظر في العدد الرابع والعشرين من الفصل الرابع عشر من الملوك الأوّل، وكذا العدد الثاني عشر من الفصل الخامس عشر منه، وفي العدد السابع من الفصل الثالث والعشرين من الملوك الثاني. وهؤلاء المأبونون يذكرون في هذه المواضع في الأصل العبراني «قدسيم» أي قدّسين؛ لأنّهم قدّسوا أنفسهم لأن يلاط بهم في سبيل الأوثان (منه ﷺ).

فهل يصحّ لأحد أن يتشبّث بكتابة هاتين الجماعتين ويقول ويكتب: إنّ هذا الهيكل الذي في أورشليم ليس بناء سليمان لأجل عبادة الله التوحيدية، بل أُسس بنيانه لأجل الأوثان والعبادة الوثنيّة؟ وهل يصحّ أن يعارض بهذا تأريخ الأمة الإسرائيليّة المتسلسل من الآباء للأبناء، بأنّ هذا الهيكل هو بناء سليمان لعبادة الله وحده.

هل تجد جماعة أو واحداً من المؤرّخين كتب في كتابه المعلوم النسبة إليه، أنّه مرّ بأرض مكّة بعد موت إبراهيم وإسماعيل بسنة أو عشر سنين أو قرن، فوجد أرض مكّة ليس فيها أثر الكعبة ولا مقام ولا ساكن؟

أو هل تجد واحداً من المؤرّخين كتب أنّه مرّ بأرض مكّة قبل زمان إبراهيم، فوجد فيها الكعبة مبنية على رسمها وهي محلّ لأصنام الصابئين؟

من أين يوجد ذلك؟ وكيف يكون ذلك في وسط جزيرة العرب المنقطع؟ ومن ذا يدّعي بأمانته ذلك؟ سوى من عرفنا حاله من أمثال... وهاشم العربي، والغريب بن العجيب، وكامل العيتاني، والذين طبعت كتب هؤلاء بمساعيهم.

لو افترضنا وجوداً لواحد أو اثنين أو ثلاثة من مثل المؤرّخين المذكورين، وعلمنا بنسبة كتبهم إليهم، وخصوص تأريخهم لبناء الكعبة قبل إبراهيم، أو عدم وجودها إلى ما بعد موته، لما كان ذلك شيئاً يعارض تأريخ العرب المتسلسل بتسالم ألوف الألوف في كلّ جيل من أجيالهم في مبدأ الكعبة وبانيها، وهو إبراهيم، الذي حفظت أجيالهم آثاره الخالدة، مع اختلافهم في النزعات والقوميّات، وتحاسدهم وتنافسهم على أسباب الشرف، حتّى أنّ كلّ قبيلة منهم استقلّت عبادة صنم مختصّ بها؛ لئلاّ تخضع في شرفها للقبيلة الأخرى المتولّية لإدارة الصنم الآخر.

ولعلّك تقول: يوجد في الرحلة الحجازية الخديوية أنّ مؤلّفها البتانوني^١ في صحيفة ٩٦ سطر ٢ يقول: «كانت الكعبة قبل الإسلام بنحو ٢٧ قرناً ذات منزلة سامية».

١. كتاب رحلة الخديوي الأفخم حضرة الحاجّ عبّاس حلمي باشا للحجّ سنة ١٣٢٧، وهي سنة تأليف الكتاب وطبعه، وهو في ٢٦٠ صحيفة ماعدا أوراق الرسوم للأماكن المقدّسة (منه ❁).

فنقول: إنّ هذا الكتاب بمجد انتسابه الخديوي، يعترف بأنّ بناء الكعبة كان قبل ولادة إسماعيل، بل قبل ولادة إبراهيم، فإنّ أقصى ما يكون بين مولد إسماعيل وبدء الإسلام لا يبلغ الستّة وعشرين قرناً، بل إنّ ما بين مولد إبراهيم وبدء الإسلام لا يتجاوز الستّة وعشرين قرناً، على ما هو المحصل من التواريخ المبنية على تأريخ العهدين. لكن لا يخفى عليك أنّ هذا الكاتب يصرّح في صحيفة ٨٨ من هذا الكتاب، أنّ الذي بنى الكعبة هو إبراهيم ومعه ابنه إسماعيل. فلعلّه يريد من «القرن» في كلامه المتقدّم مقدار ثمانين سنة، كما ذكره اللغويون، لا مائة سنة. أو أنّه وقع غلط مطبعي في الرقم، بأن كان صحيحه ٢٥ فصار بالغلط ٢٧.

وعلى كلّ حال، فإنّ هذه التشبّهات تتلاشى في جنب ما هو المعلوم عند الأمتة العربيّة في قرونها وأجيالها على ما ذكرناه.

ومهما ذكر من أنّ الكعبة كانت يجعل فيها الأصنام، فإنّما هو من النظر السطحي إلى بعض أحوال الكعبة في بعض القرون، فإنّك لا تجد تأريخاً يذكر أنّها أسّس ببناءها فلان، وأحدثه لأجل العبادة الأصناميّة بعد أن لم يكن. أو أنّها أحدثت هيكلًا لعبادة الأوثان في العام الفلاني، في القرن الفلاني، قبل مولد إبراهيم أو بعد وفاته. لا تجد أحداً يتجرأ على ذلك، بل إنّ دخول العبادة الأصناميّة إلى أرض الحجاز وما والاها في عهد إبراهيم عليه السلام وما قبله، لا يُعرف له نصّ ولا أثر في التأريخ، مع ما في التأريخ من اضطراب الأوهام والخرافات، كما هو شأن المتأخّر الذي لا مادة له إلاّ نوادير المسموعات وأطرافها، ولأجل ذلك ترى المعاصرين لا يعتنون إلاّ بما يؤخذ من كتابة الآثار القديمة.

وغاية ما يذكر أنّ الكعبة كانت تجعل فيها الأصنام منذ قرون مجهولة المقدار، وليكن ذلك قبل الإسلام بعشرين قرناً، وقل: بثلاثة وعشرين قرناً، فإنّه لا يمتنع أن يكون الضلال قد شوّه دين إبراهيم الحنيف وتوحيده الحقيقي بعد مائة سنة من وفاة إسماعيل، بل بعد عشر سنين.

وإنّ الاعتبار بالحوادث يجلو بصيرة الإنسان، فانظر إلى حال بني إسرائيل

وعبادتهم للعجل في زمان موسى، وانظر إلى حالهم عند انشقاق سياستهم في أيام رحبعام بن سليمان، حيث إنَّ عشرة أسباط انقلبوا إلى عبادة العجلين الذهبيين اللذين صنعهما ملكهم «يربعام»، واستمروا على الوثنيَّة إلى أن بدَّدهم السبي.

وانظر إلى تقلبات بني إسرائيل في وثنيَّتهم من زمان خروجهم من مصر إلى سبي بابل. وانظر إلى ما يذكره العهد الجديد من أنَّه بعد المسيح بنحو خمس عشرة سنة اجتمع التلاميذ فأبطلوا الشريعة والختان، مع أنَّ المسيح قد استمرَّ عليها وأوصى بحفظها^١.

وإنَّما وإن كُنَّا نبرئ ساحة تلاميذ المسيح من ذلك ومن دعوة التثليث، لكنَّا نعلم أنَّ هذه الأمور أدخلتها المجاورة وبعض الدواعي في عهد قريب من المسيح. فلا عجب إذا حدثت العبادة الأصنامية بعد إسماعيل ووضعت الأصنام في الكعبة، كما حدث إبطال الشريعة ودعوة التثليث والأقانيم والصور والأيقونات - التماثيل - وصارت تجعل في المعابد.

حدثت هذه الأمور بعد المسيح بزمان قليل، واستمرت على ذلك مقرونة بمجرّد اسم المسيح من دون شيء ممَّا كان عليه من التوحيد ورسوم الشريعة.

ولكن الوثنيَّة العربيَّة لم تمح تأريخ إبراهيم وبناء الكعبة واحترامها، ولم تمح من كلّ شريعة إبراهيم شريعة الختان، وأصل الحجّ وإحرامه والطواف بالكعبة، وجملته من أعمال الحجّ وإن تصرّفت الأهواء في بعضها.

حفظ كلّ العرب في جميع أجيالهم كلّ ذلك باسم إبراهيم ودعوته الرسوليَّة وتأريخه، وتذكّار شرائعه، وآثاره الخالدة. واستمرت على ذلك بأجمعها إلى أن أشرق نور الإسلام، ونهضت الحنيفيَّة الحقيقيَّة نهضتها الكريمة المنصورة وإن كان النفوذ الكثير في المسكونة للوثنيَّة.

بل ربما يقال: إنَّ الذي يرى على الصور النحاسيَّة لقدماء المصريين من صورة ثوبي الإحرام، إنَّما كان من زيِّ العبادة والتواضع لله، وقد أخذ من شريعة إبراهيم في الحجّ أو من شريعة نبيّوه.

١. ذكر ذلك كلّاً من العهدين مفصلاً في الجزء الأوّل من كتاب الهدى صحيفة ٤٨ - ٥٣ (منه ❁).

كما أنّ جملة من زعماء الأديان المختلفة، الذين يناسب حالهم مظاهر النُسك والتواضع، ترى صورهم في زيّ إحرام المسلمين، كما في تصوير «كونفوشيوس» الصيني و«لاوتز».

ومن القريب أن يكون طواف الصابئة وقُدّماء اليونان مأخوذاً من طواف الحجّ الذي شرّعه إبراهيم للكعبة، فإنّ النظر الدقيق يدلّ على أنّ العبادات الاختراعية أفسدت العبادات الحقيقيّة النبويّة، فحوّلتها إلى بدعها وتصرّفت بها ما شاءت أهواء دُعاة البدع من التخليط. فمن الحريّ أن يكون جملة ممّا هو عند المجوس والصابئة والبراهمة والبوذيين وقُدّماء المصريين واليونان من العبادات والشرائع، هو مأخوذ من دين إبراهيم وشريعته، ولكنهم حوّلوه إلى عبادة وثنيّة، أو تصرّفوا بصورته حسبما يقتضيه الضلال والتقصير، وإنّ سير الختان في أمم الشرق قبل الإسلام يدلّك على أنّ لها نحو ارتباط بشريعة إبراهيم.

أقول ذلك وإن كان جماعة من النصارى يزعمون أنّ الله لم ينزل من قبل موسى على القدماء شريعة، وإنّما جروا على عادات اصطلحوا عليها في هذه الحياة.

ومن هؤلاء الزاعمين جمعيّة كتاب الهداية والمرسلون الأمريكيان الذين طبع ذلك الكتاب بمعرفتهم، هؤلاء الروحانيّون المبشّرون والداعون إلى التقوى والعلم، كأنّهم لم يقرؤوا من توراتهم العدد الخامس من الفصل السادس والعشرين من التكوين عن قول الله لإسحاق: «من أجل أنّ إبراهيم سمع لقولي وحفظ ما يحفظ لي وأمرني وفرائضي وشرائعي».

ألم تذكروا هذا في الجزء الأوّل صحيفة ٩٧ و٩٨؟ ألم تنظروا في الجزء الأوّل من كتاب الهدى صحيفة ٢٤٤ و٢٤٥؟ ألم تنظروا في الجزء الرابع من جمعيّة كتاب الهداية صحيفة ١٦٧ و١٦٨ و١٦٩؟

وهل يخفى أنّ الشرائع الإلهيّة الحقيقيّة لا يمتنع أن تتفق في كثير من مواردها، باعتبار أنّ اختلاف الزمان والأمة لم يؤثّر تغييراً في مصالحها، بل يجب أن تتفق حينئذٍ؛ لكون الشارع واحداً والمصلحة واحدة.

وربما يفهم من القرآن الكريم أنّ شرائعه ناظرة إلى شرائع إبراهيم، كما في قوله

تعالى في الآيتين السابعة والسبعين والثامنة والسبعين من سورة الحج: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَفُوا وَأَسْجَدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، هُوَ اجْتَبَسَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ بشرية حرجية تشق على واتباع أوامر الله ونواهيهِ وشرائعه، لم يجعل فيه ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ بشرية حرجية تشق على النوع وتضايقه بعسرها.

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ باعتبار أنّ المخاطبين عند نزول الآية كانوا من ذرية إبراهيم، أو باعتبار الأبوّة الروحانية النبوية.

﴿هُوَ سَمَّنَكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ فجعل ملّة إبراهيم بياناً لأوامر شريعة الإسلام ودينه الذي لم يجعل فيه حرج.

أليعازر: إنّ كثيراً من أصحابنا يقولون: إنّ نبيّ الإسلام قد أخذ شرائعه ولفقها من الشرائع المختلفة، صحيحها وفسادها، فأخذ شيئاً من اليهود وشيئاً من الشرائع الأخرى. عمانوئيل: هل يسمح لي السيد الوالد ويعطيني حرّية لكي أقول كلمتي في هذا المقام؟ أليعازر: قلّ كلمتك، فإنّي تركتك وحرّيتك من أوّل الأمر.

عمانوئيل: إنّ أصحابنا لم ينظروا إلى شريعة الإسلام إلّا بنظر التكذيب، فصاروا يتسرّعون بأقوالهم السقيمة، ويدّعون أنّ نبيّ الإسلام أخذ شرائعه من هنا ومن هنا، فما أرى أصحابنا إلّا كالمادّيين الذين يقولون: إنّ موسى النبيّ أخذ شرائعه من المصريين ومن حمورابي.

الدكتور: لماذا تخصص هذا القول على موسى بالمادّيين؟ فإنّي أرى كتبكم تقول على شريعة موسى أكثر من ذلك وأوحش، فإنّا نجد في الفصل الخامس عشر من أعمال الرسل عند إبطالهم لشريعة الختان وكثير من محرّمات التوراة قالوا في علّة إبطالها: «لأنّ موسى مُنذُ أجيال قديمة له في كلّ مدينة من يكرز به»^١ ومعنى هذا أنّه يكفي موسى مراعاة شخصيته في هذه الأجيال.

وفي الفصل الرابع عشر من رسالة رومية في إبطال تحريم التوراة لبعض الحيوانات وتنجيسها هكذا: «إني عالم ومتيقن أن ليس شيء نجساً لذاته»^١.

وفي الفصل الرابع من رسالة تيموثاوس الأولى^٢ جعل تحريم بعض الحيوانات - كما في التوراة - من تعاليم الشياطين والأقوال الكاذبة المكتوبة.

وفي الفصل الأول من رسالة تيطس: «لا يصغون إلى خرافات يهودية ووصايا أناس مرتدين عن الحق كل شيء طاهر للطاهرين».

وفي الفصل الثاني من رسالة كولوسي في محرّمات التوراة: «فلا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت»^٣.

«تفرض عليكم فرائض. لا تمسّ لا تذق ولا تجسّ. التي هي جميعها للفناء حسب وصايا وتعليم الناس»^٤.

ومن عدوى هذا الداء ما وجدته في كتاب الرواية النصرانية^٥ المسّمى النتيجة العصرية في صحيفة ٩٠ قول الداعي النصراني للداعي اليهودي في مقام العيب للشرعية الموسوية حيث قال لليهودي: «وأما مشرّعكم موسى قال عين بعين وسنّ بسنّ».

عمانوئيل: سامحني أيها الدكتور فإنّي لم أقل: إنّ المادّيين عابوا شريعة موسى؛ لكي تعارضني بهذا الكلام المُخجل.

ولنرجع إلى سياق كلامنا، فإنّ الكاتبين في هذا القرن قد ذكروا ممّا وجدوه في كتب الذين هم قبل المسيح، من البراهمة والبوذيين وأمم الغرب وأمريكا القديمة، وممّا وجدوه من الآثار، وأوضحوا أنّ كلّ ما هو عند المسيحيين من حكايات التثليث

١. العدد ١٤.

٢. العدد ١ - ٤.

٣. العدد ١٦.

٤. العدد ٢٠ - ٢٢.

٥. صدر من المطبعة الإنكليزية الأمريكية ببولاق مصر سنة ١٩١١م في ١٢١ صحيفة بالقطع الصغير، وإن شئت فانظر فيه واعرف تقدّم الجهل وتحكمه في معنى الآيات القرآنية وطمع الإنسان في أن يمؤّه بتلفيقات لا يخفى سقوطها حتى على البسطاء (منه %).

والأفانيم وتجسد الإله وولادته من عذراء بالروح القدس.

وكلّ ما ذكرته الأناجيل في شأن الجبل بعيسى وولادته، وكراماته، وأحواله، وتجربة الشيطان له، ومحبوه يوحنا، وصلبه، وقيامه من الموت، وسرّ الفداء والتخليص، قد أخذ حرفياً ممّا يذكره البراهمة والبوذيون وأمم الغرب في اللاهوت والبشر الذين يألّهونهم. وقد أحصى ذلك كتاب العقائد الوثنية لمحمد طاهر التنير، ونصّ على مصادر نقله من ستّة وأربعين كتاباً ممّا عثر عليه من الكتب المطبوعة.

وهذا التوافق الكليّ في الجزئيات والخصوصيات من العجيب المُدهش، وممّا لا تسمح به الصدفة، بل إنّه يستلفت الإنسان إلى أمر كبير لا يمكن أن نقول فيه: إنّ السابقين حلموا في القديم بما يحدث في المستقبل البعيد من الحقائق، فجعلوها جعلاً في وثيّتهم القديمة. أمّا الشرائع الإلهية فلا بدّ أن تتوافق إذا لم يحدث في زمان الرسالة اللاحقة ما يغيّر وجه المصلحة في الحكم، وكذا غير الإلهية من الشرائع، فقد توفّق الصدفة بين بعض أحكامها ولا عجب في ذلك.

أليعازر: إنّ أصحابنا في كتبهم يعارضون العرب المنتسبين إلى إسماعيل وإبراهيم، وينكرون نسبهم هذا واتّصلهم بإبراهيم، ويذكرون أنّ هؤلاء العرب أخلاط من الحبشة وغيرهم، فلا يعلم حينئذٍ نسبة بناء الكعبة وآثارها إلى إبراهيم.

عمانويل: يا والدي، نقول أولاً: يكفي في العلم بنسبة الكعبة إلى إبراهيم تسالم العرب القحطانيّين في أجيالهم يداً بيد إلى زمان إبراهيم، فإنّ القحطانيّين وحدهم يبلغون في كلّ جيل مئات الألوف أو ألوف الألوف، وهم لهم القرب والربط التامّ بأرض مكّة، وهي من قطرهم.

ونقول ثانياً: إنّ من أهمّ الأمور عند العرب حفظ النسب والدقّة فيه، والتفاخر بشرفه والتنازع فيه. وقد كان جميع العرب في أجيالهم يذعنون ويشهدون للعرب الإسماعيليّين بأنّهم من أولاد إبراهيم، ويخضعون لشرف نسبهم، ويجرون لهم اللازم في احترامهم من أجل هذا الشرف، وقد استمرّت على ذلك أجيالهم بأقن تاريخ. ولو كان في ذلك أدنى غميرة، لما خضع القحطانيّون لافتخار الإسماعيليّين واحترام

شرفهم، مع ما لا يخفى من نخوة العرب وجبروتهم، وتنازعهم في أسباب الشرف والتقدّم، لكن وضوح الحقيقة أخضعهم.

وهل يخفى ما للعرب من التقدّم في علم الإنسان وتاريخ قديمها وشريفها، بحيث لا يوجد في سائر الأمم من يدانهم في ذلك؟! فإنّ الإنسان عند العرب منشأ العزّ وناموس الشرف والاحترام، يتنافسون فيها ويستحاسدون، ولا يفوز منها بالتسليم لفضيلته إلا ما كان معلوماً لا مجال لوجوده، بحيث تراه كأنه مُسجّل ومُبيّن في آلاف من الكتب بل وأحلى من ذلك فإنّ الكتاب يكتب، وقد يصفّق له جمهور باسم كاتبه أو اسم الإلهام، فيبقى على ذلك التصفيق عشرة في سبيل الحقيقة.

وأما النسب عند العرب، ففي جميع أجيالهم هو معرض للنقد والنظر في أمره، فلا يثبت ويستمرّ في أجيالهم إلا ما كان رصيناً على أقوى قواعد وأثبت أساس، خصوصاً إذا كان شأنه يمسّ جميع العرب، ويخضعون بأجمعهم لشرفه وفضيلته على ناموس انقيادهم الاختياري لشرف الأصل وكرم النسب المعلوم، وبما هو دون هذا المقدار أخذت الأمم أنسابها بالقطع واليقين.

وماذا تفنع الكتابات بالأقلام المتحرّكة بأسباب مختلفة وأوقات غير مرصودة ولا معلومة؟!

أفلا يكفيننا من ذلك في العبرة ما وقع من الاختلاف المدهش في نسب المسيح في ما بين الفصل الأوّل من إنجيل متى، وبين الفصل الثالث من إنجيل لوقا؟!

ودع عنك مخالفة الفصلين المذكورين مع سفر الأيام الأوّل في أنسابه، ودع عنك اضطراب كتب العهد القديم واختلافها في الأنساب، ودع عنك أنّ إنجيل لوقا والتوراة السبعينيّة واليونانيّة قد زادت على التوراة العبرانيّة «قينان» بين أرفكشاد وشالح^١.

انظر إلى هذه الاختلافات الباهضة التي تحيّر فيها المحقّقون واعترفوا بخللها وإن تكلف في أمرها بعض الناس، فجاء في ذلك بما يشبه أضغاث الأحلام ويزيد في

١. انظر إلى العدد الثاني عشر من الفصل الحادي عشر من سفر التكوين في العبرانيّة وتراجمها وفي اليونانيّة والسبعينيّة، وإلى العدد السادس والثلاثين من الفصل الثالث من إنجيل لوقا (منه ﷺ).

الطين بلّة، فانظر أولاً إلى الجزء الأول من كتاب الهدى من صحيفة ٢٤٩ إلى ٢٥٩، وإلى الجزء الثاني من صحيفة ٤٧٦ إلى ٤٩٠، وانظر أيضاً إلى الفصل الثالث من الباب الأول من كتاب إظهار الحق^١، وكذا المقصد الأول والثاني والثالث من الباب الثاني منه، فإنك ترى العجب من خلل المهديين في التأريخ والنسب والأسماء.

فيا للعجب من بعض أصحابنا - ومنهم هاشم العربي والغريب بن العجيب - إذ يحاولون بدعواهم الموهونة أن يعارضوا أتقن تأريخ ونسب عند العرب، تأريخ ونسب جريا على أتقن طريقة وأوضح حقيقة تكون في فلسفة التأريخ وفلسفة النسب.

الشيخ: الحال في بناء الكعبة ونسب الإسماعيليين أوضح من أن يحتاج إلى هذا التطويل، وأجلّ من أن تمسّ حقيقته وأوهام التعصّب وبواعث الأغراض...

فلنرجع إلى طرد كلامنا الأول، وقد ذكرنا قوله تعالى في سورة الحجّ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^٢. وقال بعد ذلك - جلّ اسمه - في الآية ٢٧ و ٢٨: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ وهو قصد البيت لأجل طاعة الله وعبادته على ما شرعه.

﴿يَأْتُونَكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ ويحضروا ﴿مَنْفَعٍ لَهُمْ﴾ وما جعل سبباً مقتضياً لانتفاعهم به في الدين والدنيا؛ فينتفعون به إذا لم يحلّ دون النفع حائل من جناية الإنسان والوقت.

ومن ذلك أنّ الحجّ يكون فيه لصلاح الإنسانية مؤتمراً عامّاً متبادلاً في كلّ سنة، لم يوكل أمره إلى فكر المندوب وحال انتخابه، يتجرّد فيه أعضاؤه لمدافعة الشخصيات وأسباب الغوايات، وللتوصّل بالاتحاد في الهيئة والأحوال وجهاد النفس إلى تحقيق

١. هو كتاب جليل في باه، بكر في طريقته، فائق في إتقانه وإطلاع مصنّفه، وهو الشيخ رحمة الله الهندي. وقد ذكر أنّه ابتداءً في تصنيفه في رجب سنة ١٢٨٠، وأتمّه في ذي الحجة من السنة المذكورة. في مقابلة أهل الكتاب، وأجاد فيه وحقّق، فلتغتنم رؤيته. وقد تعدّدت طبعاته، والموجود عندي ما طبع بمصر سنة ١٣١٧ في ٤٤٤ صحيفة بالقطع المتوسط (منه ﷺ).

الاتحاد المعنوي الاجتماعي، والسير في شؤونه على حقيقتها.

في حال تذكّرهم ضعف الضعيف، وحاجة المحتاج، وعناء القيود على من لا يجد سبيلاً إلى دفعها.

في حال تنازلوا فيها عن رسوم الكبرياء وامتيازات الجبروت والثروة والرئاسة.
في حال كونهم في قيد المحكومية والمسؤولية لقادر قاهر عادل.

في حال تمثّل لكلّ واحدٍ من كلّ شأنٍ من شؤونه وشؤون غيره، وفي كلّ آن أبلغ خطيب وأصدق واعظ ناصح لا يخطئ ولا يتساهل، بل ترى في كلّ آن وكلّ شأن من شؤون الجمع والأفراد خطيباً هاتفاً وواعظاً ناصحاً عمومياً في ذلك المؤتمر الحميد.
أحسن مؤتمر يقتضي اختيار الإنسان للصلحات، وتوجّه فكره وعواطفه نحو صلاح الإنسانيّة وسعادة المستقبل وحسن الاجتماع السعيد، قد هبّ الله بالحجّ هذه الأسباب الحميدة.

ومن المنافع اجتماع الناس من أطراف الأرض مع العباد الصالحين من أئمّة الدين والعلماء العاملين، أولئك الذين يتنوّر بهداهم فكر المستهدي، ويتنبّه بمشاهدة فضلهم وصلاحهم الغافل، وينهج المقتدي ويرتاح بإرشادهم طالب الحقّ، ويستضاء بنورهم في نهج الهدى، ويثبت ببركتهم اليقين، وتزاح ببيانهم علل الجهل والشكوك، وتغتم فوائدهم بركاتهم في سبيل الصلاح والإصلاح.

ولكن يبالأسف، لازالت أفعال الإثم تكذّر الموارد التي صفاها الدين، والله المستعان.
ومن المنافع ما يقوم به كلّ واحد من أفعال الحجّ في جهة تأديب الإنسان وتمرينه على الصلاح وكرم الأخلاق، وتهذيب النفس زيادة على ما فيها من الطاعة لله وإقامة الشعار لأوّل بيت وضع للناس مشعراً ومنسكاً في العبادة الإلهية التوحيدية، وأداءً لحقّ كرامته، وإبقاءً لتذكاره، واستدامةً لبركاته ومنافعه، وتذكّار أولياء الله القائمين بدعوة التوحيد والإصلاح، وتكميل البشر.

ونسأل الله أن يوقننا للإهلال ببيان ذلك على الحكمة في الجزء الرابع من هذا الكتاب، والله وليّ التوفيق وهو أرحم الراحمين وله الحمد أولاً وآخراً.

فهرس الموضوعات

٥	دليل الموسوعة
٧	مقدمة التحقيق

الجزء الأول: بحوث في التوراة والإنجيل

١٨	التسمية بالأب عند النصارى
١٩	نسبة الاستراحة إلى الله تعالى في التوراة
٢٠	جمعيّة كتاب الهداية والتوراة
٢٠	عدن، ودجلة، والفرات
٢١	نهى آدم عن الشجرة والكذب، والحية والصدق
٢٣	هل عندالله جلّ شأنه كذب وغشّ؟
٢٤	القرآن ميزان الحقّ
٢٦	الله ليس بجسم ولا يخفى عليه شيء
٢٧	الله هو القادر الواحد القهار
٢٨	سرنديب و آدم
٢٩	عمانويل والكتب
٣٢	قصّة ولدي آدم، والتوراة وخللها، وتراجمها وتحريفها
٣٤	جمعيّة كتاب الهداية، والصدق والأمانة

- ٣٥ حديث بابل، والبليلة
- ٣٥ نار نمرود في بابل، وإبراهيم النبيّ
- ٣٩ اضطراب نسخ التوراة والأناجيل في النَّسَب
- ٣٩ اجتماع مع واحد من علماء النجف
- ٤٠ السامريّ في العربيّة شِمْرُونِي في العبرانيّة وغيرها
- ٤٢ التوراة وهارون والعجل
- ٤٤ سليمان والعهد القديم
- ٤٦ كتاب ثمرة الأمانى للنصارى
- ٤٩ خرافة الغرائق
- ٥٣ الجمعيّة، هاشم العربي، الغريب بن العجيب
- ٥٤ خطاب الله لإبراهيم عليه السلام، واختلاف العهدين
- ٥٥ شكّ إبراهيم عليه السلام في التوراة، والكلام المشوّش
- ٥٦ إيمان إبراهيم عليه السلام، والحجّة الواضحة في القرآن
- ٥٦ الملاك والله والتوراة
- ٥٧ إبراهيم والله والملائكة في التوراة
- ٥٩ كرامة القرآن
- ٦١ الختان في التوراة والعهد الجديد
- ٦٢ عبد المسيح في كتابه، والختان
- ٦٣ مَنْ هو ابن إبراهيم الوحيد؟
- ٦٥ التوراة وبركة يعقوب وما جرى فيها
- ٧١ إرسال الله لموسى، والتوراة
- ٧٢ حاشا جلال الله من التعليم بالكذب
- ٧٣ لا خُلّف في وعد الله جلّ شأنه
- ٧٤ كتب العهد القديم، وجلال الله تعالى عمّا يصفون

- ٧٦..... اختلاف التراجم وتحريف بعضها.
- ٧٧..... الله ليس جسماً مرثياً.....
- ٧٧..... القرآن ميزان الحقيقة.....
- ٧٨..... من الغلط في التوراة العبرانية.....
- ٧٩..... القرآن المجيد ونبيّه.....
- ٨٠..... جلال الله وقُدس أنبيائه، وأقوال المهدين.....
- ٨٢..... جرأة وسوء أدب.....
- ٨٤..... ذبح النساء والأطفال في التوراة.....
- ٨٥..... رحلات بني إسرائيل، والتوراة.....
- ٨٧..... النبيّ الموعود به في التوراة.....
- ٨٨..... المسيح والأنجيل.....
- ٩٠..... راكب الجمل، وتحريف المترجمين.....
- ٩١..... من أبناء الغيب في القرآن.....
- ٩٣..... القرآن، والمسيح، والتثليث.....
- ٩٤..... التوراة، ومن يقول: لم أجد لزوجتي بكارة.....
- ٩٥..... التوراة والطلاق.....
- ٩٦..... زوجة الأخ، والتوراة.....
- ٩٨..... العمل بالتوراة.....
- ٩٩..... فداء المسيح من لعنة الناموس.....
- ١٠٢..... كيف يكون المسيح هو الله؟.....
- ١٠٤..... غفران الله ورحمته، والكتاب المقدّس.....
- ١٠٦..... القرآن والتوبة والغفران.....
- ١٠٧..... فداء المسيح من لعنة الناموس والعدل الإلهي.....
- ١١٢..... حفلة وظريفة.....

- ١١٣..... العهد الجديد يعيب العهد القديم
- ١١٥..... تمجيد العهد القديم للشريعة
- ١١٧..... توبيخ على سوء البحث
- ١١٩..... خلوّ التوراة من ذكر يوم القيامة
- ١٢٠..... هل يمكن أن لا تكون التوراة محرّفة؟
- ١٢١..... الشواهد الداخليّة من التوراة على تحريفها
- ١٢٤..... هل يساعد التأريخ على إمكان تحريف التوراة؟
- ١٢٦..... تأريخ بني إسرائيل من كُتّب العهد القديم وغيرها
- ١٢٩..... دعوى جَلْقِيَا أَنَّهُ عَثَرَ عَلَى التوراة
- ١٣٢..... بعض شواهد التحريف
- ١٣٦..... عوداً إلى دراسة الكتب
- ١٣٧..... سِفْرُ يَشُوع - يوشع - ومناحة بني إسرائيل على موسى
- ١٣٨..... مَن كَتَبَ الأناجيل ومتى كُتبت؟
- ١٣٩..... مَن هو وما هو مَتَّى؟ ومَن هو وما هو يُوحَنَّا؟
- ١٤٠..... أحوال التلاميذ الاثني عشر
- ١٤٢..... من هو مَرْقُس ومَن هو لُوقَا وما هما؟
- ١٤٦..... صحّة الأناجيل خطر على قدس المسيح
- ١٤٨..... الأمر الأوّل: الأناجيل والطلاق
- ١٥١..... الأمر الثاني: الاحتجاج لأحوال القيامة
- ١٥٢..... الأمر الثالث: الاحتجاج للقيامة
- ١٥٤..... من احتجاج القرآن على القيامة
- ١٥٤..... الأمر الرابع: احتجاج في الإنجيل عن المسيح
- ١٥٥..... الأناجيل و قدس المسيح
- ١٦٠..... سوء الأمثال في الإنجيل

- ١٦٣..... تعليم الإنجيل وضرورة المدنية والاجتماع
- ١٦٤..... العفو ونظام الاجتماع، والقرآن.....
- ١٦٦..... نسب المسيح.....
- ١٦٨..... إنجيل متى والعهد القديم.....
- ١٧١..... هل يكون في كُتُب الوحي انتهاب؟.....
- ١٧٣..... سَيِّدُ عُنَى ناصرياً.....
- ١٧٤..... لا يغلط كتاب الوحي.....
- ١٧٥..... متى، صوتُ صارخٍ، وخلله.....
- ١٧٧..... اعتماد المسيح وحال إبليس معه.....
- ١٧٨..... من الاختلاف في الأناجيل.....
- ١٨١..... الناموس والمسيح.....
- ١٨١..... نقض الناموس وتوحيته والاختلاف.....
- ١٨٢..... منقولات العهد الجديد عن العهد القديم والاختلاف.....
- ١٨٥..... الأناجيل والعهد القديم والاختلاف.....
- ١٨٧..... كتاب أعمال الرُّسل واختلافه مع العهد القديم.....
- ١٩٠..... تصرّف التراجم.....
- ١٩١..... رسالة رُومِيَّة واختلافها مع العهد القديم.....
- ١٩٥..... رسالة كُورنثُوس الأولى والعهد القديم والاختلاف.....
- ١٩٧..... كُورنثُوس الثانية والعهد القديم والاختلاف.....
- ١٩٨..... رسالة غَلَاطِيَّة والعهد القديم والاختلاف.....
- ١٩٩..... رسالة العِبرانيين والعهد القديم والاختلاف.....
- ٢٠٠..... نتيجة أمر العهد الجديد.....
- ٢٠١..... أحوال بُولُس.....
- ٢٠٤..... أحوال برنابا وحقيقة إنجيله.....

- ٢٠٧..... تعاليم النصرانيّة بعد المسيح
- ٢٠٨..... إخوة المسيح في العهد الجديد
- ٢٠٩..... الاختلاف في التعليم
- ٢١٠..... رسائل بولس
- ٢١٠..... لماذا ساد التعليم المنسوب إلى بولس بإبطال الشريعة؟

الجزء الثاني: دراسة معارف الإسلام من القرآن والتأريخ

- ٢١٧..... دين الإسلام والقرآن
- ٢١٨..... ملخّص تأريخ الإسلام من بدء دعوته إلى حين انتشاره
- ٢١٨..... دعوة الإسلام
- ٢٢٠..... حروب رسول الإسلام
- ٢٢١..... حرب بدر وأسبابها
- ٢٢٢..... غزوة بني القينقاع
- ٢٢٢..... حرب أحد
- ٢٢٢..... تأكيد العهد مع اليهود وجلاء بني النضير
- ٢٢٢..... حرب الأحزاب
- ٢٢٣..... غزوة بني قريضة
- ٢٢٣..... حرب بني المصطلق
- ٢٢٣..... صلح الحديبية
- ٢٢٤..... حرب خيبر
- ٢٢٤..... فتح مكّة
- ٢٢٤..... حرب هوازن
- ٢٢٥..... حرب مؤتة وحرب تبوك
- ٢٢٥..... سراياه وتجريداته

- ٢٢٥ سيرة محمد في دفاعه
- ٢٢٦ دعوة المسيح في بني إسرائيل
- ٢٢٧ استعداد المسيح للدفاع بالسيف
- ٢٢٨ خلاصة الكلام في دفاع الإسلام
- ٢٢٩ الإسلام والمسيح
- ٢٣٠ النظر في دين الإسلام ورسالته وقرآنه
- ٢٣١ مثلنا الشيخ محمد علي عن ناحية القرآن والإسلام
- ٢٣٧ برّ المسيح بوالدته المقدّسة والأنجيل
- ٢٣٨ ما هو معنى كون القرآن مصدّقاً لما مع أهل الكتاب؟
- ٢٣٩ القرآن مُصدّق لما بين يديه من الكتاب ومُهيمن عليه
- ٢٤٠ مامعنى كون القرآن مُهيمناً على ما بين يديه من الكتاب؟
- ٢٤٣ لا مُبدّل لكلمات الله
- ٢٤٦ التوراة فيها حكم الله
- ٢٤٧ ما هو الذكّر الذي يحفظه الله؟
- ٢٤٨ تعليم القرآن بالأخلاق الفاضلة
- ٢٥٥ مذهب داروين في أصل الأنواع
- ٢٦١ داروين والتنازع في البقاء لحفظ الصفوف العالية
- ٢٦٤ مذهب داروين ومزاعم الأعضاء الأثرية
- ٢٦٥ الزائدة الدودية في المعاء الأعور للإنسان
- ٢٦٧ أنداء الذكور
- ٢٦٨ الآلات الحجرية الصوتية
- ٢٦٩ دلالة المصنوعات على إرادة صانعها وعلمه بالغايات وقصده لها
- ٢٧١ مقدّمات: احتجاج القرآن على وجود الخالق العليم
- ٢٧١ المقدّمة الثانية: بداية وجود الخالق

- ٢٧١ المقدّمة الثالثة: الحاجة إلى الشريعة.
- ٢٧٢ المقدّمة الرابعة: الحاجة إلى تعلّم الأخلاق الفاضلة.
- ٢٧٢ المقدّمة الخامسة: التحرّز من الوقوع في المضرة.
- ٢٧٣ المقدّمة السادسة: عموم الدعوة إلى الله الواجب الوجود.
- ٢٧٣ موجد العالم عالمٌ بالغايات.
- ٢٧٦ الدكتور يمثل المادّيين.
- ٢٧٧ حقيقة المادّة، أحادثة أم أزليّة؟
- ٢٨٠ بطلان فرض التسلسل والدور.
- ٢٨٢ حدوث المادّة مهما كانت.
- ٢٨٢ الوجود بعد عدم.
- ٢٨٥ عبدالله الإباحي، والتناقض.
- ٢٨٦ كلمات عصريّ وجوابها.
- ٢٨٨ رمزي وعمانوئيل.
- ٢٩١ الوجوب والإمكان والامتناع.
- ٢٩٥ عتابٌ وجوابٌ.
- ٢٩٧ بطلان فرض الجواهر الفردة.
- ٣٠١ لا يوقف بالتعليل إلّا على واجب الوجود.
- ٣٠٢ الجواهر الفردة لا تكون واجبة الوجود.
- ٣٠٨ الأثير لا يكون واجب الوجود.
- ٣٠٨ موجد هذا الكون المنتظم عالم بغاياته.
- ٣١١ كرامة القرآن في حججه، خلق العالم وخلقته الإنسان.
- ٣٢٢ من حجج القرآن الكريم.
- ٣٢٤ النظام الأرضي وعجائب غاياته.
- ٣٢٤ البحار وعجائب غاياتها.

٣٢٩	الأرض اليابسة
٣٣١	احتجاج القرآن الكريم بخلق الأرض وما فيها
٣٣٨	عقبات دون الاعتراف بالخالق
٣٤٢	العلة الأولى الأزلية الفاعلة للإيجاد
٣٤٣	كرامة القرآن في حجته وتوبيخه
٣٤٣	واجب الوجود للعالم
٣٤٦	الأقانيم الثلاث، والردّ عليها
٣٤٧	امتناع تجسّد الإله
٣٥٠	امتناع الحلول والاتحاد
٣٥٢	الإله لا يلد
٣٥٥	نفي التعدّد والشرك من الإله
٣٥٧	احتجاج القرآن
٣٦٥	كرامة القرآن في حججه وتعليمه
٣٧٣	العقول العشرة والفلاسفة
٣٧٤	واجب الوجود خالق الكائنات بقدرته وإرادته
٣٧٥	بيان الإشارات الواقعة في أجزاء هذا الكتاب إلى ما في العهدين

الجزء الثالث: دفاع عن العقيدة

٣٧٨	الإبداء وحدوث المادّة والصورة
٣٨٦	التأويلات الموهومة لـ «ستة أيام»
٣٨٨	الصورة والمادّة، ومزاعم الجواهر الفردة
٣٩١	القرآن الكريم ومزاعم المادّة وخبالاتها
٣٩٢	تنمّة في احتجاج القرآن على الإلهيّة
٣٩٤	كرامة العقل وتسويلات الإلحاد

- ٣٩٦..... تسويلات ابيقورس
- ٣٩٨..... الآلام والأوجاع
- ٣٩٩..... من فوائد خلق الإنسان والحيوان على هذا النظام
- ٤٠٣..... شبهة الجبر
- ٤٠٣..... متشابهات القرآن وشبهة الجبر ومحكماته وإيضاحها
- ٤١٥..... في الحسن والقيح العقليّين
- ٤١٨..... التشكيكات في الحسن والقيح العقليّين
- ٤٢١..... في النبوة العامّة وإرسال الله للرسل
- ٤٢٢..... في الشريعة
- ٤٢٣..... التشريع البشري
- ٤٢٥..... الرسالة العامّة في القرآن الكريم
- ٤٢٧..... الرسالة في أقطار الأرض
- ٤٣٠..... تنبيهات
- ٤٣٢..... صفات الرسول في القرآن الكريم
- ٤٣٤..... دعوى النبوة والرسالة حيث ترد بدلائل كذبها
- ٤٤١..... دعوى النبوة والرسالة المسموعة وحجّتها
- ٤٤٢..... في المعجز حجّة النبوة والرسالة
- ٤٤٧..... تنوع المعجز بحسب الحكمة
- ٤٤٩..... في ماهية النفس وإمكان بقائها بعد الموت
- ٤٥١..... المادّيات والحقائق الروحيّة والتعليل
- ٤٥٤..... الآراء المادّيّة في النفس، ونقدتها
- ٤٥٥..... مناجاة الأرواح
- ٤٥٨..... تشبيه النفس ومعارضته
- ٤٦١..... ما هذا التناقض!؟

- ٤٦٢..... كلام العلماء النفسيين وقرضهم منه.
- ٤٦٣..... النفس تثبت مزيتها واستقلالها في بعض أعمالها.
- ٤٦٥..... إرادة النفس ونزعاتها.
- ٤٦٧..... أعمال النفس تثبت وجودها المستقل ومزيتها الخاصة.
- ٤٦٩..... استدلال المتكلمين في النفس.
- ٤٧٥..... في المعاد الجسماني.
- ٤٨١..... الأديان والكتب والقيامه.
- ٤٨٢..... العهد الجديد والقيامه.
- ٤٨٣..... الإنجيل والبرزخ.
- ٤٨٥..... المعاد الجسماني في المهدين.
- ٤٨٩..... لماذا كان المعاد جسمانياً لا روحانياً فقط؟
- ٤٩٠..... بعض وجوه الحكمة في كون المعاد جسمانياً.
- ٤٩٦..... النيمان الجسماني والروحاني، وبيان القرآن في ذلك.
- ٤٩٨..... المغالطات في المعاد الجسماني وجهنم.
- ٤٩٩..... المغالطات في المعاد ومسؤولية النفس.
- ٥٠٠..... في النفس والعقل.
- ٥٠١..... في تعليل الأعمال والأفعال.
- ٥٠١..... المزاج وأعوانه.
- ٥٠٢..... السحنة ودلالاتها الطبيعية.
- ٥٠٣..... أوهام التعليل بالحاجة.
- ٥٠٣..... أوهام التعليل بالبيئة أو المحيط.
- ٥٠٤..... من تجتمع فيه التعليلات الموهومة.
- ٥٠٦..... الأخلاق والتفكير.
- ٥٠٨..... تأثير التفكير في الوجدان.

- ٥٠٩.....إحداث التفكير للوجدان
- ٥١٠.....قدرة الإنسان على تغيير أفكاره وتعديلها وصرف النفس عن نزعاتها الجسدية ...
- تعليم القرآن الكريم... في فلسفة الأعمال والتروك ورجوعها إلى اختيار النفس
- ٥١٢.....في التفكير
- ٥١٣.....من المغالطات في المعاد
- ٥١٥.....من المغالطات الكاذبة
- ٥١٧.....ضعف الإرادة وقوتها
- ٥١٨.....مقاومة التجارب والإغواء
- ٥٢٠.....مخادعات الأهواء
- ٥٢١.....العقاب في المعاد
- ٥٢٢.....في المعاد
- ٥٢٤.....في المعراج وصعود البشر إلى السماء
- ٥٢٧.....الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى
- ٥٢٨.....في الحجّ في دين الإسلام
- ٥٢٨.....مكة وتاريخها وحجّة القرآن له